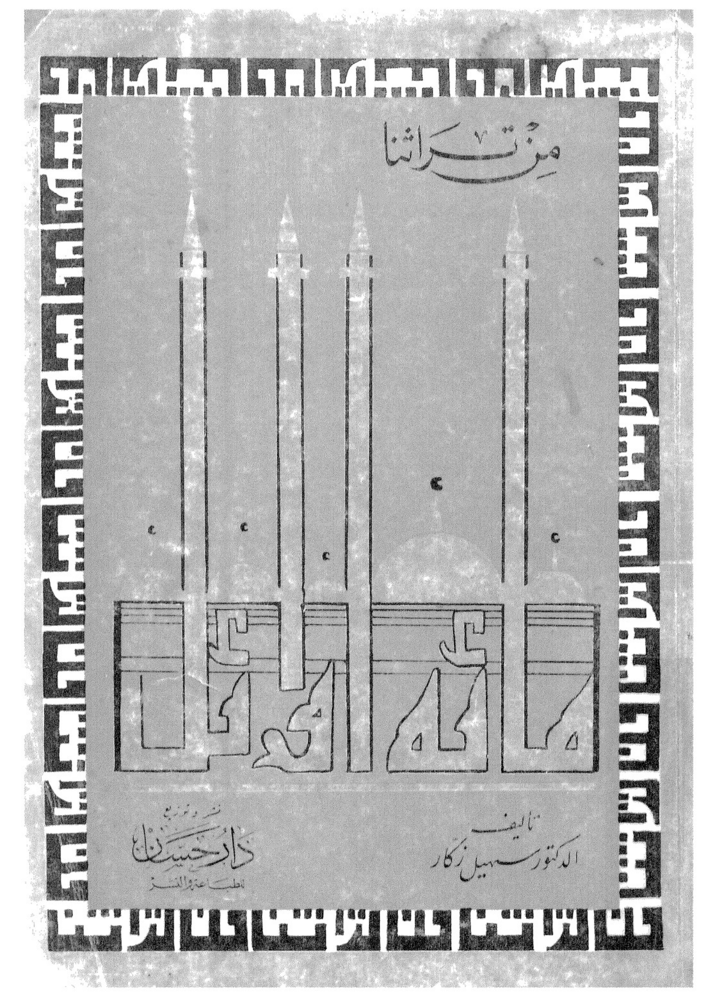
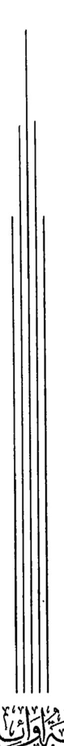

من تراثنا ٧
تأليف
الدكتور سهيل زكار
نشر وتوزيع
دار حسان
للطباعة والنشر




مائة أوائل
من تراثنا

الطبعة الثانية
(معدلة ومنقحة)
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

دار حسان للطباعة والنشر
دمشق ـ هاتف ١١٠٣٦٢ ص.ب ٣٢١٨

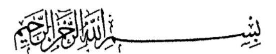
الدكتور سهيل زكّار



بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب
ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين
يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

سورة يوسف «١١١»



المقدمة

فطر الانسان على الرغبة في معرفة أوائل الأشياء وهام في التعرف الى جلائل الأعمال ، وعظيم الانجازات ، فقد كان وما زال يسأل : من أول من فعل ، ومن أول من اخترع ، ومن أول من سبق ، ومن أول من نجح ومن أول ، ومن أول ..... ؟

وهـذا الاهتمام الفطري تطور مع الأيام ، ورافق تطور الحضارات ، وتفاعل مع حركات جمع الأخبار وتدوينها تاريخياً ، وعندما صار التاريخ يحوي عـدة فنون ، غـدا من بينها فن أخبـار الأول أو الأوائل ، ولعـل المؤرخ الكلاسيكي بلوطرخوس المولود في منتصف القرن الأول للميلاد هو من أقدم المؤرخين الذين وصلنا نتاجهم في هـذا الفن ، فقـد كتب كتاباً عرف باسم « العظماء » تحدث فيه عن عظماء اليونان والاغريق والموازنة بينهم [ترجمه للعربية ميخائيل داود عام ١٩٢٨] .

ودون الوقوف طويلاً أمام نتاج العصور الكلاسيكية في هذا الباب ، لننتقل الى الحديث عن هذا الفن في الأدب العربي، على أساس أن علم التاريخ عند العرب نشأ نشأة مستقلة ، وتطور بشكل اسلامي أصيل ، بفعل المؤثرات العربية ومقتضيات الأحوال .

والعـرب اهتموا بالحديث عن الرجال الأوائـل في حياتهم ، وأبدعوا عبارات لغوية خاصة لهذا الفن ، فهناك من اهتم بالأوائل من رجال الكرم أو

الشجاعة ، أو الوفاء ، أو المعمرين ، أو الشعراء وسواهم ، وحين تفرد أول من الرجال بصفات عظيمة شاملة كان يوصف بأنه أمة وحده ونلاحظ مثل هذا الوصف في الحديث النبوي الشريف ، حين وصف النبي ﷺ أكثر من انسان بأنه سيبعث أمة وحده .

ومن الملاحظ ان تصنيف الأوائل قد خطا خطوات واسعة في العصر النبوي ومن بعده الراشدي ، فلقد صحب النبي ﷺ عدد كبير من الرجال والنساء ، ولكن تميز بين هؤلاء عشرة فقط وهم الذين عرفوا « بالمبشرين بالجنة » .

ورقم عشرة بحد ذاته مهم ، فنحن عندما نقرأ أخبار السيرة النبوية نلاحظ في البداية اعتماد النظام الستيني في التصنيف مع النظام العشري ، ففي بيعة العقبة الثانية كان عدد النقباء اثنى عشر نقيباً ، ومع الأيام يبدو أن النظام الستيني قد أهمل شأنه وزاد الاعتماد على النظام العشري ، وتطور هذا الحال مع تطور الادارة الاسلامية ، وقيام حركات التدوين والتصنيف .

ومن المعتقد أن القصائد العشر الطوال ، أو ما عرف باسم المعلقات العشر واحد من أقدم الأمثلة على جمع الأوائل وتصنيفها حسب النظام العشري ، هذا ومن الملاحظ في نفس الوقت أن بعض الكتاب المبكرين صنف في فن الأوائل بشكل عام دون اعتماد على أي نوع من النظام الحسابي ، كما فعل محمد بن حبيب المتوفى عام ٢٤٠هـ/٨٦٠م في كتابه «المحبر» ،وكذلك الحسين ابن محمد بن أبي معشر (٢٢٠ ـ ٣١٨ هـ) في كتابه « الأوائل » والمدائني والطبراني وسواهم،ولكن عندما ترسخت قواعد التصنيف عند العرب نجد أن الكتاب قد التزموا بالتصنيف العددي ، ولعل من أشهر من كتب ـ ووصلنا كتابه ـ في هذا الفن أبو هلال العسكري ، فقد صنف في جملة ما صنف ، كتاباً دعاه باسم « الأوائل » قال في مقدمته : (وقد رأيت أكثر الخاصة ، وجل العاملة لهجين ، بالسؤال عن أوائل الأعمال ، ومتقدمات الأسماء والأفعال ، ولم يجدوا في ذلك كتاباً يجمع فنونها ، ويحوي ضروبها بأخبارها ، وشرح

وجوهها وأبوابها ، إلا نبذاً متفرقة في تضاعيف الصحف، وابتداء الكتب، لم تذكر أسبابها ، ولم تشرح أبوابها ، فعملت كتابي هذا مشتملاً على هذا النوع من الأخبار وحاوياً لهذا الفن من الآثار ، مشروحاً ملخصاً ، ومهذباً مخلصاً ، لا يشوبه كـدر ولا يرهق وجهـه قتر ، ليكون عوناً على المذاكرة ، وقوة للمناسمة وجعلته عشرة أبواب) .

وغير العسكري نجد أبا الفرج الأصفهاني قد صنف كتابه « الاغاني » ليشرح ويعالج قضية « مائة صوت » كان الخليفة الرشيد العباسي قد أمر في عهده باختيارها ، ثم أمر باختيار عشرة منها ، ثم ثلاثة ، ثم صوت واحد .

وكل هذا يفيد بأن فن الاوائل فن في أدب التاريخ العربي أصيل اعتمد في الماضي، لكن يبدو أنه أهمل في العصر الحديث ، ذلك أن أعمالنا في التاريخ وأبحاثنا فيه جاءت في البداية وما زالت إلى حد كبير مقلدة للأبحاث التي قامت في مدارس الاستشراق ، تسير على نهجها ، ولم تتخلص بعد من شراكها .

وفي هذا الواقع المرفوض هناك محاولات جريئة في الوقت الحالي لإعادة النظر فيما كتب حول التاريخ العربي وللعمل على كتابة هذا التاريخ بشكل مستقل أصيل علمي وحيادي يريد الوصول الى الحقيقة وتعليلها تبعاً لمقاييس نابعة من الفـكر العربي ، وقائمـة على تجارب هـذا الفكر الذاتيـة وليست مستوردة ....

فالعرب كان لهم منذ قيام الاسلام نظرتهم الخاصة الى التاريخ ، ومبادئهم الذاتية لتعليل حوادثه ، ونحن عندما نقرأ القرآن الكريم يمكن أن نلاحظ فيه وجود « فلسفة تاريخية خاصة » كما يمكن أن نستخرج مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف معالم أسس مدرسة عربية اسلامية لتعليل التاريخ .

إن هـذا الموضوع من الخطورة بمكان ، تكفي الآن إثارته في هـذه المقدمة على أمل العودة اليه ، والوقوف عنده بشكل مستقل ، إنما يجدر أن نذكر هنا أن كتابنا الذي أقدم له اليوم ما هو إلا محاولة للتأريخ لماضي أمتنا ، تبعاً لقواعد مدرسة فلسفية للتاريخ، اسلامية أصيلة .

ان الكتاب الذي أقدمه اليـوم للقارىء يبحث في قضايا تاريخ أمتنـا وماضيها من خلال أفراد ، وهو قد اتخذ الأفراد رمزاً لقضايا أسهموا هم فيها فأثروا وتأثروا ، إنه على هذا الاساس لا يمجد دور الفرد البطل في صناعة أحداث التاريخ ، ولكن بنفس الوقت لا يلغي هذا الدور ، بل يضعه في مكانه الطبيعي •

وجاءت فكرة الكتاب لأول مرة ، إثر صدور كتاب « المائة الأوائل » للدكتور مايكل هارت ، فقد جاء هذا الكتاب كمذكر ، وعلى قاعدة التحدي والاستجابة قـررت الشروع في صناعـة كتاب تراثـي حديث ، على أنـه الأول من نوعـه بالعربية كتب بروح علمية نقدية تحليلية • تراثي ينظر إلى التراث نظـرة شمولية عميقة ، ترى أن تراث العرب يشمل جميع ما أنتجـه العرب في ماضيهم العريق على أرض الوطن العربي منذ فجر التاريخ ، وهو بنفس الوقت اسلامي عربي ، علـى أساس أن الاسلام والعروبة صنوان ، فالعرب رغم ماضيهم العريق القديم قد دخلوا الباب العريض للتاريخ الإنساني مع قيام الإسلام وبوساطته ، والإسلام هو دين العروبة ، والعروبة بالنسبة للإسلام كالقلب بالنسبة للجسد ، فـلا الجسد يعيش بـلا قلب ، ولا قلب بلا جسد ••••

ثم إن الاهتمام بالتراث ، ليس جرياً على قاعدة جمع العاديات القديمة والتحف لتودع بالمتاحف ، ولكن من باب اتصـال الماضي بالحاضر ، وأن المستقبل لا يمكن قيامه بشكل أصيل فعال معطاء إذا لم يقم على قاعدة التراث الغنية ، فنحن أمة ابدعنا الحضارة الأولى ، وظللنا نحمل لواءها ، ولا نريد بل لا يمكن لنا أن ندخل الحضارة الحديثة عن طريق طفرة مستعارة ، فنحن نتاج من نتاج الماضي العربي ولسنا نتاجاً غربياً ، نعم نحن نتفاعل مع حضارات الأمم ونستفيد من تجارب سوانا ، لكن دون التخلي عن ذاتنـا ، فالعربي مخلوق أصيل ولا يمكن أن يكون هجيناً •

وحين خرجت فكرة الكتاب إلى حيز الوجود ، وبدأت في إعداد قائمـة بمائة أوائل ، وجدت أولاً :

أن النبي محمد ﷺ هو الأول المطلق في كل ميدان ومجال ، وهو ﷺ فوق أن يصنف مع غيره من البشر ، لأنــه لم يوجد ولن يوجد لــه نظير ، لهذا قررت افتتاح الكتاب بذكر سيرته العطرة ، والبحث في مراحل حياته ، والتنبيه على بعض مــن أعمالــه وانجازاتــه ، لأن الحديث الشامل عنــه مستحيل .

وبعد هذا العمل البديهي وجدت نفسي أمام حشد هائل من العظماء والقضايا ، وهنا كان الاختيار صعباً للغاية ، وكان لا بد من الاقتصار على أعلام الأعلام من كل فن وعلم ولون، لكن ما سهل المهمة : الرغبة في فتح ملف « كتابة التاريخ العربي » ، واثارة بعض قضاياه وليس كلها ، وهذا الملف يفتح للمناقشة والبحث بشكل علمي ايجابي، وهو عبارةعن دعوة للباحث والقارىء للبحث والاقتراح ، والنقــد البناء ، والتقويم بالمراسلة والكتابة وغير ذلك من الوسائل .

وبعدما تقرر اختيار الاسماء ، وأثناء العمل جرت تعديلات كثيرة الى أن أنجز هذا العمــل ، فجاءت مشكلة ترتيب هذه الأسماء ، وفي هــذا المقصد استخدمت معايير علميــة خاصة ، بأن صنفت المائــة الى مجموعات حسب الاختصاص الأشهر ، ورتبت كل مجموعة حسب سني الوفاة .

ورغم ذلك فإن هذا الكتاب يقدم « مائة أوائل » ولا يقدم « المائــة الأوائل » ، ونيتي تتجه إلى جعل ما جاء في هذا المجلد ألحقها كل عــام إذا يسر الله وأعان بمائة ثانية وهكذا .

وجاء البحث في كــل قضية علمياً ، قائماً على مصادر ووثائق شاملة فالعمل بالتأريخ اذا لم يكن وثائقياً قائماً على المصادر ، هو اختراع وابداع ، والاختراع والابداع مقبول في كل الميادين إلا في التاريخ لأنــه يقود نحو الزيف . ومع هذا لم أقم بتثبيت حواشٍ مباشرة بل اكتفيت بالحاق الكتاب بثبت بأسماء أهم المصادر والمراجع التي تم العودة اليها ، وحين فعلت ذلك كنت أتمسك بقاعدة مشهورة أن العلماء ــ وأنا تلميذهم ــ : مصدقون فيما يروون يمارون فيما يرون .

أرجو أن أكون قد وفقت بعملي ، وآمل أن يجد القارىء العربي والمسلم الفائدة في الاطلاع على أبحاث هذا الكتاب ، وأن يرى فيه حافزاً نحو زيادة المعرفة ، وعميق البحث العلمي الناقد للتوصل الى الصورة الأصح للماضي العربي ، في سبيل الكشف عن أوجه مجهولة من تراثنا الخالد .

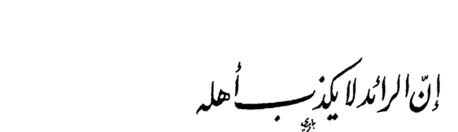
ولا بد لي من أن أشير هنا أن هذا الكتاب كان قد صدر للمرة الأولى بالتعاون مع الصديق أحمد غسان سبانو ، ولاقى آنئذ قبولاً جيداً من القراء بشكل عام ، لكن الأمر لم يخل من نصيحة من صديق ، ونقد شديد من متعصب ، فبعض الأصدقاء رأى ازالة جميع المترجم لهم من الذين وجدوا قبل الاسلام ، وكان هذا مطلباً استجبت له ، كما رأى بعض النقاد حذف بعض الأسماء الاسلامية مثل « قرمط » وبعض آخر رأى حذف « الحجاج ومعاوية وعائشة » وهذا مالم أستجب له ، لأنني أكتب لجميع القراء وليس لطائفة أو فئة ، أكتب وأنا ملتزم بالحياد العلمي جهد الطاقة وأنتمي إلى ماضي الأمة العربية والشعوب الاسلامية ككل وليس كبعض ، فأنا أومن بشكل مطلق بالوحدة ولا أعترف بالتجزئة مهما كانت ، وكباحث أجهد في التحليق فوق الحاضر المؤلم لأنني أنشد المستقبل الوحدوي التحرري المضيء .

إن ما تم ادخاله من تعديلات على الكتاب قارب الأربعين في المائة وقد حصره ذلك في اختصاصي، وسبب انسحاب الأخ سبانو منه ، لكن ليس من التعاون في أعمال أخرى ، فهذا مستمر بعون الله ، وختاماً أتوجه للأخ سبانو بشكري ، وإلى الاستاذ فواز بكدش وكيل كلية الفنون لتفضله بتصميم الغلاف وإلى الأخ الاستاذ عبد الهادي حرصوني لنشره الكتاب أولاً وثانياً ولأصحاب دار الملاح وعمال الطباعة لديهم .

والحمد لله « الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » والصلاة والسلام على مثلي الأعلى ورائدي الأول سيد العرب والبشر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

سهيل زكار

دمشق في ١٩٨٢/٣/١


إنّ الرائد لا يكذب أهله

النّبي محمّد صلى الله عليه وسلّم

(ت : ١١ هـ / ٦٣٢ م)

وإنك لعلى خلق عظيم

القلم الآية ٤

ولد النبي محمد ﷺ عام ٥٧١ م ، في مدينة مكة ، التي هي إحدى كبريات حواضر شبه جزيرة العرب ، وجزيرة العرب هي رقعة شاسعة من الأرض في آسية ، تمتد جنوباً الى شواطىء اليمن وشمالا الى بلاد الشام ، وغرباً الى خليج العقبة فسواحل البحر الأحمر ، وشرقاً الى أطراف عمان والبحرين ، فالبصرة وشط العرب ، ورغم مكانة موقع شبه الجزيرة هذا واحاطة المياه بها ، فقد قست عليها الطبيعة ، فالمياه بها قليلة ، والأمطار شحيحة ، وقد انعكس هذا على سكانها ، من حيث الطباع ونمط الحياة ، فقد اتسم هذا النمط بعدم الاستقرار ، وبسيطرة الطبيعة البدوية عليه ، لهذا كان سكان شبه الجزيرة أكثرهم بادية وأقلهم حاضرة ، وفي التاريخ القديم لشبه الجزيرة قامت مواجهة بين قلة الموارد وتكاثر السكان ، وادى هذا الى جعل شبه الجزيرة واحدا من أعظم الخزانات البشرية عبر التاريخ ، تدفقت منه موجات من المهاجرين غطت بمدها الشام والعراق ومصر وشمال افريقية، وكان أهم هذه الموجات وأبعدها تأثيراً تلك التي تمت في القرن السابع مع قيام الاسلام وبسببه .

وقطن أكثر الحاضرة في جنوب شبه الجزيرة وأقلهم في الشمال ، في مدن قامت إما في احدى الواحات ، أو في واحد من المواقع ذات المكانة الدينية والتجارية في آن واحد ، ومنذ القرن الخامس ، كانت مدينة مكة أبرز مدن

شبه الجزيرة تجارياً ودينياً ، حيث تحكمت بقيادة العمل الديني ، كما احتكرت صناعة المال، ومعلوم أن من ملك المال ملك السيادة، فكيف به إذا ملك زمام العقيدة مع المال ...

من الصعب تتبع تاريخ مكة بشكل وثائقي ، انما هو على العموم ارتبط بالبداية بنبي هو ابراهيم الخليل عليه السلام ، قام ببناء البيت العتيق فيها الذي عرف باسم الكعبة ، ثم أخذ بمدارج الشهرة والتأثير مع زعيم كاهن تاجر هو قصي بن كلاب ، وأخيراً احتل مكان الصدارة في تاريخ العالم مع نبي وقائد مشرع ورجل دولة من الطراز الأمثل هو النبي ﷺ .

ففي القرن الخامس للميلاد استولى على مكة رجل نصف تاريخي عرف بقصي بن كلاب ، فأسكنها تجمعاً قبلياً من قبائل كنانة وسواها ، وذلك حسب نظام اجتماعي قام على أساس الثروة ثم الدين ، وخلال ما يقارب القرنين من الزمن سار مجتمع مكة نحو تكوين وحدة قبلية عرفت باسم قريش، وحواشيها باسم الأحابيش ، وتطور الحال السياسي فيها من قاعدة القبلية البدوية نحو جمهورية التجار السدنة ، وأدواتهم في جميع المجالات .

وتبعاً لقاعدة كل تطور ، لقد مر ذلك خلال صراعات كبيرة ، رواها لنا الاخباريون تحت عناوين حروب واحلاف وزيادة ثروة ، وفقر واستغلال وضراع مرير عبر طرق القوافل العالمية نوعاً ومصدراً .

في هذا الجو ، وفي هذه المدينة ولد النبي ﷺ ، في عام تعرضت فيه مكة لأول مرة لغزو خارجي مؤرخ ، قام به جيش من الأحباش كان حليفاً للامبراطورية البيزنطية ، وقد أراد هذا الجيش الاستيلاء على ثروات مكة ، وتحويل كعبتها إلى كنيسة ، وفتح جبهة عسكرية جديدة ضد الامبراطورية الفارسية التي كانت هي في صراع مع بيزنطة وأخفقت هذه الحملة ، ودمر الله رجالها ، وجاء ذلك فرصة جديدة لمكة ، أكدت فيها قوتها وجبروت زعاماتها ، وعلو مكانة كعبتها فوق جميع كعبات ومعابد الوثنية في شبه الجزيرة .

وأثناء تعرض مكة لمحنتها برز عبد المطلب بن هاشم كزعيم أول لمكة

وثيق الصلة بالكعبة ، سلاحه الأول الشجاعة والأخلاق مع شيء من المال ، ولم يسلم رجال مكة الأكثر ثراء لعبد المطلب ، وكان أهم هؤلاء بنـو أمية ومخزوم ، وكيما لا يقف بنو هاشم وحدهم في وجه بنو أمية تحالفوا مع قبيلة تيم من قريش، وهي قبيلة كانت فيما سلف أدنى مكانة من الناحية الاجتماعية ، لكنها حصلت مؤخراً ثروة كبيرة على يد واحد من رجالاتها عرف باسم عبد الله ابن جدعان ، وفي دار عبد الله بن جدعان عقد الحلف الهاشمي التيمي ، ورد بنو أمية ومخزوم على هذا الحلف بحلف مضاد عقدوه مـع قبيلة عدي من قريش التي شابهت تيم ، ثم مدوا فروع هذا الحلف الى أرستقراطية الطائف ورؤساء القبائل في شبه الجزيرة ، وحتى إلى خارج شبه الجزيرة •

ضمن هذه المعطيات ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، يتيم الأب ، فاحتضنه جده عبد المطلب ، وقام ـ على قاعدة ارستقراطية مكة ـ بدفعه الى مرضعة بدوية من بني سعد ، عرفت باسم حليمة ابنة ذؤيب ، ولدى حليمة ، وعبر خمس سنوات ، رضع محمد ﷺ الحليب ، ونال حظه من الهواء النظيف واللغة السليمة ، والعادات القويمة ، وبعدها عاد إلى أمه وجده •

وبعد عودته بقرابة عام سافرت به أمه الى يثرب ـ المدينة ـ لزيارة أخوال جده ، وفي طريق العودة توفيت ، فأصبح يتيم الأبوين يرعاه جده ، ويسهر على تربيته ويؤثر فيه ، ولما بلغ الثامنة من عمره توفي جده ، فدخل مرحلة اليتم الحقيقية التي أشار الله تعالى اليها بقوله : « ألـم يجدك يتيماً فآوى » ، وكان المأوى هذه المرة بيت عمه أبي طالب وكان أبو طالب فقير الحال معيلا لأسرة كبيرة ، وكان بين اخوانه من هو أغنى منه مثل العباس ومثل أبي لهب الذي « ما أغنى عنه ماله وما كسب » ، لكن ما من واحد من هؤلاء مدّ اليه يد العون •

وكان أبو طالب يكافح في سبيل لقمة العيش ، ويسافر في رفقة القوافل ، لهذا استعان بابن أخيه ، واصطحبه معه أثناء عمله داخـل مكة وخارجها ، وهكذا زار محمد ﷺ بقاع الجزيرة والشام وربما غيرها من البلدان ، فنال

بذلك خبرة ومعرفة جغرافية ، وثقافة عامة ، وعرف كيف يكافح من أجل العيش ، وعانى من الاستغلال وعاش مشاكل أمته وعصره ، فرأى جشع الأثرياء ونهمهم ، وأمضى وقتاً طويلاً مع العوز والحرمان ، وأبصر عن كثب الصراع بين الديانات ، وشهد عن قرب محاولات بعض بني قومه البحث عن المخرج عن طريق ما عرف بالحنيفية .

وهكذا جاء خريج مدرسة الحياة ، عنده المقدرة والجلد مع الصبر والعزيمة ، فكان عصامي النفس ، مرهف الاحاسيس ، جياش العاطفة ، صلب المبنى ، واضح الرؤى ، كريم الخلق أميناً بلا سلبيات ، يتألم لشقاء الآخرين ويسعى بكل جهد لازالتها .

وعندما بلغ سن الشباب ، أخذ يشارك في نشاطات مكة التجارية ، والمدنية والحربية ، فلفتت مواهبه أنظار المكيين اليه ، وكان بين هؤلاء خديجة بنت خويلد التي كانت « امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال » وقد تشاركت مع محمد ﷺ وأدى نجاح أعمالهما الى الزواج ، وكان هو في الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هي أرملة ربما تقاربه في السن أو تزيده قليلا .

وكان لحادث زواجه من خديجة كبير الاثر على حياته ، فقد وضع هذا الزواج حداً لعوزه وفقره ، ورفعه إلى موقع المسؤولية التجارية والادارية كما منحه الوقت للتفكر .

وأحب محمد زوجته الهادئة المجربة الرزينة ، وتعلق بها تعلقاً شديداً ، وبادلته هي نفس المشاعر ، وكانت تفهمه وتثق به ، لذلك منحته الفرصة للانقطاع طويلا للنظر في أمور الكون ، وللعمل في سبيل اعداد نفسه ، والتهيؤ لتحمل أعباء رسالة أراد الله تعالى بها اسعاد البشرية ورفع الظلم والحيف ، ونفي الضلال عنهم .

وتدعى فترة الانقطاع في حياة محمد ﷺ باسم «التحنف أو التحنث» أي العمل للخروج من الحنث الى جادة الصواب ، وقضى جل خلواته في غار خارج مكة عرف باسم « حراء » . وفي الخلوات استطاع أن يقهر قوة الذات ، ويزيل

« الأنا » من نفسه ويتحول إلى الغيرية بلا حدود،وعندما وصل الى هذه الحالة جـاءه الوحي برسالة السماء ، فطوى بذلك الطور الأول من حياته ، وبدأ الطور الثاني ، وهو طور بالغ الخطورة لا بالنسبة له فقط ، وإنمـا بالنسبة للعرب والبشرية جميعاً منذئذ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها •

ولقد مرّ الطور الثاني من حياة النبي محمد ﷺ بمرحلتين هما : المكية والمدنية • ففي المرحلة المكية وهي الأولى بداية وطولاً ، تمّ تبليغ مبادىء الرسالة الإلهيـة « الجديدة الخاتمة » التـي عرفت باسم الإسلام ووضعت قواعدها وبنيت مقاصدها وأهدافها ، وشهدت المرحلة الثانية تطوير ذلك كله مع التطبيق العملي •

وبدأ تاريخ الإسلام بنزول الوحي على « النبي الجديد » ، « خاتم الأنبياء » بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ثم أخبره بأنه رسول الله الواحد الأحد ، الى قومه والى البشر كافة ، وأن عليه تبليغ الرسالة وإنارة السبل ، وإرشاد الناس قولاً وعملاً الى الطريق القويم الذي شرعه الله ولم يشرعه البشر ، فالله خلق البشر ، وهو سيرعى خلقه بشرعه كاملة توافقهم بلا استثناء : لوناً ، وزماناً ، ومكاناً ، والمقصد من نزول هذه الشريعة هو هداية البشر الى الطريق الأقوم عبادة وسلوكاً ، نظرياً وتطبيقياً قولاً وعملاً •

وكان نزول الوحي للمرة الأولى على النبي امتحاناً قاسياً، لكن بعد أن اعتاد عليه ، وترسخت معالم النبوة في نفسه ، أخذ يبشر بما جاءه من عند الله ، فآمن به عدد من الرجال كان أولهم أبو بكر ، أبرز رجال قبيلة تيم آنئذ ، ومع تطور العمل الدعوي لدى النبي ﷺ تطورت معارضة قريش له ، وخاصة عندما بدأ ينادي بالإصلاح الاجتماعي والمساواة ومنع الظلم والاستغلال ، وبعدما أعلن الحرب على المرابين من أصحاب الأموال ثارت زعامة قريش وأخذت تضطهده وتعذب كل من آمن به •

ومرت السنوات الأولى من الدعوة ، واستخدمت الارستقراطية المكية جميع الأدوات من ترغيب وترهيب ضدهـا فأخفقت واعتمدت الارستقراطية

القرشية في عملياتها على دعم حلفائها لهـا وخاصة بني عدي ، الذين آلت زعامتهم الى عمر بن الخطاب •

لقد كانت معركة بين حلف الفضول وخصومه ، لذلك هدف النبي ﷺ نحو تحطيم حلف الارستقراطية ، وبعد جهد طويل أفلح في ذلك ، حين دخل عمر بن الخطاب الإسلام ، وفور اعتناق عمر للإسلام احتل المرتبة الثالثة بين جماعة المسلمين بعد النبي ﷺ وأبي بكر •

وإثر ذلك ازدادت شراسة الارستقراطية ، وتحرج وضع النبي وأتباعه في مكة حرجاً شديداً ، واقتنع النبي وصحبه بأن فرص النجاح في مكة باتت ضئيلة ، وأخـذ النبي يبحث عن مخرج ، وهنا اقترح عليه أحـد المسلمين الاستيلاء على مكة على حين غرة ــ أو بعبارة أخرى ــ إحداث انقلاب عسكري في مكة ، ومـع تقدير النبي لصدق نوايا صاحب الاقتراح ، وتأثـره بشدة اندفاعه العاطفي ، رفض الفكرة باصرار ، ذلك أنه كان نبياً « ثورياً » ، وليس « وصولياً » ، هدفه السلطة ، فقد سبق له أن أعلنها مدوية « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هـذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » •

وأمام اشتداد المحنة ، سمح النبي ﷺ لأتباعه بالهجرة الى الحبشة ، وأخذ هو بدوره يتصل بالاعراب وسواهم أيام المواسم ويعرض عليهم دينه وعقيدته ، فانتشر ذكره في بلاد العرب وعمّ بين قبائلها ، وسعى النبي ﷺ نحو التحالف مع قـادة بعض القبائل من ثقيف الطائف وسواها ولكن الترابط الارستقراطي بين زعامات القبائل وأرستقراطية مكة حال دون نجاح مسعاه ، وهنا توجه ببصره نحو يثرب ، التي هي مدينة على بعد حوالي مائتي ميل من مكة ، والى الشمال منها ، وقد قامت ضمن واحة زراعية ، جل انتاجها من التمر ، وسكنت المدينة آنئذ من قبل يهود وعرب ، وكان هناك صراع بين اليهود والعرب أساسه اقتصادي اجتماعي سياسي ، ثم أن العرب تألفوا من

قبيلتين رئيسيتين هما : الأوس والخزرج ، وكانتا في صراع دائم حول السيادة في يثرب ، ولم يكن بالمدينة كعبة ولا أرستقراطية تجارية •

واتصل النبي ﷺ بحجاج من أهل المدينة وأثمرت الاتصالات عن اسلام بعضهم ، ثم بانتشار الاسلام في يثرب ، وبعد عمل دعوي منظم وضعت الترتيبات لهجرة النبي ﷺ وأصحابه من مكة الى المدينة ، وحدث هذا في سنة ٦٢٢ م ، وكان هذا الحدث من الخطورة بمكان ، لذلك اتخذه المسلمون فيما بعد منطلقاً لتقويم خاص بهم •

وفي المدينة صنعت انجازات كبيرة للغاية منها ايجاد نواة أمة عقائدية حل فيها رابط الإسلام محل رابطة الدم والنسب ونظمت العلاقات الداخلية بين أفرادها والعلاقات الخارجية مع غيرها من الامم ، وصار النبي ﷺ سيد الأمة الجديدة وذلك بالإضافة لكونه نبياً ، وغدا مقر سكناه ودار دعوته وإدارته المسجد ، وتطلبت منه مهمته الجديدة مجهودات كبرى في التنظيم والحكم والادارة ، مع متابعة نشر الدعوة ، وبتولي النبي للسيادة الزمنية مع صفات النبوة فيه جعل المفهوم الديني ممزوجاً بالمفهوم الدنيوي ، وهذه ناحية تفرد بها هذا الدين الذي لم يفرق بين القصر والمعبد •

وما أن استقر به الحال في يثرب حتى أخذ النبي يخطط لاستخدام القوة المسلحة ضد خصومه من قريش وسواهم ، وكانت حاجته ماسة للسلاح ، وقد استطاع تأمين أول كمية كبيرة من الاسلحة بعد غزوة بني النضير واجلائهم ، وبعد ستة أشهر من غزوة بني النضير خاض المسلمون أول معركة فاصلة في تاريخهم ، حيث هزموا على أرض بدر قوات القرشيين ، وبعد بدر خاض المسلمون عدة معارك أخرى قادتهم أخيراً نحو فتح مكة ثم توحيد شبه الجزيرة ، ووضعها تحت ادارة مركزية •

ولم تكن الجزيرة وأمر اخضاعها شغل النبي الشاغل ، بل نجده يهتم بإيصال الإسلام الى البلدان المجاورة ويضع الخطط البعيدة المدى لنشر الإسلام في بقاع العالم أجمع ، وبهذا المنطلق تميز النبي محمد ﷺ عن غيره

من الرسل ، فالأنبياء الذين سبقوه جاؤوا برسالات محلية قومية ، فالنبي موسى عليه السلام أراد إخراج قومه من مصر وهدايتهم، والمسيح عليه السلام تبعاً للمصادر النصرانية ، إنما بعث لهداية الكباش الضالة من بني إسرائيل •

هذا ولا تقاس أهمية النبي محمد ﷺ وعظمته بالانجازات التي تمت في عصره فقط ، ولكن بما نتج عن هذه الانجازات ، وما تحقق بعده بقيام الفتوحات الكبرى ، وتأسيس دولة الإسلام العظمى الممتدة من داخل الصين وحتى خليج عمان ومن شواطىء المتوسط في الشام حتى جنوب فرنسة ومشارف روما ، مع انشاء الأمة العقائدية العالمية •

ولقد كان أثر هذا ، وما زال كبيراً للغاية على البشر وحضارتهم وثقافاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والعقائدية والعرقية والسياسية والحربية أيضاً •

وتأتي أهمية النبي محمد ﷺ في أنه أول مشرع في التاريخ قديمه ووسيطه وحديثه جاء ــ من عند الله ــ بالنظرية ، وقام بعد ذلك بالتطبيق ، لهذا لم يتغير جوهر التشريع الاسلامي ولم يتبدل قط ، وهكذا كان الإسلام واحداً ، وظل واحداً ، فليس في الإسلام « كنائس » ذات ديانات متباينة بالعقائد والتشاريع كما هو الحال في المسيحية مثلاً، في الإسلام مذاهب متفقة بالجوهر مختلفة حول بعض التفاصيل والألوان الخارجية •

وبات من المقرر علمياً أن الانسان بجوهره هو شيء واحد ، وان اختلفت ألوان وأشكال البشرة ، فهذا الخلاف ظاهري سطحي مفيد •

وتأتي عظمة النبي محمد ﷺ وخلوده في كونه قد نفذ جميع البرامج التي وضعها ، ووفى بجميع وعوده ، فعندما أصبح سيد الأمة الجديدة ، حقق ما دعا اليه من اصلاح اجتماعي واقتصادي ، حيث أوجد الإخاء ، وأحل العدل القائم على الشريعة الواضحة ذات المضامين الاخلاقية ، محل الظلم والاعتباط ، حرر المرأة ، وصان كرامتها ، وأحاطها بسياج من القدسية

والأخلاق ، وأوجد النظام ورفع من مكانة الارقاء ، وأوجد سبلاً كثيرة لتحرير الرق ، ومحاربة الشقاء والفقر ، وحض على العمل الدؤوب المخلص .

لقد أوجد النبي محمد ﷺ أمة جديدة ككل وكأفراد ، فعظمة النبي تظهر جلية في براعته في صنع القادة العظام من رجال كانوا عاديين قبله لقد أوجد النبي محمد ﷺ من العربي انساناً متحضراً بعقله وإيمانه ، وحسن أخلاقه ومثله وأماناته ، وسهر منذ بداية الدعوة على نشر الثقافة والقراءة والكتابة بين صفوف أتباعه ، فهيأ طبقة من الناس ستتمكن من إدارة الدولة الكبرى التي ستقام بعد وفاته .

وبفضل ما جاء به من نظم شملت جميع جوانب الحياة ، وما شرعه من قوانين اقتصادية ومالية واجتماعية وسياسية وقضائية وإدارية ، ثم بفضل إيجاده لفكرة الجهاد ، واحلال الحرب المقدسة الهادفة ، محل الحروب الداخلية وأعمال الغزو ، وبفضل إيجاده لشرعة الحرب التي استهدفت تحرير الإنسان وصيانته سواء أكان صديقاً أم خصماً . بفضل ذلك كله استطاع العرب المسلمون بعد وفاته بفترة وجيزة فتح معظم أجزاء بلاد العالم الوسيط ، ولم يحدث لعرب القرن السابع ما حدث لأسلافهم من المهاجرين الى خارج الجزيرة ، الذين امتصتهم حضارات البلدان التي هاجروا اليها ، أو مثلما حدث لوندال القرن الخامس وفيكونغ القرن العاشر ولمغول ما بعد القرن الثاني عشر ، واستطاعوا الحفاظ على شخصيتهم المتميزة لأنهم حملوا منطلقات حضارية جديدة تنبض بالحياة ، فتمكنوا من صهر الحضارات القديمة في بوتقة عربية ، وأخرجوها للناس حضارة جديدة ، ثم قاموا تحت ظل الإسلام بتطوير هذه الحضارة وتنميتها ،واضافة جوانب مبدعة كثيرة عليها .

والآن حين أخذ الناس يتعرفون بشكل علمي الى تاريخ الاسلام وحضارة المسلمين ، لاحظوا بإكبار ودهشة أن كل خلجة وحركة تمت في ماضي المسلمين جلي فيها الأثر الكبير للنبي ﷺ ، وفي هذا ريادة لا يعلوها ريادة وخلود ما بعده خلود ، ولم لا فالله تعالى قال وقوله الحق : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

أبو بكر الصّديق رضي الله عنه

(ت : ١٣ هـ / ٦٣٤ م)

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علــى أعقابكم ومن ينقلب على عقبيــه فلن يضــر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » •

(آل عمران : ١٤٤)

في السنة العاشرة للهجرة مرض النبي محمد ﷺ ، وطال مرضه واشتد فلزم بيتــه وفراشه ، ولم يعد يمكنه إمامــة المسلمين في الصلوات ، لذلك استخلف صاحبه أبا بكر وأوكل إليه القيام بقيادة الصلوات الخمس ، وحيث لم يشاركه أحد في هذه المهمة صار يعرف بكلمة واحدة هي « الخليفة » •

ويبــدو أن اشتداد مرض الرسول خلق في المدينــة جــواً من القلق والتوجس ، حيث طرح الكثير من المسلمين أسـئلة حول مستقبل الإسلام والمسلمين بعد النبي ، كما أثاروا مسألة قيادة الأمة ، ويبدو أن صدى هذه الأمور وصل إلى النبي ﷺ ، ومن المؤكد أن النبي ﷺ لم يقم بوضع أي حل ، لأن الحل كان موجوداً ، لذلك كان كل ما قام به هو التشديد بالوصية على التمسك بما جاء في القرآن الكريم ، وسبب ذلك يعود الى أن تسمية من يحكم المسلمين ويقودهم بعد وفــاة النبي مخالف لجوهر الإســلام ومنطق التاريخ ، مع التصورات السياسية للعرب آنئذ ، ذلك أن في التسمية توريث والأنبياء لا يورثون ، وفي الإسلام حاكم الأمة أيام النبي هو الله ، والنبي لم يقم باختيار هذا الحاكم ، بل الله تعالى هو الذي اختار رسوله لذلك تركت مسألة الادارة بعد النبي شورية اجتهادية في حدود ما رسمته الشريعة ،وتبعاً لهذا يبدو أن مجموعات من المسلمين اجتهدت حلولاً للأزمة المقبلة والنبي ما زال حياً كما كان حال الانصار •

وتوفي النبي ﷺ وعم خبر الوفاة المدينة وتجاوزها الى داخل الجزيرة وفور حدوث ذلك سمع أبو بكر بأن الأنصار مجتمعون خارج المدينة في مكان عرف باسم « سقيفة بني ساعدة » فبادر نحوهم يصحبه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، وفي السقيفة وجد أبو بكر وصحبه أن الأنصار أجمع رأيهم على اختيار سعد بن عبادة أميراً ، وتدخل أبو بكر فسبب انهيار هذا المشروع ، وقام عمر بن الخطاب فأعلن اختيار أبي بكر وليس ابن عبادة ، وتوجه أبو بكر وصحبه بعدئذ نحو المسجد ، حيث قام عمر باعلان عملية الاختيار هذه ، فرضي بها جلّ الحضور .

وعاشت المدينة ذاك اليوم رعباً شديداً ، وكان يوم اثنين انشغل به آل الرسول في تجهيزه لدفنه ، وأقبل يوم الثلاثاء وتجمع الناس في المسجد حيث وردتهم الأخبار تقول بأن قبائل من الأعراب ارتدت عن الاسلام وتريد غزو المدينة ونهبها ، وتحرك أبو بكر بسرعة وحزم ، ومتّن شعور المسلمين بالخطر الخارجي من موقفه ، فأسكت كل أصوات المعارضة ، وهكذا شرع في إعداد أعمال الدفاع عن المدينة وإعادة الثقة والنظام ، ومر يوم الثلاثاء دون أن يدفن النبي ، وفي صباح يوم الأربعاء خرج العباس عم النبي على الناس وخاطبهم بقوله : « خلوا بيننا وبين صاحبنا فإنه يأسن كما يأسن الناس » ونتيجة لهذا تقرر دفن النبي حيث توفي ، ولقد وصفت عائشة أم المؤمنين الحال في بداية حكم أبي بكر بقولها : « توفي رسول الله ﷺ فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها ، اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ، فوالله ما اختلفوا في نطقة إلا طار أبي إلى أعظمها في الإسلام » .

قام أبو بكر بعد انتخابه وبيعته على منبر النبي فخطب الناس ، وأعلن عليهم برنامجه ، وحيث كان قبل وفاة النبي يعرف بالخليفة فقد ظلّ يحمل نفس التسمية بعد الوفاة ، وهكذا ولدت مع بيعته مؤسسة الخلافة الاسلامية الشهيرة .

وبعد دفن النبي قام أبو بكر بإرسال جيش أسامة ، وهو جيش كان

النبي قد أعده قبل وفاته ، وبعد هذا شرع في إعداد الجيوش لإعادة السيطرة على شبه الجزيرة ، وكان لدى أبي بكر أداة عسكرية جبارة لا نظير لهـا في شبه جزيرة العرب ، وهذه الأداة صنعت من قِبَل النبي ﷺ وتدرب رجالها على يديه لمدة عشر سنوات ، وخلال معارك كثيرة ، وكانت حسنة التسليح ، جيدة النظام ، قوية العقيدة تحسن فنون القتال الصاعق ، وكان أبرز قادتها خالد بن الوليد ٠

وبسرعة فائقـة قضي على ردة الأعراب ، وعادت الوحـدة والادارة المركزية لشبه الجزيرة ، وأثناء هذا وضعت الترتيبات اللازمة لتنفيذ أوامر النبي وخططه في فتح العالم ونشر الاسلام ، وكان لشبه الجزيرة جبهتان بريتان رئيسيتان تصلها ببلدان عالم القرون الوسطى ٠

وقام أبو بكر بإرسال جيش نحو العراق وثلاثة نحو بلاد الشام ، وكانت مهمة جيش العراق الاتجاه شرقاً حتى الصين والهند ، ومهمات جيوش الشام : الأول ساحل المتوسط حتى القسطنطينية ، والثاني فلسطين فمصر فالشمال الأفريقي ، والثالث سورية المجوفة حتى أعالي بلاد الرافدين ــ الجزيرة ــ فأرمينية فشواطيء البحر الأسود ٠

لقد شغل أبو بكر منصبه لمدة عامين ، حدثت خلالهما تطورات كبيرة وتحولات خطيرة على كافة مستويات الحياة لدى المسلمين ، وشملت جميع جوانبها ، فعلـى الصعيد العسكري حقق المسلمون نجاحاتهم الأولـى في الفتوحات على الجبهتين البيزنطية والفارسية ، ودرت هذه الفتوحات مرابح كبيرة عليهم ، وتدفق العرب الى خارج الجزيرة بجماعات كبيرة ، وأدى هذا إلى الشروع في تغيير البنية البشرية لمنطقة الشرق الأوسط ، وذلك مع البنية الجغرافية السياسية والدينية، ولأول مرة اصطدم الإسلام وجهاً لوجه بمشاكل جديدة وخطيرة لم تكن مطروحة من قبل ، كما اصطدم بديانات وعقائد وفلسفات الشرق المختلفة ، فبدأ يخوض ضدها معارك كانت من أشرس معارك التاريخ ، حيث منها ما كان صراعاً مكشوفاً ، ومنها ما كان باطنياً ، وقد خرج الإسلام من هذه المعارك منتصراً ، بفضل القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لأن فيهما طرائق حرب المواجهة وحرب النفاق ٠

عمر بن الخطّاب

(ت : ٢٣ هـ / ٦٤٤ م)

حسبت أني كثيراً أسمع النبي ﷺ يقول :

ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر .

علي بن أبي طالب ـ صحيح البخاري

مرض أبو بكر رضي الله عنه المرض الذي توفي فيه ، ويقال أنه عيّن أثناء ذلك عمر بن الخطاب رضي عنه ولياً لعهده بموجب وصية ، فكان أول خليفة أقدم على ذلك في تاريخ الاسلام ، ويرى البعض أنه بوصية أبي بكر رضي الله عنه يمكن القول بأن ذلك كان بداية تحول في الفكر السياسي لدى العرب وفي استعداداتهم ، وسيتطور هذا التحول مع الأيام إلى درجة التخلي عن ديمقراطية القبيلة ، وشورى الاسلام ، والقبول بفكرة الملكية الوراثية ، والأوتوقراطية الدينية المطلقة .

وير ىالبعض بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسلم زمام الأمور مع مهام الخلافة فور وفـاة أبي بكر ، بلا معارضة ، لا بموجب وصية ، ولكن ذلك أن أمراً مقرراً ومعترف به ومسلماً لـه منذ أيام النبي ﷺ ، فأبو بكر كان « ثاني اثنين » ، وعمر بن الخطاب صار بعـد اسلامه ثالثهما ، وذلك بموجب القواعد التحالفية القبلية ، وهي قواعد لم يزلها الاسلام ، وتمسك بها عمر وسعى الى تطويرها ، كما سنبيّن .

وحقق العرب في عهد عمر رضي الله عنه نجاحاتهم الكبرى في الفتوح ، وواجهت الدولة مشاكل خطيرة للغاية استطاع عمر بما أوتيه من طاقات أن

يحلها بنجاح جميعاً ، ونظم عمر ادارة الدولة وراقب موظفيه وعماله مراقبة شديدة ، حالت بينهم وبين استغلال مناصبهم للظلم والثراء غير المسوغ ، وتنبه لقضية الجند ، فراقب كبار القادة ، ولم يمكنهم من الثراء غير المشروع والاستغلال ، ومنعهم من التجرؤ على التدخل في شؤون السلطة السياسية ، أو مجرد التفكير بذلك ، ولعل عزله لخالد بن الوليد فيه دليل على هذا ، كما أنه قام في نفس الوقت برعاية مصالح الجند بشكل دائم ، فأوجد ديواناً خاصاً بهم ، وفرض لهم العطاء ، وكان بين آونة وأخرى يقوم بزيارة البقاع المفتوحة ، كما أنه كان على اتصال مستمر بواسطة البريد بكافة ولاته ، يعرف ما يجري في دولته ويراقبه عن كثب .

ومعلوم أن عمر رضي الله عنه حين استلم السلطة كانت الدولة الاسلامية الناشئة تجتاز مرحلة حاسمة ، وتواجه مشاكل خطيرة جديدة تحتاج الى حلول ، وتطلبت مثل هذه الحلول ممارسة الخليفة حق التشريع ، وكان أن يمنح انسان مثل هذه الصلاحيات بعد وفاة النبي بفترة وجيزة من الأمور الخطيرة . ولكن أما والكثير من المشاكل كان جديداً ، ليس له نظير بين مشاكل العصر النبوي ، كان لا بد من عمل ما ، وهنا تبرز صورة واضحة لفهم عمر ورجال عصره للإسلام ، كما تبرز عظمة عمر ومقدرته الادارية وعبقريته التنظيمية .

ومن هذه المشاكل ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ قضايا : المؤلفة قلوبهم ، والسواد ، ونصارى تغلب ، حيث كان النبي يدفع مبالغ كبيرة للمؤلفة قلوبهم ، وحيث قضت الأحكام بتقسيم الغنائم التي يحصل عليها المسلمون وفقاً لنسب حددها القرآن الكريم ، كما قضى الاسلام أن يدفع أهل الذمة من نصارى وسواهم من غير المسلمين الجزية دونما استثناء .

فبعد الاستيلاء على سواد العراق ، وفتح الجزيرة ، اقتضى تنفيذ الأحكام ، تقسيم أرض السواد بين المقاتلة ، ودفع قبيلة تغلب العربية الجزية أسوة ببقية سكان الجزيرة النصارى ، ولكن هؤلاء رفضوا دفع الجزية ، وأنفوا من ذلك ، كما أدرك عمر ما يمكن أن يلحقه تقسيم السواد من مضار

على حاضر العرب ومستقبلهم الاقتصادي والاجتماعي والعسكري ، فما كان منه إلا أن ترك قسمته ، ولجأ إلى إسقاط الجزية عن تغلب مقابل مضاعفة الصدقة على نصارى القبيلة ـ أي دفع ضريبة من نفس النوع الذي يدفعه المسلم إنما الكمية مضاعفة ـ أما بالنسبة للمؤلفة قلوبهم فقد أوقف الدفع لهم قطعياً .

إن في إقدام عمر رضي الله عنه على مثل هذا العمل ، يعني أنه قد منح نفسه صلاحيات تشريعية ، أوقفت الحكم بقوانين سابقة ، وأحلت محلها قوانين ـ تبعاً لقاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ـ وفي إقدام عمر رضي الله عنه على ذلك لم يعد خليفة بمعنى النائب « المتبع ليس المبتدع » وإنما غدا صاحب أمر وصلاحيات ، أو بالحري صار أشبه بأمير الجيش الذي حدد له قائده مهمته ، ورسم له خططه وأعطاه تعليمات خاصة ، لكنه في ساحة المعركة وأثناء التطبيق وجد جوانب كثيرة لم تشملها تفاصيل الخطة ، كما وجد من الضروري تعديل بعض جوانب الخطة ، ومخالفة بعض تفاصيل التعليمات ، إنما دون المساس بالجوهر والغايات الأساسية ، وفي الإطار العام للأهداف العظمى .

وربما لهذا السبب ، ولقيام هذا الحال ، تخلى عمر رضي الله عنه عن لقب خليفة ، ليكتسب لقب « أمير المؤمنين » وفي هذا التعبير مؤشرات تدل على تبديل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية ، خاصة وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة للحكومات الامبراطورية : فارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب ، فتركت بعض التأثير .

ومع امتداد الأيام ، واتساع رقعة الدولة وبروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر تقبلاً لإعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع ، ولاريب أن عمراً رضي الله عنه كان متنبهاً لذلك سلباً وإيجابياً ، لذلك أوجد القضاء والحسبة ، وبحث عن قاعدة للسلطة يرتكز عليها في اختيار « أمراء المؤمنين » وفي الصلاحيات التي يتمتع بها هؤلاء وهم في السلطة .

لقد رأى عمر رضي الله عنه أن الخلافة حق لقريش وحدها دون قبائل العرب ، وأنه لا يجوز لهذه المؤسسة أن تحتكرها عشيرة قرشية بشكل

دائم بل تتناوبها العشائر ، كما لا يجوز لأحد أن يستولي على السلطة افتئاتاً لحق الأمة وتسلطاً عليه وأباح دم من يقدم على ذلك . وبينما كان عمر يكمل هذا العمل ويعيد النظر في مسألة توزيع الموارد والثروات اغتيل ، فاغتيلت معه خططه ، كما انتهى بموته فترة من أزهى فترات التاريخ الاسلامي ، هي فترة النبوة وامتداداتها .

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قوي البنية ، مهاباً ، فيه غيرة المؤمن ، رقيق المشاعر والأحاسيس ، عبقرياً مؤمناً بالاسلام كل الايمان وساعياً نحو تطبيق مبادئه بشكل مثالي رائع ، لهذا حقق المسلمون في أيامه معجزة التاريخ الانساني العظمى ، ولهذا أيضاً ضاق بمثاليته الأعداءوالأصدقاء ، فتمنوا الخلاص منه لأنهم ظنوا ــ وبعض الظن إثم ــ أن موته سيفتح أبواب كنوز الثروات لكن مع أبواب الفتنة والتمزق .

ففي أواخر سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م طُعن عمر من قبل أبي لؤلؤة ، وتفيد شذرات الأخبار التي وصلتنا ــ لأن ملف قضية اغتياله أغلق فوراً وحفظ ولم يبحث به ــ أنه قُتل نتيجة لمؤامرة اشتركت فيها عناصر مثلت الديانات التي قهرها الاسلام أيام عمر وهي : النصرانية واليهودية والزرادشتية .

صحيح أن اغتيال عمر أنهى بشكل فعلي عصر الخلفاء الراشدين، وكان بداية انتكاسة مروعة ، لكن الإسلام ظل حياً يتقدمبنجاح، ذلك أنهفي رسالة السماء ، السلطة أداة من أدواتها ، وليس العكس كما الحال بالنسبة لجميع الديانات التاريخية والايدولوجيات الحديثة .

عثمان بن عفان رضي الله عنه

ــ شهيد القرآن ــ

(ت : ٣٥ هـ / ٦٥٦م)

في أواخر سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م ، طعن عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني ، من قبل أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، وعاش عقب طعنه بضعة أيام، قام أثناءها ببحث مستقبل الخلافة بعده ، ونظر عمر حوله ، فوجد سبعة من أصحاب رسول الله ﷺ العشرة المبشرين بالجنة ما زالوا أحياء وهم : علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، طلحة ابن عبيد الله، الزبير بن العوام، سعيد بن زيد، فأوصى بأن يجتمع ستة من هؤلاء (ذلك أنه أبعد سعيد بن زيد ، ربما لأنه كان ابن عمه، واستبدله بابنه عبد الله ليشارك كمراقب مرجح دون حق الترشيح) كي يختاروا من بينهم خليفة جديداً .

وحصر عمر لحق الخلافة في هؤلاء الستة الباقين من العشرة ، يعني أنه قد نشأ ــ أو تطور ــ في عهده مفهوم ، فيه مكانة خاصة لبعض الصحابة الذين كانوا مقربين من النبي ﷺ أكثر من سواهم ، ولقد كان هؤلاء العشرة يمثلون غالبية أسر قريش وبيوتها ، لذلك برزوا زمن أبي بكر وعمر ، وصارت لهم صفة شرعية رشحتهم لمنصب الخلافة .

وكان علي بن أبي طالب واحداً من اثنين من أبرز هؤلاء الستة ، ذلك أنه كان ممثل بني هاشم أسرة النبي ، آل البيت في الاسلام ، وأبرز أسر الزعامة القرشية في مكة قبل الاسلام ، ولقرابته من الرسول ، وصلته الخاصة به ، صحيح أن هذه الصفات كانت مرجحة لعلي ، إنما هي أيضاً كانت من بواعث الخصومة له عند جماعات من الناس ، كانوا قد ملوا حكم عمر ومثاليته، لهذا لم يكونوا على استعداد لقبول رجل يحكم بمثالية أشد وأرفع .

وكان عثمان بن عفان الرجل الثاني بين الستة في مواجهة علي ، فهو قد اعتبر ممثل أسرة بني أمية ، أسرة المال والزعامة المكية الارستقراطية الأولى قبل قيام الاسلام ، والتي رغم أنها هزمت هزيمة ساحقة يوم فتح مكة ، تسلم العديد من أفرادها أخطر مناصب الولايات والادارات بعد سقوط مكة للاسلام وأيام الفتوحات الكبرى في زمن أبي بكر وعمر .

وكان عثمان من أوائل المسلمين ، ومن أهل السابقة منهم ، أسلم مبكراً ، وقامت صلات قوية بينه وبين النبي ﷺ ، وكان ممن عذب في الإسلام ، فهاجر إلى الحبشة مع زوجه ابنة النبي ، ذلك أنه تزوج اثنتين من بنات النبي واحدة بعد وفاة أختها ، وهي منزلة لم ينلها غيره ، لهذا عرف بذي النورين ، وشهر عثمان بكرمه وتقديمه مساعدات كبرى للمسلمين والإسلام ، وكان عندما توفي عمر ، شيخاً مسالماً ، فيه طيبة ولين إلى حد الضعف المشوب بالعناد ، كما أنه كان كريم النفس محباً لاسرته وآله وكان بما تمتع به من صفات ، يرضي اتجاه السواد الأعظم من مسلمي المدينة وخاصة الاعيان منهم ، الذين نشدوا الثروة، واستغلال حركة الفتوح ، وأرادوا التعويض عن فترة حجرهم أيام عمر ، وكان لديهم تسويغ لذلك ، وهو أنهم يجنون ثمار كفاحهم في سبيل الاسلام .

واجتمع الصحابة الستة ، فوضحت منذ البداية معالم الصراع ، حيث أعلن أربعة من المرشحين عزفهم عن ترشيح أنفسهم ، مع احتفاظهم بحق التصويت ، وبذلك انحصرت المعركة بين علي وعثمان — أي عادت الأيام سيرتها الأولى ، إلى الصراع بين بني هاشم وبني أمية — وأوكلت الأمور إلى عبد الرحمن بن عوف لاختيار واحد منهما ، وقام عبد الرحمن باستطلاع أراء الناس ، فكان أن واجه تيارين ، واحد أقوى من الآخر ، التيار القوي : كان قد مل قسوة نظام عمر ، ورقابته المركزية الشديدة ، وكان يخشى من استئثار بني هاشم بالسلطة ، وقد استطاع هذا التيار أن يربح الجولة ، وهكذا تم اختيار عثمان بن عفان خليفة جديداً ، وأبعد علي ، فتمهدت السبل أمام بني أمية للسيطرة على مقاليد السلطة للأمة الناشئة ، والتحكم بها ، وآذن هذا بنهاية مرحلة من أهم مراحل تاريخ الاسلام ، وهي مرحلة التطبيق الأمثل

المخلص لمبادىء الاسلام ، لقد انهى ذلك عملياً عصر الخلفاء الراشدين ، الذي كان امتداداً لعصر النبوة ، وجـاء بفترة انتقال نحو استرداد الارستقراطية القرشية ، التي هزمت يوم فتح مكة ، لزعامتها وتسلطها ، على أن ذلك لم يحدث دون ردات فعل شديدة ، ودونما ثمن باهظ للغاية فكان أولاً على عثمان أن يدفعه بدمه ، وجاءت خلافة علي ، فكانت أشبه بايماضة الخمود ، « كما يقع في السراج المشتعل ، فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم اشتعال ، وهي انطفاء » .

وتسلم عثمان بن عفان الخلافة ، وباشر أعمال السلطة ، ويمكن أن نعتبر فترة حكمه قد مرت بمرحلتين : الأولى كانت استمرارية لعصر عمر بن الخطاب ، والثانية صبغت بشخصية عثمان ، وفي الفترة الأولى انجزت أعمال كبيرة كان في مقدمتها اكمال مشروع جمع سور القرآن وآياته وترتيبها واخراجها برسم معتمد واحد ، ولا شك أن هذا العمل الذي قام به عثمان يعتبر من أعظم ما تم صنعه في تاريخ الاسلام ، فهو قد أعطى القرآن حصانة مستمرة دفعت عنه كل محاولة للتزييف ، وحمته من أي عمل ابتغى التدليس ، ومما لا ريب فيه أن هذا العمل أثار نقمة شديدة على عثمان ، من قبل أعداء القرآن ، مما دفعهم للتآمر على عثمان ، وخلق المشاكل له ، مشاكل تضخمت حتى سببت هدر دم عثمان ، لهذا لا غرابة أن يدعى عثمان بشهيد القرآن ، لقد تسلم عثمان الخلافة في مرحلة حساسة من مراحل تاريخ الاسلام ، بحيث كان المجتمع الاسلامي ، يمر بنقطة تحول في حياته ، أتت إثـر نجاح أعمال الفتوحات العسكريـة ، وشروع الجند في الاستقرار بتحويل معسكراتهم الكبرى إلى مدن فيها جميع أوجه النشاط المدني ، ومعروف أن هذه المدن استقبلت كميات من المهاجرين الجدد في شبـه الجزيرة والبلاد المفتوحة ، وجرت محاولات لاقامـة حياة اجتماعية في المدن الجديدة ، فنجم هذا صراعات متعددة الأشكال والأسباب وقد ترتب على الخلافة مواجهة جميع المشاكل وايجاد الحلول الناجعة لها .

لقد اقتضى الحال ايجـاد مناهج سياسية واضحة وقدرة علـى تنفيذ هذه المناهج ، ويرى بعض الباحثين أن عثمان قد أدرك كل هذا ، أو على

الأقل بعضه ، وأراد مواجهة المشاكل بجهاز اداري يتعاون معه باخلاص ، لهذا عزل بعض عمال عمر بن الخطاب واستبدلهم جميعاً بأقربائه من بني أمية على أمل أن يخلصوا له ولقضيته عظيم الاخلاص ، لكن ذلك لم يحدث ، بل صارت حال عثمان حال كبير الأسرة ، أو شيخ القبيلة الطاعن بالسن ، يعاونه بادارته رجالات من الأسرة يتظاهرون أمامه بالاخلاص ، وحين يبعدون يستغلون اعتماده عليهم وثقته بهم أبشع استغلال .

بالأصل إن مثل هذا الحال له محاذيره بالنسبة لأسرة أو قبيلة ، فكيف هو بالنسبة لادارة امبراطورية مترامية الأطراف ، فقد أخذ كل واحد من رجالات بني أمية يعمل بحرية ، ويتصرف بلا روادع أو ضوابط ، وصار الآن على عثمان أن يسدد الثمن جميعه ..

فقد أخذت رسائل الشكوى وتقارير الاضطرابات في الولايات تصل الى عثمان ، وكان أهم المشاكل الآن يتعلق بقضايا الغنائم والموارد وكيفية انفاقها ، وفي إحدى المناسبات جمع عثمان عماله من جميع البلاد وأقبل عليهم يقول : « يا هؤلاء إنه قد كثرت شكايا الناس منكم ، فأما القريب فقد بادهني، وأما البعيد فما يألوا جهداً ، فما عندكم من الرأي ؟

قال : فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز ــ والي البصرة ــ وقال : يا أمير المؤمنين إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك ، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال ، فاعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك .

قال : ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ــ والي مصر ــ فقال : يا أمير المؤمنين ! إن لك على الناس حقاً في كتاب الله ، ولهم عليك مثل ذلك فادفع إليهم حقوقهم واستوفي منهم حقك ، فإن قد ولى أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين: أبا بكر وعمر، فسارا بسيرةفسر بسيرتهما واستن بسنتهما واعمل بعملهما يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد .

قال : ثم تكلم سعيد بن العاص ــ والي الكوفة ــ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما دعا الناس أن نقموا عليك إلا الحمّام والفراغ من الحروب وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث، فاشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو ، حتى لا يرجع أحدهم ــ إذا رجع ــ إلى منزله إلا وقد أهمته نفسه فلا يتفرغ لعيب الأمراء .

قال : ثم تكلم معاوية فقال : يا أمير المؤمنين إنك قد جمعتنا ، وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا . وأنت قد ملكتنا رقاب الناس ، وجعلتنا أوتاداً في الأرض ، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله ، حتى يكفيك ما قبله ولا يكون ها هنا شكاية أحد ، ولا ينقم أحد عليك .

وقبل عثمان رأي معاوية ، فرد عماله الى الولايات ، لكن الشكايات تطورت وضاقت نفس عثمان بها ، فصار سريع الغضب ، وشعر بعجزه عن إيقاف موجة التذمر التي تفشت في كل مكان بين المسلمين . ووقف منه الصحابة مع سكان المدينة موقف الناقد بشكل فيه كثير من السلبية ، كما أمعن أقرباؤه من الولاة فياستغلال لينهوطيبة قلبه وحبهلآلهوذويه،ورأى ذوو المطامح منهم أن الوقت قد حان للوثوب على السلطة لجميع بلاد الإسلام أو الاستئثار الأبدي بحكم ولاية من الولايات ، كما كان حال معاوية مثلاً .

وتحولت الشكايات الى أعمال عنف ، بدأت أولاً في الكوفة ووصلت الأمور ذروتها عام ٣٤ هـ / ٦٥٤ م . ففي هذا العام رجع سعيد بن العاص من الحجاز نحو الكوفة ، وذلك بعد اجتماعه بعثمان ، وعندما صار إلى مشارفالكوفة خرج أهل الكوفة عليه بالسلاح ، فتلقوه وردوه ، وقالوا : « لا والله لا يلي علينا حكماً ما حملنا سيوفنا » . وكانالأشتر النخعي مالك بن الحارث على رأس الذين تصدوا لسعيد ومنعوه من دخول الكوفة ورضخ عثمان لمطالب الكوفيين فعزل سعيداً ، وأقر تعيين أبي موسى الأشعري والياً على الكوفة بعد أن اختاره أهلها . وقد كان قبول عثمان لمطالب الكوفيين أول رضوخ في مجابهة عملية بين الخلافة والعناصر الثائرة ، وقد جرّت هذه

المجابهة وراءها أحداثاً جساماً ، تجلت في تحـــدي أوامر الخليفة كل حـــين والتفكير بخلعه •

والمشاكل التي أدت الى الثورة في الكوفة ، حدث ما يماثلها ـــ من حيث الجوهر ـــ في مصر ، وثار جند مصر وحمل وفد منهم احتجاجاتهم في عريضة عابوا فيها على الخليفة سياسته اللينة ، وتسلط أقربائه على رقاب الناس مع تبديد الأموال ، وهددوا باستعمال القوة والسلاح ، ان لم يستجب عثمان لمطالبهم ويحدث الاصلاح والتغيير المطلوب •

ولقد حال وجود معاوية في الشام ، دون انفجار للموقف هناك مثل بقية الأمصار ، والواقع أن معاوية لم يحل فقط دون الثورة في ولايته ، بل استفاد مما حدث ، واستغل معطيات ظروفه حيث وجد فيها الفرصة السانحة لتثبيت أركانه مع دعائم حكمه في الشام ، وتطلع نحو الانفراد الدائم بالحكم في الشام اعتماداً على جنده الذي كونه بنفسه ، ثم عرف كيف يغرس في قلوب هذا الجند الشامي الحب والولاء الأعمى له دون سواه ، ثـــم الايمان بقضيته والدفاع عنها ، والتفاني في سبيلها ، وحقق معاوية كل ذلك بفضل ما أوتيه من حنكة ومقدرة ، وبعد نظر ، ومطامح عرف كيف يخطط لتحقيقها •

وتجمع ثوار مصر مع ثوار الكوفة في المدينة ، وهناك لاقوا مساندة معتبرة من معظم سكان المدينة ، وكبار الصحابة فيها مثل الزبير وطلحة وعائشة أم المؤمنين ، وعندما أدرك عثمان عظم الثورة وحسن تنظيمها وأحقية مطالب رجالاتها اضطر الى الانصياع وحاول إيجاد مخرج يقيه ويقي سلطته ويحفظ الأمة من الفتنة ، وكاد أن ينجح في هذا السبيل ، لولا أن الثوار اكتشفوا ، أو بالأحرى تيقنوا ، من معرفة أن عثمان ما كان إلا حاكماً إسمياً ، وأنه كان فريسة أجهزته من بني أمية ، وهنا حاصروا عثمان في بيته ومنعوه من الخروج منه ، وحاولوا إجباره على التنازل عن الخلافة فأخفقوا ، لذلك قاموا أخيراً بقتـــله •

لقد كان عثمان آنذاك حاكم أكبر دولة في العالم وأقواها ، ومع ذلك لم

يكن لديه حرس خاص به ولم يكن له بلاطه ولا قصره ، بل كان كل ما ملكه للدفاع عن نفسه ، بالإضافة إلى عياله بعضاً من العبيد والموالي ، وعاش هؤلاء معه داخل داره التي يبدو أنها كانت واسعة عالية الجدران متينة الأبواب ، واستمر الحصار أربعين يوماً شاركت فيه قوى خفية محرضة كما أجج ناره كثيرمن أهل المدينة مهاجرين وأنصار ، وكان كبار القوم يحرضون أثناء ذلك على قتل عثمان أو يصمتون إزاء أصوات التحريض ، فهذه عائشة أم المؤمنين كانت تقول جهاراً : « أيها الناس ، هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبل وبليت سنته ، اقتلوا نعثلاً ، قتل الله نعثلاً » واشتد الحصار على عثمان وحاول علي ابن أبي طالب تدارك الموقف والحيلولة دون سفك الدمـاء فأخفق وحاول آخرون إيجاد مخرج فلم يفلحوا وكتب عثمان إلى عمال الولايات يستنجد بهم فتقاعسوا عن نجدته .

لقد أراد الجميع من أصدقاء وخصوم الخلاص من عثمان ، وأدرك هو هذا فخاطبهم بقوله : « لا تقتلوني ؛ فوالله لئن قتلتموني لا تقاتلون عدواً جميعاً أبداً ، ولا تقسمون فيئاً جميعاً أبداً ، ولا تصلون جميعاً أبداً » وأخذ العقلاء من المسلمين يزيحون عن أعينهم غشاوة الفتنة ، وهكذا بدأت تنتظم بعض المقاومة للثورة ، وبلغ الثوار هذا كما بلغهم مراسلة عثمان لولاة الأمصار فخافوا مغبة ذلك ، فألحوا في حصاره ومنعوه الماء ، ثم قاموا بحرق باب داره ودخلوا عليه الدار فقتلوه ، ولقد حدث هذا كله عام ٣٥ هـ / ٦٥٥ م .

لقد كان مصرع عثمان حدثاً جليلاً ، تم في فترة تحول عصبية من فترات التاريخ الإسلامي ، فترة التحول الأولى في حياة المجتمع العربي من الوثنيـة واللامركزية البدوية الى الاستقرار والتحكم الامبراطوري وصنـع أسس السياسة والحكم للأمة العظمى . ويبدو أن معظم الناس لم يدركوا كنه العصر الذي كانوا يعيشونه ومدى خطورة كل خطوة كانوا يقدمون عليها . ولهذا فإن مقتل عثمان حوّل مجرى التاريخ الاسلامي كله ، وأثر فيه أبعد التأثير . وما زال الإسلام والمسلمون يعيشون حتى الآن في اخطبوط نتائجه .

ومن المدهش حقاً أن مصرع عثمان لم يوصل الثوار إلى تحقيق أغراضهم بل عجل في انهيار نظام الشورى للخلافة الراشدة ، ومن ثم التحول بسرعة نحو الملكية المطلقة ، المهم أن عثمان ذهب ضحية ملابسات معقدة ، لكن ذلك لم يمح عظيم آثاره وانجازاته ، فكل مسلم في مشارق الأرض في الماضي البعيد أو القريب ثم في الحاضر والمستقبل سيذكره حين يقرأ القرآن ، ويقول رحم الله عثمان بن عفان فقد كان أول شهيد عظيم للقرآن الكريم •

علي بن أبي طالب عليه السلام

(ت : ٤٠ هـ / ٦٦١ م)

(أنت مني وأنا منك)

النبي ﷺ ـ صحيح البخاري

بعد وفاة النبي ﷺ ، واجهت الأمة الإسلامية عدة أزمات فيها تحديات كبيرة ، وبشجاعة كبيرة أخذت الأمة تشق طريقها ، واهتمت بشكل كبيرة في إيجاد منهجية للادارة والحكم ، تحت لواء أن السلطة إحدى أدوات الشريعة ، تساعد على تطبيقها فما من أحد يملك القدرة على زيادة حرف في القرآن الكريم أو حذف آخر ، وهذا حال نادر في التاريخ ، فكلنا يعرف أنه لولا اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية بمرسوم ميلان عام ٣١٣ م لاختلف مصير هـذه الديانة وتاريخها مع بنيتهـا العقائدية ، وفي عصرنا ماثلـة أمامنا قصة الشيوعية بين ماركس ولينين ثم خلفاء لينين ، وبين بلد وآخر •

وأثناء البحث من قبل المسلمين عن منهجية للسلطة ، تمكنوا من تحقيق معجزة التاريخ الكبرى ، ففتح المسلمون الأجزاء المهمة من العالم القديم ، ولأول مرة قامت الدولة الإسلامية المترامية الأطراف تجمع تحت ظل إدارة واحـدة ، ذات شرعة سماوية ، شعوباً وقوميات لم تعرف من قبـل سوى الصراعات والتباين الشديد •

وببراعة لا نظير لها تمكنت شريعة الإسلام من العمل على دمج الشعوب المتنافرة ، وسارت بها نحو تكوين أمة جديدة أساس التجنس فيها العقيـدة فكان ذلك أروع نهج نحو تحقيق فكرة الأممية الواحدة للبشرية •

ولم يحدث هذا طفرة ، ولم يمر بدون ثمن ، كان هناك تجربة السقيفة وتعيين عمر بوصية ، ثم اختيار عثمان من قبل شورى الستة ، وفي المقابل كان

هناك اغتيال عمر ثم مقتل عثمان من قبل ثوار المسلمين ، لكن ظل هناك توازن ولم يفلت زمام الأمور .

وبعد مصرع عثمان ، خلا منصب الخلافة من صاحبه ، وظل خالياً لعدة أيام ، أراد فيها الثوار مع بقية سكان المدينة تعيين خليفة جديد ، ولم يكن أمامهم غير علي بن أبي طالب ، بسبب شخصيته ومركزه في الإسلام وسابقته فيه مع قرابته من النبي ﷺ وعلاقته به ، فهو ابن عمه وربيبه وصهره، ووالد الأولاد الذكور من أسرته ، وكان علي مرشحاً لخلافة النبي منذ لحظة وفاته ، لكن سنه وظروفاً كثيرة حالت بينه وبين الوصول إلى السلطة .

وكانت مسؤولية علي الجديدة على جانب كبير من الخطورة والصعوبة فهو لم يكن يتمتع برضى جميع الأحزاب السياسية ، وكان عليه تثبيت سلطته وإيجاد حل للمشاكل التي سببتها الثورةعلىعثمان،وكان معنى هذا : القضاء على القوى المستغلة ، ذات الثروات، وإبعاد أفراد الأسرة الأموية عنمناصبهم .

وفي البداية اتخذ علي المدينة عاصمة له ، مع أن مقتل عثمان برهن على فقدانها لمكانتها السياسية المؤثرة ، فمنذ أواخر أيام عمر بن الخطاب تجمعت قوى الدولة الإسلامية في مراكز ثلاث رئيسية وهي : الكوفة والبصرة والجابية (الشام) ، ومع الثورة على عثمان أخذ كل واحد من هذه المراكز يعمل في سبيل احتكار زعامة الأمة الإسلامية ، بعد انتزاعها من المدينة .

وهكذا ما أن قتل عثمان وبويع علي ، حتى مضى إلى البصرة : عائشة وطلحة والزبير ، وإلى الكوفة ، علي بن أبي طالب ، وكان قد مضى على وجود معاوية في الجابية قرابة عقدين من الزمن ، وسعى علي مع العقلاء من الأمة نحو حل الخلافات سلماً فأخفق ، وهكذا وقعت واقعة الجمل ثم صفين .

في الجمل انتصر الكوفيون على أهل البصرة ، وكان جند الكوفة هو الذي تزعم الثورة على عثمان ، وقتله ، وعيَّن علياً في منصب الخلافة ، وهكذا كان حين دخل معركة الجمل سيد السياسة الرسمي في الدولة الاسلامية .

لقد تدخل جيش الكوفة في السياسة قبل الجمل ، فقضى على التوازن ، وبعد الجمل دخلت السياسة الى هذ االجيش فمزقته ، وهكذا عندما خاض الكوفيون معركة صفين أخفقوا في حيازة النصر ، وعادوا نحو العراق جيوشاً متحاربة •

وبعد العودة من صفين حاول علي جهده إعادة تجميـــع جيشه فأخفق ، وانشغل في حرب القوات التي انشقت من جيشه وخرجت عليه ، وظل حاله هكذا حتى اغتيل سنة ٤٠ هـ / ٦٦١م من قبل خارجي أسمه عبد الرحمن بن ملجم ، وقد أزاح اغتياله كل العقبات من أمام معاوية بن أبي سفيان،فاستولى على مقاليد الخلافة ، وهكذا هزم جند أهل الكوفة ، وأخفقت الثورة على علي ، وانتصر جند الجابية وتم هذا بفعل عدة عوامل على رأسها :

عدم التكافؤ بين الجيوش المتحاربة ، من ناحية الضبط والربط والنظام والطاعة والاخلاص ، ولعل أصدق ما يصور الفوارق بين جند الكوفة وجند الجابية قول علي : « لا رأي لمن لا يطاع » وقول معاوية : « كان علي في أخبث جند ، وأشدهم خلافاً ، وكنت في أطوع جند وأقلهم خلافاً » •

لقد كان علي أول خليفة للمسلمين ، بلا جاهلية ، نشأ مسلماً منذ طفولته المبكرة في بيت النبوة ، فشرب من ينابيع الإسلام العليا مباشرة على يد أخيه ، ومربيه ، وابن عمه ، ثم عمه فيما بعد النبي محمد ﷺ ، فكان فقيهاً مسلماً صرفاً ، رجل مبادىء ومثل بلا مداهنة ولا مساومة ، أوجد شرعة الحرب بين أهل القبلة ، ورفض الأخذ بالخداع السياسي ، وامتنع عن بذل أموال المسلمين لتقوية مركزه وشراء ضمائر الناس لمصلحة سلطته ، فهو لم يهدف من الحكم سوى رفع شأن الإسلام وتحقيق مبادئه في الغاء الظلم والاستغلال والفوارق•

وانتصر معاوية وبانتصاره انتهى عصر الخلافة الراشدة ، وهزمت دوافع

ثورة الإسلام مع الجهود التي بذلت لإزالة طغيان الرأسمالية القرشية، وانتصاره كان انتصار التاجر على الثوري ، وكان ذلك بداية السقوط ؛ فمنذ عام أربعين للهجرة والمسلمون يسعون للعودة إلـى مبادىء محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، لكن بدون نجاح ، فيالها من مأساة تاريخية مروعة ...

خديجة بنت خويلد

(ت : ٦١٩م ؟)

ما غرت على امرأة لرسول الله ﷺ ما غرت على خديجة مما كنت أسمع من ذكره لها .

وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين ، ولقد أمره ربه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب [لؤلؤ مجوف] لا نصب فيه ولا صخب .

عائشة أم المؤمنين

عندما بلغ النبي ﷺ سن الشباب ، أخذ يشارك في نشاطات مكة التجارية والمدنية والحربية والاجتماعية ، وبرزت شخصيته ، ولمع نجمه واشتهر بالاستقامة والأمانة والكفاءة .

ولفتت شخصية النبي ﷺ بمواهبها وطاقاتها وصفاتها أنظار المكيين إليه، وكان من بين هؤلاء خديجة بنت خويلد ، التي كانت تتصدر نساء قريش شهرة ومكانة وسلوكاً ، فهي قد كانت « امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه » .

وحصلت خديجة مالها مما ورثته من زوجيها ، فقد سبق لها أن تزوجت للمرة الأولى كما هو مرجح من رجل قرشي من بني مخزوم فتوفي عنها بعدما أنجبت منه ، ثم تزوجت ثانية ، ومرة أخرى توفي الزوج الجديد حسب أوثق الروايات ، وكانت خديجة امرأة عاقلة حازمة اعتنت برأس مالها الموروث فنمته عن طريق العمل التجاري .

وحين طارت شهرة النبي محمد ﷺ في مكة بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج متاجراً بمالها ففعل ، حيث توجه للمرة الأولى ــ كما هو مرجح ــ

إلى سوق حُباشة في تهامة مع قرشي آخر ، فرجع وقد حالفه التوفيق ، وسرت خديجة لذلك ، وأثر بها تأثيراً عميقاً ما رواه لها زميل النبي من أخبار كفاءته وخلقه ، وما لمسته من شهامته واستقامته وأمانته .

وتشجعت خديجة على استمرار التعامل مع النبي فسافر مجدداً إلى الشام ، وكان برفقته مندوب عن خديجة ، ومن جديد رجع النبي ﷺ موفقاً ، وروى مندوب خديجة لها مشاهداته مما عمق اعجابها بالنبي ، كما أن النبي أعجب بها ، وكان آنئذ في الخامسة والعشرين من عمره ، ولربما كانت خديجة في مثل سنه أو أسن قليلاً ، كل هذا رغم ما تذهب إليه الروايات العربية من أنها كانت في الأربعين من عمرها ، فسن الأربعين هو سن الكمال في الاسلام ، ولعل الرواة الأوائل رأوا في خديجة المرأة الكاملة والزوجة الأولى للنبي ، أن سنها ينبغي أن يكون الأربعين ، توافقاً مع فكرة الكمال هذه ، ناسين أنه من الصعب على امرأة في الأربعين أن تنجب بشكل طبيعي لا اعجازي سبعة أولاد من الذكور والأناث .

ومهما يكن الحال ــ فقضية السن هذه ليست أساسية ــ الأساسي في المسألة أن النبي أعجب بخديجة وشعر بأنها أيضاً تبادله ذات المشاعر ، فقرر خطبتها لنفسه والزواج منها .

وروى الزهري في مغازيه ــ وهو أقدم ما وصلنا من كتب السيرة وأوثقها ــ عن النبي ﷺ قوله : «ما رأيت من صاحبة أجير خيراً من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا . قال فلما رجعنا من سوق حباشة .... قلت لصاحبي : انطلق بنا نتحدث عند خديجة. قال : فجئناها ، فبينا نحن عندها ، إذ دخلت علينا مستنشئة من مولدات قريش ــ والمستنشئة الكاهنة التي تستنشيء الرجل ــ قالت: أمحمد هذا، والذي يحلف به إن جاء لخاطباً ، فقلت : كلا ، فلما خرجنا أنا وصاحبي قال : أمن خطبة خديجة تستحي ، فوالله ما من قرشية إلا تراك لها كفواً

قال : فرجعت إليها مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك المستنشئة ، فقالت :

أمحمد هذا ؟ والذي يُحلف به إن جاء لخاطباً ، قال : قلت على حياء : أجل . قال : فأرسلت خديجة وراء أختها ، فانطلقت إلى أبيها خويلد بن أسد .... فقالت: هذا ابن أخيك محمد بن عبد الله يخطب خديجة ، وقد رضيت خديجة ، فدعاه فسأله عن ذلك ، فخطب إليه ، فأنكحه ، قال : فخلّقته خديجة وحلّت عليه حلة ، فدخل رسول الله ﷺ بها » .

وكان لحادث زواج النبي ﷺ أثر كبير ومحول على حياته ، فقد وضع هذا الزواج حداً لوحدته وفقره ، وأمن له الاستقرار وسعة العيش ، ونجد صدى هـذا في القرآن الكريم في قوله تعالى : « ووجدك عائلاً فأغنى » [الضحى : ٨] وقوله جل وعلا : « ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك »[الشرح : ١ ــ ٣] . ويبدو أن النبي محمد ﷺ أصبح بعد زواجه مسؤولاً عن أعمال خديجة التجارية والمالية ، وهيأت هذه المسؤولية له فرصاً جديدة للتعرف عن كثب إلى ما كان يجري في أوساط مكة الأرستقراطية وسواها .

وأحب النبي ﷺ زوجته الهادئة الرزينة ، وتعلق بهـا تعلقاً شديداً ، وبادلته هي نفس المشاعر ، وكانت تفهمه وتثق به ، وكانت علاقتها به فيها هدوء واستقرار ، وقد منحه هذا ، الوقت والطمأنينة ، ثم مكنه من الانقطاع طويلاً للنظر في أمور الكون [التحنث] وللعمل في سبيل اعداد نفسه والتهيؤ لتحمل رسالة السماء ، رسالة يسعى بها لاسعاد البشر ورفع الظلم والحيف والضلال عنهـم .

وفي ذروة الخلوات جاء وحـي السماء إلـى النبي ﷺ ، وكانت ساعة حاسمة قاسية في حياة النبي ، وتجربة خطيرة اجتازها النبي بنجاح كبير ، كان لخديجة دورها الفعال في ذلك ، فقد عاد النبي ﷺ من حراء إلى بيته حيث أخبر زوجته بما حدث معه ، فصدقته وآمنت به ، بعدما تيقنت أن الذي أتى زوجها كان وحياً ورسولاً من عند الله ، وليس شيطاناً .

ومعلوم لكل باحث في تاريخ الاسلام ما عاناه النبي ﷺ أثناء المرحلة

المكية من شدائد وما مرّ به من أزمات وما واجهه من مصاعب ، وخلال هذا كله وقفت خديجة إلى جانبه وقفة المؤمن الذي لا تلين له قناة ، ولا يدخل القنوط إلى قلبه ، وأثر هذا كله على خديجة وعلى قدراتها الجسدية وكان لفتـــرة العيش في شعب أبي طالب أثناء المقاطعة القرشية أسوأ الآثـــار على خديجة ، فقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم وآله ثلاث سنوات في الشعب « حتى بلغ القوم الجهد الشديد، وحتى سمعوا [القرشيون] أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب » .

وحاول أقرباء خديجة من بني أسد مساعدة النبي والمحاصرين بتهريب المؤن إليهم ثم بالعمل علـــى تمزيق صحيفة المقاطعة فيما بعد ، وبعـــد انتهاء المقاطعة « تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلاك خديجة وأبي طالب ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الاسلام ، كان يسكن إليها » .

وكانت خديجة قد ولدت للنبي ﷺ « قبل أن ينزل عليه الوحي ولده كلهم : زينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، وفاطمة والقاسم والطاهر والطيب ، فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا قبل الاسلام ، وبالقاسم كان يكنى ﷺ ، فأما بناته فأدركن الاسلام ، وهاجرن معه واتبعنه ، وآمن به عليه السلام »

وكانت فاطمة الزهراء أشهر بنات الرسول من خديجة ، ومن زواج فاطمة بالامام علي بن أبي طالب ولد الحسن والحسين السبطين الوحيدين للرسول ﷺ اللذين انحدر منهما آل الرسول وجميع من تربطهم به نسب ﷺ .

ولم يتزوج النبي أثناء حياة خديجة بامرأة أخرى ، فهي رضي الله عنها وأرضاها ملأت عليه حياته وكانت بالنسبة له « لكأنه ليس في الأرض امرأة » سواها ، وتركت حين لحقت بربها فراغاً في حياته ﷺ لم تستطع امرأة أخرى ملأه ، وهذا ما نجده في أقواله وسيرته عليه السلام فقد روي عنه أنه قال : « خير نسائها ــ الدنيا ــ خديجة بنت خويلد » وقال : « حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ﷺ » .

عائشة رضي الله عنها

(ت : ٥٧ هـ / ٦٧٧ م)

تفجر الثورات الحقيقية الطاقات البشرية جميعها ، وتحرر بني الانسان كل التحرر ، متخطية الفوارق كل الفوارق ، وملغية لهـا ، حتى الفوارق في الجنس بين الرجل والمرأة تزول ، ولقد كان هذا ما حصل بثورة الإسلام ، فقد حرر هذا الدين الإنسان عقلاً وجسماً ، ونظم شؤون الخليقة أروع تنظيم ، فنالت المرأة قسطاً عالياً من الحقوق في عملية التحرير ، حيث ردت لها كرامتها ، وتمت صيانة شرفها ، وأعطيت كل ما تستحقه حتى غدت مساوية للرجل ، لأن عماد الحياة الرجل والمرأة ، والحياة لا تقوم بشكل صحيح وطبيعي الا عليهما معاً متساويين في كل المجالات .

وحين نقرأ أخبار السيرة النبوية نرى عياناً مدى الأثر لعدد من النساء في أحداثها بدءاً بالسيدة خديجة التي ظهر أثرها على النبي ﷺ وبان عظيم عونها له في الفترة المكية ، وفي الفترة المدنية وفي أخبار المغازي نقرأ عن مشاركة عدد من النساء في المعارك ، وقيامهن بمختلف الوظائف ، ونحن عندما نطالع سيرة النبي ﷺ نجد في البداية أن السيدة خديجة كانت حتى وفاتها الأولى في حياته ، وبعد الهجرة صارت السيدة عائشة ابنة أبي بكر أعظم النساء مكانة في بيته وحياته .

وعائشة ولدت لأبي بكر بعد المبعث ، ولدت وأبواها قد اعتنقا الإسلام، لذلك نشأت مسلمة ، وكان أبوها أعظم الرجال مكانة لدى النبي ﷺ ، وأول الأحرار إسلاماً ، كما أنه كان سامي المكانة في قريش، عليماً بأخبارها وأنسابها، مع أخبار العرب وأنسابها بشكل عام .

وهاجرت السيدة عائشة إلى المدينة مع من هاجر من المسلمين ، وفي

المدينة بنى بها النبي ﷺ وهي ما تزال صبية ، وبذلك ولدت مسلمة وترعرعت في مهبط الوحي وبيت النبوة ، ومنبع العلم وكانت على غاية من الذكاء والفطنة والجرأة والثقة بالنفس والعزة ، وكانت تعي كل ما تسمعه ، وتفهم كل ما تراه ويجري أمامها ، لهذا عندما توفي النبي ﷺ ، ولحق بــه بعد عامين والدها الصديق ، صارت عائشة مرجعاً للمسلمين وحجة يعود إليها الكبار والصغار .

وحين يبحث المرء في أخبار الفترة المدنية من المغازي المحمدية يكاد يرى لعائشة أثراً في كل حادثة من الحوادث أو ذكراً ، ولكن بعد وفاة النبي وفي عهد كل من أبيها الصديق ثم عمر بن الخطاب لا يكاد يسمع لها نشاط يذكر في مجالات الحياة العامة ، خاصة السياسية منها .

واستمر الحال هكذا في بداية عصر عثمان بن عفان ، لكن عندما تفجرت الأزمات على عثمان ، ظهرت شخصيتها إلــى الوجود ، وبرزت علــى رأس المحرضين على عثمان ، والثائرين على سياسته ، وقد روي أنهــا حين شكى الناس سياسته ، تجاوبت مع نداءات الشكاية ، ونصبت نفسها محامياً عن الصالح العام ، وأخذت تسمع صوتها البعيد والداني ، وقد أثار هذا عثمان ضدها ، كما أن عدداً من المسلمين لم يرق لهم تدخلها في السياسة ، وكانوا يرددون : ما للنساء وهذا ؟! .

وفي نفس الوقت أعجب بموقفها عدد لا بأس به من المسلمين ، ورضوا بتصرفها ، ويمكن القول بأنه منذ ذلك الوقت بدأ يتكون حولها نواة حزب ، هو الذي ستتزعمه ، يوم الجمل ، وقد انضوى إلى هذا الحزب عدد من كبار الصحابة ورجالات المسلمين وعظماء القوم ، ولهذا الأمر دلالات واسعة من كافة الجوانب ويمكن القول أنه أيام الفتنة الكبرى ظهرت إلى الوجود مطامح السيدة عائشة السياسية والقيادية ، وتجاوب مــع هذه المطامح من لا ينكر مكانته بين المسلمين من قريش وسواها .

وعظم دور السيدة عائشة أيام الفتنة الأولى وأثناء حصار عثمان حتى ليقال بأنها كانت تخرج على الناس وبيدها قميص رسول الله ﷺ ، فتخطبهم

وتقول : هذا قميص رسول الله لم يبل بعد ، وقد بليت سنته على يد عثمان ، اقتلوا نعثلا قتله الله .

لقد حوصر عثمان في داره من قبل ثوار قدم جلهم من الكوفة وأقلهم من مصر وسواها ، ولم يقف أهل المدينة مع عثمان ولا موقف الحياد ، فقد كان أكثريتهم ضده ، لكن يبدو أن العداء لعثمان جمع بين أهل المدينة والثوار إنما لم يوحدهما تحت زعامة واحدة ، فقد أراد الكوفيون والمصريون تزعيم علي ابن أبي طالب ، في حين أن غالبية أهل المدينة كانوا يلجؤون إلى طلحة والزبير ، وهذان كانا تحت زعامة عائشة أم المؤمنين، إنما بشيء من التحرج كما يروى..

وأثناء الحصار أخــذ علي بن أبي طالب يقــود الناس في صلواتهم في المسجد النبوي ، وهذا مما رجح كفته ، وطبعاً لم يكن بإمكان عائشة أن تقوم بأداء هذه الوظيفة ، وتحرج الموقف في المدينة وأدركت عائشة أن نهاية عثمان قد دنت ، وأن الظروف غير مواتية لبقائها في المدينة ، وانتهزت فرصة حلول موسم الحج ، فقررت التوجه نحو مكة بحجة أداء الفريضة ، وخلفت وراءها في المدينة كل من طلحة والزبير .

وفي أثناء وجودها في مكة أقدم الثوار على اقتحام دار عثمان ، واقترفوا جريمة قتله ، ثم بعد ذلك بدأوا يبحثون عن خليفة جديد ، وكان أمام الناس علي بن أبي طالب من جانب وطلحة والزبير من جانب آخــر ، وأراد الثوار اختيار علي ، في حين أراد غيرهم من أهل المدينة طلحة أو الزبير ، وكان الثوار يسيطرون على الحال في المدينة ، وفقد طلحة والزبير زمام المبادرة لغياب عائشة، لهذا تمت بيعة علي ، وبايعاه هما بعد تردد ، وخشية البطش بهما ، لكن مع أول فرصة إلتحقا بمكة .

كانت العلاقة الشخصية بين علي بن أبي طالب وعائشة غير ودية ، فعائشة دخلت بيت النبي وفاطمة ابنته من خديجة في ذلك البيت شابة ، ولا شك في أن فاطمة لم تكن راضية أن تحتل عائشة مكان أمها ، والزعامة في بيت أبيها ، وتزوجت فاطمة من علي فيما بعد ، ويبدو أن علياً شاطر زوجته مشاعرها ،

وظهرت هذه المشاعر جلية يوم حادثة الأفك، حيث أن علياً أشار على النبي ﷺ التخلي عن عائشة والزواج من سواها ، وبلغ ذلك عائشة ، فحملته في قلبها .

ومن جديد ساءت الأحوال بين عائشة وآلها من جهة، وبين فاطمة وزوجها من جهة أخرى ، وذلك إثر وفاة النبي وبيعة أبي بكر فقد كانت فاطمة تريد الخلافة لزوجها ، ثم إنها طالبت بميراثها من أبيها فمنعها منه أبو بكر الصديق على أساس أن الأنبياء لا يورثون ، وقد أغضب هذا فاطمة ، وواضح أن عائشة أيدت موقف أباها، وهكذا استمرت الأحوال إلى أن وقعت الفتنة الكبرى .

وعندما بلغ خبر مقتل عثمان إلى السيدة عائشة مع بيعة علي ثارت ثائرتها ، وأعلنت رفضها لما تم ، وقررت الثورة ، وما أن التحق بها الزبير وطلحة حتى تجمعت حولها قوة لا بأس بها ، وقامت السيدة عائشة بدراسة للموقف ، فرأت أن الوضع الاستراتيجي لمكة لا يمكن من اعلان ثورة فيها ، وأن الذهاب إلى الشام لا يمكن لوجود معاوية هناك ، وأن مصر بعيدة غير مستقيمة الأهواء ولا موحدة الاتجاه ، وأن الكوفة هي التي تزعمت الثورة على عثمان ، وجندها هم قتلته ، وهم الذين اختاروا الخليفة الجديدة ، لذلك اتجهت تطلعاتها نحو البصرة لأنها لم تتورط في الفتنة ، ولأنها كانت منافسة للكوفة .

ومن الملاحظ أنه عندما تفجرت الفتنة الكبرى ، كانت أكبر قوى الدولة الاسلامية متمركزة في ثلاث معسكرات هي : الكوفة ، والبصرة والجابية (دمشق) ، ويبدو أن كل واحد من هذه المعسكرات أراد التحكم بسلطة الدولة ، أو على الأقل الاستقلال بولايته والانفراد باستغلال مواردها ، وحيث أن جند الشام كان تحت زعامة معاوية ، وجند الكوفة هو الذي بايع علياً ، فإن جند البصرة بات يفتش عن زعامة قرشية ، وهنا لا ندري أجرت اتصالات بين حزب عائشة وبعض زعامات البصرة أيام حصار عثمان ، أم أن ذلك حدث إثر بيعة علي بالخلافة ؟ ..

مهما يكن الحال قررت السيدة عائشة التوجه مع أنصارها نحو البصرة ، وبعدما وصلوا بوقت قليل سيطروا على مقاليد الأمور فيها ، وعلم

علي بن أبي طالب بذلك ، فسارع هو بدوره إلى ترك الحجاز ، وجـاء إلى الكوفة .

لقد أنهى هذا فعلاً الخلافة الراشدة ، وأنهى دور الحجاز السياسي ، وأوضح أن أهل الحل والربط لم يعودوا صحابة النبي من سكان المدينة ، بل صاروا هم الجند الذين لم يكونوا هم قوة واحدة بل كانوا قوى ، فقد انتهى الآن عصر وحدة الأمة الاسلامية وبدأ عصر التمزق والصراع الداخلي .

وبعدما استقر علي بالكوفة كثرت الاتهامات بين أهل البصرة وأهـل الكوفة ، وكان من جملة ذلك توجيه التهمة إلى علي بقتل عثمان ، وأن عائشة مع أهل البصرة يطالبون بدم عثمان ، ورغم التراشق بالاتهامات فقد جرت محاولات لايجاد تسوية بين الطرفين ، وتجنب الصراع المسلح وسفك الدماء ، لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح ، والتقى المعسكران في سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م في ملحمة عنيفـة عرفت باسم معركة الجمل ، نسبة إلى جمـل كانت تمتطيه السيدة عائشة ، ذلك أنهم كانوا قد سلموا قيادهم لها وبايعوها على الموت ، وانتهت المعركة بهزيمة جند البصرة ، ومصرع طلحة ثم الزبير وأسر عائشة .

لقد خسرت السيدة عائشة الحرب ، وفقدت حريتها ، لكن ذلك لم يؤثر على شجاعتها وشدة ايمانها بعدالة قضيتها ، وصمدت ولم تنهار ، وجرى بينها وبين علي وأعوانه جدل طويل أنهي حين أمر علي بترحيلها إلى الحجاز .

ومعركة الجمل من الأهمية بمكان ، لأنها أول معركة في تاريخ الاسلام قادها الخليفة بنفسه ، وهو الصحابي المبشر بالجنة ، ضد أخوان له في العقيدة على رأسهم صحابيان مثله مبشران بالجنة ، وأبرز أمهات المؤمنين ، ولم يكن ذلك بالهين ، فاقتحامه كان لا شك من أصعب القرارات ، ولقد استدعى ذلك ايجاد تشريع خاص ، عرف فيما بعد بتشريع قتال أهل القبلة ، وجاءت أسس هذا التشريع في وصية علي لجنده بقوله : « لا تتبعوا مولياً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تنتهبوا مالاً ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه

فهو آمن ... ليس على الموحدين سبي ، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه » .

لقد شطرت معركة الجمل الأمـة في الأول عسكرياً ، وكانت بدايـة لانشطارات فكرية وعقائدية هائلة اتسعت مع الأيام وتشعبت وعجزت كـل الجهود عبر تاريخ الاسلام عن إيقاف نزيف ذلك الجرح المميت .

وبعدما عادت السيدة عائشة إلى الحجاز استقرت في بيتها ، تراجع نفسها وتحاسبها بشكل عسير ، ويبدو أنها ندمت ، وقررت اعتزال العمل السياسي والصبر على كل نازلة مهما عظمت ، والانقطاع إلى العبادة من صلاة وصوم واستغفار ، وصدقات ونشر علم ، وبيان سنة ، وليس من الثابت أنها شاركت بعـد الجمل في أي نوع من النشاطات السياسية ، وظلت على موقفها حتى توفاها الله سنة سبع وخمسين .

لقد أثار موقف السيدة عائشة ومشاركتها السياسية المسلمين في الماضي وما زال يثيرهم حتـى الآن ، ونسج خصومها حولها العـديد من القصص واخترعوا مالا يحصى من الأحاديث للنيل منها بشكل مباشر أو غير مباشر ، لكن ذلك كله لم يقلقل مكانتها التاريخية ، ولم ينل من دورها الكبير ، ولا أدري هنا كيف يوجه لها اللوم ، وهي إنسانة ولدت مع بداية ثورة الإسلام وعاشت هذه الثورة جسداً وروحاً ، وتفاعلت معها كل التفاعل ، وحين رأت البعض يريد الانحراف بها خرجت داعية إلى التقويم ، وهل كان لها أن تفعل غير هذا ؟!....

معاوية بن أبي سفيان ﷺ

(ت : ٦٠ هـ / ٦٨٠ م)

إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ من مكة ثم إنه لم يرضها له داراً حتى نقله إلى المدينة ، وكانت المدينة داره وقراره إلى أن أدركته الوفاة ﷺ ، والمدينة موضع قبره ومنزله ومنبره ، ثم صار الأمر من بعده إلى أبي بكر ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان — رضي الله عنهم — فلما قتل أهل المدينة عثمان ، انتقلت الخلافة إلى الشام ، والشام دار الخلافة •

(الحصين بن نمير السكوني)

معاوية هو ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، وكان أبو سفيان كبير رجالات بني أمية ، وأكثرهم ثروة ، وكان قائد القوافل التجارية المكية ، لذلك عدّ من أرفع زعماء مكة القرشيين ، وهو الذي تزعم قبيلة قريش ، وقاد جندها بعد الهجرة ، وقد أسلم يوم فتح مكة ، واعتبر من المؤلفة قلوبهم •

وكان أبو سفيان رجلاً مزواجاً ، وكانت هند بنت عتبة احدى شهيرات نساء قريش ، فتزوجها أبو سفيان ، فكان ثالث أزواجها وآخرهم ، وكان معاوية أول ولد أنجبته لأبي سفيان ، وحدث ذلك قبل البعثة بعامين ، وفي مكة نشأ معاوية ، وتأثر بأبيه ، لكن أثر أمه فيه كان أشد وأعمق ، وأسلم معاوية مع أبيه « عام الفتح » فكان يقال له « الطليق بن الطليق » •

وقد فقد أبو سفيان مع بني أمية سلطانهم حين فتحت مكة ، لكن النبي ﷺ أحسن معاملتهم وعيّن رجالاتهم في مراكز بارزة في إدارة الدولة ، وهكذا صار معاوية أحد كتّاب الوحي ، وبعد وفاة النبي ﷺ توجه إلى الشام تحت لواء

أخيه يزيد بن أبي سفيان ، الذي قاد أحد الجيوش الثلاثة التي أرسلها أبو بكر إلى الشام ٠

وبعد وفاة أبو بكر ، وعندما أصبح عمر خليفة ، جعل يزيداً والياً على أحد أقسام بلاد الشام ، وبعد وفاة يزيد سنة ١٨هـ/٦٣٩م عين مكانه معاوية ٠

وكان معاوية داهية من الرجال موصوفاً بجزالة الرأي ، والحلم والأناة والسخاء ، وكان عمر إذا نظر إليه يقول « هذا كسرى العرب » ٠

عقب مقتل عمر ، وفي عهد عثمان ، وهو أحد أقارب معاوية ، فوّض إليه حكم جميع بلاد الشام ، ثم أضاف إليه ولاية الجزيرة سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م، وولاية الجزيرة كان أقامها عمر لتفصل بين العراق والشام ، وتوازن وتصل ، ذلك انهما بلدان لهما تاريخ قديم مشترك تحكمت فيه عوامل عديدة أولاها جغرافية ، تمثلت بحرمان العراق من منفذ على المتوسط ، لذلك كان تاريخ البلدان عبارة عن صراعات مستمرة ومعارك طاحنة ، على سبيل المثال نجد من المدهش أنه بعد الهجرة بسنوات قلائل انتصرت بيزنطة على فارس في معركة نينوي قرب الموصل ، ثم بعد فترة وجيزة ، وفي ظل الإسلام ، بعد ضم اقليم الجزيرة لحكم والي الشام معاوية ، وزوال أداة الوصل والفصل والتوازن هذه ، قامت معركة صفين الشهيرة بين الشام والعراق ٠٠٠٠٠!

لقد أتاحت الأزمات التي حدثت في عهد عثمان الفرصة أمام معاوية لا لينفرد بحكم الشام ، بل ليظهر بمظهر الحاكم المطلق لهذه الولاية ، وبعد مصرع عثمان استغل معاوية ذلك لصالحه خير استغلال ، فتصدى للخليفة الجديد ، وتزعم جماعة المطالبين بدم عثمان ، فكانت معركة صفين ثم قضية التحكيم ٠ وتبع ذلك انشغال علي بأمور العراق ، ثم اغتياله على يد أحد الخوارج ، ثم تنازل الحسن بن علي له ، ومكّن هذا كله معاوية من استحواذ المركز الأول في ديار الإسلام ، وجعله قادراً على أن يوقع الهزيمة ببني هاشم ، ويعيد زعامة أسرته ، ويقيم مملكة وراثية عاشت قرابة قرن ٠

هذا وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن معاوية ، فوصفوا شخصيته الفذة ، فذكروا أن أبرز ما كان يميزها الحلم ، والدهاء ، وحسن السياسة ، والكرم ، وهذه الصفات ما تزال مقترنة باسم معاوية حتى هذا اليوم ، وليس ثمــة شك أن صفاتاً كهذه مع ما تميز به الرجــل من طموح كبير كانت وراء نجاحه في بلوغ أهدافه ، ولقد أعطت مواهبه في الحكم ثمارها خلال الفترة الطويلة التي حكم فيها الشام ، وهي فترة طويلة امتدت عبر ثلاثة من الخلفاء الراشدين ، استطاع خلالها تأكيد سلطانه ، وبناء جيش قوي مطواع .

بقوة السلاح استولى معاويــة على السلطــة ، وانتزع لنفسه منصب الخلافة ، وأسس أسرة مالكة ، وليس بموجب أي حــق شرعي مسوغ ، أو دعوى قانونية صحيحة ، لذلك لاقى حكمه وحكم أسرتــه معارضة شديدة دائمة ، فاضطر إلى الابقاء على استخدام القوة المسلحة ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة ، لعل من أهمها :

زيادة عــدد الجند الشامي ، وزيادة نفقاته ، مما سبب تسخير موارد الدولة له ، ونظراً لوجود الإلحاح المالي الدائم ، فقد اضطرت الدولة إلــى حرمان معظم فئات الجند غير الشامي ، ثم اضطرت إلى انتهاج سياسة مالية قاسية فيها استغلال وحيف ، والحاجة إلى المال كانت وراء عدد من الثورات ، ووراء عدم التشجيع على الدخول في الإسلام شعوب الأمم المفتوحة .

وزيادة الاعتماد على الجند الشامي ، سبب تدخل هذا الجند في شؤون الدولة ، ونظراً لأن هذا الجند جاء من قبائل الشام العربية ، فقد تحول قادتها إلى ارستقراطية خاصة ، وقام تناحر بين هؤلاء القادة ، وتكونت بالشام قوى متصارعة على التحكم بالسلطة (وهو ما سيدعى بالعصبية القبلية) .

وجرى الجند وراء الربح السريع ، أثر على سياسة الفتوح ، ويمكنه أن يفسر صورة الخط البياني لها ، ويعلل ما آلت إليه الأمور ، كما أن استئثار الجند الشامي بموارد الدولة جعل قوات بقية الأمصار خاصة في العراق تثور بشكل حاد ، لهذا كان العراق الشغل الشاغل للحكم الأموي ، ووجد هذا

الحكم أن مشكلة المعارضة العراقية لا تحل إلاّ بنفي جنده إلى خراسان ، وفعلاً حدث هذا ، وأوجد هذا النفي في خراسان قواتاً ساخطة ، ستتمكن في المستقبل من إسقاط الدولة الأموية تحت لواء أبي مسلم الخراساني •

ثم إن الاعتماد الأموي على الجند ، لم يكسب حكم هذه الأسرة صفة الشرعية ، كما حدث للخلافة العباسية فيما بعد ، وباتت منية الدولة مرتبطة بقوة الجند الشامي وتماسكه واخلاصه ، وكان حدوث أي خلل سيؤدي إلى الدمار •

واتخـذ معاوية من الشام مقراً لخلافته ، وهذه البـلاد بحكم موقعها وتركيبها الجغرافي لا تصلح قاعدة لامبراطورية ، لأنها لم تعرف المجتمـع الواحد ولا الوحدة السياسية ، ثم إنه ليس فيها سهل واسع صالح لعيش كمية كبيرة من الناس ، تكوّن قاعدة الامبراطورية وخزانها البشري مثل الحال في العراق ومصر •

هذا وإن الإغتصاب القائم على دعـم الجند ، يترافق دائماً مع سياسة التنكيل والملاحقة الفكرية ، لذلك مر عصر بني أمية دون قيام حركة تدوين فكرية عند العرب ، وغدت السلطة الأموية أشبه بسد تجمع خلفه محاولات لنتاج فكري ضخم، وما أن انهار هذا السد حتى تدفق النتاج الفكري المدون، فغطى جميع ميادين الحياة •

ثم إن هذا الحال لم يحل فقط دون النتاج الفكري ، وإنما حال دون قيام مشاريع اجتماعية كبيرة ، ودون نمو التجارة والصناعة ، وأجبر في نفس الوقت الدولة على ارضاء كبـار القادة بمنحهم اقطاعات من الأرض كبيرة ، كما أن وضع هؤلاء القادة مع الوضع العام للدولة أجبر العديد من الملاّك الصغار على الالتجاء إلى هؤلاء القادة ، ووضع أنفسهم وأملاكهم وطاقاتهم تحت تصرفهم ، وسبب هذا قيام طبقة اقطاعية مستغلة ، مما أعطى المحرض للثورة والمسوغات للثـوار •

عبد الملك بن مروان

(ت : ٨٦ هـ / ٧٠٥ م)

بعد وفاة يزيد بن معاوية (٦٠ ــ ٦٤ هـ / ٦٨٠ ــ ٦٨٣ م) خلفه ابنه معاوية الثاني لكن لفترة قصيرة ، حيث تنازل عن العرش ، ثم توفي في ظروف غامضة ، فأدى هذا إلى اضطراب الموقف السياسي في العالم الاسلامي وإلى إثارة مشكلة الخلافة مجدداً ،وأدى في بلاد الشام إلى انقسام البيت الأموي وإلى احتدام الصراع القبلي في البلاد بين قبائل قيس والقبائل اليمانية بشكل لم يكن له نظير في ماضي الاسلام القصير ، فبعد موت معاوية بن يزيد صار الضحاك بن قيس الفهري زعيماً للقبائل القيسية ، حيث أخذ يدعو سراً إلى ابن الزبير ، وكذلك فعل زفر بن الحارث زعيم قبائل كلاب القيسية في شمال الجزيرة وقنسرين وقرقيسياء (البصيرة حيث يلتقي الخابور بالفرات في سورية حالياً) وهكذا قوي موقف ابن الزبير جداً بانضمام القيسية اليه في الشام ، وازداد هذا الموقف صعوبة بانضمام العراق وخراسان ومصر اليه ، وهكذا تحول ابن الزبير بشكل سريع من ثائر محاصر في مكة إلى حاكم تعترف بسلطته جل أقاليم العالم الاسلامي ، فيما عدا دمشق مع جنوب الشام حيث قبائل اليمن على رأسها قبيلة كلب بزعامة حسان بن بحدل الكلبي ، خال يزيد بن معاوية .

وأصبح ابن الزبير يملك في يديه زمام المبادرة في العالم الاسلامي ، وأوشكت معركته ضد الأمويين أن تنتهي بالنصر ، وتحقق أهدافها ، لكن التزامه بالبقاء في مكة وامتناعه عن القدوم إلى دمشق مع أمور استجدت في الشام ، قلبت فجأة موازين القوى ، وحولتها لصالح بني أمية ، فقد سعى رؤساء القبائل اليمانية ، وعدد من رجال الحكم الأموي الذين أدركوا أي

خطر يلحق بمصالحهم ووجودهم السياسي بانتقال الخلافة إلى الحجاز إلى عقد مؤتمر الجابية في جنوب [قرب قرية نوى في حوران] دمشق عالجوا فيه مسألة الخلافة والانقسام في البيت الأموي ، حيث تم الاتفاق على استبعاد خالد بن يزيد بن معاوية لصغر سنه ، واختيار مروان بن الحكم ، شيخ بني أمية ، فبويع له بالخلافة في ذي القعدة ٦٤ هـ / ٦٨٤ م ، ونجم عن هذا مباشرة معركة في مرج راهط ، في أحواز دمشق ، بين قبائل قيس والقبائل اليمانية .

وحسمت هذه المعركة الصراع حول الخلافة ، حيث انتصر مروان بن الحكم وأنصاره من الحزب اليماني ، وهزم الحزب القيسي المؤيد لابن الزبير وهكذا تم لبني أمية الاحتفاظ بالخلافة ، لكن هذه الخلافة انتقلت إلى فرع أموي جديد وهو الفرع المرواني ، واستطاع هذا الفرع توطيد الأمور ، وإعادة وحدة الدولة والحكم لفترة طويلة امتدت حتى سقوط الخلافة الأموية ، ويعود الفضل في هذا كله إلى عبد الملك بن مروان ، الذي يعتبر المؤسس الثاني للخلافة الأموية .

فبعد معركة مرج راهط ، بدأ نجاح ابن الزبير يتحول إلى الاتجاه المعاكس ، فقد أخفقت حملة له أرسلها بقيادة أخيه مصعب ضد بلاد الشام ، وانتزع مروان بن الحكم مصر ، وهكذا لم يبق له إلا العراق والحجاز ، وتوفي مروان سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م وخلفه بعد وفاته ابنه عبد الملك ، وبعد عدد من المشاكل صفت الأمور لعبد الملك في الشام ، وهنا أخذ يعد الخطط لاستعادة العراق ثم الحجاز .

وكان حكم ابن الزبير يعاني في العراق من مشاكل داخلية نجمت عن ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي ومعارضة الشيعة ، كما أن هذا الحكم واجه في الحجاز مشاكل متزايدة مع بني هاشم أسرة النبي ﷺ ومع الخوارج ، وفي سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م أكمل عبد الملك اعداداته لغزو العراق ، حيث ملك جيشاً قوياً كما اتصل برؤساء القبائل وأشراف العرب في الكوفة والبصرة واستمال عدداً منهم إلى جانبه ، وهكذا ما أن وصل العراق ، حتى تخلى معظم

أنصار مصعب بن الزبير عنه ، فجرت بين عبد الملك وبين ابن الزبير معركة غير متكافئة انتهت بمقتل مصعب ، ودخول عبد الملك الكوفة حيث جاءته وفود القبائل تبايعه وتعلن الولاء له ، وقام عبد الملك بتنظيم أمور العراق ، وترك أخاه بشر بن مروان والياً هناك ، وعاد هو أدراجه نحو الشام ، وفي ذهنه ضرورة القضاء على عبد الله بن الزبير ، ذلك الهاجس الذي أقض مضاجع الأمويين وحرمهم نعمة الاستقرار ، ففكر عبد الملك في اختيار الرجل الذي يمكن تكليفه بمثل هذه المهمة ، وبعد طويل بحث وجد ضالته في الحجاج بن يوسف الثقفي .

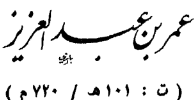
وفي سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م سار الحجاج نحو الحجاز ، وبعد جهود متواصلة قضى على ابن الزبير وقتله ، وبذلك عادت الآن وحدة العالم الاسلامي ، وصار الآن عبد الملك في دمشق ، يعاونه الحجاج في الحجاز ، وبشر بن مروان في العراق ، وعبد العزيز بن مروان في مصر ، وما لبث بشر أن توفي فعين عبد الملك الحجاج مكانه ، وبعدها توفي عبد العزيز ، وهكذا آلت الخلافة إلى عبد الملك يعاونه الحجاج ، وقد ترك عبد الملك مع الحجاج أثرهما على عصريهما ، فقد استطاع الحجاج جلب الأمن إلى العراق واخماد الثورات وكل أصوات المعارضة بلا رحمة .

ان عظمة عبد الملك ليست نابعة فقط من نجاحاته في اعادة تأسيس الخلافة الأموية ، وكون جل الخلفاء الذين تربعوا على عرش دمشق من بعده كانوا من صلبه بل مما أنجزه في المجالات الادارية والاقتصادية ، فالدولة التي أعيد توحيدها ، وجد عبد الملك أن الوحدة السياسية فيها ينبغي أن ترتبط بوحدة نقدية ونظام اداري واحد ، لذلك شرع في تعريب الدواوين والنقود ، وبهذا العمل يمكن القول بأن الدولة العربية المستقلة جاءت فعلاً إلى الوجود ، وان عمليات الفتح العسكري قد بدأت تتحول إلى تغيير للأرض والانسان ، وهكذا حلت العربية محل الاغريقية واللاتينية والفارسية ، وبذلك طويت صفحة طويلة من صفحات التاريخ القديم وبدأت صفحة جديدة هي صفحة العروبة وحضارة الاسلام .

وتعريب الدواوين كان من معانيه أيضاً ايجاد طبقة ادارية عربية مثقفة ، وآذن ذلك ببداية عصر التدوين للآثار العربية والثقافة الاسلامية كما آذن بتعريب البلدان الاسلامية .

وتوحيد المعاملات النقدية ، أو ما عرف بتعريب الدينار ، لا يقل أهمية عن مسألة تعريب الدواوين فالبلاد التي دخلت في حوزة المسلمين كانت تسود فيها أنظمة نقدية مختلفة منها ما قام على أساس الوحدة الفضية ومنها ما قام على أساس الذهب، وكان لهذا الوضع أسوأ الآثار على المعاملات التجارية والحياة الاقتصادية عامة ، كما كان حائلاً دون زوال الحواجز الاقتصادية وبالتالي يعيق قيام وحدة اقتصادية للبلاد الاسلامية ، كما كان للاختلاف بالتعامل النقدي آثاراً سيئة على عمليات الجباية والصرف داخل الدولة ، ثم ان توضع معالم الاستقرار في الدولة الاسلامية ، والشروع في التمييز الحضاري كشرط لنجاح التميز الديني فرض عدم متابعة ضرب النقود حسب طرائق الحكومات البائدة ، فالاسلام يجب ما قبله ، ثم ان تحديد التعامل النقدي وضرب الدينار من قبل الدولة انهى فترة من الفوضى والاستغلال قامت بسبب الأعمال العسكرية ونتيجة لها .

من هذا كله نرى أن عظمة عبد الملك بن مروان وخلوده لا يرتبطان بتاريخ تأسيس المرحلة المروانية من العصر الأموي فحسب ، وإنما بقيام النظام الاداري العربي ، مع الاقتصاد الاسلامي ، وأبعد من هذا كله ارتباط أقوى بحضارة الاسلام وسرعة تطورها وأصالتها .



(ت : ١٠١ هـ / ٧٢٠ م)

يعرف عبد الملك بن مروان بأبي الخلفاء ذلك أن غالبية الذين تولوا الخلافة الأموية من بعده جاءوا من صلبه ، فأربعة من ولده وهم : الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام ، حكموا بعده ، ومن بعدهم جاء عدد من حفدته ، لكن لم يأت حكم أولاده بعده بشكل متواتر ، بل كان على مرحلتين، تخللهما فترة ، أقل ما يمكن وصفها به ، بأنهـا كانت فترة متميزة في تاريخ الخلافة الأموية خاصة ، وتاريخ الاسلام بشكل عام .

عهد عبد الملك قبيل وفاته لولديه : الوليد ، وسليمان ، وحكم الوليد من سنة ٨٦ هـ / ٧٠٥ م وحتى سنة ٩٦ هـ / ٧١٥ م ، فخلفه سليمان الذي لم يطل حكمه ، فقد توفي سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وعندما حلت به المنيـة ، «وهو يومئذ بدابق ــ قرب حلب ــ دخل عليه رجاء بن حيوة، وكان من أعبد أهل زمانه ... كان موصوفاً بالحكمة والشدة ، مرضياً في دينه وأماته .. فلما دخل عليه ، قال : ما تصنع يا أمير المؤمنين ، إنه مما يحفظ الخليفة في قبره ، أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح ، ... فقال سليمان : فكيف ترى عمر بن عبد العزيز ؟ قال رجاء : أعلمه والله خيراً فاضلاً مسلماً ، فقال سليمان : هو والله على ذلك ، ثم قال : والله لئن وليته ، ولم أول سواه لتكونن فتنة ، ولايتركونه أبداً يلي عليهم ، إلا أن يجعل أحدهم بعده ، فجعل بعده يزيد بن عبد الملك » .

وتوفي سليمان ، وبويع لعمر بن عبد العزيز ، فبدأ بولايته عهداً جديداً في التاريخ الأموي ، وتاريخ المسلمين ، فقد وصل عمر إلى الخلافة لا بفضل نسبه وتصنيفه العائلي ، لكن بفضل شخصيته المتماسكة ، وسلوكه المثالي ،

وعمر هو ابن عبد العزيز بن مروان ، والي مصر أيام عبد الملك وولي عهده ، الذي كان مقرراً أن يلي الخلافة بعده لولا أن المنية عاجلته قبله ، وأم عمر أم عاصم حفيدة عمر بن الخطاب .

نشأ عمر في مصر ثم في المدينة ، وتولى أول مهامه السياسية أيام الوليد ابن عبد الملك بولاية المدينة ، وقد تأثر عمر بأجواء المدينة الإسلامية ، وبعلم علماء الحجاز المسلمين وآرائهم ، التي جاءت في الغالب معارضة للسياسة الأموية ، وإيدولوجيتها القائمة على فكرة « الجبرية » في القضاء والقدر .

لقد تأثر عمر بزهد علماء المسلمين ، فأقلع عن سيرة الأمراء ، وسلوك الحكام في الغطرسة وحب الظهور والتبذير ، كما تأثر بآراء العلماء المعتدلة التي قالت بالعدل الإلهي ، نافية الظلم عن الله تعالى ، ورافضة للجبرية ، كما تفاعل مع التيارات التي نادت في أواخر القرن الأول بالعدالة والمساواة والعمل على توحيد المسلمين والسعي لإنشاء أمة إسلامية ، الرابط بين أفرادها العقيدة وليس اللون أو النسب أو الوضع المالي والسلطوي وغير ذلك .

وبعد ما ولي عمر الخلافة ، أدرك أن الخلافة الأموية لن يكتب لها البقاء إذا استمرت في اتباع سياسة الحجاج ونظرائه، لذلك قرر استبدال هذه السياسة بأخرى معتدلة مقبولة قائمة على : المساواة بين الفئات المسلمة على اختلاف أصولها وألوانها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية.ورد الحقوق إلى أصحابها ، ورفع المظالم عن الناس ، وتنظيم الضرائب بحيث يتم إلغاء كل الضرائب التي لا تتوافق مع الشريعة الاسلامية ، وحتى يتسنى له تطبيق برنامجه قرر ايقاف الأعمال العسكرية الخارجية ، ونادى بهدنة بين الفئات المتصارعة والثائرة .

قام عمر بتحديد خطوط سياسته بقوله : « ان الله فرض فرائض ، وسن سنناً ، من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ، ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل الينا حاجة من لا تصل الينا حاجته ويدلنا إلى مالا نهتدي اليه ، ويكون عوناً لنا على الحق ، ويؤدي الأمانة الينا وإلى الناس ، ولا يغتب

عندنا أحداً ، ومن لم يفعل فهو في حرج من صحبتنا والدخول علينا » ، وتبعاً لهذا أخذ عمر برد الحقوق المغتصبة إلى أهلها ، وحد من تصرفات أفراد الأسرة الأموية ، وأمر بمعاملة أهل الذمة بالرفق ، كما أمر باسقاط الجزية على من أسلم منهم لأن الله تعالى أرسل نبيه هادياً لا جابياً ، وساوى عمر في العطاء بين فئات الجند جميعاً من عرب وموالي ، وعمل على الغاء العصبية العربية والقبيلة ، فقد أراد انشاء أمة عقائدية كبرى تذوب فيها النعرات القبلية والعنصرية والقبلية ، لأن الكل لآدم وآدم من تراب .

والتفت عمر إلى الإدارة الأموية ، فأعاد النظر بها كلياً ، فقد أرادها أن تخدم المحكومين ، لا تستغلهم وتتحكم بهم ، وتستبد بأمورهم ، وأراد عمال الدولة وموظفيها أن يتخلقوا بأخلاقه ، فأمرهم بالتقشف ، وحظر عليهم أخذ الرشوى وقبول الهدايا ، كما أمرهم بمساعدة المرضى والمعوزين بالملبس والمأكل والخدمات .

وتنبه إلى مسألة استملاك رجال بني أمية واشراف قبائل العرب للأراضي ، فرأى في ذلك خروجاً على الشريعة التي قضت بملكية الأمة الإسلامية لأراضيها ، لذلك حرص على نزع الملكيات المغتصبة وردها إلى ملكية الأمة .

ان الانجازات التي حققها عمر بن عبد العزيز كبيرة للغاية ، خاصة اذا قيست بالمدة الزمنية التي قضاها بالحكم ، وهي مدة لم تتعد العامين والخمسة أشهر ، ثم بالأثر الكبير الذي تركته ، ومرد نجاحات عمر يعود إلى توفر الأجواء العامة ، ثم هو لم يكن بالرجل العادي ، بل كان من طراز نادر ، له مثله التي آمن بها ، وقضيته التي عاش من أجلها وقاتل في سبيلها .

لكن في المقابل كانت ردات الفعل داخل الأسرة الأموية لإصلاحات عمر ابن عبد العزيز خطيرة إلى حد دفعتهم إلى التخلص منه بدس السم له وقتله ، وبعدما قتل عمر عادت السياسة الأموية سيرتها الأولى ، وأخذت تلاحق أعوان عمر ، وتعمل على تصفيتهم جسدياً ، ومحق اصلاحاته .

حقاً نجحت السياسة الأموية في هذا السبيل ، لكنها بذلك كان كمن يحفر لحتفه بظلفه، وبعد سنوات وجيزة سقطت الخلافة الأموية وزالت من الوجود، لكن سيرة عمر بن عبد العزيز ما زالت قائمة أمام المسلمين ، نبراساً يقتدى به ، وما زال خطباء الجمعة في بلاد الشام وبلدان اسلامية أخرى ، ينهون خطبهم كل اسبوع بقوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » ، وذلك بناء على وصية من عمر بن عبد العزيز •

أبو جعفر المنصور

(ت : ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م)

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عباس ، ولي الخلافة بعد أخيه السفاح ، وكان أصلاً أسن منه وأجدر منذ البداية منه بولاية الخلافة لكن أبا سلمة الخلال آثر السفاح عليه .

نشأ المنصور في الشام ، وهناك تلقى ثقافة إسلامية جيدة ، ورحل من الشام ، فزار العراق واليمن ومصر ، فالتقى بالعلماء ، كما التقى بالدعاة العباسيين وفي العراق تأثر بشكل خاص وعميق بعمرو بن عبيد من زعماء أهل العدل ، ومن المؤسسين الفعليين لحركة الاعتزال ، كما أنه التحق ببعض الادارات الأموية ووجهت له بعض التهم السياسية المعادية للحكم الأموي .

وبعدما ألقي القبض على أخيه إبراهيم فرّ مع أفراد أسرته إلى الكوفة ، وعقب إعلان الخلافة العباسية صار الساعد الأيمن لأخيه السفاح ، حتى إذا توفي السفاح حل محله .

ويعتبر المنصور المؤسس الفعلي للخلافة العباسية ، وواحداً من أعظم الرجالات في التاريخ الإسلامي ، حيث تبرز عظمته في جميع مجالات الحياة التي غطاها بنشاطه العجيب ، وصلابته الرائعة وعبقريته المبدعة .

كانت مهمته عندما استلم السلطة شاقة وعسيرة للغاية ، فقد واجه في البداية ثورة عمه عبد الله بن علي بالشام ، فتمكن من القضاء عليها بوساطة أبي مسلم الخراساني ، فشعر عندها بشيء من الاطمئنان ، فأخذ يخطط لبناء مقر جديد لدولته في العراق ، فقد اتخذ في البداية من الأنبار (عاصمة أبي العباس) مركزاً مؤقتاً ، ثم رأى أن يكون لدولته عاصمة جديدة ودائمة ،

مدركاً أن الكوفة لن تمحضه الولاء لأنها علوية ، والبصرة لن تكون عباسية بل ستبقى عثمانية، لذلك قرر البحث عن مكان يتمتع بالصفات الأساسية التالية:

١ ــ الشروط الصحية .

٢ ــ الصفات الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والزراعية والتجارية والصناعية .

٣ ــ اتساع الرقعة وانبساطها .

٤ ــ القرب من المــاء .

٥ ــ سكان كثر وموارد كافية .

٦ ــ يمكن الوصول اليه بالبر والماء .

٧ ــ صالحاً لإقامة نواة الأمة العباسية الإسلامية ، وذلك بأن يكون جديداً غير مسكون من قبل .

وأخذ المنصور يرتاد المواقع في العراق ، ويتنقل من مكان لآخر ، حتى وفق بالوصول إلى مبتغاه ، فاختار موقع بغداد ، ووضع خطة لعمارتها ، وأمر بأن يحشر اليه من أنحاء الدولة المهندسين وكل من له علاقة بأعمال البناء فحشر إليه ما يزيد على مئة الف اختصاصي ، كما حشد المواد والعمال ، وأمر بتنفيذ أعمال البناء على مقربة من الضفة الغربية لدجلة ، فبنى له مدينته المدورة التي دعاها باسم دار السلام ، وشهرت باسم بغداد ، وهو اسم المنطقة قديماً ، وفي الوقت الذي بنيت فيه المدينة المدورة بشكل رسمي ، نشأ معها عدة مدن أخرى هجينة ، تولدت من معسكرات العمــال والجنــد ورجــال الادارة والاختصاصيين ورجال الصناعات ، وأخذت المدن الهجينة تزحف نحو دار السلام ، لهذا جــاء تطور بغداد في البداية عجيباً ، حيث أنهــا توسعت من الخارج نحو الداخل .

وأثناء العمل في بناء بغداد ، واجه المنصور أول ثورة قادها الشيعة ضد العباسيين ، وهــي ثورة النفس الزكية وأخيــه ابراهيم ، وبصعوبة استطاع المنصور القضاء على هذه الثورة .

لهذا وما أن فرغ منها حتى شرع في إعادة بنـاء الايدولوجية العباسية على أسس جديدة ، حيث تقرر فصلها عن الدعوات الشيعية ، كما قرر المنصور اتباع سياسة دينية معتدلة ، أقرب ما تكون إلى فكر أهل السنة ، لهذا قرّب العلماء وشجعهم على الكتابة والتدوين ، فباقتراح منه كتب ابن اسحق السيرة النبوية ، وباقتراح آخر كتب الإمام مالك الموطأ .

وشجع المنصور أعمال الترجمة إلى العربية ، كما وضع مفاهيم جديدة للسلطة ، فالخليفة بالنسبة له ، لـم يعد خليفة رسول الله ، بل خليفـة الله ، والعباسيون لـم يرثوا حزب الكيسانية بـل ورثوا أباهم العباس ، الوريث الشرعي الوحيد للرسول ، لأنه كان عمه ، وتوفي بعده ، ثم عبد الله بن عباس كان أعلم الناس من المسلمين بالاسلام ، وأشدهم صلة بالرسول ﷺ ، مثله في ذلك مثل ابن عمه علي بن أبي طالب ...

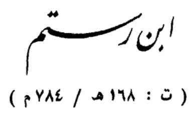
ومن أهم المشاكل التي واجهت المنصور ، مشكلة خراسان ، التي وليها أبو مسلم الخراساني ، الذي غدا بعد نجاح الثورة العباسية أقوى شخصية في الشرق الاسلامي ، والواقع أن العلاقات بين المنصور والخراساني لم يسدها قط الصفاء ، فقد كانت للخراساني يد في إبعاد المنصور في البداية عن الخلافة والبيعة لأبي العباس مكانه ، وتأجج هذا العداء بين الرجلين في عدة مناسبات خاصة عندما توجه المنصور إلى خراسان بأمر من أخيه السفاح ، لاستشارة الخراساني بشأن أبي سلمة الخلال ، فهناك رأى المنصور النفوذ القوي الذي بلغه الخراساني ، فخامره الارتياب بأمره ، وأخذ يحرض أخاه عليه ، وبعدما استلم هو الخلافة ، استطاع أن يوقع به ، وكانت خطوته هـذه في منتهى الجرأة والإحكام ، فقد عرف أولاً كيف يخذل رجال أبي مسلم عنـه عن طريق المناصب وإدراره الأموال عليهم ، ثم استدراجه إلى بلاطه وقتله ...

وهنا صفت الأمور للمنصور ، فقام بوضع الأسس الإدارية لدولته ، والسياسية ، حيث أرسى قواعد الوزارة ، ووضع أعرافاً جديدة لمسألة ولاية العهـد ، والتفت نحـو العلاقات مع الامبراطورية البيزنطية ، وأولى مناطق

الحدود الاسلامية البيزنطية رعايتـه ، فأخـذ بتحصينها وتقويـة وسائل الدفاع فيهـا .

ولم يهمل المنصور الجزء الغربي من الدولة ، بل عمل على بسط سيطرة العباسيين على جميع الغرب الاسلامي ، وحقق في هذا السبيل نجاحات كبيرة.

اتسمت حياة المنصور بالتقشف ، وشخصيته بالحزم والنشاط الجم ، والتيقظ ، والمتابعة ، وعدم الاهمال ، كما أن الجوانب الانسانية فيه كانت غنية ، وكان فوق هذا عالماً وصاحب أحاسيس رقيقـة ، يتذوق الجمال ، والشعر ، والكلام الطيب ، وبهذه المزايا النادرة ، نجح في إرساء قواعد الخلافة العباسية التي عمرت ما يزيد على الخمسة قرون ، وهي فترة لم تعمرها دولة اسلامية أخرى ، كما أن مجـد العرب والاسلام وصـل إلى ذراه في عهـد هذه الدولة .



(ت : ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م)

بعدما قامت الخلافة العباسية ، وقعت هذه الخلافة أسيرة لمشاكل الشرق الاسلامي فاضطرت في كثير من الأحيان إلى عـدم الاهتمام بمشاكل الغرب الاسلامي ، ولهـذا نلاحظ أن قوى كثيرة نشطت في أجـزاء من الغرب ، فاستطاعت إقامة دول مستقلة عن الخلافة العباسية .

ومن الملاحظ أن الغرب الاسلامي بعدما دخل في الاسلام ، قامت فيه حركات معارضة كبيرة للحكم الأموي ، وكان جل هذه الحركات في بدايـة القرن الثاني يؤمن بأفكار الخوارج ، وينتسب إلى إحدى فرقهم ، وقد نجم عن حركات الخوارج نتائج كبيرة كان أبرزها قيام دولة الأئمة الرستميين في تاهرت (بعمالة وهران الحالية) ودولة بني مدرار في سجلماسة في المغـرب ويمكن أن نضيف إليهما دولة برغواطة في المغرب أيضاً .

ودولة الأئمة الرستميين الخارجية هي أول دولة فارسية تأسست في الاسلام ، فقد أسس هذه الدولة سنة ١٤٤ هـ عبد الرحمن بن رستم ، الذي كان إيراني الأصل ، قدم المغرب بعد فتحه ، والتحق بجماعات الأباضية من خوارج المغرب ، وكان على رأسهم زعيم يعرف بأبي الخطاب ، وقد استقر أبو الخطاب في وقت تأسيس الدولة العباسية في طرابلس .

وفي هذا الوقت كان قد تغلب على جـزء كبير مـن المغرب حبيب بن عبد الرحمن الفهري ، وظل هكذا حتى غلبته قبيلة ورفجومة البربرية ، وقامت هذه القبيلة بزعامة عاصم بن جميل باقتحام القيروان ، فقتلت كل قرشي كان فيها ، واستباحتها ، واستهانت بحرمة مساجدها .

وأغضبت هذه الفعلة الشنعاء أبو الخطاب الأباضي ، فتحرك من طرابلس إلى القيروان فاحتلها ، وجاء هذا في وقت وصلت فيه أخبار إفريقية إلى مسامع أبي جعفر المنصور ، فقام بارسال جيش كبيرة بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي ، وأمره بابعاد خطر الخوارج عن مصر ،والعمل على تشتيت قواهم في المغرب •

وحين علم أبو الخطاب بأخبار حملة ابن الأشعث ، غادر القيروان نحو طرابلس ، وأناب في القيروان عبد الرحمن بن رستم ، وبعد معارك طاحنة هزم ابن الأشعث جيوش الأباضية وقتل زعيمهم أبا الخطاب ، ثم توجه نحو القيروان، فخرج منها وابن رستم فاراً مع ثلة من رجال الأباضية، ولاحقته قوات ابن الأشعث ، حتى ألجأته إلى جبل عرف باسم « سوفجاج » ونزل ابن الأشعث بسفح هذه الجبل محاصراً لابن رستم ، الذي آب لنصرته فلول الأباضية ، وطال الحصار حتى مل ابن الأشعث ، فرجع إلى القيروان •

وعندما كثرت جموع الأباضية قرر عبد الرحمن ارتياد مكان يتخذه الأباضية مقراً لهم ، لذلك اتجه نحو الغرب ، حتى نزل سنة ١٦١ هـ في غيضة في سفح جبل جزول ، فاختار منها موضعاً مربعاً لا شعراء فيه ، فقالت البربر نزل تاهرت (وتفسيره الدف لتربيعه) واستعمل خشب الغابة في بناء مسجد المدينة الجديدة والبيوت ، وسرعان ما تطورت هذه المدينة ، وطارت شهرتها •

تقع تاهرت على ارتفاع ١١٠٠م،وكانت تشرف على منطقةتلول منداس، وعلى الطريق الموصلة من هذه المنطقة إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، عابرة لسهول وادي شلف ، ووجودها قرب منطقة سباسب شاسعة ، صالحة للمرعى جعل منها مركز اتصال مستمر بين البدو الرحل وسكان المدن والقرى ، وكان هذا من العوامل التي ساعدت فيما بعد على ازدهار الحركة التجارية فيها ، يضاف إلى هذا أنه انتهى قرب تاهرت طرف جبل ونشريس ، الـذي سكنته قبائل من البربر كثيرة •

وعليه لم يؤسس عبد الرحمن بن رستم مدينته في بقعة غير مأهولة ، بل

في منطقة كثيفة السكان ، فعلى بعد ٩ كلم فقط من مدينته كان يوجد مدينة عرفت فيالعهد الروماني، وصارت تدعى الآن باسم تاهرت القديمة ، وتطورت حركة العمران في المدينة ، وقام خوارجها عقب تأسيسها بمبايعة عبد الرحمن ابن رستم بالإمامة ، وعلى هذا أسس ابن رستم في وقت واحد مدينة جديدة وأسرة حاكمة جديدة .

وعندما بلغت أخبار قيام تاهرت والامامة الرستمية إلى مسامع الخوارج في المشرق خاصة في البصرة ، قصدت مجموعات من الخوارج وأخرى من الايرانيين إليهـا .

ونشطت حركات الهجرة إلى هذه المدينة ، وصار المهاجرون والتجار يبنون فيها البيوت الفخمة والقصور والأسواق والمتاجر ، صحيح ان المدينة قامت في الأصل لتلبية حاجات الأباضية ، لكن سرعان ما أستقر بها فئات من السنة والمعتزلة الواصلية ، وبنى هؤلاء مساكنهم ومساجدهم ، وتطورت الحياة الاجتماعية في هذه المدينة ، وقام نشاط تجاري وزراعي كبير فيها ، لهذا باتت تعرف باسم « عراق المغرب » و « بلخ المغرب » .

ولم ينس عبد الرحمن تعاليم دعوته والمخاطر القادمة من القيروان ، لذلك استمر يحارب حكام القيروان ،وقام بإنشاء حلف مع خوارجسجلماسة، وحقق بذلك ، وبحسن سياسته ، وبفضل سلوكه الشخصي وتقشفه في ملبسه ومأكلـه ومسكنه ، وتواضعه ، وكفـاءة إدارته ، حقق الاستقرار والقوة لدولته ، فتألفت عليها القلوب ، وتجمعت فيها فرق إسلامية مختلفة النزعات والأصول ، فكان فيها خوارج من أباضية وصفرية ، كما كان فيها شيعة وسنة ومعتزلة ، يمثلون مختلف قبائل البربر مع جماعات من العرب والعجم .

ولما أدركت عبد الرحمن الوفاة سنة ١٦٨ هـ جعل الأمر شورى بين سبعة أشخاص ، إلا أنه لم يخرج من بينهم ــ كما فعل عمر بن الخطاب ــ ابنه عبد الوهاب، فلما توفي وتداول القوم فيما بينهم اختار أكثريتهم ابنه عبد الوهاب ، وهكذا تغلبت فكرة التوريث على فكرة الانتخاب ، وأنكر بعض الخوارج ذلك ، فانفصلوا عن أباضية تاهرت ، فعرفوا بعد ذلك بالنكارية ، وسيكون لهؤلاء دور كبير فيما بعد خاصة في الثورة ضد الفاطميين في افريقية .

عبد الرحمن الداخل

(ت : ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م)

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م ، وكانت أمه بربرية من سبي المغرب ، وقد توفي أبوه عندما كان طفلاً ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، ودربه فأحسن تدريبه .

وعندما سقطت الخلافة الأموية اختفى عبد الرحمن فيمن تخفى من أفراد اسرته ، وتحت وطأة المطاردة ، هرب نحو فلسين فمصر ، ومن ثم توجه إلى المغرب يرافقه مولى له اسمه بدر .

وكانت بلدان المغرب لم تدخل بعد تحت السلطة العباسية الناشئة ، وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي أفراداً من البيت الأموي على اللجوء اليه ، وطلب الحماية عند قبائله ، وهذا ما صنعه عبد الرحمن بن معاوية ، تخفى أولاً في برقة ، ثم توجه نحو تاهرت في المغرب الأوسط ، ثم قصد قبائل مكناسة ، وكانت تقطن فيما يعرف الآن بمنطقة تازة من المملكة المغربية ، ومن أراضي مكناسة ، وبعد ما مضى عليه خمس سنوات مشرداً من مكان إلى آخر يجرب حظه هنا وهناك ، توجه إلى أراضي قبيلة أمه ، وكانت على مقربة من سبته .

ومن أحواز سبته استطلع عبد الرحمن أحوال الأندلس ، فرأى أرضاً صالحة للمغامرة واوضاعاً سياسية تساعد ، وكانت الأندلس تعيش آنئذ تحت مظلة الصراع بين البربر من جهة والعرب من جهة ثانية ، وكان العرب يعانون من التمزق القبلي ، فلقد كانت ولاية الأندلس آنئذ بيد يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، لكن ذلك كان ظاهرياً فقط ، فقد أستأثر بمقاليد السلطة أحد الزعماء

واسمه الصميل بن حاتم ، وكان هناك صراع خفي مرير بين الأمير الشرعي والحاكم الفعلي ، كل منهما يسعى للايقاع بصاحبه والتخلص منه ٠

عرف عبد الرحمن كل ذلك ، فقام بارسال مولاه بدراً إلى الأندلس ، حيث اتصل بجماعة من موالي بني أمية ، فدبر معهم أمر جواز عبد الرحمن إلى الاندلس لنيل الأمارة فيها ، وعبر عبد الرحمن إلى الاندلس ، وأخذ يتحرك بسرعة وبراعة وشجاعة لاستخلاص الامارة ، ومع الأيام ازدادت قوته مقابل ضعف خصومه ، ونجح يوم عيد الأضحى لسنة ١٣٨ هـ (١٤ ـ مايس ٧٥٦م) في الدخول إلى قرطبة التي كانت عاصمة الأندلس الاسلامية ٠

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعاء في هذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان آنذاك هو أبو جعفر المنصور ، وكـان المنصور عدواً للأسرة الأموية ، لذلك كان من غـير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة في البنيان السياسي للمسلمين ٠

فقد احتفظ عبد الرحمن لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الاندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خليفة ، ذلك أنه لم يكن أول حاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيـلاءاً ، إلا أن الذين سبقوه كانوا بعد الاستيلاء تعترف بهم سلطة الخلافة وتمنحهم الشرعية ، ولم يحصل ذلك لعبد الرحمن ، فكان بذلك أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عن جسم الدولة الاسلامية فصلاً سياسياً كاملاً ، ويسعى في تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي ، فعملياً كانت الاندلس دائماً مستقلة ، يربطها خيط واهٍ بالسلطات الشرعية لإفريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهداً جديداً في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الاسلام ، ووحدة أراضيه السياسية ٠

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديـد من المسائل الفائقة

الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس ، وأن يوجد حلاً لمشاكل الصراع بين العرب والبربر ، وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لدولته، فلقد وافق تسلم عبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الاندلسي ، وخاصة بين صفوف السكان الاصليين ، ذلك أن أعداداً لا بأس بها من هؤلاء بدأت بالتحول إلى الاسلام لأسباب نجمت اما عن قناعات خاصة ، واما حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنيسة الاسبانية وافلاسها أمام الدعوة الاسلامية ، والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعي هؤلاء الذين دخلوا في الاسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في المشرق ، كما شابهتها في بعض الوجوه •

وبهرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الابداع في ثقافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلى معظم هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قبل الفتح الاسلامي ، وتبنوا كل ما كان للعرب الا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين •

لقد ضمت كل فئة من فئات سكان الاندلس ، جماعات راضية وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن العديد من الثورات ، وغالباً ما لجأ إلى اعتماد وسيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للابقاء على نوع من التوازن بين العصبيات القبلية ، وفي نفس الوقت أخذ في اعداد جيش من المرتزقة والعبيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السابق ، كما أن تجنيده لجيش خاص ، جعله يختلف عن سابقيه من حكام الاندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبين العربيين ، وبدلاً من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس ، والرابط الذي يجمع القوى ، واستدعى هذا النشاط بلاطاً مع اضفاء صفات خاصة على الأمير •

وكان لانشاء البلاط ، واقامة الجيش المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك اقتضى نفقات كبيرة ، مما دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية ، وإلى تنويع الضرائب وزيادتها ، وكل هذا أيضاً لم يكتب له أن يقوم دون ردات فعل ، ومشاكل مستحدثة معقدة .

لقد واجه عبد الرحمن عدداً كبيراً من الثورات ، تورطت فيها القوى العربية حيناً أو تورط بها البربر وسواهم حيناً آخر ، كما قادت الصراعات إلى مواجهة مع الدولة الكارولونجية أيام شارلمان ، ونجح عبد الرحمن في التصدي لكل القوى التي واجهته ، وظل يكافح حتى قضى في ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ / ٣٠ ايلول ٧٨٨م عن عمر يقارب الستين ، وذلك بعد ما أمضى حوالي ثلث قرن يعمل على تأسيس ملك لبني أمية في الغرب بعدما انقطع في الشرق ، وقد جلب نجاحه اعجاب معاصريه به ، فدعاه المنصور العباسي بصقر قريش ، كما أثار هذا النجاح أعجاب الكتاب والمؤرخين الذين وجدوا وما زالوا يجدون في حياته الكثير الكثير مما يمكن الكتابة عنه .

ادريس الأول

(ت : ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م)

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ ، فالبعض يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق ما عداه من الناس في وقته ، وبذلك تسنى له أن يتربع على مقعد للزعامة ، وأن يحدث تغييرات كبيرة، وانجازات خطيرة، تأثر بها معاصروه ومن أتى بعدهم بدرجات، مما تسبب لـه الشهرة والخلود ، والبعض ينكر دور البطل الفرد في صنع التاريخ ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي صنع أحداث التاريخ ، إنمـا إذا راعينا متذكرين أن لكل واقعة من الوقائع ، العـديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة ، وأن المسببات هـي سابقة للواقعة وأصل لهـا ، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن البطل الفرد وحـده لا شيء بدون جماهير تستجيب لقضيته ، التـي تعتبرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادته لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد .

على هذا يمكن رؤية الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي ، ولها أسباب قريبـة ، وحـين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الإنجاز ، يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الإنجاز وقد يكون الانجاز كبيراً ، له فاعلية الاستمرار ، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل ، وقيام الفراغ والحاجة ، يقودان نحو الاستغلال الأعظم لإنجاز « البطل » وهكذا يبدأ الناس في اغناء دور البطل بتفسيرات وشروح ، ثم باضفاء مواد جديدة عليه ، حتى يتم تحويله من واقعة تاريخية إلى واقعة شبه اسطورية .

ويمكن لنا أن نرى هذا الحال في شخصية المولى إدريس الأول في المغرب

الأقصى ، ففي دولة مغرب اليوم ــ كما في الماضي ــ يلاحظ الإنسان أن السواد الأعظم من ملايين سكان المغرب من أصل عربي أو بربري على السواء ينسبون أنفسهم إليــه ، كما أنهم يعتقدون أن كيــان دولتهم ظهر لأول مره على يديــه ..

والمولى ادريس هو واحد من أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وأبناء الحسن بن علي من حزب الشيعة ، لم يكن لهم نشاط يذكــر في العصر الأموي ، بــل شغلوا أدوارهم التاريخية في العصر العباسي، ففي أيام أبي جعفر المنصور ثار اثنان من أبناء عبد الله وهما محمد النفس الزكية ثم أخاه ابراهيم ، وقد استطاعت جيوش المنصور القضاء على ثورتيهما وقتلهما مع أعداد كبيرة من الشيعة ، وكــان النفس الزكية قبــل إعلان ثورته ، قد أرسل دعاته وإخوانه إلى أمصار العالم الإسلامي للدعوة له ، وللإعداد للثــورة على العباسيين ، ومن إخوانه الذين بعثهم إلى شمال افريقية كان عيسى ، وقد نشط في تونس ، وسليمان وقد نشط في المغرب الأوسط ، ثم تحول إلى منطقة الصحراء .

وفي أيام الخليفة الهادي حفيد المنصور ، ثار حسني جديد في الحجاز ، هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان ذلك سنة ١٦٩ هـ ، وسار إلى مكة لأخذها في موسم الحج ، فتصدت له القوات العباسية ، وأوقعته بفخ على بعد ثلاثة أيام من مكة ، وبطشت به وبأنصاره بلا رحمة ، ثم لاحقت من نجا من المعركة لاستئصاله .

وكان إدريس بن عبد الله ممن شارك بموقعة فخ ، وكتبت له الحياة ، ففر مع مولى له اسمه راشد نحو مصر ، ومنها إلى المغرب الأقصى ، حيث حل فيه سنة سبعين ومائة للهجرة ، وقصد مدينة طنجه ، التي كانت قاعدة المغرب الأقصى ، وأهم مدنه .

وفي سنة اثنتان وسبعين ومائة ، توجه ادريس نحو داخل المغرب ، فنزل مدينة وليلي ، في منطقة جبل زرهون الحصينة ، والكثيرة الثراء الزراعي ،

خاصة شجر الزيتون ، ومدينة وليلي تقع الآن خرائبها على مسافة حوالي العشرين كيلو متراً من مدينة مكناس ، في وسط المغرب ، وهي مدينة أسست في عهد الحكم الروماني للمغرب ، وآثارها ذات مكانة لا بأس بها .

كانت وليلي تحكم من قبل قبائل أوربة البربرية ، وقد اتصل المولى ادريس بزعيم أوربة ، وكانت هذه القبائل على درجة كبيرة من القوة وكثرة الرجال ، كما يبدو أنها متأثرة بشكل كبير بحب آل البيت ، وبسرعة عجيبة تمكن ادريس من أن يجمع حوله جيشاً من رجالات القبائل ، وأن ينال البيعة بالإمامة ، وهكذا شرع في تأسيس مملكة تحكم مناطق المغرب الأقصى مع مناطق من المتوسط ، ولقد توفرت له النجاحات بسرعة مدهشة ، حيث لم يكن في المغرب سلطة للعباسيين ، كما أن الإمارة الأموية في الأندلس كانت مشغولة بقضاياها الداخلية ، خاصة حركة المولدين وثورتهم الكبرى بزعامة ابن حفصون .

وطارت شهرة المولى ادريس في شمال افريقية ، فقصده عدد من أهل القيروان وسواهم ، وربما من أهل الاندلس ، واستطاع ادريس أن يستفيد من جهود هؤلاء في تكوين نواة إدارية لمملكته الناشئة ، وأخاف نجاح ادريس دولة الأغالبة في تونس ولم يكن في مقدورها أن تفعل شيئاً عسكرياً ضده ، لهذا رفعت الأمر إلى بغداد ، التي كان خليفتها آنذاك الرشيد .

وكان الرشيد أسير مشاغله الخاصة التي تبدت في ثورات في خراسان مع نشاط عسكري للامبراطورية البيزنطية على الحدود الإسلامية ، لهذا لم يكن بمقدور الرشيد إرسال جيش كبير إلى المغرب ، ثم إن الأغالبة أنفسهم ما كانوا ليحبذوا قدوم مثل هذا الجيش .

لذلك قرر الرشيد أن يبعث أحد رجالاته إلى المغرب الأقصى ليتصل بإدريس ، ويدبر أمر اغتياله ، ووقع الأختيار على رجل اسمه سليمان بن جرير ، فقدم إلى وليلي ، واستطاع أن يلتحق بخدمة المولى إدريس ، وينال ثقته ، وبعد جهود متواصلة استطاع أن يدس له السم ويقتله ، وقد فر سليمان بعد ما

قضى فعلته هذه ، واستطاع أن يصــل حياً إلى العراق حيث أخبر الخليفة بنجاحه ، وكان مقتل إدريس سنة سبع وسبعين ومائة ، أي بعد خمس سنوات من وصوله إلى وليلي ، ويعتقد المؤرخون المغاربة ، أنه لم يدفن داخل مدينة وليلي ، بل إن ذلك كان على مقربة منها ، وفي المغرب الآن على مسافة ميلين تقريباً من وليلي تقوم قرية صغيرة جبلية مرتفعة ، وتعرف هذه القرية باسم مولاي ادريس ، وهي تحوي ضريحاً فخماً للغاية بني حولــه مسجد كبير ، وهذا الضريح يعتقد بأنه يحوي رفات المولى إدريس ، وهو محج لأهل المغرب، كما أنه مقر لنشاطات دينية موسمية كبيرة .

إلى المولى إدريس ينسب التفكير ، أو الشروع في تأسيس مدينة فاس ، التي شيدت في عهد إدريس الثاني ، إذ يقال بأن جارية بربرية اسمها كنزه ، من جواري المولى إدريس ، أنجبت بعد وفاته غلاماً ذكراً ، سمي إدريساً على اسم أبيه ، ومن صلب ادريس هذا ، يؤمن ملايين من أهل المغرب ، وحتى من زنوج أفريقية بأنهم انحدروا ، فهل هذا حصل فعلاً أم أن هؤلاء الملايين وأجدادهم أرادوا ذلك ، فكونوه حدثاً تاريخياً ....؟!

الهادي إلى الحق

(ت : ٢٩٨ هـ / ٩١١ م)

لقد لقنت الثورة العباسية جميع الأحزاب الاسلامية التي طمحت لحيازة السلطة درساً بليغاً للغاية ، كان من بنوده توجب اختيار المناطق النائية عن مركز الخلافة للنشاط ضدها ، وهكذا نلاحظ أن الذين ثاروا على الدولة العباسية في بلدان الأطراف مثل الأندلس وشمال افريقية واليمن حققوا قسطاً وافياً من النجاح ، ومن المعلوم أن جل المسلمين الذين ثاروا على الدولة العباسية انتموا إما إلى أحزاب الشيعة أو الخوارج .

وأحزاب الشيعة كما هو معلوم صدرت عن ثلاث مجموعات رئيسية ، اثنتان كبيرتان وثالثة أدنى ، والمجموعة الأولى ارتبطت بالحسين بن علي وأولاده ، والثانية هي التي ارتبطت بالحسن بن علي وآله ، والثالثة جماعات الكيسانة التي نادت بإمامة محمد بن الحنفية ثم بعض أولاده من بعده .

وعندما يطالع المرء تاريخ العصر الأموي يجد أن أفراد الأسرة الحسينية هم الذين حملوا راية الثورة الشيعية ضد الأمويين ، إنما مع قيام الدولة العباسية نشط آل الحسن بعد طول صمت وانتظار وفجروا عدةثورات كبيرة، ويبدو أن آل الحسن بن علي قد عظم عددهم وباتوا يكونون عدة أسر ضخمة كان من أبرزها أسرة عرفت باسم الاسرة الرسية ، نسبة إلى مكان سكناها الذي عرف بالرس ، وهو قرية على مقربة من المدينة المنورة .

لقد اهتم عدد من أفراد هذه الأسرة ببلاد اليمن ونشطوا فيها سياسياً وفقهياً ، ثم أن أفراد هذه الأسرة تبنوا مذهب الإمام زيد بن علي وطوروه ، وعلى أيديهم انتشر هذا المذهب وظل قائماً يعمل به خاصة في اليمن ، وكان من أشهر رجالات الاسرة الرسية القاسم بن ابراهيم (١٧٠ ــ ٢٤٢ هـ)

وأشهر من القاسم وأعظم دوراً في تاريخ اليمن وتاريخ الإسلام حفيده يحيى بن الحسين بن القاسم، الذي عرف بلقب الهادي إلى الحق، ذلك أنه نجح حيث أخفق جده ، وأسس ، مركزاً عظيماً لاسرته في اليمن ظل قائماً سياساً قرابة الألف سنة ولم ينقطع دينياً بل ما زال مستمراً .

لا ندري سنة ولادة الهادي إلى الحق ، لكن لربما كان ذلك ما بين (٢٣٠ ــ ٢٤٠ هـ) ، ولقد تهيأ له نيل ثقافة دينية عالية للغاية ، وهذا واضح في سيرة حياته وفي التراث الذي خلفه لنا ، وجمع مع الثقافة شجاعة وإقداماً ومثالية كبيرة في العمل وتشبه بجده المصطفى ﷺ ، لهذا عندما بلغ من العمر قرابة الأربعين شعر بأنه مؤهل للإمامة ، متمتع بصفات كاملة ، لذا رأى أنه وجب عليه الخروج وذلك حسب مبادىء العقيدة الزيدية .

وقام الهادي بمراسلة شخصيات المدينة وسواها ، يدعوهم إلى طاعة الله تعالى والمجاهدة لاعدائه والمناصرة لأوليائه ، والإظهار لدينه والاحياء لسنن نبيه ، ويعلمهم فيها بأن « حجج الله قائمة عليهم فليخافون الله في سرهم وعلانيتهم وليجيبوا داعي الله » ، وقد شجعه على ذلك استلامه لمراسلات وصلته من بعض جهات اليمن تدعوه للقدوم إلى اليمن والخروج بها .

وفي سنة ٢٨٠ هـ استجاب الهادي لدعوة اليمنيين له ، فذهب إلى اليمن ووصل إلى مقربة من صنعاء لكن الحظ لم يحالفه ، فعاد أدراجه إلى بلده ، حيث ظل إلى سنة ٢٨٣ هـ ، فتلقى من جديد دعوات ملحة من عديد من جهات اليمن ، فاستجاب لها ، وتوجه مجدداً نحو اليمن فوصل إلى صعده سنة ٢٨٤ هـ وأخذ يعمل فيها محاولاً تأسيس دولة موحدة تحت لوائه ، واتخذ لنفسه لقب الهادي إلى الحق وبات اتباعه ينادونه بلقب أمير المؤمنين .

وكانت اليمن في أواخر القرن الثالث ممزقة تتنازع الأمور فيها عدة قوى محلية وخارجية ، ثم إن الهادي إلى الحق لم يكن صاحب الدعوة الشيعية

الوحيد في اليمن ، فقد كان هناك دعاة الاسماعيلية الذين حققوا نجاحات خطيرة ، وفجروا ما يعرف بثورات القرامطة خاصة بين قبائل بلحارث ويام •

ولمدة خمسة عشر عاماً أي حتى سنة وفاته في ٢٩٨ هـ بذل الهادي غاية جهده للسيطرة على اليمن جميعها لكن التوفيق لم يحالفه بشكل عام ، حيث أنه لم يتمكن من القضاء على القرامطة ، وأخفق في نيل طاعة وإخلاص عدد كبير من سادة القبائل وأصحاب القلاع الجبلية في البلاد •

ورغم هذا فهو قد أقام لاسرته قاعدة دينية سياسية ، لذلك إذا اعتبرنا نجاح الهادي السياسي في اليمن محدوداً فإن نجاحه الديني كان واسعاً ومهماً، فالهادي رغم أنه كان من أتباع الامام زيد ، كان مجدداً في هذا المذهب ، ومطوراً له ، وفي الحقيقة ليس من المغالاة أبداً أن نقول أن ما يعرف باسم المذهب الزيدي في اليمن هو أحق أن يدعى مذهباً هدوياً أكثر من أي شيء آخـر •

وتجربة المذهب الزيدي الهـدوي في اليمن تستحق الدراسة بشكل عميق ، لأنها التجربة الشيعية الوحيدة التي جمعت بين معطيات العقل وتراث النبـوة •

المهدي الفاطمي

(ت : ٣٢٢هـ / ٩٣٤م)

المهدي عند الاسماعيلية هو: « الذي يهدي إلى الأمر الخفي،وهو القائم بالحق عند حلول الوقت ، بعد انقضاء عهد غيبة الأئمة ، بعد استيلاء أهل الظلم والعسف والجور على مقاليد الأمور ، وهو حين يخرج يخرج مغضباً ، تؤيده ملائكة الرحمن ، وتسير أمامه ، وتواكبه أينما تحرك ، علـى رأسها جبرائيل على فرس أبلق ، بسراج من نور ، وعليـه سرج من ذهب ، وعلـى جبرائيل تجافيف من نور ، ومغفر من حديد ، وبين يديه حربة من نور .... في سنان الحربـة النصر ، وفي وسطهـا الرعب ، وفي زجهـا الظفر ، لذلك لا تتولى للمهدي راية إلى بلد إلا قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر ، ولا يهدي بالدلالة أهـل بلد إلا وهداهم الله ، ومن أبـى ذلك رماهم بحجارة الكبريت ، يردهم أجمعين إلى هداه ، يستسلمون بأجمعهم إليه ، ويكسر الصليب ، ويهدم البيع ، ويقتل الخنزير ، وتنقضي دعوة الشرك ، وتظهر دعوة الفرج ، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصاً ، « وآنئذ » يشرب الثور والسبع من حوض واحد ، ويخلف الراعي الذئب على غنمه » .

والمهدي ينبغي أن يكون من قريش ، ثم من بني هاشم ، ثم من بني عبد المطلب من ولـد الحسين بن علي ، لأن الحسين من ولـد فاطمة بنت الرسول ﷺ ، واسم المهدي عبد الله مثل اسم أبي الرسول ﷺ .

في سنة ٩٠٩ تمت ولادة الخلافة الفاطمية، وهي أول وأعظم خلافة شيعية في التاريخ ، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي ، لكنه كان مهدياً من حيث الاسم لا من حيث التصور « الطوباوي » انتصر بفضل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم ، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية ، لا بفضل

الملائكة ، وتأييد السماء ، وكان لتبدد الصورة « الطوبابية » أو السرابية ، وقيام دولة الواقع ، ردات فعل شديدة ، لكن قبل الاستطراد في هذا الحديث ، لعل من المناسب أن نحاول التعرف إلى شخصية المهدي ، واسمه ونسبه .

الخلاف في مصادرنا حول أصل المهدي ونسبه شديد ، فقد ذهب كل مصدر مذهباً خاصاً في تحديد اسم المهدي ، ونسبه قبل أن يكون مهدياً ، ثم بعد ما صير نفسه كذلك ، فغالبية المصادر العباسية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي ، وتعزوه حيناً إلى الفرس المجوس ، وحيناً آخر إلى اليهود وغير ذلك ، وهي وإن اختلفت أيضاً في تحديد اسمه قبـل استلامه الخلافة تتفق أن اسمه بعدما صار خليفة هو عبيد الله .

إن مسألة الطعن في نسب المهدي والفاطميين مسألة مرفوضة ، ذلك أن الكتاب في العراق خاصة أخذوا بها مسايرة للدولة العباسية التي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح ، فلجأت إلى وسيلة الطعن بالنسب واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق إلى التكتم والتخفي الشديد ، نتيجـة للملاحقـة العباسية ، ومن المدهش أن السلطات العباسية ، اكتشفت تحركات المهدي ، وكانت قادرة على ملاحقته من بلاد الشام إلى مصر فشمال أفريقية ، وكانت أثناء الملاحقة هذه ترى بداهة صحة نسبه العلوي ، ثم بعد ما انتصر نفت عنه هذا النسب ..!

وفيما يتعلق باسمه فنحن لا نملك من المصادر الاسماعيلية والعباسية سواء ما يساعد بشكل حاسم على اثبات أو نفي كونه كان يحمل اسماً غير الاسم الذي عرف به بعد استلامه الخلافة ، ومرد هذا الأمر يعود إلى عاملين رئيسيين : أولهما مرتبط بما أثير حول النسب ، والثاني مرتبط بقضية التكتم والتخفي ، فلعل ذلك استلزم منه اعطاء نفسه أسماء مختلفة بين حين وآخر .

ومع هذا كله فهل كان اسمه بعد استلامه للخلافة عبيد الله ؟ ان اسم عبيد الله هو مصغر عبد الله ، ومن المعلوم أن في التصغير تحقير ، ومرة أخرى ، كما أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي سعت إلى تحقيره بتصغير

اسمه ، ذلك أن اسم المهدي في المصادر الاسماعيلية ، وفي الكتابات التاريخية المعاصرة له ، ثم على الصنوج والنقود هو عبد الله ويوجد الآن في القيروان ديناران ذهبيان من دنانير المهدي كانا قد ضربا فيها الأول سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م والثاني سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ونقشهما :

الامام	عبد الله
لا إله إلا الله	محمد رسول الله
وحده لا شريك	
لـــه	
المهدي بالله	أمير المؤمنين

ان التوسع في هذه المسائل مكانه ليس هنا ، والمهم الآن قوله هو أنه بعدما تسلم المهدي زمام الأمور من أبي عبد الله الداعي ، وما أن أصبح أميراً للمؤمنين ، حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه ، حسب قاعدة الامامة عند الاسماعيلية ، ذلك أن الامام هو وحده صاحب الحق في الحكم والتشريع ، وقام المهدي بجمع الدعاة ، وعمل على اعادة تنظيم الدعوة ، وجهد في سبيل ايجاد جيل جديد من الدعاة ، ولقد أصاب في هذا السبيل نجاحاً كبيراً ، ذلك أن زعامة الفكر الاسماعيلي ، ستؤول بعد قليل إلى جيل من الدعاة جلهم من أصل مغربي ، وسيظل هذا الجيل متمسكاً بهذه الزعامة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصر •

وأصبحت الدعوة الاسماعيلية الآن دعوة علنيـــة تدعمها سلطة دولة فتية ، وهنا لا بـــد لنا من أن تتساءل عن التجديدات التي أدخلت الآن على أفكار الدعوة ، ثم عن التأثيرات المحلية عليها ؟ يروى بأن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة ، ولعلها تضمنت النتاج الفكري الاسماعيلي ، وإذا صح هذا ، فان هذا النتاج هو الذي اتخذ أساساً في العمل الدعوي الجديد ، وعليه فقد بقيت الأفكار الظاهرية هي هي ، وكذا التأويل الباطني •

وجاء لاعادة تنظيم الدعوة ، والمجاهرة بها وبأفكارها ، مـع ممارسة المهدي للسلطة ومباشرته الحكم بنفسه ردات فعل اسماعيلية داخلية ، وغير أسماعيلية خارجية ، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالأساس عن حصر المهدي للسلطات وعمله من أجل اقامة دولة مركزية على غرار الدولة العباسية ، وكان هذا حرماناً من الغنائم للذين تحملوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الداعي وسواه ، ثم كان في ذلك انتكاسة عقائدية وتراجع ، ذلك أن إقامــة سلطة مركزية شديدة شيء ، والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر عدا عن مشاكل عقائدية أخرى ارتبطت بالامامة وولاية العهد .

ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية ، وقام بتصفية دموية لأبي عبد الله الشيعي ، ومن سانده ، وجاء نجاحه تنيجة بذله الأموال وشرائه زعماء قبائل كتامة .

وكان للمعارضة من الخارج قصة أخرى بدأت في الأسبوع الأول لنزول المهدي برقادة ، حيث كانت قصور الأغالبة على مقربة من القيروان فعندما حلت الجمعة ، أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة فيقول : عبد الله الامام ، المهدي بالله ، أمير المؤمنين ، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى إلى ذكر المهدي ، قام أحد رجالات المالكية وعارض ذلك ، وأيده علماء القيروان وسكانها ، ثم اشتدت المواجهة وتحولت إلى فتنة دامية داخل القيروان ، ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من أهل القيروان ، وكاد الحال أن يتحول إلى ثورة في القيروان ضـد الدولة الجديدة وقبائل كتامة وهنا أدرك المهدي أنه لا يستطيع الاستمرار في الحكم من القيروان لأسباب دينية واجتماعية وسياسية ، وعلى الرغم من أن أسباباً اقتصادية جمة كانت تتطلب البقاء فيها .

في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م خرج المهـدي بنفسه يرتـاد لنفسه موضعاً على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة ، فلم ير على ساحله موقعاً أحصن من موقع المهدية ، وهو جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، فتأمله فأعجب به ، فبنى فيه مدينة في غاية الحصانة والاحكام ، وذلك أنه أراد أن يمتلك حصناً بحرياً يعتصم به هو ثم من يخلفه ، حيث أنه أدرك أن شعوب تونس والمغرب لن يمنحوه الولاء صرفاً ، ولن يدعوه بينهم إذا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً[٣] .

وسمى المهدي مدينته الجديدة باسم المهدية ، وهذه حالة شاذة في تاريخ الإسلام ، لكن رغم ذلك فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية مثالية ، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة ، ونظراً لضيق رقعة الجزيرة قام المهدي بردم جزء من البحر ، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لحوالي ثلاثين سفينة ، وأقيم على مدخل هذا المرسى برجان عظيمان للحراسة ، وصل بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون طروق السفن الغريبة إلى الميناء ، ونقر في الصخر أيضاً داراً للصناعة تتسع لثلاثمائة سفينة ، كما بنى في المدينة الاهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن ، ونظراً لندرة المياه في الجزيرة ، فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الأمطار ، وبنى المهدي لنفسه قصراً وآخر لولي عهده ، كما بنى مسجداً كبيراً ، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب ، حيث أن له بوابة كبيرة ، قام على مقربة منها برجان في غاية الضخامة ، وقد جعل هذا الحال واجهة المسجد أشبه بواجهة إحدى القلاع ، وجاءت الأبراج مجوفة حيث كانت تملأ بمياه الأمطار ، وكان الإمام يدخل إلى المسجد من بوابته الكبيرة ، ذلك أن حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة كما كانت العادة منذ أيام معاوية ابن أبي سفيان ، اثر محاولة اغتياله على يد الخوارج ، والجديد في بناء مسجد المهدية أيضاً ، أن الممر الذي كان يصل البوابة بالحرم كان مسقوفاً ، وتعليل هذا مرتبط بأمر المظلة وما يتعلق بها عند الفاطميين .

فمن المشهور أن النبي ﷺ كان إذا تحرك تظلله غمامة ، لذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية ، اتخذ الخلفاء لأنفسهم مظلة كانت تحمل فوق رؤوسهم ، وحيث أنه كان من غير اللائق ، أو من المحال حمل المظلة داخل المسجد ، عند دخول الخليفة إليه ، تم بناء رواق خاص مسقوف جاء على شكل المظلة ليمر الخليفة تحته عند دخوله المسجد .

وعندما انجز بناء المهدية انتقل المهدي إليها مع أركان دولته ، ثم أمر بعد فترة أن تحول التجارة إليها ، وكان في ذلك مشقة كبيرة على التجار ، وعقوبة

قاسية لأهل القيروان ، لهذا سنجد حفيده المنصور اسماعيل يترك المهدية ، ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لإرضاء التجار ، وكسب ود أهـل القـيروان .

وقد جعل المهدي أسواق المدينة في داخل الجزيرة ، وحرم على التجار البيتوته في الجزيرة ، فكانت بضائع التجار تبقى رهينـة داخلها تمنعهم من التحريض على أو المشاركة في أية ثورة تدبر في الليل ، وإذا حدث وانفجرت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها .

ومن المهدية أخذ المهـدي بتوجيه الدعاة إلى جميـع مناطق البلدان الإسلامية في المشرق والمغرب ، وكانت الدعوة الإسماعيلية قد قسمت العالم إلى مجموعة من الجزر ، وأوكلت شؤون الدعوة في كل جزيرة إلى داع أو أكثر ، وارتبط الدعاة جميعاً بداع للدعاة ، ارتبط بالامامة مباشرة ووجه من قبلها ، وحيث أن هدف الدولة الفاطمية الناشئة كان إزالة الخلافة العباسية أولاً وقبل كل شيء ، فقد نشط الدعاة بشكل متزايـد في الشرق وحققوا بعض النجاحات .

وبعدما حقق جيش الدعاة نجاحاتهم ، جهز المهدي جيوشه وأرسل أكثر من حملة ضد مصر ، وكان نصيب هذه الحملات الإخفاق ، ومات المهدي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م دون أن يحقق حلمه في فتح مصر والاستيلاء على المشرق ، لكن رغم هذا إن ما أرساه من قواعد للخلافة الفاطمية كان متيناً ، لهذا عندما تعرضت هذه الخلافة بعده إلى أزمات كبرى نجت بفضل ما دبره ، خاصة ببنائه المهدية التي ما زالت قائمة ، تشهد له بالخلود ، وبعـد المهدي عاشت الخلافة الفاطمية أكثر من قرنين من الزمن حيث تم فيها انجازات رائعة، ويعيش اليوم في العالم ملايين الاسماعيلية الذين ما زالوا يحملون في قلوبهم التقديس والتبجيل للمهدي باني دولتهم العظمى في التاريخ .

عبد الرحمن الناصر

(ت : ٣٥٠هـ / ٩٦١م)

عاشت الأندلس في النصف الثاني للقرن التاسع فترة عصيبة في تاريخها ، كادت فيها الفتن الداخلية والمخاطر الخارجية أن تعصف بالاسرة الأموية وتزيلها من الوجود . وعندما وصلت الأمور إلى حافة الهاوية تسلم الإمارة شاب في بداية العقد الثالث من عمره ، حمل نفس الاسم الذي حمله صقر قريش ، فاستطاع ليس فقط أن يعيد الوحدة والاستقرار إلى الاندلس ، وإنما حول الإمارة إلى خلافة والدولة الصغيرة إلى امبراطورية .....

في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م توفي الأمير عبد الله ، فخلفه حفيده عبد الرحمن ، وكانت « الفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحداً ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماتها، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ، ... حتى دانت له البلاد وانقاد له أهل العناد » .

وعبد الرحمن هذا هو ابن محمد بن عبد الله ، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف ، فقتله أبوه عبد الله به ، وقام الأمير عبد الله بضم حفيده إليه ، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه ، وكان يسكنه قصره ، وبعد وفاة جده بويع له بالامارة .

لقد كان على عبد الرحمن عندما تسلم الإمارة أن يواجه المخاطر الداخلية التي مثل أعتاها ثورة ابن حفصون ، كما كان عليه أن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من مملكة ليون ، ومن إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته،ثم بطول المدة التي

حكم فيها من إعادة الوحدة إلى دولته ، وابعاد الخطر الخارجي عنها ، وإيصالها إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة .

وفي سبيل إعادة الوحدة إلى الاندلس قاد عبد الرحمن في بداية حكمه عدداً من الحملات ، ووجه عدداً آخراً ، فاستطاع تصفية ثورة ابن حفصون ثم استعاد عدداً من مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى ، وبعد ذلك قام سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م بإعلان نفسه خليفة ، وبعد عامين على هذا الاعلان أكمل مدّ سيطرته على باقي مدن الأندلس وثغوره فلقب نفسه بالناصر لدين الله .

ويلاحظ المرء أن عبد الرحمن صرف جهوده خلال العشرين سنة الأولى من حكمه لاعادة توحيد الأندلس ، لكن رغم أن هذا استهلك جل نشاطه ووقته ، نجده خلال ذلك كله لا يغفل عن الحرب ضد النصارى خاصة في مملكتي نافار وليون .

وكانت هذه الممالك قد انتابها الضعف إثر تفكك أوصال الامبراطورية الكارلونجية ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد الأندلس ، ونقصد بمملكة ليون المملكة التي شملت منطقة أشتورش التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الايبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢ وحتى سنة ٩٥٠ يعرف برذمير ، وتصدى رذمير هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ، ويذكر أنه انتصر عليه انتصاراً ساحقاً سنة ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م ، مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك كما قيل حوالي المائة ألف مقاتل ، وعلى الرغم من هذا لم ينجم عن هزيمة عبد الرحمن هذه نتائج عسكرية خطيرة، فقد انشغل رذمير بمشاكل داخلية مما مكّن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م أضعفت الخلافات الداخلية الدولة النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء ، وقبول بالتحكم ودفع الجزية .

ويمكن القول أنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد ، وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماماً على شبه الجزيرة الايبيرية كلها ، ورغم ذلك

لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف شبه الجزيرة قهراً وليس فتحاً ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطراف ، وبقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة ما دامت قوية ، مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبـه الجزيرة الايبيرية ، لعـدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسة ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ، ولطبيعة الأرض والمناخ الصعب ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هـذه المناطق ، لكن صعوبة الحيـاة الجبلية ، ووجود الخطر الدائم دفعاهم إلى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة .

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الاندلس فقط ، بل أخذ بالتوسع في المغرب ، وذلك أنه من المقرر أن حكومات اسبانية القوية ــ عبر التاريخ ــ عندما تخفق في التوسع عبر البيرنية داخل أوربة ، تدير وجهها للتوسع في الشمال الافريقي ، ويسهل دائماً ايجاد التعليلات المسوغة لذلك .

وعلى هذا نجد عبد الرحمن بعدما حلّت به هزيمة سنة ٩٣٩ م ، ينحرف نحو المغرب فيتدخل بشؤونه الداخلية متذرعاً حيناً بالعمل ضد الفاطميين وبأسباب أخرى حيناً آخر ، وبالفعل نجح عبد الرحمن في احتلال سبتة وأجزاء أخرى كانت تابعة للأدارسه ، لكن الفاطميين تمكنوا في بداية حكم المعز لدين الله من استعادة معظم أجزاء المغرب ،

ومن الواضح أن اتخاذ عبد الرحمن للقب الخلافة وتسمية نفسه بالناصر لدين الله كان له علاقة مباشرة بظهور الفاطميين وكان له معاني الرد عليهم . لكن أهم من هذا كان للصراع مع الفاطميين على أرض المغرب آثاره البعيدة على هذه المنطقة وسكانها حضارياً وسياسياً واقتصادياً بحيث دفع إلى الأمام الجهود التي سببت ظهور شخصية دولة المغرب الأقصى المسلمة ، وهي جهود بدأت مع ادريس الأول ، ووضحت مع يوسف بن تاشفين ثم تجلت مع عبد المؤمن بن علي فيما بعد ....

وبصرف النظـــر عن كل هذا ، فان نجاحات عبـــد الرحمن وتوسعـــه الامبراطوري ، مع اتخاذه لقب الخلافة قد فرض عليه أوضاعاً جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها من بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والسير بالمواكب الفخمة وبنفس الوقت ايكال الأمور إلى رجال الادارة وعدم مباشرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الادارة مع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهاد كانت قد خبت منذ زمن ، وحل محل المتطوعة جند من المرتزقة والعبيد ، ومع ازدياد قوة الادارة والجند تهيأت الفرصة لأضعاف قوة الخليفة ، وانتقاص نفوذه ، ثم حبسه في قصره والتحكم به ، وحيث ان اتخاذ لقب الخلافة جـاء متأخراً في الأندلس ، وحيث أنه لم يقرن بدعايـــة دينية طويلة ، مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فانه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء ، نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعب ازالة الخلافة العباسية لأنها كانت قد نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء .

قضى الناصر في الحكم نصف قرن من الزمن ، وكان قبل موته سنة / ٣٥٠ / هـ قد قطف بعض ثمار جهوده ، فقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه ثم أيام ابنه الحكم من بعده ، التي كانت امتداداً لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق بها .

سيف الدولة الحمداني

(ت : ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م)

بنو حمدان يتظاهرون بثلاثة أشياء ، عليها مدار العالم ، وليس لهم فيها نصيب : يتظاهرون بالدين وليس لهم فيه نصيب ، ويتظاهرون بالكرم ، وليس لواحد منهم كرم في الله ، ويتظاهرون بالشجاعة وشجاعتهم للدنيا لا للآخرة .

المعز لدين الله الفاطمي

كانت قبيلة تغلب من أشهر قبائل العرب وأكبرها ، وكانت قبيل ظهور الاسلام تقطن في أعالي منطقة الجزيرة ، واستمرت في ديارها بعد الفتوحات الاسلامية ، وكانت تغلب تدين بالنصرانية ، ولقد رفضت بعد الفتح دفع الجزية ، وسبب ذلك مشكلة للخلافة ، عالجها عمر بن الخطاب ، بأن ضاعف عليها ضريبة الصدقة ، وأن لا تقوم بتعميد أولادها .

وأثناء العصر الأموي ، حافظت تغلب على مكانتها ، لكن بشيء من الصعوبة ، بسبب تدفق قبائل جديدة من شبه الجزيرة ، ولهذا تأثرت تغلب بمشاكل الصراع في الجزيرة ، خاصة أواخر العصر الأموي ، وأثناء الفترة الأولى من الحكم العباسي ، وخلال هـذه الحقبة كانت نشاطات الخوارج واضحة وكبيرة في الجزيرة ، وكان لتغلب دورها في الصراع ضد الخوارج ، وقد أفرزت هذه الصراعات زعامات جديدة بين صفوف تغلب ، كان أشهرها الأسرة الحمدانية .

وقامت صلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية أصبحت تاريخية منذ أيام المعتضد ، في مجريات حوادث الصراع ضد القرامطة ، فأثناء حروب الخلافة العباسية ضد القرامطة تكونت شخصية الأسرة الحمدانية ، وغدت تشكل إحدى القوى العسكرية ــ لكن الصغيرة ــ للخلافة العباسية ، واستخدم الساسة العباسيون

هذه القوة في أكثر من مناسبة وبقعة ، ووطد هذا من أركان الأسرة الحمدانية ، ورفع من مكانتها . كما ورط بعض أفرادها في مشاكل الخلافة العباسية ، وجعلهم يجذبون نحو بغداد ، ويعيشون في دوامتها السياسية .

وقد اتخذ الحمدانيون في البداية مدينة ميافارقين مقراً لهم ، لكن ضغط الأكراد عليهم من الشمال ، وجذب السياسة النابعة من بغداد ، دفع الحمدانيين نحو الموصل ، فأسسوا فيها سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م دولة ، وذلك عندما عين الخليفة المكتفي أبا الهيجاء أميراً على الموصل ، لكن أبا الهيجاء لم يهتم بإمارته ، بل شغل نفسه بما كان يجري في بغداد وأوكل شؤون الموصل لأكبر أولاده الحسن .

وبعد وفاة أبي الهيجاء آلت إمارة الموصل لابنه الحسن ، الذي سار على سنة أبيه ، فتورط في مشاكل بغداد ، وعاونه في ذلك أخوه الأصغر علي ، وقد كسب الحسن أثناء عمله لقب ناصر الدولة ، وكسب أخوه علي لقب سيف الدولة .

وفي الوقت الذي كان الصراع على أشده في بغداد من أجل السلطة اقتنع الحمدانيون بأن لا مستقبل لهم في العراق ، وأنه من الخير لهم التطلع نحو الشام ، ذلك أن الموصل كانت معرضة للخطر من العراق ومن أكراد الشمال ، وحدث أن قامت الدولة الاخشيدية في إدخال حلب في حوزتها سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م ، وعين الإخشيذ أحمد بن عباس الكلابي نائباً عنه في حلب، وفي هذه الفترة كانت جموع من البداة الجدد قد وصلت إلى شمال الشام والجزيرة ، وضمت هذه الجموع قبائل من كلاب ونمير ، وقشير وعقيل ، وسببت هجرة هذه القبائل فوضى سياسية كبيرة في المناطق التي طرقتها ، وهكذا لم تستقم الأمور في شمال الشام للإخشيد ولا لنائبه ، وقامت الخلافة العباسية سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩ م بتفويض أمور حلب لمحمد بن رائق ، فجاء إلى حلب وانتزعها لنفسه، لكن ما لبث الاخشيد أن استرد مدينة حلب، وأخذ يتطلع إلى مشرقها.

وفي ٣٣٢ هـ / ٩٤٤ م قام محمد بن رائق بالالتجاء إلى الموصل لاخفاقه

في الصراع من أجل منصب أمير الأمراء في بغداد ، وفي الموصل قـام ناصر الدولة بالتخلص من ابن رائق ، وبعد وفاة ابن رائق مد الحمدانيون أبصارهم نحو شمال الشام ، وسبب هذا مواجهة بين الاخشيذ وحكام الموصل ، ونجح الاخشيذ في الحفاظ على حلب ، وأناب فيها أحمد بن سعيد الكلابي .

وكانت قبيلة كلاب تعاني من التمزق والاضطراب والخلاف بين رجالاتها ، حتى غدا ذلك ميـزة من مزاياها ، لهذا قام بعض أمـراء كلاب بالسفر إلى الموصل ، فاتصلوا بسيف الدولة علي بن عبد الله ، أخو ناصر الدولة ، ودعوه للقدوم إلى حلب ، وتسلم مقاليد الأمور فيهـا ، وكـان علي آنذاك حاكماً لنصيبين ، فعرض الأمر على أخيه ، فأجابه بعد تردد ، فتحرك نحو الشام ، واستطاع دخول حلب دون مقاومة في ٨ ربيع الأول سنة ٣٣٣ هـ / ١٧ تشرين الأول ٩٤٤ م ، وهكذا بدأ عهداً جديداً في تاريخ الشام .

ولم يقبل الاخشيذ باستيلاء سيف الدولة على حلب ، وقام صراع بين سيف الدولة والاخشيذ ، واستطاع سيف الدولة في مرحلة من هذا الصراع ليس فقط دفع الاخشيذ عن حلب ، بل الاستيلاء على دمشق ولم يستطع سيف الدولة الاستقرار في دمشق ، بسبب سياسته الضرائبية والدينية ، وحيث أن طاقاته كانت أدنى من طاقات الاخشيذ ، فقـد استطاع صاحب مصر إيقـاع الهزيمة بسيف الدولة ، وانتزاع الشام كله منه ، وحسماً لداء الصراع اتفق الطرفان سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م على أن يترك الاخشيذ لسيف الدولة حكم مدينة حلب ، ولهذا يمكن اعتبار هذه السنة البداية الفعلية لقيـام الدولة الحمدانية في حلب .

والتفت بعد هذا سيف الدولة إلى دولته ، فوطد أمورها ، وأقام لنفسه بلاطاً فخماً لعله أراد أن يضاهي به بلاط بغداد ، وغيرها من حواضر الاسلام العظمى ، وتجمع عنده في هذا البلاط عـدد كبير من العلماء في كـل فن ، والشعراء ، وكان على رأس الشعراء المتنبي ، واستخدم سيف الدولة رجال بلاطه كأداة إعلامية في الدعاية له ولحكمه ، والواقع أن شهرة سيف الدولة

قائمة أساساً على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية له ، وهي مرتبطة بقصائد المتنبي ، وليست نابعة من أعمال جليلة قام بها ، أو تمت في عصره .

لقد شغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية ، وكانت هذه الامبراطورية تعيش فترة استفاقة وازدهار وقدرة عسكرية من حيث الطاقات ، كما تهيأ لها عدد من القادة والأباطرة الأكفاء ، وقد خاض سيف الدولة بطاقاته المحدودة ، وإمكاناته القليلة حروباً طويلة ضد هذه الامبراطورية ، ولم تكن هذه الحروب حروباً هادفة بل امتازت بأنها غارات بدون هدف واضح ، سواء أكان دفاعياً أو هجومياً .

ونجم عن سياسة سيف الدولة العسكرية ، وتكوينه لبلاطه عدة نتائج خطيرة ، فلقد احتاج بلاطه ، كما احتاجت حملاته إلى نفقات كبيرة للغاية ، وقام سيف الدولة بجمع هذه النفقات من المصادرات ، والضرائب الثقيلة ، واعتماد رأسمالية الدولة بشراء البضائع المستوردة وبيعها بأثمان مرتفعة للتجار والمستهلكين سواء ، وقد شكا الناس في حلب وسواها من معاصريه من سياسته العامة والمالية بشكل خاص ، ونرى صدى هذا في كتابات ابن حوقل الجغرافي، والمهلبي صاحب كتاب المسالك والممالك الذي كتبه للخليفة الفاطمي العزيز ، والقاضي عبد الجبار الهمذاني ، وأبي حيان التوحيدي ، وأبي عثمان الطرسوسي صاحب كتاب سير الثغور وغيرهم .. .

ولقد اضطرت سياسة سيف الدولة المالية بقايا قبيلة تغلب ، وكان عددهم يقدر بحوالي العشرة آلاف أهل بيت ، وكانوا يدعون ببني حبيب ، اضطرتهم إلى ترك الجزيرة والهجرة إلى داخل الأراضي البيزنطية ، والتخلي عن الاسلام ، وتبني النصرانية ، والحرب إلى جانب بيزنطة ضد المسلمين .

ونظراً لانعدام القاعدة القبلية لحكم سيف الدولة ولأمور أخرى قام بتجنيد عدد كبير من الغلمان الأتراك والديلم ، مثلما جرت العادة في بغداد ، كما قام بتبني عقيدة النصيرية فصار شيعياً متطرفاً بعدما كان معتدلاً ، وفي حين أننا لا ندري دوافعه أكانت قناعات أم ردة فعل ضد الاسماعيلية ، نعلم أن

سياسته في التجنيد والدين سببت له مشاكل كثيرة أودت به دون أن يستطيع حلهـا ٠

لقد أزعجت غاراته الامبراطورية البيزنطية ، وهذا واضح في الكتابات البيزنطية لمعاصريه ، وواضح أيضاً أن بيزنطة عالجت قضيته وفق استراتيجية محددة ، فقد أمرت بيزنطة ضباط الحدود في آسية الصغرى برصد تحركات سيف الدولة العسكرية ، وعدم اعتراض طريقه عندما يأتـي مغيراً ، وعدم الاشتباك معه ، بل تركه حتى يعود ، ومفاجأته في الممرات الجبلية الصعبة وقطع الطريق عليه وعلى قواته ، وتبعاً لهذه القاعدة انزلت بيزنطة بسيف الدولة عدة ضربات مؤلمة ، ثم إن تفجر الوضع الداخلي في دولته مكن بيزنطة من احتلال جميع مناطق الثغور الحصينة وفي جملة ذلك طرسوس وأنطاكية مع شريط ساحلي طويل امتد حتى ما بعد اللاذقية ٠

وكانت علاقة سيف الدولة بالحلبيين قد ساءت ، وقام هو بدلا من إكمال تحصين قلعة المدينة ببناء قصر رائع لنفسه خارج حلب ، وعندها ازدادت حالة إمارته الداخلية سوءاً ، فكثرت أعمال العصيان من قبل أتباعه عليه كما ازداد نشاط البداة ضده ، وهنا قامت بيزنطة باتهاز الفرصة فتمكنت قواتها سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م من اختراق مدينة حلب ، ودمر البيزنطيون ، وسيف الدولة يشهدهم عن كثب، دمروا مدينة حلب تدميراً مريعاً،وجمعوا منها غنائم هائلة الكمية ، وأخذوا عدداً كبيراً جداً من الأسرى ، لقد كادوا يفرغون هذه المدينة الجليلة من الحياة ٠٠٠

وأثـّر سقوط مدينةحلب على سيف الدولة تأثيراً كبيراً وعميقاً ، سبب له المرض الشديد ، كما سبب له المزيد من المشاكل ، صحيح أنه استقدم من حران من يسكن حلب ، لكن الانتماء المذهبي المتطرف للحرانيين زاد الأمور تعقيداً ، فقد انفرط عقد دولة سيف الدولة ، واستمرت الثورات تنفجر في وجهه ، كما استمرت بيزنطة تضغط بغية تصفيته نهائياً ، فأصيب بالفالج ، وفي صفر من عام ٣٥٦ هـ / كانون ثاني ٩٦٧ م توفي ، وحمل تابوته إلى ميافارقين فدفن بها ٠

وفي العصر الحديث تحت سحر شعر المتنبي، وفي أجواء الانبعاث القومي الذي آمن بدور الفرد البطل ـ كما الحال عند كارليل ـ اعتبر كتاب غير عرب ثم عرب سيف الدولة أنموذج البطل العربي في عصر قيل اختفى فيه الأبطال ، لكن تقدم البحث العلمي المتوازن ، الذي لا يخدعه صوت الدعاية البراق فلا يصغي له ، بل يصغي إلى شهادات المعاصرين على اختلاف مشاربهم ، ويفحص الوقائع بكل روية ، مع التقليل من قيمة دور البطل الفرد في صنع التاريخ ، والقول بأن الجماهير هي البطل الحقيقي للتاريخ ، إن هذا كله قد قلقل مكانة سيف الدولة،وهو لا شك محرض لإعادة النظر بكل ما قيل حوله، وحتى ما قيل حول سواه ، لأنه آن الأوان لأن يكتب العرب تاريخهم بروح العلم ، لا بروح الاستيراد وبريقه الساحر .

المعز لدين الله الفاطمي

(ت : ٣٦٥هـ / ٩٧٥م)

عندما نجحت الدعوة الاسماعيلية في اقامة الخلافة الفاطمية في افريقية (تونس) لم تكتف هـذه الدعوة بتونس ، بل ابتغت التوسع ، لكن ليس في بلدان المغرب بشكل أساسي ، ذلك أن هدف الاسماعيلية الأول كان ازالة الخلافة العباسية من الوجود ، واحلال الخلافة الفاطمية محلها ، لهذا كانت أنظار رجال الاسماعيلية ترنو نحو مصر والمشرق ، ويوم قامت الخلافة الفاطمية كانت مصر تحت حكم الأسرة الأخشيدية ، وكانت هذه الأسرة تدين بالولاء للخلافة العباسية .

وسعت الخلافة الفاطمية نحـو الاستيلاء علـى مصر ، وانتزاعها من الاخشيديين، وذلك منذ الأيام الأولى لاستقرار قواعد هذه الخلافة فيافريقية، ففي عهد المهدي قاد ولي عهـده القائم عدة حملات ضد مصر كـان نصيبها الاخفاق ، وبالاضافة إلى الحملات العسكرية نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر، فصارت هذه البلاد محطة للدعاة القادمين من المشرق أو الغادين اليـه من المغرب ، واستقر عدد كبير من الاسماعيلية في مصر ، واتخذوها منزلاً لهم ، وقاعدة لعقيدتهم وأخذوا يخططون للاستيلاء عليها .

وبعد وفاة المهدي ، وفي عهد خليفته القائم ثم من بعده المنصور انشغلت الخلافة الفاطمية في الدفاع عن وجودها الذي تهدد بثورة صاحب الحمار ، أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري الخارجي ، وعندما آلت الخلافة إلى ابن المنصور ، المعز لدين الله معد (٣٤١ ــ ٣٦٥هـ/٩٥٣ ــ ٩٧٥م) كانت الخلافة قد تخلصت من مشاكلها الداخلية ، وهكذا تمكنت من السيطرة على جميع أجزاء الشمال الافريقي ، وصار لديها قوة برية ، وأسطول بحري في غايـة

العظمة ، ووافق هذا التعاظم في القوة تدهور في أحوال الدولة الاخشيدية في مصر ، خاصة بعد وفاة كافور الاخشيدي .

واغتنم المعز لدين الله الفرصة ، فبعث قائده جوهر الصقلبي ، على رأس جيش حسن الإعداد ، جيد التنظيم والعدة ، واستطاع هذا الجيش، أن يسيطر على مصر ، دون كبير عناء ، وتم هـذا سنة ٩٦٩ م ، وعقب ذلك زحفت القوات الفاطمية نحو بلاد الشام ، وهنا كان لزحفها هذا قصة أخرى تباينت تبايناً شديداً ، مع قصة فتح مصر .

وفي مصر قـام جوهر الصقلبي ، ببناء مدينـة جديدة لتكون مقـراً للفاطميين ، دعاهـا بالقاهرة المعزية ، واقيمت القاهرة إلـى جوار الفسطاط العاصمة الاسلامية الأولى لمصر، وبعدما نجز بناء القاهرة ، ارتحل اليها الخليفة المعز في موكب عظيم للغاية ، تضمن الكثير من بربر الدعوة الاسماعيلية مع كميات هائلة من الذخائر والذهب ، وأهل الحرف والفنون والصناعات ، كما حمل المعز توابيت أبيه وأجداده .

وفي القاهرة استقر المعز ، وفيها أيضاً بنى الفاطميون دار دعوة جديدة ، ومسجد يقـوم بوظائف جامعة للتدريس دعي بالأزهر ، نسبة إلـى فاطمة الزهراء ، التي انتسب اليها الفاطميون وأطلقوا اسمها على دولتهم .

وفي مصر تم إحكام بناء الدولة الفاطمية ، ووضع لها نظام إداري يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته ، كما أحكم نظام الدعوة الاسماعيلية بشكل رائع للغاية ، ولا يعود الفضل في هذا إلى شخصية المعز ، بل إلى وزيره يعقوب ابن كلس ، ويعقوب هـذا كان أهم بناة النظام الاداري والدعوي للدولـة الفاطمية ، ولقد استطاع هذا النظام أن يبقي الدولة الفاطمية حية لمدة تفوق القرنين ، رغم أنه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة ، بعد المعز ، من اتسم بالقدرة والكفاءة السياسية والادارية ، فمن هو يعقوب بن كلس هذا ؟

كان يعقوب من رجال الادارة والمال في العراق ، ثم هجر العراق إلى

الشام ، حيث عمل فترة من الزمن في الرملة ثم توجه إلى مصر واتصل هناك بكافور الاخشيدي ، فولاه بعض الوظائف ، فنجح فيها إلى أبعد الحدود ، فأعجب به كافور اعجاباً كبيراً ، حتى أنه سمع يقول : « أي وزير بين جنبيه لو كان مسلماً » وبلغ هذا يعقوب ، فما كان منـه إلا أن توجه إلى المسجد ، فأعلن اسلامه « وبلغ خبره إلى كافور فسره ذلك وعاد من المسجد إلى دار كافور ، فخلع عليه غلالة مبطنة ، ودراعة وعمامة ، وزادت مرتبته عنده » .

وبعد وفاة كافور ، ترك يعقوب مصر ، وسافر إلى المهدية ، حيث دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي ، وقدم له المعلومات والمساعدات من أجل احتلال مصر ، وفي مصر تسلم ابن كلس وضع أسس الادارة الفاطمية هناك ، ولـم يكتف بذلك ، بل قام باعـادة تنظيم الدعوة الاسماعيلية وألف كتاباً معتمداً في الفقه الاسماعيلي ، وليس هذا المدهش انما المدهش حقاً أن وثائق الجنيزا التي عثر عليها في كنيس العاصمة المصرية القديمة ، وهي وثائق تعود إلى الجالية اليهودية في مصر أيام الفاطميين وبعدهم ، هذه الوثائق تشير إلى ما يعتقد أنه يعقوب بن كلس ، باسم الأخ يعقوب ، وبذلك توحي بأنه ظل على يهوديته وتظاهر بالاسلام ... ؟!

وفي أيام المعز لدين الله بعد ما توطد الفاطميون في مصر ، صار تحدي العقيدة الاسماعيلية للنظام العباسي السني أكثر قوة وأشد خطراً ، وصار للفاطميين امبراطوريـة متراميـة الأطراف شملت مصر ، وشمال افريقيـة ، وصقلية ، والشاطىء الافريقي للبحر الأحمر مع اليمن والحجاز وجنوب الشام، كما سير الفاطميون جيشاً هائلاً من الدعاة، واعتمدوا على ولاء عدد لا يحصى من الأتباع في أراض كانت تابعة للحكم العباسي فعلياً أو اسمياً .



الحاكم بأمر الله

(ت : ٤١١ هـ / ١٢٠١ م ؟)

في سنة ٩٩٦ ، توفي الخليفة العزيز الفاطمي ، فخلفه ابنه أبو علي المنصور بلقب الحاكم بأمر الله ، وكان صبياً صغيراً ، فأديرت أمور الدولة من قبل عدد من الرجال إلى أن بلغ من السن ما مكنه من مباشرة الحكم بنفسه ، وما أن فعل ذلك حتى طبع العصر بطابعه الخاص ، ونظراً لكثرة ما قام به من أعمال اتسمت بالتناقض الظاهري الشديد،ثم النهاية التي آل إليها،اختلفت آراء الناس فيه في القديم والحديث ، فالدروز رفعوه إلى المنزلة الإلهية ، ويحيى بن سعيد الأنطاكي ـ وكان من معاصريه ـ وسمه بالاصابة بالماليخوليا والجنون ، وفي القرن الثاني عشر الميلادي اعتبر المؤرخ الحلبي العظيمي رأي الأنطاكي دليلاً على عدم الفهم ، وقصوراً في الإدراك ، وفي الوقت نفسه وصف وليم الصوري ـ وهو كبير المؤرخين الصليبيين اللاتين ـ الحاكم بتنين الرعب ، وفي عصرنا رأى بعض الكتاب في شخصية الحاكم لغزاً يستحيل حله ، ورأى آخرون فيه الشر والكفر ،وقام عبد المنعم ماجد فرفعه إلى منزلة أبي بكر وعمر .

والحق أن وصف كل من الأنطاكي ووليم الصوري متأثر إلى أبعد الحدود بعقيدة الرجلين ، وهي المسيحية ، ذلك أن الحاكم اتبع سياسة خاصة متشددة تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، وكان باعثه على اتباع هذه السياسة هو أنه كان يعمل على تأسيس عقيدة جديدة ، أراد أن يجمع الناس عليها إن طوعاً وإن كرهـاً .

ويبدو أن الحاكم أراد أن يزلزل أركان مجتمع دولته ،خاصة في مصر فكان يصدر الأوامر الغريبة ثم يلغيها ، ويصدر غيرها وهكذا ، ولعله ابتغى من وراء ذلك تمهيد الطريق أمام عقيدته الجديدة ، ثم اقناع الناس بأنه فقط فعال لما يريد ...

ولم يكتف الحاكم بالأخذ بهذه الوسيلة ، بل عمد إلى الإكثار من سفك الدماء ، خاصة دماء كبار رجالات الدولة ، ولعله أراد من وراء هذا إزالة رجال العقيدة القائمة ، لإحلال أتباع العقيدة الجديدة محلهم ، ثم الإيحاء بأنه هو وحده قادر على أخذ الحياة ممن يشاء ، وساعة يشاء ، وله الحق في ذلك كاملاً دون اعتراض .

وقد واجه الحاكم العديد من الثورات ، كان أولها وأكبرها ثورة أبي ركوة الذي ادعى أنه هشام بن الوليد الأموي الأندلسي ، وقام نشاطه بين البدو الذين كانوا يقطنون الأراضي الليبية المصرية ، وبعد جهود مضنية تسنى للحاكم القضاء على هذه الثورة . وأتى بعد هذه الثورة التي ساهمت فيها قبائل بني قره العربية ، ثورة أخرى فجرتها قبائل طيء في فلسطين ، وقد جلبت طيء واحداً من أشراف مكة ، وأعلنته خليفة في الرملة ، وتيسر أيضاً للحاكم القضاء على هذه الثورة ، ثم واجه بعد هذا جيشياناً شعبياً في بلاد الشام، تزعمه رجال من منظمة الأحداث،وقد نجح احداث مدينة صور بزعامة ملاح اسمه علاقة في انتزاع زمام الأمور في بلدتهم من الفاطميين،وقام العلاقة بإعلان استقلاله ، وضرب نقوده الخاصة ، وكانت ردة فعل الحاكم تجاه هذه الثورة في غاية الشدة ، حيث بعث اسطوله ضد صور ، وأردفه بجيش بري ، واستطاع الفاطميون أخذ صور ، وأوقعوا الهزيمة بالعلاقة وأسروه ، حيث حمل إلى القاهرة ، وهناك سلخ هذا الثائر حياً ، وصلب بظاهر القاهرة .

وعندما شعر الحاكم باستتباب الأمور له ، بدأ بتحركه الديني ، فكان أن تخلى عن ملابسه المزركشة بالذهب ، ولبس الصوف وتظاهر بالزهد ، وسمح للدعاة بالقول بأن الإله قد حلّ فيه ، وقد نجم عن هذا التحرك الديني الجديد عقيدة جديدة عرفت باسم عقيدة التوحيد ، وشهرت باسم الحركة الدرزية ، فما خلفيات حركة الحاكم ، ثم ماهي المضامين العامة للعقيدة الجديدة ؟.

إن الإجابة على الشطر الأول من هذا السؤال نجدها في الكتابات الدينية الاسماعيلية ، فمن المعلوم أن مذاهب الشيعة العامة تطورت حول مسألة الإمامة ، وفي نفس الوقت طورت هذه المسألة وأغنتها بمواد جديدة ، وصور

مبدعة ، ويمكن ملاحظة هذا عند الاسماعيلية بشكل جلي ، فالإمام عندهم « في كل عصر وزمان هو الأوحد المؤيد من قبل الله ، وكل من جعل له نداً أو عديلاً ، فقد أشرك ، كشركه بالله العظيم » .

والإمامة عند الاسماعيلية متصلة منذ بداية الخليقة ، لم تنقطع ولن تنقطع ، وحتى ظهور الأنبياء لم يؤثر عليها ، ذلك أن الأنبياء كانوا أئمة ناطقين ، تواجد إلى جانب كل منهم إمام صامت ، والأئمة كما هو معلوم ليسوا على درجة واحدة ، بل تفاوتوا بالمكانة .

ومن منطلق السبعية ، رأى الاسماعيليون أن الأنبياء ذوي العزم هم سبعة كل واحد منهم جاء بشريعة « فالولاية لآدم عليه السلام ، وإن الطهارة لنوح ، وإن الصلاة لابراهيم ، وان الزكاة لموسى ، وان الحج لمحمد ، وإن الجهاد للقائم » فمن هو القائم هذا ؟

لقد استعارت الاسماعيلية وسواها من الأفلاطونية المحدثة تجربة تأويل النصوص المقدسة ، التي وجدت عند فيلون وتطورت مع أفلوطين ، وطبقتها على آيات القرآن الكريم ، وكان مما أولته العناية مسألة القيامة فالقيامة ليست نهاية العالم ، بل نهاية الشرائع ، وقيام شريعة القائم ، التي تحرر الانسان من كافة القيود ، وتحله من جميع الواجبات .

والقائم هو « روحاني منتقل عن الجسماني » وهو حين « يظهر في هذا العالم الجسماني » يحكم في الجسمانية ، ويملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً ، وبعد ظهوره « تكون له استتارة في العالم الجسماني » وبعدها « يرتقي في الأفلاك إلى أن يبلغ مرتبة ثاني الخلق » .

ومن الواضح أن السبعية قد نهلت هنا الكثير من تراث المسيحية ومزجته بفكرة عودة المسيح وقضايا ظهور المهدي المنتظر ، ومهما يكن الحال ، إننا حين ندرك هذا نستطيع فهم ما أحدثه الحاكم بأمر الله ثم ما آلت إليه نهايته ......

لقد سعى إلى الغـاء العقائد القائمة جميعها ليبدلها بعقيـدة جديدة ، وحقق في هذا السبيل بعض النجاح ، لكنه واجه ردات فعل عنيفة ، تصدى لها ، وأثناء اعلان العقيدة الجديدة كان الحاكم يخرج إلى أحواز القاهرة خاصة في أوقات الليل ، وخرج مرة في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢١ م ، ولم يعد بعدها إلى قصره في القاهرة .

لقد جاء ذلك بشكل مفاجيء ، وأحدث دوياً كبيراً ، واحتار الناس في كشف مبهمه ومعرفة أسبابه وصنّاعه ، فمن قائل بأن الحاكم قد اغتيل بفعل مؤامرة دبرتها أخته ست الملك بالتعاون مع عدد من قادة الجيش ورجالات الدولة ، ومن قائل يرى بأن الحاكم تغيب بفعل رغبته وارادته الخاصة وإنه قام برحلات كبيرة شملت مناطق شاسعة من الشام وبلدان المشرق حتى السند ، وعندما انتهى عهد الغيبة هذه ارتقى في الافلاك ، ومن قائل أيضاً بأنه غيب من قبل أتباعه لضرورات عقائدية ...

إن الرأي الدرزي يتوافق مع العقيدة الاسماعيلية بشكل أساسي ،حتى تسمية الخليفة الذي أتى من بعده بالظاهر أمر نابع من العقيدة أيضاً ، ونراه بشكل واضح في كتابات القاضي النعمان ، خاصة في رسالته المذهبة .

ولم تنجح حركة الحاكم في مصر ، لكنها لاقت بعض النجاح في الشام وما زال في الشام أعداد كبيرة من أتباع الديانة الدرزية ، هذا ولئن كان من الصعب الحديث هنا عن الجوانب اللاهوتية وسواها في هذه الديانة ، لعلـه يكفي القول بأنها بعث جديد للعقيدة الاسماعيلية في قالب مصري فرعوني...

تعرف عقيدة الدروز باسم عقيدة التوحيد ، وهي تعيـد جذورها إلى زمن الفرعون اخناتون ، الذي قاد أول حركـة توحيد في تاريخ الديانات ، واخناتون يرد اسمه في تراث الدروز حيناً في نفس الصيغة تقريباً ، أو باسم هرمس الهرامسة .

لقد بدأ الآن يظهر للنور قسماً من تراث عقيدة الدروز ، ولا شك أنه سيأتي اليوم الذي تفحص فيه هذه العقيدة وأصولها فحصاً علمياً وآنذاك

يمكن التعرف إلى الطريق الذي وصلت عبره الأفكار التوحيدية الفرعونية إلى مؤسسات الدعوة أيام الحاكم ، فيما إذا كان مصرياً محلياً أو كلاسيكياً ، فالتعرف إلى هذا الطريق يمكن أن يفسر الكثير من الأمور ، هذا ويبدو لي الآن أنه كان مصرياً محلياً ، ذلك أن الحاكم عرف ما منيت به الدعوة الاسماعيلية من نكسات ، وما لحق بها من اخفاق في التوصل إلى إسقاط الخلافة العباسية ، وكان أيضاً قد أدرك أن المؤمنين من المصريين بالعقيدة الاسماعيلية قلة ، فأراد بتجديده أن يكسب أنصاراً مصريين ، ويعطي الحركة تدفقاً جديداً ، ويحول الخلافة الفاطمية إلى خلافة مصرية قلباً وقالباً .

ولئن أخفقت تجربة الحاكم في مصر ، وكان نجاحها محدوداً في الشام فإن التراث الذي تولد عنها حري بالدراسة والبحث .



صالح بن مرداس

(ت : ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م)

سكن الشام قبل قيام الفتوحات الاسلامية ، من قبل عدد من القبائل العربية ، كان أكثرها في القرن السابع ــ تبعاً للنسابين العرب ــ منحدراً من أصل يماني ، وكانت قبيلة كلب على رأس هـذه القبائل ، واستقرت كلب حول دمشق وفي جنوب الشام ، ومع الفتوحات الاسلامية وإثرها قدم إلى الشام قبائل جديدة استقر بعضها في شمال الشام ، وكانت غالبية القبائل التي استقرت في الشمال من أصل قيسي وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب .

وفي سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ، بعد وفاة يزيد بن معاويـة ، التحمت قوى قيس على رأسها كلاب بقوى كلب ومـن ساندها في معركـة مرج راهط ، وانتصرت اليمن في هذه الملحمة وانهزمت قيس ، ونجم عن هذه المعركة نتائج كثيرة كان من أهمها أنها قسمت الشام إلى قسمين :

شمالي تسكنه قبائل قيس وخاصة كلاب ، وتسيطر عليـه ، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية وخاصة كلب ، وتسيطر عليـه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعياً عبارة عن دارين: دار لكلب في الجنوب، ودار لكلاب في الشمال، وكان الخط الفاصل بين الدراين ، نقطة وهمية غالباً ما كانت عنـد الرستن على نهر العاصي .

وهكذا دار تاريخ الشام في الاسلام ، حول محورين ، واحد تمركز في الشمال واتخذ من مدينة حلب مقـراً ، وآخر استقر في الجنوب في دمشق ، ومن الملاحظ أنه عندما أخذت أوصال الخلافة العباسيـة تتفكك ، وظهرت المحاولات الاستقلالية في كثير مـن البلدان الاسلامية حدث هذا في الشام ، وحاولات كلاب أن تنفرد بحلب ، لكن ذلك أجهض قبل أوانه عندمـا دخل

سيف الدولة الحمداني إلى هذه المدينة ، ونجح في إقامة الحكم الحمداني في الشام ، ولقي سيف الدولة أثناء حكمه معارضة من كلاب •

وكانت كلاب الشام قد تلقت في مطلع القرن الرابع للهجرة كمية كبيرة من المهاجرين الكلابيين قدموا من شبه الجزيرة مع حركات القرامطة وربما بسببها ، وهكذا تمتن وضع كلاب وزادت قوتها ، فما أن توفي سيف الدولة حتى أخذت تعمل على ملك إرثه ، وتحقق لها هذا منذ نهاية القرن الرابع على يد صالح بن مرداس •

في سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، استولى صالح بن مرداس الكلابي على بلدة الرحبة ، وكانت الرحبة آنذاك ذات أهمية عالية ، نظراً لموقعها على الفرات ، فهي كانت وفيرة الماء ، ذات إمكانات زراعية كبيرة ، قريبة من البادية الشامية ، غير بعيدة عن العراق ، وفي البادية الشامية أقامت العشائر البدوية ، التي شغلت أعظم الأدوار في صنع تاريخ الشام السياسي ما قبل القرن الثاني عشر للميلاد ، وكانت الرحبة أول محطة للبداة المهاجرين إلى سورية ، وخلاصة الأمر ، كان الذي يملك الرحبة بإمكانه أن يملك شمال الشام مع أجزاء من الجزيرة ، وهذا ما حدث مع صالح بن مرداس •

وحافظت الرحبة على مكانتها حتى أواخر القرن الحادي عشر (م) حيث حلت محلها مدينة الموصل ، والموصل قبل هذا التاريخ كانت دائماً تتورط في مشاكل العراق السياسية وغيرها ، وقلما شغلت دوراً هاماً في الشام ، وفي أواخر القرن الحادي عشر(م) تدفق نحو الشام مهاجرون جدد هم الغُزّ ، وقدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب وكانت لذلك الموصل أول محطة لهم في طريقهم نحو الشام والجزيرة ، فقد سيطر الغز عليهما ، وأخذ ارتباط الموصل بالعراق يخف تدريجياً وغدت الموصل جزءاً من الشام ، تورطت في مشاكله ، وصار الاستيلاء على الموصل هو الخطوة الأولى والأساسية نحو السيطرة على شمال الشام ويمكن رؤية هذا في تاريخ الدولة العقيلية وبشكل أوضح في تاريخ الدولة الأتابكية أيام الحروب الصليبية •

وبعد ما احتل صالح بن مرداس الرحبة تطلع نحو حلب ، التي حكمت من قبل بقايا الدولة الحمدانية ، فتورط من أجلها في صراع كبير ، وأثناء هذا الصراع أسر صالح ، وأودع سجن قلعة حلب ، وأريد اغتياله فيه ، فعمل على الفرار من سجنه ، وتمكن من ذلك بعمل اتسم بالجرأة والشجاعة النادرة ، فكان ذلك مغامرة مثيرة للغاية ٠

وبعد الفرار من السجن حشد صالح بن مرداس قواته الكلابية ، واستطاع سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٥ م أن يحتل مدينة حلب ، حيث أسس فيها حكم أسرته المرداسية ، ولم تقف مطامح صالح عند حدود شمال الشام ، بل انتزع بعض أجزاء الساحل الشامي من الفاطميين ، وصنع حلفاً بينه وبين قبيلتي طيء وكلب ، من أجل إقامة ثلاث دول عربية في الشام ، ولطرد الفاطميين إلى مصر ٠

وحقق ابن مرداس في هذا المقصد نجاحات كبيرة ، وظل يجهد في هذا السبيل حتى قتل في الاقحوانة بوادي الأردن سنة ٤١٩ هـ / ١٠٢٩ م ، لكن مقتله لم يزل من الوجود الدولة التي أقامها ، فقد احتفظ أولاده بحكم حلب من بعده ، وهكذا كانت الأسرة المرداسية ثاني أسرة عربية تحكم حلب المستقلة في الاسلام ٠

وفي عهد هذه الدولة خطت الثقافة العربية والحضارة خطوات كبرى ، ففي ظل هذه الدولة عاش المعري ، فيلسوف المعرة ، وابن أبي حصينة الشاعر ، وابن بطلان الطبيب وغيرهم من الأعلام كثير ٠

محمود الغـــزنوي

(ت : ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م)

عبرت شعوب إيران بعد دخولها في الإسلام عن شخصيتها المتميزة بعدة أعمال ، كان من بينها تأسيس عدة دول إيرانية مستقلة كان أشهرها الدولة السامانية التي قامت في أواخر القرن التاسع وظلت قوية حتى منتصف القرن العاشر الميلادي حيث بدأت علامات الضعف تنتابها •

فقد تعرضت هذه الامبراطورية التـي حكمت خراسان ومناطق كبرى فيما وراء النهر ، إلى عدة أزمات داخلية وخارجية لم تستطع التغلب عليها ، فكـان أن انهارت ، واحتلت عاصمتها بخارى من قبـل مجموعات من أتراك ما وراء النهر •

أما في خراسان فقد ورث ممتلكاتها الدولة الغزنوية ، وتنسب هـذه الدولة إلى مدينة غزنة ــ إحدى مدن أفغانستان الحالية ، وتقع إلى جنوب غربي كابل ــ ومؤسس هذه الدولة هو سبكتكين ، الذي كان عبداً تركياً من ضبـاط الجيش الساماني ، ولقـد كـان استلامه لحكم غزنـة سنـة ٣٦٦ هـ / ٩٧٧ م •

وفي الحقيقة أن قصة قيام الدولة الغزنوية تبدأ قبل هذا التاريخ بعدة سنوات ، ففي سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح « ولما دفنوه ثار العسكر ، وتمردوا ، وطمع كل شخص في الملك ، وظهرت الفتن » ، « وكان الاسفهلار (أي القائد) ألبتكين في نيسابور حين بلغه خبر وفاة الأمير •••• فقصد الحضرة للقبض على الأمير » ، الساماني الجديد ، ومن ثم احلال نفسه مكانه على عرش السامانيين ، وأخفق ألبتكين وأجبر على الفرار ، فذهب إلى غزنة واستقر بها ، وكان بصحبته غلمانه وقواته الخاصة ،

وبعد فترة تهادن ألبتكين مع الأمير الساماني الجديد ، لكن لم يعد إلى بخارى ، بل ظل حيث هو .

ونظراً لقرب الأراضي الأفغانية من أراضي الهند غير المسلمة ، فقد شغل ألبتكين نفسه مع جنده في أعمال الاغارة على هذه الأراضي ، واعتبروا عملهم ذلك جهاداً ، وانفسهم غزاة في سبيل الله ، وظل ألبتكين مرتبطاً اسمياً بالدولة السامانية ، وعندما توفي خلفه أحد ضباطه واسمه سبكتكين ، وسار سبكتكين على نهج سلفه دون تبديل حتى سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م .

وعقب وفاة سبكتكين خلفه ابنه محمود ، وعندما أصبح محمود صاحب السلطة في غزنة ، غدت الدولة الغزنوية دولة مستقلة عن السامانيين ، وقام بتأسيس دولة جديدة كبرى ، فنظم أولاً أعمال الغارة على الأراضي الهندية وحولها إلى أعمال فتح توسعي تحت عنوان الجهاد في سبيل الله ، ونظراً للنجاحات العظمى التي حققها ، والانتصارات الكبرى التي نالها استحق محمود لقب غازي عن جدارة ، وأصبح من أكثر شخصيات عصره شهرة وعظمة ، فلقبته الخلافة العباسية بلقب يمين الدولة .

ولقد استطاع محمود توسيع رقعة دولته ليس في شبه القارة الهندية فقط ، بل أوصل حدودها إلى جيحون ثم تجاوزه فضم واحة خوارزم إلى امبراطوريته ، كما ألحق جميع أراضي خراسان بدولته وأخذ يعد العدة للزحف على بغداد ، من أجل القضاء على حكم الأسرة البويهية الممزقة فيها ، وتحرير الخلفاء العباسيين من ربقة التحكم بهم من قبل الديلم .

لقد كان محمود مسلماً محافظاً متعصباً لمذهب الشافعية ، شهد عصره وأراضي دولته ذروة الصراع بين القوى الفاطمية والعباسية المتراجعة أولا ثم المتقدمة ثانياً ، ففي أيامه بدأت الاستفاقة العباسية نشاطها العقائدي الأعظم ، وأخذت تتطلع نحو إعادة سيطرتها على العالم الاسلامي .

وقد رعى محمود الاسلام وعلماء الدين المسلمين وأنشأ بلاطاً كان في غاية الأبهة ، وعاش في هذه البلاد عدد كبير من الأدباء والشعراء ، لعل من

أشهرهم الفردوسي صاحب الشاهنامة ، التي قدمها لمحمود ، ثم ان رجالات العصر السجلوقي الأول : نظام الملك ورجالات النظامية مثل الغزالي وسواه كلهم كانوا من نتاج عصر يمين الدولة .

لقد واجه محمود في أواخر حياته بداية مشكلة التركمان بقيادة السلاجقة ، فاستطاع أن يتدارك تفجيرها ، وتمكن من أن يؤجل تفاقم خطرها ، وذلك بما أوتيه من حزم وبصيرة ، انما في عهد ابنه مسعود تفجرت القضية ، وأخفق مسعود في حل المشكلة ، وهكذا انتزع التركمان من مسعود جل خراسان ، فاقتصرت املاك الغزنويين على أفغانستان وشمالي الهند .

وورث السلاجقة التركمان ملك محمود الغزنوي التركي في خراسان ، ثم تمكنوا من السيطرة على بغداد ، حيث أزالوا حكم الديلم ، ولم يكن السلاجقة أتراكاً مثل محمود الغزنوي فحسب ، بل كانوا أيضاً يتعصبون للمذهب الحنفي ، لهذا حقق دخولهم بغداد انتصارات كبرى لهذا المذهب وآذن ذلك بانحسار تحكم دعاة السبعية الفاطميين بالفكر الاسلامي بعدما ظلوا يفعلون ذلك لعدة قرون ....

ألب أرسلان

(ت : ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م)

تاريخ الانسان منذ البداية وحتى الآن هو سجل للصراع ، بدأ بقتل أخ لأخيه واستمر هكذا دون توقف ، وتفاوتت أحجام الصراعات واختلفت من حيث الأسباب والنتائج ، وإن لم تختلف من حيث المضمون . من الصراعات ما كان محدد الوقائع والنتائج ومنها ما كان حاسماً ، جاءت نتائجه كنقطة تحول في تاريخ الانسانية ، ان هذا النوع ليس من الكثرة بمكان ، بل عدده محصور ، ففي تاريخ العصور الوسطى لا يكاد يتجاوز عدد الأصابع في يدي الانسان ، وحين يقوم الباحث باستعراض وقائـع العصور الوسطى يرى في مقدمتها معركة منازكرد ، ذلك أنها خطت بداية النهاية لتاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، لاستبداله بتاريخ الامبراطورية العثمانية المسلمة .

وقعت هذه المعركة سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م في منطقة منازكرد ، قرب شواطىء بحيرة « وان » بين جيشين واحد مسلم قاده السلطان ألب أرسلان ، والثاني مسيحي قاده الامبراطور البيزنطي رومانوس دايجنس .

والسلطان ألب أرسلان هـو ثاني سلاطنة الدولة السلجوقية ، حـاز السلطنة بعد وفاة عمه السلطان طغرلبك وساعده في أعماله رجل الدولة العظيم نظام الملك ، الحسن بن علي الطوسي ، فبعدما تسلم ألب أرسلان السلطنة أراد أن يضم إلى ممتلكاته بلاد الشام ومصر الفاطمية .

والامبراطور رومانوس دايجنس تسلم عرش القسطنطينية عام ١٠٦٨ م في فترة عصيبة من تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فقد كانت أراضي هذه الامبراطورية قد تعرضت لاجتياح خطر قامت به قبائل التركمان التي قدمت حديثاً من بلاد ما وراء النهر ، وكان على الامبراطور رومانوس ايقاف

التركمان ومنعهم من غزو أراضي امبراطوريته ، ولتحقيق هذا الغرض أراد اغلاق حدود دولته في وجههم ، باحتلال بعض المواقع الحصينة داخل الاراضي الاسلامية ، لأن التركمان كانوا ينفذون إلى الأراضي البيزنطية ويخرجون من ثلاث مناطق كانت هي : ثغور شمال بلاد الشام ، وثغور أعالي الجزيرة ، وبلاد أرمينية ، ويبدو أن رومانوس وضع خطة استهدفت اغلاق هذه المنافذ عبر ثلاث حملات ضد بلاد الشام والجزيرة وأرمينية ، وذلك في السنوات ٤٦١ ــ ٤٦٣ هـ ، ولقد وجهت الحملتان الأولى والثانية ضد أراضي امارة حلب في الشام والجزيرة ، وكانت معركة منازكرد نتيجة الحملة الثالثة .

في سنة ١٠٧٠ م تحرك السلطان ألب أرسلان غربا يريد الشام ومصر ، وذلك بعد ما تلقى من القاهرة دعوة أرسلها إليه ناصر الدولة الحمداني « حفيد ناصر الدولة صاحب الموصل » الذي كان يعمل على التحكم بأمور الخلافة الفاطمية ، لهذا توجه بطلب العون من السلاجقة أعداء الفاطميين ، وحين تحرك السلطان ألب أرسلان غرباً كان تحركه بطيئاً ، ولم يستطع الوصول إلى مصر ، ولم يكتب له أن يتجاوز أسوار مدينة حلب .

فأثناء تحركه اعترض سبيل قواته عدة عقبات كان أولها مدينة الرها [أورفا الحالية التركية] ، وأعظمها أسوار مدينة حلب ، ففي مطلع عام ١٠٧١ م عبر السلطان وقواته نهر الفرات ، وتوجه نحو مدينة حلب التي كان يحكمها الأمير المرادسي محمود بن نصر ، ورفض محمود تقديم الطاعة لألب أرسلان لذلك قامت قوات السلطان بالقاء الحصار على مدينة حلب ، وقاوم الحلبيون جيش ألب أرسلان لذلك طال أمد الحصار ، وعلمت بأخباره العاصمة البيزنطية ، لذلك قرر الامبراطور استغلال انشغال السلطان ألب أرسلان وبعده في الشام من أجل احتلال بعض مناطق أرمينية وطرد التركمان منها ، ولهذا الغرض جمع جيشاً عملاقاً قاده بنفسه نحو الحدود الاسلامية .

وقرب أسوار مدينة حلب وأثناء حصاره لها بلغ السلطان ألب أرسلان خبر تحرك القوات البيزنطية ، لذلك عجل في حل مشكلة حصار حلب فأمضى صلحاً مع أميرها ، وقرر العودة فوراً نحو المشرق ، وقبل عودته استقبل سفيراً بيزنطياً جاء

يعرض عليه الهدنة مقابل شروط من بينها ايقاف هجرة التركمان إلى الاراضي البيزنطية ، ويبدو أن السلطان تظاهر بالقبول (فكر راجعاً ، فقطع الفرات ، وهلك أكثر الدواب والجمال ، وكان عبوره شبه الهارب ، ولم يلتفت إلى ما ذهب من الأرواح والدواب وعاد الرسول إلى صاحبه) وأخبره بأنه رافق السلطان إلى أن عبر الفرات ، ووصف له حالة العبور ، وشجع هذا الوصف الامبراطور وغرر به ، فقرر عدم متابعة المفاوضات ، والشروع في الحرب .

كان من أسس العمل السياسي لدى بيزنطة، التفاوض مع العدو، والتغرير به، وايهامه بالسلم والهدنة حتى يميل إلى الدعة ، ويفرق جيوشه ، وهنا كانت القوات البيزنطية تقوم بالانقضاض عليه ، فتفتك به دون صعوبة .

يبدو أن ادارة السلطان ألب أرسلان كانت تعي هذا ، وتعرفه ، ولهذا قررت التغرير بالبيزنطيين ، وعلى هـذا كان تراجع السلطان ألب أرسلان « شبه الهارب » ، وعبوره الفرات ، قد تم تبعاً لطرائق التركمان في القتال وفي خداع العدو والتغرير به ، فالتركمان كبدو كانت لديهم خططهم الخاصة في الزحف وكان لهم مبادىء متميزة في فنون السوقية العسكرية ، وانطلقت هذه المبادىء من الاعتماد على طبيعة البدو وخفتهم ومرونتهم في الحركة ، واستحالة خضوعهم لأنظمة ضبط وربط محددة ، فيها يعطي القائد أمراً عاماً يحدد فيه لقواته البدوية نقطة تواجد ، وليلة لهذا التواجد ، ويندفع البداة زمراً وأفراداً في اتجاهات مختلفة ، وهنا يظن العدو بأنهم قد تفرقوا إلى غير عودة ، لكنه لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين ، ثم يدمر أراضي العدو ، ويضلل قيادته ويجبرها في كثير من الأحيان على توزيع قواتها ، ثم عندما تصطدم أول قوات البدو بجيوش عدوها ، يقوم هذا العدو في النهار على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من البدو ، لكن هذا العدو يدهش في صباح اليوم التالي عندما يجد قوات البدو قد تضاعفت في الليل إلى أضعاف مضاعفة ، لذلك تنهـار معنويات قواته ، ويتم عـامل المفاجأة ، وهكذا يتحقق أول شروط النصر .

هذا ما طبقه ألب أرسلان عندما التقت قواته لأول مرة بقوات رومانس، حيث عددها أقل بكثير من القوات البيزنطية، لكن بعد ليلتين، تضاعف عدد هذه القوات، ذلك أن السلطان ألب أرسلان وصل إلى قبالة الامبراطور رومانس، يوم الأربعاء ، واشتبك معه ــ كما يقال ــ ظهر الجمعة ، وقبل الاشتباك أرسل بعثة لمقابلة الامبراطور والتفاوض معه من حيث الظاهر ، لكن لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي ، ولتغطية الاتصال بالعناصر الغُزّية غير المسلمة في هذا الجيش من حيث واقع الباطن ، كما قــام السلطان باعداد العديد من الكمائن ، وهيأها لساعات الحاجة والمفاجأة •

ونظراً لأن قوات ألب أرسلان كانت مــن الفرسان الرمــاة ، وقوات بيزنطة كانت من الفرسان الثقال مع المشاة فقد هدفت خطة السلاجقة نحو فصل سلاح المشاة عن سلاح الفرسان (يمكن تشبيه الفرسان الثقال بدبابات العصر الحالي التي تفقد الكثير من قيمتها بدون حراسة من المشاة ، وأيضاً لا قيمة كبيرة للمشاة بدون دبابات) وقتل خيول الفرسان ، ثم القضاء على المجموعتين كل على انفراد ، ولقد حصل هذا في منازكرد ، كما حصل في سواها من المعارك الفاصلة بعدها في الشام •

لقد بالغت المصادر العربية في تقدير عدد الجيش البيزنطي ، فجعلته يفوق المليون مقاتل ، ثم ان هذه المصادر لــم تقدر عدد قوات ألب أرسلان بأكثر من خمسة عشر ألف فارس ، ولهذا كان النصر الذي تم بالنسبة لها نصراً قد تم بفضل مساعدة السماء ، أي أنه كان عبارة عن معجزة وكرامة للسلطان العادل ألب أرسلان ، واستجابة لدعاء المسلمين يوم الجمعة ساعة المعركة •

لم تكن صورة الحال هكذا ابداً ، ولم يكن هناك أية معجزة ، وكل ما في الأمر أن قوة بيزنطية ، كانت ربما في حدود الخمسين الفــاً ، لاقت قوات تركمانية مساوية لها بنفس العدد ، انما بميزات قد تم شرحها يضاف إلى هذا أن قسماً كبيراً من قوات بيزنطة كانت مؤلفة من مرتزقة من عناصر غزية غير مسلمة ، وكان عدداً كبيراً من ضباط الجيش متآمرين ضد رومانس ،

يعدون انقلاباً للاطاحة به،وتنصيب امبراطور جديد مكانه،لذا عندما اصطدمت جيوش رومانس بقوات ألب أرسلان ، دارت معركة قصيرة انما حاسمة تخلى فيها الغز عن البيزنطيين ، وانضموا إلى بني جلدتهم ، وهرب المتآمرون مع عدد كبير من الجند نحو القسطنطينية ، وترك رومانس في لجة من الفوضى ، والدمار ، فخسر المعركة وسقط أسيراً في يد التركمان فكان أول امبراطور يأسره المسلمون في تاريخهم .

لقد حطمت هذه المعركة العمود الفقري لقوى بيزنطة العسكرية ، وكانت البداية الفعلية لتحول بيزنطة إلى تركية ، ثم أن الغنائم التي حازها التركمان كانت أكثر من أن تحصى كان على رأسها آسيا الصغرى ولم يحاول ألب أرسلان استغلال نصره المؤزر هذا بمطاردة فلول البيزنطيين والزحف على القسطنطينية نفسها ، بل اكتفى باحضار الامبراطور الأسير ، فتفاوض معه ثم اطلق سراحه ضمن شروط محددة .

ان هذه المعركة هي أخت معركة اليرموك ، من حيث الأهمية وديمومة الأثر ، صحيح أنها اثارت ردات فعل كبيرة داخل أوربة وكانت المحرض الرئيسي على قيام الحروب الصليبية، لكن الحروب الصليبية أخفقت في تحقيق النصر الدائم ، وزالت بيزنطة من الوجود ، وحلت محلها أمة تركية إسلامية ، وفي هذا خلود ما بعده خلود .



مسلم بن قريش

بابجي

(ت : ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م)

بعد ما فتح المسلمون العراق والشام أوجد الخليفة عمر بن الخطاب ولاية تفصل بين الشام والعراق ، دعيت باسم الجزيرة ، وحوت هذه الولاية الغنية عدة مدن هامة ، كانت الموصل أهمها وأبعدها شهرة ، وفي تاريخ الاسلام شهدت أراضي الجزيرة نشاطات عسكرية كبرى ، كما عاش في هـذه الأراضي أعداد من القبائل العربية .

وعندما حل التمزق بالخلافة العباسية ، وظهرت النزعات الاستقلالية في الأقاليم ، تأسست في الموصل في القرن الرابع الهجري الدولة الحمدانية، هي دولة لم تذق طعم الاستقرار ، حيث أحاط بها الأعداء من كل جهة ، وتعرضت بشكل خاص لضغط جاء من الشمال وآخر من الجنوب وصنع ضغط الشمال الأكراد ، في حين قامت قبيلة عقيل ، الحديثة الهجرة من شبه الجزيرة ، بضغط الجنوب ، ولم تقو الدولة الحمدانية على الصمود فسقطت ، فورث أملاكها دولتان واحدة كردية في الشمال عرفت باسم الدولة المروانية ، وأخرى عربية في الموصل عرفت باسم الدولة العقيلية .

لقد تقلب على حكم الامارة العقيلية في الموصل عدة أمراء كان أشهرهم قرواش بن المقلد ، وأعظمهم قاطبة مسلم بن قريش ، وحكم قرواش الموصل من سنة « ١٠٠٠ حتى ١٠٥٠ م » وكان من أعظم شخصيات عصره البدوية ، فقد كان أديباً شاعراً « نهاباً وهاباً » على طرائق الأعراب في جاهليتهم ، وقد استطاع أن يحافظ على استقلال إمارته ويقيم علاقات متوازنة بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، لكن هذا التوازن اختل بشدة في أواخر أيامه ، عندما تعرضت الجزيرة لبواكير هجرة التركمان وغاراتهم عليها .

إن تاريخ الدولة العقيلية بعد قرواش بن المقلد هو جزء من تاريخ قيام

السلطنة السلجوقية ، وهو سجل للصراع حول الشام والجزيرة بين سكانها وحكامها العرب والمهاجرين من التركمان بزعامة السلاجقة وسواهم وخلال هذا الصراع الحاد الكبير برز مسلم بن قريش العقيلي زعيماً للعرب ينافح عن قضيتهم حتى الموت ٠

وقد تسلم مسلم إمارة الموصل سنة ١٠٦١ م ، وذلك في وقت تعاظم فيه الصراع بينهم وبين العرب من أجل سيادة بلاد الشام والجزيرة ، وفي البداية نجح التركمان في السيطرة على القسم الأكبر من جنوب الشام ، ودخلوا دمشق ، ثم توجهت أنظارهم نحو حلب ، وكانت تحت حكم متخلفي المرداسيين من قبيلة كلاب ، كما كانت هذه القبيلة تعاني من التمزق الشديد ، وتوجهت أنظار عرب الشام إلى من يتزعمهم في ساعات المحنة ، فوجدوا ضالتهم في شخص مسلم بن قريش ٠

وعمل مسلم في البداية من أجل جمع القوى العربية الممزقة ، وحقق في هذا السبيل نجاحات كبرى ، حيث استطاع أن يدعم أحوال إمارة حلب ، ويمكنها من الصمود في وجه التركمان ، إنما حدث أن تفجر الوضع القبلي مرة ثانية في شمال الشام ، وفي سنة ١٠٧٩ م تلقى مسلم من سابق بن محمود ابن صالح بن مرداس أمير حلب رسالة جاء فيها : « أنت أولى بي من الغير ، والعربية تجمعنا ، فإن كنت مأكولاً فكن أنت آكلي » ، ونتيجة لذلك حشد مسلم جيوشه ، وجاء حلب سنة ١٠٨٠ م ، فتمكن من أخذها مع قلعتها ، وهكذا وحّد مسلم بن قريش بين شمال الشام والجزيرة ، وأخذ يخطط لضم بقية الشام إلى هذه الوحدة ولطرد التركمان من الشام ٠

ولقد قابل العرب في الشام ما قام به ابن قريش بسرور كبير ، وترحاب عظيم ، ولدينا شواهد كثيرة على ذلك ، منها على سبيل المثال ما نجده عندما نستعرض ديوان الشاعر ابن حيوس ، الذي أمضى قرابة الستين سنة من عمره يمدح بها ولاة دمشق الفاطميين ، ثم الأمراء المرداسيين في حلب ، مع عدد من الوزراء والقادة في القاهرة ٠ عندما نستعرض قصائد هذ االديوان الحافل ،

يسترعي انتباهنا قصيدة متميزة بصدق عاطفتها ، وشدة تعبير أحاسيس قائلها، وقد نظم ابن حيوس هذه القصيدة في أخريات أيام حياته ، ومدح بها مسلم ابن قريش بعد دخوله حلب ، ومما قال فيها :

يا رحمـة بعثـت فأحيت أمـة	قـد طالما منيت بمن لـم يرحم
جليت ظلم النائبات كمـا جـلا	ضوء الغزالـة جنح ليـل مظلم
وأطرت ليل الخوف حتى مالـه	بالشام منـذ طرقته مـن مجثم
إن الرعايـا في جنابـك أمنت	كيد الغشوم وفتكـة المتغشرم
لا الظبية الغيداء تخشى القسور الضـاري ولا الـذمي حيف المسلـم	
فخصصت بالاذلال كـل مقلنس	وعممت بالاعـزاز كـل معمـم
وغداً ستخلي الشام منهم مثلما	أخلت خزاعة مكـة مـن جرهم

مما يؤسف له أنه لم يتحقق حلم ابن حيوس في إخلاء الشام من التركمان، الذين ملكوا طاقات امبراطورية ناشئة ، ولهذا عبثاً حاول ابن قريش التصدي لتيار التركمان الجارف ، لم يلق سلاحه ، وخاض العديد من المعارك ، كان في بعضها مهاجماً بجرأة ، وفي البعض الآخر مدافعاً بعناد ، وفي جميـع الحالات نجده يبذل قصارى جهده لتوحيد قوى بلاد الشام العربية تحت لوائه ، ولم يتجاوب معه بعض أصحاب الامارات الإقطاعية كما أنه طلب من مصر مد يد المساعدة له فوعدتـه القاهرة ولكنهـا لـم تف بمـا وعدت ، فترك مسلم لقدره وحده .

وقامت قوى التركمان بحصاره من كل جهة ، مـن أعالي الجزيرة ومن دمشق ، وأخيراً من أنطاكية ، وسعى ابـن قريش لفك هـذا الحصار ، وفي ٢٤ صفر ٤٧٨ هـ / ٢١ حزيران ١٠٨٥ م اشتبكت قواتـه بقوات أنطاكيـة التركمانية،وكان جيشه يتألف من بعض مئات من رجالات القبائل العربية مع مرتزقة تركمان وستمائة من أحداث حلب ، وقرب عفرين خاض ابن قريش معركـة قاسية مـع التركمان ، تخلى عنـه في بدايتها مرتزقته مـع عدد كبير مـن رجالات القبائل .

وصمد مع ثلة من أبناء عمه وأحداث حلب ، واستبسل هؤلاء في القتال حتى أن أربعمائة من الأحداث قتلوا ، وسقط مسلم أثناء القتال كما يسقط الأبطال ، وحمل قائد التركمان جثته ، وتوجه بها نحو حلب آملاً أن تستسلم له ، لكن أمله صار سراباً عندما أشرف على المدينة حيث وجد أهلها قد نظموا شؤون الدفاع عنها ، وصمدت حلب أمام الحصار واضطر التركمان للانسحاب، فحلب في التاريخ العربي كله لم تعرف السقوط وعرفت فقط الصمود ، وفي أوقات المحنة ، وحين تخاذل الجميع ، صان صمود حلب شرف العروبة تاريخاً وحضارة[1] ...

(١) انظر بحث أبي الفضل بن الخشاب .

يوسف بن تاشفين

(ت : ٥٠٠ هـ / ١١٠٧م)

حين يبحث المرء في تاريخ الحركات السياسية والدينية في الاسلام ،يرى الكثير من أوجه الشبه فيها ، فجل الحركات كانت بعد ما يتحقق لهـا النجاح تتوجه نحو قلب العالم الاسلامي لاحتلالـه أو احتلال أجزاء منـه ، ويكاد الباحث يجزم أنه لا يوجد في تاريخ الاسلام حركة واحدة كانت ذات مقاصد خارجية أو نصف خارجية اللهم إلاّ حركة المرابطين .

قامت حركة المرابطين في بداية القرن الخامس للهجرة بين قبائل لمتونة ، وكانت هذه القبائل تقطن أطراف الصحراء المغربية ، ولها علاقات مباشرة مع أفريقيا السوداء ، وحركة المرابطين حركة اسلامية اصلاحية ، أرادت تطبيق الاسلام نصاً وروحاً في ديار الاسلام ، كما ابتغت نشره خارج ديار الاسلام .

وحين حقق المرابطون نجاحاتهم الأولى ، سيطروا على الصحراء المغربية كلها ، واتخذ زعيمهم أبو بكر بن عمر مدينة أغمات على طرف الصحراء مقراً مؤقتاً له ، وذلك سنة ٤٦٠ هـ ، وفي أغمات اعتمـد المرابطون خططاً جديدة لعمـل المستقبل ، بحيث تقرر شطر قواتهم إلى قسمين : واحـد يضم الثلثين يعود إلى الصحراء ليتوجه منها إلى قلب القارة الأفريقية حاملاً إليها رسالـة السماء ، والآخر يتولى تحرير مسلمي الغرب الاسلامي ، ويعيدهم إلى جادة الهـدى والصـلاح ، وقام أبو بكر بن عمر بالعـودة نحـو الصحراء ، حيث نشط هناك ، حتى توفاه الله مجاهداً في سبيلـه وقبره الآن موجود في وسط جمهورية موريتانيا الاسلاميـة في منطقـة تكانت في ولايـة تجكجا (الولاية التاسعة سابقاً) وهو ما زال يزار حتى الآن .

وقبل أن يعود أبو بكر إلى الصحراء أناب ابن عمه يوسف بن تاشفين

ليقود عنه جناح المرابطين الذي أوكل إليه أمر العمل في المغرب ، وبدأ يوسف أعماله بتأسيس مدينة مراكش ، التي ستصبح عاصمة المغرب لقرون عديدة، ثم أخذ يمد سلطانه على أجزاء المغرب الأقصى فتحقق له ذلك في عدة سنوات .

واهتم يوسف بجيشه اهتماماً كبيراً ، فاستورد الأسلحة وصنع بعضها كما أولى الاسطول عنايته الفائقة ، حتى صار للمرابطين أسطولهم الخاص الذي يخشى جانبه ، كما التفت يوسف إلى إدارة دولته النامية فاستعان بعدد من رجال الادارة من أهل الأندلس ، وهكذا بدأت اتصالاته الأولى بمشاكل الأندلس .

كانت اندلس آنئذ تعيش في حالة من التمزق السياسي الشديد حل بها إثر سقوط الخلافة الأموية فيها ، وكان لهذا التمزق أبلغ الآثار على مستقبل الاسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية ، حيث نشطت حركة الاسترداد الصليبية بشكل مروع ، وبات سقوط الأندلس قاب قوسين أو أدنى .

عرفت حالة الأندلس آنذاك باسم عصر ملوك الطوائف ، وكانت مملكة اشبيلية أكبر ممالك الطوائف وأقواها ، وكان على عرشها المعتمد ابن عباد ، الذي يمكن اعتباره بين أعظم شخصيات العالم الاسلامي في القرن الخامس ، فهو كان سياسياً بارعاً ، وادارياً ناجحاً ، كما كان فارساً محنكاً ، وعلى درجة كبيرة من الشجاعة والاقدام ، وفوق هذا كله كان من أعظم شعراء عصره ، وأكثرهم تمكناً من فنون الأدب والبلاغة .

وعندما شعر المعتمد بثقل الغارات الصليبية على ديار المسلمين ، ورأى أن طاقات مسلمي الأندلس الممزقة لا تقوى على دفع هذا الخطر المحدق قرر طلب العون من يوسف بن تاشفين ، وأقدم على ذلك رغم التحذيرات الشديدة له ، بأنه سيفقد نتيجة عمله هذا عرشه وملكه ، فقد قال له ابنه الرشيد : (أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ، ويبدد شملنا ؟.. فقال : أي بني، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارى ، فتقوم علي اللعنة في منابر الاسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير) .

وبعدما وصلت الدعوة ليوسف بن تاشفين استجاب لها ، وأعد العدة الكافية للجهاد في الأندلس ، وعبر إليهـا سنة ٤٧٩ هـ ، على رأس قوة ربما تجاوزت الخمسة والعشرين ألفاً ، واتخذ من الجزيرة الخضراء قاعدة له ، شحنها بالمؤن والسلاح ، ورمم ما تشعث من أسوارها،ثم توجه نحو اشبيلية. وهناك تلقاه المعتمد بن عباد كما توافد غالبية ملوك الطوائف بقواتهم الخاصة عليه ، حتى تجمع من الأندلسيين قرابة خمسة وعشرين ألفاً من المقاتلين أيضاً .

وقام يوسف بمراسلة الفونسو السادس ملك قشتاله يدعوه إلى الاسلام أو الجزية أو القتال ، فاستجاب إلى دعوة القتال ، لذلك توجه المسلمون نحوه إلى منطقة بطليوس من غرب الأندلس ، قريباً من أراضي البرتغال حالياً وإلى الشمال الشرقي من بطليوس في سهل عرف باسـم الزلاقـة ، جاءت القوات الاسلامية وجهاً لوجه أمام حشد هائل من المقاتلين تجمعوا تحت راية الصليب، وبتأييد من البابويه ، من كافة أنحاء أوربة .

وخشية البيات اتخذ المعتمد بن عباد كافة الاحتياطات ، ثم تباحث مـع يوسف بن تاشفين من أجل خطة القتال ، فاتفقا على أن تقوم القوات الأندلسية بالالتحام أولاً مع العدو ، ثم بعد ساعات تتقدم قوت يوسف فتحسم المعركة وبالفعل هوجمت القوات الأندلسية ، فقاومت بعنف ، وقاتل المعتمد بن عباد قتال الأبطال ، حتى أصيب بعدة جراحات ، وعندما أخذ الإعياء يصيب الطرفين أمر يوسف قواته بالتحرك ، وفي نفس الوقت أرسل قطعة كبيرة مـن جنده نحو معسكر العدو ، وفي الساعة التي تدخل يوسف فيها بالقتال ، كانت قواته تهاجم المعسكر الصليبي ، وتحرقه ، وهكذا وقع العدو بين نارين ، فأخذ جنده يحاولون النجاة ، لكن عبثاً فعلوا حيث حصدتهـم سيوف المسلمين وهكذا حسمت المعركة ، وفقد العدو ما يزيد على أربعين ألف مقاتل ، ونجا الفونسو بحشاشة نفسه ومعه عدد قليل من أعوانه .

إن النصر الذي حازه المسلمون في الزلاقة كان حاسماً ، وواسع الصدى، فهو قد أجل سقوط الأندلس قروناً عدة كما كان بداية النهايـة لعصر ملوك الطوائف ، حيث ستغدو الأندلس جزءاً من دولة المرابطين وجاء حدوث هذه

المعركة بعد ستة عشر عاماً من معركة منازد كرد التي أخافت أوربة ، وبعثت فيها حمى حركـة صليبية قاسية ، لكن ما لبث أن خبت ، إلى أن جـاء نصر الزلاقة فأيقظها ثانية ، وترتب على ذلك اندفاع الصليبيين نحو الشرق الاسلامي والغرب على السواء •

بعد الزلاقة قام يوسف بالعودة إلى المغرب لوضع الخطط اللازمة لحل مشاكل الأندلس ، ثم قام بعد ذلك بالعبور إليها ثلاث مرات كان آخرهـا سنة ست وتسعين وأربعمائة ، حيث تمكن خلال ذلك كله ، من ضم الأندلس إلى دولته وتوحيدها تحت الادارة المرابطية ، وكـان لهذا أبعـد الآثار على الوضع السياسي للأندلس حيث وضعت الخطط لتحرير جميع أراضيها المحتلة ، وفي المقابل كـان لإلحاق الأندلس بالمغرب أعمق الآثار على حيـاة المغرب وسكانه حضارياً واقتصادياً وسياسياً ، فالأندلس كانت متقدمـة في كافـة النواحي الاجتماعية والعلمية والصناعية والثقافية ، وقد قام الأندلسيون بنقل المغرب من حالة البداوة إلى حياة الحضارة بكل جوانبها وأثر الأندلس قام وما زال ماثلاً في كل جانب من جوانب الحياة في المغرب •

في سنة خمسمائة للهجرة ، توفي يوسف بن تاشفين عن سن عالية تقرب المائة ، وذلك بعد ما ضرب بحياته مثلاً رائعاً ، كسب به الخلود ، فهو بعـد نيله الملك حافظ على صفائه ، وظل (زاهداً ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب إلى الخير والصلاح ، كثير الخوف من الله عز وجـل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء) •

ولهذا لا عجب أن نجد أن تاريخ دولة المرابطين هو سيرة حياة يوسف ابن تاشفين •

عماد الدين زنكي

(ت : ٥٤١ هـ / ١١٤٦م)

تعتبر سنة ٥١٨ هـ سنة حاسمة في تاريخ الاسلام ، فهي السنة التي بدأ المسلمون فيها بأعمال تحرير أراضيهم من الغزاة الصليبيين ، وفي هذه السنة خف حاكم الموصل آق سنقر البرسقي على رأس جيوشه لنجدة مدينة حلب ، ورفع الحصار عنها ، وحقق البرسقي وحدة شمال الشام مع الجزيرة ، وأخذ يجمع الطاقات ، ويحشد القوى لجميع أفراد الأمة ضد الصليبيين ، وشرع في وضع خطط واضحة المعالم لتصفية الوجود الصليبي في الشرق ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي إلى مرحلة الهجوم الإيجابي والتصفية ، لكن لسوء حظ الأمة اغتيل البرسقي بعد عامين من انقاذه لحلب .

وأدى اغتياله إلى انتكاسة مؤقتة ، ذلك أن الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة ، لذلك سهل عليها اجتياز المحنة ، والتغلب عليها ، فقد علم أهل الموصل بتآمر قوى سياسية محترفة على سيادة مدينتهم، لهذا توجه وفد يمثل المدينة إلى بغداد ، وقام بالاتصال بأركان الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية ، وعمد إلى اختيار الضابط زنكي بن قسيم الدولة ، وتم الاتفاق معه على تولي حكم الموصل ، ضمن شروط محددة ، ولتأدية واجبات معينة ، وبعد ذلك أجبر الوفد سلطات بغداد على اسباغ الشرعية على هذا الاختيار .

كان أهل الموصل يعرفون زنكي جيداً لأنه عاش القسط الأكبر من صباه وشبابه في مدينتهم ، وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الأمور في الموصل ، وكان زنكي هذا عسكرياً من الطراز النادر ، له من الحزم والانضباط والإقدام ، وحب النظام والتقيد بالقانون مع الشجاعة والمطامح السامية ، ما أحله محل الزعامة ، وأهله لشغل الدور الذي كانت

الأمة في مرحلة استفاقتها آنذاك قد أوكلته إليه ، وعهدت بمسؤولياته الجسام إلى إخلاصه وكفاءته .

وأدرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه ، فقام بها خير قيام، وأدرك أن عليه حتى يحقق النجاح أن يوحد بين أجزاء الأمة الممزقة سياسياً ، ويزيل جميع العوائق والفوارق ، ويطور حركة اليقظة وينميها فينفي عنها الفوضوية ، ويلزمها بالجدية والنظام والعمل البناء ، وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولاً إلى إزالة مملكة الرها ، ثم اسقاط أنطاكية ، وبهذا تسد الثغرة ما بين أعالي بلاد الرافدين وشمال الشام ، ثم تغلق منافذ الهجرة والامداد البرية للصليبيين من آسية الصغرى إلى الشام .

وعندما يطالع الباحث ما كتبه المؤرخون عن حياة زنكي ، يجده قد ضرب المثل الأعلى بالجدية ، والالتزام بالقانون ، وقد وصفه أحد المؤرخين بقوله : « كان زنكي ملكاً عظيماً ، شجاعاً جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، ومع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه أحد معاصريه بقوله : « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة رحمه الله ، إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين ، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً من الزرع ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن إلا بثمنها ، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإذا تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه ــ أي راتبه ــ وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، وأحسن إلى أهالي مملكته ، وكان لا يبقي على مفسد ... ونهى عن الكلف، والمغارم والسخر، والتثقيل على الرعية ، وأقام الحدود في بلاده »، كما فرض على شعبه نوعاً من أنواع الجندية الالزامية ذلك أن الجهاد في أيامه صار فرض عين ، ولهذا غدت قوات زنكي جلها متطوعة من أبناء الشعب .

وما أن مكن زنكي نفسه في الموصل ، حتى التفت إلى الجهاد والعمل على قلع الفرنجة من بلاد الشام ، وكان زنكي من مواليد حلب ، فيها نشأ وأمضى طفولته ، لذلك كان الحلبيون يحبونه ، ولهذا استدعوه إلى مدينتهم.

وسخر زنكي طاقات دولته للجهاد ، ووقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين معرة النعمان ، وكفر طاب ، وبارين ، والأثارب وجميع أجزاء المنطقة الشمالية الغربية التابعة لملكة حلب ، وكان همه وشغله الشاغل احتلال الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل شاق طويل ، وجهاد عاشته الأمة كلاً : زعامات وأفراداً، استطاع زنكي سنة١١٤٤م اقتحام الرها ، والقضاء على أول دول الفرنجة تأسيساً في المشرق .

ويروى أنه كان لبعض المبادرات الفردية أثر حاسم في سقوط الرها ، فقد ذكر أن رجلاً من المسلمين كان أشقر اللون شكله شكل الأرمن ، نزل إلى السوق فاشترى لباساً من ألبسة الأرمن ، وتزيا بزيهم ، ثم تسلل إلى داخل الرها ، فذهب إلى جامعها المهجور ، وصعد منارته ، وكان جهوري الصوت ، فأخذ يكبر ، ويجهر بالأذان ، فسبب ذلك حدوث صخب وفوضى في المدينة ، حيث ظن المدافعون عنها ، أنها قد خرقت واحتلت ، لذلك تخلى المدافعون عن جزء من الأسوار فصعدت عساكر زنكي إليها ، واقتحمت المدينة ، وبعد سقوط الرها أجاز زنكي هذا الرجل بجائزة كبيرة .

ولقد عمّ لسقوط الرها دوي هائل تردد صداه في المشرق والمغرب ، وكان ذلك أروع ضربة حلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة ألمت بهم ، وبعد عامين مضيا على سقوط الرها ، قضى زنكي نحبه ، غيلة من قبل أحد غلمانه ، وهو يحاصر قلعة جعبر ، وحدث اغتيال زنكي في الليل ، بينما كان نائماً ، وجاء الغلام الذي قتله إلى تحت القلعة ، « فنادى أهل القلعة : شيلوني لقد قتلت السلطان ، فقالوا له : اذهب إلى لعنة الله ، قد قتلت المسلمين كلهم بقتله » .

وكان لمصرع زنكي أثر مفجع على نفوس المسلمين ، فدعوه«بالشهيد» ورغم كثرة الشهداء في تاريخ المسلمين ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، لكن موت زنكي لم يوقف حركة التحرير ، ذلك أن الأمم المؤمنة الحية ، لا تتعطل مسيرتها بفقدان القادة ، لأنها تخلقهم الواحد تلو الآخر ..

* * *

عبد المؤمن بن علي

(ت : ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م)

إذا كان المهدي بن تومرت المؤسس العقائدي لحركة الموحدين في المغرب فإن عبد المؤمن بن علي هو الذي بنى دولة الموحدين وأقام صرحها السياسي وغير السياسي . وقد ولد عبد المؤمن في أواخر القرن الخامس للهجرة في قرية (تاجرا) من إقليم تلمسان في الجزائر حالياً ، ويبدو أنه فقد أباه في طفولته ، فعني به عمه وقرر حمله إلى المشرق لطلب العلم ، وفي طريق الرحلة، لقي عبد المؤمن المهدي بن تومرت ، فالتحق به وصار أول أعوانه وأعلاهم مكانة لديه ، وقد أحبه المهدي ووثق به وكان يقول : « لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين » .

ولما توفي المهدي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، قدمه أصحاب المهدي وبايعوه إماماً ، ومنحوه لقب خليفة ونادوه بأمير المؤمنين ، رغم أنه لم يكن قرشي النسب ، لكن بسبب خلافته للمهدي . ولما ولي عبد المؤمن الأمر استطاع أن يدخل مدينة مراكش ويزيل دولة المرابطين من الوجود ، وبعد ذلك استولى على مدن المغرب الأقصى واحدة تلو الأخرى ، ثم احتل بلدان المغرب الأوسط وقصد مدينة المهدية فحررها من احتلال النورمانديين لها كما احتل مدن تونس الأخرى وبذلك وحد عبد المؤمن بلدان المغرب العربي تحت راية واحدة ، ثم التفت بعدها إلى شؤون الأندلس فأمّن لها الحماية الكافية والرعاية والمنعة .

وبعد ما تحقق لعبد المؤمن العديد من الانتصارات العسكرية والسياسية رأى أن دولته العقائدية لن يكتب لها البقاء والنجاح في تطبيق برامجها ، إذا ما أديرت من قبل زعماء القبائل من مصموده وسواهم لهذا قرر إيجاد جهاز

عقائدي يتولى أمور الحكم والإدارة ، فقام بجمع نحو ثلاثة آلاف من طبقة الحفاظ وهي الطبقة الخامسة في سلم تنظيمات المهدي لأتباعه،فأدخلهم قصره وأمر بتلقينهم كتب المهدي بن تومرت وخاصة كتابي (الموطأ وأعز ما يطلب) ثم صار يأخذهم « يوماً بتعليم الركوب، ويوماً بالرمي بالقوس، ويوماً بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه ، مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع ، ويوماً يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذا الأدب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤتتهم من عنده ، وخيلهم وعدتهم كذلك ، ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم فسلموا لهم ، وأبقاهم معهم في المشورة » .

لقد كانت تجربة عبد المؤمن هذه تجربة رائدة ، لا شك أن أثرها كان كبيراً ساعد على استمرار دولة الموحدين ، وسهل إدارتها لعبد المؤمن وآله من بعده ، متذكرين أن قوام هذه الدولة كان قبائل مصموده التي سكنت ما وراء الأطلس الصحراوي ، وأن عبد المؤمن كان من أهل المغرب الأوسط .

إن الانجازات التي حققها عبد المؤمن كبيرة للغاية،وأهم ما يثير الانتباه فيها سيطرة الجانب العلمي والعقلاني على خططها وأعمال تنفيذها ، هذا وشهد عصر عبد المؤمن حركة معمارية كبيرة ، كما أن الجانب التقني الميكانيكي خطا خطوات رائعة ، فقد أبدع المهندسون العرب في أيامه عدداً كبيراً من الآلات ذاتية الحركة .

فحين احتل عبد المؤمن مدينة مراكش بنى قصراً ومسجداً وجامعاً بجواره، ولما أكمل عبد المؤمن بناءه صنع فيه نفقين، «يدخل من القصر إليهما، ومنهما إلى الجامع ، لا يطلع عليه أحد ، ونقل إليه منبراً عظيماً كان قد صنع في الأندلس في غاية الاتقان ، قطعاته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وصنع مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع ، تتسع

لأكثر من ألف رجل ، وكان المتولي لصنعة خروجها رجل من أهل مالقه يقال له الحاج بعيش .

وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركات هندسية ، ترفع بهـا لخروجه وتخفض لدخوله ، وذلك أن صنع على يمين المحراب باباً داخله دار فيها حركات المقصورة والمنبر ، وكان دخول عبد المؤمن وخروجه منها ،فكان إذا قرب وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة ، دارت الحركات بعـد رفع البسط عن موضع المقصورة ، فتطلع الأضلاع به في زمان واحد ، لا يفوت بعضه بعضاً بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدوداً ، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر دفعة واحدة بحركة واحدة ، ولا يسمع له حس ، ولا يرى تدبيره » .

وكان الجانب الاقتصادي والزراعي نامياً لدى عبد المؤمن أيضاً،ويذكر أحد معاصريه واحداً من مشاريعه فيقول : « وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستاناً طوله ثلاثة أميال ، وعرضه قريب منه ، فيها كل فاكهة تشتهيها الأنفس ، وجلب إليه الماء من أغمات ، واستنبط عيوناً كثيرة » .

وبعد عقد من الزمن صار هذا البستان يدر على صاحبه مبلغاً يزيد على ثلاثين ألف دينار سنوياً .

لقد حكم عبد المؤمن قرابة أربع وثلاثين سنةوصل فيها الغرب الاسلامي إلى درجة من الحضارة والقوة لم يعرفها من قبل ، كما لم يتمتع بها طويلاً من بعد، لأن بعض الذين خلفوا عبد المؤمن تخلوا عن تراثه فحاق بهم الدمار .



نور الدين الشهيد

(ت : ٥٧٧ هـ / ١١٧٤م)

بعد ما اغتيل عماد الدين زنكي سنة ١١٤٦ ، تسلم قيادة الأمة من بعده ابنه نور الدين محمود ، واتخذ نور الدين مدينة حلب مقراً له ، وكان مثله مثل أبيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، إنما تميز على أبيه بتقواه وزهده ، وسلامة نيته ، وطهارة طويته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل إليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار العرب ، وتوحيد هذه الديار وأهليها ، تحت راية واحدة ، ولهدف واحد .

وكانت فاتحة أعمال نور الدين ، استعادة مدينة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي ، وتوقعوا انشغال أسرته بالصراع حول ميراثه ، كما هي العادة آنذاك ، فاحتلوها ثانية ، وبعد هذا بذل نور الدين جهد ما أوتيه من قوة وطاقات في سبيل إثارة الأمة ، وتنشيط روح الجهاد فيها ، وزرع مشاعر التضحية بين جميع أفرادها في كافة مناطق الأراضي العربية والاسلامية ، ويعتبر نور الدين بحق من أعظم القادة الذين أسهموا في إيجاد جيل مسلم جديد له روح جديدة ، تضحي في سبيل الجهاد والتحرير ، وتخترع السلاح ، وتبدع الخطط ، وتصنع كل ما يحتاجه الجهاد والتحرير ، وهي في نفس الوقت روح مثقفة متحضرة ، تحب حياة الوحدة والجماعة ، وتعشق التعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجها ، وتجسدت هذه الروح الجديدة في معظم أفراد الأمة ، وفي شخص نور الدين فكان مثلاً أعلى ، وأنموذجاً يقتدى به .

ومكنت هذه الروح نور الدين سنة ١١٥٤ م من الذهاب إلى دمشق ، بناء على دعوة أهلها له ، فوجد لأول مرة منذ قرون شمال الشام مع جنوبه ،

وشملت هذه الوحدة أجزاء من الجزيرة ، وهي أيضاً التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس ، والجامعات والمشافي ، وهي التي رعت الثقافة ، وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق ، جاء في ثمانين مجلدة كبار ، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها .

وإذا كان حادث وفاة عماد الدين زنكي قد أنهى المرحلة الأولى من مراحل الوجود الصليبي في الشام ، فإن تسلم نور الدين لمدينة دمشق ، قد أنهى مرحلة حلب ، وابتدأ المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة دمشق ، وبلا شك كانت هذه المرحلة أهم مراحل التحرير وأخطرها ، فبعدما وحّد نور الدين بين شمال الشام وجنوبه ، اتخذ من دمشق مركزاً لأعماله ، وقاد من دمشق عدداً من الحملات ضد الصليبيين ، وخاض معهم العديد من المعارك .

وكانت جميع المعارك التي وقعت بين العرب والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام ، بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون ، وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات أسوار للدفاع ، لذا كان كلما حدثت معركة بين قوة مسلمة وأخرى صليبية ، كانت هذه المعركة غالباً ما تحدث قرب أسوار إحدى القلاع أو الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتاً مديداً ، وتستهلك جهداً عظيماً دونما نتائج كبيرة ، وكان إذا ما حدث ووقع اشتباك في أحد السهول ، فإن المهزوم غالباً ما كان ينسحب إلى أحد مواقعه الحصينة القريبة ، فيتخذ موقف الدفاع ، ولقد طال أمد الحروب الصليبية ، فاحتاجت إلى تكاليف باهظة ، وبات على العرب وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبنفس الوقت العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية ، وتدمر مؤسساته الحربية ، وبذلك يسهل اقتلاعه .

وبعد ما وحّد نور الدين الشام والجزيرة ، نظر أمامه فرأى مصر بمواردها الهائلة ، وطاقاتها الجبارة ، وموقعها الممتاز ، وكان الحكم في مصر

على غاية مـن الضعف والتمزق والفوضى ، وأراد نور الدين انقـاذ مصر وضمها إلى الوحدة ، وادخال الروح الجديدة التي حلّت بالشام إليها ، كما ودّ أن تستخدم طاقات مصر ومواردها لتزج في المعركة بدلاً مـن التبعثر والهدر والضياع .

وكان منـذ تصدى نور الدين للفرنجة ، ألقى في روعهم أن الشـام صارت سداً فولاذياً أمامهم ، انه لم يبق أمامهـم إلا البحر أو مصر ، لهـذا أراد الصليبيون احتلال مصر ، وأرادوا الاستفادة منها ومن مواردها ، وأن يحولوا بين العرب وبين تطويقهم ، والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم، لهـذا جردوا عدة حملات ضـد مصر ، لكن نور الدين تمكن من احباط خططهم ، ونجح سنة ١١٦٧ في توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة .

وفي سنة ١١٧١ م ألغيت الخلافة الفاطمية ، كما تم الاستيلاء على ليبيا واليمن ، وشهدت مصر قيام حياة جديدة ، ويقظة متفتحة ، وأخذت تستعد لتأخذ دورها في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الفرنجـة ، وأعدّ نور الدين قواته من أجل المعركة الفاصلة، وكان موقناً من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد أمـد قصير للصليبيين وجود في الشام ، وكانت استعدادات نور الدين كاملة ، حتى إنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة في المسجد الأقصى بعد تحريره ، وإزالة الدنس منه .

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب والياً لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجـه نور الدين على رأس قواتـه نحو فلسطين ، أصدر أوامره إلى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معـه على أسوار الكرك ، ولكن ــ ولكل عظيم سقطة ــ غلبت أنانية صلاح الدين الشاب ، وشهواته للسلطة على نفسه ــ وذلك بتحريض ــ من بعض مستشاريـه الذين حذروه مـن نور الدين ، وخوفوه من اللقاء بـه ، فتلكأ صلاح الدين ولم ينفـذ أوامر

نور الدين ، متعللاً بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنيناً طويلة أخرى من الدم والعذاب .

وفجأة توفي نور الدين سنة ١١٧٤ م ، ولم يتمكن واحد من آله أن يحل محله ، لهذا تحرك صلاح الدين من القاهرة إلى دمشق ، حيث استحوذ على إرث نور الدين ، ثم تابع حمل رسالته بأمانة وشجاعة ، فاستطاع بعد حين خوض معركة حطين وتحرير القدس ....

صلاح الدّين الأيّوبي

(ت : ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م)

من أعلام التاريخ من تكتفي بالكتابة عنه مرة واحدة ، حيث تستنفذ كل ما يمكن قوله ، ومنهم من يمكن الكتابة عنه مرة تلو الأخرى في كل عصر وزمان ، والسبب في هذا أن النوع الأول قام بانجازات استحق بها خلوداً جزئياً ، والنوع الآخر أنجز من الأعمال ما استحق به الخلود المطلق والشهرة الواسعة القائمة على التأثير الشامل والدائم .

إن صلاح الدين يوسف بن أيوب ممن كتب له الخلود المطلق ، بسبب انجازاته الكبرى التي توجها بنصره في معركة حطين ، فمنذ حطين وحتى الآن مرّ بالوطن العربي والعالم أحداث جسام للغاية ، فقد زالت دولة بني أيوب ، وظهر المغول ، وانهارت الخلافة العباسية ، وقامت دولة المماليك ، وقامت الامبراطورية العثمانية وتحرك العرب في ثورات كثيرة ، وقدموا ما لا يحصى من الأبطال والقادة ، وفي أوربة انتهت العصور الوسطى ، وقامت حركة النهضة وانقضى عصرها ، وجاء عصر الاستعمار ، ووقعت الحروب العالمية ، ورغم هذا كله بقيت ذكرى صلاح الدين دونما تبديل ، وما زال قبره في دمشق يجذب الحجاج والرحالة ، وما برح أفراد الأمة العربية والشعوب الاسلامية ، يذكرون بفخر واجلال اسم صلاح الدين ، وينشدون صلاح الدين جديد كلما حزبهم أمر أو نزلت بهم نازلة ...

وأفضل معيار على أهمية صلاح الدين القصوى وخلوده الكامل ، أنه ما يزال بعد سبعة قرون من الزمن ، موضع اهتمام المؤرخين والكتاب ، ففي العقود الثلاثة الأخيرة ظهر عدد كبير من الكتب الجديدة والمقالات التي تعالج أعماله ، وتبحث في سيرته ، ولاقت كل هذه الأبحاث رواجاً لا سيما في

أوربة ، بلد الشعوب التي قهرها صلاح الدين في حطين ، فالتاريخ يبرهن على أن الخلود للمنتصر ، والإجلال له ، لا سيما إذا كان صاحب حق ، يقاتل في سبيل قضية مقدسة ، ويحافظ على صفاته الإنسانية .

لقد تمت الإشارة إلى مراحل الحروب الصليبية في فترة الصمود ومرحلتي الموصل وحلب ثم بداية مرحلة دمشق أيام نور الدين محمود ، حيث تم الإعداد لخوض معركة فاصلة ضد المؤسسة العسكرية الصليبية[1] ، لكن تقاعس صلاح الدين ، وهو والي مصر آنئذ ، أعاق تنفيذ الخطة ، حيث توفي نور الدين بعد ذلك بشكل مفاجىء وقد انفرط عقد دولة نور الدين عشية وفاته ، وذلك أنه خلف ولداً صبياً لم يستطع القيام بأعباء المسؤولية ، فخف صلاح الدين من القاهرة إلى الشام ، حيث تمكن خلال سنوات من حسم مادة الفوضى في البلاد ، وحال بين الفرنجة وبين أي توسع في الشام وأقام دولة تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل وتشمل بلاد الشام والجزيرة مع مصر والحجاز واليمن وليبيا .

وملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للإعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وايقن صلاح الدين أنه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مناسبة ، وخلال زمن يكون لصالحه ، ويتيح له احراز النصر وسحق القوات المعادية .

وشهدت هذه الفترة تطوراً كبيراً في العلوم العسكرية لدى المسلمين ، من حيث تحسين عدد كبير من الاسلحة ، ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصاداً متيناً ، وأصبح لديها نواة اسطول يؤدي بعض الخدمات في البحر المتوسط .

وكان الصليبيون يمتلكون آنئذ الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من انطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحياناً الثمانين كيلو متراً ،

(١) انظر أبحاث : أبو فضل الخشاب ، عماد الدين زنكي ، نور الدين محمود .

وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها أنطاكية والقدس وطرابلس وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل : دمشق ، حمص ، حماة ، بعلبك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من الحدود الصليبية ، كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ، قامت بينهم وبين المؤسسات العسكرية الصليبية أنماط من العلاقات لم تدرس بالعربية بعد دراسة علمية .

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من أوربة عن طريق الأناضول ، وعن طريق البحر ، فقد كانت أساطيل الدويلات الإيطالية تتحكم بأعمال الملاحة في البحر المتوسط ، وكانت قوى صلاح الدين البحرية أضعف من أن تتصدى لهذه الأساطيل ، ولقد سعى صلاح الدين إلى إقامة تعاون بحري بين اسطول دولته واسطول امبراطورية الموحدين القوي ، فلم يوفق .

هذا واعتمد الصليبيون على حماية الامبراطورية البيزنطية ، ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين ، والاستفادة من نشاطهم ، يضاف إلى هذا أن الصليبيين ركنوا في كثير من الأحيان إلى المساعدات التي تقدم لهم من أرمينية وموارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا أن تتذكر أن الصليبيين حققوا نجاحاتهم بسبب تمزق المسلمين وانصرافهم إلى النزاعات الداخلية ، لكن الآن أيام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد المسلمون تحت راية صلاح الدين ،وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعياً وحضارياً واقتصادياً ، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسياً ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما أن الفوارق بدت جلية بين أبناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثاً من أوربة ، وظهر بين صفوف الغزاة الفرنجة منظمات عسكرية

دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الأحيان ، كما جلب الصليبيون معهم إلى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في أوربة ، لهذا تضاءلت سلطات ملوك الدول على الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام ، ثم إن بعض الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكماً مباشراً ، أو على شكل وصاية •

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلاف بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع مستهدفاً تدمير الفرنجة اقتصادياً ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ، ثم الإشراف على الطريق البري الواصل بين مصر والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الإستيلاء عليه •

وقبيل وفاة نور الدين كان أموري الأول ــ ملك القدس ــ أبرز قادة الصليبيين ، وأكثرهم مقدرة ، وأعمقهم تجربة ، وكان يسعى لاستغلال الظروف التي نجمت عن وفاة نور الدين المفاجىء إنما فوت عليه ذلك منيته التي أحاقت به ، بعد قرابة شهرين من وفاة نور الدين ، وقد خلفه على عرش القدس ابنه بلدوين الرابع ، وكان صبياً في الثالثة عشرة من عمره ، مصاباً بالجذام ، عاش حتى الرابعة والعشرين وقد حرمه صغر سنه ومرضه من مباشرة السلطة ، وكانت مملكة القدس في أمس الحاجة إلى من يقودها حيال نشاط صلاح الدين وأعماله •

ودبت الفوضى في مملكة القدس ، وقام صراع بين الأمراء الاقطاعيين حول الاستبداد بأمورها ، والوصاية على عرشها ، وتدخل صلاح الدين مراراً في هذا الصراع ليزيد من رقعته ، وأثناء ذلك الصراع تمكن أحد الأمراء الصليبيين واسمه رينو دي شاتيون ــ الذي عرفه العرب باسم أرناط ــ من السيطرة التامة على قلعتي الكرك والشوبك ، وكان أرناط هذا

أجمقاً ، متعصباً ومتهوراً ، ركز ميادين نشاطه على قطع طرق الحج والطريق الواصل بين مصر والشام .

ولم يهمل صلاح الدين نشاط أرناط هذا ، وحاول الحد منه ، لكن حدث سنة ١١٨٧ م أن هاجم « أرناط » قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة إلى دمشق، فانتهب ثرواتها ، وأسر الذين جاؤا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر ، فأرسل وفداً إلى « أرناط » يطلب منه إطلاق سراح الأسرى ورد المنهوبات ، فأجاب أرناط رافضاً بوقاحة ، وهنا أرسل صلاح الدين رسالة إلى ملك القدس ، فلم يستطع فعل شيء ، وأمام هذا الحال استنفر صلاح الدين قواتــه ، واستنفر قوات المسلمين في الجزيرة وسواها ، وأخذت القوات تتدفق على دمشق لتنطلق منها مسيرة التحرير .

وكان قوام جيش صلاح الدين الفرسان ، وكان سلاح هؤلاء الأساسي الأقواس والنبال مع السيوف والدبابيس ، وتفوقت أقواس جيش صلاح الدين إذ كانت أكثر مرونة وأخف وزناً وأسهل استعمالاً ، وصنع القوس في الغالب ــ على الطريقة التركمانية ــ من قطع من العظام صف بعضها إلى جانب بعض ثم لفت بخيوط من جلود الحيوانات ، المبللة بالماء ، وكانت أوتار الأقواس أيضاً من جلود الحيوانات ، وعندما كانت هذه الأقواس تجف بالشمس كانت قدرتها « النابضية » كبيرة للغاية ، وكــان الفارس الرامي ، يستطيع الرماية في جميع الجهات وأن يرمي في الدقيقة الواحدة عشرة أسهم أو أكثر ، وكان السهم يصل الى مسافة أربعمائة متر أحياناً ، وعندما كانت قوات صلاح الدين تتقدم إلى معركة ما ، كانت تغطي سماء المعركة بالسهام ، وغالباً ما استهدفت السهام خيول فرسان العدو ، وأمام هذا اضطر الصليبيون إلى تغطية أنفسهم وخيولهم بدروع واقية ، ولكن غالباً ما كان ضرر هذه الدروع أكثر من نفعها ، ذلك أن القوات العربية كانت تفضل القتـــال في مواسم الصيف لأسباب كثيرة ، منها ما كان زراعياً ارتبط بنظام الإقطاع العسكري ،

ومنها ما كان لغايات فنية قتالية ، فقد كانت الأمطار والأجواء الرطبة العدو الأول والأكبر للقسي ، لأنها كانت تفقدها فاعليتها •

وحين كانت المعارك تتم في مواسم الحر ، كانت قوات الصليبيين « المدرعة » تعاني من العطش ويصاب فرسانها بالإنهاك نتيجة لانحباس التعرق ، ذلك أن المعادن تحول دون تعرق الأجسام ، وسنرى تأثير ذلك في نجاح المسلمين بكسب معركة حطين •

وفي مواجهة القواعد القتالية عند المسلمين ، لم يكتف الصليبيون بتغطية فرسانهم وخيولهم ، بل عدلوا من طرائق قتالهم وتسليح جيوشهم فقد أخذوا باستخدام قوات من المشاة الذين كانوا يرتدون معاطف من الجلد السميك فوقها قميص من الشباك المعدنية ، وكان سلاح هؤلاء الأقواس الثقيلة ، والفؤوس والحراب ، وكانوا يتقدمون أمام فرق الفرسان التي كان سلاحها الرئيسي الرماح القوية ، فإذا ما حدثت معركة حاول المسلمون فيها التقدم ، كان هؤلاء المشاة ، يتمركزون على الأرض ،ويأخذون بالرمي المؤثر ، وهنا كان إذا ما حاول فرسان العرب الإغارة عليهم ، كان الفرسان الصليبيون يتصدون لهم بالانقضاض عليهم ورماحهم مسلطة إلى الأمام ، قادرة على الخرق ، بقوة اندفاع الخيول ، لربط الفارس نفسه إلى ظهر فرسه ، وركزه رمحه تحت ابطه ، ولهذه الأسباب بنى العرب خططهم ــ على فصل القوات ــ أي على إحداث ثغرة بين الفرسان والمشاة ، وهي عملية معقدة تطبيقاً وتنفيذاً ، لهذا كانوا يستخدمون الكر والفر لجذب الفرسان ، وهنا إذا نجحت العملية ، كانوا يرسلون سهامهم في السماء حتى تهبط على رؤوس الفرسان ، أو كانوا يرسلونها سطحية لتصيب بطون الخيل المعادية ، حيث كان عقر الخيول ، تعطيل لسلاح الفرسان ، فالفارس المدرع المسلح بالرمح الطويل ، كان يعجز عن العمل بعد عقر مطيته ، وعقب هذا كان الرماة بخفتهم ومرونتهم يعلقون قسيهم ، ويتناولون سيوفهم أو دبابيسهم ويقومون بالإنقضاض على الفرسان والمشاة كل على حدة ، ويجهزون عليهم •

وعندما كان صلاح الدين يعزم على خوض معركة ما مع الصليبيين ، كان يمهد لذلك قبل عدة أشهر فيرسل كتائب الجيش لتقوم بإتلاف مزروعات العدو وبإفساد الآبار وموارد المياه ، وبضرب المنشآت الاقتصادية ، وبعدما يتحقق هذا كان يقود قواته نحو الإلتحام .

في ربيع عام ١١٨٧ م دعا صلاح الدين إلى الجهاد ، فأخذت القوات النظامية من دولته ودولة الموصل وسواها تصل تباعاً إلى دمشق ، فوصل معها أعداد من المتطوعة ، وكان ما تجمع لدى صلاح الدين أكثر من عشرين ألف مقاتل ، إنما دون الثلاثين ، وقامت القيادة العسكرية بوضع خطة للهجوم على فلسطين بغية تحريرها ، واستهدفت هذه الخطة استدراج قوات الصليبيين إلى منطقة طبرية لإيقاع ضربة قاصمة بها .

وشعر الصليبيون بالخطر المقبل نحوهم ، فأزالوا خلافاتهم ، وحشدوا قواهم كلها ، ولعلها قاربت الخمسين ألفاً ، وهو عدد لم يجتمع للصليبيين مرة واحدة مثله في الشام من قبل ولا من بعد ، وعسكرت قوات الصليبيين في صفورية ــ قرب الناصرة ــ وباتت تترقب الأحوال وتنتظر تطور الأمور ، وكما هو واضح فإن تعداد هذه القوات فاق تعداد ما تجمع لدى صلاح الدين ، وكان فيها خيرة رجال الفرنجة في المشرق .

وغادر صلاح الدين دمشق ، وأخذت قواته الطريق نحو الاردن ، وفي يوم الجمعة ــ ٢٦ حزيران ١١٨٧ م ــ عبرت هذه القوات نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذت مواقعها قرب أطراف النهر ، وبات عليها تنفيذ الخطة الموضوعة .

وكان أصحاب التجربة من قادة الصليبيين على معرفة بمرامي صلاح الدين وأهدافه ، وكان على رأسهم آنذاك ريموند الثالث صاحب طرابلس وطبرية ، ويروي مصدر لاتيني عاصر الأحداث ، أن ريموند الثالث خاطب قادة الفرنجة المعسكرين في صفورية في أول مجلس حربي عقدوه ، بقوله : « أنصحكم وأقترح عليكم أن تشحنوا مدنكم وقلاعهم بالرجال والمؤن ،

والسلاح ، وكل ما يلزم من وسائل الدفاع واطلبوا المساعدات من جميع الأطراف ذلك أنني موقن بأن صلاح الدين سيظل حيث هو ، وأنتم تعلمون أنه الآن منتصف الصيف ، وأكثر الأوقات حرارة في السنة ولا شك أن الحر سيبعث على الاسترخاء والكسل وآنئذ نقوم بمهاجمة مؤخرة قوات صلاح الدين ونجبره على الانسحاب ، وهكذا تسلم المملكة ــ مملكة القدس ــ وتبقى آمنة » ، ووافق القادة على هذا الاقتراح فقرروا الإقامة .

وعلــم صلاح الدين بهــذا وجرب استدارج الصليبيين واقتلاعهم من معسكرهم فأخفق ، وكــان صلاح الدين يدرك أحوال القوات الصليبية ، وأحوال جنودها النفسية ، فقد كان في هذه القوات عدد كبير من الفرسان ، لا سيما من اتباع فرسان المعبد والمستشفى (الداوية والاسبتارية) فغالباً ما كان الفارس ، أرعناً ، متهوراً ، تسهل إثارته ، كما أدرك صلاح الدين أن الخطر قد جمع بين قوى الصليبيين ، لكنه لم يزل الخلاف والتنافس من بين صفوفهم .

ومن هذا الإدراك سدد صلاح الدين ضربته البارعــة ، فقام بمهاجمة طبرية ، وكانت آنذاك تعسكر فيها زوجة ريموند الثالث مع عدد من الأسر الصليبية النبيلة ، وسقطت طبرية ، وانسحب المدافعون عنهــا إلى قلعتها ، وأرسلوا يستغيثون ويطلبون نجدة المعسكرين في صفورية على بعد خمسة عشر ميلاً .

وعندما وصلت الاستغاثة إلى الصليبيين ، عقد قادتهم مجلساً حربياً جديداً لدراسة الموقف ، وأعطي الكلام لريموند الثالث لمرتبته العالية ، ولأن طبرية من أملاكه ، وزوجته هي المدافعة عنها ، وهي صاحبة الاستغاثة أيضاً ، وعرض ريموند رأيه في أن لا تستجاب الاستغاثة ، ذلك أن التحرك من صفورية سيؤدي إلى تدمير مملكة القدس وزوالها من الوجود ، وقال : دعــوا طبرية تسقط ، فإن صلاح الدين لن يحتفظ بها بــل سيكتفي بتدمير أسوارها وأخذ من فيها أسرى وسنعيد بناء الأسوار ، ونفاوضه من أجل

الأسرى ، وأضاف : إن الزحف إلى طبرية في أرض قاحلة لا ماء فيها في هذا الفصل الحار سيؤدي إلى دمار الجيش ، ثم اني أعرف غطرسة صلاح الدين وتجبره ، وهو إن لم نزحف إليه ، سيزحف إلينا ، وآنئذ سندمر جيشه ، وإن تكن الأخرى ، فقلاعنا على مقربة منا ، حيث يمكن أن نلجأ اليها .

وقام أرناط في مقدمة الداوية ، وعدد من كبار الفرسان ، بمعارضة آراء ريموند هذه ، واتهموه بالخيانة والجبن ، وبينوا أن قانون الإقطاع الناظم للعلاقة بين الملك والتابع يقتضي من ملك القدس أن يهب لنجدة طبرية ، ومهما كانت المخاطر والنتائج وكثرت الضغوط على الملك ، فمال إلى المعارضين لريموند ، لكنه لم يصدر أمراً بالتحرك ، وبات الجيش الصليبي حيث كان ، إنما في آخر الليل سمعت أصوات تنادي بالرحيل ، وأن الملك أصدر بذلك أمره ، ويرى أغلب الذين كتبوا في تاريخ الحروب الصليبية ، أن الملك لم يصدر أمر التحرك ، وحيث لم تعرف الجهة التي أصدرت الأمر ، يتساءل البعض عما إذا كان قد تحقق لجماعة من عملاء صلاح الدين النشاط في المعسكر الصليبي ، واجباره على التحرك ، واذا صح هذا ، ففيه براعة وفهم كبير .

وخلاصة الأمر أن الجيش الصليبي تحرك في الثالث من تموز ـ شهر الحر ـ تحرك لينقذ طبرية ، لا ليشتبك بجيش صلاح الدين في معركة فاصلة ، وخيل إليه أنه سيصل إلى طبرية خلال ساعات فقط .

وتحرك الجيش الصليبي ، وهو مؤلف من ثلاثة أقسام ، فقد سار في المقدمة ريموند لعلو مرتبته ، ولأن الأرض كانت تابعة له ، وبقي الملك في القلب ، وسار الفرسان في الساقه ، وعندما عرف صلاح الدين بخبر تحرك الجيش الصليبي ، سر سروراً كبيراً ، لأن خطته قد نجحت حتى ذلك الوقت ، فترك طبرية ، وعاد إلى مقر قيادته ليشرف على العمليات .

وكان جيش الفرنجة ، حين ترك صفورية ، قد أخذ الطريق المؤدي إلى طبرية ، لكن هذا الجيش ما لبث أن أخذ يتعرض لهجمات صاعقة من كمائن

قوات صلاح الدين ، وكانت مؤخرة الجيش أكثر الأقسام تعرضاً وتأثراً ، وكان يوم الثالث من تموز عام ١١٨٧ شديد الحرارة ، وقد حالت قوات صلاح الدين بين الصليبيين وبين الحصول على الماء وفي منتصف الطريق إلى طبرية عرف الملك أن جيشه أصيب بالانهاك ، وأن مؤخرته أصبحت عاجزة عن متابعة التحرك ، وهنا قرر الانحراف إلى احدى القرى القريبة للحصول على الماء وزاد هذا العمل الجديد جيشه ارتباكاً وفوضى ، كما ازدادت هجمات القوات المسلمة عليه ضراوة وشراسة ، فاضطر إلى ضرب مخيمه حيث كان في منطقة تعرف بلوبيه ، وهي منطقة جرداء لا ماء فيها ولا شجر ، وأحدق فرسان صلاح الدين بمعسكر الصليبيين وأخذوا ينقضون عليه من كل جانب ، وعاش الصليبيون ليلة كلها هول ، فأشرفت معنوياتهم على الإنهيار •

وكان الحال في معسكر صلاح الدين على نقيض معسكر الصليبيين ، فالمعنويات كانت مرتفعة ، والنفوس باتت واثقة من النصر المؤزر ، وقد سهر صلاح الدين ليلته يشرف على توزيع قواته ويقوم بالاعدادات الأخيرة لليوم التالي ، وأمر ليلته بتوزيع كميات وافية من النبال على فرسانه •

ومع صباح يوم السبت الرابع من تموز جاء الجيشان وجهاً لوجه وكان كلاهما يدرك أن قدر مملكة القدس الصليبية، وبالتالي الوجود الصليبي بأسره في المشرق معلق على نتيجة الصراع ، وكان الجند المسلم قد نال قسطاً كبيراً من الراحة ، بينما عض العطش والتعب والهلع الجند الصليبي ، ومع هذا أراد الصليبيون انقاذ الموقف بتسديد ضربة قاسية إلى صفوف قوات صلاح الدين لخرقها ، والوصول إلى مياه طبرية مهما بلغت التكاليف، وأدرك صلاح الدين غايات القوم ، وعرف خطتهم ، فعمل على الحيلولة بينهم وبين النجاح •

وحسب المصادر اللاتينية المعاصرة رتب الصليبيون أنفسهم بأن قسموا قواتهم إلى عدد من الصفوف بحيث وضعت كتائب الرجالة في المقدمة لحماية الفرسان ، وللتمهيد برماياتها الطريق لهم لانجاز عمليـة الخرق والوصول إلى ميـاه طبرية ، ووقف ملك القدس في الوسط وكان بصحبته الاساقفة وزمرة من النبلاء من خيرة الفرسان •

وكان من المفروض أن يقوم الفرسان عقب الرمايات التمهيدية بالاندفاع، مسلطين رماحهم إلى الأمام ، وأن يلحق بهم الرجالة لحمايتهم ، وبالفعل اندفع الفرسان، فتصدى لهم فرسان المسلمين، وقاوموهم بضراوة، ثم تظاهروا بالعجز والانهزام ، فلحق بهم الفرسان ، وهنا ابتعدوا عن المشاة ، وقامت في هذه اللحظة كمائن المسلمين المتمركزة على الجنوانب بالانقضاض على المشاة ، فاضطروا إلى التكتل ، واتخاذ موقف الدفاع ، بأن تخلوا عن مواقعهم ، وانسحبوا إلى ظهر تل هناك عرف بتل حطين ، له قمتان ــ عرفتا بقرني حطين ــ وهنا أرسل الملك وحاشيته خلفهم ، وطلبوا منهم التراجع ، فأبوا الاستجابة قائلين : « لا نستطيع لاننا نموت عطشاً ، ولا نستطيع القتال » .

وهكذا غدت خيول فرسان الصليبيين بلا حماية ، وشدد العرب هجماتهم على هؤلاء الفرسان ، وأمطروهم بوابل من النبال ، فاستنجد الفرسان بالملك ، وأخبروه أنه ليس بامكانهم متابعة القتال ، ولم يستطع الملك انجاد الفرسان ، كما أنه وجد نفسه مع أتباعه قد أحاق به العجز ، وحالت الرمايات المكثفة بينهم وبين التحرك ، لهذا وجد الملك أن أفضل الحلول هو أن يأمر بضرب الخيم حيث كان على مقربة من المشاة آملاً في القدرة على الدفاع .

وزاد هذا القرار الفوضى داخل صفوف الفرنجة ، كما أكد عملية الفصل بين الفرسان والرجالة ، وعندما رأى ريموند ما آل إليه الحال دبر أمر نجاته من الطوق المضروب حوله ، وتغاضى المسلمون عنه ، كيما يفقد الفرنجة خيرة رجالاتهم تجربة وحنكة ، ثم ليكون موضع اتهام في المستقبل ، وليحتلوا الأرض التي كان فيها حتى يكمل الحصار ويشتد الطوق على بقية الجيوش الصليبية، وفي أثناء هذا كله أخذ بعض الفرسان يعود إلى حيث وقف الملك، ونظراً لصعوبة الاتصال ، واتساع رقعة مسرح العمليات ، لم يكن لدى صلاح الدين صورة واضحة عما آل إليه الأمر ، لكن ذلك تيسر عندما جلب إليه الجند عدداً من الأسرى ، فتم جمع المعلومات منهم ، وعلى ضوء ذلك تحرك صلاح الدين وحرك قواته ، فتمكن أولاً من ابادة المشاة ، وسحق الجزء الأكبر من الفرسان ثم عمل على حسم المعركة .

وفي هذا االوقت كانت مجموعة كبيرة من الصليبيين قد تجمعت حول الملك ، واتخذ الجميع موقف الدفاع عن أحد قرني حطين ، وأدرك صلاح الدين أن المعركة ستنتهي بتصفية هذه المجموعة ، فقاد الهجوم عليها بنفسه ، وبدأ بطرح النار في الأعشاب التي كانت موجودة في اتجاه الرياح ، فغطى الدخان تحرك قواته ، كما زادت النيران من سوء أحوال الصليبيين وشدة عطشهم .

ويصف الملك الأفضل بن صلاح الدين نهاية المعركة بقوله : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنجة على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من هم بإزائهم من المسلمين ، حتى ألحقوا بوالدي ، قال : فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، وأربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح ، كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمنانهم ، فعاد الفرنج ، حملوا حملة ثانية مثل الأولى ، ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثلما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم ، فألحقوهم بالتل ، فصحت أنا أيضاً : هزمنانهم ، فالتفت إليّ والدي وقال : ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، إذا بالخيمة سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فألقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك وأخوه ، والأمير أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنجة أشد منه عدواناً لنا ، وكثر القتل والأسر فيهم ،فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل ، وهو سنة احدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة » .

إن حطين واحدة من معـارك التاريخ الفاصلة حطمت فيهـا المؤسسة العسكرية الصليبية ، وقام صلاح الدين بعد ذلك بقليل بتحرير القدس،حيث جلب إليه منبر نور الدين ، فألقيت عليه خطبـة التحرير ، وبات الآن وجود الفرنجة في الشام أمر مرهون بالوقت .

لقـد كتب النصر في حطين الخلود لصلاح الدين ، وغطى على بقيـة انجازاته ، وعندما انتهت حياة صلاح الدين ، انتهى معها مرحلة دمشق في أعمال التحرير، وتاريخ وجود الفرنجة في الشام ، لتبدأ مرحلة القاهرة الأخيرة وهي مرحلة تصفية الوجود الصليبي .

* * *

المنصور الموحدي

(ت : ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م)

« أوصيكم بتقوى الله تعالى ، (وبالأيتام واليتيمة) فقيل له : ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها ، وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعايتها ، ولتعلموا أعزكم الله ، أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها ، ولو مد الله لنا في الخلافة والحياة ، لم نتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار إسلام ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا للمسلمين ، وأجروا الشرائع على منهاجها » .

كانت هذه هي العبارات الأخيرة التي تلفظ بها يعقوب المنصور الموحدي، وهو على فراش الموت ، وفيها دليل على عظمة الرجل ، ومدى إخلاصه وشعوره بالمسؤولية ، في الحقيقة يعتبر المنصور أعظم خلفاء الموحدين ، وفي أيام حكمه التي امتدت قرابة الخمسة عشر عاماً ، وصلت الخلافة الموحدية إلى أوج عظمتها ، قوة واقتصاداً وحضارة ومنعة .

وقد تسلم يعقوب المنصور الخلافة بعد وفاة والده يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠ هـ ، فاهتم أولاً بأمور ولايته في شمالي افريقية ، ثم التفت إلى الأندلس ، فاهتم بها عظيم الاهتمام ، حيث أكمل بعض المشاريع المعمارية فيها ، من ذلك مئذنة المسجد الجامع في اشبيلية (الخيرالدا) التي ما تزال ماثلة حتى الآن ، شاهدة على عظمة بناتها ، ورقي حضارتهم .

وتنبع شهرة المنصور الموحدي أولاً من الأعمال العسكرية التي أنجزت في عصره ، خاصة في الأندلس ، فالجيش الموحدي في أيامه بلغ درجة كبيرة من القوة ، كما أن الاسطول الموحدي صار من القوة بمكان دفعت مشارقة

المسلمين الذين كانوا يخوضون الحروب ضد الغزاة الصليبيين في الشام ، إلى الاستنجاد بهذا الاسطول ، لايقاف النجدات الكبيرة التي كانت تقدم إلى الصليبية بوساطة البحر .

وكما عانى مشارقة المسلمين من الغزو الصليبي في بلادهم ، كذلك عاش أهل الأندلس جحيم حروب الاسترداد الصليبية في بلادهم ، وفي أيام المنصور الموحدي خاض المسلمون آخر معاركهم الفاصلة في تاريخ الأندلس ، وهي معركة الأرك وكان ذلك في سنة ٥٩١ هـ .

ففي سنة ٥٩٠ ، عزم المنصور على الجواز إلى الأندلس برسم الغزو فيها ، فجيش قواته ، لكن مرضاً شديداً حل به في مدينة سلا ، وقد عاقه ذلك المرض عن العبور ، فأطمع ذلك الصليبيين في الأندلس ، فجاثوا خلال ديار الأندلس فخربوا ودمروا ، وبلغ ذلك المنصور ، فقرر العبور وفعل ذلك سنة ٥٩١ هـ ، وقاد قواته نحو مدينة قلعة رباح ما بين قرطبة وطليطلة ، وهناك في سهل واسع وراء جبال الشارات عرف بالأركو ، جاءت قواته وجهاً لوجه مع قوات مملكة قشتاله ومن ساندها من الصليبيين .

وضع المنصور خطة محكمة للقتال مع خصومه ، فقد قدم القسم الأكبر من جيشه للالتحام بالعدو ، وأمر أحد قادته بأن يكون في القلب وفوق رأسه شعار السلطنة وذلك للتغرير بالعدو ، وتأخر المنصور مع من بقي من جيشه ، وتخفى على شكل كمين ، مستغلاً طبيعة الأرض .

وحدث الالتحام ، واستعر القتال سحابة النهار ، وعندما ألمّ الإعياء والتعب بالطرفين المتصارعين ، تحرك المنصور بقواته بضجة وصخب شديدين فقد كان من عادة الموحدين تجهيز جيوشهم بطبول ضخمة للغاية ، واستطاع المنصور بهذا التحرك أن يفاجيء عدوه ، ويفصل المعركة لصالح المسلمين .

لقد ربح الموحدون المعركة ، وكسبوا غنائم كبيرة للغايـة ، ودخلوا مدينة قلعة رباح فحرروها ، وأمر المنصور بتطهير مسجدها ، ثم قام بأداء الصلاة فيه ، وبعد ذلك رجع المنصور إلى اشبيلية حيث أخذ يضع الخطط

لاسترداد جميع أراضي الأندلس إلى حوزة المسلمين ، وبالفعل شرع في تنفيذ ذلك ، فخاض عدداً آخر من المعارك .

وفي ذروة نشاطه أصيب بمرض كان سببه « اختلاف أهوية الأقاليم ، فقد كان بارزاً لهواجرها وأمطارها أزمنة متوالية » وألزمه مرضه الفراش في عاصمته مراكش ، حيث توفاه الله ليلة الجمعة الثاني عشر لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة للهجرة .

وحين نذكر المنصور الموحدي ، لا نربط خلوده بانجازاته الحربية والعمرانية فقط ، وإنما بالجانب الحضاري والثقافي الذي كان نامياً في شخصه وفي عصره ، فعصر المنصور الموحدي هو العصر الذي عاش فيه ابن الطفيل وابن رشد وسواهما من مشاهير فلاسفة الغرب الاسلامي ، وهو عصر تدوين كتب السيرة والمغازي وغيرها من الفنون ، إنه عصر وصلت فيه الحضارة العربية في الغرب الاسلامي الموحد إلى الذروة ، وحصل هذا في وقت كانت شمس الحضارة في الشرق العربي قد بدأت فيه تميل إلى الغروب.

* * *

الظاهر بيبرس

(ت : ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م)

من الظواهر الأساسية في التاريخ الإسلامي وجود عدد لا يحصى من الأبطال ، لكن الذين خلدهم المؤرخون بمدوناتهم ، مع الشعوب في ملاحمهم قليل للغاية ، ذلك أن الإجماع على تقدير بطولة بطل من الأبطال من قبل الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومناهلهم ومذاهبهم أمر نادر .

ونحن حين نعرض لسير أبطال الإسلام الندرة الذين حازوا الاعجاب المطلق ، نجد الظاهر بيبرس يتصدرهم جميعاً ، ذلك أنه ظهر في وقت اشتدت فيه المحنة على المسلمين بحيث أطبقت عليهم قوى الأعداء من كل جهة في الداخل والخارج : المغول والصليبيون وسواهم ، فتصدى للجميع ، أوقف مدّ الغزو المغولي الجائح وحوله إلى جزر ، وأوقع بالصليبيين أروع الضربات واستطاع أن يصفي وجودهم في المشرق ، وبعد هذا قام بانجازات حربية أخرى دعمها بانجازات حضارية وثقافية ومعمارية ، فحاز على اعجاب المثقفين وملك لب جماهير المسلمين ، فتربع على عرش البطولة المطلق بلا منازع .

والظاهر بيبرس هو واحد من الأبطال الذين لم ينحدروا من بيوت ملك وسلطنة ، ولم يصل إلى ما وصل إليه عن طريق الوراثة ، ولهذا امتاز تاريخه المبكر بالغموض والإبهام ، وتضاربت الروايات حول أصله ونشأته ، ولا شك أن المؤرخين الذين كتبوا تاريخه قد أحسوا ــ لكن بعد فوات الأوان ــ بوجود حلقات مفقودة في حياته ، فراحوا ينسجون القصص الخيالي حول نشأته ، فنسبوا إليه مزيداً من الأعمال الخارقة ليقولوا بأن علامات البطولة ظهرت عليه منذ ولادته ، ولا شك أن هذا قد أسهم في تحويل الظاهر بيبرس إلى بطل شعبي ملحمي أخباره تكاد تكون اسطورية أو ضرباً من ضروب الخيال ..

تتيجة لما تقدم لا يوجد في روايات المؤرخين اجماع حول نشأة بيبرس ، إنما يمكن أن نستخلص منها أنه كان تركي الأصل ولد في بلاد القفجاق ـ في جنوب روسيا ـ وهناك قضى طفولته حتى أغار على بلاده المغول فأخذوه أسيراً ، وباعوه رقيقاً في سيواس ومن هنا حمله واحد من تجار الرقيق إلى حماة في سورية فابتاعه الأمير ايدكين البندقدار ، وكان هذا الأمير من مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر (١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ م) وكان آنئذ معتقلاً في حماة .

وظل بيبرس مع سيده في حماة حتى أفرج عنه ، فمضى معه إلى مصر ، ونال الشهرة مع لقب سيده فعرف باسم بيبرس البندقداري، وكان الملك الصالح نجم الدين قد توسع في الاعتماد على المماليك ، لهذا استحوذ على بيبرس وأخذه من صاحبه ، وبهذا دخل بيبرس مرحلة جديدة من حياته ، حيث تدرب على الأعمال العسكرية ، وتم اعتاقه من العبودية ، وبسرعة كبيرة علا نجمه وحاز اعجاب سيده فارتفعت مرتبته .

وفي سنة ١٢٤٩ توفي السلطان الصالح ، وحدث ذلك أثناء تعرض مصر للحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، فقد استطاع الصليبيون مداهمة دمياط ، وزحفوا على المنصورة ، وكان تورانشاه ابن الملك الصالح ووريثه بعيداً عن مصر ، فتأزم الموقف كثيراً ، وكاد الصليبيون أن يحتلوا البلاد ، لكن جماعة من المماليك ، يتقدمهم بيبرس ، انقضوا على الغزاة ، فأوقعوا فيهم الهزيمة وبذدوا عملهم ، وأسروا لويس التاسع نفسه .

وبفضل هذا النصر قويت شوكة بيبرس ، وازدادت أهميته ، وعندما جاء إلى مصر تورانشاه ، حيث نصب خلفاً لأبيه ، سرعان ما اصطدم بالشاب الطموح بيبرس ، واستطاع بيبرس نتيجة لذلك أن يقتل تورانشاه وعمله هذا أزال من الوجود حكم الأسرة الأيوبية ، وأحل محلها حكم سلاطين المماليك .

فبعد مقتل تورانشاه قرر المماليك تولية شجر الدر ، أرملة الملك الصالح

نجم الدين ، وكانت من ناحية الأصل والنشأة قريبة من المماليك ، وبعد توليتها تزوجت من عز الدين أيبك قائد الجيش .

ومجدداً اصطدم بيبرس مع أيبك ، فاضطر إلى مغادرة مصر إلى الشام حيث مكث فيها حتى ما بعد مقتل كل من شجر الدر وايبك في مؤامرات سياسية ، وصيرورة السلطنة إلى سيف الدين قطز .

ومعلوم أنه في سنة ١٢٥٨ م اقتحم المغول ، بقيادة هولاكو بغداد ، ودمروها وأزالوا الخلافة العباسية من الوجود ، وتابعوا زحفهم نحو الشام فاحتلوا حلب ، وهددوا دمشق، وكان بيبرس آنئذ في دمشق ومعه قوة خاصة به ، وقد أراد بعض المماليك تسليم دمشق للمغول ،فتصدى لهم بيبرس ، ولطم قائد هؤلاء على وجهه قائلاً : « أنتم سبب هلاك المسلمين » .

وحين شعر بيبرس أنه من العبث البقاء في دمشق ، انسحب نحو غزة حيث تراسل مع قطز سلطان مماليك مصر ، وتحالفا ، وكان قطز قد تلقى رسائل وعد ووعيد من هولاكو ، لكنه قرر مع بيبرس عدم الاستسلام ، وقادا سنة ١٢٦٠ جيشاً كبيراً ، للتصدي للمغول ، وسار بيبرس في مقدمة هذا الجيش ، والتقى الجيش المسلم بقوات المغول بعد مناوشات ، ثم التحم معه عند عين جالوت ــ بين بيسان ونابلس ــ وهناك في أيلول من السنة نفسها حدثت معركة حاسمة، كانت احدى معارك التاريخ العظمى ، فيها سحق المغول لأول مرة ، وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً ، كان الفضل الأعظم فيه للبطولة النادرة التي ابداها بيبرس ، وهذه المعركة لم تؤد فقط إلى تحرير الشام من حكم المغول بـل حفظت مصر والشمال الأفريقي منهم ، وصانت الإسلام والمسلمين هناك، ووضعت مصر بجدارة في عرش زعامة بلدان العرب.

وبعد المعركة طلب بيبرس من قطز أن يسند إليه حكم حلب كمكافأة

على ما بذله في عين جالوت ، فرفض طلبه ، لهذا أقدم على اغتيال قطز ، وأحل نفسه على عرش السلطنة ، وبهذا بدأ مرحلة جديدة في حياته .

وعندما دخل بيبرس القاهرة في أواخر تشرين الأول عام ١٢٦٠ ، بدأ صفحة جديدة في تاريخ مصر والشام وبلدان الشرق العربي ، فيمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لنظام حكم المماليك ، ذلك أنه أمضى في الحكم سبعة عشر عاماً ، وهي مدة لم يشغلها سلطان مملوكي قبله ، وخلال سني حكمه حقق الاستقرار الداخلي ، فوطد الأمن ، وقضى على كافة الثورات المناوئة لـه ، وخفف أعباء الضرائب عن الاهلين ، ثم وضع النظام الاداري لدولة المماليك ، وأحدث اصلاحات كبيرة للغاية ، وشجع التجارة ، وقرب العلماء ونظر في أحوال الشعب بشكل عام ، وفتش عن مسوغ شرعي لسلطنته فجلب أحد أفراد الاسرة العباسية ، وعينه خليفة ، وبذلك بدأ عصر الخلافة العباسية في مصر الذي استمر حتى الفتح العثماني لمصر .

واستهدفت سياسة بيبرس الخارجية تصفية الوجود الصليبي في الشام ، وصد أخطار المغول الذين استقروا في العراق ، وتصفية جيوب القوى الداخلية ، وتوسيع رقعة دولته ، وقد حقق في كل ذلك نجاحات واسعة : استولى على غالبية الحصون والقلاع في بلاد الشام التي عادت إلى الصليبيين وسواهم ، وتصدى للمغول وغزا أرمينية ، وهاجم قبرص ، وضم الحجاز إلى دولته ، وتوسع في وادي النيل واهتم بافريقية اهتماماً كبيراً

لقد اتسم بيبرس بالشجاعة والاقدام ، وتوقد الذهن ، والنشاط الذي الذي لا يعرف الكلل ، وظل يعمل بلا توقف حتى سنة ١٢٧٧م ، وكان قد جاوز الخمسين من عمره ، ففي هذه السنة عاد من انطاكية إلى دمشق بعد

أعمال عسكرية ناجحة ، وفي دمشق يبدو أن السم دس له في شرابه : فقضى بسببه نحبه .

وكان لخبر وفاته وقع مروع على المسلمين ، جعل الناس يتأسفون عليه ويترحمون ، ويشيدون بجهاده وكفاحه الذي لم يتوقف ، وقام المؤرخون بتدوين أخباره بشكل تاريخي، وقام الرواة بصياغتها على شكل ملحمة رائعة.

ودفن بيبرس في دمشق ليس بعيداً عن صلاح الدين الأيوبي ولا حتى عن نور الدين ، فدمشق الخالدة بطلة الصمود حباها القدر بأن تضم رفات أعظم أبطال الاسلام ، وعلى رأسهم المخطط لحطين ، والمنفذ لها ، وأخيراً بطل عين جالوت ...

* * *

الحجّـــاج

(ت : ٩٥ هـ / ٧١٤ م)

لعن الله الفاسق ابن يوسف والله لو أن أهل المشرق والمغرب
اجتمعوا على قتل سعيد بن جبير لأدخلهم الله النار .

« أبو جعفر المنصور »

روى ابن الكلبي ، أعظم رواة العرب شهرة أن النبـي إبراهيم عليه السلام ، حين دعا ربه بقوله : « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات » استجاب الله لدعائه ، فجعل مكة بلداً آمناً ، ونقل بقعة خصبة من بقاع الشام ، فجعلها على مقربة ، منها ، فرزق أهلها بالثمرات ...

عرفت هذه البقعة باسم وج ، وسكنت خلال فترات التاريخ من قبل عدد من القبائل ، كان أشهرها قبيلة ثقيف ، وقبيل ظهور الإسلام ، أحاط الثقفيون مدينتهم بسور أطافوه بها ، لذلك عرفت منذئذ باسم الطائف ، كما أنهم طوروا الزراعة في مدينتهم خاصة زراعة الأعناب والرمان ، وحققوا من وراء ذلك ثروات كبيرة ، ومعلوم أن من ملك المال ، ملك السلطة ، لذلك نال الثقفيون مكانة عالية بين عرب شمال شبه الجزيرة ، لم يفقها إلا مكانة قريش.

وقام تحالف بين أرستقراطية قريش خاصة من بني أمية وزعماء ثقيف ، وتملك بعض رجالات مكة الأراضي في الطائف ، وأقاموا فيها مصانع للدباغة، وبعد قيام الإسلام جرب النبي ﷺ مرة الهجرة إلى الطائف فأخفق في إقناع الثقفيين بالتعاون معه ، وبعد فتح مكة حاصر النبي ﷺ الطائف فلم تقـدر قواته على اقتحام أسوارها ، لكن بعد فترة جاء إلى النبي وفد ثقفي أعلن الدخول بالإسلام .

وبعد وفاة النبي ﷺ حافظت كل من مكة والطائف على الإسلام ولم يفكر الثقفيون بالردة ، وظل التعاون الثقفي الأموي على حاله ، حتى إذا انتهى عصر الخلفاء الراشدين وقامت الخلافة الأموية ، برز هذا التعاون بأجلى صوره ، حتى يكاد الإنسان أن يقول بأن الخلافة الأموية كانت أموية ثقفية ، ففي عهد مؤسس الخلافة الأول كان أبرز معاونيه المغيرة بن شعبة في العراق، وفي عهد عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للحكم الأموي ، كان للحجاج ابن يوسف الثقفي الدور الأكبر في هذا التأسيس واستمراره .

ولد الحجاج في الطائف ، وبها نشأ وتعلم ، ومارس في بداية حياته مهنة التعليم ، لكنه ملّها ، فقرر الالتحاق بخدمة عبد الملك بن مروان ، وكان له ذلك ، حيث بدأ حياته السياسية ، كجندي عادي في جيش ابن مروان ، وبسرعة مدهشة ترقى الحجاج بالمناصب حيث تولى أولاً وظيفة المسؤول عن انضباط الجيش الأموي ، ثم كلفه عبد الملك بقيادة حملة عسكرية ضد عبد الله بن الزبير في مكة .

سار الحجاج إلى الحجاز سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م ، ونزل في الطائف ، فمكث فيها شهراً ، ثم غادرها إلى مكة ، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس، حيث أخذت قذائفها تتساقط على الكعبة ، بتأييد من الخليفة نفسه ، رغم أنه كان قد أطلق صيحات الاستنكار حينما دكت جيوش سلفه الخليفة يزيد ابن معاوية أسوار الكعبة قبل ذلك بثماني سنوات .

لم يستعجل الحجاج الأمور وإنما كان هدفه إحكام الحصار حول ابن الزبير ، حتى ينفذ ما معه من زاد ، فيضطر عند ذلك للاستسلام ، وفي نفس الوقت أرسل فرقة من جنده سيطرت على المدينة ، حتى إذا طال الحصار ، ونفذت المؤن في مكة ، خرج ابن الزبير وقاتل قتالاً بطولياً حتى سقط صريعاً ومعه قلة من أعوانه لاقوا نفس المصير سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ ، بعد حصار دام نحواً من ستة أشهر .

كان مقتل ابن الزبير من الأيام التاريخية في حياة الدولة الأموية ، حيث

انتهت أخطر محاولة سياسية قامت في وجه الحكم الأموي ، محاولـة هزت دعائمه لمدة تسع سنوات ، وكادت تقضي عليه ، وبانتهاء أمر ابن الزبير ظهر الحجاج بن يوسف كشخصية من أقـوى شخصيات الحكم الأموي ، جـاء ترتيبها بعد الخليفة مباشرة .

وبعدما قضى الحجاج على ابن الزبير ، صار سيداً لجميع أجـزاء شبه الجزيرة العربية ، ولم يشبع هذا طموحه ، بل اعتبره خطوة ممهدة لاستلام منصب آخر أرفع ، وجاءت سنة ٧٥ هـ / ٦٩٤ م ، حيث توفي بشر بن مروان والي العراق ، وأقلق شغور منصب والي العراق عبد الملك ، خاصة وإنه توافق مع اشتداد نشاط الأزارقة من الخوارج فيه .

واستعرض عبد الملك أسماء أركان دولته ، فوجد الحجاج بن يوسف أجدر الناس بولاية العراق ، فولاه إياها فرحل نحو الكوفة في نفس العام ، وبعدما دخلها ألقى على منبرها خطبته المشهورة التي استفتحها بقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ...

وتوعد الحجاج في خطبته أهل العراق ، وأعلن لهم عن سياسة كلها وعد ووعيـد ، وتنكيل وقسوة ودم ، فكان يشبه زياد بن أبيـه ، وفي الواقـع هناك أوجه كثيرة من الشبه بين الحجاج وزياد ، إنما اختلف الحجاج عن زياد بأنه كان أكثر إقداماً على بطش الدمـاء ، وأشد عنفاً ، ذلك أنه بـدأ حياته السياسية في الخدمة في الجيش الأموي ، وظل دائماً حريصاً على الظهور بمظهر القائد العسكري ، في حين أن ابن أبيه بدأ حياته السياسية في العمل الإداري المدني ، وتقلب في انتماءاته السياسية ، لذلك غلبت عليه الصفـة المدنية طيلة حياته .

وجاءت سياسة الحجاج القائمة على البطش ، بنتائج كثيرة متباينة كان على رأسها ابقاء العراق تحت حكم الأمويين ، وفي نفس الوقت اعداد الأجواء المناسبة للإطاحة بالخلافة الأموية كلها ، لأن ردّات الفعل لبطش الحجاج

كانت شديدة للغاية ومدمرة يضاف إلى ذلك أن العصر الذي حكم فيه الحجاج اختلف عن عصر زياد ، ففي عصر الحجاج كان عدد الذين دخلوا في الاسلام من غير العرب قد أصبح كبيراً ، وفي هذا العصر صار التباين الطبقي في الدولة الاسلامية خطيراً ، لذلك علت أصوات كثيرة وفي كل مكان تنادي بالانصاف والمساواة والعدل ، وتندد بالتحكم والاستغلال والتفاوت الطبقي والظلم •

ولهذا واجه الحجاج عدداً كبيراً من الثورات ، تدثرت كلها بشعار المساواة هذا ، وطالبت بتحقيقه ، واستطاع الحجاج ، معتمداً على قوة الجند الشامي ، القضاء على كل من خرج ضده ، وطبق سياسة أراد بها اجلاء جند البصرة والكوفة عنهما ، ونفيهم إلى خراسان ، ونجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، وهيأ له هذا السلام في العراق لفترة لا بأس بها كما مكنه من تسخير هؤلاء الجند في عمليات فتوح في الشرق كبيرة •

وأكره هؤلاء الجند على الاستقرار بعيداً عن العراق ، لذلك ظلت نفوسهم ناقمة ولديهم الاستعداد لتلبية أية نداء بالخروج عن السلطة الأموية ، وفعلاً شاركوا في اضطرابات خراسان ، وظل الحال هذا حتى جاء أبو مسلم الخراساني ، فجمع جهود الناقمين على بني أمية ، بعد عمل دعوي منظم طويل ، وقادهم جميعاً نحو العراق فاسترد الكوفة ، وفي الكوفة أعلن عن ولادة الخلافة العباسية ، ومن الكوفة توجهت الجيوش التي هزمت مروان ابن محمد وأسقطت خلافة بني أمية ••••

نظام الملك

(ت : ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م)

أحد أفراد الدنيا :

في سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، دخل السلطان السلجوقي طغرلبك مدينة بغداد للمرة الثانية ، وبذلك تسنى له إرساء قواعد الامبراطورية السلجوقية ، وقد نجم عن ذلك نتائج على غاية من الخطورة ، فقد طويت الآن صفحة من تاريخ العرب والإسلام ، ونشرت واحدة جديدة لها مزاياها الجديدة فكرياً وحضارياً ، فقبل قيام دولة السلاجقة كان العالم الإسلامي يدين معظمه إما بإحدى عقائد الفرق ، أو كان يخضع لحكم أو نفوذ إحدى الدول الخارجة على الخلافة العباسية ، وكان دخول طغرلبك إلى بغداد انحساراً للمد المعادي للعباسيين ، وبداية حاسمة للعودة إلى عقيدة مدارس الفقــه الأربعة ، ثم انتصاراً لها ولا تكمن القضية في أمر انتصار هــذه العقيدة على خصومها وإنما في الطرائق التي استخدمت ، ومكنت من هذا الانتصار .

وأمر الصراع بين الفرق والمذاهب في التاريخ الإسلامي ليس جديداً ، وقيام الثورات المعارضة والقضاء عليهــا أمر مألوف في التاريخ الإسلامي ، والجديد الآن هو نوع الملاحقة المستمرة التي لقيتها الحركات المعارضة منذ الآن فحولتها من حركات ذات أهداف توسعية ، وبرامج ذات نظرة شاملة ، إلى طوائف همها المحافظة على ما لديها من مكاسب ، وغدت الأفكار والعقائد التي كانت جزءاً من برامج للنشر على الناس قاطبة ، عبارة عن أشياء محاطة بأطواق من السرية المميتة ، ولعل ما حل بالخلافة الفاطمية وعقيدتها فيما بعد كاف للتدليل على هذا ، فلقد قامت حركة جديدة بين الفاطميين ، أسسها حسن الصباح ، الذي اتخذ من قلعة ألموت مركزاً له ، ولقد تبنت عقيدته الاغتيال

السياسي طقوسياً بواسطة المدية ، وعملية الاغتيال السياسي هي وسيلة دفاعية لا تلجأ إليها الحركات ذات الأهداف الثورية التوسعية ، وكل حركة ذات طابع دفاعي ، هي حركة منكمشة تزول بزوال خط الدفاع وتحطيمه .

وفي الماضي أنتج الصراع بين الفرق والمذاهب تاجاً ثقافياً له قيمة حضارية كبيرة ، لكن الآن تخلى السلاجقة عن قرع الحجة بالحجة ، واتخذوا السيف ، فلقد كان السلاجقة ، بداة متعصبون للإسلام ، وكان لهم طرقهم الخاصة للدفاع عن الدين ، لجلب الناس إلى حظيرتهم ، وقد أرفقوا العنف بإقامة المدرسة النظامية في بغداد ، وكان لهذه المدرسة فروعها في أغلب حواضر الامبراطورية السلجوقية ، وارتبطت هذه المدرسة بالدولة ووجهت من قبلها ، وقامت بتخريج علماء بثوا أفكارها ونشروها ، وطبيعي أن هذا كان شيئاً جديداً وخطيراً بالنسبة لمدارس الفقه الإسلامي ، فلأول مرة ربطت هذه المدارس بالدولة وخضعت لسياستها العامة ، وكانت هذه الدولة أوتوقراطية عسكرية ، اعتمدت نظام الإقطاع العسكري ، والآن بهذا العمل أبدعت الاقطاع الديني ، ذلك أن هذه المدارس بعدما حققت النصر في القرن الخامس الهجري ، أغلقت باب الاجتهاد ، وألقت زمامها إلى أسر اختصت بالعمل الديني ....

إن المسؤول الأول عن إحداث هذا النظام ، هو نظام الملك ، الحسن ابن علي الطوسي ، وقد ولد في منطقة طوس ــ مشهد الحالية في ايران ــ سنة ٤٠٨ هـ ، وكان والده من الدهاقين وأرباب الضياع ، وقد اعتنى أبوه به ، فنال معرفة العربية بالاضافة إلى الايرانية ، وفي مطلع حياته تأثر برجال الصوفية كثيراً ، والتحق بالادارة الغزنوية ، وبعد ما سيطر السلاجقة على خراسان ، آل به الحال إلى خدمة بعض ضباط التركمان ، ثم قدم إلى الأمير ألب أرسلان فارتبط به ، وصار المدبر لأمره .

وبعد وفاة طغرلبك ، أول سلاطنة السلاجقة ، استطاع نظام الملك استحواز عرش السلطنة لألب أرسلان ، وفي أيام ألب أرسلان أرسيت قواعد

الامبراطورية السلجوقية ، وشرع نظام الملك في وضع قواعد إدارة هذه الامبراطورية ، فقام بتطوير نظام الاقطاع العسكري وتوضيح نظمه وقواعده ، وبفضل ذلك عاش هذا النظام واستمر طويلاً حتى سقوط الدولة العثمانية ،واعتمدت عليه دول المشرق الإسلامي التي قامت بعد القرن الخامس للهجرة .

وأهم من الاقطاع العسكري ، سياسة نظام الملك الدينية ، فهو وإن تأثر بالصوفية ، كان صاحب عقل مخطط بارع ، فقد اقتبس التجربة الاسماعيلية في الدعوة ، فأنشأ لمدارس الفقه الأربعة دارآلتخريج العلماء على غرار دار تخريج الدعاة في القاهرة .

وعرفت هذه الدار بالنظامية ، وقد التحق بالتدريس فيها كبار علماء القرن الخامس للهجرة ، وكان من جملتهم الغزالي ، وكان من بين مهام هذه المدرسة ، وشواغلها الحرب على فرق أعداء الاسلام ، وفي الحقيقة كانت هذه الحرب الشغل الشاغل لنظام الملك ذاته .

وكانت بعض حلقات العمل في النظامية تتم تحت إشراف نظام الملك نفسه ، وفي بعض الأحيان ، كان يحاضر بنفسه ، ذلك أنه كان صاحب ثقافة إسلامية كبيرة ، وفي الأدب الفارسي ينسب إليه تصنيف كتاب في السياسة والحكم اسمه « سياسة نامه » ، ومواد هذا الكتاب غنية للغاية ، تستحق الدراسة ، ولعل أهم ما يسترعي الانتباه فيها ، أن نظام الملك وقف ثلاثة فصول من الكتاب للحديث عن الفرق المعادية للإسلام خاصة أتباع دعوة ألموت .

وتوفي السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٥ هـ ، فخلفه ابنه ملك شاه وظلت مقاليد أمور الدولة بيد نظام الملك ، وفي أيام ملك شاه ، وصلت الامبراطورية السلجوقية إلى ذروة الاتساع والقوة والمجد ، وتم ذلك كله بفضل كفاءة نظام الملك ، وقدراته الإدارية والسياسية والعسكرية ، وهكذا غدا نظام الملك سيد عصره ، ورجل الاسلام السياسي الأول ، وقد ضاق ملكشاه

باستبداد نظام الملك بالحكم دونه ، وحرضه عليه بعض رجالاته ، فحيكت خيوط مؤامرة لقتله ....

وكان أتباع حسن الصباح قد شرعوا في إعلان الحرب على خصومهم ، لذلك دُبر أمر اغتيال نظام الملك ، وحدث ذلك سنة ٤٨٥ هـ فكان بذلك أول ضحايا رجال ألموت في التاريخ ، ولا شك أعلاهم مكانة ، وأبعدهم أثراً .

وسقط نظام الملك ، وبسقوطه تزلزلت أركان الدولة التي بناها ، ثم ما لبث أن دمرت ، لكن ذلك لم يشمل المدرسة النظامية ، كما لم يؤثر على نظام الاقطاع العسكري وغيره من النظم التي أوجدها أو طورها نظام الملك، ومن هذا المنطلق إذا ما أحصي رجال الدولة والتخطيط السياسي والإداري في التاريخ نرى نظام الملك يتصدرهم جميعاً .

* * *

الإمام زيد بن علي

(ت : ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م)

شهد العصر الأموي العديد من الثورات الشيعية ، كان من أشهرها تلك التي قادها زيد بن علي ، فقد هزت هذه الثورة دعائم الحكم الأموي بعنف ، وكانت خطوة من الخطوات المباشرة لما قام فيما بعد في خراسان على يد أبي مسلم الخراساني ، ووقعت هذه الثورة في آخر فترة من فترات القوة والتماسك للخلافة الأموية أيام هشام بن عبد الملك ، بعدما عزل واليه على العراق خالد بن عبد الله القسري ، الذي كان أقدر حاكم أموي للعراق بعد الحجاج بن يوسف .

والسبب المباشر لثورة زيد هو أن والي العراق الجديد يوسف بن عمر الثقفي ، كتب إلى هشام بن عبد الملك زاعماً بأن خالد القسري أودع لدى زيد قبل عزله مبلغاً كبيراً من المال ، ، فاستدعى هشام زيداً ، وطالبه بالمال ، وتهدده ، كما استطلع نواياه السياسية ، ثم طلب منه أن يذهب إلى العراق ، وحاول زيد الرفض فأجبره هشام على السفر .

وخرج زيد من عند هشام مغضباً ، وتوجه نحو العراق ، وهناك قابل يوسف بن عمر ، فأنكر التهمة ، وقام يوسف بن عمر بجمعه مع خالد القسري ، بعدما أخرجه من السجن ، وقد أنكر خالد أن يكون له أي مال لدى زيد ، ولم يقنع هذا يوسف ، فأعاد القسري إلى سجنه ، وزج بالإمام زيد في السجن حيث تعرض للعذاب والإهانة وظل زيد في السجن حتى علم بأمره هشام بن عبد الملك ، فأرسل تعليماته إلى والي العراق ليطلق سراح زيد ، ويرحله إلى المدينة .

كان الإمام زيد أحد أحفاد الحسين ، سبط الرسول ﷺ ، وشهيد كربلاء ، وكان يؤهله للزعامة نسبه وعلمه وتقواه ، وورعه وعقيدته حول الحكم والإمامة .

وحدث أنه بعدما خرج من السجن قرر مغادرة الكوفة إلى المدينة فجاءته وفود من شيعة أهل الكوفة تطلب منه البقاء قائلين « إنا لنرجو أن تكون « المنصور » وأن يكون هذا الزمان الذي يهلك فيه بنو أمية » ، وتردد زيد في قبول الدعوة ، وغادر الكوفة ، ولكنه ما أن تجاوزها حتى لحقته وفود الشيعة تكرر دعوتها بالخروج ، وتهيب زيد خطورة الموقف ، خاصة وأن التجارب السابقة لأسرته مع أهل الكوفة كانت لا تشجع على الاستجابة ، وقد حذره أقرباؤه من الاستجابة للدعوة والركون إلى وعود أهل الكوفة .

ومن المؤكد أن الإمام زيد كان لديه طموح عقائدي للخلافة ، وكان يرى في نفسه الصفات والمؤهلات للمنصب ، كما كان يرى أن من اتسم بالصفات اللازمة عليه الخروج ، وستبقى عقيدة الخروج من مرتكزات العقيدة الزيدية ، ولهذا نجده وقد تجاوب ، بعد تردد ، مع إلحاح أهل الكوفة ، ولا شك أنه كان لحادثته مع يوسف بن عمر وهشام بن عبد الملك ، وما تعرض له ، أكبر الأثر في اتخاذه قرار الاستجابة .

وهكذا عاد إلى الكوفة سراً وأخذ يعد للثورة بحيطة متناهية ، لكن ما تعمل الحيطة ، هل تغير من طباع المجتمعات وتركيبها ؟ لهذا تعقب يوسف ابن عمر حركات زيد ورصدها ، وعلم التاريخ المقرر لانفجارها (الأول من صفر عام ١٢٢ هـ) . وهكذا تمكن من خنقها قبل اندلاعها مباشرة رغم ضروب البطولة التي أبداها زيد ، ورغم براعة الحركة وشدة الإقدام لديه ولدى بعض أتباعه ، وخلال يومين أخمدت قوات ابن عمر الثورة ، وقتلت زيداً ، وهكذا سار زيد على طريق جده الحسين ، وماتت ثورته قبل أن تولد ، فطويت بذلك صفحة سياسية من صفحات تاريخ المقاومة الشيعية ضد الحكم

الأموي ، لكن فتحت صفحات كثيرة جديدة ، كان لها وما زال أبعد الأثر في صنع أحداث اجتماعية وعقائدية، وبالتالي سياسية في بلدان إسلامية متعددة.

فلئن قضي على ثورة زيد عسكرياً ، فإنها استمرت عقائدياً ، ذلك أن حفيد سبط النبي ﷺ كان فقيهاً ومحدثاً وعالماً بقراءات القرآن الكريم ، وورث بيت النبوة علماً وخلقاً ونسباً ، لهذا تحلق حوله التلاميذ وأخذوا عنه ، وكان ألصقهم به أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي ، وقام الواسطي بعد وفاة زيد بتدوين كتابين روى فيهما حديث الإمام وفقهه ، ويعرف أحد هذين الكتابين باسم مجموع الفقه ، ويعرفا معاً باسم المجموع الكبير ، وعلى العموم جاء ترتيب هذا المجموع حسب أبواب الفقه .

ويلاحظ أن غالبية مواد المجموع مروية عن طريق آل البيت ، وهي مواد ليست بعيدة عن مواد السنة النبوية التي رواها كبار علماء الحديث من غير الشيعة ، ولهذا عد كثير من العلماء مذهب الإمام زيد مذهب أهل الإسلام الخامس ، لأنه في الحلول التي انتهى إليها إن خالف أحد الأئمة نراه يتفق مع إمام آخر ، ثم إن منهاج الإمام زيد في الإستنباط قريب من منهاج من عاصره من العلماء، فهو يأخذ بالكتاب والسنة،ثم يجتهد رأيه عند انعدام النص.

ومفيد أن نشير هنا إلى أن الزيدية يدخلون القياس في مناهجهم ويدخلون في القياس الاستحسان والمصالح المرسلة ، وبعد ذلك يأتي عندهم العقل، فما يقر العقل حسنه يكون حسناً،وما يقر قبحه يكون قبيحاً منهياً عنه.

ويقودنا هذا إلى البحث في دور العقل في المذهب الزيدي،وهو مذهب وجد صاحبه في بداية القرن الثاني للهجرة ، وهي فترة كان للقدرية فيها أبعد الآثار في الحركات الإسلامية ، وحيث أن المعتزلة هم ورثة القدرية فمذهب الإمام زيد قريب جداً من الاعتزال ، وتراث الزيدية فيه كميات كبيرة من تراث المعتزلة .

لقد تسنى للمذهب الزيدي الانتشار في عدد من بلدان العالم الاسلامي مثل الديلم وطبرستان وخراسان ، لكن كتب له الاستمرار في اليمن ، وقد نقله إلى اليمن رجالات من الشيعة الحسنية ، على رأسهم أسرة عرفت باسم الأسرة الرسية ، عاشت أولاً على مقربة من المدينة ، ثم نشط أفرادها في اليمن ، ومن أوائل هؤلاء الأفراد القاسم بن ابراهيم (١٧٠ — ٢٤٢ هـ) الذي كان عالماً كبيراً ، له آراء قيمة في المذهب الزيدي ، إنما أشهر منه وأهم حفيده يحيى بن الحسين ، الذي عرف باسم الهادي إلى الحق .

ابن شهاب الزهري

(ت : ١٢٤ هـ / ٧٤١ م)

من مظاهر النهضة الحديثة في كل من الوطن العربي والعالم الاسلامي الاهتمام بدراسة أحداث تاريخ العرب والاسلام اما بشكل عـام أو خاص ، فعلى صعيد الوطن العربي يلاحظ أنـه قد نشطت في سنوات العقد الاخـير بعض الاوساط الثقافية العربية بالدعوة الى «اعادة كتابه التاريخ العربي» وجاء هذا في البداية على يد عدد مـن الاختصاصيين ، ثـم ما لبث أن قامت بعض الدول العربيـة بتبني الفكرة ، فرعت بعض المؤتمرات التي حاولت معالجة هذه المسألة الخطيرة ، ودار نقاش طويل سار مـن بيروت الى دمشق فالكويت ، ثم حل بالقاهرة ، وتوقف برهـة بعد ذلك في الخرطوم ثم انتقل الى عدد آخر من البلدان ، وأخيراً أخذت العاصفة بالهدوء ، لكنها لم تخمـد تماماً ، فما زالت هذه الدعوة قائمـة نراهـا بين آونـة وأخرى في أعمال الباحثين في تاريخ العرب والاسلام وسواهم .

ويتساءل المرء عن الأسباب التي دفعت ــ وما زالت تدفع ــ إلى هذه الدعوة ، ثم لماذا خفت الصوت ، وكاد ينعدم بعد ذلك ؟

قد يرى البعض في هذه الدعوة عملاً تمّ الإيحاء به من الخارج ،ابتغى الاستغلال المجهض للمشاعر القومية الجياشة عبر العصور ، وحـين أقول « الاستغلال المجهض » انطلق مـن أساس أن الجماهير العربيـة مشهورة باندفاعها العاطفي الشديد بكليتها دون حساب للاحتياط ، وحين لا تجد في نهاية الطريق الهدف المرجو ، والأمل المنشود ، تخيب آمالها ، وتنكص على أعقابها ، وتنكمش على ذاتها ثم تتقوقع من جديد ، ويدرك هذا الأمر الذي أوحى بهذه الدعوة ، ليس فقط لمعرفته بالنفسية العربية ولكن لادراكه أن الاندفاع العاطفي العفوي للجماهير العربية لا يتابع ليستغل من قبل عقول

المؤسسات الثقافية العربية ، لأن مثل هذه المؤسسات ـ إن وجدت ـ تعيش واقعاً انفعالياً شديداً للغاية أيضاً .

ويرفض البعض هذا الرأي ويرى في الدعوة إلى « إعادة كتابة التاريخ العربي » عملاً أصيلاً ، أوحت به ـ لا بل تطلبته ـ حركة التحرر العربية من جميع أنواع التبعيات ، وخاصة التبعية الفكرية ، فالتبعية الفكرية دخلت الوطن العربي في العصر الحديث قبل دخول جنود الاحتلال الاستعماري ، وترسخت في بلدان العرب قبل ترسخ رجال السياسة والادارة الاستعمارية ، صحيح أن الاستقلال السياسي تحقق لغالبيـة أجزاء الوطن العربي ، إنما ظل التبعية الفكرية ، وبالتالي الحضارية ما زال جاثماً بكلكلـه على عقول العرب وأفئدتهم في جميع الأقطار مع اختلاف بالمظاهر والنسب .

فالعربي رغم اعتداده بأصالته ، وحرصه على نقاء نفسه ونسبه ، فقد القدرة على التفكير المستقل ، وتزعزعت كل أركانه ، حتى وصل الأمر إلـى درجة مأساوية ، فالدواء ـ حتى المصنّع منه محلياً ـ لا يشتريه إلا إذا حمل إسماً غير عربي ـ تامرين ، كروسيدين ... والخطيب أو الواعظ يعمد إلى إقناع مستمعيه لا بالاستشهاد بآية قرآنية أو نص حديث أو أثر أو بيت شعر عربي ، وإنما بمقولة قالها أحد المستشرقين ، وطلبة المدارس والجامعات إذا أردنا اقناعهم بأصالة العرب ، وعدالة قضيتهم ، وعظمة ماضيهم نقول لهـم مثلاً : قال المستشرق غوستاف لوبون : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل مـن العرب ، وهكذا ....

وحيث أن التاريخ ينبه العقل ، ويوقظ الضمير ، ويحرر الذات ، فقد أراد هؤلاء البعض كتابـة تاريخ العرب ، ورأوا في مثل هـذا العمل شرطاً أساسياً للنهضة ولتكوين الانسان العربي الجديد المعتد بأصالته ، والمتحرر من الأوهام ، والمالك للحس النقدي ، والذي لديه الاستعدادات للتطور ، والعطاء الحضاري .

ودارت النقاشات حول هذه المسألة دوراناً عجيباً ، تناولت العديد من

الجوانب ، وأخيراً استقطبت لفترة طويلة حول : من أي الزوايا ، وحسب أي مدارس التفسير والتعليل التاريخية ستكون الكتابة ، أو بالحري هل ستتم هذه الكتابة من وجهة نظر يسارية تحررية أم يمينية رجعية ؟...

وهنا ندرك بسرعة أسباب هدوء العاصفة ، وكيف حل محلها دعوات إلى التاريخ الاقليمي .

وعلى الرغم من أهمية البحث في التاريخ الاقليمي ، وأنه يكون حجر أساس ، فإن هـذا الوقت ليس بوقتـه ، فحاجة المرحلـة هي القضاء على الاقليمية لا ترسيخها بشكل غير مباشر ، فالأمـة العربيـة تعاني من عـدد لا يحصى من الأمراض ، جلهـا ناجم عن حالـة التمزق وانعدام الوحدة ، والدعوة إلى التاريخ الاقليمي ، مهما شفعت لهـا النوايا الطيبة ، هي جهد مضاد ، يسهم إسهاماً له التأثير السلبي في تكريس التمزق وتفتت قوى العرب ، وهو شديد العداء لحركـة الجماهير العربية ، ورغبتها في إزالـة الحدود المصطنعة ، وإقامة مجتمع الأمة الواحدة ، ففي بوتقة هذا المجتمع العظيم ، يزول أثر العشائرية وينعدم لون الطائفية ، وتتحقق القوة ، والتحرير الكامل ، وبناء المستقبل المشرق ، الذي فيه الحريـة ، والأمن والمساواة ، والسعادة لجميع المواطنين .

في الحقيقة جاءت الدعوة إلـى « إعادة كتابـة التاريخ العربي » منذ البداية مضللة ، ومن ثم سارت المناقشات على ذات السبل ، فأدت إلى الفرقة ضمن ما أدت ، ذلك أن التاريخ العربي لم يكتب بعد بشكل كامل ، وحسب قواعد نقدية علمية ، حتى تعاد كتابته ، وبالتالي تفسيره وتعليله .

ومعلوم أن كتابة التاريخ لا يمكن لها أن تقوم على الابداع الخيالي ، بل تعتمد أصلاً وفرعاً على الوقائع المروية بشكل ما ، ولا اجتهاد مع النص ، إنما ضمن حدوده ، ووفق معطياته ، والباحث في التاريخ لا يمكنه القيام بأي عمل دون العودة إلـى المصدر ، ولذلك فإن أول شروط البحث في التاريخ

هي جمع المصادر ، والعودة إلى ما جاء فيهـا ، ومحاولـة استيعاب المواد فهماً ودراية .

وحيث أنه بات من المقرر أن التاريخ هو سجل لكل ما صدر عن الانسان في الماضي ، وارتبط بحياته بشكل ما ، ثم لما كانت أعمال الانسان متعددة بتعدد مداركه ، وتنوع قواه ، لم يعد التاريخ الآن خبراً سياسياً فقط ، بل هو الخبر الاقتصادي والاجتماعي والعقائدي والحربي ، والعلمي ، والفني ، والأدبي ، والثقافي ، والغريزي ، إلى غير هذا ...

وبديهي أن الهدف الرئيسي للباحث التاريخي هو التوصل إلى معرفة حقيقة ما حدث في الماضي بشكل لا زيف فيـه ولا تحريف ، وهنا لنفترض جدلاً ، أن باحثاً ما تمكن من جمع جميع ما جاء في المصادر ــ وهو أمـر محال ــ مع هذا فإن في إقدامـه على البحث والكتابـة ، وفي رأسه فرضية محددة ، أو تفسير تابع من مدرسة ما ، عمل يستهدف تحقيق رغبة بالبرهنة على صحة صورة مسبقة ، ولا ريب أن مثل هذا التطبيق هو انحراف عـن الواقع ، وفيه تشويه وتزوير .

وهنا وحيث أن التعامل يبدأ أولاً مع المصادر فما هي مصادر التاريخ ــ أي تاريخ ــ ومصادر التاريـخ الاسلامي ، بشكل خاص ، وكيف يمكن التعامل معها ؟ .

لقد قررنا منذ قليل أن التاريخ هو سجل لكل ما صدر عن الانسان في الماضي ، وارتبط بحياته بشكل ما ، وعلى هذا يمكن القول أن كـل شيء حوى خبراً من أخبار الماضي الانساني بشكل ما ، فهو مصدر ، رغم ما اعتاد عليه الباحثون من تصنيف المصادر إلى نوعين : مباشرة وغير مباشرة،وقولهم بأن المصادر المباشرة هي إما مدونة أو شفوية غير مدونـة ، وغالباً ما قصد بالمصادر المدونة الكتب التي وقفها أصحابها على رواية الأخبار ، وصنفوها لهذه الغاية ، حتى باتت تعرف باسم «التواريخ» وذلك مع الوثائق والمخلفات

الأثرية ، وقصد بالمصادر غير المدونة الروايات المتناقلةشفوياً جيلاً بعد جيل، أو روايات شهود العيان ، وسواهم في الأيام الحاضرة .

وبات لدي أنه من الضروري التخلي نهائياً عن هذا التصنيف أو تعديله على الأقل ، وذلك أن الرواة حرصوا على تسجيل ورواية ما ظنوه مهماً ، وما صدف وعرفوه ، وانصب الاهتمام على الأحداث السياسية ، وما ارتبط بها من معارك حربية وصراعات مختلفة ، ولما كان الانسان عاجزاً أن يقوم برواية كل الأخبار بوعي وحياد وفهم ، ثم لما كان الحدث السياسي جاء نتيجة لأسباب بعيدة وقريبة هي في الغالب غير سياسية ، فإن السجلات التي تروي بعض محصلات أعمال الانسان ، ومن جوانب محدودة لا يجوز اعتبارها مصادر رئيسية أو مباشرة للباحث التاريخي ، إنما يجب تقديرها حسب حجمها الطبيعي ، وكمية ما لديها من عطاء مفيد .

وينطبق هذا على حال مصادر التاريخ الاسلامي مع تفردها بمزايا خاصة نابعة من تميز تاريخ الإسلام ، والحضارة الإسلامية ، ذلك أن كل شيء مهما بلغ من شأن يظل دائماً مرتبطاً بنقطة البداية التي انطلق منها أولا.

ونقطة البداية في تاريخ الإسلام مرتبطة عظيم الارتباط ووثيقة بحياة نبي الإسلام وسيرته ، فسيرة النبي ﷺ هي المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ الإسلام ، وبقدر ما نحيط علماً بهذه السيرة ، ونتفهم أسرارها وأخبارها ، بقدر ما نستطيع فهم أحداث تاريخ الإسلام في جميع مراحله ، أو بالحري في كل مكان وزمان .

فالنبي محمد ﷺ هو الرائد بالنسبة للمسلمين ، وهو الرائد الذي لم يكذب أهله ، وكل ما حدث في تاريخ الإسلام يمكن أن نجد قاعدته في سيرة النبي ﷺ ، وهذا أمر لا نكتشفه الآن ، بل عرفه الأوائل ، ويكفي هنا أن تتذكر أن الخزاعي في كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ومن بعده الكتاني في شرحه لهذ االكتاب « بالتراتيب الإدارية » أثبتا أنه ما من إدارة أو وظيفة أحدثت في تاريخ الإسلام ، إلا وأصلها موجود في سيرة النبي ﷺ وأعماله .

وهنا نعاود القول بأن السيرة النبوية هـي المدخل الطبيعي لتاريخ الإسلام ، وحيث أننا أُمرنا بإتيان البيوت من أبوابها ، بقوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » البقرة : ١٨٩ .

فعلينا أن ندخل إلى تاريخ الإسلام من باب السيرة ، ولنفتش في السيرة عن قواعد لتحليل التاريخ الإسلامي وتفسيره ، فالتاريخ الإسلامي أساسه ما جاء في القرآن الكريم ، وسيرة النبي ﷺ الشاملة لأعماله وأقواله وتقريراته وأوصافه .

وعندما تتمعن في آي القرآن الكريم ومواد السيرة النبوية ، يمكن أن نجد معالم ما نستطيع تسميته باسم « مدرسة اسلامية لتعليل التاريخ » فالإسلام نظر نظرة كلية إلى الإنسان ، وقام بالمزج بين المفاهيم ، فليس في الإسلام عمل دنيوي وآخر ديني ، بل كل عمل هو ديني دنيوي .

وحيث أن الحدث التاريخي هو ما كان بطله إنساناً ، فكل واقعة تاريخية ليس وراءها إنسان أو ليست مرتبطة بإنسان ، ليست بواقعةتاريخية فصراع حيوانات الغابة وأسماك البحار ليست بوقائع تاريخية ، والإنسان هذا المخلوق العجيب فيه مجموعة من القوى والحواس والعوامل ، وهي متقلبة متحولة غير ثابتة ، وحياة الإنسان فيها طعام وتفكير وحروب ، وعلوم وآداب وفنون ، وعبادات وسياسة وإدارة ، وغرائز مختلفة ، وقوى متشعبة إلى غير ذلك ، والانسان الذي فقد إحدى حواسه أو قواه أو غرائزه ، أو أصيب بخلل في وظائفه ليس انساناً كاملا ، بل فيه عاهة ، وذوو العاهات بين البشر ، أقلية ، ولهذا فان تعليل حدث من أحداث التاريخ ــ بطله انسان ــ اقتصادياً فقط أو دينياً ، أو غريزياً ، أو تقدمياً ، أو رجعياً ، أو ... أو ... فقط ، فيه تشويه وبتر ، واعتماده كمن يعتبر ذوي العاهات بين البشر هم الأكثرية .

الكمال في شرعة الله وابداعه ، ولا كمال في شيء أبدعه الانسان واخترعه ، الكمال الرباني لا خلل فيه ولا عيب ، معصوم كل العصمة ، في حين أن الابداع الانساني بعيد عن العصمة ، قريب من الخطأ ، والخطأ براق مغر …

ان الحدث التاريخي الكامل مثله مثل الرقم الكامل ، يمكن أن يحوي نسباً من الفعاليات مختلفة ومتباينة متحولة، ولكنها غير متجمدة ولا متبلورة، ولقيام أي حدث لا بد من محرض أو دافع ،لكن هذا لا يكفي لوحده ، فالشعور بالجوع غير كاف للدفع إلى نيل الطعام ، والشعور بالظلم والاستغلال لا يؤدي دائماً إلى الثورة ، ثم حدوث الثورة لا يعني نجاحها ، وأكل الطعام لا يعني نهاية الجوع ، ونيل العافية ، وعليه إذا قلنا : لا بد لكل حدث من سبب محرض ، تتبع ذلك القول بأنه لا بد بعد ذلك من إرادة للتنفيذ ، وعزيمة على التحرك ، ثم قدرة على التطبيق ، قائمة على خطة ذات أسس راسخة واضحة ، وبعد هذا قد يحصل نجاح أولي ، يكتب له التأثير الدائم والخلود اذا ما حول إلى نجاح مستمر ، ولا يتأتى هذا إلا بوجود مرتكز عقائدي يملك صفة الاستمرارية والصلاح الدائم لكل زمان ومكان .

ومن يقرأ حوادث تاريخ الإسلام، يسلم بداهة ــ مع الأخذ بعين التقدير تفاوت الأزمان والنوايا والاخلاص مع درجة الفهم ــ أن المحرض المسبب لكل حادثة هو من الاسلام ، أو بالحري هو الاسلام ، وأن كل شيء قام بعد قيام الاسلام ، إنما قام باسمه وبسببه ، مذكرين بقاعدة المزج بين المفاهيم ، ومدركين أن حوادث تاريخ الاسلام صنعت بأيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، وكان كثير منهم ــ ان لم نقل جميعهم ــ يقول : « ان لربك عليك حقا ، وان لجسمك عليك حقا ، وان لزوجك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه » ، وكان المسلم دائماً يعمل على الأرض ، وقلبه مشدود إلى السماء ، وقد استطاع المسلمون أن يعمل كل منهم في سبيل دنياه ، وكأنه

يعيش أبدا ، وكان العمل الدنيوي عملا في سبيل الآخرة ، كأن صاحبه سيموت غدا •

هذا الموضوع مثير وبالغ الخطورة ، يحتاج إلى وقف دراسة مخصصة عليه ، وقد أفعل ذلك في المستقبل بعون الله ومشيئته ، لذلك أتوقف هنا مذكراً بما سبق اقراره بأن السيرة النبوية هي المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ الاسلام ، وهذا يقتضي منا الاهتمام الكبير بمصادر أخبار السيرة لنشرها بشكل علمي موثق ، ودراستها إسناداً ومتوناً •

ومع تسليمنا منذ البداية بأن المصدر الاساسي للسيرة ، والوثيقة التي لا يرقى إليها شك في صحتها هي القرآن الكريم ، ندرك أنه مع القرآن لا بد من العودة إلى ما جمعه المسلمون من أخبار لشرح المجمل ، وتبيان المفصل، لهذا نرى أن المسلمين اهتموا — ربما منذ أيام النبي ﷺ بجمع أخبار النبي ﷺ وأقواله ونشطوا في هذا الميدان بفعل عوامل كثيرة •

ومعروف أنه في اللحظة التي توفي فيها النبي ﷺ واجهت الأمة الاسلامية الناشئة أولى مشاكلها الخطيرة ، ومع الأيام أخذت تواجه المزيد من المشاكل الكبيرة التي استدعت حلولا لها ، وفتش المسلمون في مصادرهم عن الحلول ، وكانت هذه المصادر القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ وأعماله وتقريراته ، لهذا وجدت حاجة ماسة لجمع سور القرآن كلها في مصحف واحد ، ثم لتدوين أسباب نزول آيات القرآن وسوره ، ذلك أن القرآن نزل على دفعات ، وارتبطت كل دفعة منه بسبب وقصة ، فكان من الضروري معرفة أسباب النزول لان ذلك ساعد على فهم الاحكام بشكل أفضل •

وبالاضافة إلى القرآن جمع المسلمون أقوال النبي ﷺ وأخباره عامة ، ويبدو أن كثيراً من الناس حتى في عصر النبي ﷺ وقبل وفاته كانوا ينسبون إليه أقوالا غير صحيحة ، لذلك وجدت حاجة عند تدوين أقوال النبي إلى وضع قواعد نقدية تكشف الزيف من الصحيح ، وهكذا

فاننا نلاحظ أن بدايات التدوين الاخباري عند العرب ارتبطت بابداع قواعد نقديـة •

وبعد قيام الفتوحات الكبرى ، ودخول الشعوب الجديدة في الاسلام ، رغب المسلمون الجدد في معرفة حياة النبي وأخباره حتى يتخذوها مثلا أعلى لهم وحتى يفهموا الاسلام بشكل أفضل ، فكان هذا دافعاً جديداً نحو جمع الاخبار ، ورافق هـذا تطورات سياسية واجتماعية ألمت بالمجتمع العربي ، وقامت الصراعات القبلية وسواها ، ودفعت الصراعات إلى جمع المزيد من الاخبار ليس فقط عن حياة النبي وعصره ولكن عن العصور التي سبقته والتي تلتـه •

ومعلوم أن قيـام الفتوحات الكبرى ترافق مـع تطور ادارة الدولة الاسلامية ، وازدياد عدد المثقفين العرب مع الاقبال الشديد على جمع المعارف ونيلها ، وشهر بين المسلمين عدد من الرجال اختصوا بعلوم الاسلام ومعارفه جاءوا كطبقات واحدة تلو الأخرى ، وضمت الطبقة الأولى عدداً من مشاهير الصحابة ، جاء بعدهم بعض أبناء الصحابة ، ثم مجموعة من التابعين ، وحين نستعرض قائمة بأسماء الاجلة من العلماء بعد الصحابة ، نرى اسم الامام الزهري يتصدرها •

والزهري هو : محمد بن مسلم بن عبيد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، يلتقي نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم بكلاب بن مرة ، ذلك أن زهرة هو الأخ الأكبر لقصي بن كلاب الذي اسكن قبيلة قريش في مكة ، بعدما قام بطرد خزاعة منها ، ثم من زهرة كانت آمنة ابنة وهب أم النبي ﷺ ، ومنها كان سعد بن أبي وقاص الصحابي المشهور ، وقائد المسلمين يوم القادسية •

اختلف في سنة ميلاده ، وأرجح الروايات أن ذلك كان في المدينة سنة احدى وخمسين للهجرة ، وأمه عربية هي ابنة أهبان بن الدئل بن بكير بن عبد مناة بن كنانة •في المدينة نشـأ ، فكان قصيراً ، قليل اللحيـة ، خفيف

العارضين ، وقد وصف في شيخوخته بانه كان يصبغ رأسه ولحيته بالحناء كما وصف بأنه كان أعيمشاً •

اشتهر بفصاحة اللسان ، كما وصف بالكرم ، والسخاء الشديد ، فكان يعطي كل من جاء يسأله حتى اذا لم يبق معه شيء استلف من عبيده ، وربما جاءه السائل فلا يجد ما يعطيه ، فيتغير عند ذلك وجهه ، ويقول : « أبشر فسوف يأتي الله بخير ، فيقضي الله لابن شهاب على قدر صبره واحتماله ، إما رجلا يهدي له ما يسعه ، وإما رجلا يبيعه وينظره ••• وكان يمد للناس على الطريق موائد الثريد والعسل » ، كما كانت لـه رحلات إلى البـدو يعلمهم ويفقههم ، وينظر في أحوالهم ، ويعطيهم في الشتاء عسلا وزبداً وفي الصيف عسلا وسمناً ، ولكرمه العجيب هذا كانت تركبه الديون ، وكان يجد نفسه بحاجة أكبر إلى المال لذلك وثق صلاته بالخلفاء من بني أمية وسواهم ، ولكن قبل الاستطراد في الحديث عن صلاته بالخلافة الأموية وأثر ذلك ، لنعد نحو نشأة الزهري والثقافة التي حصلها •

اتصف الزهري منذ صغره بالجد والاندفاع نحو العلم مع الوعي العظيم وقد أدرك عدداً من الصحابة ، وسمع ربما من عشرة منهم ، لكن رغم هذا ، فانه أخذ علمه من أبناء الصحابة والتابعين الاوائل ، وكان من شيوخه : عبد الله بن عمر ، وسهل بن سعد ، وأنس بن مالك وكثير بن العباس بن عبد المطلب ، وسعيد بن المسيب ، وسالم بن عبد الله بن جعفر ، وعروة بن الزبير •

وكان أشد الناس تأثيراً به عروة بن الزبير بن العوام ، الذي فارق خط اخوانه ، فهجر السياسة ، والتفت إلى العلم ، فحصل مالم يحصله سواه ، وخاصة ما رواه عـن عائشة أم المؤمنين لوشائج القربى بينهما ، وعلى هـذا الأساس ، نحن حين نتحدث عن علوم الزهري ، ومادته نجدها قريبة العهد جداً من النبي ﷺ ، ولهذا كانت على درجة عالية للغايـة ، اعتمدها العلماء والرواة ، ورجال الصحيح من بعده •

واشتهر الزهري ليس فقط بالعلم وإنما بالوعي والصدق والأمانة، وشدة التدين ، ولهذا أقبل على الأخذ عنه طلاب العلم من عظماء الرجال الذين سيقر لهم فيما بعد بالامامة على أوسع نطاق ، مثل : مالك بن أنس ، معمر بن راشد ، الاوزاعي ، الليث بن سعد ، سفيان بن عيينة ، عمر بن عبد العزيز ، ومحمد بن اسحق وغيرهم كثير .

وكان ابن شهاب قد ولد في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وكان صبياً عندما انتهى العصر السفياني ، وعاصر وهو في مطلع شبابه ، شباب الدولة الأموية في عهد عبد الملك بن مروان ومن بعده أولاده كالوليد وسليمان ، ومعروف أن الخلافة الأموية كان لها سياسة خاصة تجاه أفراد قبيلة قريش ، وابناء الصحابة المهاجرين والانصار ، وابتغت هذه السياسة منع هؤلاء من النشاط السياسي بجميع ألوانه وصرفهم إلى عمل ليس فيه سياسة ، ونفذت الخلافة الأموية سياستها هذه بالعطاء والحرمان ، وأمام هذا الحال نجد القوى المعارضة تحول بعض عناصرها عن العمل المعارض بشكل ايجابي إلى العمل السلبي ، وأقلع البعض عن ذلك كلياً وانغمس في حياة اللهو والشعر والمتعة والعبث وما شابه ذلك .

وحيث أن الاسرة الأموية كانت قد عارضت بكل قواها الاسلام ، ووقفت في وجه النبي تحاربه حتى هزمت أخيراً يوم فتح مكة ، فان قوام أخبار سيرة النبي ﷺ الحديث عن الصراع مع بني أمية ، وعلى هذا انصرفت بعض القوى المعارضة للامويين نحو الاهتمام بسيرة النبي ﷺ ومغازيه كنوع من أنواع المعارضة السلبية ، وكوسيلة غير مباشرة للتذكير والتشهير ، وتصدى الامويون لمثل هذا النشاط وما واقعة الحرة أيام يزيد بن معاوية وما رافقها من عمليات تصفية رجال العلم في المدينة إلا مثل صارخ على هذا ، ثم اننا نلاحظ أن عصر بني أمية لم يشهد نشاطاً تدوينياً للتراث النبوي والراشدي ، ومدهش حقاً أنه ما ان سقط الحكم الأموي حتى خرجت إلى النور أعداد لا تحصى من الكتب في السيرة والمغازي والحديث ، وفنون

العلم ، المختلفة الأخرى ، حتى ليخيل للمرء أن الحكم الأموي كان أشبه بسد مضاد للنتاج الفكري ، ما أن أنهار حتى تدفق كل ما تجمع خلفه .

ومعلوم أنه مهما بلغ سد للرقابة الفكرية من أحكام ، فانه لا بد أن تتسرب بعض المواد بشكل غير مباشر أو مباشر أحياناً ، وذلك تبعاً لتقلبات السياسة العامة ، وللحالة الأمنية وغير الأمنيـــة في الدولة ، ثم لركوب تيار شديد ، ولو مؤقتاً في سبيل اجهاضه .

وعلى هذا الأساس صنف في العصر الأموي بعض الكتب ، وترجم بعض آخر ، واقتصر الذي وصلنا منها في باب السيرة والمغازي على بعض ما صنفه وهب بن منبه اليماني المشهور ، والامام الزهري .

يروى بأن والد الزهري كان من المناوئين الكبار للحكم الأموي ، وأنه وقف في صف المعارضة الزبيرية ، ومن هنا نفهم العلاقة الخاصة التي قامت بين عروة بن الزبير وابن شهاب الزهري ، ونتيجـــة لموقف الوالـــد المعارض ، ولاشتراكه في حروب الزبيريين ضد الأمويين ، ألم به الفقر ، وحذف اسمه من ديوان العطاء ، ومن ثم نشأ ابنه بعد وفاته فقيراً معدماً لا مال لديه ولا متاع ، صحيح أنه كان قرشياً عالي النسب ، ولكن النسب لوحده لا يرفع الانسان ، يحتاج النسب إلى سلطان أو مال ، فاذا انعدم المال ، فان خير وسيلة هي العلم ، ومن هنا نرى واحداً من الأسباب الوجيهة التي دفعت ابن شهاب نحو تحصيل العلم .

ومما انتهى الينا من أخباره ، وجه الزهري عنايته في البداية قبل كل شيء إلى حفظ القرآن حتى أتم ذلك في ثمانين ليلة ، وبعد هذا سعى نحو علم الأخبار والانساب فأخذ يتردد على حلقة عبد الله بن ثعلبة العدوي يتعلم منه نسب قومه وأخبارهم ، ولنستمع إليه يحدثنا عن ذلك بقوله :

كنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صعير العدوي ، وكان عالماً بنسب قومي ، وكان ابن اختهم وحليفهم ، فأتاه رجل فسأله عن مسألة

في الطلاق ، فأشار به إلى سعيد بن المسيب ، فقلت في نفسي : ألا أراني مع هذا الرجل المسن يعقل أن رسول الله ﷺ مسح رأسه ولا يدري ما هذا ؟.

ويبدو أن هذه الحادثة كان لها عميق الأثر في نفس الزهري، حيث قنع بأن معرفة النسب لا تغني عن معرفة الحلال والحرام والأصول ، لهذا اندفع مجدداً بمطامحه نحو العلوم الاسلامية ، فطلب معرفة الحلال والحرام ، ورواية أخبار النبي ﷺ ، وأخذ يطوف على الأحياء من الصحابة ، كما أقبل على العلماء من أبناء الصحابة .

والذي يثير الاهتمام به كطالب علم ، هو شدة حرصه على تدوين كل ما كان يسمعه من اساتذته ، ومن ثم كان يسهر الليالي الطوال لحفظ ما دونه في دفاتره وألواحه ، وبحرص ابن شهاب هذا تجمع لديه مع الايام خزانة علمية لم تتجمع لدى سواه من قبله ، حتى قال فيه أحد الأئمة : « ما أرى أحداً جمع بعد رسول الله عليه السلام ما جمع ابن شهاب » .

كان ابن شهاب يأتي مجالس المسلمين ، ويطرق نواديهم ، وكان لا يلقى في مجلس كهلا ولا شاباً إلا ساءله ، وكان يأتي دور القوم من المهاجرين والانصار ، فلا يلقى رجلا أو امرأة إلا سأله وجادله ، وقد بلغ من شدة حرصه على العلم أنه كان يتطوع لخدمة بعض الشيوخ ، وكان دائماً يدور على مشايخ الحديث ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، حتى صار أعلم الناس في زمانه ، واحتاج اليه أهل عصره لانه تجمع لديه ما لم يجتمع لاحد قبله .

ثم ان اهتمامه بالتدوين يشير إلى مرحلة جديدة من مراحل التراث العربي والاسلامي ، والانتقال من الرواية الشفوية نحو الرواية المدونة .

ويبدو أن عمل الزهري لم يقتصر على التدوين والجمع ، بل انه انتقل إلى مرحلة الفرز حسب الموضوعات والتصنيف ، وهكذا أخذت كتلة تراث الاسلام تتوزع إلى أقسام اختصاصية ، وأخذت مواد الاخبار والمغازي تنفصل عن مواد الحديث الأخرى ، وكان هذا عملا حاسماً في نشأة علم التاريخ لدى العرب .

ومع الأيام بدأت مرحلة الأخذ والجمع لدى الزهري تنتهي ، وبدأت مرحلة جديدة هي مرحلة العطاء ، وأقبل عليه الناس ينهلون من معارفه ، فقد بات أعلم أهل زمانه بسنة النبي ﷺ وأخباره وأحسنهم سوقاً للحديث اذا حدث ، وتحدث عن نفسه قائلا : « ما صبر أحد على العلم قط صبري ، ولا نشره أحد قط نشري » « ومكثت خمساً وأربعين سنة اختلف فيما بين الشام والحجاز ما سمعت أحداً يحدثني بحديث استظرفه » .

وطارت شهرة الزهري في أرجاء العالم الاسلامي ، وأخذ الناس يثنون عليه ، فهذا الامام مكحول يقول ، وقد قيل له : « من أعلم من لقيت يا أبا عبد الله ؟ قال : ابن شهاب الزهري ، قيل ثم من ؟ قال : ابن شهاب » .

وفي دروسه لم يكتف الزهري في املاء الروايات على تلاميذه بل أخذ في توجيههم وتدريبهم ، ومن هذه التوجيهات قوله : « ان للعلم غوائل ، فمن غوائله أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، ومن غوائله النسيان ، ومن غوائله الكذب ، وهو أشد غوائله » وقوله : « ليس بكذاب من درأ عن نفسه » وقوله : « انما يذهب العلم النسيان وقلة المذاكرة » وقوله : « اذا سرق الحديث زيد فيه وحسن » .

احتاج الناس إلى علم الزهري ، وكان بين من احتاج إليه خلفاء دمشق ، وهكذا قامت علاقات بينه وبين الخلافة الأموية ، ويبدو أن هذا كان منذ أيام عبد الملك ، وتوثقت علاقة الزهري بالبلاط الأموي إلى حد جعل بعض الباحثين المعاصرين يقول بأنه غدا بمثابة المستشار التاريخي للبلاط الأموي .

وحيث أن خلفاء بني أمية كانوا يتجولون في بلاد الشام ، فان الامام الزهري اضطر إلى ترك المدينة ، لكنه لم يسكن في دمشق، بل قطن في جنوبي فلسطين على أطراف الحجاز ، ومن مقره هذا كان يقوم بزيارات لكل من الحجاز أو دمشق فيرافق الخلفاء ويبقى معهم فترة طويلة ...

وأينما وجد الزهري كـان يخلو مـع كتبه وأوراقه ، ويشغل نفسه بمحتوياتها عن كل أمر من أمور الدنيا حتى ضاقت به زوجته ذرعاً ، فقالت له ذات ليلة « والله لهذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر » .

كان الزهري شديد الذكاء ، قوي الذاكرة ، حتى ضربت به الأمثال ، وكان يردد « ما استودعت قلبي علماً فنسيته » ، سأله هشام بن عبـد الملك مرة أن يملي على أولاده شيئاً مـن الحديث ، فأملى عليه أربعمائة حديث ، وخلال عـدة مناسبات وعبر أشهر كثيرة استعاد هشام بن عبد الملك مـن الزهري رواية نفس الأحاديث عارضاً الزهري بشكل غير مباشر على الامتحان، فوجد ذاكرته لا تكاد تقع في خطأ يذكر .

حظي الزهري باحترام الخلفاء ، فقد رافقهم بصفة العالم الصادق ، فلم يراء أو يتملق ، وكان يجهر بالحق عند الحاجة ، بلا اعتبار للعواقب ، مثال ذلك أن هشام بن عبد الملك سأله عن المعني بقولـه تعالى : « الـذي تولى كبره منهم » ــ النور الآية ١١ ــ فقال : هو عبد الله بن أبي ، فقال هشام : كذبت : هو علي ، فرد عليـه الزهري بحنق وعنف : أنا أكذب لا أباً لك ، والله لو ناداني مناد من السماء : « أن الله أحل الكذب ما كذبت » .

لقد رويت هذه الحادثة في أكثر من مصدر مع خلاف ببعض التفاصيل، وهي كما يبدو صحيحة انتهت لا بعقوبة من الخليفة ، وكان بإمكانه أن ينزل أقسى العقوبات برجل شتمه مثل هـذه الشتيمة الكبيرة ، لكن ذلك لـم يحدث ، بل اعتذر الخليفة للإمام وأقر بصدقه وتفسيره .

لقد عرف هشام بن عبد الملك الزهري منذ زمن أبيه وأخوته من بعده، فالزهري رافق سليمان بن عبد الملك ، وحضر وفاتـه بمرج دابق وكان لـه أثره المذكور في تولية سليمان لعمر بن عبـد العزيز ، وجاء في الأخبار أنـه عندمـا توفي سليمان نودي الصـلاة جامعة ، فاجتمع الناس وحضر بنـو مروان ، كل منهم مشرئب للخلافة ، متشوق نحوها ، فقـام الزهري بالناس

خطيباً ، فقال : أيها الناس ، أرضيتم مـن سماه أمـير المؤمنين سليمان في وصيته ؟ فقالوا : نعم ، فقرأ الكتاب ، فإذا فيه اسم عمر بن عبد العزيز ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك .

وفي أيام هشام بن عبد الملك كان الزهري يوجـه نقده الشديد لولي العهد الوليد بن يزيد ويقدح بأخلاقه ، ويذكر أموراً عظيمة عنه ، ويحرض الخليفة هشام على خلعه ، وكان هشام لا يجد القدرة على خلعه ، وإنما كان يسكت راضياً عن انتقادات الزهري وفي المقابل حقد الوليد على الزهري ، وعاهد الله لئن أمكنه ليقتلن الزهري .

ولم يعش الزهري حتى عصر الوليد حيث توفي أيام هشام ، وكان ذلك لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائـة ، ودفن بضيعة ـ أدامي ـ حيث كان مقر سكناه ، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين، وجعل قبره على قارعة الطريق ، وذلك بنـاء على وصيته ، ليقف المـارة ويقرؤن الفاتحة على روحه،ويحكى أن عدداً كبيراً من الناس وقفوا على قبره وبكوه وترحموا عليه ، وكان من هؤلاء الإمام الأوزاعي، الذي خاطب قبره بقوله : « يا قبر كم فيك من علم ومن حلم ، يا قبر كم فيك مـن علم ومـن كرم ، وكم جمعت من روايات وأحكام ؟! » .

لقد كان لوفاة الزهري رنـة أسى ترددت في أرجـاء الشام والحجاز وبلدان الإسلام ، فهذا الإمام مالك بن أنس يقول : ـ مات العلم يوم مات الزهري ، وأن كتبه حملت على البغال ـ . وهـذا الإمام سفيان بن عيينة يقول : ـ مات الزهري يوم مات ، وما أحد أعلم بالسنة منه ـ .

وعلى الرغم من علاقة ابن شهاب ببني أمية، هناك اجماع بين المحدثين على توثيق الزهري واعتماد رواياتـه ، واعتبارها أعلى ما روي عـن النبي ﷺ صدقاً وأمانة ، ذلك أنه لم يتأثر بالصراعات السياسية ، ولم يتحيز لبني أمية ضد سواهم ، وظل دائماً مع الصدق والحق ، ملتزماً بقواعد مدرسة المدينة

ومفضلاً لهذه المدرسة على سواها من المدارس حيث كان ينظر باتهام إلى مدرسة العراق في الحديث وإلى غيرها من مدارس الأمصار .

وفي الحقيقة كان الزهري أحد المطورين الكبار لمدرسة المدينة ، هذه المدرسة التي سترى النور فيما بعد على يد أجد تلامذته وهو الإمام مالك ، وعلى الرغم من أهمية دور الزهري في التشريع والفقه وعلوم الحديث فهو مهم لنا هنا بسبب اسهاماته في مجالات السير والمغازي .

يعتبر الزهري رائداً بين مؤسسي مدرسة المدينة التاريخية التي ستعرف باسم ـ مدرسة المغازي ـ ويذهب البعض إلى القول بأن الزهري هو الذي وضع هذه المدرسة على أسس راسخة ورسم لها منهجها الذي ستسير عليه فيما بعد، فهو حين قام بجمع مواد أخبار المغازي، لم يقتصر على المواد التي كان جمعها عروة بن الزبير ، بل تقصى روايات أهل المدينةالأخرى ولم يقتصر في عمله على الجمع بل زاد على ذلك بالتنسيق والترتيب والتمحيص والتدقيق .

ومن خلال دراسة كتابه في المغازي الذي وصلنا كاملاً ، والروايات التي نقلها عنه من جاء بعده مثل ابن اسحق ، والواقدي ، وموسى بن عقبة ، نصل إلى نتيجة مفادها أن الزهري هو أول من أعطى السيرة النبوية هيكلاً محدداً ورسم خطوطها بجلاء ووضوح ، وما كان عمل الذين جاءوا من بعده إلا تقديم بعض التفاصيل الموضحة الشارحة ، وزيادة عمل التنسيق والتعمق في الفترة المكية من حياة النبي ﷺ مع مقدمات ما قبل الإسلام اعتماداً على المزيد من تراث ـ الاسرائيليات ـ وتراث ـ جاهلية العرب ـ .

وخطة الزهري في المغازي تبدأ بتناول بعض الأخبار عن مكة وأهلها وأسرة النبي مع حياة النبي ﷺ الخاصة قبل الإسلام ، وبعد هذا تناول بعض الجوانب الهامة من الفترة المكية من حياة النبي ﷺ إلى وقت الهجرة ، وبعد هذا تعرض لأخبار المرحلة المدنية من تاريخ الإسلام حتى نهاية العصر الراشدي ، وعلى هذا تحدث عن بعض المعارك والسفارات والوفادات ،

ومختلف أوجه النشاطات أيام النبي ﷺ حتى مرضه الأخير ﷺ ووفاته ، ثم يوم السقيفة وبيعة أبي بكر ، وهكذا إلى أن استولى معاوية بن أبي سفيان على مقاليد الأمور وأسس حكم الأسرة الأموية ، ويلاحظ أنه أثناء عرضه للأخبار كان يقدم تواريخ بعض الحوادث بشكل مفصل ودقيق .

وفي وقفة منفردة مع كتاب الزهري في المغازي نتساءل كيف صنف الزهري هذا الكتاب ، وما الأسم الذي أطلقه عليه ، وما الشكل الذي أعطاه إياه ؟ .

إن الكتاب الذي وصلنا،يحوي بعض علم الزهري في المغازي،وليس جميع ما كان لديه ، لعله يحوي زبدة مواده وأحسنها ، وهو لم يصنف هذا الكتاب بناء على خطة ابتغت اخراج كتاب في السير والمغازي كامل ، كما فعل كل من تلميذيه من بعده : موسى بن عقبة ، ومحمد بن اسحق .

إن الكتاب الذي وصلنا هو عبارة عن مجموع يحوي عدة فتاوى ــ نوازل ــ تاريخية ، حيث أن الزهري كان يتلقى أسئلة تستفتيه في جملة من المواضيع التاريخية المترابطة بسبب ما ، فكان يقوم بتقديم إجابته لهذه الأسئلة ، ومجموع أجوبته ، أو لنقل فتاويه قام هو أو أحد تلاميذه بتصنيفها واخراجها للناس ، وأرجح أن معمر بن راشد هو الذي قام بهذا الانجاز ، لذلك أضاف بعض الأحيان بعض المواد الاخبارية التي رواها عن غير طريق الزهري بغية تدعيم روايات الزهري أو الإشارة إلى وجهة نظر أخرى ، وهذا بحد ذاته فيه عظيم الفائدة خاصة إذا عرفنا أن معظم الاضافات الجديدة جاءت بعد سقوط الحكم الأموي ، لهذا حملت وجهة نظر عباسية تستحق الرصد والدراسة ، وعلى أساس ما ذهبنا إليه يمكن أن نفترض بأن معمر بن راشد هو الذي أطلق على هذا المجموع اسم كتاب المغازي ، ذلك أن هذه العبارة تكاد أن تكون مرادفة لعبارة ــ السيرة ــ لها ذات المحتوى والمعاني، فحياة النبي ﷺ كانت كلها مغازي وأعمال جهاد ، ذلك أن الجهاد ليس مقصوراً بمعانيه على الأعمال العسكرية فقط ، بل له سمة الشمول .

إن هذا الكتاب المجموع على صغر حجمه عظيم الفائدة لا يكاد يعدله في بابه كتاب آخر حتى وإن جاء حجمه أكبر بكثير ، إنه يحوي جواهر الأخبار العالية القيمة ، ومنه يمكن رصد المستوى الثقافي التاريخي ، ونوعية المسائل التي بحث فيها المسلمون في العصر الأموي ، وهو الأثر التاريخي الوحيد المدون الذي يصلنا كاملاً من العصر الأموي .

ولقصر المدة الفاصلة بين مؤلفه ووفاة النبي ﷺ مع تاريخ حوادث العصر الراشدي ، ترقى مواده به إلى مقام لا يمكن أن يزاحمه عليه كتاب آخر في الثقافة الإسلامية ، وهذه المواد جديرة بالدراسة والاعتماد ، وعلى أساسها يمكن الانطلاق بدراسات تاريخية جديدة ، وبواسطتها نأتي التاريخ الإسلامي من بابه الصحيح ، فندخل بشكل أكثر سلامة بداية ، وبالتالي من حيث النتائج .

وجاء في بعض المصادر التي تحدثت عن حياة الزهري أنه صنف في أنساب قومه ـ أي قريش كما هو مرجح ـ وهذا ليس بمدهش فالزهري انصرف في مطلع حياته العلمية إلى دراسة الأنساب ، وقد قيل بأن خالد بن عبد الله القسري أعظم ولاة العراق أيام هشام بن عبد الملك سأله تصنيف كتاب في النسب عامة ، فاستجاب لمطلبه ، فبدأ بنسب مضر ، لكن يبدو أنه لم يكمله ، حيث قيل اختلف هو والقسري على مذهبه في العمل به .

لقد عالج الزهري روايات المغازي ودونها حسب ذات المذهب الذي تعامل به مع مختلف الأحاديث والآثار الإسلامية ، فقدم معلومات واقعية متزنة ، بأسلوب يتصف بالصراحة والبساطة والتركيز والتناسق ، فيه استقصاء كامل وجري وراء الحقيقة ويتضح هذا بقوله : ـ إن الحديث ليخرج من عندنا شبراً ، فيرجع من عندهم ذراعاً ـ أي من العراق ـ . وقوله : ـ ما هذه الأحاديث التي يأتونا بها ليست لهم خطم ولا أزمة ـ يعني الإسناد .

إن خدمات الزهري للتراث النبوي كبيرة للغاية ، تتناسب مع حجم ما حصله من معارف وعلوم ، ويروى بأن الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز كلفه بجمع السنة النبوية ، وأنه كتب إلى عماله : ـ عليكم بابن شهاب ، فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه ـ .

لم يهمل الزهري الشعر في رواياته ، لكن روى منه الصحيح وبشكل محدود للغاية ، وبهذه المناسبة يبدو أن الزهري كعربي كان مولعاً بالشعر ، يتذوقه ، ولعله كان ينظمه ، وانما هذا لم يجرفه كما جرف تلميذه من بعده ابن اسحق ، فأثر قصص الأيام والاسلوب الروائي ليس موجوداً في عمل الزهري ، بل هناك علم ومنطق وجدية محضة ، وحياد رائع .

ان خير ما يختم به هذا البحث عن الزهري هو ايراد أقوال بعض كبار الأئمة فيه :

فقد قال الامام مالك : كان الزهري اذا دخل المدينة لم يحدث بها أحد حتى يخرج ..... كان الزهري ذا عز وسناء وفخر وسخاء ..... ما من أحد أبصر بالحديث من ابن شهاب .

وقال الامام أحمد بن حنبل : الزهري احسن الناس حديثاً ، وأجود الناس اسناداً .. الزهري بحر ... الزهري أعلم الناس .

وقال ابن سعد صاحب الطبقات : كان الزهري ثقة كثير الحديث والعلم والرواية ، فقيهاً جامعاً .. كان من أئمة القرآن .

وقال الامام الطبري : كان محمد بن مسلم الزهري مقدماً في العلم بمغازي رسول الله ﷺ ، وأخبار قريش والانصار ، راوية لاخبار رسول الله ﷺ وأصحابه .

لقد كان شعار الزهري : ان هذا العلم الذي أدب الله به رسول الله ﷺ، وأدب رسول الله ﷺ به أمته ، أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدي إليه ، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

بهذا الشعار نأخذ وبأدبه نتمسك والله المعين[1] .

---

(١) أخرجت مغازي الزهري محققة ، وطبع الكتاب في دمشق .

الإمام جعفر الصّادق
عليه السلام

(ت : ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م)

إن جعفراً ممن قال الله فيهم : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله ، وكان من السابقين بالخيرات.

أبو جعفر المنصور

يلاحظ الباحث في تاريخ الإسلام أنه بعدما استقر النبي ﷺ في المدينة وقطع أشواطاً بعيدة في إنشاء الأمة الاسلامية الجديدة مع دولتها المركزية ، بدأت تظهر إلى الوجود رسوم خاصة تحدد طرق التعامل مع النبي ﷺ، الذي لم يعد مجرد داعية إلى دين جديد يتحدى به النظام القائم ، كما كان الحال في مكة ، بل صار سيد أمة في جميع المجالات ، لذلك اقتضى الحال احداث رسوم خاصة للتعامل معه ، ومن الملاحظ أن ظهور هذه الرسوم ترافق مع تمييز أسرة النبي ﷺ عن غيرها من الأسر، وإلزام أفراد هذه الأسرة بالتزامات أشد من التزامات بقية أفراد الأسر الإسلامية ، فالصدقة ــ مثلاً ــ كانت حلال لكل مسلم محتاج إلا آل النبي ﷺ ، والحجاب فرض على أزواج النبي ﷺ وهكذا .

وفي أواخر أيام النبي ﷺ كان الأحياء من الرجال من آله قلة أبرزهم ابن عمه علي ثم عمه العباس رضي الله عنهما ، وكان علي أقدم سابقة في الإسلام من العباس ، كما كان أوثق صلة بالنبي ﷺ ، فهو ربيب النبي وزوج ابنته فاطمة ووالد سبطيه ﷺ .

وبعد وفاة النبي ظل علي أبرز آل محمد ﷺ ، ورأى فيه بعض المسلمين الجدارة والأحقية لخلافة النبي ﷺ ، ومع الأيام تكون حول علي نواة حزب

خاص ، وبعد مصرع عثمان آلت الخلافة إليه ، وكان عصره زاخراً بالحروب الأهلية ، وقد انتهى هذا العصر باغتيال علي ، ثم باخفاق ابنه الحسن في البقاء في الخلافة ، حيث استولى معاوية بن أبي سفيان على مقاليد الحكم .

وبعدما احتكر معاوية وآله من بني أمية السلطة ، تصدى لمعارضته قوى كثيرة تطورت إلى أحزاب ، وكان الحزب العلوي أبرز هذه الأحزاب ، وفي العربية حزب رجل ما : هم شيعته ، فحزب علي هم شيعته ، وفيمستقبل الأيام سيقتصر الناس على استخدام عبارة شيعة ليعنوا بها حزب علي بن أبي طالب .

وبعد تنازل الحسن لمعاوية مر حزب الشيعة بعدة مراحل، ونزلت به عدة نوازل حولته من حزب سياسي معارض ، يرى أحقية جماعة في السلطة إلى فرقة دينية ذات عقائد متميزة ، وبالتالي ذات فقه تشريعي خاص ، وكان أبرز هذه النوازل فاجعة كربلاء مع حصادها ، ثم ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي وقيام فرقة الكيسانية .

وبعدما تحولت الحركــة الشيعية إلى فرقة دينيــة ، عانت من التمزق والانقسام ، كما عانت من القمع والتنكيل ، وتورطت بعض الفرق الجديدة في ثورات آلت إلى الاخفاق والدمار ، كان أهمها ثورة الامام زيد بن علي في عصر هشام بن عبد الملك .

وحافظت بعض الجماعات على الهدوء ولم تتورط ــ بعد كربلاء ــ في أي حركة سياسية حربية ، وعرف خط هذه الجماعات باسم الخط الإمامي ،
وقد قاده سلسلة من الأئمة من أبناء الحسين بن علي ، وقد ظل هذا الخط محافظاً على اعتداله ووحدته حتى أواخر حياة الامام السادس منــه . حيث حدث انشقاق بين صفوفه ، شطره إلى قسمين : قسم تابــع خطه حتى الإمام الثاني عشر ، وعرف باسم الإثنا عشرية أو الإمامية، وعرف الخط الثاني باسم السبعية أو الاسماعيلية ، وادعى كل طرف من الطرفين بأن فقهه وعقائده وعلومه استقاه من الامام السادس .

والامام السادس هو جعفر بن محمد ، الذي عرف باسم الصادق ، والأئمة قبله هم : علي بن أبي طالب ، ثم الحسن بن علي ، ثم الحسين بن علي ، ثم علي بن الحسين ــ زين العابدين ، ثم محمد بن علي الذي عرف بالباقر .

وولد الامام جعفر في حوالي سنة ثمانين للهجرة ، ونشأ في المدينة حيث آثار جده ، وحيث كبار علماء الاسلام مع تراث آل البيت ، لذلك كان حظه كبيراً من العلوم الاسلامية مع مكانة اجتماعية سامية ، وقيمة سياسية وعندما بلغ مبلغ الرجال صار أبرز رجالات عصره ، وبعد وفاة أبيه اعتبره الشيعة إمامهم ، وكان رجالاتهم ودعاتهم يرجعون اليه بقضاياهم وكافة شؤونهم الخاصة والعامة ، كما أن الغلاة منهم أخذوا يلهجون باسمه رافعين إياه إلى درجات عليا ، لذلك تصدى الامام الصادق لدعوات الغلو وحارب أفكارها وقام بتعرية رجالاتها والبراءة منهم ، لكن جهوده كلها لم تحل دون انشطار صف الشيعة إلى شطرين : معتدل ومتطرف ، وتزعم ابنه اسماعيل الجناح المتطرف ، بينما تزعم ابنه الآخر موسى الكاظم الجناح الآخر .

وقد شهد الامام الصادق نهاية الدولة الأموية ثم قيام الخلافة العباسية ، وخلال الأحداث حاول أكثر من طرف توريطه فأخفق ، وبعدما تسلم المنصور الخلافة بعــد أخيه السفاح خشي من نشاط الشيعة ، فأمر عيونــه بملاحقة الصادق والصاق تهمة ما به ، لكن الصادق بعلمه ، وكرمه ، وصدقه ، وحلمه ، وشجاعته ، ورباطة جأشه ، ونفاذ بصيرته ، وفراسته ، وأخيراً ــ لكن ليس آخراً ــ بهيبته التي تجلى فيها نور النبوة ، ثم بكثرة عبادته ، وصمته عن لغو القول ، وزهده ، وجلده أمام الحوادث ، استطاع أن يحبط مشاريع المنصور ، وهكذا حافظ على مكانته حتى توفاه الله تعالى عام ١٤٨ هـ . وكان وقع الفاجعة على من عاصره من المسلمين بما فيهم المنصور قاسياً ، حيث يروى بأنه حزن عليه وبكاه .

لقد ذكر علماء الاسلام الامام الصادق ، وأثنوا عليه ، ورأى أهل السنة منهم في آرائه وفقهه ما لا يختلف عن آراء وفقه أهل السنة ، هذا من جهة

ومن جهة أخرى نسبت مدارس الشيعة اليه آراء وفتاوى وفقه آخر ، وعلى ما نسبوا اليه ، كل حسب فرقته وهواه ، بنوا ما يُعرف بالفقه الشيعي خاصة عند الشيعة الاسماعيلية والاثني عشرية .

يضاف إلى هذا أن بعض الشيعة ينسب إليه رسالة في التوحيد قيل بأن تلميذه المفضل بن عمرو قد دونها عنه ، وهناك من ينسب اليه رسائل في علوم الباطن ومعرفة المستقبل وغير ذلك ، ومما لا شك فيه أن الإمام الصادق كان يأخذ في أعماله وأقواله وفتاويه بالكتاب ، والسنة المروية عن أهل البيت وسواهم ، كما كان يعتمد القياس بحدود ضيقة دون توسع ، هذا وقد أخذ عنه وروى عدد لا بأس به من كبار علماء المسلمين لعل من أبرزهم الإمام مالك ابن أنس ، ومحمد بن اسحق صاحب السير والمغازي ، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وغير هؤلاء كثير ، فهو في أيامه كان سيد أهل البيت وعالمهم وبقية الأخيار منهم ، ولا شك أنه كان متماسك الذات ظاهره وباطنه واحد ، ومثله في مكانته وشهرته ما كان ليخفى أمره على أحد .

تحدث عنه الامام مالك بن أنس فقال : « لقد كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير المزاح والتبسم ، فاذا ذكر عنده النبي ﷺ اخضر واصفر ، ولقد اختلفت اليه زماناً ، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال : إما مصلياً وإما صائماً ، وإما يقرأ القرآن ، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على الطهارة ، ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء العباد الزهاد الذين يخشون الله » .

أبو حنيفة

(ت : ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م)

بعد وفاة النبي ، وأثناء حروب الردة ، قدم إلى المدينة المثنى بن حارثة ، وكان من سادات قبيلة شيبان ، فالتقى بأبي بكر ، وأخبره بأن قومه على الاسلام ، وأنهم على استعداد للجهاد ضد الفرس ، فأذن أبو بكر له ، وهكذا بدأت فتوحات العراق ، وقد وصلت هذه الفتوحات ذروتها في معركة القادسية التي أدت إلى إزالة الامبراطورية الساسانية من الوجود •

وبعد خلاص العراق للعرب اتخذوا لأنفسهم فيه معسكرين هما : الكوفة والبصرة ، اللذين ما لبثا أن تطورا إلى مدينتين لهما موارد كبرى ، ونشاط اقتصادي وتجاري وسياسي وعقائدي واجتماعي هائل ، وقام صراع بين الكوفة والبصرة في كافة الميادين ، وقد حسم هذا الصراع حيناً من الزمن لصالح أهل الكوفة ، خاصة حين اتخذها علي بن أبي طالب عاصمة له ، وبعد معركة الجمل •

وقد عرفت الكوفة في تاريخها المبكر ألواناً من الهجرة البشرية إليها من شبه الجزيرة ومن داخل العراق ومن الهضبة الإيرانية ، وقدم إليها الأغنياء والفقراء وجلبت إليها أنواع الأسرى والأرقاء ، لذلك كان تاريخ الكوفة الاجتماعي أشبه ببركان دائم الفوران •

وكان من بين الأسرى الذين جلبوا إلى الكوفة أحد نبلاء منطقة كابل وعرف باسم زوطي ، وفي الكوفة نال زوطي حريته ، وغدا مولى لبني تيم ابن ثعلبة ، وذلك بعدما اعتنق الإسلام ، وفيها أيضاً حصل ثروة ومكانة لائقة ، ولما اتخذ علي بن أبي طالب الكوفة عاصمة له ، اتصل زوطي بعلي وتعلق به وتأثر ، وفي أيام علي ولد له ابنه ثابت ، فجاء به إلى الامام ، فدعا له بالبركة

واستجاب الله تعالى لدعاء ابن عم رسوله ، فكان من صلب ثابت ابنه النعمان فقيه أهل العراق وكبير علماء الشريعة الاسلامية •

وكانت كوفة نهاية القرن الأول للهجرة ثم بداية القرن الثاني خلية حية فيها نشاطات مختلفة : سياسية ملونـة ، واقتصادية ولغوية وفلسفية ودينية وتاريخية ، وفيها العديد من مشاهير العلماء •

ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت في أسرة مارست تجارة الخز ، وكانت ذات مكانة اقتصادية واجتماعية جيدة ، لهذا أتيح لأبي حنيفة الاطلاع على معارف عصره ، وبعدما شبّ احترف صنعة أهله ، وصار يلتقي أثناء عمله وفي ساعات فراغه بعلماء الكوفة والواردين اليها ، ثم أن عمله مكنه من القيام بعدة رحلات أفادته كثيراً •

وكان أبو حنيفة ذكياً ، لفت الأنظار اليه ، لهذا نجد الذين عاشرهم من العلماء يحضونه على الانصراف إلى العلم بدلاً من التجارة ، وفعلاً استجاب لذلك ، فأقبل على العلم، وصار لا يتردد إلى السوق إلا قليلاً ، وقد استهواه في بداية أمره الجدل وصنوفه ، ولكنه عندما تعمق بالمعرفة الإسلامية استولى على لبه الفقه وعلوم الشريعة ، فانصرف إلى ذلك بكليته ، وأقلع عن الجدل لكن رغم ذلك نجده وهو يبحث في الأصول والفروع بقي متأثراً بالجدل وعلم الكلام ، لذلك اتجه إلى اعتماد الرأي في أبحاثه الفقهية •

وبعدما جالس أبو حنيفة علماء عصره ، اختص بحماد بن أبي سليمان ، ولازمه مدة تقارب الثمانية عشر عاماً — أي إلى السنة التي توفي بها وهي ١٢٠ هـ ، وحيث أن أبا حنيفة كان أبرز تلاميذ حماد بن أبي سليمان فقد حل محل استاذه وتصدر حلقتـه ، ووفق أبو حنيفة في دروسه ، نظراً لثقافته الواسعة وخبرته العلمية الكبيرة ، ولعقله الكبير ، وشهر خلال دروسه بقدرته الخارقة على المناظرة ، وكان نافذ البصيرة ، محيطاً بدقائق الأمور ، وكان العمل في حلقة أبي حنيفة أشبـه ما كان بحلقات سقراط الحكيم أو تلميذه

أفلاطون ، على شكل محاورات ، حيث كانت تعرض المسألة من المسائل ، ويتم النقاش حولها ، وكان النقاش يتناول المسألة كمضمون ، كما يتناول طريقة عرضها ، وأصول مناقشتها بشكل خاص ، ثم بشكل عام ، فكل مسألة يتولد عنها مسائل وهكذا ....

وطارت شهرة أبي حنيفة ، وقصده التلاميذ من كل حدب ، منهم من لازمه طويلاً فاختص به ، ومنهم من أخذ عنه حظاً وغادره ، وسهر أبو حنيفة على تلامذته : تربية وعلماً وسلوكاً ، وضرب لهم بشخصه المثل الأعلى ، ذلك أنه كان رفيع الخلق ، مسلماً قولاً وعملاً ، ضابطاً لنفسه ، هادئاً في عمله ، له أحاسيس مرهفة وعميقة ، شجاعاً ، ثابت الجأش ، رابط الجنان ، كله نزاهة واستقامة ، حاضر البديهة ، له جاذبية ومهابة ، كما ملك فراسة المؤمن . لهذا كله حاز مكانة لم يحزها غيره من فقهاء العراق ، فعدَّ مؤسس مدرسة العراق ، وهي مدرسة كانت وما زالت من أغنى مدارس الفقه الاسلامي وأغناها بالعطاء .

ولقد اتسم أبو حنيفة بالأمانة والسمو الخلقي والإباء لذلك لم يقبل عطية حاكم من الحكام ، وعاش من موارده الخاصة ، ورفض دائماً العمل لدى ذي سلطان ، وعرضه هذا مع حبه لآل البيت وعطفه على قضاياهم مع شجاعته لسخط رجال الحكم الأموي ، ثم الخليفة المنصور العباسي فيما بعد ، وهكذا ذاق مرارة المحنة ، لكن ذلك لم يغير من خلقه وطباعه ، فظل ورعاً بلا تزمت يعيش في حدود المعقول وينفق في حدود الحاجة .

وكان أبو حنيفة فقيهاً كبيراً تميَّز بعلمه ومنهجه على سواه ، وكان منهجه يقوم على الأخذ بكتاب الله ، فان لم يجد فيه ما يبغيه فسنة النبي ﷺ ، فان لم يجد فبعمل من اختار من الصحابة ، فان لم يجد كان يجتهد ....

وكان في عمله الإجتهادي يأخذ بعين الاعتبار مصالح الناس ــ شرط بعدها عن القبح ــ وأعرافهم ، وما اعتادوا التعامل عليه ، ويقيس ما دام القياس مقبولاً ، أو يرجع إلى الاستحسان ، وقد وفق في عمله غاية التوفيق ،

وساعده على ذلك سعة ثقافته الاسلامية ، وخبرته الطويلة في عمله بالسوق ، ومعاشرته لطبقات الناس ، لهذا برع في أحكام المعاملات أكثر من سواه . ويمكن وصف فقهه بأنه وليد الروح التجارية ، ولهذا أعطى الاعتبار للحرية الشخصية ورأى ضرورة حمايتها .

لم يترك أبو حنيفة لنا مصنفاً في الفقه بل ترك عدداً من التلاميذ حفظوا أقواله وأفكاره ، وطوروها إلـى مذهب متكامل ، وكان على رأس هؤلاء التلاميذ محمد بن الحسن الشيباني ، وأبو يوسف يعقوب بن ابراهيم .

الإمام الأوزاعي

(ت : ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م)

لدى البحث في التاريخ المبكر للعرب والاسلام ، يمكن ملاحظة ظهور عدد من التيارات الفكرية والعقائدية منذ القرن الأول ، كان من بينها تيارات الزهد ، وزهد المسلمين كان في بداياته على نوعين : عربي وأعجمي ، أما الأعجمي فقد تأثر بالمواريث الدينية الفارسية ، خاصة نظرة الديانة المنانية إلى الحياة بشكل سلبي ، أما الزهد العربي فكانت ينابيعه من الاسلام والحياة العربية ، وتجلى هذا الزهد في حياة عدد من كبار العلماء الأوائل الذين زهدوا في الدنيا ومناصبها ، وانقطعوا للتعليم والجهاد والمرابطة في سبيل الله .

ذلك أن الجهاد كان ركناً أساسياً من أركان الاسلام ، وعلى أساسه اعتبر المسلمون العالم يتألف من دارين : دار السلم ، ودار الحرب ، وأقام المسلمون على حدود هاتين الدارين أماكن للرصد والدفاع والهجوم ، وكان أهم هذه الأماكن ما تمت اقامته على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، لأن العرب تنبهوا منذ قيام الاسلام ، وأثناء وضع خطط الفتوحات وتنفيذها إلى أهمية هذا البحر مع مشكلة العمق الاستراتيجي البحري بشكل عام .

ودعيت الأماكن التي أقامها العرب للرصد والدفاع البحري باسم الرباطات ـ مفردها رباط ـ وفي العصرين الأموي والعباسي المبكر انتشرت الرباطات على شواطىء المتوسط شرقاً وغرباً وشغلت عظيم الأدوار ، على الصعيدين العسكري والثقافي والتربوي العام ، فقد قدم إلى الرباطات عدد

من كبار العلماء نذكر من هؤلاء في المشرق الإمام الأوزاعي والإمام عبد الله ابن المبارك ، وفي المغرب الإمام سحنون وغيره كثير .

وفي داخل الرباطات تدرب المرابطون على فنون الفروسية والقتال ، وشغلوا أوقاتهم في الرصد أو في حلقات العلم وفي نسخ الكتب ، وفضل الرباطات على انتشار الكتاب العربي كبير جداً ، هذا وقد شهر على شواطىء تونس عدد كبير من الرباطات ، وفي المشرق كان رباط بيروت أهم الرباطات، فبيروت هي ثغر دمشق البحري ، فنحن عندما نقرأ أخبار فتح دمشق نجد أن المسلمين قاموا أثناء حصارهم لها بإرسال حملة لاحتلال بيروت في سبيل إكمال عزل منطقة دمشق والحيلولة دون وصول نجدات عسكرية بيزنطية إليها ، وفي العصر الأموي عندما كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية قامت ــ كما هو معلوم ــ بيزنطة بأكثر من عملية إنزال بحرية هددت بها دمشق .

ولا تقوم شهرة رباط بيروت على دوره العسكري بقدر ما تقوم على عظمة دور الإمام الأوزاعي الذي رابط فيه حتى توفي هناك ودفن .

والأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد ، من الأوزاع إحدى قبائل اليمن ، كما هو مرجح ، ولد حسب غالبية الروايات سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م في بلدة بعلبك في البقاع ، وفي البقاع نشأ يتيماً في حجر أمه ، وكانت تتنقل به من بلدة إلى بلدة ، تعرضه كما قيل على حلقات العلماء فينهل ، ويعتني بنفسه ، وقد استقر فترة من الزمن في دمشق ، حيث حظي بشهرة كبيرة ، كما أنه ارتحل في طلب العلم فأخذ عن عدد من كبار علماء عصره يتصدرهم الأئمة : الزهري ، وعطاء ، ومكحول ، الذين كانوا من كبار التابعين وساداتهم ، كما أخذ عن غير هؤلاء كثير من علماء القرن الثاني للهجرة ، وعندما أكمل تحصيله طارت شهرته بالعلم ، ولعله شغل وظيفة في الديوان ، ثم تخلى عن عمله وارتحل إلى بيروت حيث رابط فيها للعلم والجهاد في سبيل الله ، فجمع بذلك بين « العبادة والعلم والقول بالحق » وتجمعت كمية كبيرة من الحديث لديه وأقبل الناس عليه ينهلون من علمه ويستفتونه

بحيث أصبح فقيه الشام الأول وبالتالي فقيه الخلافة الأمويـة ، ومؤسس مدرسة أهل الشام في الفقه .

فالشام كما هو معلوم سكنت أجناده من قبل عدد كبير من الصحابة، ونشأت فيها نواة مدرسة تشريعية خاصة ، ساعد على تطورهـا وانتشارها تأسيس الخلافة الأموية بعد الخلافة الراشدية ، واتخاذ الشام مقراً لهـذه الخلافـة ومرجعاً لحل جميع قضايا جماهير الدولة المترامية الأطراف .

وتحلق حول الأوزاعي العديد من التلاميذ الذين شرعوا في نشر مذهبه، فعم هذا المذهب في الشام والأندلس وبعض بقاع المغرب ، لكن لسوء حظ هذا المذهب أن الخلافة الأموية حكم عليها بالسقوط بسبب الثورة العباسية ، واتخذ العباسيون العراق مقراً لهم ، وتحالفوا فيما بعد مع مدرسة أهل العراق ــ الحنفية ــ التشريعية ، ونشطت في هـذا الوقت مدرسة أهـل الحجاز ، وحققت أوسع النجاحات في الغرب الإسلامي ، فكان تأثير هذا كله مأساوياً على مدرسة الأوزاعي ، حيث أخذت بالانكماش حتى في بلاد الشام حيث حل محلها فيما بعد مذهب الإمام الشافعي .

شهر الإمام الأوزاعي بالشجاعة والصدق وبطلاوة العبارة وحسن الترسل، وكان لا يخشى في الله لومة لائم ، وبرزت مواقفه هذه بشكل واضح جلي بعيد سقوط الخلافة الأموية ، وأثناء بطش عبد الله بن علي العباسي بأفراد البيت الأموي وتنكيله بهم ، فقـد عارض الإمام الأوزراعي ذلـك ، وبلغت أخبار معارضته عبد الله بن علي فاستدعاه ، وكان بينهما كما قال الأوزاعي : «جلس يوماً على سريره ، ودعا أصحابه أربعة أصناف : صنف بالسيوف المسللة ، وصنف معهم الجزرة ، وصنف معهم الأعمدة ، وصنف معهم الكافركوب ، ثم بعث إلي ، فلمـا صرت إلى الباب أنزلوني عـن دابتي ، وأخـذ إثنان بعضدي ، وأدخلوني بين الصفوف حتى أقاموني بحيث يسمع كلامي فقال لي : أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ؟ قلت : نعـم أصلح الله الأمير ، قال : ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت : قد كان بينك وبينهـم عهود وكان

ينبغي أن يثقوا بها ، قال : ويحك ، اجعلني وإياهم لا عهد بيننا ، فأجهشت نفسي وكرهت القتل ، فذكرت مقامي بين يدي الله فلفظتها ، فقلت : دماؤهم عليك حرام ، فغضب وانتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، فقال لي : ويحك ، ولم ؟ قلت : قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم أمرىء مؤمن إلا بإحدى ثلاث : ثيب زان ، ونفس بنفس ، وتارك لدينه ، قال : ويحك أوليس الأمر لنا ديانة ؟ قلت : كيف ذلك ؟ قال : أليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعلي ؟ قلت : لو أوصى له لما حكّم الحكمين ، فسكت ، وقد اجتمع غضباً ، فجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يدي ، فقال بيده أخرجوه ، فخرجت فما ابتعدت حتى لحقني فارس ، فنزلت وقلت ، وقد بعث ليأخذ رأسي : أصلي ركعتين ، فكبرت ، فجاء وأنا أصلي ، فسلم وقال : إن الأمير بعث إليك هذه الدنانير ، قال : ففرقتها قبل أن أدخل بيتي » .

لقد أثنى على الأوزاعي معاصروه من العلماء وسواهم ومن جاء بعدهم فقال فيه أحدهم : لو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي ، وقال آخر : رأيت الأوزاعي كأنه عمي من الخشوع ، وقال آخر : كان الأوزاعي يحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاء ، وقال آخر ، سمعتهم يقولون سنة أربعين ومائة : الأوزاعي اليوم عالم الأمة ... وهو أفضل أهل زمانه ... وكان يصلح للخلافة ... ما رؤي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط ، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه ، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط ، وكان إذا دخل بيته بكى حتى يرحم ، وهذا لكمال اخلاصه وهربه من الرياء .

وذكره الإمام يحيى بن معين فقال : العلماء أربعة : الثوري ، وأبو حنيفة ، ومالك والأوزاعي، وكان الإمام الأوزاعي لا يلحن في كلامه، وكانت

كتبه ترد على أبي جعفر المنصور ، فينظر فيها ويتأملها ، ويتعجب من فصاحتها وحلاوة عبارتها « وقد قال المنصور يوماً لأحظى كتّابه عنده ، وهو سليمان ابن مخلد : ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك » .

وحافظ الإمام الأوزاعي على خلقه وسلوكه ونشره العلم حتى جاءت وفاته فجأة سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م في إحدى الحمامات ، حيث دخلها ونسيه صاحب الحمام داخلها ، فرجع بعد زمن فوجده ميتاً ، ولسوء الحظ لم يصلنا شيء مكتوب من تراث مذهب الأوزاعي ولا من مؤلفاته حتى تتعرف إليه أكثر .

الإمام مالك
رضي الله عنه

(ت : ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م)

كانت المدينة المنورة دار هجرة النبي ﷺ ، وأصحابه ، ومقر العلم الإسلامي ، فيها كمل بناء الشريعة الإسلامية ، وفيها طبقت مبادىء هذه الشريعة أيام النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ، وفي أيام النبي ﷺ كان هو المرجع بالنسبة لكل شؤون الأمة ، وبعد وفاته صار أصحابه هم المرجع ، وبعد الصحابة جاء عصر التابعين ، وكانت الدولة الإسلامية العظمى قد قامت ، وانتشر الإسلام في بقاع الأرض ، وبدأت تظهر إلى الوجود معالم مدارس الفقه الإسلامي والفكر بشكل عام .

وعرف تاريخ الإسلام عدداً من المدارس، منها ما كتب له استمرار الحياة ومنها ما انقرض ، وكان على رأس المدارس المستمرة مدرسة أهل العراق ، ومدرسة أهل الحجاز ، وقد عرفت مدرسة أهل العراق باسم مدرسة أهل الرأي ، في حين شهرت مدرسة أهل الحجاز باسم مدرسة أهل الحديث ،ذلك بسبب أن أهل الحجاز كانوا في القرنين الأول والثاني أعرف الناس بحديث الرسول وأخبر بقوله وعمله وتقريراته ، مع سيرته ومغازيه ، وكانوا أقدر من غيرهم على فهم القرآن ، فهو قد نزل بلغة قريش .

ومن أهل الحجاز كان سكان المدينة هم الأغنى علماً بالتراث ، وقد برز في المدينة عدد من أقطاب العلماء كان مسلكهم في العمل الفقهي قائم على الوقوف عند النص لكثرة بضاعة أهل بلدهم من النصوص ، ولطبيعة المواريث وسذاجة الحياة وقلة مشاكلها بالمقارنة مع البلدان الاسلامية الأخرى ، ولوجود الكعبة وقبر الرسول ﷺ في الحجاز .

ورأى علماء المدينة أن اتباع الرأي أخذ بالهوى والغرض ، وبالتالي ادخال في دين الله ما ليس منه ، لذلك كانوا اذا استفتوا في مسألة عرضوها على كتاب الله وسنة رسوله، فان وجدوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي، أو عرضوا الحلول دون ابداء الرأي في المفاضلة .

والاعتماد على الحديث كان له الأثر الأكبر في الانصراف نحو جمع السنة النبوية ، وتنقيتها من كافة الشوائب بوضع قواعد نقدية كانت من الدقة بمكان ، جعلت فيما بعد العمل في ميدان جمع الحديث فناً قائماً بذاته ، وعلماً له قواعده وقوانينه مع أهدافه ومواضيعه ، وبات من المسلم به أيامنا هذه أن ما توصلت اليه العلوم الحديثة من ابداع لقواعد النقد التاريخي الوثائقي ، لا يسمو لنفس درجة قواعد المحدثين في الدقة والأصالة وسلامة النتائج .

من الصعب القيام بتقديم عرض دراسي عن مشاهير الذين أسهموا في بناء أسس مدرسة الحديث ، لكن لعل الحديث عن الامام مالك بن أنس يغني عن ذلك ، لا من منطلق تمجيد دور الفرد في صناعة التاريخ ، إنما على أساس القول أن علماً بارزاً كالامام مالك هو في الأصل محصلة لدور سابق ، أضيف اليه عبقرية شخصية ، فالامام مالك هو أبرز واضعي أسس مدرسة الحديث الفقهية وعلى تراثه بني مذهب المالكية وطور من قبل علماء منهم من أخذ على مالك مباشرة ومنهم من لم يلقه ولم يأخذ عنه مباشرة ، وهذا المذهب هو الصانع الأكبر لحضارة وتاريخ المسلمين في المغرب الاسلامي وأفريقية ، وهو أيضاً المؤثر الاسلامي الأكبر في تاريخ التشريعات الأوروبية .

وقبل الاستطراد على هذا النحو من الضروري أن نقف عند معالم حياة الامام مالك ، فهو مالك بن أنس ، ولد كما هو مرجح في المدينة سنة ٩٣ هـ من أبوين عربيين ، من أصل يماني ، وفي طفولته دفع إلى من مكّنه من حفظ القرآن ، ثم أذن له أهله بحضور مجالس العلماء ، وكانت أمه أشد المتحمسين لتعليمه ، عنيت بثيابه ومظهره الخارجي ، وسهرت على اختيار أحسن

الأساتذة له ، ووجهته نحو العلماء وساعدته على التنقل في مجالسهم ، وكان ربيعة الرأي وعبد الرحمن بن هرمز أهم شيوخ مالك ، فهو قد لزم ابن هرمز ثلاث عشرة سنة ، وكان معجباً به ، مقدراً لعلمه .

وكان الامام مالك مجداً في طلب العلم ، صبوراً يبذل ما كان في طاقته الجسمانية والمادية للتحصيل دونما ملل ، وكان يضحي بكل شيء في سبيل العلم ، ويتحمل المشاق مع حدة الشيوخ ، وشغل الامام نفسه بجمع الحديث النبوي ، وكان صارماً مع نفسه أديباً أمام الحديث النبوي ، يطلبه من عند الثقات وأهل الفهم والدراية ، وكان قد أوتي فراسة المؤمن في فهم الرجال وإدراك قوة عقولهم ومقدار فقههم .

وكان الامام مالك يتلقى العلوم بوعي وعقـل ، بحيث كان لا يزدرد ما يلقى اليه ازدراداً ، بل كان يفحصه ويمحصه ، فيقبل بعضه ويرفض بعضه الآخر وبعد تحصيل طويل ، وشهادة العلمـاء بالعلم له ، جلس في المسجد النبوي يحدث ويملي ، وقـد اختار من المسجد المكان الذي كان عمر بن الخطاب يجلس به ، كما اتخذ من الدار التي كانت لعبد الله بن مسعود داراً لـه ...

كان الامام مالك لفترة من حياته يدرس في المسجد وفي بيته ، انمـا اضطر بسبب مرض ألمّ به إلى التزام بيته فقط ، وكانت أيام عمله مبرمجة ، بحيث خصص أوقاتاً للحديث وأخرى للإفتـاء في النوازل ، واستمر هكذا مدة خمسين عاماً ـ أي حتى وفاته عام ١٧٩ هـ ـ وكان في مجلسه يأخذ نفسه أخذاً شديداً ، كان جاداً كل الجد ، متواضعاً وكريماً إلى أبعد الحدود ، وكان لا يجيب في نازلة إلا بعـد فحص وتريث ، ولا يخجل أن يقول : لا أعرف ، رغم أنه كان أعلم أهل زمانه ، ومرد هذا إلى كونه كان قوي العزم ، حديد الارادة ، قهر أهواء النفس وأمات شهواتها ، لذلك لم يضعف إلا أمام الخالق .

هابه كل ذي سلطان حتى المنصور العباسي نفسه ، وكان زهده وإيمانه

وسلوكه محمدياً ، بحيث أنه اعتنى بمظهره بلا تفاخر أو رياء ، واعتنى بأثاث بيته وبملبسه ونظافته .

ومعروف أن الامام مالك شهد نهاية الدولة الأموية ثم قيام الخلافة العباسية وفي أيام المنصور سعى هذا الخليفة نحو تطبيق سياسة خاصة استهدفت تقريب العلماء ليكونوا احدى أدوات السلطة ، واعتبر المنصور كل من لا يتعاون معه يمكن أن يكون مرتبطاً بقوة معادية له ، وقد تشدد في هذا الموقف أيام ثورة النفس الزكية ، وصدف أن أفتى الامام مالك أثناء الثورة بحديث « ليس على مستكره يمين » فرأت السلطة العباسية في ذلك تقديم تسهيلات للثورة ، فاعتقلت الامام وعرضته للإهانة والعذاب ، وكان لهذا الأمر وقع شديد على المسلمين ، فسارع المنصور باصدار أمره باطلاق سراح الامام مالك ، وفي الموسم جاء المدينة واجتمع بالامام ، واعتذر له وكلفه بتدوين كتاب في الفقه والحديث، فاستجاب الامام وصنف كتاب الموطأ.

والموطأ أول كتاب من نوعه تم تدوينه ، رغم أن محاولات جمع السنة وتدوينها أقدم منه ، وهو كتاب فقه وحديث ذكر فيه الامام مالك المواضيع الفقهية ، ومع كل موضوع الاحاديث الواردة حوله ، ثم عمل أهل المدينة ، ثم آراء وفتاوى الصحابة والتابعين ، ومن عمل الامام في هذا الكتاب يمكن أن نرى قواعد عمله في مذهبه الذي انتشر في الغرب الاسلامي ، ولم يكتب له النجاح في الشرق .

وتعود أسباب ذلك إلى خلفيات سياسية وحضارية واجتماعية منها ما امتد لما قبل الاسلام ، ومنها ما ارتبط بشأن تطور مدرسة أهل العراق الفقهية، وقيام الثورة العباسية ، فأثر ذلك على أوضاع بلدان الاسلام خاصة في الغرب الذي لم تدخل بعض أراضيه تحت الحكم العباسي .

ومفيد أن نتذكر أنه بعد قيام الدولة الإسلامية الكبرى ، وبناء القوة البحرية الاسلامية ، صار الجزء الأكبر من البحر المتوسط بيد المسلمين ، وحدث تحول في طرق التجارة العالمية، فقد تغيرت أماكن الاسواق المستهلكة كما

تبدلت أنواع البضائع ولم تعد كل الطرق تقود إلى روما بـل إلى حواضر الاسلام، وبعد قيام الخلافة العباسية صارت بغداد« روما » العرب والاسلام، وصارت كل القوافل وجهتها الأخيرة ، ومنطلقها بغداد •

ومن الملاحظ أن موقع مكة لما قبل الاسلام على طرق التجارة العالمية دفعها نحو تزعم عالم شبه الجزيرة ، ثم هيأها مع عوامل أخرى خطيرة لتكون مركز تفجر ثورة الاسلام ، ومرة ثانية بعد قيام الاسلام ، وانتشاره في الشمال الافريقي والاندلس ، وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق أنفسهم عند حلولهم مصر أن المدينة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق، وهكذا نال القادمون للتعلم والتفقه دروسهم الاساسية في المدينة ، ثم ذهب بعضهم لاستكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول ﷺ •

وفي هذا المجال ينبغي ألا يفوتنا التنبه إلى أن العباسيين كان لهم سياسة دينية خاصة ونشطة ، ثم ان عالم القرن الثامن للميلاد ثم التاسع من بعده عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وطبيعي ان نجد هذا لدى العباسيين ، فهم قـد وصلوا إلى السلطة بواسطة ثـورة انطلقت من شرعية مفاهيم الاسلام القائمـة على المزج والتوحيد ، وبهـذا اختلف حالهم عن بني أمية ، فمعاوية نال الخلافة من وراء المطالبة بدم عثمان •

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون الأوائل في سياستهم الدينية على مدرسة العراق السنية ، ذلك أن العراق بكوفته عرف عدة مدارس مذهبية كان أبرزها المدرسة السنية ، ثم المدرسة الشيعية ، ثم مدرسة الخوارج • وحيث أن العباسيين كانوا اعداء الخوارج ، ثم لعزمهم منذ أيام المنصور على الانفصال الكلي عن الحركة الشيعية ، فقد دعم العباسيون الأول مدرسة أهل السنة ، وتبنوها وأرادوا احتضانها ، فتم لهم ذلك بعدما تأسست أركان هذه المدرسة على يد أبي حنيفة بوقت وجيز •

وفي الغرب الاسلامي ــ خاصة في الأندلس ــ وجد امراء الاندلس بعد عبد الرحمن بن معاوية أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين ، أو لنقل : ان الحكم الذي تم نيله بالاعتماد على الصراع القبلي ، وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين العصبيات ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعاً إن هذا العمل كان أمراً لا بد منه في أي دولة اسلامية ، وخاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام .

وكانت المواجهة هذه تفرض التظاهر بمظهر المثالية ، كما فرضت التشدد والتعصب ومثالية الاسلام تؤخذ من المدينة لا من سواها ، والمدينة هي غير الكوفة ، وتلميذها متميز عن تلميذ مدرسة الكوفة ، ومستقل عنه وغير تابع .

هذا وإن اعتماد السلطة العباسية على مدرسة الكوفة السنية ، جعل بلا شك القائمين على مدرسة المدينة يفتشون عن مناطق نفوذ ونشاط ، ويؤيد هذا استقرار تلاميذ الامام مالك الكبار في مصر ، ثم ما روي عنه نفسه من تحبيذ لبعض امراء الأندلس .

وعلى كل حال مهما قلنا عن الأسباب التي أدت إلى انتشار مذهب المالكية في الغرب الاسلامي ، فانه مما لا ريب فيه أن المالكية حملت مسؤولية نشر الاسلام في أفريقية ، وكانت المبدع الأساسي لتاريخ وحضارة وشخصية المغرب الاسلامية .

محمد بن الحسن الشيباني

(ت : ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م)

محمد بن الحسن الشيباني هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ولاءً ، كان أصل والده من منطقة الجزيرة حيث كانت ديار شيبان ، لكنه لم يعش في الجزيرة ، بل في بلدة حرستا في أحواز مدينة دمشق ، ذلك أنه كان من الجند الشامي ، وفي أواخر العصر الأموي انتقل إلى مدينة واسط عاصمة العراق الأموي الأخيرة ، وفي واسط ولد له ولده محمد سنة اثنتين وثلاثين ومائة [٧٥٠ م] .

ويبدو أن والد محمد بن الحسن كان ثرياً ، وقد ترك سكنى مدينة واسط ، واستقر في مدينة الكوفة ، ويبدو أن ذلك كان إثر سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، وفي كوفة النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة، كوفة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وكبار العلماء والفقهاء ورجال الأدب واللغة والحديث نشأ محمد بن الحسن الشيباني ، فلقي كبار رجال الفكر فأخذ عنهم ، ويروى أنه عندما بلغت سنّه أربع عشر سنة حضر مجلس أبي حنيفة، ليسأله عن مسألة نزلت به ، فسأله قائلاً : ما تقول في غلام احتلم بالليل بعدما صلى العشاء ، هل يعيد العشاء ؟ قال : نعم ، فقام وأخذ نعله ، وأعاد العشاء في زاوية المسجد وكان هذا أول شيء تعلمه من أبي حنيفة ، ويروى بأن الامام عندما رآه يعيد الصلاة أعجبه ذلك ، وقال : « إن هذا الصبي يفلح إن شاء الله تعالى » وكان الأمر كما قال ..

حيث « ألقى الله تعالى في قلبه حب التفقه في دين الإسلام » وأدخل في روعه جلال مجلس الفقه ، فعاد إلى حلقة أبي حنيفة يريد التفقه والتعلم ، فقال له أبو حنيفة: « استظهر القرآن أولاً » لأن المتفقه في الشريعة الاسلامية

في حاجة ماسة للقرآن والاحتجاج بآياته لأن للقرآن المنزلة الأولى في العقيدة الاسلامية .

وغاب محمد بن الحسن عدة أيام عاد بعدها إلى مجلس الإمام أبي حنيفة وقد استظهر القرآن ، وابتدأ حظه بتوجيه سؤال جديد إلى الإمام ، فقال له الإمام : أخذت هذه المسألة من غيرك أم أنشأتها من نفسك ؟ فقال محمد بن الحسن : بل من عندي فقال له أبو حنيفة : سألت سؤال الرجال، أدم الاختلاف إلينا وإلى الحلقة .

ومن ذلك الحين بدأ محمد بن الحسن حياته العلمية ، وأقبل بكليته على فقه أبي حنيفة ، ووقف جل وقته على ملازمة حلقته يكتب المسائل وأجوبتها ، واستمر في حاله هذا أربع سنوات حتى توفي الإمام أبي حنيفة ، وبعد ذلك تابع نيله لفقه أبي حنيفة على يد تلميذه وخليفته من بعده القاضي أبي يوسف .

وكان أثناء هذا كله يختلف إلى حلقات المحدثين وسواهم في الكوفة ، ويأخذ عنهم .

وعندما شعر بأنه استنفذ تحصيل معارف أهل الكوفة ، قرر الرحلة في طلب العلم ، وكانت شهرة إمام أهل المدينة مالك بن أنس قد طارت ومعها شهرة كتابه الموطأ ، لذلك توجه نحو شبه الجزيرة ، وفي المدينة تعرف إلى الإمام مالك وأخذ عنه ، وسمع منه الموطأ ودونه من سماعه ، وتعتبر رواية محمد بن الحسن للموطأ من أفضل الروايات له قدماً وصحة وضبطاً ، وحين دون محمد بن الحسن الموطأ دونه بترو في مدة ثلاث سنوات ، وذكر بعد كل حديث أو فقرة فقهية ما إذا كان ذلك يتفق مع فقه أبي حنيفة أم يختلف [وقد اتيح لي تفحص هذا العمل الجليل في نسخة خطية كاملة من هذا الموطأ هي في حوزتي حيث يمكن وصف عمل محمد بن الحسن فيها بأنه محاولة رائدة في باب الخلاف الفقهي العالي] .

ومفيد أن نشير هنا أنه أثناء أخذ محمد بن الحسن على الإمام مالك جـاء محمد بن ادريس الشافعي للأخذ على الامـام مالك ، وبذلك حدث التعارف الأول بين الشيباني والشافعي •

وحج الشيباني إلى مكة ، وهناك لزم كبار العلماء ، وأخذ عنهم مثل سفيان بن عيينة وسواه ، كما أنه رحل إلى الشام، فأخذ عن الإمام الأوزاعي، وزار البصرة وخراسان آخذاً عن كبار العلماء •

وبعدما استكمل رحلاته عاد إلى عراق الخلافـة العباسية فاستقر في بغداد ، وطارت شهرته ، واختلف التلاميذ اليه ينهلون من علمه ، وقام الخليفة الرشيد بتوليته القضاء ، وأثناء ولايته لهذا المنصب لقيه الامام الشافعي ثانية، حيث حدث أن الشافعي حمل من نجران إلى الرشيد مكبلاً بالحديد متهماً بالتآمر السياسي ، وجرت محاكمته بحضرة الخليفة وحضور القاضي محمد ابن الحسن الشيباني مما سهل أمر إطلاق سراحه ، وانقاذه من ظلام الوظيفة ، وإعادته إلى نور العلم ، حيث أن الشافعي قـام بالتزام الشيباني لمدة عامين تقريباً ، أخذ عنه فيهما فقه أهل العراق •

ويبدو أن الامام محمد بن الحسن لم يمكث في القضاء طويلاً حيث تخلى عنه واعتزل العمل الإداري ، ووقف نفسه على الفقه تعليماً وتصنيفاً ، وبعلمه هذا بنى عملياً مذهب أبي حنيفة ، ذلك أن التراث الفكري المدون لفقه أهل العراق جله من انتاج الامام الشيباني الذي يمكن اعتباره لهذا الباني الفعلي للمذهب الحنفي •

لقد جاء طلاب العلم إلى الإمام الشيباني من مشارق العالم الاسلامي ومغاربه وكان أبرز من أخذ عليه من أهل الغرب الاسلامي أسد بن الفرات ، فاتح صقلية ، وصاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي حيث أن مدونته هي أصل مدونة الامام سحنون الشهيرة •

تحدث أسد بن الفرات عن اتصاله بالامام مالك ثم سفره إلى العراق

حيث لزم محمد بن الحسن الشيباني ، وذكر أنه قال له في احدى المناسبات: إني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر والطلب عندك كثير فما حيلتي ؟ فقال لي : « اسمع مع العراقيين بالنهار وقد جعلت لك الليل وحدك فتأتي فتبيت عندي واسمعك » قال أسد : فكنت أبيت عنده ، وكنت [معه] في بيت فيه سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل إلي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال عليه الليل ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي ، فأتنبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه .

في هذ االحديث صورة رائعة تعبر عن مدى حرص الإمام محمد بن الحسن الشيباني على مساعدة طلاب العلم ، خاصة الغرباء منهم ، وتكتمل بعض جوانب هذه الصورة وتزداد روعة فيما ذكره أيضاً أسد بن الفرات بقوله : وكنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح : الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ، ثم رجعت إلى الحلقة ، فقال لي محمد ابن الحسن : يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله ، وأنا ابن سبيل ! قال : ثم انصرفت ، فلما كان الليل إذا بإنسان يدق الباب فخرجت إليه ، فإذا خادم محمد بن الحسن فقال : مولاي يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ما علمت أنك ابن سبيل إلا في يومي ، فخذ هذه النفقة فاستعن بها على حاجتك ، ثم دفع إلي صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي هذه كلها دراهم ، ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فإذا فيها ثمانون ديناراً .

لا يعلم بين سيرة الأئمة إلا ندرة صبروا صبر محمد بن الحسن في تعليم تلاميذه ، وآثرهم في الانفاق والوقت ، ولا عجب فالشيباني كان إماماً عاملاً آمن بالإسلام عن فهم وعقل ، واتخذ سيرة النبي المصطفى مثله الأعلى .

لقد زق محمد بن الحسن أسد بن الفرات بالعلم زقاً ، وكان الإمام مالك قد توفي وفي طريق عودته إلى القيروان حمل ابن الفرات معه زاداً عظيماً دونه في كتاب عرف باسم « المدونة الأسدية » وهي كما أشرت أصل

مدونة سحنون ، وعليها قام فقه المالكية ، وهكذا نرى الأثر العظيم لمحمد بن الحسن إسلامياً شاملاً ، فهو الباني الفعلي للمذهب الحنفي ، وهو من جهة ثانية استاذ الإمام الشافعي ، ومن طرف ثالث استاذ أسد بن الفرات ، ولا عجب أن قال عنه الإمام الشافعي : « لو أشاء أن أقول نزل القرآن بلغة محمد ابن الحسن لقلت ، لفصاحته ، وقد حملت عنه وقر بختي كتباً » كما قال : « ما رأيت أحداً يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن » .

وكما سلفت الإشارة عمل الإمام محمد بن الحسن في القضاء فترة وجيزة ، وكانت له علاقات بالخليفة الرشيد ، إنما يلاحظ أن هذه العلاقات ظلت متوازنة حافظ فيها على رونق العلم ، وجلالة العلماء ، وقد ذكر أحد معاصريه قال : « كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد ، فقام إليه الناس كلهم إلا محمد بن الحسن ، فإنه لم يقم ، وكان الحسن بن زياد ثقيل القلب ، ممتلىء البطن على محمد بن الحسن ، فقام ودخل الناس من أصحاب الخليفة ، فأمهل الرشيد يسيراً ، ثم خرج الآذن ، فقال : محمد بن الحسن ، فجزع أصحابه له ، فأدخل فأمهل ، ثم خرج طيب النفس مسروراً ، فقال : قال لي : مالك لم تقم مع الناس ؟ قلت : كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، إنك أهلتني للعلم ، فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه ، وإن ابن عمك ﷺ قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار ، وإنه إنما أراد بذلك العلماء ، فمن قام بحق الخدمة واعزاز الملك ، فهو هيبة للعدو ، ومن قعد اتبع السنة التي عنكم أخذت ، فهو زين لكم ، قال : صدقت يا محمد » .

كان محمد بن الحسن قوي الذاكرة ، شديد الوعي ، سريع البديهة ، أتقن صناعة القياس واستخدم الرأي بشكل بارع للغاية ، وإنما في حدود الشريعة وفي نطاق معطياتها ، قيل بأنه لما اتصل بالإمام مالك سأله « ما تقول في جنب لا يجد الماء إلا في المسجد ؟ فقال مالك : لا يدخل الجنب المسجد ،

قال : فكيف يصنع وقد حضرت الصلاة ، وهو يرى الماء ؟ قال : فجعل مالك يكرر : لا يدخل الجنب المسجد ، فلما أكثر عليه : قال له مالك : ما تقول أنت في هذا ؟ قال : يتيمم ويدخل فيأخذ المـاء من المسجد ، ويخرج فيغتسل . قال : من أين أنت ؟ قال : من أهل هذه ــ وأشار إلى الأرض ــ فقال : ما من أهل المدينة أحد لا أعرفه ، فقال : ما أكثر من لا تعرف ، ثـم نهض ، قالوا لمالك : هذا محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفـة ، فقال مالك : محمد بن الحسن كيف يكذب ، وقد ذكر أنه من أهل المدينة ؟ فقالوا : إنما قال : من أهل هذه ، وأشار إلى الأرض ، قال : هذا أشد علي من ذاك » .

توفي محمد بن الحسن سنة تسع وثمانين ومائـة [٨٠٤ م] في مدينة الري ــ قرب طهران الحالية ــ وقد كان خصب الانتاج ، وهو بسبب ذلك اعتبر فقيه مدرسة العراق الأعظم مكانة ، ومدون تراث هذه المدرسة ، وقد كتب محمد بن الحسن عدداً كبيراً من الكتب وقفها على مواضيع فقهية عامة متعددة ، كما كتب بعض الرسائل وقف كل منها لموضوع فقهي خاص ،وكان آخر ما كتبه قبيل وفاته كتاب «الكسب» وسبق لي نشر هذا الكتاب محققاً، كما أن نتاج الإمام الشيباني ــ دون هـذا الكتاب ــ موجود ضمن كتاب المبسوط الذي وقفه الإمام السرخسي على شرح ما أنتجه الإمام الشيباني .

الإمام الشافعي

(ت : ٢٠٤هـ / ٨١٩م)

« الأئمة من قريش »

النبي ﷺ

الشافعي هو محمد بن ادريس نسب إلى أحد أجداده من آل المطلب ابن عبد مناف ، وبعبد مناف يلتقي نسبه بنسب النبي ﷺ ، وأسرة المطلب كانت أسرة شقيقة لأسرة النبي ﷺ من آل عبد المطلب، وقد ولد في غزة عام « ١٥٠ هـ » ، وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة ، وقد ولد يتيم الأب ، فحملته أمه ، وهي عربية يمانية من الأزد ، إلى مكة ، وهناك وجهته لنيل العلم ، وتحصيل المكانة بهذه الواسطة ، لأنه كان فقيراً ، والنسب كان لا يمكنه لوحده أن ينهض بإنسان ما لم يدعمه بمال ، أو سلطان أو علم .

نشأ الشافعي في مكة ، وفيها نال قسطاً من المعارف الإسلامية واللغوية والأدبية ، وبعد العاشرة اتجه نحو علم الحديث ، وفي مطلع شبابه قصد بادية هذيل ، وكانت أفصح العرب ، فتعلم كلامها وأخذ بطباعها وشعرها ، كما أجاد الرماية ، وبعد عودته إلى مكة اتجه إلى العلم بكليته ، وعند بلوغه العشرين قرر الرحلة إلى المدينة حيث التحق بإمام أهل الحجاز مالك بن أنس، ولازمه يأخذ عنه العلم مدة تسع سنوات ، أي حتى وفاة الإمام مالك ، حيث ترك المدينة إلى مكة .

ومن مكة حمله أحد ولاة اليمن معه وكلفه بعمل في مدينة نجران ، فقام بعمله بكل نزاهة واستقامة ولم يكتف برفض الرشوة ، بل عمل على منع غيره من رجال السلطة عن تناولها ، وقام بعض الذين أغلق الشافعي في وجههم

باب الرشوة والفساد ، بالكيد له ، فاتهموه بالميول العلوية المعادية للدولة ، وكتبوا بذلك إلى الخليفة الرشيد ، فأمر بحمله إليه مكبلاً بالحديد .

كان هذا عام ١٨٤ هـ ، وفي بغداد مثل الشافعي أمام الرشيد فاستطاع أن يثبت زيف ما اتهم به، وتمت المحاكمة بحضور محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب أبي حنيفة ، وقاضي بغداد آنذاك ، الذي ربما عرف الشافعي أثناء أخذه عن مالك ، لذلك قرر الرشيد دفع الشافعي إلى قاضيه .

وعلى قاعدة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » ورب محنة أورثت خيراً عظيماً ، فقد ردت المحنة الشافعي إلى نور العلم ، وأنقذته من ظلمة الولاية ، فأوى إلى محمد بن الحسن الشيباني لما لا يقل عن عامين ، وأخذ عنه فقه أهل العراق ، وهكذا اجتمع للشافعي فقه الإسلام ، لأنه علم علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث .

وغادر الشافعي بغداد إلى مكة ، حيث أخذ يراجع العلوم التي نالها ، ويوازن بين الآراء التي اطلع عليها في الحجاز والعراق ، واقتضت أعمال الموازنة هذه من الشافعي ابداع مقاييس ضابطة لوزن الآراء والحكم بينها ، كما اقتضت منه إيجاد منهج لأعمال الوزن هذه ، وتمكن الشافعي من هذا ، فخرج على الناس ببيان لقواعد الاستنباط ، وعرفت هذه القواعد فيما بعد باسم « أصول علم الفقه » وعليه فالشافعي هو مؤسس علم أصول الفقه ، وباني قواعده الأولى بشكل فيه بيان وتفصيل ، ذلك أن الفقه كان حتى الآن أشبه بعلم ، له فقط : موضوعه وأهدافه ، وقد جعله الشافعي علماً كاملاً له : موضوعه ، وقوانينه ، وأهدافه .

وقام الشافعي بتطبيق موازينه على ما حصله من علوم أهل العراق وأهل الحجاز ، وحين فعل ذلك أعلن للناس آراء فقهية خاصة به انتقاها من علوم المدرستين وطورها بنفسه ، فكان ذلك بداية ظهور مدرسة فقهية جديدة هي « الشافعية » .

ومر تاريخ هذه المدرسة بمرحلتين ، فهي قد ولدت في مكة حيث ولد الاسلام أولا ، وفي مكة درّس الشافعي مذهبه لعـدة سنوات ، لكنه أدرك ان مذهبه لا يمكن أن ينتشر من مكة ، وانه لا بد له من هجرة ، فقرر المضي إلـى بغداد التي كانت مستقطبة لكبار علماء الاسلام ، ومحتكرة لقيـادة الفكر الاسلامي •

شـدّ الشافعي الرحال إلى بغداد عام « ١٩٥ هـ » ، وهناك استرعى الشافعي نظـر كـل العلمـاء ، وتحلق حولـه التلاميـذ ،واعجب الناس بدروسه واجاباته ، فهو بفصاحته وبيانه وقدرته على المناظرة والاقناع والتأثير جاء الناس بعلم فيه الاسلام كله ، ثم جاء الناس بعلم الأصول ، وفي بغداد أملى الشافعي عدداً من كتبه من بينها : كتاب « الأم » ، وكتاب « الرسالة » ويمكن القول بأن الشافعي أمضى في بغداد المرحلة الأولى من تاريخ مدرسته، وتدعى هذه المرحلة بالعراقية ، ومذهبه فيها يدعى بالقديم •

وامتدت اقامة الشافعي في بغداد عامين ، وعاد بعدها إلى مكة زائراً ثم رجع إلى بغداد حيث أمضى عاماً واحداً هناك ، ثم يمم شطر مصر ، وفي مصر أمضى الشافعي بقية حياته ، والمرحلة المصرية هي المرحلة الثانية في تاريخ مذهبه ، ومذهبه فيها يدعى بالجديد ، وهنا لا بد من سؤال هو : ما الذي دفع الشافعي إلى ترك بغداد والذهاب إلى مصر •

تقتضي الاجابة على هذا السؤال استعراض بعض الجوانب من مراحل تاريخ الاسلام منذ قيام الفتوحات الاسلامية الكبرى وتأسيس الدولة العربية العظمى ، ذلك أن الاسلام الذي انتصر في ميادين القتال ضد الفرس وبيزنطة وسواهما ، لم يهزم جيوش هذه الدول فقط ، لكنه هزم أيضاً عقائدها ودياناتها ونظمها وتراثها ــ لأن الاسلام يجُبُّ ما قبله ــ ولم ترم القوى المهزومة سلاحها بـل تابعت صراعها ضـد الاسلام ، بمختلف الطرق والوسائل والأسلحة ، واستهدفت ازالة الاسلام من الوجود واجتثاث أصوله ، أو كما قال الأوائل : « استهدفت تعطيل الشريعة » •

وفي مجالات العقائد يمكن ان نقول أن أهم القوى التي وقفت في وجه الاسلام : الديانات الكتابية وشبه الكتابية ، والعقائد ذات الارتباط بالعقل أو النابعة مما يعرف بتراث الفلسفة ، ومعروف ان الاسلام خاض معاركه الأولى في المدينة مع النفاق ــ الباطنية ــ ومع اليهودية ، ثم استمر ، وكانت معاركه مع المسيحية أقل حدة آنئذ ، لكن بعد الفتوحات اشتد أوار المعارك مع النصرانية ، لانها كانت المتضرر الأكبر من الفتوحات حيث فقدت فلسطين مهد الديانة مع بقية اجزاء بلاد الشام ، ومصر والشمال الافريقي وجزائر البحر المتوسط ثم الاندلس ، وبنفس درجة المسيحية أو أشد ، تضرر كل من الزرادشتية التي سارت إلى الهاوية ، وكذلك المانية وغيرها .

وفي نفس الوقت دخل الاسلام في معارك جديدة كانت ضد الغنوصية وتراث الفلسفة ، وكانت بدايات هذه المعارك ما تعلق بقضايا القول بالقدر وما لف لفها ، وعلى العموم نلاحظ أن الديانات البائدة حين صارعت الاسلام، كانت قواها ــ كل على حدة ــ أقرب إلى التوحيد ، والتنظيم ، في حين أن قوى « الفلسفة » كانت عبارة عن تيارات متفرقة ليست موحدة تماماً ، لكنها رغم ذلك كانت ذات مغريات كبيرة ، ومزالق خطيرة ، لم تظهر نواياها المعادية للاسلام بشكل واضح تماماً ، واستقطبت ما يمكن تسميته بجماعات«المثقفين المتنورين » .

وهزم الاسلام الديانات التي تصدت له وسحق قواها ، وكان هذا كله فرصة أتاحت للقوى « الفلسفية » أو « شبه الفلسفية » انتقوي صفوفها وتنتقل من مرحلة التشتت إلى مرحلة التوحد والتنسيق ، وباتت تتطلع نحو السلطة .

ووضح هذا مع نهاية العصر الأموي بدور القائلين بالقدر أيام عمر بن عبد العزيز ، ثم دورهم ودور خصومهم أيام مروان بن محمد ، وتعاون هذه القوى ، فقد وجدت علاقات ممتازة بين أبي جعفر المنصور ، وعمرو بن عبيد ــ أحد زعماء المعتزلة ــ اثناء الاعداد للثورة العباسية واستمرت بعد وصول العباسيين للسلطة .

وحين واجهت الديانات الاسلام ، كانت المواجهات مكشوفة ومباشرة ، ومموهة غير مباشرة عبر عدد من الحركات تسترت بالاسلام ، وفي العصر الأموي نزل بهذه الحركات ضربات مميتة ، وفي العصر العباسي تم اكمال الشوط بلا رحمة ، وحتى عصر الرشيد كانت المنانية ممثلة بالزندقة والشعوبية وكانت الزرادشتية وسواها قد سحقت قواها ، وجاء عصر ما بعد الرشيد ، وقام الصراع بين بغداد ممثلة للقوى الاسلامية العربية ، ومرو ممثلة لخراسان وقوى تسترت بالاسلام مع تراث ايران والمشرق .

وحين حدث هذا ، كان قد وضح أن المحاولات لانشاء أممية اسلامية ، تذوب فيها الأعراق ذوباناً كلياً ، لم تحقق النجاح الكامل ، وان عالم الاسلام بات يشكل قسمين رئيسيين : أولهما عربي والآخر أعجمي ، فمع الثورة العباسية ثم بمرور جزء كبير من الطور العباسي الأول ظهر إلـى الوجود معالم ما ندعوه الآن باسم الوطن العربي حاوياً للعراق والشام ومصر والغرب الاسلامي مع شبه الجزيرة ، كما جاء إلى الوجود معالم الأوطان الأعجمية .

كانت معركة معقدة ، وفي غاية الخطورة ، لم تسبر أرضيتها بعد أقلام الباحثين ، نعم انتصرت مرو على بغداد ، وقام المأمون بمسايرة قوى خراسان، لكنه ما لبث أن انقلب عليها ، وقرر ترك مرو ، والذهاب إلى بغداد ، وفي بغداد ، ورغم التجربة المريرة التي مر بها المأمون في مرو ، استمر يفتش عن ايدولوجية جديدة غير ايدولوجية بغداد ، وكان الآن لنشأته ونوعية الثقافة التي نالها أثر حاسم في عملية الاختيار ، آخذين بعين الاعتبار أنه لم يكن قد بقي أمام المأمون ما يختاره سوى التيار « الفلسفي » الذي تجسد الآن في حركة المعتزلة وحزبهم .

وكان العصر العباسي الذي عاشه المأمون في العالم الاسلامي والعالمين المسيحيين الشرقي والغربي ، عصر الاباطرة المتفتحين على الفلسفة ، والذين يسعون إلى اقامة مجتمعات لكل منهـا ايدولوجية واحدة لحزب واحـد ، وهكذا تحالف المأمون مع المعتزلة ، وفور قيام هذا التحالف ، كشر التيار

الفلسفي عن أنيابه وأظهر العداوة الجهرية للاسلام ، وتوجهت رماياته أولا نحو السنة النبوية ، ثم ركزت على القرآن ، والاسلام بلا قرآن ، يكاد يكون لا شيء •

وكما فعل غلاة الفرق والمتطرفين من قبل حين أغنوا صفات الامام واستعاروا من الافلاطونية المحدثة والغنوصية تجاربهما حول العلم الباطني وتأويل النصوص المقدسة ، فقالوا بأن الامام عنده علم الباطن والتفرد بتأويل آيات القرآن الكريم ، ثم تدرجوا في عمليات تعطيل الشريعة إلى ان وصل الأمر بالفرقة السبعية إلى القول بأن الانبياء ذوي العزم هم سبعة : آدم • نوح • ابراهيم • موسى • عيسى • محمد • والقائم • وهو آخرهم وأعظمهم مكانة ، فهو الذي سيعلن القيامة العظمى ، ومعنى هذا تعطيل الشريعة والمجيء بشريعة جديدة غير الاسلام ، وفي ذلك خروج من مأزق أن النبي محمد آخر الانبياء ، والقرآن الكريم آخر الكتب المنزلة ، كذلك فعل التيار « الفلسفي » حيث بدأ بالتشكيك ، كتعطيل جزئي ، ثم تدرج إلى أن وصل إلى التعطيل الكلي باعلان فكرة خلق القرآن الكريم ، ذلك أن كل مخلوق ميت لا محالة ••••

هذه مسألة خطيرة ــ سنعرج عليها ثانية ــ[1] لا شك أن الامام الشافعي بعقله العظيم ، ووعيه الكبير ، قد أدركها أكثر من ادراكنا ، وحيث أن زعامة فكر الاسلام قد آلت اليه ، نجده لا يقر له قرار في العراق ولا في الحجاز ، حيث رأى أن يهاجر إلى قاعدة أكثر ضماناً لعمله ، وأن يترك في بغداد المهزومة من يتابع المقاومة من تلامذته ، واقتضى أمر الهجرة اختيار موقع يمكن منه الدفاع ، والاستمرار في حمل أعباء الرسالة ، وكانت بلدان

(١) لدى الحديث عن الحاكم بأمر الله • أحمد بن حنبل •

الحجاز آنئذ غير مؤهلة لذلك ، ثم بلاد الشام ، منذ قيام الثورة العباسية وظهور بواكير انقسام العالم الاسلامي إلى عالمين : عربي وأعجمي ، كانت هذه البلاد أيضاً غير مؤهلة ولا تحمل الصفات والشروط المطلوبة ، وتوفرت هذه الصفات في مصر ، وكانت شخصية مصر الاسلامية النازعة نحو الاستقلال والزعامة قد أخذت بالظهور ، وأهلها لذلك موقعها الممتاز ، وطبيعة مجتمعها المتجانس ، وتراثها العظيم ، وثرواتها الطائلة ، لهذا اختار الشافعي أرض الكنانة ، تاركاً في بغداد ، من يتولى شؤون المقاومة ، وسيتجسد ذلك في شخصية الامام أحمد بن حنبل ، أبرز تلامذة الشافعي .

وصل الشافعي إلى مصر عام ١٩٩ هـ ، وفيها وجد بغيته ، فمصر كانت دار الليث بن سعد ، ودار تلامذة الامام مالك ، وللعرب بها سلطان ، وفي مصر نال الشافعي الحظوة والفوز بنشر آرائه وعلمه وفقهه ، انما لسوء الحظ لم تطل اقامة الشافعي في مصر ، ذلك أن المنية عاجلته عام « ٢٠٤ » هـ وهو في الرابعة والخمسين من عمره ، وقد قيل فيما قيل بأنه توفي إثر ضربة من عصابة رجل عرف باسم فتيان ، ادعى التعصب لمذهب الامام مالك ، لكن يبدو أن المسألة غير ذلك ...؟

لقد كان العصر الذي عاش به الشافعي العصر الذهبي بالنسبة للفكر الاسلامي ، فيه عاش عباقرة الفكر ، وبلا شك كان الشافعي ممثل العبقرية الاسلامية في ميادين الفقه والحديث في هذا العصر ، فقد كان في غاية الذكاء بليغاً نهل من العلم طوال حياته، وأعطى ما لم يعطه غيره ، لذلك شغل العلماء في عصره وأقبل عليه التلاميذ ، ومدحه كل من عرفه ، وأثنى عليه خلقاً وعلماً وتديناً ، واخلاصاً في طلب الحقائق ، وقف حياته على العلم الاسلامي ، وعلى

العمل لنفي الشوائب التي أريد الحاقها بهذا العلم ، وبالفكر الاسلامي بشكل عـام .

فعصر الشافعي كـان عصر الجـدل ، وعلم الكلام ، ونشاط الفرق ، ومناقشة قضايا الامامة والحكم، وفضائل الصحابة وصفات الله تعالى ومشاكل القول بالقدر وغـير ذلك كثير ، وقـد اطلع الشافعي على قضايا علم الكلام وسواه ، وكان له مواقف محددة تجاه كل المسائل والقضايا ، ولقد استلهم هذه المواقف من القرآن الكريم ، ومن السنة الشريفة ، وآراء الصحابة :

لقد اعتمد فقه الشافعي على المصادر التالية :

١ ــ الكتاب والسنة اذا ثبتت .

٢ ــ الاجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة .

٣ ــ قول بعض الصحابة بلا مخالفة من قبل أحد .

٤ ــ قول من أقوال الصحابة التي فيها خلاف .

٥ ــ القياس .

وقد دمج الشافعي الكتاب والسنة ــ مع انهما ليسا شيئاً واحداً ــ لأن القرآن اشتمل على بيان الكليات ، وكثير من الجزئيات ، والسنة أتمت بيان القرآن الكريم ، وفصلت ما أجمل ، ووضحت بعض ما قد يدق على بعض العقول ادراكه ، فالشافعي وان أوضح أن السنة ليست في مرتبة القرآن ، فقد رأى أن القرآن والسنة في درجة واحدة في الاستدلال .

ولقد دافع الشافعي عن السنة دفاعاً شديداً ، ليس فقط لأن في السنة وقائع التطبيق لما جاء من تشاريع في القرآن ، بل لانه رأى قوماً من معاصريه يحملون على السنة إلى درجة عدم الاعتراف بها ، والمناداة بالاكتفاء بما جاء

في القرآن الكريم ، وقد أدرك الشافعي أن هذا الهجوم مقدمة للهجوم على القرآن ، وهذا ما كان ...

في عصر الشافعي اتجه العلماء في جميع مجالات الفكر الاسلامي نحو وضع أصول للعلوم والفنون ، انطلاقاً من أن مراحل الجمع قد انتهت ، لذلك جاءت أوقات القوانين وبناء القواعد ، ففي هذا العصر وضع الخليل بن أحمد قواعد علم العروض ، وفيه جرت محاولات الجاحظ في ميادين النقد الادبي ، ونال الفقه حظه على يد الشافعي ، فوضع قواعد علـم الأصول والاستنباط الفقهي بشكل علمي ، وبذلك لم يعد الفقه مجموعة فتاوى في نوازل واقعة أو مفترضة الوقوع .

لقد أخذ مذهب الشافعي شكله النهائي في مصر ، وحيث أن الشافعي وجد له تلاميذ في مكة والعراق ومصر ومن أهل الشام ، فان مذهبه قد انتشر في هذه البلدان ، وحمل إلى خراسان واليمن فانتشر هناك أيضاً .

الإمام سحنون

(ت : ٢٤٠هـ / ٨٥٤م)

ان الباحث المتفحص لتاريخ بلدان المغرب العربي الكبير ، يلاحظ أن الجزء الأكبر من شعوب هذه البلدان ، قد عاشت منذ الأزل على هامش التاريخ ، وظلت كذلك حتى جاء الاسلام ، فأدخلها في باب التاريخ الانساني العريض ، فجلّ المدن الداخلية للمغرب قد أسس في الإسلام ، وفي هـذه المدن ، كالقيروان ، وفاس ، ومراكش ، وسجلماسة ، وتاهرت ، صنع تاريخ الغرب الاسلامي ، وفي الحقيقة ليس من المغالاة القول بأن شخصية المغرب العربي الكبير قـد ولدت مع الفتوحات الاسلامية ، وشبت وتمت صياغـة شخصيتها في ظل الاسلام ، وعبر مراحل تاريخه العظيم ٠

لا شك أن ذلك قد جاء عن طريق اسهامات اشتركت بها عدة مؤسسات وقوى متنوعة ، لكن مهما تعددت المؤسسات والقوى نجد المالكية تتصدرها دائماً ، وحين يذكر انتشار المالكية في الغرب الاسلامي ، يذكر قبل كل شيء الإمام سحنون ومدونته ٠

والإمام سحنون هو عبد السلام بن سعيد ، غلب عليه اسم سحنون ، وقد ولد سنة١٦٠هـ لأب تنوخي أصله من جندحمص، وجلبه أبوه معه من الشام إلى القيروان ، وفي إفريقية نشأ ، وتلقى العلم على أبرز علماء بلده وتأثر بهم ، وخاصة بما حمله أسد بن الفرات من المشرق ، ودونه في أسديته عن الإمام مالك وعن أهل العراق من أصحاب أبي حنيفة ، وعندما قارب الثلاثين مـن عمره رحل سحنون في طلب العلم ، فقصد بلدان المشرق ، ولقي علماء القرن الثاني فيه وأخذ عنهم ، ولازم في مصر كبار تلاميذ الإمام مالك بن أنس ، وعلى رأسهم ابن القاسم ٠

وعلى ابن القاسم عرض سحنون المدونة الأسدية ، فعدلها وزاد عليها وجعلها مدونة جديدة ، حملها معه عند عودته إلى القيروان ، فأخذها عنه الناس ، وعم انتشارها ، ذلك أنه عقب عودته إلى القيروان أقبل عليه التلاميذ وسواهم ينهلون من معارفه ، فقد حظي الامام سحنون بمكانة سامية للغاية ، وتمكن من ذلك بفضل علمه وسلوكه، فهو رجل كان يطلب العلم لله عز وجل، وكان يرى أن العلم أولى من الجهاد ، وأكثر ثوابا ، لذلك تمكن من الشريعة الاسلامية حتى قيل في حقه : « لم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون » ، وبفضل ما اتسم به من خلق وسلوك قام على الورع الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا والتخشن في الملبس والمطعم ، والسماحة ، والكرم ، ورفض الهدايا ، وعطايا السلطان وغيره ، كان شجاعاً لا يهاب سلطاناً في حق يقوله ، وكان سليم الصدر للمؤمن ، شديداً على أهل الزيغ والبدع .

لقد احتاج الامام سحنون إلى مال كثير ينفقه على نفسه وعياله وطلبته وبعض أصدقائه ، لذلك كان يخرج إلى منطقة الساحل حيث ملك قطعة من الأرض، فكان يحرثها بنفسه ، ويقوم بخدمتها ، ثم يعود إلى القيروان، وضاق بعض طلبته بذلك ، فبلغه أحد أصدقائه الشكوى بقوله : يا أبا سعيد كيف يسعك في دينك أن تدع الطلبة وحاجتهم إليك وتخرج إلى البادية ، فتقيم بها الشهور الكثيرة؟ فأجابه: تريد أن ترى كتبي في هذا الغدير ــ وأشار إلى ماء بين يديه ؟ فقال له صديقه : وكيف ذلك ؟ قال : أحتاج إلى دراهم هؤلاء القوم ــ يريد الملوك ــ فآخذها ، فاذا أخذتها فارموا كتبي في هذا الغدير .

ورغم موقف الامام سحنون هذا بالنسبة لأخذ المال من الملوك ، ورغم قوله ناقداً لسواه : هو عند الأمير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضي ، رغم هذا كله نجده يقبل سنة ٢٣٤ هـ ، وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، تسلم منصب القضاء في القيروان ، وذلك بعد تردد شديد ، ومعارضة قاسية من بعض تلاميذه وأصدقائه .

إن استلام الإمام سحنون لمنصب القضاء له دلالتـــه ، فمن الملاحظ أن الأئمة الأوائـــل رفضوا تسلم مناصب القضاء أو سواها ، لكن تلامذتهم أقدموا علـــى التعاون مع السلطات الحاكمة ، ملاحظين أن هـــذا التعاون لا يقدح في دينهم وأماتتهم ، ويقـــدم خدمات كبرى للمسلمين ، وفي نفس الوقت يسهل انتشار مذهبهم والأخذ بأفكاره ، ولعلنا نجد مصداق هـــذا في سيرة كل من أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني صاحبي الامام أبي حنيفـــة .

لقد بقي الامام سحنون في منصب القضاء حتى وفاته سنة / ٢٤٠ هـ / وسجل التاريخ له مواقف شجاعة للغاية في احقاق الحق وانصاف المظلوم ، وإقامة ناموس الشريعة ، ولا شك أن هذا زاد من شهرته ، ومن سمو مكانته ، وجـــاء ذلك كسابقة يمكن حذوها ، وهذا ما صنعه كبار علمـــاء المالكية من تلاميـــذ سحنون بعده ، ولا شك أن هـــذا العمل يوضح سبباً من الأسباب العظمى التي مكنت المالكية من الانتشار في الغرب الإسلامي ، ومن شغل الدور الأهم في صنـــع وتوجيه الجـــزء الأكبر من أحداث تاريخ الاســـلام وحضارته ، ليس فقط في شـــمال أفريقيـــة والأندلس ، وإنمـــا في القارة الأفريقية كلها .

الإمام أحمد بن حنبل

(ت : ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م)

في تاريخ الاسلام بدأت فتوحات العراق على يد المثنى بن حارثة الشيباني وبمبادرة منه ، فالمثنى هو موجد شخصية العراق العربية الاسلامية ، وبعد فتح العراق تابعت شيبان نشاطها فأسهم أفراد منها في صنع أحداث كثيرة ، إلى أن جاء القرن الثالث للهجرة ، الذي قام فيه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، فكان هو ثم أتباعه ، المسهم الأكبر في صنع تاريخ العراق ، حتى سقوط بغداد في القرن السابع .

ولد الإمام أحمد بن حنبل في بغداد ، المدينة التي أقيمت مع ارساء أركان الدولة العباسية ، وأرادها العباسيون أن تتزعم العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً وتجارياً وعقائدياً وفكرياً ، وبذلوا في هذا السبيل جهد طاقتهم ، حتى حققوا أكبر النجاحات فاحتكرت بغداد مقاليد الحضارة الإسلامية ، فمن الملاحظ أن مذهب أبي حنيفة نشأ في الكوفة إنما انتشر من بغداد ، والاعتزال كان في البصرة أولاً ، لكن شهرته طارت من بغداد ودوره قام فيها ، والشافعي نشر مذهبه أولاً أيضاً في بغداد .

وفي بغداد حدثت الصراعات الفكرية الإسلامية العظمى ، خاصة قضية خلق القرآن الكريم ، وعلى أرض بغداد حسمت المعركة بعد طول أمد لصالح السنة الإسلامية ، وهذا ما نراه في سيرة الإمام أحمد بن حنبل .

فقد ابن حنبل والده بعد ولادته بفترة وجيزة ، فقامت أمه على تربيته وقد وجهته إلى العلم ، فحفظ القرآن الكريم ودرس العربية ، ثم اهتم بدراسة الحديث وتراث الصحابة والتابعين ، كما عرف سيرة النبي ﷺ وتاريخ

الإسلام ومنذ نعومة أظافره ظهرت علامات النبوغ عليه ، كما اتسم بالجد والجلد والعصامية .

اهتم ابن حنبل بالحديث حفظاً وتدويناً ، فأخذ عن علماء بغداد ثم قام بعدة رحلات علمية إلى البصرة والكوفة ، والحجاز واليمن ، ففي بغداد أخذ عن القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، وفي مكة التقى للمرة الأولى بالإمام الشافعي ، وفي صنعاء أخذ عن عبد الرزاق بن همام صاحب المصنف . وقام الإمام أحمد بتدوين الأحاديث والروايات التي سمعها ، فعصره كان عصر التدوين ، وقد مكنه جمعه للسنة النبوية من نيل معارف واسعة حول الشريعة وبعد ما اتصل بالشافعي تأثر بمنهجه فاستخدمه وطبقه على ما تكوّن لديه ، وهكذا اتجه إلى الفقه ، وكان ابن حنبل قد التقى بالشافعي مجدداً في العراق فلازم حلقته .

وكما سلفت الإشارة، كان المأمون قد قام باتخاذ الاعتزال مذهباً للدولة، وكانت مسألة خلق القرآن أهم شعارات الاعتزال ، وجرى جدل كبير حول هذه القضية ، تحول إلى معارك كلامية ، وعندما استشرت هذه المعارك شعرت السلطات العباسية بالخطر والخوف من قوى المعارضة ، فعمدت إلى البطش والتنكيل والإكراه بدل الاقناع العقلي ، وتورط المأمون في هذه المسألة شخصياً ، وأولاها كل اهتمامه ، ولم تشغله عنها مشاغل السياسة والحرب ، ففي سنة ٢١٧ هـ كان بالرقة متوجهاً نحو الأراضي البيزنطية ، فكتب إلى نائبه على بغداد ليرسل سبعة من علماء بغداد ، فأشخصهم إليه ، فامتحنهم بخلق القرآن الكريم ، فأجابوه بعد توقف ، فردهم إلى بغداد ، وقام نائب بغداد فجمع من كان فيها من العلماء والمحدثين فأخبرهم بما قال السبعة ، فأجاب بعض العلماء إلى ما أراد ، ورفض أحمد بن حنبل ومحمد ابن نوح باصرار ، فوجه بهما إلى المأمون الذي كان في طرسوس ، وفي الطريق توفي ابن نوح وبقي الإمام ابن حنبل وحده يسام العذاب بلا رحمة ، فصمد صمود المؤمنين ، وتوفي المأمون قبل وصول ابن حنبل إليه ، لكن

سياسته لم تمت بعده أيام المعتصم ، لذلك طرح ابن حنبل بالسجن ، وضرب بالسياط ، ولمدة ثمانية وعشرين شهراً لم تلن للإمام ابن حنبل قناة ، ولم يتزحزح عن موقفه ، حتى أشرف على الهلاك ، لذا أطلق سراحه فالتحق ببيته ولازمه حتى عوفي ، وعندما أخذ مجدداً يحدث ويفتي ، أقبل عليه الناس إقبالاً منقطع النظير ، وهم في غاية الاعجاب والتقدير لشجاعته وإيمانه .

ورأت الخلافة الخطر ما زال قائماً ، وشعرت أن اعتقال الإمام ثانية سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباه ، لذلك لجأ الخليفة الواثق الذي خلف المعتصم إلى حظر النشاط على الإمام ، كما طلب منه ترك بغداد ، واضطر الإمام إلى التخفي ، وبقي هكذا حتى توفي الواثق ، وجاء المتوكل فانتصرت السنة بعد محنة استمرت أربع عشرة سنة .

لم تكن محنة القول بخلق القرآن الكريم هي المحنة الوحيدة في حياة الإمام أحمد ، ذلك أنه عاش مع محنة الفقر والكفاف طوال حياته ، فهو كان يرفض أعطيات الحكام وصلات الخلفاء تعففاً وتديناً وزهداً ، ذلك أن الزهد كان من صفاته ، وكان زهده مشفوعاً بالاخلاص ، واخلاصه هو الذي دفعه ليس فقط للصمود في أوقات المحن ، بل هو الذي تميز به أثناء عمله تلميذاً ثم إماماً من بعد .

وفي مجال العمل العلمي ملك ابن حنبل حافظة قوية واعية ، وقد شهد معاصروه له بذلك ، وشهدوا له أيضاً بالهيبة وحسن العشرة ، وشدة الحياء والنزاهة بلا حدود، ولا عجب في تحليه بهذه الصفات، ذلك أنه علم الإسلام، وعرف سيرة النبي ﷺ وشمائله أكثر من سواه ، فاتخذ من النبي ﷺ مثلاً أعلى له ، وقاده هذا المثل نحو الكمال الانساني ، لذلك استحق الإمامة عن جدارة .

إن أهم أثر تركه لنا الإمام أحمد هو كتاب « المسند » ، وهذا الكتاب يحوي خلاصة ما رواه من آثار ، وكان الإمام قد جمع مسودته قبل وفاته ، وقام باسماع هذه المسودة إلى أبنائه وآله ، ومات قبل تبييض الكتاب ،وقد

تولى هذه العمل ابنه عبد الله ، وطريقة المسند تختلف عـن طرائق مشاهير كتب صحاح الحديث ، حيث أنه مرتب حسب ترتيب الصحابة وليس حسب أبواب الفقه ، ويحوي هذا الكتاب مادة أكبر مما جـاء في كتب الصحاح ، ونظراً لشدة تمسك الإمام أحمد بالحديث ضـد الرأي ، فقد قـال العلماء بوجود أحاديث ضعيفة الرواية في المسند .

لقد حفظ بعض تلاميذ الإمام بعض فتاويـه ، وعليهـا شيدوا مذهباً جديداً هو المذهب السني الرابع ، وقد ساعدت عدة عوامل على سيطرةأتباع هذا المذهب على شارع بغداد ، وقد استمرت هذه السيطرة عـدة قرون ، وأثرت بشكل كبير في احداث الخلافة العباسية ، ورغـم ذلك فإن المذهب الحنبلي أقل المذاهب الإسلامية انتشارا ، لكنه من جهة ثانية مـن اكبـر مذاهب الإسلام تراثاً .



الإمام البخاري

(ت : ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م)

بوفاة النبي ﷺ انقطع وحي السماء ، وواجه المسلمون مشاكل جديدة لا عهدة لهم بها ، فاجتهدوا متعاونين فأوجدوا حلاً لمشكلة الحكم بتأسيس الخلافة ، وتمكنوا من معالجة مسألة الردة ، وبعد الردة بدأت الفتوحات الكبرى ، ومع هذه الحركة كانت الأمة تواجه كل يوم الشيء الجديد .

وحيثأن الأمور تدار في الاسلام تبعاً لقاعدة « وأمرهم شورى بينهم » فقد كان الخليفة الراشدي عندما تعرض عليه المسائل يدعو : الصلاة جامعة ، فيجتمع صحابة النبي في المسجد ، فيقف بينهم خطيباً ، فيطرح عليهم المشكلة أو المشاكل المطروحة ، وكان يختتم كلمته بقوله : « هاتوا ما عندكم رحمكم الله » وهنا كان الصحابة يتقدم كل منهم برأيه ، وافترض في الرأي أساساً أن يكون نابعاً من القرآن أو من أقوال النبي وأفعاله وتقريراته ، فإذا كان نابعاً من القرآن سلم الجميع بذلك ، وإذا جعل نابعاً من أقوال النبي وأفعاله وتقريراته المشهورة سلم الجميع أيضاً ، لكن في حال عدم الشهرة ، طلب من صاحب الرأي أن يؤيد روايته عن النبي ﷺ بشهود أو بيمين على الصدق والوعي ، وحيثما كان المسلمون لا يجدون في القرآن وفي سنة النبي حلاً للمشاكل المعروضة ، كانوا يجتهدون قياساً أو يقومون بالاتفاق ، اتفاق الأكثرية ، على صيغة حل مناسب .

وهكذا نلاحظ منذ اللحظة الأولى لوفاة النبي أخذ يتأصل لدى المسلمين طريق في العمل الشريعي وأصول جمع المواد التشريعية بشكل نقدي وثائقي ، وقامت أصول التشريع على : القرآن و السنة والقياس الاجتهادي ،

وإجماع الأكثرية ، وفي العصر الراشدي حدثت في هذا السبيل انجازات كبيرة تصدرها جمع سور القرآن وآياتــه وترتيبهــا واخراجها في مصحف واحد ، والاهتمام بجمع التراث النبوي ، وأثناء جمع هذا التراث واجه العلماء الأوائل عدة مشاكل نجم غالبيتها عن محاولات للدس والتزييف بدأت حتى منذ أيام النبي بدليل قوله ﷺ « من كذب عليّ متعمداً » •

وجاء عمل العلماء الذين انكبوا على جمع التراث النبوي على شقين : الجمع ، والتوثيق ، وهكذا نجدهم قد أبدعوا طرائق رائعــة في التصنيف والنقد ، وفي البدايــة نجد العلماء أشبه بالموسوعيين إنما بعد فترة ، كملت بها أعمال جمع المواد الأولية ، بات من الضروري وضع القواعــد والقوانين الناظمة لكل علم ، والانتقال مــن الموسوعية إلى الاختصاص شبه المحدد ، وهكذا جاء إلى الوجود عدد من العلماء وقفوا جهود حياتهم كلها على صنف من صنوف العلوم الاسلامية المتطورة ، ويمكن أن نلاحظ أن علم الحديث كان أكثر العلوم « شعبية » ، والعمل في هذا العلم نال من اهتمام المسلمين مالم ينله علم آخر ، وركز الباحثون في هذا العلم جهودهم على جانبين هما : متن الحديث واسناده ، وتفرع عن هذين الفرعين عدة فروع جانبية ، ومن العلماء من اهتم بفرع خاص أكثر من سواه ، ومنهم من أولى اهتمامه جميع الفروع ، ونبغ بين العاملين في الحديث عدد من كبار العلماء يتصدرهم إذا ذكروا جميعاً خلال جميع العصور الامام البخاري •

والامام البخاري هو : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي ولاءاً ، أول من أسلم من أهله جده المغيرة على يد اليمــان الجعفي من ولاة بخــارى في العصر الأموي ، لذلك صار مولى الجعفيين ، وجاء مولد الامام البخاري في مدينة بخارى كبرى مدن منطقة ما وراء النهر ، يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة [٢١ تموز ٨١٠ م] ،وتوفي أبوه وهو صغير السن فنشأ يتيماً في حجر أمه ، ومثله مثل عدد من كبار الأئمة ممن نشأ يتيم الأب في رعاية أمه ، دفعته

أمه منذ سن مبكرة إلى مكتب أحد المعلمين ، ويحدث الامام عن نفسه فيقول: « ألهمت الحديث في المكتب ولي عشر سنين أو أقل ، ثم خرجت من المكتب بعد العشر فجعلت أختلف » إلى حلقات العلماء وخاصة علمـاء الحديث ، وظهرت منذ سنّه المبكرة قدرته على الحفظ والنقد ، فحفظ عدداً من متون كتب الحديث ، كما نال حظاً وافياً من معارف عصره وعلومه الاسلامية ،وبعيد بلوغه السادسة عشرة أخذ الطريق نحو مكة برفقة أمه وأخيه أحمد ، وكان أسن منه ، وبعد انتهاء موسم الحج عاد أخوه إلى بخارى ، بينما بقي هو في الحجاز يلتقي بكبار العلماء ويأخذ عنهم حتى قيل بأن عدد الذين أخذ عنهم بلغ ألفاً وثمانين نفساً .

وأثناء وجـوده في الحجاز وقبل أن يبلـغ العشرين من عمره شرع بالتحديث والتصنيف ، ويروى أنه صنف آنئذ كتابه « التاريخ الكبير » وقد وقفه على رجال الحديث ونقلته حتى عصره ، وقد جمع في هذا الكتاب مالم يجمعه غيره ، لذلك حظي بمكانة كبيرة واعتمد عليه كبار العلمـاء على مر العصور ، وقد جاء هذا الكتاب كمقدمة لكتابه العظيم في الحديث ، وفيه يظهر خلق الامام البخاري وشمائله النادرة بالاضافة إلى علمه ، فهو قد كان نهاية من الأدب في التجريح والتضعيف ، فإن أبلغ ما كان يقوله في الرجل المتروك أو الساقط : « فيه نظر ، أو سكتوا عنه » ونادراً ما قال عن أحـد « كذاب » .

ونال البخاري أثناء عمله شهرة واسعة وأقبل عليه الناس يسمعون منه وينهلون وتجمعت لديه كميات هائلة من الحديث قام بفحصها ونقدها ضمن شروط طورها ، وصنوف وضعها ، وخلال عمل استمر أكثر من ست عشرة سنة أخرج كتابه « الجامع الصحيح » من ستمائة ألف حديث ، وكان يرى أن الحديث ينبغي أن يكون نقله قد جاء عن الصحابي عن طريق متصل لعدد من الثقات الأثبات ، وإن جاءت روايته عن أكثر من طريق فذلك أفضـل ، ويروى عنه أنه قال : « ما وضعت في كتاب الصحيح حديثاً إلاّ اغتسلت قبل ذلك ، وصليت ركعتين »، فهو قد جمع بين الايمان والعلم، فكان مثلاً نادراً.

لقد عرف كتاب البخاري باسم صحيح البخاري ، واعتبره المسلمون أجلّ كتب الاسلام بعد كتاب الله العزيز ، وقد رتب الامام البخاري كتابه هذا على أبواب الفقه ، فكانت عدة أبوابه (كتبه) سبعاً وتسعين ، احتوت على : العبادات ، والمعاملات ، والسير والمغازي ، وأخبار المعجزات ومناقب الصحابة وسواهم إلى غير ذلك ......

واهتم المسلمون بهذا الكتاب رواية وشرحاً وحفظاً ، علماً بأن الامام البخاري لم يخله من بعض الشروح والفوائد الفقهية .

ولقد أثنى كبار علماء الاسلام على الامام البخاري ثناء ما بعده ثناء ، فقال فيه قتيبة بن سعيد : جالست الفقهاء والزهاد والعباد ، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن اسماعيل ، وهو في زمانه كعمر في الصحابة . وعنه أيضاً أنه قال : لو كان محمد بن اسماعيل في الصحابة ، لكان آية .

وقال أيضاً ، لقد رحل إليّ من شرق الأرض ومن غربها ، فما رحل إليّ مثل محمد بن اسماعيل .

وقال الامام عبد الرحمن الدارمي : قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت منهم أجمع من محمد بن اسماعيل . وقال أيضاً : هو أعلمنا وأفقهنا ، وأكثرنا طلباً . وسئل عن حديث ـ وقيل له إن البخاري صححه ـ فقال : محمد بن اسماعيل أبصر مني ، وهو أكيس خلق الله ، عقل عن الله ما أمر به ، وما نهى عنه في كتابه وعلى لسان نبيه ، إذا قرأ محمد القرآن شغل قلبه وبصره وسمعه ، وتفكر في أمثاله ، وعرف حلاله من حرامه .

وقال فيه الامام الكبير محمد بن خزيمة : ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن اسماعيل .

وقال فيه الامام أبو عيسى الترمذي : لم أر أعلم بالعلل والأسانيد من محمد بن اسماعيل البخاري •

وقال له الامام مسلم بن الحجاج : أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك ، دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الاستاذين ، وسيد المحدثين ، ويا طبيب الحديث في علله •

وقال فيه أحد علماء بغداد : لو أن أهل الاسلام اجتمعوا على أن يصيبوا آخر مثل محمد بن اسماعيل لما قدروا عليه •

وتوجه البخاري ــ بعد طول فراق ــ نحو بلدته بخارى، ولما رجع إليها نصبت له القباب على أميال من البلد ، واستقبله عامة أهلها ، حتى لم يبق أحد من أهل بخارى إلاّ خرج للترحاب به ، ونثروا عليه ــ على عادتهم ــ الدراهم والدنانير ، وفي بخارى أخذ يحدث الناس بكتاب الصحيح ، ورغب الوالي العباسي لبخارى أن يزوره البخاري ويحدث بالصحيح في قصره ، فرفض البخاري على قاعدة : العلم يطلب في مواضعه ، وقال لمبعوث الوالي : « قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين ، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر إلى مسجدي أو داري ، فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة » ويبدو أن الوالي ألح بطلبه وهدد البخاري باخراجه من بخارى إن لم يستجب له ، حتى قيل بأن البخاري دعا عليه ــ وكان مستجاب الدعوة ــ فجاء أمر بعزل الوالي من بغداد وتولية سواه •

وفي سنة ست وخمسين ومائتين أراد البخاري التوجه إلى سمرقند للتحديث بها ، وفي طريقه إليها وافته منيته ليلة عيد الفطر [٣١ ــ آب ٨٧٠م] فدفن في خرتنك على بعد أميال من سمرقند ، لكن شهرتـه ودوره العظيم العظيم كتب لهما البقاء ما دام للاسلام بقاء •

القاضي النعمان

(ت : ٣٦٣ هـ / ٩٧٤ م)

هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي يعتقد أنه كان عربي الأصل ، صريحاً لا مولى ، ويأتي اسمه في المصادر الاسماعيلية النعمان دون لقب أبي حنيفة الذي لا ندري سبباً له ولرواجه شعبياً ، فالأئمة الاسماعيليون كانوا يدعونه باسم النعمان فقط ، ولعله عرف بهذا اللقب قديماً ثم تخلى عنه فيما بعد ، ونبذه لكيلا يختلط الأمر ويلتبس ، بأبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي .

ولا نعرف تاريخ ميلاد القاضي النعمان ، ويعتقد أن ذلك كان ما بين ٢٨٣ ـــ ٢٩١ هـ ، ولا نعرف مكان ولادته ولعله كان في القيروان ، ذلك لأن أباه قد توفي في هذه المدينة عن سن عالية (مائة وأربع سنين) .

تذكر بعض المصادر بأن القاضي النعمان نشأ في بداية حياته مالكياً ثم تحول فيما بعد إلى الإسماعيلية، ويذكر البعض الآخر أنه تحول من المالكية إلى الاثني عشرية ثم إلى الاسماعيلية ، قد يكون هذا ، وهو أمر غير مؤكد ، فالأقرب إلى الصحة أن يكون نشأ اسماعيلياً ، ومن المؤكد أنه كان أعظم رجالات الدعوة الاسماعيلية قاطبة وأخصبهم انتاجاً ، وأهمهم أفكاراً ، فقد وقف حياته على خدمة الاسماعيلية منذ تجاوزه للعقد الثاني من حياته ، عندما دخل في خدمة الامام المهدي ، وظل يخدم الأئمة حتى وفاته في آخر جمادى الثانية ٣٦٣ هـ / ٢٧ آذار ٩٧٤ م .

لقد تقلب القاضي النعمان في الوظائف الفاطمية السامية منذ بداية حياته ، وهذا الأمر يدفع إلى الاعتقاد بأن أباه كان بالأصل داعياً من دعـاة

الاسماعيلية ، لذلك وجد الابن السبل مهيأة أمامه ، فتسلم أولاً وظيفة « صاحب الخبر ، ثم أمين المكتبة ، ثم صار قاضياً ، ثم قاضي القضاة » ، ويتحدث القاضي النعمان عن إلحاقه بالخلافة الفاطمية بقوله : « وخدمت المهدي بالله ، من آخر عمره تسع سنين وشهوراً وأياماً ، والامام القائم بأمر الله من بعده أيام حياته في إنهاء أخبار الحضرة إليهما في كل يوم طول تلك المدة إلا أقل الأيام » وفي نفس الوقت اختص بخدمة المنصور ثم وقف نفسه على خدمة المعز رابع الخلفاء الفاطميين .

وفي أيام المنصور الأولى ، وأثناء انشغاله باخماد ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيداد ، كان القاضي النعمان في طرابلس ، يعمل قاضياً لها ، وبعد القضاء على هذه الثورة وعندما بنى المنصور عاصمته الجديدة « صبرة المنصورية » خارج القيروان استدعى إليه القاضي النعمان « فأعلى ذكره ، ورفع قدره ، وانعم عليه من النعم بما لو أخذ في وصفه لقطع بطوله ما أراد ذكره » .

وعيَّن المنصور النعمان قاضياً « للمنصورية والقيروان وسائر مدن افريقية وأعمالها » ، وصار النعمان يقعد للقضاء في سقيفة القصر بالمنصورية ، « ثم تحول إلى مكان آخر فسيح يصل إليه الناس ويمكنهم مما يريدونه » وهكذا بعد عن باب قصر الخلافة ، لأن عمله هناك كان لا يخلو من مضايقات وتعقب ، ولهذا تعرض للملامة أكثر من مرة لتراخيه وعدم تشدده ، ومع هذا فقد تطورت خطة القاضي النعمان فصار بعد وقت قصير قاضي القضاة في الخلافة الفاطمية .

ولم تأت شهرة النعمان من ممارسته أعمال القضاء ، ولا من دوره الذي شغله في الحياة داخل قصور الخلافة خلال الحقبة الافريقية وبداية المصرية ، ولكنها جاءت بسبب ما تركه لنا من انتاج فكري عملاق ، فقد قيل بأنه صنف أكثر من أربعين كتاباً ، جاء بعضها في عدة مجلدات ، وصلنا منها حوالي نصفها ، والنصف الآخر ما زال في حكم المفقود ، أو المستور .

ويأتي على رأس كتب النعمان كتابه دعائم الإسلام مع تأويلاته ، فهو

كتاب الفقه الاساسي عند الاسماعيلية ، ثم كتاب الاقتصار ، وهو يمكن أن يعتبر اختصاراً للدعائم ، ويذهب القاضي النعمان في أعماله الفقهية إلى دعوى بأنه يعتمد على تراث آل البيت ، خاصة فقه الإمام جعفر الصادق .

وللنعمان كتب تتعلق بالمذهب الاسماعيلي ، بعضها في أصول التأويل وشروح بعض القضايا ، والبعض الآخر جاء في عرض موقف الاسماعيلية وفكرهم وسط الشيعة وفي مواجهة السنة ، ونرى هذا في كتابه « اختلاف المذاهب » ، « والأرجوزة المختارة » .

ومن أهم كتب النعمان ما حوى مادة تاريخية عن الحركة الاسماعيلية والخلافة الفاطمية ، مثل رسالة افتتاح الدعوة، والمجالس والمسايرات ، فالأول سجل فيه النعمان تاريخ الدعوة الاسماعيلية حتى قيام الخلافة الفاطمية ، والثاني وقفه النعمان بشكل رئيسي على تسجيل ما يمكن دعوته « بالحياة اليومية في دار الخلافة » أيام المعز لدين الله ، وهو على هذا وثيقة خطيرة وهامة للغاية ، فيها مادة متنوعة ذات شأن للباحث في تاريخ الفاطميين .

ونلاحظ أن القاضي النعمان يردد في كتاباته دائماً بأنه كتب عن رأي أو أمر الأئمة ، أو عرض ما كتبه على الأئمة ، وأن ما قدمه ليس من عنده ، ولكن من عند الأئمة ، وبهذا يسبغ على آرائه صفة الشرعية والتقديس ، لكن هذا في نفس الوقت يعلّل لنا وجود بعض التناقضات في أفكاره وعروضه ، التي جاءت في كثير من الأحيان تسويغية ، اعلامية ، تعبر عن رأي السلطة في وقت من الأوقات ، ويمكن أن نرى مثالاً على ذلك أحاديثه عن المهدي ، ونسبه، وموقفه من أبي عبد الله الداعي ، ومثالاً آخر في بعض الأفكار المتدنية السخيفة التي كان لا يمكن أن تصدر عن الشموخ العقلي والجبروت الفكري للقاضي النعمان .

ولقد كان أثر النعمان في الفكر الاسماعيلي والتاريخ الفاطمي عظيماً إلى حد أنه أسس سلالة تحكمت من بعده بقضاء الخلافة الفاطمية فترة طويلة من الزمن ، وأن كتاباته ما زالت مصدراً ثميناً من مصادر الفكر الاسلامي في فترة سيطر فيها الاسماعيلية على هذا الفكر وتحكموا بمقاليده .

المثنى بن حارثة الشيباني

مؤسس العراق العربي وموجده
(ت : ١٤ هـ / ٦٣٥ م)

كانت منطقـة العراق في القرن السابع للميلاد خاضعة للامبراطورية الساسانية الفارسية ، وكانت هذه الامبراطورية قد ساعدت في عصور سابقة على قيام إمارة عربية في منطقة الحيرة ، لكن عند قيام الاسلام كانت هـذه الامارة ليست موجودة فعلاً ، كما أن الامبراطورية الساسانية كانت في القرن السابع تعاني من مشاكل داخلية سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة ، إنما رغم كل ذلك كانت ما تزال على درجة كبيرة من القوة ولديها جيوش كبيرة جيدة التسليح والتدريب .

وكانت منطقة وادي الرافدين مرتعاً للقبائل العربية منذ فترات طويلة سبقت القرن السابع، كما أن سكان العراق ،وخاصة سواد الشعب في الأرياف والمدن كانوا من أصل ممتزج بالعـرب ، وكانوا يكرهون الفرس ، وعلـى استعداد للتعاون مع أية قوة تنقذهم منهم ، ولقد كانت القبائل العربية في صراع دائم مع الامبراطورية الفارسية ، وعندما كان النبي محمد ﷺ يبشر بالاسلام حققت هذه القبائل نصراً كبيراً على الفرس في معركة ذي قار ، وكانت قبائل بكر بن وائل أعظم قبائل العرب المعادية للفرس ، يليها بذلك تميم ، وعندما عم الاسلام شبه جزيرة العرب تأثرت قبائل العراق بالاسلام وتبناه عدد كبير من أفرادها ، كما وفد على النبي عدد من زعماء هذه القبائل كان منهم المثنى بن حارثة الشيباني ومذعور بن عدي العجلي .

ويستدل من بعض الروايات المبكرة أن المثنى نشط في العمل العسكري والجهاد ضـد فارس منذ أواخر عصر النبي ﷺ ، واستمر بنشاطـه دون

توقف مع تسلم أبي بكر للخلافة ، وظل « يغير على أهل فارس بالسواد ، فبلغ أبا بكر والمسلمين خبره ، فقال عمر : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فقال له قيس بن عاصم : أما إنــه غير خامل الذكــر ، ولا مجهول النسب ، ولا قليل العدد ، ولا ذليل العمارة ، ذلك المثنى بن حارثة الشيباني ، ثم إن المثنى قدم على أبي بكر » ومعه مذعور بن عدي العجلي ، وحرملة بن مريطة الحنظلي ، وسلمى بن القين الحنظلي وقالوا له : « إنا معاشر بني تميم وبكر بن وائل قد دربنا بقتال فارس ، وأشجيناهم حتى اتخذوا الخنادق وعيقوا المياه ، واتخذوا المسالح في القصور المشيدة وتحصنوا بها منا » .

ويبدو أن هذا اللقاء كان سنة ١١ هـ / ٦٣٢ م ، أثناء انشغال المسلمين بحروب الردة ، ورغم ذلك فقد كتب الخليفة للمثنى ورفاقه عهداً فوض لهم فيه العمل ضد فارس لصالح الأمة الاسلامية ودولتها ، واعتبر المثنى قائداً ومسؤولاً عن العمليات في جبهة العراق ، التي افتتح الآن العمل فيها رسمياً ، فكانت أول جبهات الفتوح في عصر الخلفاء الراشدين .

وتجمع حول المثنى ما يقارب الأربعة آلاف مقاتل ، أخذ يغير بهم على مسالح الحدود الفارسية ، وفق خطة محكمة ، استهدفت ارباك العدو ونشر الرعب بين صفوفه ، واستهدف المثنى فيما استهدف أيضاً أن يسمع رجالات قبائل العرب بنجاحاته ليقبلوا على الانضمام إليه .

ولم يكتف المثنى بالنشاط في مناطق الحدود بل لجأ إلى القيام بغارات في عمق الأراضي الساسانية ، ولعل أشهر الغارات في العمق غارته على منطقة بغــداد التي كانت تبعد مسافة قصيرة عن « مدائن كسرى » عاصمة الملك الساساني ، فقــد كان يعقــد في بغداد سوق كــل سنة مرة ، يأتيــه تجار الامبراطورية الساسانية من جميع المناطق ، وقاد المثنى جمهرة من فرسانه وأخذ الطريق نحو الأنبــار ، ومن هناك توجه نحو سوق بغداد في رحــلة استغرقت عدة أيام ، وقبل بغداد ببضعة أميال بات المثنى ليلته ، ثم سار بجنده فصبح التجار « في أسواقهم فوضع فيهم السيف فقتل وأخذ الأموال وقال

لأصحابه : لا تأخذوا إلاّ الذهب والفضة ومن المتاع ما يقدر الرجل منكم على حمله على دابته ، وهرب الناس وتركوا أمتعتهم وأموالهم ، وملأ المسلمون أيديهم من الصفراء والبيضاء ، ثم رجع راجعاً حتى نزل بنهر السالحين ، فقال للمسلمين : إحمدوا الله الذي سلمكم وغنمكم ، انزلوا فاعلفوا خيلكم من هذا القصب وعلقوا عليها ، وأصيبوا من أزوادكم ، ثم سار ، وسمع القوم يهمس بعضهم إلى بعض إن القوم سراع الآن في طلبنا ، قال : قبح الله ما تتناجون به ، أيسّر بعضكم إلى بعض، تحسبونهم الآن في طلبكم، فوالله لو كان الصريخ قد بلغهم الآن إنه لكثير ، ولو كان الصريخ عندهم لبلغهم من رعب غارتنا عليهم إلى جنب مدائنهم ما يشغلهم عن طلبنا حتى نلحق معسكرنا وجماعتنا ، ولو كان بهم من القوة ما يحملهم على طلبنا ، ثم جهدوا جهدهم ما أدركونا ، نحن على الجياد العراب وهم على المقارف البطاء ، ولو أنهم طلبونا فأدركونا لم نقاتلهم إلاّ التماس الثواب ، ورجاء النصر ، عمركم الله ، لقد نصرتم عليهم وهم أكثر منكم وأعز » .

وحققت غارات المثنى نجاحات كبرى دفعت الامبراطورية الساسانية إلى حشد الجيوش الكبيرة ضده ، فاضطر إلى طلب المدد من أبي بكر ، وكانت حروب الردة قد انتهت بفوز ساحق للمسلمين ، لذلك أمده أبو بكر بخالد بن الوليد ، وفوض إلى خالد قيادة جبهة العراق .

وقدم خالد العراق حيث نظم العمليات هناك ، وجعل الجبهة عبارة عن قطاعات أوكل كل قطاع لقبيلة وقائد ، وخلال أقل من عام استطاع خالد يعاونه المثنى أن يحققا عدداً كبيراً من الانتصارات خاصة في حوض الفرات ، ضد الحاميات والجيوش الفارسية وضد المتعاونين معها من قبائل العرب ، وقد وصلت غارات العرب إلى منطقة البشر وأطراف الحدود الفارسية البيزنطية ، وقد تتوجت أعمال المثنى وخالد بحصار مدينة الحيرة والاستيلاء عليها صلحاً.

ولم يطل مكوث خالد بالعراق حيث أمره أبو بكر بالتحول إلى الشام ،

ونفذ خالد ما أمر به ، وقام باقتسام القوات والقادة مع المثنى وتوجه إلى الشام ، وهكذا عاد المثنى مجدداً للانفراد بقيادة جبهة العراق ٠

وثانية لم تمتد قيادة المثنى للجبهة العراقية طويلاً ، حيث توفي الصديق وخلفه الفاروق عمر فابتدأ أعماله بعزل كل من المثنى وخالد عن القيادة العامة لجبهتيهما ، وانتدب الناس إلى العراق وعين أبا عبيد الثقفي قائداً جديداً لجبهة العراق ، وكان متحمساً فيه اندفاع دون روية ، ومعروف أن الحرب تحتاج قبل الشجاعة إلى الروية والتدبر والحكمة والبراعة والبصيرة ، وحيث أنه افتقر إلى معظم هذه الصفات ، لذلك كانت أول أعماله وآخرها على جبهة العراق انتكاسة كبيرة للعرب كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات ، وذلك في معركة الجسر في قس الناطف على الفرات ، وقتل في هذه المعركة جمع كبير جداً من القوات العربية ، وكان بينهم أبو عبيد نفسه ، وكاد الجيش العربي يباد بأسره قتلاً وغرقاً ، لكن المثنى استطاع بفضل حنكته واقدامه تخليص العرب من الفناء والانسحاب ، فقد أعاد وصل الجسر المقام على الفرات ، وغطى عملية الانسحاب بنفسه ، بعد أن نال العديد من الجراحات الكبيرة ٠

وأثرت هزيمة الجسر تأثيراً كبيراً على العرب ومعنويات جندهم ، وثبت المثنى مع قومه واتباعه وحدهم أمام الضغط الفارسي المزداد حدة ، وحال بذلك دون الانهيار الكامل والكارثة العظمى ٠ وأخذ عمر بن الخطاب في الحجاز يندب الناس للذهاب إلى العراق « فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه » ، ثم لجأ إلى استخراج قبيلة بجيلة من بين قبائل العرب وأعاد تشكيلها تحت لواء جرير بن عبد الله البجلي ، مع قوة صغيرة من قبائل الأزد واعداً أياهم بكمية زائدة من الأنفال ٠

وعندما وصلت هذه القوات إلى العراق مكنت المثنى من الانتقام لهزيمة يوم الجسر ، وذلك في معركة البويب الكبرى ، وحدث هذا كله سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ ــ ٦٣٥ م ، أي في السنة الأولى من خلافة عمر بن الخطاب ،

وبعد نصر البويب عاد العرب فاستردوا ما خسروه مسبقاً واجتاحوا أراضي جديدة ، وتدفق المقاتلون مجدداً على العراق ، وعاد الحال كما وصفه المثنى بقوله : « قد قاتلت العرب والعجم في الجاهلية والاسلام ، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشد عليّ من ألف من العرب ولمائة اليوم من العرب أشد عليّ من ألف من العجم ، إن الله أذهب مصدوقتهم ووهن كيدهم ، فلا يهولنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسي فجّ ، ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم ، أين ما وجهتموها اتجهت » .

لقد جاءت أحاديث المثنى عقب نصر البويب بمثابة وصية لقومه الذين أخذوا يعدون العدة لخوض المعركة الفاصلة ضد الفرس ، ذلك أن جراحه التي أصيب بها يوم الجسر انتقضت عليه فتوفي متأثراً بها ، وبعد وفاته بأمد قصير خاض العرب معركة القادسية ونجحوا في اسقاط الامبراطورية الساسانية ، وكان ما فعلوه إلى حد كبير قطفاً لثمار جهود المثنى مؤسس العراق العربي وموجد شخصيته التاريخية .



خالد بن الوليد

(ت : ٢١ هـ / ٦٤٢ م)

لتفتحن الشام ، ويهرب هرقل إلى أقصى مملكته ، فتظهرون على الشام فلا ينازعكم أحد ، ولتفتحن اليمن وليفتحن هذا المشرق ، ويقتل كسرى بعده •

النبي ﷺ
مغازي الواقدي : ٣ / ٤٠٥

يرتبط خلود الإنسان بعظيم الانجازات التي يصنعها أثناء حياته ، فمن الأعمال ما هو كالشرر يتطاير في كل مكان ، فيسبب الحريق لكل ما حوله ثم ما يلبث أن يخمد ، ومن الأعمال ما يدوم تأثيره ولا ينمحي ، وبهذا ينال صفة الخلود ، وفي تاريخ الانسانية المديد ، حدثت أعمال كبرى كثيرة ، ووجد عدد لا يحصى من العظماء في السياسة والحرب والعلوم والآداب وغير ذلك، إنما يلاحظ أن صفة الخلود لم تكتب إلاّ لقلة من الرجال ارتبطت أعمالهم وانجازاتهم بعقيدة ، أو وجهت من قبل ديانة من الديانات •

فإذا كان الشرق مهد أول الحضارات،فهو أيضاً مهد الديانات الكبرى منها والصغرى ، ولقد مر بالشرق أحداث كبار ، وشهد تقلبات لا حصر لها ولا عد ، جاءت حكومات ، وقامت أنظمة ، ووضعت قوانين ، وشيدت قصور وصروح ، ثم زال ذلك كله وبدل وطمست معالمه ، وقد حل هذا كله بكل شيء إلاّ بالديانات ، فما من ديانة طمست معالمها نهائياً ، وما من ديانة إلاّ واستمرت بعضاً أو كلاً •

وختمت الديانات جميعها بالإسلام ، ذلك أن الله تعالى بعث نبيه ﷺ ليتمم مكارم الاخلاق ، بعثه بالشريعة الكاملة الشاملة ، وقد بيّن الله تعالى

بأنه هو الذي بعث نبيه بالحنيفية السمحة ، وأنه جل وعلا سيحفظ هــذه الشريعة حتى يرث الأرض ومن عليها .

لهذا نلاحظ في تاريخ الشرق وأجزاء كبيرة من العالم ، أنه منذ ظهور الإسلام، أصبح كل عمل أنجز في سبيل الله قد كتب له الخلود ، وكل ما سواه مقدر عليه الفناء واللعنة ، ومن هذا المنطلق وعلى أساسه يمكن أن نبحث في حياة خالد بن الوليد ، ونعرف سر نجاحاته وسبب خلوده المطلق .

ولد خالد بن الوليد في مكة ، ربما في أواخر القرن السادس للميلاد ، وفيها نشأ فكان أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وقد أسندت قريش إليه « القبــة والأعنة » ، « فأما القبــة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون بــه الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان يوجــد على خيول قريش في الحروب » .

لقد دخل خالد بن الوليد رحاب التاريخ لا بسبب وظيفته هذه ، لكن حدث ذلك يوم اتصل بالدعوة الإسلامية وقامت له علاقة بها ، وكان ذلك في البداية عدائياً يوم أحد ، لكنه ما لبث أن تحول إلى شكله الصحيح ، وحدث ذلك كما هو مرجّح سنة ثمان للهجرة ، ففي هذه السنة هاجر خالد إلى النبي ﷺ ودخل في الإسلام ، ومنذ ذلك الوقت صار أبرز قادة الأمة الإسلاميــة العسكرية ، واعتبره النبي ﷺ سيف الله ســلّه على الــكفار والمنافقين ، ولهذا لم يعرف الهزيمة قط ، فسيف الله لا يهزم .

إن خلود خالد بن الوليد مرتبط بدوره الذي أداه في حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى ، ولا يمكن لهذا الدور أن يفهم دون التعرف إلى قضية الفتوحات، وهذه القضية معجزة التاريخ الانساني الكبرى، ومعضلته المحيرة، التي يصعب حل جميع ألغازها ، وتقوم مشكلتها على عدة مسائل أهمها :

١ ــ كيف استطاعت جموع غالبيتها من بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب ، لا تتقن إلاّ مبادىء بسيطة في القتال وليس لديها سابق تجربة في

خوض معارك عظمى ضد جيوش نظامية مدربة ، ثم هي لا تملك إلا بعض الأسلحة الخفيفة ، سيئة الصنع ، قهر الجيوش النظامية المدربة لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك .

٢ ــ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري إلى احتلال دائم ، مرج الأرض ومن عليها ، وغير معالم الإنسان في الزمان والمكان وذلك لأول مرة في التاريخ ، وجاء بإنسان جديد أبدع الحضارة العربية الإسلامية .

٣ ــ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة ، وهدف معلوم أم جاء ذلك بمحض الصدفة ، ونجح وتطور بعامل الزمن .

٤ ــ ما هو المحرك الذي دفع إلى الفتح ، وساعد عليه ، وأبقى حركته حيّة فيها حرارة وتدفق مستمران .

وفي محاولة للإجابة على مجموع هذه الأسئلة ، وغيرها ، نجد أن مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين وغير مسلمين ــ وغالبيتهم كتب في ظل مدرسة التفسير الغيبي للتاريخ ــ عزوا أمر نجاح العرب في فتوحاتهم ، وأرجعوا سره إلى قوى غيبية ، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقاً لإرادة الله ، حين بعث نبيه محمداً رحمة للعالمين ، وهادياً للبشر أجمعين من كل جنس ولون ، في كل بقاع الأرض ، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر ، وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل أمم الأرض ورأى المؤرخ غير المسلم ــ خاصة في أوربا ــ أن سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية ، ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم .

ولقد اعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى ، أن الذي حرك العرب ودفعهم في سبيل الفتح ومكّنهم من تحويل القهر إلى إحتلال دائم غيّر الانسان والمكان ، هو الإسلام ، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمداً ، وعلى هذا كانت أعمال الفتح جهاداً في سبيل الله ، وكان هدف الفتح إعلاء كلمة الله ، وإحلال التوحيد محل الشرك ، والإيمان مكان الكفر ، ويرى هؤلاء أن النبي ﷺ قد وضع خطة واضحة للفتوح ، ويدللون على ذلك بما

جاء في القرآن ، وفي أقواله وأعماله ، ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام ، وجيش أسامة بن زيد ، آخر جيوشه الذي انطلق في مهمته بعد وفاته ﷺ .

ولقد استخف المؤرخ الحديث بهذه التعليلات ، ورفض بعضها ، وبات يفتش عن أسباب أخرى ، وتمت أمور الرفض والتفتيش هذه أول ما تمت في أوربة الغربية ، وعلى أيدي باحثين غربيين ، ثـم قلدت في المشرق العربي والبلاد الإسلامية ، ولم تعد أعمال المشارقة التقليد الممسوخ لما تم في الغرب .

وكانت أعمال البحث في التاريخ الإسلامي قد بدأت مع تطور النهضة في أوربا ، وهذه النهضة مرت بمراحل كانت أولها أعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان ، ثم تبع ذلك قيام القوميات الأوربية ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في أوربة مع مدارس التفسير الاقتصادي ، لهذا رفضت أول الأبحاث الأوربية العامل الديني ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الإسلامية ، وعزت انتصار العرب إلى ضعف بيزنطـة وفارس من حروبهما المستمرة ، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الإسلامية وقيـام الدولة العربية ، ما كان إلاّ ثمرات تحرك القومية العربية على يد النبي محمد ﷺ ، موحد العرب الأول وقائدهم القومي الأعلى ، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم ، ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام ، وإننا لنرى في كتابات كايتاني ، ثم فلهوزن ، وبعد ذلك كاهن وكابريلي ولويس وباليف أمثلة شاهدة على هذا التطور .

والعيب المميت في أبحاث كل هؤلاء ــ رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة ــ هو أن أصحابها بحثـوا في تاريخ الفتوحات العربيـة ، وتاريخ الإسلام لا لاكتشاف حقيقة ما حصل ، كما تروي أخباره المـواد التاريخية الاخبارية ، وإنما للبرهنة على صحة صورة مسبقة ، قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث ، ومدارس التفسير ، ومثل هذا التطبيق هو إنحراف عن الواقع ، وتشويه وتزوير ، فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد إخبارية تاريخية

عن أعمال الفتوح العربية ، لوجدناها خالية من أخبار تتحدث عن أية أزمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن النبي ﷺ وزمن أبي بكر ، ثم إن محمداً ﷺ كان نبياً للإسلام ، وليس نبياً بعث للعرب فقط ، نبياً وحد العرب من أجل التبشير به عالمياً ، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله ، وإعلاء كلمته ، وليس غير ذلك .

إن حدث الفتوحات هــو حدث تاريخي كامل ، ومعلوم أن الحــدث التاريخي هو ما كان بطله إنسان أو وراءه إنسان ، وكل حدث ليس فيه إنسان ليس بتاريخ ، فصراع حيوانات الغابة ، وأسماك المحيطات لا يمكن عدّه حوادث تاريخية ، والإنسان هذا المخلوق العجيب فيــه مجموعة من القوى والحواس والعوامل ، وهي متقلبة غير ثابتة ومتحولة ، وحياة الإنسان فيها طعام ، وتفكير ، وحروب ، وعلوم وآداب وفنون ، وعبادات ، وسياسة ، وإدارة ، وغرائز مختلفة وقوى متشعبة ، إلى غير ذلك ، والإنسان الذي فقد إحدى حواسه أو قواه وغرائزه ليس كاملاً بل فيه عاهة ، وذوي العاهات بين البشر أقلية ، ولهذا إن تعليل حدث تاريخي ـ بطله الانسان ـ اقتصادياً فقط أو دينياً ، أو غريزياً ، أو ... ، أو ... فقط فيه تشويه وبتر ، واعتماده كمن يعتبر ذوي العاهات بين البشر هم الأكثرية ، إن الحدث التاريخي الكامل مثله مثل الرقم الكامل ، يمكن أن يحوي نسباً من الفعاليات مختلفة ومتباينة متحولة ، ولكنها غــير متجمدة ولا متبلورة ، ولقيام أي حدث لا بــد من محرض أو دافع ، لكن هذا لا يكفي لوحده ، فالشعور بالجوع غير كاف للدفع إلى نيل الطعام ، والشعور بالظلم والاستغلال لا يؤدي دائماً إلى الثورة ، ثم حدوث الثورة لا يعني نجاحها ، وأكل الطعام لا يعني نهاية الجوع ونيل العافية ، وعليه إذا قلنا لا بد من محرض ، تتبع ذلك بالقول بأنه لا بد بعد ذلك من إرادة للتنفيذ ، وعزيمة على التحرك ، ثم قدرة على التطبيق قائمة على خطة ، وبعد هذا قد يحصل نجاح أولي ، يكتب له التأثير الدائم والخلود إذا ما حوّل إلى نجاح دائم .

ومسلم به أن المحرض على الفتوح هو الإسلام ، فالفتوحات قامت إثر قيام الاسلام وباسمه وبسببه ، ولا شك أن عقيدة الجهاد في الاسلام كانت هي المحرض ، فالاسلام قد مزج بين المفاهيم ، والفتوحات قد تمت بأيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال ، فكان كل واحد منهم يقول : « إن لربك عليك حقاً ، وإن لجسمك حقاً ، وان لزوجك عليك حقاً ، فأعطي كل ذي حق حقه » ، ولعل سر نجاح المسلمين العظيم يكمن في العمل على الأرض والقلب مشدود إلى السماء ، ولقد استطاع المسلمون أن يعمل كل منهم في سبيل دنياه كأنه يعيش أبداً ، وكان العمل الدنيوي عملاً في سبيل الآخرة ، كأن صاحبه سيموت غداً ، فالإسلام قد مزج المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني ، فكان كل عمل يقوم به الانسان حتى متعته الفردية عملاً تعبدياً ، يمكن أن يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى ، وفي قانون القتال عند المسلمين إذا كسب المسلم المعركة فينال كمية كبيرة من الغنائم ، وثواباً عظيماً ، وإذا ما قتل فإنه يذهب شهيداً إلى جنان النعيم ، والشهداء في الاسلام أحياء عند ربهم يرزقون .

على هذا تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها أعلى من بعض ، ويتبعون عدة غايات بعضها أرفع من بعض ، باعثهم الأول العقيدة ، وغايتهم المثلى نشرها ، لكن هذا النشر من أجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر ، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله ، والقرار في الجنة ، حيث الهناءالأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء .

وبعد معرفة المحرض والدافع على عزيمة التحرك لنبدأ الآن بالحديث عن التطبيق الذي يرتبط بخطط القتال ، والسلاح والتدريب والنظام ، وما تم أثناء التحام الجيوش وبعد ذلك ...

بدأت أعمال الفتوحات أولاً على جبهة العراق ، وكانت العراق خاضعة للامبراطورية الساسانية، فبعد وفاة النبي ﷺ وأثناء انشغال المسلمين بحروب الردة ، زار المدينة المثنى بن حارثة الشيباني ، الذي كان واحداً من زعماء

قبيلة شيبان ، صاحبة الفضل في النصر يوم ذي قار ، واتصل بأبي بكر ، ففوضه بمبادرة العمل العسكري ضد الفرس ، وعندما قضي على حركة الردة، أمر أبو بكر خالد بن الوليد بالتوجه نحو العراق ، والتعاون مع المثنى، وكان هذا سنة ١٢ هـ / ٦٣٣ م ٠

وفي خلال أقل من عام واحد استطاع خالد بمعاونة المثنى ، تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية ، مع القوات التي جاءت لنجدتها ، وتتوج عملهما بحصار مدينة الحيرة ، حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحاً ، وقام أبو بكر بإمداد خالد بقوات جديدة ، وجعله قائداً أعلى لجميع القوات العربية في جبهة العراق ، لكن مكوث خالد لم يطل في العراق، حيث جاءته أوامر الخليفة بالتحول إلى بلاد الشام ، حيث سيقوم بجليل أعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة ٠

فحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس ، كانت كتائب أخرى تعمل ضد الدولة البيزنطية أيضاً ، وقواتها في بلاد الشام ، وكانت الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام قد بدأت منذ أيام الرسول ، وكانت آخر قوة جهزها ﷺ قبل وفاته أراد إرسالها ضد بلاد الشام ثم توفي ، فكانت أول الجيوش التي تحركت زمن أبي بكر ، وعلى الرغم من هذا فإن حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطة في الشام لفترة وجيزة ، وبعد القضاء على الردة ، بدأت الأعمال العسكرية هناك ، لكن بعد أن بدأت في العراق بعدة أشهر ٠

ففي سنة ١٣ هـ / ٦٣٤ م استنفر أبو بكر العرب في بقاع الجزيرة ، وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة آلاف مقاتل ، ثم أمدها إلى أن وصلت إلى السبعة ، وجعل على رأس هذه الجيوش يزيد بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعمرو بن العاص ، وأرفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير الصحابة والمسلمين ، مثل أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن سعيد بن العاص ، ويبدو أن مهمة أبي عبيدة كانت العمل بوظيفة ضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة ، وصلة وصل لها بالمدينة المنورة ، ولم تتحرك هذه الجيوش

كتلة واحدة ، وإنما جاء تحركها علـى دفعات ، كل دفعة ذهبت في اتجـاه معين ، ويرى البعض أن سبب ذلك يعود إلى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش ، فتح أم أعمال غارة ، وأن أبا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة ، فيدفعها نحـو بلاد الشام ، تخلصاً منها ، وحتى ترى حظها ، وكان يستجيب لتطورات الأحوال .

والذي يبدو أن واقع الحال لم يكن هكذا ، فأبو بكر مع أعوانه في المدينة ، كانوا يملكون معرفـة جغرافية جيدة عن بلاد الشام والعراق ، مع تصور ومعرفة لا بأس بها للعالم ، المتحضر كله ، فشبه جزيرة العرب يمكن النفاذ منها براً إلى العالم : إما عن طريق العراق ، أو عن طريق الشام ، ومن العراق بعدما يجتاز المرء الدجلة يمضي إلى المشرق ، كما يمكن أن يسافر الإنسان من العراق إلى الجزيرة فأرمينية ومن ثم إلى شواطىء البحر الأسود وهكذا ، ومن الشام يمكن للإنسان أن يمضي من جنوبه إلى مصر فالشمال الأفريقي مع أفريقية ، ثم إلى أوربة ، كمـا يمكن للإنسان أن يخترق وسط الشام إلى الجزيرة ، فأرمينية ومن ثم إلى شواطىء البحر الأسود وهكذا ، ويمكن أيضاً أن يماشي الإنسان الساحل الشامي صعوداً إلى الشمال إلى آسية الصغرى ، وحتى القسطنطينية وهكذا ...

لقد أرسل أبو بكر جيشاً واحداً إلى العراق ، ومعلوم أن هذا الجيش انقسم بعد القادسية إلى قسمين : واحـد عسكر في الكوفة ، والآخر في البصرة ، وكانت فتوحات إيران وخراسان وما وراء النهر مسؤولية جنـد البصرة، في حين أن جند الكوفة ماشوا الفرات صعوداً حتى الجزيرة فأرمينية.

وأيضاً أرسل أبو بكر ثلاثة جيوش إلى الشام ، فجيش عمرو بن العاص هو الذي تولى شأن فلسطين ، وهو الذي فتح مصر بعد ذلك ، ومنها مضى فاتحاً إلى الأندلس ، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان فهو الجيش الذي اجتاز طوروس بعـد اليرموك ، وهـو الذي حاصر القسطنطينية مراراً ، وجيش شرحبيل هو الذي خرق وسط الشام ، ومضى إلى الجزيرة حيث التحم مع القوات القادمة من العراق ، وهو لا شك جيش أرمينية وجبهة الخزر .

نحن حين نرى الأمور بهذا المنظار العلمي الموثق ، ندرك أن قيادة المدينة كانت تنفذ خطة واضحة المعالم دقيقة للغاية استهدفت فتح العالم ، ونشر الإسلام فيه ، ويمكن أن نضيف بعد هذا أن أبا بكر لم يدفع قواته تخلصاً منها ، إنما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة ، قامت على العقيدة القتالية لعرب شبه الجزيرة ، وهذه العقيدة قد أخذت في اعتبارها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال ، وأيضاً طبيعة القوات البيزنطية والساسانية من كافة النواحي .

لقد جند أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة ، وأفراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة ، ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم ، وكانت أسلحتهم خفيفة ، ومؤنهم قليلة للغاية ، وبكلمة موجزة ، كانت قوات أبي بكر قواتاً غير نظامية ، وغير محترفة ، وقع عليها واجب قتال الجيوش النظامية لأعرق الامبراطوريات في معرفة فنون القتال والزحف والتعبئة ، ولهذا كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات المعادية ، ثم إنهاك هذه القوات ، وإضعاف معنوياتها ، وأخيراً إنزال ضربة قاصمة وسريعة بها ، وكان هذا ما حصل في الشام بشكل خاص .

فإلى الشام أرسل أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها ، ولتجبر قوات بيزنطة على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة ، وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية ، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطة في أكثر من معركة كبيرة ، كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك .

إن عمل الوحدات الصغيرة ، ضد الجيش النظامي البيزنطي ، لم يوجد حلاً لمشاكل التموين ، وأربك العدو فقط ، لكن مكّن أيضاً من جمع معلومات عن الأرض والعدو ، كما سهل فصل المحكومين « الرعية » عن الحكام بعدما أظهر عجز هؤلاء الحكام ، وهذا ما يعلل كثرة المعاهدات التي

صنعها العرب مع حكام القـرى والجماعات الصغيرة والمتوفرة أخبارها في المصادر ، ثم فوق هذا كله إن الغارات المتوالية لا شك قـد بث الرعب في صفوف الخصم وأنزلت معنويات جنده إلى الحضيض ، وجاء ذلك تطبيقاً لقوله ﷺ : نصرت بالرعب من مسيرة شهر .

يبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكاً الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها ، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينـة ، تبوك ، معان ، فوادي الأردن ، واصطدمت هـذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها ، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيماً في حمص ، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية ، وأنباء انتصاراتها ، وهزائم قواته ، حرك قواتاً ضخمة بقيادة أخيـه تيودور ووصلت أخبـار التحرك البيزنطي هذه إلى العرب ، فكتب أبو عبيدة بخبرها إلى أبي بكر ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد : « أما بعد ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فدع العراق ، وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه ، وامض متخففاً في أهل القوة من أصحابك ، الذين قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق ، وقدموا عليك من الحجاز ، حتى تأتي الشام ، فتلقى أبا عبيدة ، ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة ، والسلام عليك » .

واستجاب خالد للأوامر ، وتحرك نحو الشام ، فاجتاز الصحراء بسرعة مدهشة ، وكان عبوره على الطريق القديم المهجور الذي كان يصل تدمر بالعراق ، وجاء هـذا العبور من أعظم الأعمال العسكرية ، وأكثرها مغامرة وشجاعة ، وهو دليل على معرفة جغرافية عميقة لدى المسلمين ، فقد ظهر خالد بشكل مفاجىء في صحراء تدمر ، ثم في منطقة دمشق وجنوب بلاد الشام ، فهاجم بصرى ، وهزم حاميتها ثم صالح أهلها ، وهكذا صار سيداً لمنطقة حوران ، وأربك ظهور خالد هذا تيودور ، وأوقعه بين نارين ، فكان سبب إخفاق مهمته ، وبعثت أعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية ، ومن حوران راسل أمراء الجيوش العربية ، وطلب منهم أن يلاقوه جميعاً في منطقة أجنادين ليس بعيداً عن الرملة .

وفي أجنــادين التقت القوات العربيــة المتحدة التــي قاربت الخمس والعشرين ألفــاً من المقاتلين مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور وكانت هذه القوات تفوق القوات العربيــة عَدداً وعُدداً ، وهَزم خالد البيزنطيين ، وألحق بتيودور العار ، وجعله يفر نحو أخيه ، فسبب رحيــل الامبراطور عن حمص نحو انطاكية لجمع جيش جديد، وإرساله ضد المسلمين لمنعهم من التقدم شمالاً .

وسقط بين القتلى في أجنادين حاكم فلسطين البيزنطي ، وقد حررت هذه المعركــة فلسطين من الحــكم البيزنطي ، وأعادتها عربيــة الشعب والحكم والعقيدة ، وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق ، وقد حدثت هذه الوقائع كلها سنة ١٣ هـ / ٧٣٤ م في أواخر حياة أبي بكر .

وبعد أجنادين أصبح الطريق مفتوحاً أمام العرب للتحرك نحو دمشق ، وقبيل مشارف دمشق ، هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين عنيفتين للغايــة في مرج الصُفّر وفَحل ، ووصلوا أسوار دمشق وأخذوا في حصارها .

وفي هذه الأثناء وصلتهم أخبار وفــاة أبي بكر ، واستخلاف عمر بن الخطاب ، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربيــة في الشام ، لأنه كان حريصاً على منع الجند من التدخل في شؤون السياسة والحكم ، ويهمه مصالح الأمة فوق مصالح الفرد وشهرة البطل ، وقد أحل أبا عبيدة بن الجراح محل خالد ، ولم يحدث هذا العزل تأثــيراً على وضع القوات العربية، إذ بقي خالد القائد الفعلي بشكل مؤثر،حيث أن أبا عبيدةكان لا يقدم على عمل إلا بعد مشورة خالد ، ثم بعد ذلك كان يوكل إليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه .

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة ، سقطت بعدها سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالاً فتجاوزت منطقة مدينة حمــاة ،

واستمر بالتقدم شمالاً ، وأخذ المسلمون يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلا الشام ، ويطهرونها من الجيوب البيزنطية ، ويعملون في سبيل إعادة تنظيمها ، لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام ، دون أن تبذل كل ما بقي لديها من طاقات ، فجند هرقل جيشاً عظيماً للغاية ضم جنسيات الامبراطورية : يونان ، وسريان ، وغساسنة ، وأرمن ، وزحفت القوات البيزنطية جنوباً تريد اقتلاع العرب وتحطيمهم ووصلت أخبار التحرك البيزنطي إلى أبي عبيدة وكان في منطقة حمص فعقد مجلساً حربياً ضم كبار قادة قواته ، وتباحث معهم في الأمر ، فقر رأيهم على الانسحاب إلى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام ، ومن التراجع نحو شبه الجزيرة إذا اقتضى الحال ، وقرر أيضاً الكتابة إلى عمر بوصف حالهم ، ويطلب المدد .

وانسحبت القوات العربية جنوباً متخلية عن جميع المدن والأراضي التي أخذتها ، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك ، وكان لهذا الانسحاب أثره على القوات البيزنطية ، حيث ولد الغرور والدعة في نفوس قادتها ، كما دفعهم إلى إنزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب ، مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين .

وفي منطقة اليرموك شعر أبو عبيدة بحراجة موقف المسلمين ، وعرف أن الكثيرين منهم يرى الانسحاب من الشام « حتى يأتيهم مدد يرون أنهم يقوون على من جاءهم من الروم » « فدعا أبو عبيدة الناس فاستشارهم ، فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام إلا خالد بن الوليد ، فإنه أشار عليه بالمقام ، وقال لأبي عبيدة : خلني والناس ، ودعني والأمر ، وولني ما وراء بابك ، فأنا أكفك بإذن الله أمر هذا العدو ، فقال له أبو عبيدة : شأنك والناس » .

والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك ، بالقرب من بحيرة طبرية ، في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد ، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن وفي الأمام كان الجيش

البيزنطي ، ونشط خالد في إعداد خطط الحرب نشاطاً كبيراً تجلت فيه عبقريته العسكرية ، قام بصف القوات المسلمة « ثلاثة صفوف ، وجعل ميمنة وميسرة » ثم جاء بالفرسان فقسم الخيل أرباعاً (أي كراديس تولى هو قيادة ربع أي كردوس) وبعث على كل ربع قائداً من أشجع المسلمين ، كما أنه جعل قوات المشاة على شكل تستطيع الصمود به لفرسان البيزنطيين الثقال واستدراجهم وبعثرة جهودهم ، واعتمد خالد خطة هدفت إلى فصل سلاح الفرسان البيزنطي عن المشاة ، وأوكل إلى فرسانه الخفاف هذه المهمة ، وقد طبق خالد خططه بوعي وشجاعة ، فسبب تحطيم القوات البيزنطية ، وكان ذلك في صيف سنة ١٥ هـ / ٦٣٦ م ، ولا ريب أن القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين ألفاً .

ومما لا شك فيه أن معركة اليرموك كانت إحدى معارك التاريخ الإنساني الكبرى ، لما نجم عنها من نتائج فبعد هذه المعركة ، عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل ، وتابعوا زحفهم شمالاً حتى جبال طوروس ، وفر هرقل نحو القسطنطينية ، وهو يردد : « وداعاً يا سورية ، وداعاً لا لقاء بعده » ، فقد جررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي ، كما كانت المقدمة المباشرة لانحسار هذا الحكم عن مصر وشمال أفريقية ، وبداية قيام الوطن العربي .

وبعد الفراغ من فتوح الشام عاش خالد بن الوليد في منطقة حمص إلى أن توفاه الله سنة إحدى وعشرين ، وسمع لما حضرته الوفاة يقول : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » ودفن خالد في مدينة حمص ، وما زال قبره فيها قائماً ، يزوره من يأتي حمص ، لأنه علمها البارز ، وبه باتت تعرف بمدينة ابن الوليد .

عمرو بن العاص

(ت : ٤٣ هـ / ٦٦٣ م)

ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميراً

عمر بن الخطاب

عندما يستعرض الباحث تاريخ الاسلام لمدة تزيد على نصف قرن ، بدأت بنزول الوحي على النبي ﷺ وختمت بتأسيس الملك الأموي من قبل معاوية بن أبي سفيان ، وذلك بعد انقضاء العصرين النبوي والراشدي الحافلين بالأحداث الجلال ، عندما يفعل الباحث ذلك ويقوم بجمع أسماء الأعلام الذين أسهموا في صنع الأحداث المهمة لهذه المراحل يجد اسم عمرو بن العاص يتردد على الدوام .

يراه أولاً بين كبار رجالات الأرستقراطية المكية المعارضة للاسلام ، ورئيس سفارة قريش إلى نجاشي الحبشة لردّ المهاجرين المسلمين ، وبعد ذلك يراه وقد دخل الايمان إلى قلبه سنة ثمان للهجرة [٦٢٩ م] ــ كما هو مرجح ــ حيث هاجر إلى النبي ﷺ وأعلن عن إيمانه عن قناعة كاملة ، فقبله النبي ﷺ مسلماً ورحب به ، وأمّره بأن بعثه في بعض المهام العسكرية فحقق نجاحات باهرة ، وأظهر قدرة ادارية ومرونة سياسية ودهاء يتجاوز كل العقبات ، فقد كان لديه لكل معضلة من المعضلات مهما اشتدت حلاً موفقاً .

وبعد وفاة النبي ﷺ واستخلاف أبي بكر الصديق وقف عمرو مع الجماعة بايمان راسخ ، وبعيد الانتهاء من حروب الردة أمّره أبو بكر وكلفه بقيادة أحد جيوش الفتح المرسلة إلى الشام ، وكانت المناطق الجنوبية من

الشام وخاصة فلسطين هي مهام عمرو الرئيسية ، على أنه شارك في جل معارك الشام الكبيرة ، وبعد اليرموك تفرغ لاكمال فتح فلسطين وتحرير القدس .

وعندما قدم الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م حضر عمرو بن العاص مؤتمر الجابية الذي عقـده الخليفة للبحث في خطط الفتوح الجديدة ، ويبدو أنه تم تكليف عمرو في ذلك المؤتمر بالتوجه إلى مصر لفتحها ، إنما بعد الفراغ من استلام القدس وتنظيف فلسطين وسواحلها من الجيوب البيزنطية .

وتروي جل المصادر بأن عَمْراً تحرك نحو مصر سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م ، وكانت قواته حين فصل عن فلسطين تقل عن الأربعة آلاف مقاتل ، وبعد سيره بفترة وتوغله في أراضي مصر ، أمده عمر بنجدات قدرت ما بين عشرة آلاف إلى اثني عشر ألفاً بقيادة الزبير بن العوام .

وكانت مصر خاضعة لحكم الامبراطورية البيزنطية ، إنما كانت أحوالها الداخلية تشجع على محاولة فتحها ، واستخلاصها من الحكم البيزنطي ، لا بل تحريرها منه ، ذلك أن المصريين كانوا يكرهون الحكم البيزنطي لأسباب مالية اقتصادية ضرائبية ، وبسبب سوء الادارة البيزنطية وصلف الولاة البيزنطيين ، وأكثر من هذا كله وأعمق بسبب خلافات مصر الدينية مع الكنيسة الرسمية لبيزنطـة .

وكانت لمصر كشعب وبلاد مكانة خاصة لدى المسلمين ، والعلاقات بين مصر ككنيسة والعرب المسلمين قديمة منـذ عهد النبي ﷺ ، فقـد راسل النبي ﷺ مقوقس مصر ودعاه إلى الاسلام ، فأجابه بأدب وأرسل له هدية لاقت قبولاً حسناً عند النبي ﷺ ، ويروى بأن الصحابي حاطب بن أبي بلتعة قد حمل رسالة النبي إلى المقوقس ، وفي عهد أبي بكر الصديق قام هذا الخليفة ببعث حاطب إلى مصر ثانية ، فاتصل مجدداً بالمقوقس ، وعمل معه عهداً لا نعرف الكثير عن فحواه ومضمونه ، إنما بقي هذا العهد معمولاً بمضامينه حتى قام عمرو بن العاص زمن الخليفة عمر بالهجوم على مصر .

وحين يتفحص المرء العمليات العسكرية العربية في مصر ويقارنها بعمليات الشام والعراق والشمال الأفريقي ــ فيما بعد ــ يرى أن فتح مصر لم يكلف العرب جهداً كبيراً ، ولم يستغرق وقتاً طويلاً إذا راعينا سعة الرقعة الجغرافية، وكان عـدد القتلى العرب في أعمال فتوح مصر قليلاً ، وأيضاً عدد الجنـد الذي تولى مهام القتال صغيراً إذا ما قورن بساحات الفتوح الأخرى ، ولهذا لا يمكن الحديث في فتح مصر لا عن يرموك ولا قادسية ، إنما عن عمليات من درجات صغرى نسبياً .

وبدأت عمليات فتح مصر بأن ظهر عمرو بن العاص أولاً في منطقة الدلتا ، فاحتل الدلتا ، وزحف نحو باب إليون على رأس الدلتا قرب موقـع القاهرة الحالي ، وبزحفه هذا تجنب عمرو مدينـة الاسكندرية عاصمة مصر آنذاك ، واستطاع عمرو اقتحام باب إليون ، ثم اصطدمت قواتـه بقوات بيزنطية في حصن آخر قريب ، وسلمت هذه القوات لعمرو ، وأثناء هذا قام عمرو ببناء مدينة الفسطاط ــ عاصمة مصر الاسلامية الأولى ــ وزحف بعد ذلك على الاسكندرية فحاصرها من جانب البر ، حيث لم يملك أية نوع من القوات البحرية ، ورغم حصانة المدينة وعدم حصارها بشكل محكم فقـد تمكن عمرو من الاستيلاء عليها بعد جهد ، وبذلك غدت مصر مقاطعة جديدة من مقاطعات الدولة العربية الناشئة .

وبعد فتح الاسكندرية تابعت قوات عمرو زحفها نحو برقة وشمال أفريقية ، وتم فتح الشمال الأفريقي على مراحل ، ابتدأها عمرو بن العاص ، فقد ولاه عمر بن الخطاب ادارة شؤون مصر الولاية الجديدة ، فنجح في عمله غاية النجاح ، وبعد وفاة عمر احتفظ عمرو بمنصبه لفترة ، إنما قـام عثمان بتعيين أخيه بالرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح شريكاً لعمرو في منصبه ، لكن عمراً رفض أن يكون « كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » فعزله عثمان من منصبه ، ولعل ذلك كان سنة ٢٧ هـ / ٦٤٨ م .

وعاد عمرو إلى الحجاز يحمل الغضب في نفسه والنقد على لسانه ، ضد عثمان ، لكن لا يذكر عنه رغم هذا تورط فيأعمالالفتنةالكبرى،ولمبيد أي نشاط يذكر في بداية خلافة علي ، إنما عندما نشب الخلاف بين معاوية وعلي ، توجه إلى معاوية وحالفه ضد علي طمعاً في العودة إلى ولاية مصر أو نيل الخلافة ، وشارك عمرو بن العاص في معركة صفين وكاد أثناءها علي ابن أبي طالب أكثر من مكيدة — على قاعدة الحرب خدعة — فإليه يرجع الفضل في ايقاف نزيف الدماء في هــذه المعركة عن طريق ما يسمى برفــع المصاحف، وعندما تقرر تحكيم الحكمين، ناب عمرو بن العاص عن أهل الشام.

واجتمع عمرو مع الحكم الثاني أبي موسى الأشعري فاستعرضا جميع المسائل ، واتفقا في البداية على أن عثمان قتل مظلوماً ، لكن لم يقررا من له الحق بطلب الانتصاف من قتلته ، ثم ناقشا قضية الخلافة ، وكان أبو موسى يمثل أهل العراق ولا يمثل علي ، حتى أنه كان — كما يروى — لا يقر بخلافته، ولم يكن معاوية قد رشح نفسه للخلافة بعد بشكل مباشر ، لذلك رشح أبو موسى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقبل عمرو بن العاص من حيث المبدأ ، بأن اشترط نيله لولاية مصر إذا ما وافق ، ورفض عبد الله بن عمر ، وكان من شهود الحكمين ، ورشح عمرو نفسه ، فرفض أبو موسى لأنه غمس نفسه في غمار الفتنة في القتال بصفين ، فرشح ابنه عبد الله بن عمرو وكان من فضلاء عصره ، وأكثرهم فهماً وعلماً ، فأقر أبو موسى بأنه أهل للمنصب، ولكنه رفضه لأن عمراً غمسه في الفتنة ، وهكذا استمرت المناقشات دونما فائدة ، فارفض الاجتماع دون التوصل إلى نتيجة ، وهنا مرفوض منطقياً ووثائقياً ما روي بأن عَمْراً خدع أبا موسى وغرر به بطريقة مسرحية فيها خلع خاتم أو سيف ولبس آخر .....

وانفجر خلاف بين معاوية وعمرو بن العاص لما قام به أثناء التحكيم ، لكن ما لبث أن سوي ذلك الخلاف ، وبدأت النشاطات في الشام لجولة قتالية ثانية مع علي ، ولانتزاع الولايات منه ، وبعد مقتل علي وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لصالح معاوية ، أعلن معاوية عن نفسه خليفة جديداً ، وسمّى عمرو بن العاص لولاية مصر، وأراد أن يعين ابنه عبد الله بن عمرو على العراق، فنصح بالاحجام حتى لا يكون بين لحيي الأسد ، بين الأب وابنه ، ففعل ، وظل عمرو يشغل منصبه في مصر حتى توفاه الله سنة ٤٣ هـ / ٦٦٣ ، لكن خلوده ظل حياً لأن مصر التي حررها من بيزنطة وأوجد شخصيتها العربية ، ستظل حية عربية اسلامية .

سعد بن أبي وقاص

(ت : ٥٥ هـ / ٦٧٥م)

الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله عز وجل ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام .

رسول سعد الى رستم

في تاريخ الانسانية ما من شــيء أقــدم من الحرب ولا أكثر تأثيراً واستمرارية ، والمعارك الحربية في التاريخ أكثر من أن تحصى ، إنما هناك بين الحشد الهائل من المعارك عدد قليل كان فاصلاً ومحولاً ، وفي حين تبقى مقاييس الأهمية شخصية فردية ، لذلك كثيراً ما تباينت الأراء ولم تتوافق إلا نادراً حول مدى أهمية العدد القليل من المعارك الذي اعتبر فاصلاً .

إن معركةالقادسية منالمعارك التي أجمعت الآراء على أهميتها واعتبارها فاصلة ، لأنها أنهت وجود الامبراطورية الفارسية ، وقررت مصير عــدد من الشعوب والأمم في آسية بشكل أبدي ، والحديث عن هــذه المعركة هو حديث عن فتوح العراق وسير الرجالات الذين أسهموا في العمليات وذلك بشكل عام ، إنما يمكن أن يتمركز حول سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين وبطل القادسية الأكبر .

وسعد بن أبي وقاص هو سعد بن مالك بن أهيب من بني زُهرة أخوال النبي ﷺ ، أسلم مبكراً فكان سابع المسلمين ، وكان آنذاك في التاسعة عشرة من عمره ، وقــد شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها ، وكان أحــد العشرة المبشرين بالجنة ، وتوفي النبي عنه وهو راضٍ ، وقد رشحه عمر بن الخطاب للخلافة بأن أشركه في شورى الستة ، وكان مجاب الدعوة لأن النبي ﷺ

دعا له بذلك يوم رمى بأول سهم في سبيل الله ، فقال : « اللهم سدد سهمه وأجب دعوته » .

كلفه النبي ﷺ بعدة مهام ، وكذلك أبو بكر وعمر من بعده ، وكانت قيادة جبهة العراق أعظم المهام التي قام بها .

فبعد معركة البويب التي انتقم فيها العرب لهزيمة يوم الجسر ، توفي المثنى بن حارثة الشيباني بعدما انتقضت عليه جراحه ، وجاءت الأخبار إلى العرب بأن الفرس تمكنوا من حل مشاكلهم السياسية واختاروا لحكمهم امبراطوراً جديداً هو يزدجرد ، وقام يزدجرد بحشد طاقات امبراطوريته العسكرية، فتمكن من اعداد جيش ربما بلغ عدده المائة ألف، ووضع على رأسه رستم كبير رجالات الامبراطورية العسكريين وأرفقه بكبار القادة الفرس ، وحوى هذا الجيش كميات كبيرة من الفرسان والفيلة ، وكان تسليحه جيداً ، وأخذ الجيش بالزحف باتجاه الحيرة مركز تجمع القوات العربية .

وأثر زحف القوات الفارسية على قوات العراق، فأخذت تنسحب من المواقع المتقدمة إلى نقاط حددت للتجمع، ووصل إلى المدينة خبر وفاة المثنى بن حارثة وحشود فارس المخيفة ، فأقلق ذلك عمر بن الخطاب وجماعة المسلمين ، وبادر عمر بالتحرك بسرعة، فكتب أولاً إلى قادة الجند على جبهة العراق بالانسحاب إلى أطراف العراق مع شبه جزيرة العرب ، وكتب أيضاً إلى عماله في شبه الجزيرة : « لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلاّ انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ ، والعجل العجل » ، ولم يمض على ندائه هذا وقت طويل حتى أتته القبائل ، ومع مطلع عام ١٤ هـ / ٦٣٥ م عسكر بالقوات التي تجمعت على الطريق الآخذ إلى العراق « ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقيم » وسأله بعض الصحابة عن نواياه فدعا : « الصلاة جامعة » وطرح عليهم صورة الوضع وقال : « أحضروني الرأي فإني سائر ، واجتمعوا جميعاً . وأجمع ملأهم على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول الله ويقيم ، ثم يرميه بالجنود ، وإن كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون ،

وإلا أعاد رجلاً وندب جنداً آخر ، وفي ذلك ما يغيظ العدو » وقبل عمر بهذا الرأي وتداول مع وجوه المسلمين فيمن يختار لقيادة جبهة العراق ، وفيما هو في ذلك جاءه كتاب من سعد بن أبي وقاص ، وكان على صدقات هوازن بنجد فيه « إني قد انتخبت لك ألف فارس مرد ، كلهم له نجدة ورأي ، وكلهم صاحب حيطة ، يحوط حريم قومه ويمنع ذمارهم ، إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فشأنك بهم » ، ولدى سماع الصحابة بكتاب سعد قالوا : قد وجدته، قال : فمن ؟ قالوا : الأسد عادياً ، قال : من ؟ قالوا : سعد ، فانتهى إلى رأيهم وأرسل إليه فقدم عليه ، فأمّره على حرب العراق وأوصاه فقال : يا سعد ، سعد بني وهب ، لا يغرنك أن قيل : خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله ﷺ ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن، وإن الله عز وجل ليس بينه وبين أحد سبب إلا طاعته..... فلما أراد أن يسرحه دعاه فقال : إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به »، ثم أعطاه بعض التعليمات العسكرية ، وألح عليه بمراسلته بشكل دائم .

وتوجه سعد نحو العراق ، وقرب مشارف العراق اتصل به المعنى بن حارثة الشيباني ، أخو المثنى ومعه سلمى ابنة خصفة أرملة المثنى ، وأبلغه بوصية المثنى له كقائد جديد لجبهة العراق ، وفي هذه الوصية : « لا تقاتل عدوك وعدو المسلمين من أهل فارس إذا اجتمع أمرهم وملأهم في عقر دارهم ، وقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم ، وإن تكن الأخرى فاؤوا إلى فئة ، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم ، وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة لهم عليهم » .

وتجمع لسعد ما يقارب اثنين وثلاثين ألفاً من الجند ، وقام بتعبئة قواته بشكل مثالي راعى فيه قضايا الانتشار والاستطلاع القريب والبعيد وتأمين المؤن ، وكان بصحبته جهاز اداري كامل فيه عدد من التراجمة ، كما وجد لديه

وحدة طبية ، وجرى على مكاتبة القيادة المركزية يومياً برسائل تصف حالة جيشه وأخبار العدو ، وتصف الأرض حيث المعسكرات والأهداف ، وفي كثير من الأحيان كان الرسل يرفقون بمصورات للأرض ، وجرت العادة على أن يحمل الرسائل رجال ذوو كفاءة عالية وفهم، بحيث كانوا يوصلون إلى الخليفة تقارير وافية عن الوضع ، ويجيبون على جميع الأسئلة ، ثم يعودون بجواب الخليفة ووصاياه .

لحسن الحظ أن المؤرخين الأوائل جمعوا مواد كبيرة جداً عن الفتوحات، لكن كتابات الرواة الأوائل هي الآن بحكم المفقود ، (ومنذ قرابة عام وفقت إلى الحصول على مصورة نسختين من مخطوط أندلسي عن الفتوحات أودع فيه صاحبه جل روايات الأوائل ،وبوساطة هذا الكتاب نستطيع أن نرى لأول مرة صورة الفتوحات بشكل نقي واضح ، وأنا بصدد تحقيق هذا الكتاب وكلي عزم على اخراجه قبل نهاية هذا العام إن شاء الله ووفق) .

وحين أوصل المُعَنّى إلى سعد وصية أخيه المثنى أعجب سعد بسلمى أرملة المثنى وخطبها لنفسه وتزوجها ، وقد رافقته نحو القادسية وشهدت معه الحرب وكان لها اسهاماتها فيها .

وانتشرت قوات سعد على أطراف العراق ، وحاولت جيوش رستم استدراجها إلى الداخل فأخفقت ، ومكث سعد في معسكره قرابة أربعة أشهر مصمماً على أن لا يزج بقواته إلى المعركة قبل الوقت المناسب ، ونجح العرب في حل مشاكل المؤن عن طريق ما كان يرسله لهم الخليفة ، وبوساطة الاغارة حتى على مستودعات جيش رستم وعلى المناطق الساسانية .

وقسم سعد جيشه إلى وحدات تعبوية ، وجعل أصغر الوحدات المقاتلة تتألف من عشرة مقاتلين عليهم عريف ، وقام بتقسيم جيشه إلى : مقدمة وقلب وميمنة ومؤخرة وميسرة ، وعين لكل قسم من هذه الأقسام الخمسة قائداً ونائب قائد ، وسمى لنفسه معاوناً في القيادة العامة ، وبالاضافة إلى هذه الأقسام الخمسة كان هناك وحدات استطلاع ، وطلائع منفصلة ، ووحدات

حوت الرماة ، والمقاتلين الخفاف بلا دروع من مشاة وخيالة ، وعين لجيشه قاضياً ، وجعل سلمان الفارسي داعية المقاتلين ورائدهم .

وأثناء اقامة سعد على أطراف العراق بعث بوفد كبير إلى الامبراطور يزدجرد يدعوه إلى الاسلام،أو الجزية عن يد وهو صاغر، وإلا" فالحرب،وكان رجالات الوفد في غاية الجرأة والوضوح والصراحة ممـا أثار الامبراطور الشاب ، ودفعه إلى التهديد والتوعد، وحمّل أحدهم على ظهره وقراً من تراب إمعاناً منه في الاهانة ، وذلك ظنـه ، علماً بأن بعض الظن سوء ، لذلك وصل الوفد إلى سعد مستبشرين متفائلين قائلين : « اعطانا كسرى تراب بلاده » وهذا ما كان .

وكان رستم رغم ضخامة قواته يخشى منازلة العرب ويسعى للمطاولة ، لكنه تعرض لضغط شديد من الامبراطور جعله يقدم مكرهاً يجر نفسه جراً ، وقبيل وصوله إلى مواجهة القوات العربية مر بالحيرة ، ونوى انزال العقوبة بأهلها ، ثم توقف ، وراسل سعداً ليبعث له رسولاً يعرف منه مقاصد العرب، واستجاب سعد وأرسل له من واجهة بلا خشية ، فبين له الاسلام وفضائله ودعاه إليه ، فإن أبى فالجزية عن يد وهو صاغر ، وإلا" فالحرب ، وطلب رستم اعطاءه مهلة لدراسة العرض والتشاور مع الامبراطور ، فأجابه رسول سعد بأن النبي ﷺ حدد المدة بثلاثة أيام ليس أكثر ، وبعث سعد في اليومين التاليين المزيد من الرسل كان آخرهم الصحابي المشهور المغيرة بن شعبة ، لكن بلا نتيجة وتقررت الحرب .

وعسكر سعد في سهل القادسية الواقع بين بلدتي النجف وأبي صخير العراقيتين ، وكان نهر الفرات أمامه والصحراء في مؤخرته وأحد المستنقعات على يمينه ، ووصل رستم مرغماً إلى الطرف الآخـر من الفرات ، وحاول استدراج العرب لعبوره إليه فأخفق ، لذلك عبر النهر وصف جنده قبالة الجند العربي .

وكان العرب عندما وصلوا إلى سهل القادسية قد وجدوا قصراً عالياً

خالياً من السكان ، فاتخذه سعد مقراً لقيادته ، ومن على ظهر هذا القصر قرر سعد ادارة المعركة ، لأنه كان بامكانه الاشراف بشكل مباشر على مجريات الحوادث واصدار الأوامر المناسبة ، وقد روي بأن سعداً كان أثناء المعركة يرمي الرقاع إلى جند وقفوا عند جدران القصر ، فيها أوامره ، ويدل هذا العمل على عبقرية حربية وحنكة ، ذلك أن القائد يدير دفة القتال على طول الجبهة ، ولا يزج بروحه إلى التهلكة فيهلك جنده ، ووصف أحد شهود العيان ذلك بقوله : « كان سعد بن مالك أجرأ الناس وأشجعهم، إنه نزل قصراً غير حصين بين الصفين فأشرف منه على الناس ، ولو أعراه الصف فواق ناقة أخذ برمته ، فوالله ما كرثه هول تلك الأيام ولا غلقه » .

وبدأت الاشتباكات في القادسية بهجوم الوحدات الفارسية تتقدمها الفيلة ، وصمد العرب لفيلة العدو وفرسانه الثقال يومهم الأول ، وفي اليوم الثاني تمّ استئناف القتال وفي ظهيرة ذلك اليوم وصلت طلائع نجدات عربية جاءت من الشام يتقدمها القعقاع بن عمرو التميمي ، فقد كان الخليفة راسل أبا عبيدة عامر بن الجراح قائد جبهة الشام يأمره بارجاع جند العراق الذين سبق لهم القدوم إلى الشام قبل عامين مع خالد بن الوليد ، لأن غالبية الروايات ترجح أن القادسية قد وقعت بعد انحسار شتاء سنة ١٥هـ / ٦٣٧م.

ودخلت هذه الطلائع المعركة مباشرة دون أن تنال قسطاً من الراحة نتيجة رحلتها الشاقة ، وكان لوصولها أثراً كبيراً على معنويات العرب، وعندما حل الظلام وتوقف القتال كان اليوم لصالح العرب ، ومع صباح اليوم الثالث اشتبك الفريقان ، وكان العرب قد أبدعوا طرائق لمعالجة قضية الفيلة ، بأن برقعوا الجمال ، وقرروا مهاجمة الفيلة بالرماح لفقأ عيونها ، ومع بداية القتال وصلت النجدات الشامية فدخلت ميدان القتال مباشرة .

وكان قتال اليوم الثالث عنيفاً جداً وفق فيه العرب في مواجهة مسألة الفيلة ، وعندما حل الظلام توقف القتال قليلاً ثم ما لبث أن قام العرب بهجوم ليلي كاسح ، وقاتل العرب تلك الليلة وفي نيتهم حسم الموقف ، ولقد دعا المسلمون تلك الليلة باسم ليلة « الهرير » لأنه لم يسمع فيها غير وقع الحديد على الحديد .

ومع صباح اليوم الرابع تابع العرب القتال بكل نشاط واندفاع ، وتمكنوا من خرق صفوف القوات الساسانية فقتلوا رستم ، ولاحت علامات النصر وأخذ الفرس يفرون ، لكن إلى السيف والغرق والدمار .

لقد كانت خسائر العرب عالية جداً في القادسية ، إنما رغم ذلك كانت أدنى بكثير من خسائر الفرس ، وقد منح نصر القادسية العرب غنائم كثيرة كان على رأسها العراق ، وفتح هذا النصر الطريق أمامهم نحو المدائن عاصمة الفرس ، فاستولوا عليها ، وبعد القادسية خاض العرب عدة معارك أخرى تمكنوا بوساطتها من تصفية وجود الامبراطورية الساسانية ، ونسف حدود العالم القديم ، وصنع عالم الاسلام الجديد .

وتولى سعد قيادة فتح المدائن واتخذها مقراً له ، لكن ما لبث العرب أن كرهوا الاقامة فيها ، فارتادوا مكاناً يختطون به ، فوقع اختيارهم على موقع الكوفة ، فاختط سعد سنة ١٨ هـ / ٦٣٩ م مسجد الكوفة ونزلها ونزل معه الناس ، وهكذا غدت نواة المدينة الجديدة عاصمة للعراق ومقراً لسعد حتى سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م حيث عزله عمر بن الخطاب .

وبعد عزله من ولاية الكوفة أخلد سعد إلى الراحة ، ومال إلى حياة العزلة والاعتكاف ، وقد أراده بعض الناس أن يرشح نفسه للخلافة بعد مقتل عمر فأبى عليهم ذلك ، وبعد الفتنة الكبرى لزم بيته وأمر أهله أن لا يخبروه بشيء من أخبار الناس ، وبعد بيعة علي طلب منه الخليفة الراشدي الرابع الوقوف إلى جانبه ، فاشترط اعطاءه سيف ناطق يقول له أثناء القتال : هذا كافر ، وهذا مؤمن ، وعندما بين له علي أن هذا محال ، أجابه أن الحال حال فتنة والأمور اختلطت عليه ، لذلك قرر الترفع وعدم المشاركة بشيء ، وذهب إلى البادية ، وعاش هناك معتزلاً الناس ، وحاول أكثر من طرف ترشيحه للخلافة أيام التحكيم فرفض ، وظل يعيش في عزلته حتى توفي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م كما ترجح بعض الروايات، ومفيد هنا أن نشير إلى أن بعض الدراسات تذهب إلى القول أنه من اعتزال سعد وفئة من المسلمين تولدت بعض الحركات الفكرية في الاسلام ، وفي مقدمتها المعتزلة الذين نالوا اسمهم من ذلك الاعتزال ؟....

عقبة بن نافع

(ت : ٦٣هـ / ٦٨٣م)

« ومن للأمر مثل عقبة »

بعدما فرغ العرب من فتح مصر اتجهت أنظارهم نحو الغرب ، فأخذوا يعدون العـدة لنقل الاسلام غرباً ، وهكذا بدأت مرحـلة جديدة في تاريخ الفتوحات الاسلامية ، هي مرحلة فتوحات المغرب ، وتأتي عمليات الفتوح هذه حاسمة بالنسبة لتاريخ جميع البلدان الواقعة في شمال أفريقية وفعالة بالنسبة للقـارة الأفريقيـة ، وكذلك بالنسبة لأوربة ، فقـد حسمت هذه الفتوحـات مشكلة هوية ومستقبل وارتباط هـذه البلاد لصالح العروبـة والاسلام بشكل نهائي لا رجعة فيه .

لقد دعا العرب غالبية سكان المغرب قبل الفتوحات باسم البربر، وقدموا تفسيرات لأصل هذه التسمية بعيدة عن الواقع ، حيث يبدو أن العرب ورثوا التسمية اللاتينية « **Barbari** » التي أطلقهـا الرومان على الشعوب غـير الرومانية التي كانت بنظرهم أدنى مكانة ، وذات نمط قبلي بدوي في الحياة .

ومن المفيد ذكره أن البربر أطلقوا في الماضي على جماعاتهم أسماء لم يكن بينها عبارة « بربر » وفي أيامنا هذه يرضون بأن يعرفوا باسم « شلوح » ويقول نسابوهم بقناعة تامة وايمان مطلق ، بانهم في الأصل من أبناء حمير هاجروا من اليمن إلى فلسطين ، ثم أرغموا بعد ذلك على الهجرة إلى المغرب .

وفي العصر الحديث بات مرفوضاً الحديث عن أصل الشعوب وأسس قومياتها بشكل عرقي بحت ، « فالكل لآدم وآدم من تراب » وصار من المقرر أن الارادة القائمة على الاختيار والمربوطة بماض له عراقة وحضارة ولغة وعقيدة واقتصاد ، و ... واحدة هي الأساس للعمل القومي ، وهذه قضية

حسمتها الفتوحات الاسلامية ، وهكذا فان الغـرب الاسلامي دخـل الباب العريض للتاريخ مع الاسلام وبواسطته •

ويحتـار الباحثون في أيامنا هذه في معرفة أصـل تسمية « شلوح » كحيرتهم في التعرف إلى أصول البربر، ذلك أنهم لم يعرفوا في ماضيهم الوحدة اللغوية والاجتماعية والسياسية والحضارية مع البنية الجسدية ، ومهما عظم الجدل حول هذه المسألة ، فانه مما لا شك فيه أن الشمال الافريقي تعرض منذ فترات سحيقة في التاريخ إلى هجرات عربية كبرى ، منها ما جاء بـراً ، ومنها ما قدم بحراً ، فمناطق الداخل وصلتها دفعات من المهاجرين كان أبرزها وأهمها جماعات الهكسوس الذين حكموا مصر فترة طويلة ، فعندما قدموا مصر توجهت مجموعات منهم إلى الغرب ، ثم لما طردوا من مصر فرّ القسم الأعظم منهم غرباً ، ومن المقدر أنهم عرفوا باسم « المور » ومن هذه التسمية اشتقت الكلمات الكلاسيكية التي أطلقت على بلدان الشمال الأفريقي •

وأما مناطق الساحل القائمة على المتوسط ثـم الأطلسي فان الفينيقيين كانوا أهم المهاجرين ، واليهم يعود الفضل في تأسيس أهم المدن الساحلية مع بعض المراكز الداخلية ، وأخيراً من المفيد أن نشير إلى أن عدداً لا بأس به من الباحثين يذهب إلـى القول بأن بوادي ليبيا هـي الموطن الأول للشعوب السامية •

وعلى الرغم من أن الشمال الافريقي وقعت بعض مناطقه تحت سيطرة روما الغربية أولاً ثم الشرقية ، ورغم قدوم الوندال إلى سواحل هذه المناطق، فان مسار الحضارة العام بأصوله الاجتماعية والدينية والثقافية والاقتصادية لم يتبدل وظل مرتبطاً بمسار الحضارة في الشرق العربي ، وهكذا ظل تاريخ المغرب جزءاً مرتبطاً بتفاعل مع تاريخ المشرق ، أقصاه بمثابة جناح المواجهة الغربي لأوربة كما أن الشام كانت بمثابة الجناح الشرقي •

وعندما جاء الاسلام حسم مسألة الهوية المغربية بشكل قطعي ونهائي ، وتم هذا عبر عدة مراحل وبفضل جماعات تقدمها أفراد ، سنتعرف لبعض منهم ويتصدرهم جميعاً عقبة بن نافع الفهري •

بعدما فرغ العرب بقيادة عمرو بن العاص سنة ٢٢ هـ / ٦٤٣ م من فتح الاسكندرية ، زحفوا نحو ليبيا وبذلك بدأت فتوحات المغرب ، التي كانت من أقسى المهمات وأعنفها ، فبعد الشروع بالزحف غرباً بفترة وجيزة توفي عمر بن الخطاب ، وصارت الخلافة إلى عثمان ، فعزل عمرو بن العاص ، وعين مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وفي أيام ابن أبي سرح تابع العرب أعمال الفتوحات ، وحققوا تقدماً كبيراً ، لكنهم ما لبثوا أن توقفوا بسبب قيام الفتنة الكبرى وما أعقبها من حروب داخلية .

وعندما آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م ، صارت ولاية مصر إلى عمرو بن العاص ، فوجه عقبة بن نافع الفهري ، وهو ابن خالته ، نحو المغرب ، ولمدة عامين قام عقبة بعدة غارات داخل افريقية ، كانت أشبه باعمال استطلاعية منها بأي أمر آخر ، وتوفي عمرو بن العاص ، فأفرد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م لسميه معاوية بن حديج شؤون إفريقية ، ونشط ابن حديج وحقق بعض الانجازات ، حتى إذا كان عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م وجه معاوية بن أبي سفيان نحو المغرب جيشاً ثانياً يعمل على محور آخر غير محور ابن حديج ، وأسند أمر هذا الجيش إلى عقبة بن نافع ، وهكذا بدأ العمل المخطط لفتح المغرب .

استطاع عقبة اكتساح ما يعرف الآن باسم تونس وأخذ يعد الخطط للتوسع غرباً ، فارتأى أن يقيم للقوات الفاتحة معسكراً متقدماً ، وابتغى في هذا الموقع مايتلائم معطرق الامداد البرية والاستراتيجية الحربيةوالاقتصادية والتجارية ، وهكذا اختار موقع مدينة القيروان ، وكان اختياراً موفقاً للغاية ، ويكفي للتدليل على ذلكالدور التاريخي والحضاري الذي شغلته هذه المدينة وهو دور قلة هي المدن في العالم التي شغلت ما يماثله .

ويحيط العرب أخبار بناء القيروان بهالة خاصة ، وقدسية فائقة ، فقد كان عقبة صحابياً ، وفي عسكره خمسة وعشرون من أصحاب النبي ﷺ ، وحينما قرر تأسيس مدينته « جمع وجوه أصحابه وأهل المعسكر ، فدار بهم

حول مدينة القيروان ، وأقبل يدعو لها ويقول في دعائه : اللهم املأها علماً وفقهاً ، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزة لدينك ، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الاسلام ، وامنعها من جبابرة الأرض » ، وكما قلت عرفت مدينة عقبة الجديدة باسم القيروان ، وهي لفظة معربة تعني معسكر الجيش ، كما تعني القافلـة .

وظل عقبة في منصبه حتى سنة ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، ففي هذه السنة أو قبلها ضمت أعمال عقبة إلى والي مصر ، فعزله ، فتوجـه عقبة مغضباً نحو دمشق ، حيث لقي معاوية بن أبي سفيان ، فعاتبه على عزله ، فطيب معاوية نفسه ومناه ، ومكث عقبة في دمشق حتى ما بعد وفاة معاويـة ، واستتباب الأمور لابنه يزيد ، حيث قام باعادته إلى ولاية إفريقية ، وربما كان هذا سنة ٦١ هـ / ٦٨١ م ، وفي ولاية عقبة هذه وصلت الفتوحات الاسلامية إلى أقصى أطراف المغرب ، وفي ذروة النجاح أصيب العـرب بنكسة كبيرة كادت أن تفقدهم كل ما حصلوا عليه في السنين الماضية .

خرج عقبة من الشام مسرعاً نحو مصر ، وبرفقته بعض الجند الشامي ، وتابع من مصر سيره حتى أتى القيروان ، ثم ما لبث أن قرر الغزو ، فاستخلف حامية صغيرة جعل عليها زهير بن قيس البلوي ، وتحرك هو غرباً ، فاجتاح أولاً مالم يكن في حوزة المسلمين من المغرب الأوسط ، لأن ما كان في أيديهم آنئذ هو المغرب الأدنى مع جزء من الأوسط .

ولقي عقبة في المغرب الأوسط تجمعات من البربر والبيزنطيين فهزمها ، ثم دخل المغرب الاقصى فهزم كل من تصدى له ، ودخل طنجة ، ثم تابع سيره مقتحماً الأراضي المغربية القائمة علـى الأطلسي ، فاجتاح أراضي السوس الأدنى ، ثم مضى حتى دخل السوس الاقصى ، ثم تابع حتى وصل طرف المحيط ، أي إلى شاطىء نهر السنغال كما هو معتقد ، ويروى أنه عندما وصل طرف المحيط خاض بفرسه البحر حتى وصل الماء إلى تلابيبه وقال : اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك .

هذا وقد استطاع عقبة خلال زحفه نقل الاسلام ليس فقط إلى قبائل البربر وانما إلى زنوج افريقية •

وهكذا كانت الانجازات التي حققها عقبة عظيمة للغاية ، وكانت كميات الغنائم كبيرة جداً ، وعندما قرر عقبة العودة نحو القيروان ، أرسل القسم الأكبر من قواته مع الغنائم ، وأبقى لنفسه قوة صغيرة ، وكان معه في ركبه بعض زعماء قبائل البربر ، ومن جملتهم زعيم قبيلة أوربة واسمه كسيلة ، وقد استطاع كسيلة أن يهرب ويقوم بحشد رجال قبيلته وغيرها من قبائل البربر ، وأن يتحالف مع بقايا من جند البيزنطيين ، نزوا على مدينة عرفت باسم تهودة •

وعندما دخل عقبة أراضي افريقية ــ تونس ــ علم بعصيان تهودة ، فمال نحوها وقام بحصارها ، وأثناء انشغاله بالحصار تمكن كسيلة ليس فقط من حشد قواته ، بل زحف نحو عقبة ليحاصره ، ويقطع الطريق عليه ، وقرب تهودة ، وعلى حين غرة ، وجد عقبة نفسه أمام حشود كسيلة ، فلم يجبن ، وخاض ضدها معركة انتحارية ، نال فيها الشهادة هو وجميع من كان معه من المسلمين ، ودفن عقبة حيث استشهد ، وبعد فترة وجيزة قتل كسيلة وعاد الاستقرار إلى افريقية ، وعم فيها الإسلام ، فغلب اسم عقبة على الاسم القديم لتهودة ، فأصبحت تعرف باسم « سيدي عقبة » ، وقبر عقبة له مكانة عالية في نفوس أهل المغرب الكبير ، وصورته هناك هي صورة المثل الأعلى للبطل المسلم •

حسّان بن النعمان

(بعد ٨٦ هـ / ٧٠٥ م)

في تاريخ قيام شخصية المغرب العربي المسلم ، إذا كان عقبة بن نافع هو واضع أساس هذه الشخصية، فإن حسان بن النعمان الغساني هو موجدها .

فبعد مقتل عقبة بن نافع على يد كسيلة زعيم قبيلة أوربة البربرية « انقلبت إفريقية ناراً ، وعظم البلاء على المسلمين » وتوافق هذا مع وفاة يزيد بن معاوية واضطراب الأحوال في المشرق بسبب الصراع على الخلافة ، لذلك انسحب العرب من القيروان نحو ليبيا حيث رابطوا هناك ، وعندما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان ، أرسل بمدد إلى زهير بن قيس البلوي ، خليفة عقبة بن نافع في قيادة المسلمين ، وزحف زهير نحو القيروان حيث استطاع أن يفض جموع كسيلة وأن يقتله ، وأخذ زهير بعدها يعمل على بسط السيادة العربية على المغرب ، ويعمل على تصفية جيوب المقاومة من بربرية وبيزنطية ، مع حماية شواطيء المغرب من عمليات الانزال البيزنطية ، وأثناء عمله في هذا السبيل لقي زهير مصرعه .

ووصلت أخبار مصرع زهير إلى الشام ، وكان فيها عبد الملك بن مروان يعمل على توطيد سلطانه بالقضاء على عبد الله بن الزبير ، فعظم على عبد الملك المصاب بزهير ، لكن كان لا بد من الانتظار لاعداد حملة جديدة .

وفتحت مكة للحجاج بن يوسف الثقفي ، وقتل ابن الزبير ، وتوطدت أركان دولة بني أمية ثانية ، لهذا توجه عبد الملك بهمته نحو شؤون المغرب ، وبعد دراسة للموقف وقع اختيار عبد الملك على حسان بن النعمان الغساني ، فجهزه على رأس جيش شامي ، وبعث به نحو المغرب ، وكان هذا ربما بعد سنة سبعين للهجرة .

كان ابن النعمان أول قائد شامي يقود جيشاً شامياً لفتح المغرب ، لذلك قدم وفي ذهنه خطة واضحة للعمل ، فما أن وصل مصر ، حتى غادرها إلى طرابلس ، ومن هناك قرر التوجه نحو قرطاج ، ذلك أنه أراد أولاً القضاء على الوجود البيزنطي في المغرب، وكانت هذه المدينة تمثل مركز هذا الوجود، ويبدو أن ابن النعمان اعتقد أنه إذا قضى على القوات المحترفة التابعة لبيزنطة، وصان الشواطىء سهل عليه أمر القبائل البربرية •

وبالفعل تمكن ابن النعمان من السيطرة على قرطاج ، فهرب من نجا منها من بقايا البيزنطيين نحو شواطىء الجزائر ، وقام حسان بعد سيطرته على قرطاج بهدم أسوارها ، وبنى إلى جانبها مدينة جديدة حملت اسم تونس ، وبنى لها ميناء ودار صناعة للسفن ، ثم عاد نحو القيروان ليريح جنده ، فأقام بها حتى برئت جراحاتهم •

وما كاد حسان يظن أن المغرب قد دان له ، ليبدأ بوضع نظام اداري خاص به ، حتى عرف بقيام تحالف بين قبائل الأوراس البربرية بتأييد من بقايا البيزنطيين تحت زعامة امرأة عرفت بالكاهنة ، اختلف في تحديد دينها ، ووسمت بممارسة السحر والتنجيم •

وزحف حسان نحو الكاهنة ، والتقى بقواتها في معركة عنيفة ، انهزم فيها حسان بعدما فقد عدداً كبيراً من جنده ، لهذا قرر الانسحاب نحو طرابلس ، وهكذا تخلى العرب مرة أخرى عن المغرب ، وأقام حسان في طرابلس ما يقرب من خمس سنوات ، حتى وصلته امدادات كبيرة من الشام ، فعاد لأخذ طريق افريقية ، والتحم مع قوات الكاهنة ، فاستطاع أن يوقع بها الهزيمة ، ويقتل الكاهنة نفسها ، ولقي حسان أثناء صراعه مع الكاهنة مساندة بعض قبائل البربر مع سكان المدن المحليين ، ذلك أن الإسلام أخذ يستقر بين هؤلاء ، ثم إن الكاهنة كانت قد عمدت إلى سياسة تدميرية مريعة للعمران في إفريقية ، فقد قالت لأتباعها : « إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ، فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها ، ويقل طمعهم فيها » •

وبعد القضاء على الكاهنة خلصت بلدان المغرب للعرب ، ودخلت أعداد كبيرة من سكانه في الإسلام ، ونعمت البلاد بقسط وافـر من الاستقرار ، وبدأ العرب ينظمون أحوال البلاد ، ويقيمون ادارة خاصة بها ، وعاد حسان نحو تونس فأكمل أعماله فيها ، فغدت بذلك مركزاً جديداً لإفريقية .

وظل حسان في منصبه يعمل على بناء شخصية المغرب الجديد بنجاح كبير حتى سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م حيث تم استبداله بموسى بن نصير ، ومع ولايـة موسى بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الغرب الإسلامي ، هي مرحلة نقل الإسلام إلى أوربة ، وتجلى هذا بشكل خاص في فتح الاندلس ، وبداية ملحمة من أروع ملاحم تاريخ الانسانية .

طارق بن زياد

(ت بعد : ٧١٥ م)

إذا كان معاوية بن أبي سفيان المؤسس الأول للخلافة الأموية ، فمما لا شك فيه أن عبد الملك بن مروان هو الباني الثاني لهذه الخلافة ، وحيث أن معاوية انتزع الخلافة لنفسه وأنهى عصر الخلفاء الراشدين ، فقد حصد ابنه يزيد وخليفته من بعده ثمرات الغصب في مذابح كبرى في المدينة ومكة وكربلاء ، واختلف حال عبد الملك عن معاوية ، لهذا جاء حصاد تركته مختلفاً أيضاً ، وتجلى ذلك فيما حصل أيام الوليد بن عبد الملك من فتوحات كبرى في الشرق والغرب سواء .

وكان فتح الأندلس أهم ما حصل في الغرب فما هي الأسباب التي دفعت العرب إلى هذا الفتح ؟ هنـاك تعليلات كثيرة لهـذا الحدث وأجوبة كثيرة متباينة ، قديمة وحديثة لهذا السؤال ، فهـذا ابن خلدون يربط الحادث بمحاولة العرب تأمين الاستقرار لحكمهم في المغرب ، في حين نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، وهكذا جاءت حملة المسلمين على الأندلس هجوماً وقائياً وليس عملاً توسعياً مثل بقية الفتوحات الإسلامية ..!

بالإضافة إلى هذا نجد من يروي بأن العرب حرضهم ثم ساعدهم حاكم سبته واسمه جوليان على فتح الأندلس ، لأسباب تعلقت به ، فقد أراد أن ينتقم لشرفه وعرضه من ملك إسبانيا القوطي ، ناسين أن سبته بلد في المغرب آلت ملكيته للعرب مع ما فتحوه من الشمال الافريقي ، وعليـه فإن جوليان ربما ملك سبته وكان لديه أسطول ، لكن قبل الفتح الإسلامي ، فالإسلام دائماً يجب ما قبله .

ومع هذه التعليلات القديمة نجـد حديثاً من يقول بأن العرب بعـد ما خلص لهم الشريط الأبيض من أفريقية انعدمت لديهم الرغبة في متابعـة توغلهم فيداخل افريقية السوداء لأسباباقتصادية واجتماعية بشريةوحضارية، مع مسألة التصور الجغرافي والمعرفة بالأقاليم الأخرى وبلدانها فلقد كانت افريقية السوداء عالماً مجهولاً بالنسبة للعرب ، كما أنه كان عالماً في غاية الفقر مرابحة قليلة ، والعمل العسكري فيه في غاية الصعوبة ، لأن العرب كانوا قد اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المتوسطية المعتدلة .

وفي الوقت الذي جهل فيه العرب إلى حد كبير افريقية السوداء ، كانت لديهم معلومات جيدة عن صقلية وشواطىء إيطالية وشبه الجزيرة الأيبيرية ، وتحصلت هـذه المعلومات بفضـل النشاط البحري العسكري والتجاري للمسلمين في المتوسط ، الذي بدأ منذ أيام ولاية معاوية للشام .

هذا وشجع على الفتح وساعد على نجاحه وضع شبه الجزيرة الايبيرية السياسي والديني والاجتماعي والاقتصادي ، إنما فوق كل ما سبق قولـه لا بد من أن نبين أنه عبر التاريخ ما ملك فريق أحد طرفي مضيق جبل طارق مع القوة إلا كان لا بد له من العمل على ملكية الطرف الآخر ...

كان والي المغرب أيام الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ، وقد تسلم منصبه هذا خلفاً لحسان بن النعمان، وقام موسى بإعداد خطة لفتح الأندلس، واستطلع رأي دمشق حولها ، فجاءته الموافقة ، وقام موسى أولاً بإرسال حملات استطلاع للجزيرة كان أشهرها واحدة قام بها أحد قادته واسمه طريف ابن مالك سنة « ٩١ هـ / ٧١٠ م » على رأس قوة تألفت من /٤٠٠/ مقاتل، وأغار طريف على شواطىء جنوب اسبانية ، ونزل بمكان ما زال يحمل اسماً اشتق من طريف ، فكان مصدراً لخلود صاحبه أكثر من دوره فيما بعد في قيام دولة برغواطة الشهيرة في تاريخ المغرب .

وكانت إغارة طريف مشجعة ، لذلك أمر موسى نائبه على طنجـة ، واسمه طارق بن زياد ، بقيادة حملة مؤلفة من بضعة آلاف من المقاتلين وإنزالها

على شواطىء الأندلس ، فنفذ طارق الأوامر ، وهكذا بدأ فتح الأندلس ، فمن هو طارق بن زياد هذا ؟

لقد قيل الكثير عن شخصية طارق وأصله ، ويبدو أن أقرب ما قيل إلى الصحة ، هو أن طارق كان من أصل بربري ، ربما من المغرب الأدنى ، أخذ هو وأسرته إلى مصر أو الشام اثر عمليات الفتح في شمال افريقية ، وفي ديار الإسلام نشأ طارق مسلماً فأحسن العربية ، وذلك مع احتفاظه بلغة أجداده البربرية ، ثم بعد ذلك جند في إحدى الحملات ، فجاء إلى المغرب مرة ثانية في ركب أحد القادة .

هذا وذهب رجال الاستشراق إلى القول بأن طارق عندما نزل بر الأندلس كان تحت امرته سبعة آلاف مقاتل كلهم من البربر ، ثم أمده موسى بعد ذلك بخمسة آلاف أيضاً من البربر ، ذلك أن موسى لم يرسل جنداً عرباً مع طارق ، لأنه — كما يبدو — أراد أن لا يضحي بعربه — وأن ينتظر فإن كان النصر ، استغله لصالحه وصالح جنده العرب ....!

يبدو أن هذا لم يكن ، والذي كان كما هو مرجح أن موسى بن نصير حين أناب طارقاً في طنجة ترك تحت أمرته قوة عسكرية ضمت بضعة آلاف من العرب « واثني عشر ألفاً من البربر ، وكانوا قد أسلموا وحسن اسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القرآن الكريم وشرائع الإسلام » ، وعندما جاءه الأمر بالعمل من أجل فتح الأندلس « أخذ طارق في انشاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها — يعني الأندلس — برسم غزوها ، فجاز إليها في شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش (فيه أكثر) من اثني عشر ألف مقاتل : عشرة آلاف من البربر ، وألفين من العرب ، وسبعمائة من السودان ، فلما جاز قدمهم بين يديه في صورة مهولة ، فرأى القوطيون صوراً مهولة أفزعتهم ، فكان السودان يأخذون الأسارى فيذبحون منهم ويطبخونهم ويورون من يبقى منهم أنهم يأكلونهم ، فكان ذلك مما أوقع الرعب في قلوب الروم ، فخافوهم » .

نزل طارق بقواتــه في أصل جبل الفتح ــ الذي سيعرف باسم جبــل طارق ــ مستغلاً وجــود لذريق ملك الأندلس القوطي في شمال بــلاده وانشغاله هناك ، وقام طارق باتخاذ موقع دفاعي هجومي لقواته ، وأعدّ العدة للزحف على مدن الأندلس ، فجاءه الخبر بوصول الملك القوطي على رأس القوة العسكرية القوطية للمملكة « فلما علم طارق بقدومه إليه تلقاه المسلمون ، ووقعت الحرب بينهم ، فبقي القتال بينهم ثمانية أيام حتى ظن أنه الفناء ، وصبر المسلمون صبراً جميلاً فمنحهم الله تعالى النصر بصبرهم » .

عرفت المعركة هذه بمعركة وادي لكة ــ أي وادي البحيرة ــ وكانت معركة حاسمة، وكان من عادة المسلمين اصحاب جيوشهم رجال كانوا يقومون قبل القتال واثنائه بتذكير المسلمين وحضهم على السير في طريق الشهادة ، وفي كثير من الأحيان كان قادة الجند يتولون مثل هذه الأعمال ، لهذا لا يبعد أن يكون ابن زياد قد شجع جنده بكلمات نسج عليها ما عرف بخطبة طارق ابن زياد التي أشار إليها عدد من الكتّاب الأوائــل والمتأخرين وشهرت حديثاً بالصيغة التي أوردها المقري في كتابه نفح الطيب .

قضى طارق في معركة وادي لكة على القوة العسكرية للقوط ، ولقي ملكهم لذريق حتفه ، فهدم نظام الحكم القوطي ، وزال من الوجود ، لذلك صارت شبه الجزيرة الايبيرية اثر ذلك بلاداً مفتوحة ، لن يحول بين المسلمين وبين تملكها قوة تذكر .

وبلغ موسى بن نصير خبر ما حققه طارق ، فجاء طنجه حيث عبر على رأس قوة كان تعدادها (١٨٠٠٠) رجل ، واندفع نحو اشبيلية فاحتلها مع مدن أندلسية أخرى ، وكان طارق قد احتل بدوره عدة مدن ، وتابع القائدان عملهما حتى التقيا ، فقاما باستعراض المنجزات ، وقدم طارق لرئيسه موسى بن نصير تقريراً بأعماله ، وتفحص موسى أقوال طارق ، فرضي بالبعض ونقض

البعض الآخـر ، ثم ما لبث الاثنان أن توجها نحو طليطلة ، عاصمة البـلاد التاريخية ، حيث أمضيا شتاء ٧١٤ م ، وقاما ببعض الأعمال التنظيمية الأولى للبلاد المفتوحة .

وأرسل موسى يخبر دمشق بالفتح ، وريثما يأتيه جواب من الشام تابع اخضاع ما لم يكن قد خضع له من مناطق شبه الجزيرة الايبيرية وقاده هذا نحو جنوبي فرنسة إلى مشارف جبال البيرينه ، وهنا ربما تولدت لديه الرغبة في فتح أراضي المملكة الميروفنجية، لكن ذلك لم يحدث حيث جاءه أمر الخلافة باستدعائه إلى دمشق مع طارق بن زياد .

ونحن لا نملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، فلعـل الخليفة أراد أن يعرف من قائديه خبر ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معهما خطط المستقبل ، ولعله أراد أيضاً أن يحاسبهما ويعرف منهما ما حصلاه من غنائم وما أنفقاه ، يضاف إلى ذلك كله أن الخلافة ربما كانت قد خشيت من النزعات الاستقلالية لدى موسى ، وارتابت في بعض تصرفاته ، خاصة بعـد ما رأته يعيّن ولده عبـد الله على القيروان وولده عبـد الملك على المغرب الأقصى، ثم ولده عبد العزيز على اشبيلية ليحكم اسبانيا منها، وبعد ما سمعت عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن انفاقه كميات كبيرة من الأموال .

المهم أن موسى غادر مع مولاه طارق اسبانيا في خريف عـام ٧١٤ م بصحبتهما قافلة كبيرة ، أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر ، وجوار حسان .

وعندما وصل ركب موسى إلى مشارف الشـام ، سمع بمرض الوليد ابن عبد الملك ، فعجل سفره ، وفي غوطة دمشق لقي موسى الوليد كما قابله

طارق فقدم شكوى ضد موسى من أنــه تعدى في أموال المسلمين وأنفقها وأخفق موسى في نفي التهمة عن نفسه .

وفي هذه الأثناء توفي الوليد بن عبد الملك ، وبويع لأخيه سليمان وطالب سليمان موسى بكمية من الأموال ، وعندما أبدى عجزه عن دفعها كاد أن يودعه السجن لولا شفاعة يزيد بن المهلب ، فأهمل أمره، ولم يسمح له بالعودة إلى المغرب .

وهكذا كانت نهاية موسى ، ولا ندري بشكل أكيد ما حل بطارق ، ولا شك أن الزمن والنسيان طوياه مع موسى في المشرق ، لكن ما كان للتاريخ أن يطوي خبر جليل ما حققاه .

عبد الرحمن الغافقي

(ت : ٧٣٢ م)

ما أن حط العرب رحالهم في شبه الجزيرة الايبيرية وافتتحوها حتى عزموا على اكمال فتح أوربة الغربية كلها ونشر الاسلام فيها ، وقد جرت محاولات لتنفيذ هذا الهدف منذ أيام موسى بن نصير ، لكنها عرقلت بسبب ما حل بجسم الخلافة الأموية من مشاكل داخلية خاصة في الشمال الأفريقي ، وهكذا اجتازت الأندلس عصراً تقلب فيه على حكمها عدد من الولاة أهمهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي تسلم الولاية للمرة الثانية في صفر ١١٢ هـ / نيسان ٧٣٠ م ٠

وفي الفترة التي سبقت تولي الغافقي للحكم ثانية حينما حاول العرب التوسع مجدداً في جنوب فرنسة سنة ٧٢٦ م بقيادة السمح بن مالك الخولاني اصطدموا بكونت أود دوق أكوتين ، وقد استطاع أود صد المسلمين قرب مدينة تولوز وقتل قائدهم السمح بن مالك الخولاني ، وإثر قتل السمح اختار المسلمون لولايتهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وظل الغافقي يدير شؤون الأندلس لبضعة أشهر ٠

ومرت سنوات عشر قبل تسلم الغافقي لولاية الأندلس ثانية ، دافع أود أثناءها عن نفسه وعن أراضيه ، مستغلا أحياناً النزاع بين المسلمين من عرب وبربر ، وبين العرب أنفسهم ، وهو ما عرف باسم العصبية القبلية ، ولم يكتف أود بذلك بل أسهم في بعض الصراعات وصنع خلال ذلك زواجاً دبلوماسياً مع عثمان بن أبي نسعة ، الذي سبق له أن ولي الأندلس [من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١ هـ / تشرين ثاني ٧٢٨ ــ نيسان ٧٢٩ م] حيث

زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة ، أمن بها غارات العرب ولكن إلى حين .

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس اتجه بنواياه نحو الجهاد ، وأراد أولاً أن يثأر من أود فأخذ يعد العدة لذلك ، بأن قام أولاً بالطواف على جميع المقاطعات الأندلسية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بشعبية واسعة بين صفوف الأندلسيين ، ولما رأى استقرار أحوال ولايته ، قرر أن يقوم من جديد باكمال حركة الفتوح ، وأن يوجه طاقاته ضد أود .

وبدأ تحركه بأن بعث إلى عثمان بن أبي نسعة ، وكان قائداً لمنطقة الحدود مع أراضي حمية كونت أود ، بعث إليه بأن يشاغل العدو بالغارات إلى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ووقع هذ الأمر من عثمان موقع الكراهية الشديدة ، حسداً منه لعبد الرحمن وضناً بحميه ، والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فوق درجة الهيام .

وعندما وصل أمر عبد الرحمن إلى عثمان « وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير عبد الرحمن قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ، ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله ، وغضب عبد الرحمن من مراجعة عثمان له ، ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه » فأرسل إليه يشدد عليه بتنفيذ أوامره ، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن أعمال الغارة في بلاد أود ، أرسل إلى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشاً إلى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله ، وأمره بأن يأتيه بعثمان حياً كان أم ميتاً ، وبغت الجيش مقر عثمان ، فهرب في الجبال ومعه بعض أعوانه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذ زوجته الحسناء إلى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها إلى دمشق .

وعندما وصل خبر مصرع عثمان إلى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لا محالة ، فتأهب للدفاع ، وكانت طاقاته لا تكفي لصد الهجوم المقبل ، . وكان أود على علاقة فاسدة بشارل « مارتل » المتحكم بالمملكة الميروفنجية ، والساعي لانهاء حكم الميروفنجيين الفرنجة واستبداله بما سيعرف باسم الأسرة الكارولونجية ، وكان قد قاتل ضده وهزم سنة ٧١٩ م في معركة قرب مدينة سواسن .

ولعل عبـد الرحمن كان ، حين أقلع بحملته ، على بينـة بالأوضاع في فرنسة ، ولهذا اندفع يقود جيوشه من جبال البيرانيه ، فاحتل عدداً من المواقع وحصل على كميات هائلة من الغنائم ، وحاول أود ايقـاف الزحف العربي فلاقى الاخفاق ، وهنا التفت مضطراً نحو عدوه شارل مارتل فاستصرخه ، وامتد الصريخ في كل أرجاء فرنسة ، وزحفت القوات المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت راية شارل مارتل الذي عرفه العرب باسم « قارله » .

ولما وصل العرب قريباً من مدينة تـور **Tours** الواقعة على نهـر اللوار ،علم عبد الرحمن أن جيشاً عظيماً يزحف للتصدي له ، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال قواتـه ، فرأى جنده يحملون غنائم لا حصر لها ، وأن الحفاظ على هذه الغنائم هو شغلهم الشاغل ، ورأى في هذا مخاطر لاحـد لها ، ولعله هم بإعطاء الأمر بترك الغنائم الثقيلة وراءهم ، لكنه خشي الفتنة ، فآثر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة منها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواتـه شارل مارتل وقواته ، واستمرت المعركة عدة أيام تخلخل خلالها وضع الجند العربي ، وجاء ذلك عن طريق مهاجمـة قوات شارل مارتل لمعسكر الغنـائم ، وعندما دب الخلل في الجيش العربي ، ألقى عبد الرحمن بنفسه في وسط الملحمة ، فنال الشهادة ، وفي المساء توقف القتال ، وعندما حل صباح اليوم التالي ، فوجىء الفرنجة بمعسكر العرب قائماً كما كان ، لكن خاوياً بدون جند ، فاعتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثـم عرفوا بعد وقت أن العرب انسحبوا تحت ستـار الظلام في الليل .

هذا وقد لاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخي العصر الحديث ، وخاصة في أوربة الغربية ، واعتبروها إحدى معارك التاريخ الفاصلة ، وقالوا بأنها أبقت أوربة الغربية نصرانية كاثوليكية ، وحالت دون انتشار الاسلام في أوربة •

إن في هذا كثيراً من التطرف والشطط ، ذلك أن الفتح العربي كان في بعض الأحيان شيئاً وانتشار الاسلام شيئاً آخراً ، فقد حكم العرب أقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك إلى انتشار الاسلام ودون أن يأخذ كافة الناس بالعقيدة الاسلامية •

يضاف إلى هذا أن معركة بواتيه لم تغلق بوابات فرنسة دون العرب ، فقد تابع العرب غزواتهم داخل فرنسة ، لكن ليس على معيار كبير تدعمه الخلافة ، ولعل هذه المعركة قد لقنت العرب درساً قاسياً بأنه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسة ، وهنا ينبغي أن نقف قليلاً عند قضية الغنائم ، لنقول بأن فرنسة القرن الثامن لم تكن بلداً غنياً يمكن للمغير عليه أن يحصل على غنائم ثمينة ، وعرب أندلس القرن الثامن ، وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم ، وانقلب أكثرهم من جند إلى ملاك للأراضي والمزارع ، هؤلاء ما كانوا ليغامروا داخل فرنسة ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وأرباح كبيرة مضمونة ، لقد أدرك عرب الأندلس أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسة أعلى بكثير من المرابح ، ثم إن هؤلاء العرب وقد تمتعوا بمناخ اسبانيا الرائع لم يعجبهم مناخ فرنسة البارد ، وكانوا يؤثرون العيش دائماً في المناخ المتوسطي وحيث ينبت النخيل والزيتون •

هذا وقد عانى العرب في الأندلس وإفريقية ثم في المشرق ، بعد هزيمة بواتيه من مشاكل جمة مزقت صفوفهم ، وبعثرت قواهم ، فلم يحاولوا الثأر لهذه المعركة ، أو بالحري لم يجدوا الفرصة للتفكير بذلك والاعداد له ، بل ظلوا يعانون من المشاكل الكبرى والانقسامات المدمرة حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير ألم بشؤون السلطة في الأندلس •

لقد أنهى الانتصار العباسي وجود الجيش الأموي وأحل محله جيشاً جديداً تم تشكيله في خراسان ، واختلف هذان الجيشان عن بعضهما بشكل جذري ، فالجيش الأموي هو وريث جيوش الفتح العربية ، وهذه الجيوش كانت منذ لحظة تشكيلها ذات مقاصد خارجية ولها طبيعة هجومية توسعية، في حين أن مقاصد الجيش العباسي الجديد داخلية بحتة دون أهداف توسعية خارجية ، ولهذا انقلبت مع العباسيين موازيين العلاقات الاسلامية الخارجية حيث تحولت من موقع الهجوم إلى موقع الدفاع ، وكان أبسط معاني هذا الحدث الجلل أن مد الفتح العربي وصل إلى ذروته وقسر على التحول إلى جزر .

وعلى هذا لقد كانت معركة بواتيه نهاية المدّ العربي في أوربة الغربية ــ من الجانب الفرنسي ــ وبعدها تحول اتجاه التيار ، وما كانت الغزوات التي توغلت داخل فرنسة وسواها بعد ذلك إلاّ أمواجاً ضالة ذهبت قواها ، وانهدرت طاقاتها حيث وصلت دون أن تترك أثراً له صفة الديمومة ، ومع الأيام استمر الجزر حتى غطى الأندلس بقعة بقعة .

الإمام أسد بن الفرات

(ت : ٢١٤هـ / ٨٢٩م)

حينما يعرض المرء لتاريخ قيام الاسلام يلاحظ أن موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الاسلام دفعها نحو تزعم عالم شبه جزيرة العرب ، ثم هيأها لتكون مركز قيام الاسلام ، ومرة ثانية بعد قيام الاسلام وانتشاره في الشمال الافريقي والاندلس ، وجد المسافرون من الغرب نحو الشرق أنفسهم بعد مغادرتهم مصر أن المدينة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق ، وهكذا نال القادمون للتعلم والتفقه دروسهم الأساسية في المدينة ، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول ﷺ .

وفي هذا الصدد ينبغي أن نتذكر بعض المعلومات المرتبطة بتطور تاريخ التشريع الاسلامي ، فالنبي ﷺ أمضى فترة النبوة من حياته في شبه جزيرة العرب ، وخاصة في مدينتي مكة والمدينة ، والذين رأوا النبي وسمعوا منه هم بعض من عاصره من سكان شبه الجزيرة ، وعرف هؤلاء عموماً باسم الصحابة ، وبعد قيام الفتوحات الاسلامية الكبرى غادرت أعداد لا بأس بها من الصحابة شبه الجزيرة ، لتستقر في بعض البلدان المفتوحة ، وهناك كان البعض من الصحابة يتصدى للتعليم والافتاء والاجتهاد وتبليغ العقيدة الاسلامية باقراء القرآن والتحديث عن النبي .

ورغم توزع الصحابة في الأمصار ، فقد ظل العدد الأكبر منهم في المدينة عاصمة الاسلام الأولى ، وهكذا ظلت المدينة دار الفكر الاسلامي الأولى ، لكن هذه الدار تعرضت لعدة أزمات كبرى، كانت أولاها الفتنة الكبرى وما نجم عنها من استبدال الكوفة بالمدينة ، ومغادرة أعداد جديدة من الصحابة

الحجاز إلى الأمصار ، وكانت ثاني الأزمات معركة الحرة أيام يزيد بن معاوية، فقد دمرت هذه المعركة الحركة الفكرية النشيطة بالمدينة ، وكادت تقضي عليها قضاء مبرماً .

وحتى معركة الحرّة ، ظلت المدينة المرجع الأساسي لعلوم الاسلام ، وحينما كبت المدينة ، أخذت الأمصار تعتمد على مواردها الخاصة ومصادرها المحلية ، وهكذا حدث الاسراع في استقلال الامصار عن المدينة ، وبالتالي قيام مدارس متعددة للتشريع الاسلامي ، وحيث أن الصحابة جميعاً حدثت وفياتهم في القرن الأول للهجرة ، فانه مع نهاية هذا القرن بدأنا نشهد قيام التابعين من أبناء الصحابة ومن أبناء الأمصار، بحمل رايات الفكر الاسلامي ، وتمت على أيدي هؤلاء تنمية الفكر الاسلامي خاصة في الجوانب التشريعية ، وعلى أيديهم تمت عمليات تطوير مدارس الأمصار .

وكان على رأس الأمصار الاسلامية : الشام ، الكوفة ، البصرة ، مصر ، ومنذ البداية كان دور مصر ضعيفاً شبه منعدم التـأثير ، والبصرة كما هو معلوم كانت حاضرة العراق الثـانية مع الكوفـة ، وكانت المؤثرات التي استوردتها ايرانية فارسية ، أي من العراق الأعجمي ، في حين أن الكوفة كانت مؤثراتها العظمى من شبه الجزيرة وبلاد الرافدين ، وبعـد الفتنة الكبرى تنازعت البصرة والكوفة على الزعامة فكانت معركة الجمل ، ثم اتخاذ الكوفة عاصمة للدولة الاسلامية ، وممثلة للحركـة الفكرية التشريعية في العراق ومشرق العالم الاسلامي ، وبعد ما انتصرت الكوفة في معركة الجمل تحدتها دمشق ذات الخلفيات الحضارية السامية والاغريقيـة والرومانية ، وبعـد معركة صفين وقيـام التحكيم ثم اغتيال علي بن أبي طالب رابـع الخلفاء الراشدين ، رست زعامـة العالم الاسلامي في يـد معاوية بن أبي سفيان واستقرت في دمشق ، وهكذا أخذت العاصمة الجديدة تستقطب عدداً كبيراً من الصحابة ثم التابعين ، وفي دمشق تمت معالجة المشاكل المستجدة للامة الجديدة ، وهكذا تطورت في الشام أركان مدرسة فقهيـة خاصة ، غالبـاً ما عرفت باسم مدرسة الأوزاعي ، وعمت آراء هذه المدرسة العديد من بلدان

العالم الاسلامي ، خاصة الغرب منه ، ذلك أن الشرق ظلت زعامته بيد الكوفة رغم هزيمتها سياسياً •

ولم تعمر مدرسة الشام طويلاً ، ذلك أن قيام الثورة العباسية ، وتحطيم الخلافة الأموية ، وازالتها من الشام نتج عنه فيما نتج تقهقر مدرسة الأوزاعي ثم اندثارها كلياً ، واتخذ العباسيون العراق مقراً لخلافتهم ، وكانت الكوفة عاصمتهم الأولى إلى أن تم بناء بغداد ، وكما سلفت الاشارة فإن الثورة العباسية تم تفجيرها في البلاد الشرقية للعالم الاسلامي ، وعلى أيدي أبناء هذه البلدان ، وهكذا كتب على هذه الخلافة منذ البداية الغرق في مشاكل الشرق الاسلامي ، وبالتالي عدم الانتباه والتفرغ الجدي لبقية الأراضي ومشاكلها إلا عرضياً ، ثم أنه من الملاحظ أنه بعد زوال حكم الفرع السفياني من الحكم الأموي ، وقيام حكم الفرع المرواني تمكنت المدينة من الافاقة من كبوتها وأخذت تستعيد مجدداً نشاطها ، ذلك أن الأمويين الجدد أولوها عناية خاصة ، وحاولوا ما أمكنهم عدم التورط في مشاكل من نفس نوع مشاكل العهد السابق وخاصة بعد القضاء على ثورة ابن الزبير •

ومرة ثانية نشطت الحركة الفكرية في المدينة ، وظهرت طبقات جديدة وكبيرة من أبناء الصحابة والتابعين ، شغلت وقتها في جمع السنة النبوية وأخبار السير والمغازي ، وعند قيام الثورة العباسية كانت مدرسة المدينة مرة أخرى قد استكملت عناصر اعادة تأسيس قواعدها ووصلت إلى درجة قريبة من الذروة •

وحدث هذا كله في وقت كان الاسلام فيه قد عم انتشاره في الغرب الاسلامي ، ومعلوم أن الاندلس لم تدخل في سلطان بني العباس ، ثم ان هذا السلطان كان قاصراً غير شامل في السيطرة على المغرب الأقصى ، على أنه وإن عاش العالم الاسلامي وهو يعاني من التمزق السياسي ، فان هذا لم يؤثر على جوانب وحدته العقائدية والاقتصادية ، وتفاعل شعوبه تفاعلاً كبيراً •

وهنا أيضاً ينبغي ألا يفوتنا التنبيه إلى أن العباسيين كان لهم سياسة

دينية خاصة ونشطة ، ثم إن عالم القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد) قد عرفا تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وطبيعي ان نجد هذا لدى العباسيين ، فهم قد وصلوا إلى السلطة بواسطة ثورة انطلقت من مفاهيم الاسلام القائمة على المزج ، واختلف حالهم عن بني أمية ، فمعاوية نال الخلافة بقوة السلاح عن طريق المطالبة بدم عثمان •

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون على مدرسة العراق السنية ، ذلك أن العراق بكوفته عرف عدة مدارس مذهبية كان أبرزها : المدرسة السنية، ثم المدرسة الشيعية، ثم مدرسة لبعض الخوارج،وحيث أن العباسيين كانوا أعداء الخوارج ، ثم لعملهم منذ أيام المنصور على الانفصال الكلي عن الحركة الشيعية ، فقد دعم العباسيون مدرسة أهل السنة وتبنوها وأرادوا احتضانها ، فتم لهم ذلك بعد ما تأسست أركان هذه المدرسة على يد أبي حنيفة بوقت وجيز للغاية •

وفي الغرب الاسلامي ــ خاصة في الاندلس ــ وجد الامراء والحكام أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين ، أو لنقل أن الحكم الذي تم نيله ــ هنا وهناك ــ بالاعتماد على الصراع القبلي وجد نفسه بحاجة لدعائم لسلطته غير عمليات التوازن بين العصبيات القبلية ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعاً ان هذا العمل أمر لا بد منه في أي دولة اسلامية ، وخاصة لدى دول المواجهة مع أعداء الاسلام •

وتفرض الظروف كلها مع المواجهة التظاهر بمظهر المثالية ، كما تفرض التشدد والتعصب ، ومثالية الاسلام ، تؤخذ من المدينة لا من سواها ، والمدينة هي غير الكوفة ، وتلميذها متميز عن تلميذ مدرسة الكوفة ، ومستقل عنه وغير تابع •

هذا وان اعتماد السلطة العباسية على مدرسة الكوفة ، جعل ــ بلا شك ــ القائمين على مدرسة المدينة يفتشون عن مناطق نفوذ ونشاط ، ويؤيد هذا ما يشاهده الباحث في سيرة واضع أركان مدرسة المدينة ــ الامام

مالك بن أنس ــ فهو كان يظهر المعارضة للسلطة العباسية والتحبيذ لامراء من الغرب الاسلامي •

من هذا كله نستنتج ان العالم الاسلامي عاش بعد قيام الثورة العباسية مباشرة وطوال سنين عديدة من القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع الاسلامي ، وهما : مدرسة المدينة ، ومدرسة الكوفة ، ومن الملاحظ أنــه بعد وقت ليس بالطويل بذلت محاولات لدمج المدرستين في مدرسة واحدة ، واستهدفت عمليات المزج الحل الوسط بين الطرفين بشكل منطقي مؤصل ، وهــذا ما نراه في سيرة كل من الامامين الشافعي وأسد بن الفرات • وكما هو معلوم لقد نجح الشافعي في عمله وأخفق كما سنرى أسد بن الفرات• لأن الشافعي نجا من ظلمة الوظيفة ، ولم يعش في دياجير الولاية إلاّ لوقت قصير ، وهكذا وقف حياته للعلم ، أما ابن الفرات فانه في الوقت الذي كان عليه فيه العطاء تولى القضاء أولا ، ثم جمع إلى القضاء امارة الجيش الذي توجه إلى صقلية لفتحها •

وهنا لنبدأ في التعرف إلى سيرة حياة الامام أسد بن الفرات :

ولد الامام أسد في مدينة حرّان التي كان مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية ، قد اتخذها مقراً ، وحدثت ولادته في بداية العصر العباسي سنة اثنتين وأربعين ومائة كما هو مرجح ، وكان والد الامام جنــدياً من جنود العباسيين أصله من خراسان ، وقــد ترك هذا الجندي مدينة حرّان إلى إفريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الأباضية ، الذين كانوا مسيطرين آنئذ على أجزاء كبيرة من المغربين الادنى والاوسط •

ودخل أسد مدينة القيروان وله أقل من عامين ، وقد أقام فيها مع أسرته خمس سنوات، ثم تحولت أسرته إلى مدينــة تونس فأقامت بهــا نحو تسع سنين،وخلال هذه السنين تعلم القرآن الكريم وأخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس ، وفي مطلع سن الشباب يمم أسد بــن الفرات وجهــه نحــو المشرق ، فحل بالمدينة المنورة والتحق بالامام مالك بن انس ، فأخذ عنه علوم

أهل الحجاز وروى كتاب الموطأ ، وكان ابن الفرات كثير السؤال شـديد الالحاح ، يلتهم العلم التهاماً ، ويود لو أن الامام مالك وقف وقته كله عليه ، ولما تعذر هذا ، نصحه الامام مالك بالذهاب إلى العراق والالتحاق بالامام محمد بن الحسن الشيباني صاحب الامام أبي حنيفة .

وبالفعل توجه ابن الفرات نحو العراق والتحق بالامام محمد بن الحسن، فأكمل على يديه تحصيله لعلوم الامام مالك ، كما أخذ عنه علوم مدرسة أهل العراق ، ومكث ابن الفرات في العراق مدة لا بأس بها ، ولقد أولى الامام الشيباني ابن الفرات عناية كبيرة ، فقد عرف فقره ، لذلك أسكنه معه في دار واحدة ، وقام بتأمين نفقته وخصه بمجالس للتدريس خاصة ، وذكر ابن الفرات حاله مع الامام الشيباني بأنه قال له : « إني غريب قليل النفقة ، والسماع منك نزر ، والطلب عندك كثير فما حيلتي ؟ فقال لي : اسمع مع العراقيين بالنهار، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي واسمعك، قال ابن الفرات : فكنت أبيت عنده ، وكنت في بيت في سقيفة ــ وكان يسكن العلو ــ فكان ينزل إلي ، ويجعل بين يديه قدحاً فيه الماء ، ثم يأخذ في القراءة، فإذا طال عليه الليل ورآني قد نعست ، ملأ يده ونضح به في وجهي فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه » .

لقد زق الامام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقاً ، ورعاه طوال اقامته في العراق ، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله ، وكان الامام مالك بن أنس قد توفي ، أخذ الطريق نحو المغرب فحط رحاله في مصر ، والتحق بالامام عبد الرحمن بن القاسم أحد كبار تلاميذ الامام مالك ورواة علمه ، ولازمه « فكان يغدو إليه كل يوم فيسأله ويجيبه ابن القاسم حتى دوّن ستين كتاباً وسماها الاسدية » ، وقد حوت هذه الاسدية رأي مدرسة أهل المدينة في كل المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق .

وعاد ابن الفرات إلى القيروان يحمل معه علوم مدارس الاسلام ، ويروى أنه « لما عزم على الرحيل من مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة وقال لـه :

اذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقاً ، وانسخ الكتب » • ولما حل أسد في القيروان أظهر ما لديه في أسديته ، وأسمعها الناس ، وانتشرت العلوم التي حملها أسد إلى القيروان وانتشر معها صيت أسد بن الفرات وذاعت شهرته ، ولعل أهم الذين سمعوا الاسدية هو الامام سحنون ، وعلى أسدية ابن الفرات قامت مدونة الامام سحنون اعظم كتب المالكية في الغرب الاسلامي وأعمها تأثيراً •

وأثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة ، قوامها مبادىء مدرستي العراق والحجاز ، لكن النجاح لم يتحقق له لاسباب منها : انه عندما نشر محتويات أسديته ، قدّم خدمة كبيرة للمالكية ولنجاح انتشارها في الغرب ، ثم انه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته ، فقد كلف سنة أربع ومائتين بمهمة القضاء من قبل الامير زيادة الله بن الاغلب ، ثم إنه في هذه الفترة ولسنوات عدة مقبلة كانت إمارة الأغالبة تعاني من اضطرابات للجند كادت أن تودي بالحكم الأغلبي ، وخلال سنوات الفتنة نجا ابن الفرات من التورط فيها ، وكان دائماً مع ما تمليه عليه الشريعة لا أهواء القوى المتصارعة ، وعندما قضي على اضطرابات الجند رأت الادارة الأغلبية أنه من الأسلم للمستقبل إشغال الجند بنشاط حربي خارجي ، وفي هذا نرى احدى خلفيات الحملة ضد صقلية •

شكلت جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي مكاناً استراتيجياً هاماً ، وحصناً منيعاً وسط البحر هيمن على حركة الملاحة بين شرقي البحر الابيض المتوسط وغربيه ، كما كانت بمثابة جسر انتقلت عبره الحضارات ، وعنت السيطرة على صقلية دائماً القدرة على مراقبة كل من السواحل الافريقية والايطالية ، كل هذا بالاضافة لما تنعم به صقلية ذاتها من ثروات وتدره أراضيها من خيرات ، وصقلية كانت دائماً موضع صراع بين قوى ايطاليا وافريقية ، والحروب بين روما وقرطاج واسعة الشهرة ، انتهت كما معلوم لا بحيازة روما لصقلية وانما بسيطرة روما على أملاك قرطاج وتخريبها لها ، وظلت صقلية تابعة لروما ،

انما عندما انشطرت الامبراطورية الرومانية إلى شطرين : غربي وشرقي ، وبعد زوال القسم الغربي سياسياً احتفظت روما الشرقية ـ بيزنطة ـ بصقلية ، وبعدما افتتح المسلمون الشمال الافريقي اعتمدت بيزنطة أكثر فأكثر على صقلية في نشاطها العدائي ضد المسلمين ، وتأثرت صقلية دائماً بأوضاع الامبراطورية البيزنطية مع مشاكل العلاقات الاسلامية البيزنطية عامة .

وعندما نستعرض أخبار هذه العلاقات خاصة على صعيد الخلافة العباسية منذ أواخر القرن الثاني نرى اهتماماً عباسياً ، لا بل نشاطاً عسكرياً كبيراً ضد بيزنطة تجلى في حملات الرشيد ثم ابنه المأمون من بعده ، كما نلاحظ عودة للنشاط البحري العربي سواء على صعيد المشرق والمغرب ، يقابله ضعف عام لقوى بيزنطة ومصاعب متزايدة ، ولعل أهم مرابح البحرية العربية في مطلع القرن الثالث احتلال كل من جزيرتي كريت وصقلية .

لقد تحين الاغالبة فرصهم لفتح صقلية عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م وساعدهم على الشروع في قهر أراضيها ما وصلت اليه أحوالها آنذاك من اضطراب وتدهور وفساد ، ذلك أن الولاة البيزنطيين كانوا قد أسرفوا في استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان ، لذلك أجدبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون واشتغلوا بالرعي ، كما كسدت التجارة والصناعة بسبب الضرائب الباهظة ، وانهارت الأحوال عامة واضطربت أمور المجتمع بسبب ما اعتادت عليه بيزنطة من نفي المجرمين والخارجين على القانون اليها مع جموع من المنبوذين وكميات كبيرة من العبيد ، وكانت أحوال الكنيسة سيئة ومكانتها متداعية ، لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالاتها والقائمين عليها إلى مباهجهم الدنيوية .

لا شك ان هذه الأحوال شجعت الأغالبة على التخطيط لفتح صقلية ، حيث يتحدث المؤرخون عن انفجار العديد من الاضطرابات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة ، وكان أهمها حركة أوفيمياس Euqbemios

ــ فيمي في المصادر العربية ــ فقد جاء في الكامل لابن الاثير أن الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني عين بطريقى اسمه قسطنطين والياً على صقلية سنة ٢١١ هـ / ٨٢٦ م وقام هذا الأخير بدوره بتعيين رجل اسمه أوفيمياس قائداً للاسطول ، لأنه اتسم بالشجاعة والحنكة والاقدام ، لكن قائد الاسطول هذا تعرض لسخط الامبراطور حيث اتهم باغتصاب احدى الراهبات ، وطلب الامبراطور محاكمته ، فأعلن تمرده واتخذ مدينة سرقوسة معقلا له ولأتباعه ، واصطدم بقسطنطين والي الجزيرة فهزم قواته وقتله ، وهنا حاول أوفيمياس الانفراد بحكم صقلية ، فاصطدم بحاكم أحد الاقاليم الذي عرف باسم « بلاطة » .

وهزم بلاطة أوفيمياس ، واضطره إلى الهرب من صقلية فالتجأ إلى القيروان وعرض على الأمير زيادة الله المساعدة لفتح صقلية ، شرط توليته عليها مقابل دفعه الجزية ، وأثناء هذا أرسل والي صقلية وفداً إلى القيروان يطلب من الامير زيادة الله عدم مساعدة أوفيمياس والوقوف على الحياد .

ولم يتخذ زيادة الله قراراً في الوقوف إلى جانب واحد من الطرفين ، بل عقد مجلساً لبحث المسألة ، حضره إلى جانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي أسد بن الفرات ، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقات الاسلامية الصقلية ، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المسلمين والبيزنطيين قديمة ينبغي التمسك بها ، وقام الامام ابن الفرات برفض هذا الموقف ، وأفتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة ، لأن الجانب البيزنطي خرقها أكثر من مرة ولم يتمسك بشروطها ، وانه من واجبات الأمير اعلان الجهاد ، ونفذ الأمير الأغلبي قرار قاضي المسلمين ، فأعد اسطولاً كبيراً من سبعين سفينة ، شحنها بعشرة آلاف مقاتل من الرجالة وسبعمائة من الفرسان ، وأسند قيادة هذه الحملة إلى القاضي أسد بن الفرات ، فاجتمعت له بذلك الأمارة والادارة والقضاء في آن واحد .

وفي شهر ربيع الأول من عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م أقلعت الحملة المسلمة

من ميناء سوسة التونسي تريد جزيرة صقلية ، وتوقفت أمام مدينة مازر وهنــاك التقت بالاسطول البيزنطي فسحقته ، ودخــل المسلمون الجزيرة وأخذوا يحتلون مواقعها الواحد تلو الآخر ، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقوسة براً وبحراً بعدما أتاه المدد من القيروان ، ومن المفيــد هنا ملاحظته ان قاضي افريقية رفض حين توجه لغزو صقلية ان يصطحب معــه أوفيمياس وأعوانه •

وأثناء حصار سرقوسة وصل اسطول بيزنطي كبير لفك الحصار عنهــا وأمده اسطول من البندقية ، وبسبب ذلك أصيب الجيش الأغلبي باتتكاسة ، لكن رغم ذلك لم يتوقف عن متابعة الجهاد ، ثم أصيب باتتكاسة ثانية حيث انتشر الطاعون بين صفوفه ، وأثناء هذا مات أسد بن الفرات قائد الحملة وكان ذلك سنة ٢١٤ هـ •

وعقب وفاة الامام ابن الفرات استمر المسلمون في تقدمهم فحاصروا بلدة قصريانة، وأثناء ذلك جاء من بيزنطة اسطولجديد يبتغي سحق المسلمين، وأخفق هذا الاسطول حيث وصل من الاندلس أسطول قوامه ثلاثمائة سفينة بقيادة اصبغ بن وكيل ، ثم وصلت امدادات أغلبية جديدة ، وهكذا استمر المسلمون في التقدم فحاصروا سنة ٢١٦ هـ مدينة بلرم واحتلوها وبسقوط هذه المدينة أصبح الاتصال بين افريقية وصقلية ميسوراً وبات من الممكن نقل الامدادات والمؤمن دون مجازفة وبمأمن من الاسطول البيزنطي •

ولمدة تفوق السبعين سنة استمر المسلمون يخوضون ملحمة رائعة حتى خلصت صقلية لهم ، واخفقت جميع جهود الامبراطورية البيزنطية في الحفاظ على هذه الجزيرة الهامة •

وأصبحت صقلية بلداً عربياً تابعاً لدولة الأغالبة ، واتخذ المسلمون بلرم عاصمة للجزيرة ، وصار والي بلرم يعين من قبل أمير القيروان ، وحيث كانت مهمة والي صقلية في الدرجة الأولى عسكرية ، فقد كان يتم اختياره من بين كبار العسكريين في الجيش الأغلبي ، وتغيرت قوانين الادارة في صقلية إلى

قوانين اسلامية كما تغيرت الأحوال فيها بشكل عام فازدهرت أحوال السكان بشكل واضح وكثرت في الجزيرة الثروات حتى صار فيها « من الخصب والزرع والمواشي والرقيق ما يفضل سائر مدن الاسلام المتاخمة للبحر » حسب وصف الجغرافي الاصطخري لها •

ودخلت حضارة الاسلام إلى صقلية ، واختفت العناصر البيزنطية منها ، وتحرر العبيد ، وحل الأمن محل الاضطراب، وهاجر اليها كميات من المسلمين من عرب وبربر وفرس ، وبنيت في الجزيرة المساجد ، وقامت بدورها التعليمي، وانتشر هناك كتاب الموطأ مع فقه الامام مالك ، ونبغ في الجزيرة عدد من الفقهاء والادباء والشعراء ، وصارت صقلية الآن جسراً نقلت عبره عناصر الحضارة العربية إلى أوربة، وظلت هذه العناصر حية دفاقة وفعالة لقرون عدة، حتى بعد زوال السيطرة العربية السياسية عنها •

عمرو بن عيسى

(ت بعد ٨٥٠ م ؟)

على شواطىء البحر الأبيض المتوسط قامت أعظم الحضارات وأقدمها ، وتأسست أهم الديانات خاصة السماوية منها ، ومن هذه الشواطىء انتشرت في بقاع الأرض قاطبة ، حتى الاسلام ، فإنه وإن قام في شبه جزيرة العرب ، فإنه انتشر عالمياً من حوض البحر المتوسط أيام خلافة بني أمية ، ونظراً لأهمية البحر الأبيض المتوسط العظمى ، ولوضعه الجغرافي ، وكثرة الجزر فيه والخلجان والبقاع الصالحة للابحار على شواطئه ، فإننا نلاحظ أن دول التاريخ العظمى وكبريات الامبراطوريات تصارعت من أجل السيادة عليه ، ووضعت في حساباتها العسكرية العمق الاستراتيجي له ، حتى ليمكن لنا الحديث عن أمر تاريخي عسكري نسميه « استراتيجية متوسطية » وهذا ما نراه واضحاً في أعمال الاسكندر المقدوني ، وقبله في تاريخ الصراع الفارسي الاغريقي ، ثم تاريخ الصراع بين روما وقرطاج ، وفي مقاصد الشعوب الجرمانية أثناء اندفاعها نحو الأراضي الرومانية في القرنين الرابع والخامس م ، ثم بعد ذلك في القرن السابع للميلاد أثناء الصراع بين بيزنطة وفارس ، فقد احتل الفرس سورية وأجزاء من آسية الصغرى ، مما دفع هرقل ابن سميه حاكم طنجة البيزنطي إلى القيام برحلة في المتوسط نحو القسطنطينية ، حيث استولى على عرشها ، ثم قاد حملة بحرية ، وقام بعملية انزال فطعن القوات الساسانية في جنبها وأجبرها على الانكماش ثم الانسحاب من آسية الصغرى ومن الشام ، ثم طاردها حتى التحم بها في معركة نينوى قرب الموصل سنة ٦٢٧ م ، فهزمها هزيمة ساحقة .

وتقابل سنة ٦٢٧ م السنة الخامسة للهجرة فقد كان المسلمون بقيادة

نبيهم ﷺ يراقبون الصراع الدولي من حولهم ، ونلمس صدى هذا في سورة الروم ، وفي أن العرب تعلموا دروس هذا الصراع واستفادوا منها إلى أبعد الحدود أثناء اعدادهم لخططهم القاضية بفتح العالم .

وكما هو معلوم كانت حدود شبه جزيرة العرب مرتبطة بفارس عبر العراق وبيزنطة عبر الشام ، وهكذا عندما وضعت خطط الفتح روعي شأن البحر الأبيض المتوسط ، وحيث أن هذا البحر له منفذان رئيسيان : واحد عند طنجة وآخر عند القسطنطينية ، فقد استهدفت هذه الخطط الوصول إلى هذين المنفذين ، ومن ثم تملكهما .

ومن هنا نفهم الأسباب التي حدت بأبي بكر الصديق إلى ارسال ثلاثة [أو أربعة] جيوش إلى الشام لفتحه وواحد فقط لفتح العراق ، فالعراق وفارس بلا حدود بحرية بينما أراضي الشام لها شواطىء طويلة على المتوسط ولها بقاع داخلية تصلها بالعراق وأرمينية ومصر ، ولهذا نجد جيوش الشام : واحد منها وهو جيش شرحبيل بن حسنة تولى قلب سورية ، وثانٍ وهو جيش عمرو بن العاص تولى الشاطىء الجنوبي حتى مصر ، وثالث وهو جيش يزيد بن أبي سفيان تولى الشاطىء الشمالي حتى ما بعد الاسكندرون ، ومعروف أن جيش يزيد المطور هو الذي سيتولى في المستقبل حصار القسطنطينية ، وجيش عمرو هو الذي سيتولى فتح الشمال الأفريقي ثم الأندلس .

من هذه الاستراتيجية الرائعة مع توابعها في التطبيق نرى أسباب اخفاق هرقل في الدفاع عن سورية وعدم نجاحه في عمليات الانزال البحري ، فالمتتبع لأخبار الفتوح يرى ، على سبيل المثال ، أن العرب قاموا وهم يحاصرون دمشق بارسال وحدات عسكرية لاحتلال ساحل صور حتى بيروت، وأثناء حصار حمص أرسلوا وحدات أخرى لاحتلال ساحل اللاذقية وهكذا ..

وتبين بعض الأبحاث الحديثة أن العرب شرعوا منذ أيام عمر بن الخطاب بتحصين شواطئهم وببناء قوة بحرية في مصر والشام ، وفي أيام عثمان سنة

٢٧ هـ [٦٤٨ م] قامت الأساطيل العربية بأول عمل بحري داخل المتوسط استهدف فتح جزيرة قبرص .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان حاصر العرب القسطنطينية ، فأخفقوا باحتلالها ، ولدى استئناف حركة الفتوحات أيام الوليد بن عبد الملك استولوا على منفذ طنجة من جانبيه الأفريقي والأوربي ، وبعد الوليد في عهد سليمان ابن عبد الملك حوصرت القسطنطينية ثانية للسيطرة على منفذها ولجعل المتوسط بحيرة عربية ، والمتتبع لتاريخ البحرية العربية يلاحظ أن الكفاح من أجل هذا الهدف لم يتوقف أبداً ، وهكذا صرف العرب جل جهودهم للسيطرة على جزر المتوسط الرئيسية : قبرص . صقلية . مالطة . كريت .

إن الفتح العربي لكريت يعد احدى ملاحم التاريخ الكبرى ، فهذه الجزيرة اعتبرتها الامبراطورية البيزنطية ثغرها البحري الأول ، ولعل اسمها [أقريطش] نبع من هذا الحال ، وجزيرة كريت ذات المائة مدينة لها تاريخ عريق وحضارة قديمة ، وقد شهرت باعتدال مناخها ولطف هوائها وبأهميتها التجارية ثم بامكاناتها الزراعية ، كما شهرت بانتاجها لكميات كبيرة من العسل والجبن .

وسواحل جزيرة كريت كثيرة التعاريج فيها عدد كبير من الخلجان الصالحة لأعمال الابحار ، وسطح الجزيرة تسوده ــ مثل بلاد الاغريق ــ الطبيعة الجبلية مما يضفي على الأعمال العسكرية فيها صعوبات خاصة ، لكن كان لجبالها المكسوة بالأشجار مغريات خاصة تعلقت ببناء الأساطيل ، وشهر أهالي كريت منذ القدم بالتجارة وأعمال القرصنة البحرية ، لذلك كانت كريت دائماً سوقاً كبيراً لبيع الرقيق بأنواعه .

وحظيت كريت منذ فترات مبكرة في تاريخ الاسلام باهتمام العرب بها والتفكير بالسيطرة عليها ، ونسمع عن حملات ضد كريت أيام بني أمية وفي

العصر العباسي خاصة أيام الرشيد الذي أولى الاسطول عناية خاصة ، ففي سنة ١٩٧ هـ / ٨٠٩ م أرسل الرشيد حملة بحرية تمكنت من احتلال أجزاء من كريت ، لكن فقط لفترة مؤقتة .

فلقد قُدر أن تفتح كريت فتحاً عربياً « شعبياً » وليس من قبل جيوش ترسلها احدى الدول العربية ، ففي أواخر القرن الثاني للهجرة في امارة الحكم الثاني شهدت دولة الأندلس عدة اضطرابات داخلية في طليطلة ومنطقة قرطبة سببت هجرة أعداد كبيرة من الأندلسيين إلى خارج بلادهم ، فمن هؤلاء من قدم أراضي المغرب الأقصى وكان له اسهاماته في تأسيس مدينة فاس عاصمة دولة الأدارسة الناشئة ، ومنهم من ركب البحر حتى الاسكندرية في مصر ، وكانت أحوال مصر مضطربة ، فدخلوا المدينة وكثرت أعدادهم فيها حتى تملكوها ، مما دفع الخليفة المأمون العباسي إلى المسارعة لايجاد حلول لمشاكل مصر ، وحاصرت الجيوش العباسية الاسكندرية حصاراً شديداً وبعد طول حصار تم الاتفاق على أن يسمح للاندلسيين ، وكان عددهم يفوق العشرة آلاف ، بركوب البحر والتوجه حيث أرادوا على أن لا ينزلوا بلداً عباسياً وألا يصحبوا معهم في مراكبهم التي قاربت الأربعين أحداً من المصريين .

وهكذا غادر الأندلسيون الاسكندرية في ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ [تموز ٨٢٧ م] وتوجهوا عن سابق نية نحو جزيرة كريت تحت قيادة زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى ، وكانوا رجالاً فقط بلا عيالات أو نساء ، واستطاعوا النزول على شاطىء الجزيرة حيث احتلوا موقعاً حصنوه فيما بعد وخندقوا حوله ، فعرف منذ ذلك الحين باسم الخندق .

ومن قاعدة الخندق وخلال كفاح استمر حوالي العقدين من الزمن تمكن الأندلسيون من احتلال جميع أجزاء كريت وحولوها إلى جزيرة عربية ، وجهدت بيزنطة بطاقاتها الامبراطورية الهائلة خلال ذلك إلى منع العرب من احتلال كريت فاخفقت ، ويبدو أن العرب ظل على رأسهم طوال هذين العقدين قائدهم أبو حفص عمر ، وأن أبا حفص هذا أنشأ في كريت

أسرة إمارة وراثية فنحن وإن كنا لا ندري سنة وفاته ، إلاّ أن المصادر تخبرنا أنه أورث الامارة لابنه شعيب .

ولم تنتم الامارة العربية الجديدة بالولاء والخطبة للأندلس الأموية بل إلى الخلافة العباسية ، وظلت كريت جزيرة عربية لمدة قرن ونصف تقريباً ، خاض عربها خلالها عدداً كبيراً من المعارك دفاعاً عن أرض كريت أو هجوماً على أساطيل ومواقع بيزنطية ، وبذلك سطروا أروع ملحمة في تاريخ البحرية العربية العريق .

أبو ذر الغفاري

رضي الله عنه

(ت : ٣٢هـ / ٦٥٢م)

من أهم القبائل التي سكنت مكة كانت قبيلة غفار ، وهي إحدى قبائل كنانة التي انحدرت منها قريش ، وشهرت قبائل كنانـة ، وخاصة غفار منها بالنشاط الديني ، الـذي عظم قبيل ظهور الإسلام وعـرف باسم البحث عن الحنيفية ، وكان لغفار مكانتها المؤثرة بالنسبة لقريش ، ذلك أن القوافل كانت تمر بديارها .

وعندما قام الإسلام ، وانتشرت دعوة النبي ﷺ إلى خارج مكة وصلت غفار فاهتم بعض أفراد القبيلة بها ، وتفاعلوا معها ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الإسلام ، وتم ذلك إثر إسلام أحد أفراد القبيلة ، واسمه أبو ذر .

لقد اختلف الرواة في تحديد الاسم الأساسي لأبي ذر ، كما أن رواياتهم عن دخوله في الإسلام تباينت في عدد من التفاصيل ، واتفقت أن ذلك كان قبيل حدوث الهجرة ، وأن النبي ﷺ بعث بأبي ذر إلى قومه لدعوتهم إلى الإسلام ، فنجح في مهمته .

وفي العهد النبوي تميز أبو ذر بصدق إيمانه ، وبزهده وشجاعته ، واخلاصه المتناهي، ولم يحدث أن تم تكليفه آنذاك بعمل إداري أو عسكري، وعلى هذا لاتنبع شهرة أبي ذر من دوره الـذي شغله أيام النبي ﷺ ، لكن بسبب ما قام به أيام الخليفة الراشدي الثالث .

ففي عصر عثمان حدثت تطورات كبيرة ألمت بالمجتمع العربي الاسلامي الناشيء حيث أخذ القوم يجنون ثمرات الفتوح ، فملكوا الأموال والضياع وصار بينهم طبقة على غاية من الثراء ، كما أن البحث عن المغنم والثروة كان

هدفاً يلاحقه السادة والحكام ، ومعروف أن ثروات الدنيا محدودة وكلما ازداد ثراء قلـة ازداد حرمان جمهور أكبر ، وزيادة ثراء القـلة فيها إخلال بالموازين مما يسبب العديد من المشاكل .

لقد شهد أبو ذر هذه التحولات فخاف منها وخشي أثرها المدمر على الأمة ، فأعلن صوته مدوياً في رفضها ، فلاقى الاستجابة مع ردات فعل شديدة ومعادية .

لقد تفجرت المشاكل في كل الولايات ، وبلغت أخبارها إلى عثمان وتردد صداها في كل مكان ، وكانت البداية عبـارة عن أعمـال شكوى ونصيحة وتحريض كادت أن تؤدي إلى الثورة ، وخشي الولاة من ذلك فقاموا بنفي عناصر الاثارة من ولاياتهم ، وفي الشـام شارك أبو ذر في أعمال الانـذار والنصيحة والشكوى وبلغ نشاطه حداً أقلق فيه والي الشام معاوية بن أبي سفيان وقلقل مكانته ، فقد تناول أبو ذر في هجومه معاوية والخليفة نفسه مع عدد من الصحابة الأثرياء ، لهذا قام معاوية بالكتابة إلى الخليفة قائلاً :

بسم الله الرحمن الرحيـم

لعبد الله عثمان أمير المؤمنين

من معاوية بن صخر ، أما بعد : فإني أخبرك يا أمير المؤمنين ، بأن أبا ذر قد أفسد عليك الشام ، وذلك أنه يظهر لأبي بكر وعمر بكل جميل ، فإذا ذكرك أظهر عيبك وقال فيه القبيح ، وإني أكره أن يكون مثله في الشام أو بمصر أو بالعراق ، لانهم قوم سراع إلى الفتن ، وأحب الأمور اليهم الشبهات وليسوا بأهل طاعة ولا جماعة ، والسلام » .

« فكتب إليه عثمان :

أما بعد فقد جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر أبي ذر جندب ابن جنادة ، فإذا ورد عليك كتابي هـذا ، فابعث به إلي واحمله على أغلظ

المراكب وأوعرها ، وابعث معه دليلاً يسير به الليل مع النهار ، حتى يغلبه النوم فينسيه ذكري وذكرك ، والسلام » .

ونفذ معاوية أوامر الخليفة فأرسل أبا ذر في رحلة قاسية جداً حتى إذا قدم المدينة كان لحم فخذيه قد سقط ، وأدخل على عثمان وكان أبو ذر رجلاً داكن البشرة ، طويلاً ضعيفاً نحيفاً ، شيخاً أبيض الرأس واللحية ، فلما رآه عثمان قال له : لا أنعم الله بك عيناً يا جنيدب فقال أبو ذر : أنا جندب بن جنادة وأسماني النبي ﷺ عبد الله ، فقال عثمان : أنت الذي تزعم بأننا نقول : ان يد الله مغلولة ، وأن الله فقير ونحن الأغنياء ؟ فقال أبو ذر : لو كنتم لا تقولون ذلك لأنفقتم مال الله في عباده المؤمنين ، إني لم أقل ذلك ولكني أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: إذا بلغ بنو أمية بن العاص ثلاثين رجلا جعلوا مال الله دولاً ، وعباد الله خولاً ودين الله دخلاً ، ثم يريح الله العباد منهم .

فقال عثمان لمن بحضرته من المسلمين : أسمعتم هذ االحديث من رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ما سمعناه ، فقال عثمان : ويلك أتكذب على رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو ذر لمن حضر : أتظنون أني كذبت ولم أصدق في هذا الحديث، فقال عثمان : ادعو إلي علي بن أبي طالب ، فدعي له ، فلما جلس قال عثمان لأبي ذر : أقصص عليه حديثك في بني أبي العاص، فأعاد أبو ذر الحديث، فقال عثمان : يا أبا الحسن هل سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال علي : لم أسمع هذا ولكن صدق أبو ذر ، فقــال عثمان : وبما صدقته ؟ فقال علي : بحديث النبي ﷺ : ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أحداً أصدق لهجة من أبي ذر ، فقال جميع من حضر من أصحاب رسول الله ﷺ : صدق علي ، فالتفت اليهم أبو ذر قائلاً : احدثكم أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وتتهمونني ، ما كنت أظن أن أعيش حتى أسمع هذا منكم ، فقال عثمان : كذبت انت رجل محب للفتنة ، فقال أبو ذر : اتبع سنة صاحبيك أبي بكر وعمر حتى لا يكون لأحد عليك كلام ، فقال عثمان : ما أنت وذاك لا أم لك ؟ فقال أبو ذر : والله ما أعرف لي إليك ذنباً إلا الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، فاشتد غضب عثمان ثـم قال : أشيروا علي في أمر هـذا الشيخ الكذاب فقد فرق جماعة المسلمين ؟ فقال علي : أما أنا فأشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون : « إن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » (غافر : ٢٨) .

فلما سمع عثمان كلام علي اشتد غضبه وقال : التراب بفيك يا علي ، فأجابه علي : بل بفيك يا عثمان ، أتصنع هذا بأبي ذر وهو حبيب رسول الله ، فأمسك عثمان » وأرفض المجلس .

وحضر بعد هذا أبو ذر مجلس عثمان ، فعرض ارساله إلى قرية اسمها الربذة واقعة على الطريق الواصل بين مكة والمدينة ليقيم بها ، ووعده بمنحه عدداً من ابل الصدقة ليستغلها ، فرفض أبو ذر ، وقال لـه : يكفي أبا ذر ما يقوم بأوده ، وتمتع أنت وأمثالك بدنياكم ، ودعونا وربنا وديننا ، وكان عثمان يشرف آنذاك على توزيع إرث الصحابي عبد الرحمن بن عوف ،وكان كبيراً وكان في مجلسه كعب الأحبار ، فقال عثمان لكعب : ما تقول فيمن جمع هذا المال ، فكان يتصدق منه ويعطي في السبل ، ويفعل ويفعل ؟ فقال : إني لأرجو له خيراً ، فغضب أبو ذر ورفع العصا على كعب وقال : وما يدريك يا بن اليهودية ، ليودن صاحب هذا المال يوم القيامة لو كانت عقارب تلسع السويداء في قلبه .

فغضب عثمان مجدداً غضباً شديداً ، فقال لأبي ذر : أخرج عنـا من بلدنا ، فقال أبو ذر : ما أبغض إلي جوارك ، ولكن إلى اين أخرج ؟ فقال عثمان : إلى حيث شئت ، فقال : ارجع إلى الشام فإنها أرض الجهاد ؟ فقال عثمان : إني إنما جئت بك من الشام لما تفسد بها علي ، ولا أحب أن أردك إليها ، فقال أبو ذر : فاخرج إلى العراق ، فقال عثمان : لا لأنهم قوم أهل شبهة ، وطعن على الأئمة ، فقال أبو ذر : فإني حيث كنت ، لا بد من قول الحق ، فإلى أين تحب أن أخرج ؟ فقال عثمان إلى بلد هو أبغض البلدان إليك ، قال : الربذة ؟ قال : فاخرج اليها ولا تعدوها .

وأمر عثمان مروان بن الحكم بإخراج أبي ذر من المدينة على بعير بغير وطاء ، فأخرج وتبعه جماعة من الناس يشيعونه ويحزنون لحزنه ، على رأسهم علي بن أبي طالب والحسن والحسين وعمار بن ياسر وغيرهم ، فتقدم علي من أبي ذر فجعل يعزيه فيما قد نزل به ، ويأمره بالصبر والاحتساب إلى وقت الفرج ، وضاق مروان بن الحكم بعمل علي ، فأقبل عليه قائلاً : أليس أمر أمير المؤمنين أن لا يخرج أحد مع هذا الشيخ ، ولا يشيعه أحد من الصحابة ؟ فرفع علي قضيباً كان في يده فضرب به بين اذني بعير مروان ثم قال : إليك عنا يا ابن الزرقاء ، أمثلك يعترض علينا في الذي نصنعه » ؟! •

ومضى أبو ذر إلى الربذة ، فأقام فيها في أقسى حال وأشده ، وصبر على ذلك ، وحيث أن الربذة قامت على طريق الحج ، فإن المسافرين بين مكة والمدينة كانوا يمرون بأبي ذر فيعرضون عليه المساعدات فلا يقبل من أحد، شيئاً ، وكان حيث هو يتابع نقده لعثمان والنكران على أصحاب الأموال، والتبشير بضرورة إحداث التغيير ، وكان لهذا صدى كبيراً وأثراً فعالاً ، ولم يزل أبو ذر مقيماً في الربذة حتى حضرته الوفاة عام ٣٢ هـ ، وحين دنت منيته «جعلت أم ذر تبكي تحت رأسه، فقال لها : ما يبكيك يا أم ذر؟ قالت :أبكي لضيعتك هنا في أرض غربة ، وأنا امرأة ضعيفة غريبة ، وأخاف أن أعجز عن أمرك ، فقال : لا تبكي يا أم ذر ، فإن رسول الله ﷺ قد أخبرني أني أموت في أرض غربة ، ويلي أمري ودفني قوم صالحون ، ولكن انظري يا أم ذر إذا أنا مت فاستعيني بمن يذبح لك شاة من غنمي فاطبخيها والزمي قارعة الطريق ، فإذا مر بك نفر من أهل الإسلام ، فقولي لهم : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد قضى نحبه ، ولحق بربه ، فواروه رحمكم الله ، فإنهم سيلون أمري ، فإذا فرغوا من أمري فأطعميهم الشاة ثم انصرفي إلى المدينة فكوني فيها حتى يأتيك الموت كما أتاني » •

وتوفي أبو ذر ، ونفذت زوجته وصيته ، ثم وقفت على الجادة فمر بها ركب من الحجاج ، فيهم الأحنف بن قيس ، وصعصعة بن صوحان والأشتر

النخعي ، فأخبرتهم ، فقاموا بالتأسف على أبي ذر وتولوا دفنه بشكل لائق ، وإثر دفنه وقف الأشتر النخعي على قبره ، « فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر نبيه محمداً صلوات الله عليه ، ثم قال : اللهم هذا أبو ذر جندب بن جنادة بن سكن الغفاري ، صاحب رسولك محمداً ﷺ ، اتبع ما أنزلته من آياتك ، وجاهد في سبيلك ، ولم يغير ولم يبدل ، ولكن رأى منكراً ، فأنكره بلسانه وقلبه ، فحقر وحرم حتى افتقر ، وضيع حتى مات غريباً ، في أرض غربة اللهم فأعطه من الجنة حتى يرضى ، واقصم من طرده وحرمه ، ونهاه عن مجاورة حرم رسولك محمداً ﷺ » .

وفي مساء ذلك اليوم غادر الأشتر وصحبه الربذة إلى المدينة حيث مكثوا قليلاً ، ليعودوا بعد ذلك إلى العراق ، وفي العراق ، نشط الأشتر والغيظ يملأ قلبه ضد سلطان بني أمية ، والثورة تتحرك في أوعيته ففجر أول حركة عصيان مسلح ضد عثمان ، ثم ما لبث أن طورها إلى ثورة ، حيث طرد سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة ، ومنعه من دخولها ، ثم قاد الثوار إلى المدينة ، فحاصروا عثمان في داره ثم قتلوه .....

الإمام الحسين بن علي

(ت : ٦١هـ / ٦٨١م)

« حسين مني ، وأنا من حسين ، أحبّ الله من أحبّ حسينا ، حسين سبط من الأسباط » .

النبي صلى الله عليه وسلم

لدى البحث في التاريخ المبكر للاسلام ، يلاحظ أنه بعدما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، وعقب استقراره في حاضرة الاسلام الأولى ، وقطعه أشواطاً بعيدة في انشاء الأمة الاسلامية الجديدة مع دولتها المركزية ، بدأ يظهر إلى الوجود معالم رسوم جديدة خاصة ، تحدد طرق التعامل مع النبي ﷺ الذي لم يعد مجرد داعية إلى دين جديد يتحدى به النظام القائم ، كما كان عليه الحال في مكة ، بل صار سيد أمة عقائدية جديدة في جميع المجالات ، لذلك اقتضى الحال احداث رسوم خاصة للتعامل معه ، ومن الملاحظ أن ظهور هذه الرسوم ترافق مع تمييز أسرة النبي ﷺ عن غيرها من الأسر ، والزام أفراد هذه الأسرة بالتزامات أشد من التزامات بقية أفراد الأسر الاسلامية ، فالصدقة مثلاً كانت حلالاً لكل مسلم محتاج إلاّ آل النبي ﷺ مهما كانت الأحوال ، وفرض الحجاب على أزواج النبي ﷺ وهكذا ...

وكان عدد أفراد أسرة النبي ﷺ قليلاً ، وفي أيامه الأخيرة ﷺ كان الأحياء من الرجال من آله قلة ، أبرزهم ابن عمه علي ، ثم عمه العباس رضي الله عنهما ، وكان علي أقدم سابقة من العباس ، كما أنه كان أوثق صلة بالنبي ﷺ ، فهو ربيب النبي ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، ووالد سبطيه ﷺ .

وظل علي بعد وفاة النبي أبرز آل محمد ﷺ ، ورأى فيه بعض من المسلمين الجدارة والأحقية لخلافة النبي ﷺ في قيادة الأمة الاسلامية ، ومع الأيام تكون حول علي نواة حزب خاص ، أعجب أفراده بما تمتع به علي من مزايا وصفات خاصة ومكانة اجتماعية ودينية ، فهو فتى الاسلام وفارس جماعة المسلمين اتسم بالشجاعة المطلقة والصدق والعلم ، وكان في تصرفاته مثال المسلم الحاذي حذو النبي ﷺ ، والمطبق لكل ما جاء به الوحي وأنزله الله على رسوله •

إنما رغم هذا كله فإن هذا الحزب لم يظفر بمكانة قيادية بين سكان المدينة من مهاجرين وأنصار ، ذلك أن الأنصار كانوا يتطلعون نحو استقلال ذاتي وزعامة أوسية أو خزرجية خاصة ، ثم إن غالبية المهاجرين كانت منذ ما قبل الاسلام تحسد آل هاشم وتنافسهم ، ولها بالتالي زعاماتها وتكويناتها السياسية الخاصة ، وحيث أن أهل المدينة كانوا في بداية العصر الراشدي هم أهل الحل والعقد ، لهم الحق دون سواهم في اختيار الخلفاء ، على أساس أن أهل مكة هم طلقاء ، وزعامات مكة مع الطائف من المؤلفة قلوبهم ، وسكان أقاليم شبه الجزيرة : أعراب أو ممن شارك في الردة ، ثم سكان البلاد المفتوحة : معاهدون أو سوى ذلك لا يحق لهم المشاركة في تقرير مصير السلطة ، والمسلمون الفاتحون :جند محظور عليهم التدخل في أمور السياسة •

لهذا كله مع أسباب وأمور أخرى مهمة أبعد علي بن أبي طالب عن تسلم منصب خلافة النبي ، وكان أن تسلم الخلافة بعد وفاة النبي أولاً أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وفي عهد الصديق تثبتت دعائم الاسلام في شبه الجزيرة ، وعادت الوحدة إلى أقطارها ثم بدأت حركة الفتوحات ، وفي عهد عمر آتت الفتوحات أكلها واتسعت رقعة الدولة الاسلامية الناشئة كثيراً ، وقام الفاروق بإعادة تنظيم الدولة ادارياً وسياسياً وعسكرياً ، بشكل رائع دل على عبقرية لا نظير لها بالتاريخ •

لقد جعل هذا الخليفة العظيم الجند العربي يعسكرون في أربعة

معسكرات رئيسية هي : الجابية في الشـــام ، الفسطاط في مصر ، البصرة والكوفة في العراق ، وقد جعل الفسطاط مسؤولة عن اكمال عمليات الفتوح في أفريقية ، كما عهد إلى البصرة بشئون فتح خراسان والمشرق ، وإلى الجابية بلاد الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) والكوفة الأقاليم الواقعة خلف اقليم الجزيرة شروعاً من أرمينية الدنيـا أو الصغرى ، ذلك أن ابن الخطاب رأى بنافذ بصيرته صـورة الصراع التاريخي الموروث بين العراق والشام ، فقام بالغاء جيش شرحبيل بن حسنة الشامي ، وأوجد إقليم الجزيرة ليكون واصلاً بين الشام والعراق ، وعهد بهذا الاقليم وما خلفه إلى الكوفة.

وسارت الأمور بانتظام ونجاح طوال عصر عمر بن الخطاب ، وفي أواخر أيام عمر طرحت مشكلة الخلافة من بعده وبالحاح ، وشعر الخليفة بالحاجـة الماسة لايجاد طريقة مرضية ومفيدة لاعتمادها بشكل دائم أثنـاء اختيار الخلفاء ، وأثناء البحث عن هذه الطريقة ارتفعت مكانة علي بن أبي طالب ، وتصدر المرشحين للخلافة من بعد عمر بن الخطاب .

وقبل أن يستكمل الفاروق خططه في ادارة الدولة ، حدث اغتياله ، فقام وهو على فراش الموت باعتماد طريقـة شورى الستة ، أي أن يختار الستة الباقون من الصحابة العشرة المبشرين بالجنة ، والممثلون في نفس الوقت لكبار بطون قريش ، أن يختار هؤلاء الستة وهم : عثمان بن عفان . طلحة ابن عبيد الله ، الزبير بن العوام. سعد بن أبي وقاص. عبد الرحمن بن عوف. علي بن أبي طالب ــ واحداً منهم لمنصب الخلافة .

واجتمع الستة ، وبعد طويل مناقشات تم اختيار عثمان بن عفان لمنصب الخلافة ، وهكذا أبعد علي بن أبي طالب مجدداً عن زعامة الأمة ، والأمر المثير للانتباه هنا أن جـل قوى المهاجرين والأنصار من أهـل المدينة أيدت اختيار عثمان ، لكن أصوات رجال حزب علي جاهرت لأول مرة في تاريخ الاسلام بمعارضة ذلك ، ومنه نستطيع القول بأن هذا الحزب ازداد عدد أفراده وعظم دورهم المعارض .

وتسلم عثمان الخلافة ، وشهد عصره انجازات كبرى وبداية تحولات اجتماعية خطيرة كان لها نتائج غير محدودة ، ولقد اعتمـد عثمان في ادارة أعماله على أقربائه من بني أمية ، وانطلق الصحابة من كبار وصغار نحو البلاد المفتوحة ، وأخذوا يتمتعون في جني ثمار الفتوحات ، وتكوين الثروات عن طريق الاستثمارات التجارية والزراعية وغير ذلك .

وأمام هذه الأحوال الجديدة ارتفعت أصوات الاستنكار والمعارضة في كل مكان إنما بشكل سلمي ناقد ، وحدث أن قام عثمان بالحاق ولاية اقليم الجزيرة بمعاوية بن أبي سفيان ، فأدى ذلك إلى اختلال مريع ، حيث زالت أداة الفصل والوصل والتوازن بين العراق والشام ، وحرم أهل الكوفة من مواردهم ومجال نشاطاتهم .

لذلك تحولت المعارضة في الكوفة من حركة سلمية إلى عصيان مسلح تطور إلى ثورة منظمة ذات مبادىء وأهداف ضمن مسلسل من الأحداث ليس هذا بمكان عرضها ، ويكفي القول بأن هذه الثورة فتشت عن زعامة قرشية لقيادتها فوجدت ضالتها في شخصية علي بن أبي طالب ، ولهذا بعد ما تم قتل عثمان بن عفان آلت الخلافة إلى علي بن أبي طالب ، حيث اضطر إلى ترك المدينة واتخاذ الكوفة مقراً له ، وقد جاء عصر علي زاخراً بالحروب الأهلية ، وانتهى هذا العصر باغتيال علي ، ثم باخفاق ابنه الحسن في البقاء في الخلافة حيث استولى معاوية بن أبي سفيان على مقاليد الحكم في الدولة العربية العظمى .

وكان أدنى معاني هذا الاستيلاء اخفاق ثورة الكوفة مع جميع حركات المعارضة ، واحتكار معاوية وآله من بني أمية مع رجالات الأرستقراطية القديمة والناشئة للسلطة ، مع التصرف بموارد الدولة الهائلة ، وبعدما حدث هذا لـم توقف المعارضة نشاطها رغم ما لحقها من اخفاق ، وتطورت قوى المعارضة إلى أحزاب ، وكانت معارضة أهل الكوفة أعظم قوى المعارضة وأنشطها وأعلاها شأناً وأعمقها أثراً ، وقد ثابرت على اسناد زعامتها لواحد أو

أكثر من أبناء علي بن أبي طالب ، وعرف حزب المعارضة هذا باسم الحزب العلوي أو شيعة علي وآله ، ففي العربية حزب رجل ما : هم شعيته ، وفي مستقبل الأيام سيقتصر الناس على استخدام عبارة شيعة ليعنوا بها حزب علي بن أبي طالب وآله ٠

ولقد مرّ حزب الشيعة بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بعدة مراحل ، ونزلت به بضعة نوازل حولته من حزب سياسي معارض يرى أحقية جماعة أو أسرة في السلطة إلى فرقة دينية ذات عقائد متميزة ، وبالتالي ذات فقه تشريعي خاص ، وكان أبرز هذه النوازل فاجعة كربلاء مع حصادها الدائم ٠

وبعدما حاز معاوية مقاليد السلطة في العالم الاسلامي لنفسه اهتم بالعراق فندب إلى حكمه أكفأ الرجال ، وأوصاهم بحكمه بالحديد والنار ، والعمل على شغل جنده خارج حدود العراق ، ونفي كميات كبيرة منهم إلى خراسان ، وكان زياد بن أبيه أفضل من نفذ هذه السياسة ٠

ومعلوم أن الحسن بن علي انسحب بعد تنازله عن الخلافة إلى المدينة ، وكان وجوده فيها مصدر قلق شديد لمعاوية ، فقد كان بقاءه حياً يتعارض مع مخططاته الرامية إلى تحويل الخلافة إلى ملك موروث في البيت الأموي ، يضاف إلى ذلك أنه كان بين الرجلين عهوداً ومواثيق تنص على أن تكون الخلافة لمعاوية ما دام حياً ، فإذا مات فالأمر للحسن ، وسعى معاوية للتخلص من الحسن وهكذا جاءت وفاته سنة ٤٩ هـ / ٦٦٩ م في ظروف تآمرية تشير إلى أن معاوية أوحى إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس ــ زوجة الحسن ــ بدس السم له ، بعدما أغراها بالمال ووعدها بالزواج من ولده يزيد ٠

وبمـوت الحسن آلت زعامـة آل بيت علـي إلـى الحسين ، ومرت علاقات الحسين بمعاوية بشكل سلمي إلى حد ما ، وكان معاوية يعرف معرفة يقينية مطامح الحسين وأوضاع أهل الكوفة وأن هؤلاء لن يدعوا الحسين حتى يخرجوه إليهم ، لذلك حذر معاوية ابنه في وصيته من ذلك ٠

ومات معاوية سنة ٦٠ هـ / ٦٨٠ م فتولى ابنه يزيد الخلافة ، وكتب يزيد إلى واليه في المدينة بأخذ البيعة من الحسين ومشاهير أبناء الصحابة ، فلم يوفق ، حيث رفض الحسين البيعة وذهب إلى مكة ، وبذلك كان أول المعارضين ليزيد بن معاوية ، هذا من جانب ومن جانب آخر جاء استلام يزيد لمهام الخلافة صدمة عنيفة للشيعة في العراق وسواهم من الذين عانوا من وطأة الارهاب والظلم أيام معاوية ، فمجيء يزيد كان يعني استمراراً لهذا الاسلوب من الحكم ، لذلك ما لبثت نيران الثورة المكبوتة في النفوس أن تفجرت تحركها ذكريات أليمة تزيدها اشتعالاً من موت الحسن مسموماً ، إلى قتل الصحابي الكبير حجر بن عدي ورفاقه إلى عمليات النفي والقتل والتشريد واغتصاب الحقوق والاستئثار بالمناصب ، وكان أهل الكوفة بحاجة إلى قيادة، ورنت الأبصار الآن نحو الحجاز حيث الحسين بن علي •

كان الانفعال يحرك أهل الكوفة ، إنما بلا نظام وإحكام ، ثم إن الكوفة كانت مدينة مجتمعها ليس موحداً ، يهم أفراده مصالحهم ، والالتزام مع المصالح المستهلكة أمر ، ونشدان المثل شيء آخر ، ومهما كان الحال فقد قام اتصال بين بعض أهالي الكوفة والحسين بن علي إثر اجتماع عقده الكوفيون في منزل سليمان بن صُرد الخزاعي ، وذلك بعدما بلغهم نبأ موت معاوية ، حيث اتفقوا على أن يكتبوا للحسين من أجل تسليمه الأمر ، والواقع أن الكوفة بدت حينذاك وكأنها بدون سلطة ، تنتظر بلهفة مجيء الحسين الذي توالت عليه كتب أشرافها التي بلغت عدداً كبيراً تجاوز الخمسين ومائة ، وكانت كلها تحمل الالحاح بقبول الدعوة والتعجيل في القدوم ، ومن أهم الرسائل تلك التي كتبت كما قيل من منزل سليمان بن صرد إثر الاجتماع الذي عقد فيه ، ومما جاء فيها « •••• أما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك من قبلك الجبار العنيد الغشوم الظلوم ، الذي ابتز هذه الأمة وعصاها ، وتأمر عليها بغير رضاها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى أشرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود •

ثم إنه قد بلغنا أن ولده اللعين قد تأمر على هذه الأمة بلا مشورة ولا اجماع ولا علم من الأخيار ، ونحن مقاتلون معك وباذلون أنفسنا من دونك ، فأقبل إلينا فرحاً مسروراً ، مأموناً مباركاً ، سديداً وسيداً ، مبراً مطاعاً ، إماماً خليفة علينا ، مهدياً ، فإنه ليس علينا إمام ولا أمير إلا" النعمان بن بشير ، وهو في قصر الإمارة وحيداً طريداً ، لسنا نجتمع معه في جمعه ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولا نؤدي إليه الخراج ، يدعو فلا يجاب ، ويأمر فلا يطاع ، ولئن بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه عنا حتى يلحق بالشام ، فأقدم إلينا ، فلعل الله عز وجل أن يجمعنا بك على الحق .... »

لقد كان على هؤلاء الثوار اخراج الوالي الأموي من مدينتهم والسيطرة عليها وعلى منطقتها كما فعل الأشتر النخعي من قبل أيام الثورة على عثمان بن عفان ، ومن ثم توجيه الدعوة للحسين ، ذلك أن ما أقدموا عليه كان عملاً مشوشاً فيه تغرير قاتل ، وهذا ما حصل .

قرأ الحسين بن علي كتب أهل الكوفة ، ورأى من واجبه الاستجابة لمطاليبهم ، إنما ليس اعتباطاً كما تحاول بعض المصادر أن تقول ، ولا تنفيذاً محتوماً كان يعلمه سلفاً ، كتب فيه عليه السير بطريق الشهادة تكفيراً عن ذنوب أمته التي اقترفتها برضوخها للجبابرة من بني أمية ، وذلك كما كفّر المسيح ، فهذه الأفكار التي جاءت بالمصادر الشيعية المبكرة نسبياً استعيرت من المسيحية القائلة بأن المسيح ابن الله فدى بدمه الشعوب الضالة ، ولهذا تقرر أن يفدي الحسين ، وهو ابن آخر الأنبياء ووحيد عصره ، تقرر أن يفدي بدمه أمته الضالـة .

إن القبول بفكرة الضلال هذه مرفوضة ، يضاف إلى هذا أن الاسلام اعتبر المسيح ابن مريم وليس ابن الله ، ولم يقر بالرواية القائلة بقتله أو صلبه .

لقد نصح الحسين بالبقاء بالحجاز أو بالتوجه نحو اليمن والاعتصام بجبالها حتى يحين الوقت ، وأن لا يذهب إلى الكوفة حيث قتل أبوه من قبل ثم خلع أخوه ، وبعد أخذ ورد قرر ارسال ابن عمه مسلم بن عقيل كيما يوطد له الأمور ، ويعد العدة لقدومه ، وذهب مسلم نحو الكوفة ، وما أن

دخلها حتى لاقى نجاحاً كبيراً ، حيث التف حوله أهلها خاصة الشيعة ، ومما ساعد على نجاح مهمتــه أن والي الكوفــة حينذاك النعمان بن بشير كان مستضعفاً ، فلم يبادر إلى الوقوف في وجه مسلم وضرب زعماء هذه الحركة ، وفي نفس الوقت لم يسيطر مسلم على مقاليد الأمور بالكوفة ، وظلت المدينة تتبع رسمياً لسلطة دمشق الأموية ، ووصلت إلــى دمشق أخبار الكوفة ، فعزل يزيد النعمان بن بشير ، وكلف عبيد الله بن زياد والي البصرة بالذهاب إلى الكوفة وتدارك الأمور فيها •

وكان ابن زياد بشخصيته الجبارة أكثر رجالات يزيد جدارة باحباط تمرد أهل الكوفة ، وقدم ابن زياد إلى الكوفة ، ودخلها ملثماً ليخفي أمره عن الناس ، ونجح في التمويه ، حتى أن البعض ظنه الحسين ، ذلك أن مسلم بن عقيل كتب إلى الحسين عن نجاحاته ودعاه إلى القدوم ، فاستجاب وأخبره بتحركه ، وحين دخل ابن زياد الكوفة كان أهل الكوفة يتوقعون وصول الحسين بعدما بلغتهم حركته من مكة •

وفي الكوفة تحرك ابن زياد بسرعة ، فضبط الأمور ، وشكل جيشاً كوفياً كبيراً أعده ليعترض الحسين القادم من الحجاز، وليقضي به على التحرك المرتقب لمسلم بن عقيل ، ومفيد هنا أن نشير إلى أن ابن عقيل اضطر إثــر دخول ابن زياد إلى الكوفة إلى التخفي ، وتخلى عنه غالبية من أيده من قبل ، وهكذا شرع ابن زياد في البحث عن مسلم كيما يعتقله ، ووفق في مسعاه هذا ، وقتل مسلم •

حدث هذا كله والحسين راكب الدرب نحو الكوفة معه جلّ أفراد أسرته من رجال ونساء وأطفال وخدم ، وكان تعداد الجميع حوالي التسعين ، وحين وصل منطقة القادسية بلغته أخبار حوادث الكوفة الجديدة بانقلاب الوضع ضده ومصرع مسلم بن عقيل ، ولا شك أن الخبر أدهشه ، ويبدو أنه رغب في عدم متابعة رحلته والعودة نحو الحجاز ، لكنه لم يتمكن من ذلك حيث دهمته طلائع قوات ابن زياد ، وأجبرته على متابعة السير ، ولدى وصوله إلى

منطقة كربلاء لاقاه جيش ابن زياد ، وكان تعداده حوالي العشرين ألفاً على رأسهم قرشي عريق هو عمر بن سعد بن أبي وقاص •

لقد كانت تعليمات ابن زياد لهذا الجيش واضحة تقضي بجلب الحسين إليه حياً أو ميتاً ، وعلم الحسين بذلك ، فقرر سلوك طريق الشهادة ، وخاض مع أتباعه معركة غير متكافئة فقد فيها حياته كما فقد جل من كان معه ، ولم ينج من المذبحة إلاّ غلام صغير كان عليلاً أثناء القتال هو علي الأصغر ، الذي سيعرف فيما بعد باسم زين العابدين •

لقد كان جلّ جند جيش ابن زياد من الأعراب مع بعض الذين اشتركوا من قبل في الردة على الاسلام ، وكانت مذبحة مهولة ، جاءت كأنها انتقام من النبي ﷺ بشخص حفيده وآله ، مذبحة ليس لها أي مسوغ أخلاقي أو قانوني •

هذا ولئن انتهت بالاخفاق هذه الحركة التي كانت الأولى ضد خلافة يزيد وسلطان بني أمية ، فإن هذا الاخفاق المأساوي لم يؤد إلى ضعف الحزب الشيعي ــ كما توقع ابن زياد عند ابادته لزعمائه في كربلاء ــ بل على العكس من ذلك كانت حركة الحسين باكورة ثورات هزت أركان النظام الأموي ، وكان دم الحسين وما زال مرجلاً يفجر الطاقات الثورية ، وشهادته طريقاً يسير عليه كل الذين يؤمنون بالعدل والانصاف والمساواة والشهادة •

المختار بن أبي عبيد

(ت : ٦٧هـ / ٦٨٦م)

عندما آلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب ، كان أول عمل قام به هو عزل كل من المثنى بن حارثة الشيباني عن جبهة العراق ، وخالد بن الوليد عن جبهة الشام ، وانتدب أبا عبيد الثقفي لقيادة المسلمين في العراق .

وفي العراق كانت أول أعمال أبي عبيد انتكاسة كبيرة للعرب ، كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات ، وذلك في معركة الجسر في منطقة قس الناطف على الفرات ، ففي هذه المعركة قتل أبو عبيد مع جمع كبير من قواته .

ترك أبو عبيد أسرة برز من صفوفها ابنه المختار ، الذي ربي في كنف عمه سعد ، وكان سعد هذا قد التحق بخدمة علي بن أبي طالب، وعندما تولى الحسن بن علي الخلافة لمدة يسيرة كان سعد والياً على المدائن .

في تلك الفترة بدأت تظهر على المختار ملامح مطامح سياسية خاصة جعلت السلطة الأموية ترتاب به وتراقبه ، ففي أيام يزيد بن معاوية ، برز المختار في الكوفة كأحد أركان الثورة التي كانت معدة لصالح الحسين بن علي ، لذلك ألقى عبيد الله بن زياد القبض عليه وأودعه السجن ، وقد ظل فيه حتى بعد ما قتل الحسين ، حيث توسط عبد الله بن عمر بن الخطاب لدى يزيد من أجل إطلاق سراحه .

من هذا ندرك أن بداية حياة المختار السياسية ظهرت في العراق وارتبطت بالنشاط الشيعي المعادي للحكم الأموي ، وبعدما أخرج المختار من السجن أمر بمغادرة العراق ، فتوجه إلى الحجاز ، وكان عبد الله بن الزبير حينذاك

يقاتل في مكة ضد الأمويين ، ولم يتردد المختار ، وهو الثائر على الأمويين ، عند وصوله إلى مكة في الانضمام إلى ابن الزبير ، ونظراً لبراعته ومؤهلاته كاد أن يصبح نداً لابن الزبير .

وبما أنه لا يجتمع سيفان في غمد واحد ، قام صدام بينه وبين ابن الزبير فلقد كان لكل منهما مطامحه الواسعة وبرامجه وأحلامه الخاصة في الوصول إلى السلطة ، لذلك هرب المختار من مكة ، وعاد إلى الكوفة حيث كان الجو أكثر ملاءمة لتحقيق أهدافه .

وحين حل المختار بالكوفة ، وجدها تحت وطأة تحرك يهدف للأخذ بثأر الحسين بن علي ، بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي ، وعرف أتباع ابن صرد باسم التوابين ، وحاول المختار التدخل لدى جماعة التوابين لتعديل خططهم ، فأخفق ، فالتزم الصمت والمراقبة ، حتى إذا ما تحرك التوابون من الكوفة ، حيث نزل بهم الدمار ، نشط المختار في الكوفة يبث دعوته بين الناس ، زاعماً أنه مفوض من قبل محمد بن الحنفية ، وموفد من قبله إلى أهل الكوفة ، للأخذ بثأر شهداء كربلاء .

ولاقت دعوة المختار في البداية نجاحاً كبيراً ، فاستطاع السيطرة على الكوفة ومناطق كثيرة في بلاد الرافدين ، لكن ما أن شرع في تقريب الموالي والفقراء والعمل من أجل تطبيق برنامج في الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي ، حتى نفر منه « اشراف الكوفة » وأخذوا يقاومونه بشدة ، رافضين تصديق قوله بأنه موفد من قبل ابن الحنفية حتى أنهم أرسلوا وفداً إلى الحجاز لسؤال ابن الحنفية ، وعاد الوفد ومعه إجابة غير واضحة .

وكانت الكوفة المدينة التي قامت كمعسكر للجند في عهد عمر بن الخطاب ، اثر فتح العراق ، قد تحولت الآن من معسكر للجند إلى مدينة سكنها جند الفتح الأوائل من العرب ، مع من لحق بهم فيما بعد من مهاجرة بداة شبه الجزيرة ، كما قطن فيها كميات كبيرة من سكان سواد العراق ومن

الرقيق وأسرى الفتوح وبعض أسر الامبراطورية الساسانية المندثرة الذين بحثوا عن مكان ملائم لهم في كيان الدولة الجديدة .

ولقد أراد جند الفتح الأول الاستئثار بموارد العراق لأنفسهم وحرمان غيرهم ، وباتوا يدعون أنفسهم بالأشراف، كما أن النظام الأموي قام بالاعتماد ما أمكن على العنصر العربي في مقابل العناصر غير العربية ، لذلك عاشت الكوفة في ظل صراعات قبلية متنوعة ، كما مزقها صراع طبقي عربي ، وصراع طبقي عربي أعجمي (موالي) ، لهذا نشطت في الكوفة الأفكار والدعوات المتطرفة وسواها .

وعندما امسك المختار بزمام الأمور في الكوفة نادى بالمساواة بين الجميع ، لكنه اضطر في البداية الى الاعتماد على مساعدة فئة من الاشراف حتى يتاح له السبيل لتكوين كوادر من الفقراء ، فتحالف مع إبراهيم بن الأشتر النخعي ، الذي كان قائداً باسلاً ، عرف مثل أبيه من قبله بشدة عدائه للأمويين وورث عنه براعته القتالية ومؤهلاته العسكرية ، فصار الآن الساعد الأيمن للمختار ، كما كان أبوه الساعد الأيمن لعلي بن أبي طالب .

وبعدما أحكم المختار قبضته على الكوفة أخذ يلاحق قتلة الحسين بن علي ويقتلهم الواحد تلو الآخر ، وبذلك عظم شأن المختار وصار شخصية لامعة حظيت بإعجاب الشيعة وإكبارها في العراق وخارجه .

وكان المختار عبقرية سياسية ثورية لا نظير لها ، أدرك معطيات عصره وعرف ما يمكن أن يحرك الجماهير ، في وسط فقير جاهل متدين ، نعم استخدم المختار الدين ، والإثارة العاطفية كأداة من أدوات التحرك الثوري ، ووسيلة من وسائل الاسراع في تطبيق برامجه بنجاح .

لقد أمر أن يخرج للعامة كرسي كساه بالديباج وزعم أنه كان عرشاً لعلي بن أبي طالب ، وأمر الناس بالتبرك به والطوفان حوله ، وفي نفس الوقت أخذ يسجع للعامة سجعاً على طريقة الكهان ، فيه ما يوحي بمعرفة المستقبل ، أو الاتصال بخبر السماء .

وأفاد هذا المختار كثيراً ، وإن استخدم فيما بعد كوسيلة للنيل منه والتشنيع به ، حتى قيل بأنه كاد أن يدعي النبوة ، وأن حركته ما كانت إلا ردة جديدة في ظل الإسلام وتحت لواء اسمه الكيسانية ..

كان على المختار أن يواجه عدة مخاطر ، داخلية وخارجية ، وجاءت المخاطر الخارجية من بلاد الشام حيث الحكم الأموي ، ومن البصرة التي دانت بالولاء لعبد اللهبن الزبير ، كما تمثلت المخاطر الداخلية في حركات الأشراف ضده .

وسمع المختار بأخبار زحف جيش أموي كبير ضده ، بقيادة عبيد الله بن زياد ، فانتدب له ابن الأشتر ، فأوقع به الهزيمة والدمار قرب الموصل ، وقتل ابن زياد وكبار ضباطه في ساحة المعركة ، وصارت الجزيرة الآن خاضعة لأتباع المختار ، فكان ذلك ذروة النجاح بالنسبة للمختار ، لكنه في الوقت نفسه بداية الانهيار ...

لقد كان ابن الأشتر من جماعات اشراف الكوفة ، وجمعت المطامح والعداء لبني أمية بينه وبين المختار ، وفي العادة إذا جمعت المطامح بين اثنين في الطور النظري ، تفرق بينهما في الطور العملي ، وهكذا ما أن صار ابن الأشتر سيد الجزيرة ، حتى أراد أن يستقل بها عن المختار ، وبات يتطلع نحو تحالف جديد ، وكاد في البداية أن يتحالف مع الأمويين ، لكن تغير الأوضاع في البصرة جعله يعدل عن ذلك .

ويمكن القول بأن صنيع المختار هذا كان محاولة أولى أصيلة هدفت نحو إقامة مجتمع إسلامي موحد قائم على رابط العقيدة لا على رابط الدم ، وشرف المحتد ، ولم يحتمل الاشراف ذلك ، وعندما أخفقوا في مقاومته ، أخذوا يفرون إلى مصعب في البصرة قائلين : « لقد تأمر هذا الرجل علينا بغير رضى منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم ، وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا » .

وفي البصرة استقبل مصعب بن الزبير أشراف الكوفة ، وأخذ بالعمل على تعبئـة الجيش لحرب المختار ، فاستدعى المهلب بن أبي صفرة قائـد ابن الزبير في فارس ، الذي كان يحارب الخوارج ، وطلب إليه إنابـة أحد أولاده مع قطعة من الجيش ، والقدوم عليه فيمن بقي معه من الجند ، وعندما وافاه سيره على رأس جيش كبير إلى الكوفة ، وفي نفس الوقت أرسل عبد الرحمن بن مخنف ، وهو أحـد أشراف الكوفة ، ومن ذوي المكانة لدى الشيعة ، أرسله إلى الكوفة بهدف الاتصال بأهلها لتخذيلهم عـن المختار ، وقبل أن يعمل مصعب كل هذا كان قد راسل ابن الأشتر ، وكسبه إلى جانبه ضد المختار .

وحين سمع المختار بإرسال الجيوش ضده ، أرسل أحد قادته الجدد واسمه أحمر بن شميط لملاقاة الغزاة ، فجرت معركة عنيفة بين جيش المختار ، وجيوش ابن الزبير ، انتهت بهزيمة جماعة المختار ، ومقتل قائدهم، وهنا آثر المختار الخروج بنفسه على رأس قواته ، وكان مصعب أيضاً قد غادر البصرة في طريقه إلى الكوفة ، وفي سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م ، وقرب حروراء جرت ملحمة عنيفة بين المختار ومصعب ، دارت الدائرة فيها على المختار ، فاضطر للتراجع إلى الكوفة ، واعتصم في قصر الأمارة ، حيث جرت بينه وبين قوات مصعب معارك كثيرة قاتل فيها المختار بشجاعة نادرة حتى لقي مصرعه .

وهكذا آلت ولاية العراق لابن الزبير ، وانزاح من أمامه المختار، لكن ذلك في الحقيقة أفاد بني أمية أكثر من ابن الزبير ، إذ سرعان ما سيزحف عبد الملك بن مروان على العراق ، فيقتل مصعب بن الزبير ويعيد العراق ولاية أمويـة .

لقد قيل الكثير الكثير عن المختار ، قيل بأنه مؤسس حركة كبرى من

حركات الشيعة ، هي الحركة الكيسانية ، وقيل هو الذي حول حركة الشيعة من حزب سياسي إلى فرقة دينية، وقيل بأنه كان صاحب عقائد وأفكار خطيرة، دينية وفلسفية ، كما قيل بأنه كذاب ، دجال مخادع ، استغلالي ..

قد قيل كل هذا وأكثر ، إنما مالم يقل ، والذي كان ينبغي أن يقال هو أن المختار بن عبيد كان الثوري الأول في الإسلام ، وواحد من رواد الثوار في التاريخ الإنساني الذين نادوا بالمساواة والغاء الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه ، ولا مغالاة إذا قلنا بأن جل الثوار في تاريخ الإسلام الذين جاؤوا من بعده كانوا عيالاً عليه .

عبد الله بن الزبير

(ت : ٧٣ هـ / ٦٩٢م)

أول شيء دخل في جوفه ريق النبي صلى الله عليه وسلم

... « وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير » . بهذه الكلمات أوصى معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد ، وقصد بابن الزبير عبد الله ، والذي ولد في السنة الأولى للهجرة من أبوين مسلمين هما : الزبير بن العوام ابن عمة الرسول ﷺ وحواريه وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ، وأسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، أخت عائشة أم المؤمنين .

نشأ ابن الزبير نشأة اسلامية خالصة ، وشارك في شبابه في عدد من النشاطات الاسلامية ، وسطع نجمه في فتوحات الشمال الافريقي ، في معركة سبيطلة ، حيث يروى أنه هو الذي تولى قتل جرجير صاحب إفريقية ، وكان ذلك في خلافة عثمان بن عفان ، وبعد الفتنة الكبرى ومصرع الخليفة الراشدي الثالث صحب كل من أبيه وخالته إلى البصرة وشارك في قتال معركة الجمل ، وتوحي بعض الروايات بأن خالته عائشة أم المؤمنين كانت ترشحه للخلافة...

وحين أوصى معاوية ابنه يزيد بوصيته ، كان في الواقع مصيباً في وصفه لابن الزبير ، وحكمه عليه ، فقد أثبتت الأيام أن ابن الزبير كان يتمتع بشخصية فذة ، ومطامح بعيدة ، فهو قد تحدى معاوية بن أبي سفيان مع كل من الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأعلن عن رفضه ورفضهم البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، وبعيد وفاة معاوية كان ابن الزبير في المدينة ، وقد حاول والي المدينة قسره على البيعة ليزيد فأخفق ، وتخلص ابن الزبير سراً إلى مكة ، وتبعه الحسين بن علي .

وفي مكة كان علـى ابن الزبير أن ينتظر بعض الوقت قبـل أن يجاهر بمطامحه للخلافة ، ذلك أن الناس التفوا حول الحسين بن علي ، ويروى بأن ابن الزبير رأى في بقاء الحسين في الحجاز عقبة في طريق مطامعه، فشجعه على الذهاب إلى العراق ، وبمقتل الحسين خلا له الجو فأعلن عن مراميه ، وأصبح سيد الموقف في مكة حيث بايعه الناس بالخلافة ، وأيده أهل المدينة في حركته .

ولما علم يزيد بن معاوية بثورة الحجاز ضده ، أرسل نحوه جيشاً مختاراً بقيادة مسلم بن عقبة المري ، وابتدأ ابن عقبة بالمدينة ، فخاض معركة الحرة ، واستباح مدينة رسول الله وعاصمة الاسلام الأولى ، وعرض أهلها جميعاً على المحنة والسيف بلا تمييز ، ثم أخذ الطريق نحو مكة ، لكنه لم يبلغهـا حيث توفي في الطريق ، فخلفه في قيادة الحملة الحصين بن نمير السكوني .

وألقى الحصين الحصار على مكة ، وضربها وقذف الكعبة بالمجانيق والنار، لكنه لم يتمكن من دخولها واختراقها،فالمقاومة كانت شديدةومحكمة وكان هذا سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ — ٦٨٤ م . وأثناء الحصار وصل الخبر بوفاة يزيد بن معاوية بالشام ، ففاوض الحصين ابن الزبير حول فك الحصار،والبيعة له ، واشترط عليه أن يصحبه إلى الشام لاعلانه خليفة هناك .

ورفض ابن الزبير الذهاب إلى الشام ، وتشدد في نقده للحصين وتهدده وتوعده ، وأعلن عن تمسكه بمكة عاصمة له ، غير مدرك أن هذه المدينة التي كانت مدينة شبه الجزيرة الأولى لما قبل الاسلام ، قد فقدت مكانتها السياسية بالهجرة منها ، ثم إن الحجاز فقد مكانته السياسية بعيد الفتوحات الكبرى ؛ ومهما يكن الحال توجه الحصين بن نمير إلى الشام عائداً دون اتفاق مع ابن الزبير ، الذي بقي في معقله مكة يرمم بنـاء الكعبة الذي هدمتـه مناجيق الحصين ، وشغله هذا عن ترميم بناء الدولة واهتبال فرصته ، فقام سواه في الشام ، فقرر مستقبل السياسة الاسلامية لسنين طويلة قادمة .

وفي دمشق كان الموقف السياسي مضطرباً عند عودة الحصين بن نمير ،

بسبب وفاة يزيد بن معاوية ثم ــ لما سمي ــ تنازل ابنه معاوية الثاني مــن العرش ، ووفاته في ظروف اغتيالية غامضة ، مما أدى إلى طرح قضية الخلافة وسبب انقسام البيت الأموي على نفسه ، وجر إلى احتدام الصراع القبلي بين قبائل قيس بزعامة كلاب ، والقبائل اليمانية بزعامة كلب ، وذلك بشكل لم تكن له سابقة في الاسلام، فقد أيد الحزب القيسي الدعوة إلى بيعة ابن الزبير، بينما رفض الحزب اليماني ، وفي الوقت الذي أعلنت فيه مصر مع العراق ، وشمالي بلاد الشام عن الولاء لابن الزبير أصرت قبيلة كلب في جنوب الشام على موقفها الرافض ، وعقدت مؤتمراً في الجابية [على مقربة مــن بلدة نوى في حوران ــ سورية] تمت فيه معالجة قضية الخلافــة بحيث اختير مروان بن الحكم شيخ بني أمية لهذا المنصب وذلك في سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م ، وقاد هذا الاختيار إلى معركة مرج راهط في أطراف دمشق ، وحاول ابن الزبير القيام بعمل ما ، فأنفذ حملة بقيادة أخيــه مصعب نحــو الشام ، فوصلت متأخرة وباءت بلا ثمرات ، وما لبث مروان أن استرد مصر لسلطانه وأخذ يعد العدة لاسترداد العراق والمشرق ، لكن منيته سبقته ، حيث ترك الأمور لابنه عبد الملك ، لكن بعد ما تمكن من احياء الملك الأموي ، إنما في فرع جديد هو الفرع المرواني .

ووطد عبد الملك مركزه في الشام ، وعندما شعر بالقوة الكافية زحف نحو العراق سنة ٧١ هـ / ٦٩٠ م ، فأنهى سلطان ابن الزبير هناك حيث هزم مصعب بن الزبير وقتله ، ودخل عبد الملك الكوفة ، وجاءته وفود القبائل تبايعه ، وعندما فرغ من أمر العراق عاد إلى الشام ليوجه إلى ابن الزبير ضربة قاصمة ينهي بها وجوده .

ووقع اختياره على الحجاج بن يوسف الثقفي لتنفيذ هذه المهمة وذلك سنة ٧٢هـ / ٦٩١م ، وقام الحجاج بحصار ابن الزبير في مكة بشكل محكم ، وأجتر ابن الزبير إلى خوض معركة انتحارية قتل فيها مع من بقي معه مــن أصحابه وهم قلة ، وذلك سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢ م ، وذلك بعد حصار دام ستة أشهر ، ثم أخذ جثته وعلقها وسط مكة تشهيراً ونكاية .

كان يوم مقتل ابن الزبير من الأيام التاريخية في حياة عبد الملك ، حيث شعر بأن سلطانه قد استقر وتدعمت أسسه ، واستمرت الخلافة الأموية تتمتع بالقوة والشرعية ، مما دفع غالبية الناس إلى وصف ما قام به ابن الزبير باسم « فتنة » رغم أن الرجل قام بأعظم محاولة سياسية تحدت النظام الأموي وكادت تقضي عليه ، محاولة سيطر صاحبها لمدة تقارب العقد من الزمان على بلدان العالم الاسلامي شرقاً وغرباً فيما عدا جنوبي بلاد الشام .

ان اعتصام ابن الزبير في الحجاز وامتناعه عن القدوم إلى دمشق ، أو الذهاب إلى العراق كما فعل أبوه وخالته من قبل ، في وقت شغرت فيه جميع الأماكن ، وعاشت دمشق تبحث عن خليفة لها فلا تجده فترة طويلة ، ولقد كان هذا على رأس الأسباب التي قادت إلى اخفاقه ، أقول على رأس الأسباب لأننا ينبغي أن تتذكر أن صفات ابن الزبير الشخصية من فقدان المرونة السياسية ، وتقتيره في انفاق المال ، وقصوره عن اصطناع الرجال ، وسوء معاملته لآل البيت بشخصي محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس ، كلها من العوامل التي قادت إلى اخفاقه .

غيلان الدمشقي

(ت بعد : ١٠٥هـ / ٧٢٣م)

روي عن الحسن البصري قوله : أربع خصال في معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة ، لكانت موبقة : خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منها ، واستخلافه يزيد ، وهو سكير ، خمير ، يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقد قال النبي ﷺ : الولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، وقتله حجر بن عدي ، فياله من حجر ، وأصحاب حجر .

في دولة قوامها الدين الاسلامي كالدولة الأموية ، كان لا بد للخلفاء من بني أمية من عقيدة تسوغ شرعية حكمهم ، فبنو أمية أسلم رجالاتهم إثر فتح مكة مكرهين ، وذلك بعد ما بذلوا قصارى جهودهم في عداء الاسلام ، وهذا الحال فرض نوعية المسوغ العقدي ، وهو أن الله تعالى قضى ، وقضاؤه الحق باستلام الأمويين السلطة ، وبرضى الله وتبعاً لما قضى حدث ما حدث في العصر الأموي .

وتمسك الحكم الأموي بهذه الفكرة وطورها إلى عقيدة كاملة ، هي التي عرفت فيما بعد باسم « الجبرية » ومعروف أن الحكم الأموي واجه حركات معارضة كثيرة وشديدة ، وصحيح أن حركات المعارضة عبرت عن مطامحها بأعمال عسكرية ، لكنها بالإضافة إلى ذلك لجأت إلى العمل العقائدي ، فرفضت جلها فكرة الجبرية ، لأن القبول بهذه الفكرة كان يعني نسبة الظلم إلى الله ، والله عادل يحكم دائماً بالعدل، لذلك دعا المعارضون للجبرية أنفسهم بأهل العدل ، ومع نهاية القرن الأول للهجرة وبداية الثاني غدت جماعات أهل العدل من القوة ورواج الأفكار بمكان ، وصار لديها

تجربة وتراث ، وهذه التجربة كان قد أغناها التراث المسيحي المحلي القائم حول مسألة طبيعة المسيح والعلاقة بين الناسوت واللاهوت ، كما أغناها التراث الفلسفي خاصة ما عاد إلى الافلاطونية المحدثة ، التي كان موطنها الأصلي مصر وبلاد الشام .

وحقق أهل العدل أول انتصاراتهم باستلام عمر بن عبد العزيز للخلافة حيث يروى بأنه كان شخصياً من أهل العدل ، لذلك قرب إليه رجالات أهل العدل البارزين وكلفهم بأعمال ارتبطت بسياسة التغيير التي أرادها .

وكان من أبرز رجالات أهل العدل أيام عمر بن عبد العزيز غيلان بن مسلم الدمشقي ، الذي لا ندري الكثير عن بداية حياته ، سوى أنه تتلمذ على الحسن بن محمد بن الحنفية ، وتأثر بأفكاره ولعل وجوده في دمشق في الفترة التي عاش بها يوحنا الدمشقي ، قد جعله يتعايش مع نقاش قضايا القضاء والقدر وبعض مشاكل الفلسفة التي طرحت آنئذ في دمشق ، ومنها انتقلت إلى بلدان أخرى ، خاصة إلى الامبراطورية البيزنطية .

وتتحدث كتب الأخبار بأن غيلان كتب إلى عمر بن عبد العزيز ، بعد توليه الخلافة ، كتاباً جاء فيه : « أبصرت يا عمر ، وما كدت ، اعلم يا عمر أنك أدركت من الاسلام خلقاً بالياً ، ورسماً عافياً ، فيا ميت بين الأموات ..طفىء أمر السنة ، وظهرت البدعة ، أخيف العالم فلا يتكلم ، ويعطى الجاهل ولا يسأل ، وربما نجت الأمة بالإمام ، وربما هلكت بالإمام ، فانظر أي الإمامين أنت ... فهل وجدت يا عمر حكيماً يعيب ما يصنع أو يصنع ما يعيب ، أو يعذب على ما قضى ، أو يقضي ما يعذب عليه ، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه ، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق الطاقة ، أو يعذبهم على الطاعة ، أم هل وجدت رشيداً يدعو إلى الهدى ثم يضل عنه ، أم هل وجدت رحيماً يكلف العباد فوق طاقتهم ، أو يعذبهم على الطاعة ، أم هل وجدت عدلاً

يحمل الناس على الظلم والتظالم وهـل وجدت صادقاً ، يحمـل الناس على الكذب والتكاذب بينهم ؟ كفى ببيان هذا بياناً وبالعمى عنه عمى » ... .

فدعا عمر غيلاناً ، « وقال أعني : على ما أنا فيه ، فقال غيلان : ولني بيع الخزائن ورد المظالم ، فولاه ، فكان يبيعها ، وينادي عليها ، ويقول : تعالوا إلى متاع الخونة ، تعالوا إلى متاع الظلمة ، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته ، وكان فيما نادى عليه جوارب خز ، فبلغ ثمنها ثلاثين ألف درهم ، وقد إئتكل بعضها ، فقال غيلان : من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى ، وهذا يأتكل والناس يموتون من الجوع .

فمر به هشام بن عبد الملك فقال : أرى هذا يعيبني ويعيب آبائي والله إن ظفرت به لأقطعن يديه ورجليه ، فلما ولي هشام خرج غيلان وصاحب له اسمه صالح إلى أرمينية ، فأرسل هشام في طلبهما ، فجيء بهما ، فحبسهما أياماً ، ثم أخرجهما ، وقطع أيديهما وأرجلهما ، وقال لغيلان كيف ترى ما صنع بك ربك ؟ فالتفت غيلان ، فقال لعن الله من فعل هذا ، واستسقى صاحبه ، فقال بعض من حضر ، لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم ، فقـال غيلان لصالح : يزعم هؤلاء أنهم لا يسقوننا حتى نشرب من الزقوم ، ولعمري لئن كانوا صدقوا ، إن الذي نحن فيه ليسير في جنب ما نصير إليه بعد ساعة من روح الله ، فاصبر يا صالح ، ثم مات صالح ، وصلى عليه غيلان .

ثم أقبل على الناس ، وقال : قاتلهم الله ، كم من حق أماتوه ، وكم من باطل قد أحيوه ، وكم من ذليل في دين الله أعزوه ، وكم من عزيز في دين الله أذلوه ، فقيل لهشام : قطعت يدي غيلان ، ورجليه ، وأطلقت لسانه ، إنـه أبكى الناس ، ونبههم على ما كانوا عنه غافلين ، فأرسل إليه من قطع لسانه ، فمات » .

لقد قتل النظام الأموي عمر بن عبد العزيز ، ثم لاحق منجزاته وأعوانه ، فأصمت غيلان ، وغيره ، إنما بفعله هذا زاد من إوار الثورة وقوة تصميمها ، فبعد فترة وجيزة من استشهاد غيلان سقطت الخلافة الأموية ، ذلك أن دم الشهداء ينير أرجاء الدنيا ، ويزيل الظلم والظلام .

أبو مسلم الخراساني

(ت : ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م)

عندما توفي النبي ﷺ ، كان واحـداً من أعمامه ما زال حياً ، وهو العباس بن عبد المطلب ، وكان العباس مع ابن أخيه علي بن أبي طالب ، أبرز شخصيات آل النبي ﷺ ، وكان علي أقـدم اسلاماً مـن العباس ، وألصق بالنبي ﷺ ، فقد أسلم العباس يـوم فتح مكة ، وكان قبـل ذلك معارضاً للاسلام ، لأسباب كان على رأسها وضعه المالي ، حيث حدد انتماءه الطبقي وبالتالي موقفه السياسي ، فقد كان من أثرياء مكة،لذلك كان حليفاً لأبي سفيان وخصماً مثله لابن أخيه النبي ﷺ ، حتى هزما فأسلما معاً في مناسبة واحدة .

وبعد الاسلام استقر العباس في المدينة وأخذ ينافس ابن أخيه علي على المكانة ، انما بشكل حذر خفي ، لكن بعد وفاة النبي ﷺ ، بان الخفاء وظهر الخلاف بينهما فاحتكما إلى أبي بكر ثم عمر .

وبعد وفاة العباس خلفه ابنه عبد الله في المكانة ، ولم ينافس عبد الله ابن عمه ،بل نجده عندما تسلم علي بن أبي طالب الخلافة يلتحق بخدمته ويسير بركبه اينما توجه ، وبعد معركة صفين وعودة علي إلى العراق واستقراره في الكوفة أوكل أمور البصرة إلى ابن عباس، وعندما وضح أن الوضع السياسي في الكوفة أخذ يزداد انهياراً ، قام خلاف بين علي وبين ابن عباس ، فجمع ابن عباس ما كان في بيت مال البصرة ، من ملايين الدراهم ، وحمل ذلك كلـه ، وتوجه به إلى مكة ، حيث عاش حياة كلها ترف .

وعبثاً حاول علي استرداد المال ، وتوفي علي وانتزع معاوية الخلافة

لنفسه ، فلم يتعرض لابن عباس بسوء ، ولم يتورط ابن عباس بدوره بأي نشاط سياسي بارز ضد معاوية ولا في عهد ابنه يزيد من بعده .

وقبيل وفاة يزيد أعلن عبد الله بن الزبير الثورة في مكة ، وبعد وفاة يزيد نادى بنفسه خليفة على المسلمين ، ونظراً لما آلت اليه أمور الخلافة الأموية في الشام نجح ابن الزبير في مد سلطانه إلى كثير من مناطق الدولة العربية .

وفي مكة قام نزاع بين ابن عباس ، الذي كان قد كف بصره وبين ابن الزبير ، واضطر ابن عباس إلى ترك مكة إلى الطائف ، ومنها تراسل مع عبد الملك بن مروان ، الذي نشط آنئذ في سبيل اعادة بناء الدولة الأموية ، وكان من نتائج هذه الاتصالات أن نصح ابن عباس ابنه علياً بالتوجه إلى الشام والسكنى هناك .

ونفذ علي وصية أبيه ، فاستقر في جنوب الشام قرب البحر الميت في قرية عرفت باسم الحميمة ، قامت على الطريق الذي كان يسلكه الحجيج من الشام إلى الحجاز .

وفي الشام تقرب علي بن عبد الله بن عباس من خلفاء بني أمية ، ومن الشام أخذ أبناء العباس يتطلعون إلى السلطة ، وهنا تختلف الآراء والاخبار حول كيفية حدوث ذلك .

فهناك من يروي بأنه بعد أن أخفقت ثوررة المختار بن أبي عبيد الثقفي آلت زعامة الجزء الأكبر في حزب الكيسانية الشيعي إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، حيث أعاد تنظيم هذا الحزب ، وأخذ بالعمل السري الهادف ، لكن الخلافة الأموية شعرت بالأمر ، فاستدعى الخليفة سليمان بن عبد الملك أبا هاشم اليه ، وحقق معه ، ثم أوعز بدس السم له عند مغادرته دمشق إلى الحجاز .

وفي الطريق شعر أبو هاشم بدنو أجله ، وكان لا يملك ولداً خاصاً به من صلبه ، لذلك عرج في طريقه على الحميمة ونزل عند آل العباس ، وهناك

توفي ، لكن قبل وفاته كشف سر دعوته وعين محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس اماماً من بعده •

وأخذ صاحب الدعوة الجديدة يعمل من الحميمة بحذر وحيطة حتى توفي سنة ١٢٦ هـ وخلفه من بعده ابنه ابراهيم الذي عرف بالامام ، فشهدت الدعوة على يديه بداية مرحلة جديدة ، وحاسمة ، حيث انتقلت من السرية إلى العلنيـة •

وإذا كان هذا هو المشهور لدى غالبية الرواة،فهناك من يرى أنه بعد ما أسقط العرب الامبراطورية الساسانية ، وأخذوا في التوسع شرقاً ، اضطروا لأسباب متعددة ابقاء نظام الادارة والجباية الساساني على حاله ، وكان النظام الساساني قائماً على اقطاعيات الفرسان، وكانت القرى والرساتيق تدار وتجبى الضرائب منها ، من قبل زعماء عرفوا بالدهاقين ــ مفردهم دهقان ــ •

وحافظ المسلمون على جماعة الدهاقين ، وبعد أمـد قصير مضى على سقوط الحكم الساساني ، أخـذ غالبية الدهاقين بالدخول بالاسلام ، لأن المصلحة اقتضت ذلك ، وتورط بعض الدهاقين في بعض الثورات والحركات التي عارضت المسلمين ، أو الدولة الأموية والتي قضي عليها جميعاً •

ونتيجة لذلك أخذ بعض الدهاقين في اعداد تنظيم سري بهدف الاطاحة بالحكم الأموي ، وحيث وجدت القناعة باستحالة اعادة الحكم الساساني تقرر ايجاد أسرة زعامة عربية قرشية ، ولم يكن أمام الدهاقين سوى اختيار أحد أفراد أسرة علي بن أبي طالب أو أبناء العباس ، وكان غالبية العلويين متورط في حركات خاصة ، وله عقائده وتنظيماته الموروثة ، والمرصودة من قبل السلطات الأموية ، لذلك اختار تنظيم الدهاقين أحد أفراد الأسرة العباسية ، لابعاد الشبهات ، ولأنهم ارادوا أسرة الزعامة ان تملك دون أن تحكم ••••

وهكذا قام الاتصال بين التنظيم والأسرة العباسية وضم هذا التنظيم اثني عشر نقيباً مع عدد من الدعاة بلغ السبعين ، وجههم جميعاً قائد التنظيم أو داعي الدعاة ، وأخذ هؤلاء بالدعوة إلى الرضا من آل محمد ، وعرفت

دعوتهم بالهاشمية ، نسبة إلى هاشم الجد الأعلى للنبي ﷺ وآله من علويين وعباسيين أو لسواه .

ونشط الدعاة في خراسان ، وهي بلاد شاسعة ، نائية عن دمشق منها ما كان في السابق تحت الحكم الساساني ،ومنها ما افتتحه العرب حديثاً ، وكان الاسلام قد بدأ ينتشر في خراسان ، كما عاش في هذه البلاد أعـداد لا بأس بها من الجند العرب الموالين للحكم الأموي والمعادين له ، وكان سكان خراسان لهم أصول عرقية وحضارية ودينية متباينة ، لهذا سهل عمل الدعاة الهاشميين فيها ، وكان هم هؤلاء الدعاة تجميع القوى الساخطة على الحكم الأموي حتى وان تباينت في الأهداف والمواريث والعقائد .

وفي أواخر الربع الأول للقرن الثاني للهجرة شهدت أراضي خراسان العديد من الأحداث الكبرى ، وكما سلف وذكرنا أنه في سنة ١٢٦ هـ آلت زعامة الأسرة العباسية إلى ابراهيم الامام ، فدخلت الدعوة في أيامه مرحلة حاسمـة .

فقد قام ابراهيم بارسال مندوب عنه إلى خراسان ، عرف بأبي مسلم الخراساني ، لا ندري شيئاً مؤكداً عن أصله واسمه الحقيقي وحياته الأولى، لكننا نعرف أن الامام حمله رايتان سوداوتان حملتا اسم « الظل (الندى) والسحاب » وأمره بأن يعلن الثورة في خراسان ، وأن يظهر السواد كشعار للثـورة .

كان هذا العمل أخطر ماتم حتى الآن في تاريخ الدعوة ، ذلك أنه حتى الآن ، كان هناك حزب سري منظم ، اصطنع لنفسه واجهة صورية تقريباً ، انما الآن أقدمت هذه الواجهة على التفكير بايجاد قوة مسلحة ، وصارت الحركة الآن تضم ثلاثة عناصر ، بدلاً من عنصرين .

وفي خراسان عرف أبو مسلم كيف يتحرك ، وينتهز الفرص ، فقد كان هناك نصر بن سيار والياً على البلاد ومقره مدينة مرو ، وكان ينازعـه على الحكم جديع بن علي الكرماني الذي تزعم الجناح الأكبر من القبائل العربية

اليمانية في خراسان ، وأذكى أبو المسلم الصراع بين ابن سيار والكرماني ، واستغل ذلك لصالحه ، وذلك في وقت دبت فيه الفوضى بين صفوف الأمويين في الشام ، حيث تخلخل النظام العسكري الأموي ، وقام مروان بن محمد قائد جبهة أرمينية والخزر بالاستيلاء على مقاليد الأمور ، ليواجه عدداً من الثورات المتنوعة التي أشغلته عن خراسان ، وألهته عما كان يجري فيها .

وهكذا استطاع أبو مسلم دخول مرو ، بعد أن فر عنها نصر بن سيار وأخذت قوات أبي مسلم تتحرك الآن نحو العراق ، وهنا قام مروان بن محمد باعتقال ابراهيم الإمام ، حيث تخلص منه في سجن حرّان .

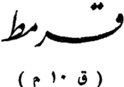
ومن حرّان فرت أسرة الإمام إلى الكوفة التي سقطت لقوات الثورة ، وأخذ يدير أمورها أبو سلمة الخلال ، الذي كان يشغل وظيفة داعي الدعاة ، واتخذ أبو سلمة الآن لنفسه لقباً جديداً هو « وزير آل محمد » أي النائب عن آل محمد في حمل مسؤولية الحكم والسلطة ، وأخذ يعد العدة لاعلان ولادة خلافة اسلامية جديدة ، ويروى بأنه اتصل بالزعامات العلوية الحسينية والحسنية ، لكن هؤلاء رفضوا التعاون معه ، وهنا لم يبق أمامه سوى اعلان أحد العباسيين ، الذين وصلوا الكوفة ، واتصلوا به ، فأمرهم بالاختفاء في احدى دور المدينة .

ويبدو أن جند الثورة ارتابوا بأعمال أبي سلمة ، وعرف بعضهم بوجود آل ابراهيم الامام بين ظهرانيهم ،لذلك ضغطوا على أبي سلمة لاعلان الخلافة ، وسارع أبو سلمة فقرر اختيار عبد الله بن محمد بن علي ، الذي عرف باسم السفاح ، وبابن الحارثية ، وفضله على أخيه الأكبر عبد الله بن محمد الذي عرف باسم المنصور ، لأن السفاح كان أضعف جسماً وشخصية من أخيه المنصور .

وأعلنت الخلافة الجديدة ، وصار الخلال سيد الدولة الوليدة ،يتصرف باسم الحزب ، لكن الخلال نسي وهو يعمل ذلك ، أو تناسى وجود جيش الثورة ، فما أن تمكن هذا الجيش من هزيمة مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ /

٧٥٠ م ، واسقاط الدولة الأموية ، حتى بدأت تظهر بوضوح تطلعات قائده السلطوية .

وأدركت الأسرة العباسية ذلك ، وقد أرادت الآن أن تملك وتحكم ، لذلك أوفد أبو العباس أخاه المنصور إلى أبي مسلم ، فحرضه على أبي سلمة ، فأرسل أبو مسلم من اغتال أبي سلمة في وضح النهار في الكوفة ، وهكذا قامت الخلافة باحداث انقلاب عسكري ضد الحزب الذي أوصلها إلى السلطة، وأخذ الخلفاء يحكمون من خلال توازن القوى بين الحزب ممثلاً بمؤسسة الوزارة وبين الجيش ، فبعد الانقلاب على الحزب بفترة وجيزة قامت الخلافة بانقلاب آخر ضد قيادة جيش الثورة ، حيث استدرج المنصور بعد استلامه الخلافة إثر وفاة أخيه السفاح ، أبا مسلم الخراساني إلى بلاطه فقتله ،وبذلك تخلص منه ...



(ق ١٠ م)

لاقى تاريخ حركة القرامطة في أيامنا عناية كبيرة فأقبل على دراسته عدد من الباحثين غير العرب ثم العرب ، ومع أن هذا يدعو للارتياح ، إلا أنه في نفس الوقت يبعث على الارتياب ، لأن التحريف قد ألم بكثير من الكتابات حيث ودت « عصرنة » حركة القرامطة وجعلها « ثورية » أصيلة شاء الواقع التاريخي ذلك أم أبى .

وحين يقدم البعض على ذلك يزيفون ، وينسون الفوارق بين الأزمان والأماكن ، وأنه في عصر كان يباع فيه الإنسان ويشرى تختلف المقاييس عن عصر يعطى فيه العمال حقوقهم ، ويجعل منهم سادة .

ومن الملاحظ أن غالبية الذين بحثوا في تاريخ حركة القرامطة انطلقوا من منطلق الربط بينها وبين الدعوة الاسماعيلية ، وأن هذه الدعوة أرسلت أحد دعاتها إلى سواد العراق ، فعرف لسبب ما باسم قرمط ، ثم فجر حركة القرامطة ...

قد يكون هذا ما حصل ، وقد يكون غير ذلك ، حيث لا علاقة أساسية بين القرامطة والاسماعيلية الفاطمية ثم إن الاسماعيلية كما يبدو كانت عبارة عن حركات ، الناظم بينها قبل إعلان الخلافة الفاطمية واهٍ ، ثم إن الكثير من الحركات التي تصدت للنظام العباسي منذ القرن الثاني للهجرة ، تسترت بستار التشيع العام ، ووجدت نفسها تنتسب إليها ، مصنفة ضمن فئة من فئات الشيعة ، لكن دون قرار منها بذلك وإرادة .

إن البحث في حركة القرامطة يقتضي منا العودة إلى ما حدث عند قيام

الخلافة العباسية ، فقد ولدت هذه الخلافة بواسطة قوة جاءت من المشرق ، وكان عليها تبعاً لذلك أن تقع أسيرة لمشاكل المشرق ، وتظل هكذ احتى جاءت قوة كافرة جديدة [المغول] من المشرق فقضت عليها ولقنت التجربة العباسية أحزاب المعارضة الاسلامية درساً بليغــاً ، حيث تعلموا جميعاً أن عليهم أن يثوروا في مناطق نائية عن ديار الخلافة ، وبعــد اخفاق ثورة النفس الزكية ونجاح عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس تبين ، أن أفضل المناطق النائية للنشاط ضد العباسيين هي اليمن والمغرب ، وفي القرن الثاني للهجرة كان المغرب مسرحاً لنشاط الشيعة المعتدلة والخوارج من أباضية وصفرية مع قوى برغواطية ، وكانت بسبب ذلك مجالات النشاط لغير الخوارج من القوى المتطرفة آنذاك غير مشجعة ، لهذا توجهت أنظار رجالات من المعارضة الشيعية إلى اليمن ، وفي هذه البلاد ذات الطبيعة الجبلية نشط دعاة الشيعة ، وكان أبرزهم دعاة الجماعة الحسنية ، التي تجلت في حركة الهادي إلى الحق ، في أواخر القرن الثالث للهجرة ، وبالإضافة لهذه الجماعات كانت بعض مناطق اليمن مركز نشاط لدعاة الاسماعيلية وسواهم من الحركات المتطرفة ، وفي اليمن حقق الاسماعيلية أول نجاحاتهم ، ولنتذكر أن مركز اليمن هو الذي وجه أبا عبد الله الداعي إلى المغرب ، حيث نجح في إقامة الخلافة الفاطمية هنــاك .

وتتحدث مصادرنا عن عدد من الدعاة نشطوا منذ القرن الثاني في اليمن، وبشروا بأفكار قريبة للغاية من أفكار القرامطة ، بل تدعوهم بعض المصادر اليمنية أحياناً باسم القرامطة، ويظهر أن نشاط هؤلاء الدعاة كسب إلى جانبهم عدداً كبيراً من رجالات القبائل، وسبب ذلك جيشاناً هائلاً داخل شبه الجزيرة وقد نجم عن هذا النشاط هجرة بدوية كبرى من داخل شبه الجزيرة إلى أطرافها ، لعلها كانت الثانية في الحجم بعد الهجرة التي واكبت قيام الفتوحات الكبرى إثر قيام الاسلام ، وقد جلبت هذه الهجرة إلى بلاد الرافدين والشام قبائل من طيء وفزارة ، وهلال وسليم ، ومن عــامر بن صعصعة : كلاب ، وعقيل ، ونمير ، وقشير ، ومن أسد وخفاجة ، وقدمت هذه القبائل مادة بشرية

ذات أثر فعال للدعاة الشيعة من اسماعيلية وسواهم في هذه البلاد ، وانتقل الآن النشاط المعارض للحكم العباسي من المناطق النائية إلى العراق والشام ، وهكذا حدث ما يدعى باسم حركات قرامطة العراق والشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين .

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال كبير هو : ومن أين جاءت للقرامطة تسميتهم وأين استخدمت هذه التسمية أولاً ؟ إن أحسن جواب معروف لهذا السؤال هو ما ورد عند ابن العديم مؤرخ حلب الكبير ، حيث نقل عن مصادر قديمة محجوبة عنا ما يلي : « وإنما سموا القرامطة زعموا أنهم يدعون إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي ، ونسبوا إلى قرمط وهو حمدان بن الأشعث ، كان بسواد الكوفة ، وإنما سمي قرمطاً لأنه كان رجلاً قصيراً ، وكان رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه متقارباً ، فسمي بهذا الاسم قرمطاً ، وكان قرمط قد أظهر الزهد والورع ، وتسوق به على الناس مكيدة وخبثاً ... وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة إنما نسبة إلى مذهب يقال له القرمطة ، خارج عن مذاهب الاسلام ، فيكون على هذه المقالة قد عزوه إلى مذهب باطل، لا إلى رجل[1] ، وقيل أيضاً بأن التسمية نسبة إلى بني قرمطي بن جعفر بن عمرو بن المهيأ ... بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة » .

إذا صح هذا الرأي الأخير ، تكون التسمية نبعت من إحدى القبائل العربية لشبه الجزيرة العربية ، ربما حيث أفلح بعض الدعاة بشكل واضح ، وذلك في ظرف وزمن هما غير معروفين لدينا الآن ، ومع أن نشاط الدعاة تستر بالعمل الديني والدعوة إلى حكم إمام له حق شرعي بالسلطة ، ومن خلاله وبه ستنتهي دول الظلم وتحل محلها دولة مثالية العدالة والعدل

(١) من المرجح أن كلمة قرمط مشتقة من عبارة « قرم » الآرامية أو السريانية فهي تعني أخفى وغطى وستر ، وبذلك تقابل عبارة باطنية ، وما تزال هذه العبارة تعني في السورية الدارجة « جنتر » ويقابلها في سريانية معلولا « كرموتيه » متذكرين أن القرامطة نسبوا الى حزب عقائدي وليسوا قبيلة انحدرت من أحد الاجداد .

والمساواة فإن هذا يعني أن عمل الدعوة كان له غايات اجتماعية واقتصادية واصلاحية عامة •

وفي تاريخ الاسلام نلاحظ أن الدعوات إلى الإصلاح الاجتماعي ، وإحلال المساواة ، وإنهاء الاستغلال قديمة بدأت قبل الثورة العباسية واستمرت بعد قيامها ، ذلك أن أفراد الأسرة العباسية وكبار المقربين منهم ورثوا أراضي أمراء بني أمية ، ووسعوا من حجم أملاكهم ، وكان ذلك بالاستيلاء والمصادرة والشراء ، وتحوي مصادرنا أخبار بعض ذلك ، فهي تحدثنا فيما تحدثنا به عن عدل بعض الخلفاء واستجابتهم لنداء المظلومين ، وغالباً ما نجد المدعى عليهم الخليفة أو ابنه أو أحد رجالات الدولة ، والمدعي إنسان اغتصبت قريته أو أراضيه ، هذا وحين نقرأ أخبار أواخر القرن الثاني وبدايات القرن الثالث للهجرة، نلاحظ أن تحولات اجتماعية واقتصادية خطيرة قد ألمت بالمجتمع الاسلامي ، فتجمعت الثروات في أيدي قليلة ، وفي العادة عندما تجتمع الثروات مع الأراضي في أيدي قليلة يعني ذلك حرمان الأيدي الكثيرة واستغلالها وهذا يعني وجود أسباب للشكوى مع استعداد للثورة ومجال رحب لدعاة الإصلاح وأصحاب المطامح ، وبنفس الوقت أصحاب المآرب الذين يستغلون هذه الدعوات •

ومن الملاحظ أن دعاة الاسماعيلية كانوا أنشط دعاة التغيير وأرقاهم فكراً وفلسفة، وأن الفكر العباسي لارتباطه بالسلطات الحاكمة ومسايرته إياها أشواطاً ، قد ألم به منذ القرن الثالث بعض من الجمود والانحطاط ، مثلما حدث للسلطة العباسية نفسها ، وحين حدث هذا بادر الفكر الاسماعيلي فاغتنم هذه الفرصة، فسيطر على ساحات النشاط ، وتحكم بحركات الفكر الاسلامي تحكماً كبيراً ، وكما طوى الفكر الاسماعيلي الفكر الإسلامي تحت لوائه مع أنه لم يكن كله إسماعيلياً ، نجد الاسماعيلية تطوي ــ ولو على الأقل من حيث العنوان والتسمية ــ تحت لوائها حركات التغيير ، حتى وإن كان الكثير منها غير اسماعيلي •

وعندما ننظر إلى القرن الثالث للهجرة ، نجد بلدان العالم الاسلامي تشهد في فترة واحدة عدة ثورات ذات مبادىء تغييرية ، قدمت بطريقة فكرية فلسفية رفيعة ، وكان أهم هذه الحركات ، حركة صاحب الزنج ، وحركات القرامطة ، والحركة الصفارية ، وحركات شمال أفريقية التي تمخضت عن قيام الخلافة الفاطمية ، والتأثير الاسماعيلي أو التشابه مع الاسماعيلية واضح في هذه الحركات جميعاً .

وفي الحقيقة هناك الآن حاجة ملحة وضرورية إلى إعادة النظر فيما طرح عن تاريخ الحركات الاجتماعية وثورات الاسلام الاصلاحية ، وذلك بناء على معطيات علمية جديدة ، بزيادة التعمق وفي البحث عن مصادر أصيلة وجديدة ، ولنتذكر أن رفوف المكتبات العربية ما زالت تحوي ربما عدة ملايين من الكتب المخطوطة لا يدري أحد بعد محتوياتها .

هذا عن أصل حركة القرامطة ، وأما ما يتعلق بأخبار بعض أعمال القرامطة في العراق والشام ثم في الأحساء والبحرين نجد أن سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م شهدت بداية تحرك القرامطة المرصود في منطقة الكوفة على يد رجل قدم من خوزستان إلى سواد الكوفة وهناك استطاع أن يجذب الفلاحين إليه ، وذلك « بما أبداه من خلق قويم ، ودعوة جميلة » ، واسترعى نشاطه هذا انتباه أحد كبار الملاك واسمه الهيصم ، فسعى للقضاء على الحركة في المهد ، فأخفق وأثناء ذلك نال هذا الداعية لقب قرمط ، ثم أخذ ينتقل في قرى سواد العراق ، يدعو إلى عقيدته ، التي لا ندري ما هي وما حوته من مبادىء ، إنما يروى بأن عدداً كبيراً من الناس استجاب له وتبعه .

وفي هذه الآونة كانت البصرة تشهد حوادث ثورة الزنج ، لهذا ذهب قرمط إلى البصرة واتصل بصاحب الزنج ، وتباحث معه وناظرة فلم يتفق معه واختلفا من حيث الآراء ، فانصرف قرمط عنه .

وفي أواخر عهد الخليفة العباسي المعتضد ، بدأ القرامطة نشاطهم العسكري المضاد للسلطة فأرسل الخليفة قواته ضدهم ، فهزمهم ، لذلك

تحولوا نحو الشام ، وهنا بدأوا نشاطهم ، فتصدى لهم حكام مصر الاسلامية مع سلطات بغداد وجيوشها ، وفي البداية هزم القرامطة قرب دمشق ، وقتل قائدهم الذي عرف بالشيخ ، واعتبر من قبلهم إماماً ، وقد خلفه غداة مقتله قائد جديد عرف بصاحب الخال ، الذي كان أنشط قادة القرامطة وأبعدهم شهرة في الشام ٠

لقد قيل أن صاحب الخال هو : أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر وقيل : محمد بن عبد الله بن جعفر ، وقيل عبد الله بن أحمد بن محمد ابن اسماعيل ، وقيل بل اسمه الحسين بن زكرويه بن مهرويه ، وبعد استلامه لزعامة القرامطة اتخذ لنفسه لقب إمام ، وزعم أنه كان أخاً للشيخ قائد القرامطة السابق ، وقد أثارت قضية نسبه هذه جدلاً وما زالت تثير ، وهي مرتبطة بقضية نسب أئمة الاسماعيلية ، ذلك أن إحدى الروايات تقول : بأنه كان واحداً من اخوة أربعة ، قتل ثلاثة منهم أثناء عمليات القرامطة الحربية ، وعاش الرابع لينجو إلى شمال أفريقية حيث نجحت الدعوة الاسماعيلية ، فأعلن هناك إماماً بلقب المهدي ، وباسم عبد الله ، وهو مؤسس الخلافة الفاطمية ٠

هذا وإذا وقفنا عند قضية النسب نجدها لم تكن بذات أهمية عند بعض الاسماعيلية الأوائل ، ذلك أن النسب الروحي عن طريق الحلول كان هو المهم والأساسي ، أي كان من الممكن بالنسبة للإمام أن يحل روحياً بأي شخص كان يختاره ليكون إماماً بعده ٠٠٠

وبعدما تسلم صاحب الخال إمامة القرامطة ، تسمى بالمهدي ، واستطاع بفترة وجيزة أن يصبح سيد بادية الشام ، مع شمال ووسط الشام ، وكون لنفسه هيئة إدارية ، وكان أقرب الناس منه ، رجلان عرفاً بالمدثر ، والمطوق ٠

وجهدت سلطات مصر ثم سلطات بغداد في سبيل القضاء عليه ، فأخفقتا مراراً ، وأمام استفحال خطره ، قرر الخليفة العباسي المكتفي قيادة جيش بنفسه ضده ، وكان هذا سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ، وبعد معارك كبيرة تمكن

الجيش العباسي من هزيمة صاحب الخال ثم أسره مع كبار معاونيه ، حيث سيق مع أعوانه في موكب نصر مهيب إلى بغداد وهناك أعدم صاحب الخال وأصحابه ومثل بهم في مشهد عام .

لكن هزيمة القرامطة هذه لم تفعل أكثر من الحد من نشاطهم في الشام ، ليبدأوا نشاطاً جديداً كبيراً للغاية في العراق ، حيث أخذوا منذ سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م في إعمال الغارة على كثير من الأماكن ، وفي مهاجمة القوافل ، خاصة المتوجهة إلى الحج ، وأخفقت الجيوش إخفاقاً ذريعاً في إيقافهم ، أو الحد من خطرهم ، فقد كانت البادية هناك ، لتكون ملاذاً عند الحاجة ، ومصدراً كبيراً وأساسياً للتجنيد .

وقاد القرامطة في العراق ، ووجه أعمالهم زكرويه بن مهرويه ، وقد اختلف حول أصله ، وحقيقة هويته ، وتذكر بعض المصادر أن هذا الاسم كان اسماً دعوياً ، اتخذه صاحبه ليخفي نفسه ، وليكتم نسبه خشية من السلطات العباسية ، وما كان زكرويه في الحقيقة إلا علوي النسب ، إسماعيلي المنحدر ، أنجب أربعة من الأولاد ، قتل ثلاثة منهم في حركات القرامطة ، ونجا الرابع ، فكان أول خليفة فاطمي ..

وبعد وفاة زكرويه صار كبير زعماء القرامطة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي ، وقتل أبو سعيد هذا سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، فخلفه أخوه أبو طاهر سليمان ، وكان أبو سعيد قد استولى قبل مقتله على الأحساء والقطيف ، وهجر والطائف ، وسائر البحرين ، ومنذ أيامه اتخذت البحرين قاعدة لنشاط القرامطة ، وفي البحرين أقام القرامطة دولة ذات نظام على درجة من الرقي اجتماعياً وديموقراطياً ، وقد وصلتنا بعض الأوصاف التفصيلية لهذه الدولة .

وفي أيام أبي طاهر بلغت دولة قرامطة البحرين الذروة ، وقام القرامطة خلال ذلك بحملات كبيرة استولوا فيها على العديد من قوافل الحج ، وكان أشهر حملاتهم تلك التي هاجموا بها مكة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، فأعملوا

السيف بالحجيج ، وأهل مكة ، وخلع أبو طاهر باب الكعبة ، ووقف يلعب بسيفه على بابها ، ينشد ويقول :

أنـــا بالله وبالله أنـــا　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، ونهب دور أهل مكة ، وخلع الحجر الأسود من البيت ، وعندما نفذ القرامطة عملياتهم هذه كانوا في الواقع يسعون إلى هـــدم أركان الإسلام وإبطاله ، ذلك أنهم كانوا أتباع ديانـــة جديدة ــ قديمة لها ذاتيتها وعقائدها الخاصة .

لقد اعتبر البعض حركة القرامطة ردة جديدة ، ورأى البعض أن نظام دولة البحرين الذي قام على أن يقتسم المحاربون موارد الدولة سواسية وأن تدار المزارع من قبل الدولة ، حيث كان يعمل فيها كميات من العبيد يسخرون لصالح السادة ، رأوا في ذلك سابقة اشتراكية رائدة ، ورأى بعض آخر في ذلك استمراراً متطوراً لنظام إقطاعيات الفرسان الذي ســاد الامبراطورية الساسانية قبل سقوطها ، ذلك أن البحرين عاشت في ظــل التأثير الإيراني المباشر ، ثم إن الاشتراكية ليس فيها سادة وعبيد .

وبعدما استلب القرامطة الحجر ، توجهوا به إلى البحرين حيث بقـــي مطروحاً هناك اثنتان وعشرين سنة ، وفي هذه الآونة كانت الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في إقامة الخلافة الفاطمية في إفريقية [تونس] ، وتدخل الفاطميون لدى القرامطة لكسبهم إلى جانبهم ، ولرد الحجر الأسود إلى مكانه .

وبعد وفاة أبي طاهر عاش القرامطة فترة من الفوضى ، وآنئـــذ تحرك الفاطميون إلى مصر ومنها إلى الشام ، وفي الشام اصطدم الفاطميون بمنظمة الأحداث ، وقام تعاون بين الأحداث وقرامطة البحرين الذين كان على رأسهم الحسن الأعصم ، وغزا القرامطة مصر ، وكادوا يقضون على الحكم الفاطمي فيهـــا .

وحين يبحث المرء في تاريخ القرامطة يجد أخبارهم خالية من ذكر أيـــة

برامج اجتماعية اصلاحية في أيــة فترة من الفترات ، ومرد هــذا إلى عاملين رئيسيين: أولهما ، أن ما وصلنا من أخبار القرامطة، وصلنا عن طريق خصومهم، الذين طمسوا محاسن القوم وضخموا المساوىء وأشهروها . وثانيهما : يعود إلى طبيعة العمل الشيعي بشكل عــام والاسماعيلي بشكل خاص ، ذلك أن نشاط هؤلاء دار حول شخصية الإمام ، والإمام عندهم ليس إنساناً عادياً أبداً ، بل هو خير أهل زمانه ، وهو مقدس حتى درجة الربوبية ، وهو وريث علم إلهي خاص ، ويملك وحده حق التأويل والتشريع ، وعندما يقوم الإمام وينتصر ، فسيكون مهدي زمانه .

وشخصية المهدي غنية بالصفات الحميــدة ، في عهدها نهــاية للظلم والطغيان والفساد ، وحلول للعدل والمساواة والعدالة والرخاء والخير العميم ، وما أظن أن هناك برنامجاً إصلاحياً أفضل مما دار حول شخصية المهدي ، وفي هذا براعة لا نظير لها ، ذلك أنه برنامج مشوق ، مرغب وممتع للخيال ، ومثير للشهوات والمطامح ، ثم هو بنفس الوقت « طوباوي » ليس فيه شيء محدد ، ملزم ، بل كله سراب ....

ابو عبد الله الداعي

(ت : ٢٩٨هـ / ٩١١م)

بعد مقتل عثمان الخليفة الراشدي الثالث ، تسلم علي بن أبي طالب الخلافة ، وكانت التركة التي ورثها كبيرة للغاية ، اضطرته فيما اضطرته إلى خوض عدد من الحروب الداخلية الدامية ، ومزقت هـذه الحروب صفوف الأمة الاسلامية وجعلته نفسه يلقى حتفه غيلة ، مما مكن خصومه من بني أمية من استحواز السلطة ، وكان لذلك ردات فعل عنيفة للغاية ولهذا واجه الحكم الأموي ثورات كبيرة متواصلة .

وتجمعت أكبر عناصر المعارضة في العراق ، وزعمت أبناء علي بن أبي طالب ، وكان لها عدة جولات دامية مع السلطة الأموية ، كان أهمها فاجعة كربلاء ، وبعد كربلاء ، وعبر عدة مراحل ، أخذ حزب الشيعة يتحول من حزب سياسي يرى أحقية أسرة في الحكم إلى حركة دينية ، وبعد فترة أصاب التمزق حزب الشيعة ، لكن أخذت غالبيـة عناصر الشيعة تحصر زعامتها في أبنـاء الحسين بن علي .

وحمل كل واحد من رؤوس السلطة من بني أمية لقب خليفة ، وكان كل منهم ينادى بأمـير المؤمنين ، وحيث أن الاسلام مزج بين المعنـى الديني والدنيوي للاعمال ، وحيث أن النبي ﷺ جمع في شخصيته النبوة مع القيادة الدنيوية ، وبعدما تحولت الحركة الشيعية من حزب سياسي إلـى حركات دينية ، فقد أخذ الشيعة يطلقون على زعمائهم لقب امام ، وهذه العبارة تعني قائد أمة ، ذلك أن الأمة في اللغة والعقيدة « أتباع دين » .

وقالت الشيعة الآن بأن زعماءهم ، إستحقوا الزعامة بسبب وراثتهم للنبي ﷺ ، وأن رجال السلطة الأموية اغتصبوا منهم القسم الدنيوي من الزعامة فقط ، ولم يحرموهم من الزعامة الدينية ، وهي الامامة، لهذا غدت مع

الأيام الامامة محور العمل الشيعي ، وأغنيت فكرتها ، وزودت بكثير من المعاني والصفات ، وذلك بفضل اتساع رقعة ديار الإسلام ، والتطور الثقافي والحضاري الذي ألم بالمجتمع الإسلامي ولهـذا استفادت كثيراً من تراث الديانات السماوية وغير السماوية مع الافلاطونية الحديثة والغنوصية ٠٠٠٠٠

وخلال العصر الأموي فجر الشيعة العديد من الثورات، وسقطت الخلافة الأموية ، وبعد ما قامت الخلافة العباسية ، دخلت الحركات الشيعية مرحلة جديدة من تاريخها ، ذلك أن جميع الحركات المتطرفة والعسكرية قد أخفقت وآل أمرها إلى الاضمحلال ، وبقي فقط أبناء الحسين الذين التزم غالبيتهم ، بعد كربلاء ، بالمرونة والثبات السلبي المظهر ، وظل الحال هكذا حتى أيام جعفر الصادق ، الذي اعتبر سادس الأئمة ٠

ففي أيام الصادق ، انقسم اتباع الصادق إلى قسمين : واحد متطرف وآخر محافظ ، فقـد قالت جماعة بأن الإمام بعد الصادق هو ابنـه البكر اسماعيل ، وذلك على الرغم من أنه توفي أيام أبيه ، حيث أن الامامة ، انتقلت حكماً ونصاً إلى محمد بن اسماعيل ، الذي يعرف عادة بمحمد المكتوم ، ذلك أن دعوة هذا الفرع الذي اتسم بالتطرف ، والعلمانية في التنظيم دخلت الآن مرحلة من التكتم الشديد، وباتت تعرف باسم السبعية ، أو الاسماعيلية ، وغير ذلك من الاسماء ٠

وقالت الفئة الثانية من اتباع الصادق ، أنه بوفاة اسماعيل ، ولغير ذلك من الأسباب ، فقد عيَّن الصادق ابنه الآخر موسى الكاظم إماماً سابعاً ، وتابع خط موسى هذا حتى الامام الثاني عشر ، ويدعى محمد بن الحسن العسكري، وهو عند الكثير من الناس إمام لم يلد ولم يخلق ، ولم يكن له إلا الوجود الوهمي ، وأن إختيار الرقـم (١٢) وقبله (٧) تـم عمداً وتحت تأثير من الفيثاغورسية أو أمثالها من العقائد التي شغل الرقم فيها دوره الهام ، ومهما يكن الحال فقد عرف الخط الثاني باسم الاثنا عشرية أو الامامية ، وفي فترات من التاريخ الاسلامي تهيأ لهذا الخط العديد من الفرص لاستلام السلطة في

بعض رقاع العالم الاسلامي ، لكن انعدام الامام ، وبقائه في الخفاء ، في غيبة دائمة ، جلب الاخفاق لهذه الفرص جميعاً .

وشكل السبعية بعد عمل سري طويل فرقة فاقت في اعدادها المحكم ، وتنظيمها الدقيق المتقن فيمجالات الجذب العقلاني الفلسفي ، والثقافي العالي، مع الإثارة العاطفية والإنفعال ، فاقت به كل الفرق التي سبقتها أو نافستها ، ففي مكان العمل المشوش للفرق السابقة ، والإيمان البدائي ، والاعتماد على الفورات الانفعالية ، أحكم عدد من العلماء ، ذوي القدرات الخارقة ، والعقول الجبارة ، نظاماً للعقيدة الاسماعيلية ، على مستوىفلسفي في غاية الرقي ، وانتجوا أدباً فكرياً رفيعاً بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره .

لقد قدم الاسماعيليون للورعين احتراماً كبيراً ظاهرياً للقرآن الكريم ، والحديث والشريعة ، ومسايرة للعقيدة الشعبية الرائجة ، وقدموا للمثقفين شرحاً باطنياً فلسفياً للكون ، اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية ، وخاصة الفكر الاشراقي من الافلاطونية المحدثة .

وقدم رجال الاسماعيلية للصوفية ، والروحانيين مادة فيها الدفء العاطفي ، والحب السامي المؤدي إلى التحام الكائنات، ووحدةالوجود ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الأئمة ، ومن تضحياتهم بذواتهم في سبيل اتباعهم ، ولقد قدم هذا كله في صيغ معارضة للنظام القائم وهادمة له ، فكان في ذلك سحر الثورة ، وحرارة العمل المعارض .

وعندما حلت نهاية القرن التاسع للميلاد ، كان قد تم للاسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الاسلامي ، وعلى عقول الفلاسفة ، وتغلغل تأثيرهم الموجه في نظم وأفكار حركات الثورة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة من الناس شعور بدنو النصر ، وقرب ساعة التحرير ورغم توفر كل هذه المعطيات لم تورط الحركة الاسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر ، تتحمل أعباء نشاطه بشكل علني ، بل سعت نحو استغلال القوى غير الموالية

تماماً لها ، لكن المتأثرة بها إلى أبعد الحدود في اضعاف النظام السني العباسي، واضعاف انفسها في ذات الوقت ، وهكذا كان الحال ـ كما يبدو ـ بالنسبة لثورات القرامطة ولحركة الزنج وحتى بالنسبة للحركة الصفارية ...

ومع طول التجربة ، ودوام تجوال الأئمة ، وشدة الملاحقة العباسية ، اقتنع رجال الدعوة الاسماعيلية انه لن يكون النجاح حليفهم إذا ما تحركوا في خراسان ، أو العراق ، أو الشام ، فتوجهوا بأنظارهم نحو اليمن ، وتم اختيار اليمن لأسباب تتعلق بموقعها الجغرافي النائي عن مركز السلطة العباسية ، ثم لملاءمة الطبيعة الجبلية للبلاد ، ويضاف إلى هذا أن اليمن اشتهرت بولائها الشيعي منذ فترات بعيدة ، وفي اليمن حققت الدعوة الاسماعيلية نجاحات لا بأس بها ، وكان جل ذلك بفضل داعية عرفته بعض المصادر باسم علي بن الفضل ، وآخر اشتهر عموماً بلقب منصور اليمن (هـذا ولم يحظ تاريخ النشاط الاسماعيلي في اليمن بعد بما يستحقه من دراسة) على أن النشاط الدعوي الاسماعيلي في اليمن ما لبث أن عانى من أزمات داخلية ، ثم أخذ بالانحسار والضعف بسبب حركة شيعية أخرى ، هي الحركة الزيدية التي قادها منذ سنة ٢٨٠ هـ / ٧٩٣ م الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين .

ومن جديدة بدأت قيادة الدعوة الاسماعيلية بالبحث عن بلد جديد لتنشط فيه ، وجاء هذا بعدما تكونت لدى هذه الدعوة قناعات بصعوبة العمل في شبه الجزيرة ، وأنـه من المحال ، النجاح في اتخاذها قاعدة لعمل يهدف للقضاء على الخلافة العباسية ، واستبدالها بأخرى شيعية ، وكانت بلاد الشمال الأفريقي هي المنطقة التي وقع عليها الاختيار ، فهي نائية وسبق لبعض مناطقها أن تأثر بالنشاط الشيعي الذي أدى إلى قيام دولة الأدارسة ، كما إن اتساع رقعة البلاد والحالة القبلية فيها والاجتماعية كانت مشجعة للغاية ، وتناسب الحاجة تماماً ، وكان الوضع السياسي أيضاً مناسباً ، وموافقاً ، فقد كان الأغالبة يعانون من التفكك والضعف ، ولم يكن لهم سلطان على معظم قبائل البربر، حيث عاشت كل قبيلة في منطقة خاصة بها، ونعمت بقسط وافر من الحرية

والاستقلال ، كما أن الأدراسة كانوا في حال تمزق وتدهور ، وكانت الروح الخارجية الوقـادة لدى خوارج سجلماسة وتاهرت وسواهما قـد بدأت تخبـو ...

في هذا الوقت بالذات كان بيت الامامة الاسماعيلي قد تحول من منطقة جبال الديلم إلى السكنى في بلاد الشام ، واستقر أولاً في منطقة مصياف غربي حماه ، ثم تحول إلى السلمية شرقي حماه ، وتم اختيار السلمية لثرائها الزراعي ولسكناها من قبل الهاشميين من قريش ،ثم لقربها من البادية حيث نشط دعاة القرامطة بشكل مروع ، ولكن شقاقاً وقع بين القرامطة بزعامة صاحب الخال ، والقيادة الاسماعيلية جعل هذه القيادة تفر من السلمية إلى حماة قبل تدمير السلمية وقتل كـل من كان فيها من قبـل صاحب الخال ، ولم تقم القيادة الاسماعيلية في حماة طويلاً بل توجهت إلى الرملة ...

ويروى أنه عندما كانت هـذه القيادة مقيمة في السلميـة وجهت بعض الدعاة إلى شمال افريقية حيث تحقق بعض النجاح ، ثم بلغ هذه القيادة وفاة دعاتها في افريقية ، وكانت آنذاك في وضع لم يمكنها من ارسال دعاة جدد من الشام ، لذلك أصدرت الأمر إلى قيادة اليمن التي كانت قد اجتازت أزماتها بإرسال داعية جديد يتحمل أعباء الدعوة في الشمال الافريقي ، ويبدو أن اليمن حوت آنئذ مركز تدريب للدعاة واعدادهم ، وفي اليمن اختير الحسين بن أحمد بن زكريا الشيعي ، الذي يعرف عادة باسم أبي عبد الله الداعي الصنعاني لمهمة الذهاب إلى المغرب ، وقيل له : يا أبا عبد الله أرض كتامه من المغرب ... ليس لها غيرك ، فإنها موطأة ممهدة لك » .

وانصاع أبو عبد الله لما أمر به ، لكنه لم يتوجه مباشرة إلى الاسكندرية في مصر ،ليسافر منها إلى المغرب ،بل توجه نحو مكة في موسم الحج ،وهناك التقى أبو عبد الله بعدد من حجاج البربر فتعرف إليهم ، ثم أقام معهم صلات للصداقة متينة ، وعند انتهاء موسم الحج صحبهم إلى مصر ، ومن هناك إلى المغرب الأوسط ، وفي المغرب نشط أبو عبد الله ، فاستطاع في سنين قليلة ، استمالة

العديد من قبائل البربر، وقام بصنع تنظيم قوي بين هذه القبائل، وقادها للنصر في عديد من المعارك ، مكنته من إزالة ملك الأغالبة ، وانتزاع القيروان منهم ، ومع ملك الأغالبة أزال أيضاً دولة الرسمتين في تاهرت ثم استولى على سجلماسة .

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر اثناء عمله بأن الامام الذي يدعو إليه ، هو من أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو بكلمة أخرى ، نقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الاسماعيلي ، وهنا لا بد لنا من أن نتساءل : ما هي السبل التي مكنت أبي عبد الله من نشر دعوته والترويج لها ، ثم ما هي الأداة اللغوية التي استخدمها ، خاصة وأن نشاطه كان كبيراً للغاية ، أثار حوله ضجة لم تقتصر على المغرب الأوسط بل تعدته إلى المغرب كله ، ثم إلى المشرق ؟

يبدو أن أول ما قام به كان الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه ، ولعله قام بإعادة تنظيم جهاز الدعوة ، وأعداد دعاة جدد وكان اعداده لهم عقائدياً وعسكرياً ، ونظراً لأنه مارس مهنة التعليم في أيامه الأولى في المغرب ، فمن خلال التعليم ، الذي اقتصر ــ كما يبدو ــ على أبناء شيوخ القبائل ، أوجد الدعاة ، وبنى صداقات مع زعماء القبائل ، ولا شك أن الأفكار التي طرحت كانت بسيطة ، تعلقت بحق آل البيت بالامامة ، ثم بفكرة المهدي ، وقرب ظهوره ، وشروط طاعته المطلقة والإيمان به وتقديسه .

ولقد أحسن أبو عبد الله استغلال ما كان لدى قبائل البربر من عقائد وعادات ، فالبربر كان بينهم من يرى بأنهم انحدروا من جالوت الذي كان من أصل يمني ، وكان قومه يسكنون فلسطين ، حتى قتل النبي داود جالوت ، واثر موت جالوت فر قومه من هناك حتى استقروا في المغرب، واستغل أبو عبدالله هذه الفكرة وروج لها ترويجاً كبيراً ، ورغّب البربر وأثارهم من أجل الزحف نحو فلسطين تحت لواء الإمام لتحريرها ، ذلك أن الامام المهدي وحده يمكنه جب عمل نبي سابق لأنه وريث نبي الاسلام ، والإسلام يجب ما قبله .

ووعد أبو عبد الله البربر بالنصر ، لأن الذي سيقودهم هـو المهدي ومعلوم أن هدف الاسماعيلية لم يكن الاقتصار على الاستيلاء على رقعة من الأرض من أجل إقامة دولة اقليمية ، بل كان الهدف أممياً ، ابتغى أولاً وأساساً إزالـة الخلافة العباسية من الوجود ، واحلال الخلافة الاسماعيلية محلها ، ولا شك ان فلسطين كانت احدى بلدان الخلافة العباسية ، وكان الوصول من المغرب إلى العراق سيتم عبرها حتماً ...

وبعدما أيقن أبو عبد الله بأن الأمور قد توطدت له ، راسـل الامامة الاسماعيلية في الشام ، وطلب قدوم الامام إلى افريقية (تونس) وكان الوفد الذي حمل الرسالة يضم بعض رجالات قبائل كتامة .

واستجاب الامام الذي سيعرف بلقب المهـدي ، وتحرك نحو المغرب في رحلة حفت بالمخاطر ، ووصل مع أسرته إلى سجلماسة في المغرب الأقصى ، وبعد اقامة وجيزة فيها كشف أمره ، فأودع السجن ، لكن أبا عبد الله خف لنصرته فاستطاع انقاذه ، ثم أعلنه أميراً للمؤمنين ، وكان ذلك سنة ٩٠٩م .

وفي لحظة النصر الحاسم للدعوة الاسماعيلية كانت هذه الدعوة تعاني من انشقاق جديد ، ذلك أن الفوارق كبيرة بين الأحلام الطوباوية ، والبرامج السرابية من جهة ، وعمليات التطبيق من جهة أخرى ، ونجم عن الانشقاق الجديد نتائج خطيرة كان أولها تصفية أبي عبد الله الداعي وأركانه جسدياً ...



قسام الترابي

(ق : ٤ هـ / ١٠ م)

قام في مجتمع بلاد الشام فيما قبل القرن الرابع للهجرة بعض التنظيمات الاجتماعية ، وكان أهم هذه التنظيمات من الناحية الشعبية والبلدية منظمة عرفت باسم « الأحداث » ونحن حين نحاول تعقب تاريخ هذه المنظمة لنعرف بدايته، نجد الجهد في هذا السبيل هباء ، ذلك أن المؤرخ المسلم ، دوّن أخبار مؤسسات الحكم ، وما ارتبط بها ، ونادراً ما أولى إهتمامه للمحكمين ، وكان يأتي على ذكرهم عندما يرتبط ذلك عرضياً بأمر أو قضية من قضايا السلطة .

وصحيح أننا لا ندري تاريخ قيام منظمة الأحداث وأسباب ذلك ، لكن يبدو أنه بعدما قامت الخلافة العباسية ، واستقرت في العراق ، وانشغلت بمشاكل الشرق ، كان ظل سلطانها في الشام ضعيفاً ، ولما أصاب الخلل النظام العباسي تعرضت بلاد الشام لمخاطر خارجية من بيزنطة وتعرضت مدنها لمخاطر محلية قدمت من البادية ، لهذا اضطر سكان المدن الشامية لتكوين منظمات بلدية تتولى الدفاع حين الحاجة ، وتقوم برعاية الأمور العامة داخل المدينة في أوقات السلم .

ومع الأيام تطورت هذه المنظمات فغدت أشبه بمليشيات شعبية ، وعرفت باسم الأحداث ــ جمع حدث ــ ربما لأن غالبية من انتسب إليها في البداية كان من الشبان ، ولعل مما ساعد على تطور هــذه « المليشيات » ضعف الحكومات المحلية في الشام مع اضطرار بعض الحكام لاستخدامها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاصة ، وهذا بدوره لا بد أيضاً قد أثر في تطور منظمة الأحداث ، وساعد على توطد أركانها .

إن الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الخامس قد شهدت ذروة نشاط الأحداث في مدن الشام ، وتجلى هذا بشكل كبير في مدينتي حلب ودمشق ، ذلك أنه في هذه الفترة كانت الخلافة الفاطمية قد انتقلت من تونس إلى مصر ، وسعت هذه الخلافة للسيطرة على الشام فاصطدمت قواتها بالأحداث •

لقد قامت عقيدة الفاطميين في الحكم على إطاعة الإمام بشكل مطلق ، وسعى الفاطميون نحو إزالة القوى التي تعترض سبيلهم ، لهذا اصطدموا عندما حاولوا فتح جنوب بلاد الشام بأحداث دمشق وسواهم ، وعبثاً حاولوا دخول دمشق وادارتها بشكل مباشر ، فلم يتم لهم ذلك إلا بعد أن أنزلوا بالأحداث ضربات ساحقة •

ففي سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م زحف جيش فاطمي من مصر على دمشق ، فلم يتمكن من دخولها ، فحاصرها طويلاً ، ومنعه الأحداث من الاقتراب من أسوارها ، وظل الحال هكذا حتى اتفق جماعة من التجار والأشراف مع قائد الجيش على فتح إحدى بوابات المدينة له ، وتم للقوات الفاطمية دخول دمشق، ولكن إلى حين، حيث غادر دمشق زعيم الأحداث متوجهاً إلى الأحساء، وهناك اجتمع مع الحسن الأعصم زعيم القرامطة ، فأخبره بما نزل بدمشق ، فثار الأعصم وقاد قواته إلى الشام حيث أنزل ضربة قاسية بالجيش الفاطمي ، وألحق به الهزيمة وبقائده الموت ، وتابع القرامطة سيرهم من الشام إلى مصر ، كيما يخلصوها من الحكم الفاطمي ، وكادوا ينجحون •

وبعدما أخفق القرامطة في القضاء على الخلافة الفاطمية انسحبوا إلى ديارهم ، وهنا جدد الفاطميون العمل لافتتاح الشام ، ولعدة سنوات أرسلوا الجيش تلو الآخر ، لكن دونما نجاح يذكر ، ذلك أن الأحداث كانوا لهم بالمرصاد ، ويبدو أن الحرب زادت من قوة الأحداث وصارت منطقة الباب الصغير في دمشق مقراً لهم ، كما تقلب على زعامتهم عدد من المقدمين كان أبرزهم وأبعدهم شهرة قسام التراب •

وقسام هذا كان أصله عربياً من بلحارث ، نشأ في احدى قرى دمشق وجاء دمشق حيث عمل في التراب ، ثم انضم إلى الأحداث، فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل بينهم ، وفي سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م استبد قسام وأحداثه بأمور دمشق ، وضبطوها ضبطاً شديداً ، وقام قسام باجراءٍ احتياطي فراسل الخليفة الفاطمي العزيز فاعترف اسمياً بسلطانه ، ودافعه عن دمشق ، وتظاهر العزيز بالقبول والرضى ، إلا أنه قام في العام التالي ٣٦٩هـ / ٩٧٩م ، بارسال جيش ضد دمشق ، وأخفق هذ االجيش في مهمته واضطر إلى الانسحاب راضياً بتعهد من قسام وأحداثه أن لا يسلموا دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين ، وسكتت القاهرة على مضض ودامت « جمهورية الأحداث الشعبية » تحكم دمشق بزعامة قسام حتى جاءت سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م ، حيث أرسلت القاهرة جيشاً فاطمياً جديداً ضد دمشق ، وذلك بعد ما أخفقت في إعادة السيطرة على هذه المدينة بالحصار الاقتصادي وبإثارة الأعراب ضدها .

وألقى الجيش الفاطمي الحصار على دمشق ، وطال الحصار واشتدت المقاومة ، وفي ذروة المعركة قام أثرياء دمشق وأشرافها بالاتصال بقائد القوات الفاطمية ، ثم أخذوا في تثبيط الناس عن قسام ، وضغطوا عليه وأغروه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة ، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد ، وخوف وأمل ، قبل قسام بانهاء المقاومة وتسليم المدينة على شرط الأمان له ولأصحابه .

وهكذا فتحت دمشق أبوابها ، وسقطت «جمهورية» الأحداث رسمياً ، لكن سلطتهم بقيت فعلياً ، ذلك أن سلطات الفاطميين لم تتعد الواقع النظري ، وانسحب قسام ، وتقاعد كما يظن إلى قريته ، التي يعتقد بأنها كانت تلفيتا من أحواز تل منين ، فهناك ما زال قائماً قبر يعرفه الأهلين باسم قبر سيدي قسيم، يعتقد بأنه قبره ، وما زال في سقايات أهل القرية يوم لقسام محدد لم يتغير .

لقد كان الأحداث منظمة شعبية قام رجالها بوظائف الشرطة البلدية ،

وكانوا يسهرون على الأمن ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة ، وهم على هذا رواد العمل البلدي في الشرق، ويبدو أن هذه المنظمة كان في برامجها أعمال اصلاحية اجتماعية واقتصادية ، فقد سعت إلى إزالة الطبقية وإلغاء الإقطاع واحلال المساواة الحقة محل التفاوت والاستغلال ، وذلك بشكل ديموقراطي صحيح •

وظل الأحداث يحافظون في دمشق على دورهم ومكانتهم حتى عصر الحاكم بأمر الله ، وفي ذات الوقت شهدت مدن الشام الأخرى نشاطاً كبيراً لأحداثها ، ففي صور مثلاً نجح ملاح اسمه « العلاقة » في طرد الفاطميين منها ، واعلان استقلاله فيها ، وفي حلب صار الأحداث سادة المدينة وأصحاب الكلمة الأولى فيها ، لكن يبدو أن التعاون والتنسيق انعدم بين أحداث بلدان الشام ، لذلك انفردت القوات الفاطمية بهم وحدة تلو الأخرى حتى خضدت شوكتهم ، وتمكنت من الشام ، إنما بشكل مقلقل وإلى حين •

ابو عمران الفاسي

(ت : ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)

يظهر البحث في تاريخ الاسلام ، ان قضايا هـذا التاريخ قـد تفاعلت وتشابكت ، فالواقعة التي حدثت مثلاً في المغرب ، قد نجد أسبابها المباشرة في بلد وغير المباشرة في بلد آخر ، ولنأخذ على سبيل المثال تاريخ قيام الخلافة الفاطمية ، حيث نجد أنه مرتبط بالديلم ، والعراق ، والشام ، واليمن ، وافريقية ، ومصر ، ولذلك فمن العبث البحث في أي قضية دون أخذ هذا الأمر بالاعتبـار .

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الافريقية ، ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى ، فالبحث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة السنية في القرن الخامس ـ أو قبيل ذلك ـ فقد قامت الاستفاقة أولاً في الشرق الاسلامي ، ثم نقلت إلى بلدان المغرب ، ومدهش أن نجد هـذه الاستفاقة قد توافقت مـع هجرة البداة التركمان وتأسيس السلطنة السلجوقية في المشرق ، وكان من جملة نتائجها في المغرب قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم .

في الحقيقة ما تزال قضية تأسيس دولة المرابطين في أوائل القرن الخامس للهجرة ، حدثاً يحتاج إلى مزيد من البحث العميق ، فعلى الرغم من الدور التاريخي المشرق الذي شغله المرابطون في الغرب الاسلامي ورغم توافر عدد من المؤرخين الذين دونوا أخبار أحداث هذا الدور ، فإن ما آلت إليه نهاية المرابطين ، بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين ، وأخبارهم طمساً كاد أن يكون كاملاً .

ورغم هذا لا يفقد الباحث الأمل ، فبين يوم وآخر يكتشف أثر مرابطي مباشر، أو غير مباشر ينقل عن أحد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة أكثر فأكثر ، وعلى كل حال حين تتحدث المصادر عن قيـام حركة المرابطين نراها تجمع على ربط بداية تاريخ هذه الحركة بعلم كبير من أعلام القرن الخامس ، وهو أبو عمران الغفجومي الشهير الفاسي .

ولد أبو عمران في مدينة فاس في حوالي سنة ٣٦٥ هـ وفيها نشأ وتلقى علومه الاسلامية الأولى ، ومنها رحل إلى قرطبة ، كما رحل إلى القيروان ، ومنها مضى إلى الشرق حاجاً وطالباً لمزيد من العلم ، فقد وجد في بغداد سنة ٣٩٩ هـ وقرأ على أبي بكر الباقلاني ، الذي اثنى على تبحره في مذهب الامام مالك ، وبعد هذا عاد إلى مسقط رأسه ، يحمل بين جنباته العـلم ، وروح اليقظة الجديدة ، وفي فاس أقبل عليه التلاميذ والمريدون فذاع صيته وانتشرت شهرته ، وعم تأثيره .

وكانت فاس وبلدان المغرب الأقصى تعيش آنئذ في حالة من الفوضى السياسية وتستعد للانتقال إلى حال جديد، فالعصر الذي نشأ فيه الفاسي شهد نهايات الصراع علـى المغرب الأقصى بين قرطبة الأمويـة العامرية والمهدية الفاطمية وكان هـذا الصراع سياسياً ، واقتصادياً ومذهبياً عقائدياً ، فأهل الأندلس كانوا مالكية ، بينما قامت الدولـة الفاطميـة على أساس العقيدة الاسماعيلية ، وتورط في هذا الصراع بقايا الأدارسة مع عـدد من القبائل والقوى البربرية وسواها ، ولا شك أن آثار هذا الصراع قد تغلغلت في مناطق المغرب الأقصى، ووصلت إلى قلب الصحراء حيث وجدت قبائل لمتونه وغيرها .

ثم إن انحسار هذا الصراع بزوال الحكم العامري ، في قرطبة ، وبانتقال الفاطميين إلى مصر ، قد خلف في بلدان المغرب فراغاً سعى إلى ملئه عدد من القوى القبلية ، التي دخلت بدورها في صراعات ، سببت المزيد من الفوضى مع شل للحياة الاقتصادية ودمار ، واستغلال وحيف واستبداد ، ولا شك أن هذا الحال أثار أهل فاس ودفع العلماء للعمل على الخلاص منه .

وكان أحرى أهل فاس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أبو عمران الفاسي ، لما اتسمت به شخصيته ، وللروح التي جاء بها من المشرق ، وأخذ الفاسي يأمر بالعدل والمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد حرك نشاطه هذا الناس في فاس ، وقاده إلى الصدام مع السلطات هناك ، فأخرج من فاس ، فاضطر إلى التوجه إلى القيروان .

وكانت القيروان في ظل حكم المعــز بن باديس (٤٠٦ ــ ٤٥٣ هـ) تعيش آنئذ صراعاً عنيفاً بين المالكية المستيقظة تدعمها الحنفية مــن جهــة والاسماعيلية المتراجعة من جهة أخرى ، ويبدو أن الفاسي حظي في القيروان بمنزلة عالية ، وأنه سافر منها من جديد إلــى المشرق ، حيث عاش المراحل العظمى التي كانت قد قطعتها السنة في يقظتها ، كما شهد في مصر مدى ما ألمّ بالدعوة الاسماعيلية والخلافة الفاطمية من ضعف وانقسام وتراجع ، وجمود فكري .

ومجدداً عاد الفاسي إلى القيروان ، حيث آلت إليه زعامة المالكية وأقبل عليه التلاميذ من كل حدب وصوب ، ولربما التحق به بعض تلامذته الذين قرأوا عليه في فاس .

وفي القيروان أيضاً نال الفاسي المكانة السامية ، حتى أن المعز بن باديس وجد نفسه مضطراً إلى مداراته والأخذ بآرائه وتعليماته،ويذكر أن المعز أرسل إليه مرة يستفتيه فيمسألة،وكان رسولهطبيبه وأحد خاصتهأبي عطاء اليهودي، فما كان من أبي عمران إلا أن استشاط غضباً ، وطرد الطبيب بعدما أسمعه كلاماً قاسياً وجهه إليه وإلى سيده الذي أرسله ، وأمر بأن يطبق الشرع على لباس اليهودي وعمله ، وعاد الطبيب إلــى المعز فقال : « ما ظننت أن بافريقية ملكاً غيرك إلا يومي هذا ، ولقــد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد، فما أدركني الفزع ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا »، واضطر المعز إلى مداراة الأمر ، وتقبل ما حدث بذكاء وربما بمرارة أيضاً فقال لطبيبه : « إنما فعلت ذلك لأريك عزّ الاسلام ، وهيبة علماء المسلمين وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء ، لعلك تسلم » .

وازدادت حركة السنة في القيروان نشاطاً ، وتقرر الخلاص من الاسماعيلية ، فأعلن المعز الغاء الدعوة للخلفاء الفاطميين، واستبدالها بالدعوة للعباسيين ، وثارت السنة بالاسماعيلية ، فقامت بتصفيتها في افريقية ، ولا ندري دور الفاسي بالتحديد في هذه الأحداث ، وإنما نفترض استنتاجاً أن دوره كان طليعياً وهاماً .

ولا يهمنا هنا دور أبي عمران في هذه الأحداث ، بقدر ما يهمنا أن الفاسي تعلم في الشرق وأثناه مروره بمصر ، ثم أثناء وجوده في تونس الكثير عن قصة نشوء الدعوة الاسماعيلية وحركتها في المغرب ، التي أدت إلى قيام الخلافة الفاطمية ، لهذا توجه ببصره نحو قلب الصحراء حيث وجدت قبائل لمتونه وسواها .

وكما فعل من قبل أبو عبد الله الداعي حيث اتصل بحجاج البربر أثناء عودتهم إلى ديارهم ، فعل أبو عمران ، فاتصل بركب عاد من مكة إلى القيروان ، أو اتصل به بعض الحجاج ، وتذكر غالبية الروايات أن أهم من اتصل به يحيى بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي ، فاتفقا على توجيه من يقوم بالدعوة بين صفوف قبائل الصحراء ، وأرسله إلى تلميذه وجاج بن زلو .

وكان وجاج بن زلو قد درس على أبي عمران أولاً في فاس ، ثم لحق به إلى القيروان ، وهناك تخرج عليه ، ثم مضى إلى السوس على طرف الصحراء « فبنى داراً سماها بدار المرابطين ، لطلبة العلم ، وقراء القرآن الكريم » وكان سكان السوس يزورونه ويتبركون بدعائه ، وفي منطقة السوس لقي يحيى بن ابراهيم وجاج بن زلو ، فأوصل إليه رسالة استاذه الفاسي ، فانتدب وجاج أحد طلبته إلى الصحراء ، واسمه عبد الله بن ياسين .

وفي الصحراء وتحت رقابة وجاج نشط عبد الله بن ياسين ، ثم ابتنى

رباطاً في جزيرة في حوض السنغال ، تدرب فيه ، وتخرج منه أول جماعة من المرابطين ، كان لها الفضل في السيطرة على قبائل الصحراء ، وقيادتها نحو تأسيس دولة المرابطين العظيمة .

ولم يعش أبو عمران الفاسي ليرى خططه وقد تحققت ، بل توفي قبل ذلك في سنة (٤٣١ هـ) في القيروان ، وصحيح أنه لم يشهد قيام دولة المرابطين ، ولكن التاريخ ما كان ليغمطه حقه ، فذكراه مرتبطة بجليل الأعمال التي صنعها المرابطون في المغرب والأندلس .

حسن الصباح

(ت : ٥١٨ هـ / ١١٢٤م)

في سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م ، تولى عرش الخلافة الفاطمية في القاهرة معد بن الظاهر بلقب المستنصر ، وكان شاباً ، ويعتبر عصر المستنصر أطول عصور الخلفاء الفاطميين حيث امتد حتى سنة ١٠٩٤ م ، في هذا العصر المديد وصلت الخلافة الفاطمية إلى ذروة توسعها ،ثم هوت بسرعة كبيرة ، ففي عصره نشطت القبائل البدوية للشام ومصر نشاطاً كبيراً للغاية ، كما اضطرب حال السبعية وبقية الفرق في العالم الاسلامي واسرعت الاستفاقة العباسية الخطى ، وتحقق لها النصر بزوال الحكم البويهي من بغـداد وقيام السلطنة السجلوقية .

وفي أثناء سير الأحداث التي أدت إلى قيام السلطنة السجلوقية تمكن الفاطميون من السيطرة على بغداد ، وإزالة الخلافة العباسية مـن الوجود ، لكن لمدة عـام فقط ،ولم تحدث الاستفاقة العباسية في المشرق فقط ، بـل انتقلت عدواها إلـى المغرب ، فأسهمت في قيـام حركة المرابطين في المغرب الاقصى ، وسببت اندفاع قبائل هلال وسليم على بقية أجزاء شمال افريقية .

وكان لهذا كله آثاره العظمى على الخلافة الفاطمية في القاهرة ، حيث عانت من مجموعة من الأزمات الاقتصادية والاجتماعيـة والمذهبية تفجرت بشكل صراعات سياسية ، وانتهت باستيلاء بـدر الجمالي وهو أحد قادة الجند الفاطمي ، على مقاليد الأمور في القاهرة ، وكان هذا سنة ١٠٧٤ م .

وقبل هذا كان الخليفة الفاطمي يسيطر على جميع فروع السلطة في دولته ، وهي : « الادارة ، والدعوة والدعاة ، والجيش » وكان الوزير الذي رأس قسم الادارة الشخصية الأولى في الحكم بعد الخليفة ، وكان داعي

الدعاة يرأس الحزب الفاطمي ، ويسير جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كافة أنحاء العالم الاسلامي والهند ، وكان قـادة الجند رؤساءً للفرق العسكرية ويأتون في المرتبة الثالثة في حكم كان بالأساس مدنياً عقائدياً •

لكن الآن صار للجند الفاطمي أمير واحد ، حمل لقب أمير الجيوش وغدا هو سيداً للبلد ، يحكم على الخليفة ، ويحجز عليه ، ويحمل من الألقاب: لقبي وزير وداعي دعاة وذلك بالاضافة إلى لقبه كأمير للجيوش ، وغدا منصب أمير الجيوش وراثياً ، وقد ولد هذا التسلط والتغيير عدم رضا ، ومعارضة شديدة بين صفوف رجال الحركة الاسماعيلية •

وحين توفي بدر الجمالي ورثه ابنه الأفضل، وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة ١٠٩٤ م واجه الأفضل أمر اختيار خليفة جديد ، كما واجه عدداً مـن المسائل التي نجمت في الأساس عن تملك التركمان لبلاد الشام ، وعن تعرض هذه البلاد لغزو جديد جاء من أوربة الغربية وعرف بالغزو الصليبي •

وساعة اختيار الخليفة الجديد ، كان أمام الأفضل : نزاراً الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معيناً لولاية عهد أبيه ، وكان أمامه أيضاً أخوه الأصغر المستعلي ، وكان حدثاً بدون مساندة ، أو جماعة تؤيده،فاختاره أمير الجيوش خليفة ، وسماه اماماً جديداً ، وصاهره على أختـه (أي أخت الأفضل) ، وهرب نزار إلى الاسكندرية ، فقام بثورة هناك لكن قوات أمير الجيوش تمكنت من ملاحقته والقضاء عليه وعلى حركته •

وادى اختيار المستعلي إلى انشطار الدعوة الاسماعيلية إلى شطرين ، فقـد رفض الاسماعيليون في المشرق ، وفي القسم الأكبر من بـلاد الشام الاعتراف بالخليفة الجديد ، وقامت بين صفوفهم دعوة جديدة أسسها حسن الصباح في المشرق ، وبنى أركانها في قلعة ألموت •

ولد حسن الصباح في حوالي منتصف القرن الحادي عشر م / في مدينة قم التي كانت مركزاً من مراكز هجرة واستقرار العرب الأولى في ايـران ، ومعقلاً للشيعة ، وكان حسن من أصل عربي يماني يعود نسبه إلى حمير ،

ونشأ في بداية حياته شيعياً اماميا ، ثم تحول بعد ذلك إلى الاسماعيلية ، وفي مقتبل العقد الثالث من عمره أمر بالتوجه إلى القاهرة للالتحاق بمركز الدعاة فيها ، فوصلها في عام ١٠٧٨ م حيث أحسن استقباله •

ومكث حسن في مصر ثلاث سنوات ، حدث خلالها خلاف بينه وبين بدر الجمالي ، فطرد من مصر إلى شمال افريقية ولكنه تمكن بعد صعوبات من الوصول إلى بلاد الشام ، حيث سافر إلى أصفهان، فكان فيها سنة ١٠٨١، ولمدة تسع سنوات نشط حسن الصباح في الدعوة الاسماعيلية في ايران ، وركز جهوده على مناطق جبال الديلم ، وخطط لدعوة اسماعيلية جديدة ، تتمركز في عدد من القلاع ، تعلن منها الحرب ضد خصومها مهما كان لونهم ومذهبهم •

وبعد بحث متواصل وقع اختيار حسن الصباح على قلعة ألموت (أله موت = عش العقاب) وهي قلعة قديمة بنيت على شعب ضيق على رأس صخرة عالية في قلب جبال البرز ، وقد تحكمت بواد مزروع ومغلق طوله نحو الثلاثين ميلاً وعرضه في أوسع نقاطه حوالي الثلاثة أميال ، وقد قامت القلعة على ارتفاع ستة آلاف وبضع مئات من الاقدام ، وكان من الممكن الوصول اليها فقط بواسطة ممر ضيق منحدر وحلزوني من المحال للجماعات سلوكه •

وأعمل حسن الصباح الحيلة والخدعة فتمكن من الاستيلاء على القلعة، وبعد ذلك استولى على عدد آخر من القلاع كان على رأسها قلعة لمسر سنة ١٠٩٦ م ، وهكذا ، وفي الوقت الذي كانت الخلافة الفاطمية في القاهرة ، تعيش فيه أيامها الأخيرة ، أسس حسن الصباح دعوة اسماعيلية جديدة في المشرق ، لكن بعقيدة جديدة وطرائق في الكفاح والدعاية جديدة أيضاً •

لقد اعتمد حسن الصباح وسيلة الاغتيال السياسي الطقوسي للتخلص من أعداء اسماعيليته ، وذلك بطعن الخصوم حتى الموت بالسكاكين، وعرفت دعوته في المشرق من قبل خصومها باسم «الباطنية» وبعد ما سيطر أتباعه على عدد من القلاع الهامة في بلاد الشام ، مارسوا هناك دوراً بالغ الخطورة

وصاروا يعرفون باسم الحشيشة ، وهي كلمة غير معروفة الأصل حتى الآن ، انما انتقلت إلى اللغات الأوربية لتعني الاغتيال ، كما صـار زعيم حشيشية الشام يعرف بلقب شيخ الجبل .

ومنذ أيام حسن الصباح قام باطنيةالمشرق مع حشيشية الشام بعدد من عمليات الاغتيال نفذوها ضد قادة المسلمين في الشـام والعراق وخراسان بشكل رئيسي ، وضد قادة الاسماعيلية المستعلية في مصر ، كما نفذوا بعض العمليات ضد بعض قادة الصليبيين ، وأثاروا جواً كبيراً من الرعب ، وفرضوا أتاوات مالية كبيرة على قادة المسلمين في المشرق والشام وعلى بعض قادة الصليبيين ، وحتى ــ تبعاً لبعض الروايات ــ على ملوك وأباطرة أوربة .

في مساء يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان (سنة ٤٨٥هـ / ١٢ ت١ ١٠٩٢) ، قام فدائيو حسن الصباح بأول عملية اغتيال في تاريخ الدعوة الجديدة ، فقتلوا نظام الملك ، سيد الامبراطورية السلجوقية ، وقطب البعث الإسلامي للقرن الخامس الهجري ، وقد جاء مقتله بداية سلسلة طويلة من مثل هذه الأعمال التي جاءت كحرب من الارهاب والرعب حملت الموت المفاجيء للساسة والعلماء وسواهم .

وأدى ذلك إلى اعتبـار الحشيشية من قبل خصومهم عصـابات اجرام متعصبة انغمست في عمل تآمري ضد الدين والمجتمع ، لكن الاسماعيلية النزارية اعتبروا أنفسهم كتيبة الخلاص الخيرة ، وطليعة الفدائيين الذين باعوا أنفسهم في سبيل إمامهم وعقيدتهم ، فصرعوا بمديهم رجال الظلم والكفر والاستغلال الاستبداد .

وسعت الامبراطورية السلجوقية بكل قواها إلى التخلص من الحشيشية فأخفقت ، وعاش حسن الصباح حتى سنة ١١٢٤م . حيث توفي،وبذلك انتهت حياة رائعة لعبقري عقائدي ، وصفه أحد خصومه بقوله: «كان شهماً ،كافياً ، عالماً بالهندسة والحساب ، والنجوم والسحر وغير ذلك » وأكد معاصروه على اخلاصه لعقيدته وشدته في التمسك بها وزهده المتناهي حتى إنه « خلال

الخمس والثلاثين سنة التي أمضاها في ألموت ما من أحد شرب الخمر ، بشكل علني ، أو خزنها ، ولم تقتصر صرامته على خصومه ، بل نفسه وآله ، فقد أعدم واحداً من أبنائه لشربه الخمر ، ثم قتل آخراً لتورطه في اغتيال أحد الدعاة، وكان دائماً يذكر أنه ما قام إلا في سبيل الإمام والعقيدة ، ولو أراد غير ذلك لما أعدم ولديه » .

وكان حسن الصباح كاتباً ومفكراً ، كما كان رجل خطط وسياسة وتنفيذ وعمل ، ولقد بقي لنا بعض آثاره الفكرية في علم الكلام وسيرته الذاتية ، هذا وأجل الاسماعيلية النزارية حسن الصباح وساروا على نهجه فترة طويلة .

وبعد ما توفي حسن الصباح خلفه حاكم لمسر ، واسمه كيابرزك أميد ، وذلك بناء على وصية من حسن نفسه ، وبعد كيابرزك أميد صارت قيادة الحشيشية وراثية في أولاده ، الذين ادعوا النسب الفاطمي ، وفي العالم الإسلامي اليوم كميات لا بأس بها من الاسماعيلية، جلهم من أتباع دعوة حسن الصباح ، كما أن غالبيتهم يدينون بالطاعة الروحية وسواها لزعيم يحمل لقب الآغا خان ، وهو يعود بنسبه إلى كيا برزك أميد كما هو مؤكد تاريخياً بشكل موثق .

المهدي بن تومرت

(ت : ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م)

لقد كانت دولة المرابطين من بعض الجوانب وليدة لحركة الاستفاقة الاسلامية التي قامت في أواخر القرن الرابع للهجرة ونشطت في بداية الخامس، وكانت هذه المرحلة قد مرت في بدايتها بمرحلة أولى مندفعة متعصبة بشكل كبير ، ومن الأمثلة على ذلك أن طغرلبك أول سلاطنة السلاجقة وقف سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م على مقالات الامام أبي الحسن الأشعري ، فلم ترق له ، فأمر بلعن الأشعري على المنابر .

وفي عهد السلطان ألب أرسلان، ثاني سلاطنة السلاجقة تأسست المدرسة النظامية في بغداد للدفاع عن الاسلام ونشره ، وقام عدد من العلماء بأعمال التدريس فيها مثل الغزالي وسواه ، ونظراً لمتطلبات العمل خاصة ضد الخصوم والفرق ، من معتزلة وباطنية ، فقد اضطر رجال النظامية إلى الاعتماد على أفكار الامام الأشعري ، وهكذا دخلت حركة الاستفاقة الإسلامية ، المرحلة الثانية من تاريخها ، وقد نجم عن ذلك نتائج جد خطيرة ، يهمنا منها هنا قيام حركة الموحدين ودولتهم في المغرب .

ويرتبط تاريخ حركة الموحدين بالمهدي بن تومرت ، وهو محمد بن تومرت من قبيلة هرغه بالسوس من المغرب الأقصى ، لا ندري سنة ولادته بالتحديد ، ولا شيئاً مؤكداً عن طفولته وحياته الأولى ، إنما يبدو أن والده كان يعمل في أحد المساجد ، وإذا صح هذا ، فلنا أن نفترض بأن ابن تومرت نال ثقافة دينية وعناية ما منذ بداية حياته .

وفي سنة خمسمائة رحل المهدي في طلب العلم ، فتوجه إلى الأندلس حيث مكث مدة، ثم ركب البحر من الأندلس إلى الشام ، ومن الشام توجه إلى

العراق ، وهناك نال ثقافة إسلامية عالية للغاية ، وأتقن فنون علـم الكلام ، وعرف مراحل تاريخ الإسلام وتجارب حركاته، خاصة الحركة السبعية القديمة والجديدة وكانت الحركة السبعية الجديدة أثناء وجود المهدي في المشرق في أوج قوتها ونشاطها ، مالكة لعدد كبير من حصون المشرق والشام ، خاصة قلعة ألموت .

لقد عرف ابن تومرت هذا كله مع تراث المسلمين حول شخصية المهدي المنتظر ، وعندما أكمل تحصيله عاد أدراجه نحو المغرب ، وقد امتلأ حماساً واندفاعاً وبراعة وعلماً ، وعندما اجتاز مصـر وحط الرحال في طرابلس بدأ ـ وقد ملك زمام علم الكلام على قاعدة الاشاعرة ـ ينشط دينياً عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومناقشة العلماء ، مما أثار ضجة كبيرة حوله ، ودفع بعض أصحاب السلطة لطرده ، أو ايقاع العقوبة به ، وهذا ما حصل له عندما حل بمدينة المهدية في تونس ، لهذا هرب إلى مدينةبجاية ، القائمة الآن على ساحل الجزائر ، ومنها ذهب إلى بلدة اسمها ملالة ، وهناك لقيه فتى جميل الوجه كان يؤم بلاد المشرق لطلب العلم ، اسمه عبد المؤمن بن علي ، فسأله عن اسمه وبلده وهدفه ، فأخبره بذلك وأعلمه بقصده المشرق ، فقال له : (العلم الذي تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب) لذلك عدل عبد المؤمن عن هدفه ، ولزم ابن تومرت فكان أول تلامذته .

بعد هذا توجه إلى ونشريس ، ثم إلى فاس ، وأخيراً حل ركابه في مدينة مراكش عاصمة المرابطين ، وهناك حدث صدام بينه وبين علي بن يوسف أمير دولة المرابطين ، كاد أن يدخل السجن بسببه ، لكنه فر إلى قبيلته في السوس، ونشط فيها بين قبائل مصموده وسواها التي كانت تكن العداء لقبائل لمتونه والمرابطين ، فنال التأييد ، وتجمع حوله الأعوان ، وقد مكنه من ذلك علمه وطلاقة لسانه بالعربية والبربرية معاً .

وعندما شعر ابن تومرت بالقوة ادعى لنفسه نسباً يصله بالنبي ﷺ ، ثم قام في شهر رمضان من سنة خمس عشر وخمسمائة باعلان نفسه مهدياً (يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً) وشرع بتنظيم أتباعـه

بشكل دقيق للغاية ، يدل على براعة وعبقرية كبيرة حيث جعلهم في ثلاثة عشر صفاً ، وقد ضم الصف الأول عشرة رجال ، سماهم أصحابه ، وكان يعقد الأمور العظام معهم ، وضم الصف الثاني خمسون رجلاً كان يجتمع بهم ويشاورهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، وأما الصف الثالث فقد ضم سبعين رجلاً كان يحضرهم مجلسه ويتشاور معهم دورياً .

ودعي رجال الصف الرابع باسم الطلبة ، والصف الخامس باسم الحفاظ وهم صغار الطلبة ، وهكذا « ورسم المهدي لكل صف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في سفر ولا في حضر ، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه ، لا يتعداه » وفي نفس الوقت قام بتقسيم أتباعه جميعاً إلى عشرات لكل عشرة نقيب .

وبعدما فرغ من ذلك بحث عن مكان حصين يتخذه مقراً ، فوقع اختياره على قرية في الاطلس الكبير اسمها تينملل (موجودة الآن في المغرب على بعد كيلو متر واحد من الطريق الذاهب من مراكش إلى رودانه/الكيلو متر ١٠٤/) فسكنها ، وأدار عليها « سوراً أحاط بها من كل جانب ، وبنى على رأس الجبل سوراً ، وأفرد في قمته حصناً يكشف على ما وراء الجبل » ووصفها أحد المؤرخين بقوله : « لا يعلم مدينة أحصن من تينملل ، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها ، أو من غربها ، فأما غربها ، وهو الطريق اليها من مراكش ،فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعاً ، وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه ، وكذلك شرقها ، لأن الطريق مصنوعة في نفس الجبل ، تحت راكبها حافات وفوقها حافات ، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا ازيلت خشبة لم يمر عليها أحد » .

ان هذا الوصف يذكرنا بوصف قلعة ألموت التي اتخذها حسن الصباح في المشرق مقراً لدعوته السبعية الجديدة ، حيث منها قاد الحرب ضد رجالات السلطة القائمة ، وكما فعل حسن الصباح ، فعل المهدي ، بأن أعلن تكفير المرابطين بعد ما اتهمهم بالتجسيم ، وأعلن أن دعوته دعوة التوحيدالصافية ،

وصنف لاتباعه عدة مصنفات بالعربية والبربرية أودعها أفكاره ، كما فرض على أتباعه تأدية واجبات دينية محدودة •

وأخذت قوات المهدي تغير على المواقع المرابطية ، وعبثاً حاول الجند المرابطي انهاء ثورة المهدي ، وحقق الموحدون النصر تلو الآخر ، حتى تمكنوا من حصار مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية ، وأثناء ذلك أصيب المهدي بمرض شديد سبب وفاته سنة أربع وعشرون وخمسمائة ، ولما توفي كتم أصحابه وفاته حتى أقاموا بعده عبد المؤمن بن علي بلقب أمير المؤمنين •

وبعد وفاة المهدي بفترة وجيزة استطاع الموحدون ازالة دولة المرابطين من الوجود ، كما قاموا بالاستيلاء على جميع بلدان شمال افريقيا والأندلس، فأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف ، حققت هناك الوحدة لأول مرة ، منذ قرون ، وأوصلت الحضارة العربية إلى ذراها •

لم يتزوج المهدي بن تومرت ، بل وقف حياته كلها على عقيدته، وبالفعل حقق ما كان يصبو اليه من نجاح ، فنال الخلود كعبقري مخطط وعقائدي ناجح ، وما زالت بلدان المغرب العربي تنشد من قرون مثله ليحقق لها الوحدة ، لتصرف طاقات مواطنيها إلى اقامة صرح حضارة عربية إسلامية، فيها تراث الاجداد وعطاء الحاضر ، وما يقتضيه المستقبل •

أبو فضل بن الخشاب

(ق ١٢ م)

عاشت بلدان العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري حالات من التمزق السياسي والضعف العام ، وبرز هذا في النصف الثاني من هذا القرن في بلاد الشام والأندلس بشكل خاص ، فالشام عاش في فوضى مدمرة ، وفقدان للامن والاستقرار بسبب تدفق التركمان على أراضيه ، وعانت بلاد الاندلس من التمزق ، ومما فرضته عليها حروب الاسترداد الصليبية آنذاك .

وفي ذروة الضعف والدمار ، والعنف والعذاب ، والتناحر الداخلي ، وصل إلى مشارف الشام سنة ١٠٩٨م حشود هائلة من نصارى أوربة الغربية ، استهدفت أولاً الوصول إلى بيت المقدس ، ثم القضاء على العرب وإزالة الإسلام والمسلمين من الوجود ، حضارة وعقيدة .

ودخلت جموع الغزاة الشام ، وعاثت في دياره ، واستولت على كثير من مدنه وبلدانه ، وقتلت وأحرقت ، ودمرت دون أن تلقى مقاومة منظمة جماعية ، واستقرت حشود الغزاة في سواحل الشام ومناطق من بلدانه الداخلية في الشمال والجنوب .

ودعا المؤرخون ما قام به هؤلاء الغزاة باسم الحروب الصليبية ، وأطلقوا تعميماً على الغزاة اسم الفرنجة ، وبحث هؤلاء في أسباب قيام هذه الحروب ، فربطوها بعوامل أوربية داخلية سياسية ، ودينية ، واجتماعية واقتصادية ، وحين بحثوا في مراحلها جعلوها في سبع حملات كبيرة ، وأحياناً أكثر من ذلك ، وفي هذا التقسيم والتعليل شيء من المنطق بالنسبة للباحث الأوربي ، إنما يحوي ذلك على قسط كبير من المغالطة مع تغافل عن حقيقة الأمور ،

ووقائع التاريخ الصحيحة ، ذلك أن حشود الصليبيين ، لم تكن أول قوات نصرانية ـ دافعها الأساسي ديني ـ تغزو هذه البلاد ، ثم أن عدداً كبيراً من رجالات الصليبيين كان قد سبق لهم العمل كمرتزقة في جيوش الامبراطورية البيزنطية ، وقاتلوا ضد المسلمين في الشرق ، وكانوا على دراية بأسلحة وطرق قتالهم مع أوضاعهم العامة •

ولا ريب أن الحروب الصليبية هي حلقة من حلقات صراع عميق الجذور في التاريخ ، تجسد فيما بعد القرن السابع للميلاد بين الإسلام وأوربة المسيحية ،والأوربي مهما تجرد، تبقى هذه الحروب جزءاً من تاريخه وأمجاده، يستلهمها كل حين ، خاصة أيامنا هذه التي ينادي فيها بالوحدة الأوربية على أساس شعبي عام ، ولم يحدث أن اجمعت أوربة قط إلا على عداء الإسلام والمسلمين •

إن رجال الحروب الصليبية هم سلف الباحث الأوربي ، نشأ على حبهم ، وتقديس ذكراهم ، واتخاذهم مثلاً أعلى له ، لهذا مجد الباحثون الأوربيون رجال الصليبيين،وسوغوا أعمالهم،وأضفوا عليهم صفاتاً علوية،فوق صفات البشر في الشجاعة والطاقات ، حتى جعلوا منهم قديسين ، مع أن واقع الحال لم يكن هكذا أبداً ، فالصليبيون كانوا بشراً أدنى من سواهم ثقافة وحضارة ، وحتى شجاعة ومعرفة بفنون القتال ، ولقد حققوا انتصاراتهم في بلاد الشام لأنهم واجهوا خصماً أنهكته الفتن ، ومزقته الفرقة ، وكان وجودهم في المشرق مرتبطاً لا بقوتهم بل بضعف العرب وتمزق قواهم •

إنه لمن الخطأ والحال كما وصفت ان تتم دراسة تاريخ الحروب الصليبية، وكأن هذا التاريخ قطعة من التاريخ الأوربي البحت ، وجزء منه لا يتجزأ ، ذلك أن أحداث الحروب الصليبية كان مسرحها الشرق ، وفي هذا الشرق يمكن فقط أن ندرك أسرار نجاح الصليبيين في البداية ، مع مراحل تاريخ وجودهم في الشام ، ثم اخفاقهم في النهاية •

لقد نجح الصليبيون في بداية تواجدهم في الشام في اقامة أربع دول

تمركزت في الرها ، انطاكية ، القدس ، وطرابلس ، وفي مواجهـة ذلك كان للمسلمين عدة اقطاعيات ودولتان ، واحدة في حلب وأخرى في دمشق ، وكان الصراع على أشده بين حكام الشام ، مما منح الفرنجة الفرصة لتمتين الأركان، ثم التخطيط لعمل جديد ، واستهدفوا في البداية احتلال حلب للاطباق بعدها على الشام كلـه •

وأدرك سكان حلب هذا ، وتغافل عنه الحكام ، فقام أهل حلب بعدة حركات وانتفاضات ابتغـوا مـن ورائهـا اسقاط الحكـم التركماني في مدينتهم ، واستبداله بحكم شعبي يتزعمه رجال منظمـة الأحداث ، وظـل الحلبيون يجهدون في هذا السبيل قرابة عقدين من الزمن حتى تحقق لهم ما أرادوه •

وجرت العادة في الغرب الأوربي على تقسيم تاريخ الحروب الصليبية إلى سبع مراحل أو أكثر ، وذلك حسب عدد الحملات الكبرى التي جاءت من الغرب،وفي الحقيقة فإن هذا غير مطابق لما حصل،ذلك أن الصليبيين لم يتوقف تدفقهم على الشام براً وبحراً باحجام مختلفة وكميات متفاوتة ، ولهذا من العبث الحديث عن حملات ، فلقد كان هناك حملة واحدة بدأت قبل ١٠٩٨ م وانتهت بتصفية آخر معاقل الفرنجة بالشام •

وعندما نرفض التقسيم الذي أبدع في الغرب ، من الممكن استبداله بالقول بأن تواجد الفرنجة في الشام بعد تأسيس دولهم قد مر بأربع مراحل ، تعلقت بمراحل الاستفاقة وأعمال التحرير ، وقد ارتبطت كل مرحلة من هذه المراحل باسم مدينة إسلامية وتأثرت أبعد التأثير بدرجة الوعي والوحدة بين صفوف المسلمين ، ومراحل التحرير بعد الصمود هي :

مرحلة الموصل ، تليها مرحلة حلب ، ثم مرحلة دمشق ، وأخيراً مرحلة القاهرة ، فمن الموصل انطلقت أول قوات التحرير المنظم ، وبقوات الموصل امكن الانتقـال من حـالة الدفاع والانحسار العربي ، إلى حـالة الهجوم واسترداد الأرض ، وتحرير الانسان ، ومن حلب أمكن صنع الوحدة بين

شمال الشام وجنوبه، ومن دمشق قيدت جيوش حطين وأخيراً تحملت القاهرة مسؤولية العبء الأكبر في أعمال تصفية وجود الفرنجة واقتلاعهم نهائياً •

وقد انجبت كل مرحلة من هذه المراحل أيضاً قائداً متميزاً أو أكثر ، ففي مرحلة الموصل نجد زنكي ، وفي مرحلة حلب عندنا نور الدين محمود ، وفي مرحلة دمشق قاد صلاح الدين النصر في حطين ، وفي مرحلة القاهرة لا شك أن الظاهر بيبرس كان العملاق بين قادة المسلمين •

ومن المعروف أن الصليبيين بعدما استولوا على طرابلس ، هدفوا إلى الاستيلاء على حلب، لسد الثغرة بين الرها وأنطاكية ، وللاطباق على الشام كله لتحويله لاتينياً ، وبعدما أغاروا مراراً على حلب قاموا سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م بتحضير كل شيء للاستيلاء على حلب ، وحشدوا قواهم جميعاً مع قوى بعض الاقطاعيين العرب والتركمان ، وألقوا الحصار على المدينة •

وقام أهل حلب بتنظيم الدفاع عن مدينتهم ، وشكلوا هيئة دفاع عامة رأسها قاضي المدينة أبو الفضل بن الخشاب ، وأخذ المهاجمون يشددون الضغط على حلب « وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين ، وأخذوا توابيتهم إلى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا إلى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا علّيكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين، وعمله ثفراً (الثفر : السير الذي يوضع في مؤخر السرج) ، لبرذونه، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ، ومذاكيره ، ودفعوه إلى المسلمين » •

ولم يؤثر هذا على الحلبيين وظلت معنوياتهم عالية قوية ، واصرارهم شديداً ، ونقصت مؤن الحلبيين ، « وبلغ بهم الضر إلى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ويحدثنا أحد زعماء المقاومة بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة

البلد ، فإذا زحف الفرنج وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى إلى فراشه » .

واشتد الحصار وطال ، وهنا قرر الحلبيون ارسال وفـد يتوجه نحو الجزيرة وسواها يطلب العون من حكامها ، وفي الليل تسرب وفـد جمع عدداً من القضاة ، وفي قسوة الشتاء ، سافر الوفد أولاً إلى ماردين حيث اعتقل أفراده من قبل حاكمها ، بحجة التغرير ، ويحدثنا القاضي أبو غـانم ــ جد ابن العديم مؤرخ حلب ــ بقوله : « فأعملنا الحيلـة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي ــ صاحب الموصل ــ ونستصرخ به ، ونستنجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريراً عظيماً إذا فتح ، أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتاً ، ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل ان يسرجوا الدواب ، ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ، ونركب ونمضي .

قال : كان الزمان شتاء والثلج كثير على الأرض .. فلما نام الموكلون بنا ، جاء الغلمان بأسرهم ، إلا غلامي ياقوت وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم ، وانتهزوا الفرصة ، ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا ، والدليل معهم يدلهم على الطريق ، ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نخفيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكراً ، لا يأخذني نوم ، حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقمت ، وركبت لاأعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا أنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير ، حتى وصلنا الموصل » .

وفي الموصل قابل الوفد البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكر الموصل على مدينة حلب ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب ، وكان هذا الحادث نهايــة مرحلة الصمود الاسلامي امام موجــة الغزو العارمة ، وبالتالي بداية عهد التحرير • .

لقد كتبت حلب بصمودها ملحمة عظمى من ملاحم تاريخ الاسلام، وصان جهادها شرف الحضارة العربية، فكان ذلك نقطة تحول عظمى في تاريخ العالم، لانه كما بين آرنولد توينبي لو سقطت حلب لصار الشرق لاتينياً •

ابن اسحـــق

(ت : ١٥١ هـ / ٧٦٨ م)

اهتم المسلمون منذ فترة جد مبكرة منْ القرن الأول للهجرة بجمـع أخبار السيرة النبوية وتدوينها ، لانها تحوي التاريخ القريب للأمة العقائدية الناشئة ، فقد تطلع المجتمع الاسلامي أثناء تكوينه إلى « اعادةتملك » تجربة النبوة لأنها فريدة ومثالية وأساسية يقتدى بها في دعم فكرة المجتمع الكبير الناشيء ، هذا وان الاحداث وقيام حركة الفتوحات ، وما نجم عنها من اتصال مباشر بالأمم الأخرى ، عمل على دمجها كلها في صيغة واحدة ، كل ذلك قد أبرز مشاكل كبيرة ، سعى المسلمون لاستلهام حلول لها في سيرة النبي ﷺ ، وتجربة الوحي والادارة أيام قيام الإسلام في مكة والمدينة ، وعلى هذا نرى أن جمع أخبار السيرة وتدوينها صنع منذ البداية ضمن منظور تاريخي خاص ، كان واسعاً وشاملاً ، فتجربة النبوة المحمدية هي آخر تجارب النبوات الحقة، الداعية إلى عقيدة التوحيد في التاريخ ، وهي ذات منظور أممي شامل ، ثم هي عميقة الجذور ، تستند إلى تجارب جميع النبوات الصحيحة السابقة ، لهذا كان لا بد حين جمعت أخبار النبي وسيرة حياته من معرفة ما كانقبله محلياً وعالمياً ، وهكذا لم تقتصر الاهتمامات على عصر النبي فقط وإنما على تاريخ العالم منذ بداية الخليقة ، فالنبي محمـــد ﷺ أرسل خاتماً للنبوات وهادياً للبشر أجمعين .

وقد عمل على جمع أخبار السيرة وخلفياتها التاريخية عدة أعلام كبار عاشوا في القرنين الأول والثاني الهجريين منهم : وهب بن منبه ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وعروة بن الزبير ، وشرحبيل بن سعد ، وعبد الله بن أبي بكر ابن حزم ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، وموسى بن عقبة ، وهشام بن عروة بن الزبير ، ومحمد بن اسحق ، ولقـد

وصلتنا قطع من كتاب وهب بن منبه « ٣٤ ــ ١١٤ هـ / ٦٥٤ ــ ٧٣٢ م » في المغازي ، كما وصلتنا مغازي الزهري (ت ١٢٤ هـ / ٧٤١ م) وفيها محصلة أعمال المرحلة الأولى من مراحل كتاب السيرة ، هذا ويعتبر كل من موسى ابن عقبــة (ت ١٤١ هـ / ٧٥٨ م) ومحمد بن اسحق (٨٥ ــ ١٥١ هـ / ٧٠٥ ــ ٧٦٨ م) أهم ممثلي المرحلة الثانية من مراحل كتابة السيرة ، وأقدم من كتب في ظل بداية العصر العباسي ، وقد وصل إلينا مباشرة قطعة صغيرة من مغازي موسى بن عقبة ، ووصلنا الكتاب كله تقريباً بشكل غير مباشر في كتاب الاكتفاء للكلاعي ، ومن دراسة ذلك يتبين لنا اهتمام موسى بالترتيب الزمني ، وبذكر تواريخ الحوادث ، وباستعماله للأسانيد بدقة ثم باعتماده شبه المطلق على شيخه الزهري •

مهما تكن أعمال أمثال الزهري ، وموسى بن عقبة ، فإن عمل ابن اسحق يبقــى الاساسي فيما يتصل بالسيرة وإلى حد ما بالتاريخ ، وتكمن أهميتــه كمؤرخ في استيعابه لتجارب شيوخه ، وفي تطويرها واعادة تنظيمها من خلال فهمه الجديد للتاريخ ، ومن خلال نظرته الشاملة النابعة من ثقافته الواسعة وادراكه للمغزى السياسي « للصورة التاريخية » ومن هنا صار ابن اسحق شيخ كتاب السيرة ، وصار الذين كتبوا بعده عيالاً عليه ، وقد شعر كاتب سيرة ، كابن سيد الناس ، بعد ذلــك بقرون أن ســيرة النبي ﷺ نفسها ، وقيمتها التاريخيــة تتعرضان للخطر إن تعرضت الثقــة بابن اسحق المؤرخ للتساؤل ، لذا فقد رأى واجباً عليه أن يعقد في مطلع سيرته فصلاً للدفاع عن ابن اسحق في وجه ناقديه •

ان مقولة ابن سيد الناس هذه لا يمكن الآن التسليم بهــا ، فالنظرة الدينية المحضة لتعليل التاريخ لم تعد مقبولة ، ثم ان ابن اسحق كان مصنفاً لمواد اخبارية متنوعة ، هو لم يكن مسؤولاً عن نشأتها ، كان حاله حال من يعمل في منجم كبير يبحث فيه عن معدن خاص ، فيجمع كل أنواع الصخور المعدنية المتفاوتة الاشكال والمتباينة الأوزان وكميات المعدن الخاص ، ومعلوم

أن جمع الفلزات المعدنية هو غير تصنيعها والاستفادة منها بعد ذلك ، فالمصنف هو غير المؤرخ بمنظور علم التاريخ في العصر الحاضر .

ولد محمد بن اسحق بالمدينة حوالي سنة (٨٥ هـ / ٧٠٥ م) وبها نشأ فأدرك بعض الصحابة ، لكن أكثر سماعه كان من أبناء الصحابة ، كما سمع من أبيه وكبار رجال التابعين في المدينة ، ثم رحل في طلب العلم إلى مصر ، ونحن نعلم أنه كان في الاسكندرية عام (١١٩ هـ / ٧٣٨ م) ثم عاد إلى المدينة ، وبدأت شهرته بسعة الرواية تنتشر ، وإلى هذه الفترة تعود منازعاته مع عالمي المدينـــة المشهورين آنذاك : هشام بن عروة (ت ١٤٦ هـ) ومالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) أما هشام بن عروة فقد اتهمه بالكذب لأنـــه روى عن زوجته فاطمة بنت المنذر بن الزبير ، وكان هشام ينكر سماع ابن اسحق لها ، ويقول : أهو كان يدخل على امرأتي ، وربما قصد هشام بن عروة من وراء ذلك إلى الحط من منزلة ابن اسحق لانه كان مولى .

ويمكن فهم نزاعه مع مالك من زاوية أخرى ، فقد بلغ مالك عنه أنه يقول : اعرضوا علي حديث مالك فأنا بيطاره ، فقال مالك : وما ابن اسحق ، انما هو دجال من الدجاجلة ، نحن أخرجناه من المدينة ، ويمكن للوهلة الأولى فهم هذا النزاع على أنه نزاع بين أبناء الحرفة الواحدة ، وقد كان الأوائل يقولون : المعاصرة حجاب ، لكن هذا لا يقنع بشكل كاف ، فالأمر يتعدى ذلك ، حيث أن طبيعة الكتابة التاريخية التي عمل ابن اسحق في مجالها أرغمته على التحلل بعض الشيء من طرائق المحدثين الشديدة التدقيق ، والحرفيـــة المنحى ، والبالغة الايجاز ، وطبيعي أن ينظر مالك إلى ذلك كله ــ وهو الامام المحدث المتشدد ــ نظرة كلها شك وريبة ، والاشارة الأولى من حديث الامام مالك عن ابن اسحق بالغة الخطورة حيث تشير إلى إخراج ابن اسحق من المدينة . لقد كان للنزاع إذاً وجه آخر لا يمكن اعتباره علمياً محضاً ، بل له جانبه السياسي والعقائدي ، والمصادر التي تحدثت عن حياة ابن اسحق تؤيد ذلك ، فقد اشتهر عن ابن اسحق ميوله الشيعية الواضحة مع القول بالقدر ،

وقد جلد بالمدينة بسبب ذلك وشهر به ، ولم يدفع ابن اسحق هذه التهمة عن نفسه ذلك أن كل من عمل بالسيرة اتهم بالتشيع والقدر، لأن كل عامل بالسيرة كان يقدم بني هاشم ويؤخر بني أمية الذين كانوا يقولون بالجبرية .

دفع هذا كله ابن اسحق إلى مغادرة المدينة ، وكان « قد ضاق واشتدت حاله » وتوجه من هناك إلى الكوفة ، ولا بد أن ذلك كان قبل بناء بغداد ، لكن بعد سقوط الخلافة الأموية ، وولاية المنصور للخلافة أي بين ١٣٦ هـ - ١٤٤ هـ لأننا نقرأ بالمصادر أنه أتى أبا جعفر المنصور بالحيرة ، فكتب لـه المغازي ، فسمع منه أهل الكوفة بسبب ذلك ، وتوجهه إلى أبي جعفر لم يتم مصادفة ، فقد كان يعرفه - في الغالب - قبل وصول العباسيين إلى السلطة ، كما أنه كانت للعباسيين صلات طيبة بالقدرية في أول الأمر كما تظهره المصادر التي تلح على صلات أبي جعفر - قبل الثورة العباسية وبعدها - بعمرو بن عبيد وغيره من قدرية البصرة .

مهما يكن الحال يبدو أن ابن اسحق كان قد صنف السيرة قبل مغادرته الحجاز ، وعندما نزل الكوفة حدث عنه كوفيون كثيرون ثم انتقل إلى بغداد في ركاب المنصور ، بعد بناء المدينة ، فحدث عنه بها آخرون ويهمنا هنا أن نذكر ثلاثة من هؤلاء الذين حدثوا عنه لصلتهم بما وصل إلينا من سيرته ، إنهم : زياد بن عبد الله البكائي (ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م) ومحمد بن سلمـة الحراني (ت ١٩١ هـ / ٨٠٧ م) ويونس بن بكير (ت ١٩٩ هـ / ٨١٤ م) وقد كلف المنصور ابن اسحق بملازمة ابنه المهدي فصحبه طويلاً ، وسافر معه إلى خراسان حيث حدث هناك بالري وأملى ، وبأمر من المنصور صنف ابن اسحق السيرة للمهدي فلما أطلع عليها المنصور ، طلب اليه القيام ببعض التعديلات فيها ، وهكذا تكونت ثلاث « نشرات من السيرة » أولى من العهد المدني ، وثانية من العهد الكوفي ، وثالثة من العهد البغدادي ، وقد بقيت من النشرتين الأولى والثانية ، قطعتان تسمحان لنا بالقول بأن المنصور أراد من ابن اسحق التركيز بشكل أوضح على دور العباس بن عبد المطلب ، وأخباره

مع النبي ، وخدماته للاسلام ، ورافق ذلك طمس ما يتصل بنواحي ضعف العباس وأعماله المعادية للاسلام قبل اشهار اسلامه ، ونرى أن رواية يونس ابن بكير تمثـل الشكل الأول الشيعي المدني ، بينما تمثل روايـة الحراني الشكل العباسي المعتدل[1] ، ورواية البكائي الشكل الثالث العباسي المحض.

لم يصل إلينا مباشرة ، نسخة كاملة من سيرة ابن اسحق ، بل وصلنا أجزاء من رواية ابن بكير عنه ، وأوراق من رواية الحراني ، أما رواية البكائي فلم تصل إلينا ـ للاسف ـ في شكلها الأول ، بل نالها تعديل ابن هشام واختصاره ، وهذا على كل حال رأي يبقى عرضة للنقاش ، لاننا لا نملك حتى الآن نسخة كاملة لاحـدى الروايات الثلاث ، بحيث تمكن المقارنـة ويمكن التحقق التام .

معلوماتنا عن ابن هشام ، الذي هذب رواية البكائي قليلة ، وقد ذكر السهيلي في (الروض الأنف) أنه كان يدعى عبد الملك بن هشام ، وأنه كان مشهوراً بحمل العلم ، متقدماً في علم النسب والنحو وهو حميري معافري ، بصري الأصل ، مصري المنشأ والوفاة ، وزاد ابن خلكان نقلاً عن ابن يونس صاحب « تاريخ مصر » أنه توفي سنة ثماني عشر ومائتين ، بينما أكد السهيلي أن وفاته كانت سنة ٢١٣ هـ ، هذا ولا يسلم لهاتين الروايتين ، اذ من العودة إلى الفاكهي صاحب تاريخ مكة نستنتج ان ابن هشام توفي بعد (٢٥٠ هـ) وأنه تبعاً لذلك لم يلق البكائي ليأخذ عنه مباشرة بطريقة السماع .

وعلى هذا يبدو أن ابن هشام صادف أمامه ـ عندما أراد تهذيب سيرة ابن اسحق ـ نصاً مكتوباً برواية البكائي ولا ندري كيف وصله ولا أين ، ولعل ذلك كان بطريق «الوجادة» أو بنوع من أنواع «الإجازة» ، إنه لا يصرح على أي حال بشيء من ذلك في مطلع تهذيبه ، فهو يبدأ هكذا « قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : هذا كتاب سيرة رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله بن عبد

(١) لقد نشرت ما وصل الينا من أجزاء الرواية الاولى والثانية محققاً في بيروت سنة ١٩٧٦ .

المطلب » ثم يقول بعد سرده للنسب الشريف : « قال أبو محمد عبد الملك بن هشام : حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن اسحق المطلبي بهذا الذي ذكرت من نسب محمد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى آدم عليه السلام » .

إنها طريقة شاذة في عرض الإسناد ، إذ القاعدة ذكر الإسناد قبل الرواية، فهل يا ترى اقحمت العبارة اقحاماً من قبل إنسان ما في فترة من الفترات ؟ لا نملك إجابة مقنعة لهذا السؤال .

وكل ما نعرفه أن ابن هشام بيَّن خطـة عمله بالكتاب : « تارك بعض ما ذكره ابن اسحق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ، ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، واشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء يشنع الحديث بها ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره » .

إن مما يؤسف له لجوء ابن هشام إلى حذف الكثير من مادة ابن اسحق التي اعتبرها غير ضرورية ، ثم عسفه بالنص بتعديل بعض أخباره ، أو تعديل الفاظه حسبما فهمها ليكسبها قبولاً أو وضوحاً رأى أنها تفتقر إليهما، ولا شك أن تعديلاته وشروحه هذه تأثرت ببيئته الثقافية وطبيعة العصر والمكان الذي عاش فيه ، فالنصف الثاني من القرن الثالث للهجرة غير النصف الثاني من القرن الثاني ، يضاف إلى هـذا أن اهتمامات ابن هشام كانت اهتمامات لغويـة نحوية ، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً على طريقته في اختيار الأخبار وفي إيرادها ، وهكذا ذهبت اهتمامات ابن اسحق التاريخية والإخبارية ضحيـة عنت ابن هشام اللغوي .

القضية ليست قضية شعر ممتاز صحيح أو غير ذلك ، إنهـا أعمق من هذا ، فعندما أخذ المسلمون في جمع أخبار النبي ﷺ وروايتها ، لم يكن جميع من عمل بها من مستوى عروة بن الزبير وأبان بن عثمان والزهري وأئمة الحديث والفقه في الثقافة العالية ، كان بينهم مـن هو أدنى ثقافـة ومقدرة

أدبية ولغوية ، وهؤلاء اهتموا بالسيرة وكانوا يشكلون القطاع الأكبر من جماهير المسلمين ، ثم ان المجتمع العربي الاسلامي هو مجتمع حضارته منذ الأزل اعتادت على سرد الأخبار على شكل شعر منظوم ، ووجد بين المسلمين عدد هائل من القصاص ذوي المستويات المختلفة •

لقد انتهى إلى ابن اسحق روايات السيرة بأنواعها وبمختلف مشاربها ومستوياتها وطرق صياغتها وسردها شعراً ونثراً ، فصنف هذه الأخبار وعرضها بشكل منظم دقيق ، وكم هو رائع لو وصلنا كتابه كاملاً ، لأن ذلك سيمكن من دراسة الحالة الثقافية للمجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني بشكل شامل •

ولعل من المفيد أن نقارن عمل ابن هشام ليس فقط بالقطع الباقية من الروايتين الاولى والثانية لأبن اسحق ، ولكن أيضاً بالمصادر التي نقلت عن ابن اسحق مباشرة أو عن طريق ابن هشام ، ففي « تاريخ مكة » للفاكهي (ت ٢٨٠ هـ) نصوص مقتبسة من كتاب ابن اسحق دون تهذيب وأخرى مهذبة رواها الفاكهي مباشرة وسماعاً من ابن هشام ، (وهذا ما جعلنا نرجح وفاة ابن هشام بعد / ٢٥٠ / هـ) •

ثم ان تاريخ الطبري فيه نقول عن ابن اسحق ، وكذلك كتاب الأغاني ، وفي كتاب الاكتفاء للكلاعي أكبر النقول المعروفة عن ابن اسحق ، وحين نقوم بمقارنة ما لدينا من ابن اسحق على هذه الصورة بما هو موجود في كتاب ابن هشام ، يتضح لنا أن ما حذفه ابن هشام كان كبيراً ، ولم يقتصر على الشعر بل تناول « أشياء بعضها يشنع الحديث به وبعض يسوء بعض الناس ذكره » وهذا يعني أن من دوافع الحذف ما كان سياسياً وربما عقائدياً تعلق بمعطيات الفكر في القرن الثالث وتصور أهله لما تمنوا أن يكون عليه النبي ﷺ وصحابته ، سواء رضي التاريخ الموثق أو لم يرض •

إن الفائدة ستكون كبيرة ، لو عثرنا في المستقبل على نسخة كاملة أصيلة من إحدى روايات سيرة ابن اسحق ولكن حتى يتحقق ذلك

فإنه لا بد من الاستناد إلى القليل الذي بين أيدينا لنكون صورة تقريبية عن الإنجاز الرائع الذي حققه ابن اسحق في مجال تطوير الكتابة التاريخية العربية ، إن طريقة ابن اسحق في الكتابة والبحث ، ومصادره والخلفيات السياسية والاجتماعية لأخباره ومروياته ، كل ذلك يحتاج إلى دراسة مفردة لا يتسع لها المجال هنا ، وهمنا الآن ينحصر في فتح ملف قضية للمناقشة والبحث من قبل ذوي الاهتمام والاختصاص .

تناول ابن اسحق في كتابه ثلاث موضوعات ، اعتبرها مترابطة : أخبار الخليقة من آدم وحتى اسماعيل بن إبراهيم ، ثم من إسماعيل حتى النبي محمد ﷺ ، ثم حياة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها في مكة والمدينة ، واعتمد في القسم الأول على مادة الاسرائيليات التي تجمعت عند العرب قبله والتي ربما أكملها هو خاصة أثناء تحصيله في مصر .

واعتمد في القسم الثاني على مادة عربية شبه اسطورية ، تتحدث عن أخبار العرب قبل الإسلام وأنسابهم وقد صيغت أخبار هذين القسمين بشكل جيد الأداء والعرض ، أوصل إلى الغرض ، وهو صحة نبوة النبي محمد ﷺ والارتباط بغيرها من النبوات التي جاءت خاتمة لها بعدما كانت كل نبوة تبشر سلفاً بهذه النهاية الحتمية التقدير .

وبعد الفراغ من هذين القسمين اللذين جاءا كمقدمة أخذ ابن اسحق بالحديث عن النبي محمد ﷺ ، ولم يسق هذا الحديث كقصة متسلسلة ، بل ساقه كوقائع بعضها وقع للنبي محمد ﷺ بالذات وبعض آخر لغيره وله مساس قريب أو بعيد به ، وحينما تحدث ابن اسحق عن النبي محمد ﷺ ، أثبت تقريباً جميع المادة الأخبارية التي كان المسلمون قد جمعوها عنه خلال القرن الأول الذي جاء بعد وفاته ، ويبدو أن ابن اسحق أولى الفترة المكية من حياة النبي ﷺ اهتماماً أكبر من الفترة المدنية ، وقدم لهذا القسم بمقدمة ذكر فيها علامات النبوة عند النبي محمد ﷺ ، وروى جميع قصص البشائر التي بشرت بقرب نبوته وصحتها .

وتنجلى عبقرية ابن اسحق ، وتفوقه على الذين سبقوه في ترتيبه لكتابه بشكل فيه منطق ونظام ، وترتيبه هذا ، وإن جاء غير مثالي تماماً ، يكفي صاحبه فكر الإبداع والدنو من درجة الكمال .

ومادة ابن اسحق غنية للغاية ، تكاد تكون حاوية لجميع ما تجمع لدى العرب المسلمين من أخبار ، وهذه فضيلة لابن اسحق سبق بها ، وقد صنف من بعده قوم آخرون ، في نفس الموضوع ، فلم يبلغوا شأوه ، ومادة ابن اسحق رغم المآخذ ، كبيرة الفائدة ، اعتمدها غالبية الذين كتبوا أو اهتموا بسيرة النبي ﷺ ، بعده وكانت موضع دراسة وعناية ، وستبقى كذلك ، طالما هنالك من يبحث في سيرة سيد البشر ﷺ ، وتاريخ قيام الدعوة الإسلامية ..

الطبري

(ت : ٣١٠هـ / ٩٢٢م)

حين يذكر تاريخ الإسلام في قرونه الثلاثة الزاهية الأولى ، يذكر اسم أعظم من دوّن أخباره واعتنى بها ، وهو محمد بن جرير الطبري ، وعندما يستعرض الباحث الكتب التي صنفت في تفسير القرآن ، يجد أن الطبري كان من أعظم المفسرين وأكثرهم شمولاً في عمله .

والطبري هو أبو جعفر محمد بن جرير،ولد في مدينة آمل،حاضرة منطقة طبرستان القائمة على السواحل الشرقية لبحر قزوين وفيها نشأ ،ومنذ نعومة أظافره اهتم أبوه بتعليمه وتربيته، فتعلم العربية وقراءة القرآن،ثم بعد ذلك اهتم بالحديث النبوي والعلوم الإسلامية ، وأخذ ذلك على جلة شيوخ مدينته ، ثم سمت به همته إلى السفر فرحل نحو بغداد ، وفي طريقه إليها لقي عدداً من العلماء فأخذ عنهم ، ثم حط الرحال في بغداد ، ولقي فيها كبار رجال المعرفة في العالم الإسلامي ، فأخذ عليهم وحضر مجالسهم ، وسمع أحاديثهم ومساجلاتهم ، وزار وهو في العراق كلاً من البصرة والكوفة .

اهتم الطبري بعلوم القرآن ، وبفقه مختلف مدارس الإسلام الكبرى وبالتاريخ ، وغير ذلك من العلوم ، فكان بذلك واحداً من عظماء رجال عصره، موسوعي المعرفة ، ولم يكتف بما حصله في العراق فسافر إلى بلاد الشام حيث لقي حملة العلم فيها ، ومن الشام توجه إلى مصر ، حيث مكث فترة وجيزة ، ثم عاد إلى الشام ، لكنه غادرها ثانية إلى مصر وكان قد نال شهرة بالعلم والمعرفة ، وأقبل الناس على الأخذ عنه في الفسطاط .

على أن اقامته لم تطل في مصر حيث عاد نحو بغداد ليستقر ، وكانت شهرته قد سبقته إليها ، وفي بغداد صار له مجلسه الخاص للتدريس والإملاء ،

وتحلق حوله طلاب العلم ، وباشر هو في تصنيف عدد من كتبه وأخذ يمليها على تلامذته ، وكان أهم الكتب التي أملاها كتاباً في تفسير القرآن عرف باسم « جامع البيان في تفسير القرآن » وجاء هذا الكتاب في عدد من المجلدات الكبيرة ، وفيه أودع الطبري مواد لها صلة بعلوم القرآن والشريعة والتاريخ، تشتمل على جل ما اجتمع عند المسلمين في هـذا الباب ، ولهـذا نال كتاب التفسير هذا مكانة سما بها على الاعمال التي سبقته ، ولم يستطع أحد بعد ذلك أن ينازعه على منزلته التي احتلها .

وأملى أيضاً على تلامذته كتاباً في التاريخ عرف بعنوان « تاريخ الرسل والملوك » أرخ به للخليقة منذ آدم وحتى بداية القرن الرابع للهجرة ، وجاء هذا الكتاب في حجم يساوي تقريباً حجم كتاب التفسير .

ليس للمادة التي تحدث بها الطبري عن الفترة ما بين آدم وظهور النبي محمد ﷺ من كبير قيمة ، ذلك لأنها اعتمدت على تراث الاسرائيليات ، إنما اعتمـاد الطبري للبدء ببدايـة الخليقة معاني كثيرة تقودنا إلـى تصوره التاريخي ، القائم على أن رسالة الإسلام أتمت رسائل الأنبياء السابقين ، وأنه بنبوة النبي محمد ﷺ انتهى عصر الرسل ، وبدأ عصر الملوك .

لقد عرض الطبري مواده الاخبارية ، عرض المصنف الملتزم بطرائق المحدثين من اعتماد السند والمتن وذكر مختلف الروايات حـول الحدث الواحد ، دون التدخل إلا بشكل طفيف ، وفي الأحوال الضرورية فقط ، ولقد أراد الطبري أن يؤرخ في كتابه للإسلام خلال قرون ثلاثة ، ولكن تلك غاية لم يصل إليها على الرغم مما بذله من جهود ، وما أودعه في كتابه من مواد اخبارية لا نجدها في مصنف آخر .

إن كتاب الطبري في التاريخ يحوي أخبار الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، وليس للجناح الغربي فيه حظ كبير يذكر،وقلب الشرق عند الطبري هو العراق دار الخلافة العباسية ، ولهذا وقف الطبري جل مواده الأخبارية على حوادث العراق ، وأكملها بما ارتبط بها من حوادث المشرق .

لقد عرف عن الطبري الأمانة والنزاهة والترفع عن عشرة ذوي السلطان، والتعالي عن أخذ اعطياتهم وقبول هداياهم، فقد كان زاهداً عزوفاً عن الدنيا ، وقف نفسه على العلم ، وعاش معتمداً بكفاف على ما كان يأتيه من ريع ضيعة ورثها عن أبيه ، وكان لهذا أثره البعيد على كتابات الطبري ، فهو كتب من وحي ضميره ، دون التملق لسلطان أو خليفة أو ملك ، فتميز بهذا عن سواه •

لقد بلغ الطبري درجة عظيمة من العلم أهلته لمركز الامامة والاجتهاد ، والشروع في إحداث مدرسة جديدة من مدارس التشريع الاسلامي التي لها آراء خاصة وتعليلات متميزة ، وكانت بغداد التي نشط بها الطبري يسيطر على شارعها السني ، وعلى جل علمائها المذهب الحنبلي ، إنما بشكل متعصب، وفيه شيء من عنت ، وكان لا بد أن تتعارض آراء الطبري مع آراء الحنابلة، ولم يتقبل الحنابلة المعارضة بروح علمية ، بل أثارهم ذلك وهيجهم ، حتى ضاقوا ذرعاً بالطبري ، وباتوا يتحينون الفرصة للايقاع به والتخلص منه •

وجاءت هذه الفرصة عندما صنف الطبري كتاباً تحدث به عن الخلافات بين علماء أمصار الإسلام ، وقام فيه عندما أتى على ذكر الامام أحمد بن حنبل ، إلى اعتباره رجل حديث ، وليس صاحب مدرسة فقهية متميزة ، واتخذ زعماء الحنابلة هذا ذريعة ، فأثاروا العامة ضد الطبري ، مما اضطره إلى الاعتصام في بيته وقد حاصره الحنابلة ورموه بالحجارة ، مما أدى إلى تدخل صاحب الشرطة •

ولم يعمر الطبري طويلاً بعد هذه الحادثة حيث توفي سنة ٣١٠هـ ، وصحيح أنه توفي دون أن يكتب له النجاح في تأسيس مذهبه الخاص ، لكن ذلك لم يؤثر على مكانته ، فهو كان وما زال وسيبقى أعظم علماء الإسلام في التفسير والتاريخ •

الخطيب البغدادي

(ت : ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م)

عندما يستعرض الباحث تاريخ الديانات السماوية منها وغير السماوية ، يرى أن الاسلام تميز ـ فيما تميز به ـ عن بقيـة الديانات بأنه كان دينـاً حضارياً ، بلغت فيه مفاهيم العقيدة وتطبيقاتها ذروة الصقل الحضاري ، كما يلاحظ أن هذا الدين الحضاري كان دائماً ، خلافاً لغيره، لديه القدرة الدائمة، أينما حل ، ومهما كانت البقعة مجدبة ، على ايجاد الانسان الحضاري .

فبعدما قام الاسلام في شبه الجزيرة العربية تبدل مظهر هذه البلاد ، من مسكن للبداة والأعراب إلى دار للعلم والعلماء والثقافة المبدعـة ، وإذا كان كل شيء مرتبط بأولياته وبداياته ، فلقد ارتبطت نقطة بداية قيام الاسلام بـ « اقرأ ، علم ، كتاب ، قلم » وعلى أساس هذه البداية نلاحظ بأن جلّ نتاج الحضارة العربية جاء فكرياً مدوناً في الكتب ، والكتاب هو رمز الحضارة العربية ، وليست الاهرامات كما هو الحال في الحضارة الفرعونية ، أو الطرق المعبدة والجسور والصروح الضخمة كما في الحضارة الرومانية مثلاً .

ورغم أننا قلنا بأن الكتاب هـو رمز الحضارة العربية ، علينـا أن نستدرك هنا أنه ليس كلها ، فالعرب أقاموا المدن ونظموها ، وبنوا السدود ، وشقوا الأنهار والأقنية ، وطوروا الزراعة والصناعة والفنون بأنواعها ، وكان لهم جولات في الهندسة والكيمياء والتكنولوجيا ، وغير ذلك كثير .

والحديث عن جوانب الحضارة العربية الاسلامية سيظل قاصراً ، لا يفي بالغرض ، ذلك أن الباحثين لم يتعرفوا بعد إلاّ على جزء صغير للغاية مما أنتجه العرب فكرياً ، ومما أبدعوه وصنعوه في ماضيهم ، ولعل من أهم الميادين

التي نشط فيهـا العرب كان ميدان التاريخ ، فالعرب أبدعـوا فن الكتابة التاريخية العربية وطوروه وشعبوه ، والبحث في مطالب هذا الفن يحتاج إلى وقت مديد ، ومكان رحب ، ومقام غير هذا المقام ولعله يكفي هنا التعرف إلى واحد من شعب التاريخ ، وهو تواريخ المدن ، وذلك من خلال حياة وأعمال المطور الأول لهذا الشعب ألا وهو الخطيب البغدادي •

والخطيب البغدادي هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت ، عربي الأصل، ولد كما هو مرجح في احدى قرى العراق ، وكان مولده سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م، ونشأ في إحدى قرى منطقة بغداد حيث كان أبوه يتولى فيها الخطابة لمدة عشرين سنة ، وبحكم طبيعة عمل والده ومكانته الاجتماعية لقي الخطيب منذ صباه عناية تربوية جيدة ، وعهد به أبوه إلى عدد من كبار شيوخ عصره •

وانقطع الخطيب إلى حلقات العلماء وخاصة المحدثين منهم ، وشغف بالحديث ورجاله شغفاً زائـداً ، لكن ذلك لم يمنعـه من العنـاية بجوانب أخرى من ثقافته الاسلامية ، فاهتم بالفقه والتاريخ وبقية علـوم الاسلام والعربية ، ونال هذا كله من بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ومركز الثقافة العربية ، فعلى الرغم من اضطراب أحوال هـذه الحاضرة سياسياً ، إلاّ أن سوق العلم كانت رائجة فيها ، فيها عطاء وابداع وتطوير وتنمية •

وعلى قاعدة طلاب الحديث قرر الخطيب القيام بالرحلة في طلب الحديث ، فجال في مدن العراق، وزار كلاً من البصرة والكوفة ، ثم قصد بلدان الشرق، وكان لتوه قد اجتاز العقد الثاني من عمره، وهكذا توجه نحو نيسابور فأخذ على علماء المدينة ، وطاف بمدن خراسان فأخذ على علماء مدنهـا وقراها ، ويمكن لنا أن تتعرف إلى الشيوخ الذين لقيهم وأخذ عنهم في كتبه وخاصة في كتابه تاريخ بغداد ، وعاد من رحلته إلى بغداد فاستقر بها الفترة الممتدة ما بين ٤٢٣ ــ ٤٤٠ هـ / ١٠٣٢ ــ ١٠٤٨ م ، وقام بعد هذا بالحج وزيارة بلاد الشام ، ولقد زار الخطيب الشام مراراً ، ودار على مدنها الكبيرة آخذاً عن كبار علماء الشام •

لقد عاصر الخطيب فترة سياسية خطيرة شهدت تحولات كبيرة ، فلقد شهد نهاية عصر التحكم البويهي بالخلافة والخلفاء ، وقيام السلطنة السلجوقية ، وأثناء اقامة الخطيب في بغداد كانت شهرته العلمية قد طارت في الآفاق ، وغدا يحتل مكانة رفيعة في مجتمع بغداد العلمي،وقامت علاقات طيبة بينه وبين الوزير ابن المسلمة .

ويروى أن سبب قيام هذه العلاقات بينهما ، أو تمتينها قد ارتبط بحادثة طريفة ظهرت فيها مقدرة الخطيب العلمية مع ملكة النقد التاريخي لديه ، فقد أظهر يهودي « كتاباً زعم أنه كتاب رسول الله ﷺ باسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة جماعة من الصحابة ، منهم : علي بن أبي طالب رضي الله عنه » فحمل الكتاب إلى الوزير ابن المسلمة ، فعرضه على عدد من العلماء فاحتاروا في اتخاذ موقف منه ، « فعرضه على الحافظ أبي بكر خطيب بغداد ، فتأمله ثم ألقاه ، وقال : هذا مزوّر فقيل له : من أين لك ذلك ؟ فقال : فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، وفتوح خيبر قبل ذلك سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وهو مات يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين ، ففرج ذلك عن المسلمين غماً » .

لقد مثل ابن المسلمة في بغداد الادارة المدنية المعادية لتحكم العسكريين بشؤون الخلافة العباسية ، والمعادية للتيارات المؤيدة لمطامع الخلافة الفاطمية السياسية والعقائدية ، ووقف في وجه ابن المسلمة « البساسيري » شحنة بغداد [قائد الحامية العسكرية فيها] فتحالف ابن المسلمة مع طغرلبك مؤسس السلطنة السلجوقية واستدعاه إلى بغداد ، مما أجبر البساسيري على الفرار والاتصال بالقاهرة التي هبت سلطاتها لارسال مساعدات كبيرة له .

وحدث صراع سلجوقي داخلي أجبر طغرلبك على الانسحاب من بغداد، فدخلها البساسيري سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فقام بالغاء الخلافة العباسية ، وألقى القبض على ابن المسلمة وفتك به ، وعند نشوب هذا كله نجا الخطيب البغدادي بحشاشة نفسه ، وتوجه نحو دمشق يحمل معه بعض كتبه ومروياته.

وعاش الخطيب عندها في دمشق ، وأقام فيها مدة طويلة ، وصار يعقد حلقة تدريسه في الجامع الأموي ، وفي دمشق حدث الخطيب بمصنفاته وبعض مروياته ، وقد أفاد علماء دمشق كثيراً مثلما استفاد منهم أو أكثر ، وكان مما حدث فيه بدمشق في « فضائل الصحابة الأربعة » و « فضائل العباس » وكانت دمشق خاضعة لسلطان الفاطميين أعداء العباسيين ، لذلك هددت السلطات حياة الخطيب ، فنجا ثانية بروحه إلى مدينةصور المستقلةوذلكسنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ، ومكث في صور بعض الوقت ، ثم قصد طرابلس ، ومنها توجه إلى حلب فكان فيها سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، وزار منطقة الثغور مع بيزنطة ثم عاد إلىبغداد ليعيش فيها عاماً ، ويتوفى[سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م].

وكانت بغداد التي عاد إليها غير التي غادرها ، فقد قضي فيها على ثورة البساسيري بعد عيشها لمدة عام واحد ، وعادت إليها الخلافة العباسية مجدداً ، وتمتنت جذور السلطنة السلجوقية ، وحل الموت بالخطيب بعد مرض استمر عدة أشهر ، وكان قد أوصى أثناء مرضه بتوزيع ثروته على طلاب الحديث ووقف كتبه على المسلمين .

لقد حظي الخطيب بمكانة علمية رفيعة ، وعدّ إماماً بين الحفاظ والمحدثين ، وذلك باجماع أكثرية العلماء ، علماً بأن بعض النقاد اتهمه بالتعصب ، أو النقل والانتحال إلى غير ذلك ، مما أثاره الحسد ومرض النفوس ، فقد صنف البغدادي عدداً كبيراً من الكتب بلغ تعدادها لدى بعض الرواة ستة وثمانون مصنفاً ، منها سبعة وثلاثون كتاباً في الحديث وعلومه ، وخمسة وعشرون كتاباً في التاريخ وعلم الرجال ، وأربعة عشر كتاباً في الفقه ، وثلاثة كتب في الزهد والرقائق ، وكتابان في العقائد ، وثلاثة في الأدب واثنان: واحد منهما مجهول الموضوع والآخر يشك في نسبته إليه .

لقد قال بعض حسدة الخطيب البغدادي بأنه انتحل كتبه من كتب كان قد شرع فيها عالم من صور اسمه محمد بن علي الصوري ، وكان الصوري

من شيوخ البغدادي ، لكن البغدادي عاش في صور في أواخر حياته ، ومقرر أن الخطيب صنف كتبه قبل رحيله الأخير إلى الشام بسبب فتنة البساسيري.

إنه لمن الصعب هنا التعريف بكتب الخطيب ومحتوياتها ، وحيث أن كتابه في تاريخ بغداد هو أهمها ، نكتفي بالتعريف السريع به فقط :

تناول الامام الخطيب في كتابه تاريخ بغداد خطط بغداد وتاريخ تأسيسها وفضائلها ، ثم قدم معجماً لتراجم الرجال الذين نسبوا إلى بغداد مولداً واقامة وزيارة من خلفاء وأمراء ومحدثين وشعراء وعلماء وقادة وقضاة وسواهم ...

وحين صنف الخطيب في تاريخ بغداد لم يبدع فن تواريخ المدن ، لكنه أدخل عليه تعديلات وتحسينات كبيرة أوصلت هذا الفن إلى درجات سامية ، وتجربة الخطيب في هذا الكتاب عليها اعتمد فيما بعد ابن عساكر ، ولها قلد حين صنف كتابه في تاريخ دمشق ، كما حذا حذوها عدد آخر من المؤرخين .

ابن عساكر

(ت : ٥٧١ هـ / ١٢٢٣ م)

عقب نجاح الثورة العربية الكبرى ، حررت سورية من حكم الأتراك ودخل الأمير فيصل إلى مدينة دمشق ، حيث قام فيها ما يعرف عادة باسم فترة الحكم الفيصلي ، ورغم قصر مدة هذا الحكم ، فقد تم تأسيس بعض المنشآت العلمية والثقافية في دمشق ، وكان من جملة هذه المؤسسات « المجمع العلمي العربي » الذي ما زال موجوداً تحت اسم « مجمع اللغة العربية » وقد عمل هذا المجمع منذ تأسيسه وحتى الآن في سبيل بعث التراث العربي وإحيائه ، وكان من أوليات مشاريع هـذا المجمع نشر كتاب « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن مضت سنون طويلة ، وجيل بعد جيل من العاملين في حقل التراث يحاولون نشر كتاب « تاريخ دمشق لابن عساكر » ، لكن ما من شيء جدي تم حتى الآن .

والغريب في الأمر أن تاريخ ابن عساكر طرح أمر نشره في الزمن الذي طرحت فيه قضية فلسطين ، وحتى الآن لم يحقق العرب أي شيء مجد لا في نشر الكتاب ، ولا في قضية فلسطين ، هنا لا بـد أن يتساءل المرء : ما هو الرابط بين إحياء كتاب ، وقضية سياسية معقدة ؟

في الحقيقة هناك أكثر من رابط فقد كتب ابن عساكر كتابه في ظروف مشابهة للظروف التي نعيشها الآن حيث كانت فلسطين محتلة من قبل الفرنجة ، وهي الآن كما هو معلوم ترزح تحت الاحتلال الصهيوني ، وأثناء كتابة ابن عساكر لكتابه كانت الأمة تعمل على تحرير أراضيها ، وقد تم التحضير لذلك عسكرياً وحضارياً واقتصادياً ، وأعـدت الخطط لخوض معركة فاصلة مـع

الفرنجة ، ولم يمض وقت قصير على تصنيف ابن عساكر لكتابه العظيم ، حتى قامت معركة حطين وحررت القدس ، والآن من هو ابن عساكر ؟

هو علي بن الحسن بن هبة الله ، أبـو القاسم ، ولـد في دمشق سنة ٤٩٩ هـ / ١١٥٠ م ، وكانت أسرته أسرة اشتهرت في دمشق بالعلم والتقوى لذلك أقبل ابن عساكر منذ صباه على العلم والتعلم ، فأخذ عن أهله ، وعن عدد كبير من شيوخ دمشق ، ولم يقتصر عمله على ذلك ، بل عمل على مراسلة علماء عصره في العراق وخراسان ، وكان الجامع الأموي أهم المراكز التي تردد إليها ابن عساكر للسماع من الشيوخ والتزام حلقات تدريسهم ، وبالإضافة إلى الجامع الأموي أقبل على محاضرات عدد من مدارس دمشق وزوايا التعليم فيها ، كما كان يزور الشيوخ في بيوتهم ويأخذ عنهم .

وعندما بلغ ابن عساكر العشرين من عمره ، فقد والده ، فتحللت ارتباطاته الأسروية بعض الشيء ، فقرر الرحلة في طلب العلم ، وخاصة الحديث النبوي الشريف الذي سيطر على اتجاهاته منذ البداية ، فاتجه نحو العراق ، لأنها كانت ما تزال مركز الثقافة الأول في العالم الاسلامي ، وفيها كانت المدرسة النظامية نشطة للغاية ، بحيث اعتبرت أعظم جامعات العالم الاسلامي ، وأرفعهن مكانة ، وأعمقهن تأثيراً ، ذلك أنها ضمت نخبة الشيوخ وكبار العلماء ، كما أن بغداد حوت آنئذ في خزائنها جل النتاج الفكري المدون بالعربية .

وأقام ابن عساكر في بغداد مدة سنة حيث عاد إلى دمشق فأقام قليلاً ، ومن هناك توجه إلى الحجاز ، وفي الحجاز قضى فريضته في الحج والزيارة والتقى بعدد من العلماء من أهل الحجاز ، ومن جاء لأداء فريضة الحج ، فأخذ عنهم ، ومن جديد قرر التوجه إلى العراق ، وأقام هذه المرة خمس سنوات هناك ، درس خلالها في النظامية ، وزار مدن العراق فلقي بها العلماء وأخذ عنهـم .

وعاد مجدداً إلى دمشق ، وقد ملك طاقات علمية كبيرة ، فلم يعد تلميذاً فقط بل وصل إلى حالة يمكنه فيها من العطاء وذلك بالاضافة إلى الأخذ ، وشعر

ابن عساكر بحاجته إلى مزيد من التحصيل ، لذلك قرر مجدداً التوجه شرقاً ، فذهب إلى العراق سنة ٥٢٩ هـ ، حيث أقام قليلاً ، ثم اتجه إلى خراسان ، فزار كبريات المدن هناك مثل : همذان ، والري ، وأصبهان ، ونيسابور ، وبيهق ، وتبريز ، وسرخس ، ولقي العلماء وأخذ عنهم .

وفي سنة ٥٣٣ هـ أنهى رحلته وعاد إلى بغداد ، ومضى إلى دمشق حيث قرّ به القرار ، وبدأ يحدث في دمشق ويعلم ، وذلك بعد شيء من التردد، ويمكن أن نعتبر الفترة الواقعة ما بين سنة ٥٣٣ وسنة وفاته في ٥٧١هـ هي فترة العطاء الخصب في حياة ابن عساكر ، حيث صنف عدداً كبيراً من الكتب ، ووقف وقته كله على العلم ، فأعرض عن مغريات الدنيا ، وصرف وجهه عن المناصب والوظائف ، واحتقر المال واعتبره من توافه الحياة التي ترفع عنها ، ولهذا أخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحظي بمكانة رفيعة للغاية بين أهل دمشق، واحترمه الناس جميعاً من عوام وأصحاب السلطان .

في هذه الفترة كانت الأمة تعيش مرحلة الاستفاقة وحرب التحرير والعمل في سبيل الوحدة ، خاصة وحدة شمال الشام مع جنوبه ، فمنذ قيام الحروب الصليبية كان دور دمشق في هذه الحروب يكاد يكون سلبياً، وكانت مدينة حلب أنشط مراكز المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ، وفي حلب استقر آنئذ نور الدين محمود ، الذي تجمعت في شخصه الصفات المؤهلة للزعامة .

وحدث في سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م أن دخل نور الدين محمود مدينة دمشق ، وذلك بناء على رغبة من أهلها ، وهكذا توحد شمال الشام وجنوبه ، وصارت دمشق الآن مقر الجهاد ، وقاعدة انطلاق أعمال التحرير والوحدة الكبرى ، ووضع نور الدين الخطط للتحرير ، وخوض معركة فاصلة مع الصليبيين ، مدركاً أن شروط التحرير هي الوحدة والثقافة ، والأمن الداخلي والاستقرار ، مع الاقتصاد القوي، ومن هذه المنطلقات نمت العلاقات بين نور الدين وابن عساكر ، وأعجب ابن عساكر بنور الدين كما أن

نور الدين رفع من مكانة ابن عساكر ، وكان من نتائج العلاقات بينهما بناء دار الحديث النورية، وهي أول جامعة من نوعها في التاريخ الإسلامي، وقد أسندت أعمال التدريس بهذه الجامعة إلى ابن عساكر ، هذا من جهة ومن جهة أخرى شجع نور الدين ابن عساكر على انجاز كتابه في تاريخ دمشق ، ومعلوم أن نـور الدين توفي سنة ٥٦٩ هـ ، وجاءت وفاة ابن عساكر بعد وفـاة نور الدين بعامين ، أيام دولة صلاح الدين الأيوبي ، وقد سار صلاح الدين الأيوبي في جنازته حاسر الرأس متأسفاً على فقدانه .

لقد كان ابن عساكر خصب الانتاج ، متخصصاً في أعماله ، بحيث غلب عليه الحديث وما تعلق بعلومه ، فقد صنف « كتاب المعجم لمن سمع منه أو أجاز له » وكتاب آخر ذكر فيه من سمع منه من النسوان، ومعجماً بأسماء القرى والأمصار التي سمع بها ، وجاء في سفر واحد ومعاجم بالمشيخات ، كما خاض معركـة استفاقة السنة في مرحلتها الثانية لذلك دافـع عن الأشعري بكتابه « تبيين كذب المفتري فيما نسب الى الامام أبي الحسن الأشعري » وحيث أن العصر الذي عاشه كان عصر الجهاد ، فقد صنف في الحض على الجهاد وفي فضائل بيت المقدس ، وفي باب الفضائل صنف أيضاً في فضائل العشرة الصحابة ، وفي فضل قريش ، وفضل مكة ، وفي فضائل الأوزاعي وأخباره .

ولم يتأت خلود ابن عساكر وشهرته من مؤلفاته العظيمة هذه، بل بسبب تصنيفه تاريخ مدينة دمشق ، فهـو أوسع كتاب صنف لمدينـة ولا عجب في ذلك ، فدمشق هي أعرق مدينة في التاريخ الانساني ، وجدت الحياة فيها منذ الأزل ، ولم تنقطع أو تتوقف أبداً ، وهذا الكتاب يشكل بحـد ذاتـه ثروة رائعة في التراث العربي ، وحين نتحدث عنه ، لا نعرف متى بدأ ابن عساكر بالتحديد كتابته ، فلعله شرع في ذلك عندما كان في خراسان أو قبيل ذلك ، ويبدو أن العمل في الكتاب قد مر بثلاث مراحل :

آ ـ خرج الكتاب في المرحلة الأولى في / ٧٧٥ / جزءاً أي ما يعادل / ٥٧ / مجلدة .

ب ـ وفي المرحلة الثانية حوالي سنة /٥٦٢/ أصبح الكتاب في /٧٠/ مجلدة ٠

جـ ـ وفي المرحلة الثالثة ، وهي الأخيرة ، وصل الكتاب إلى ثمانين مجلده ، ويبدو أن ابن عساكر قد أدرك وجود بعض الثغرات في كتابه أراد تداركها ، لكن المنية حالت دون تنفيذ رغبته هذه ، لهذا نجده وقد أدرك أنه لن يتاح له اعادة النظر في كتابه ، قال : « هذا مبلغ علمي وغاية جهدي » إن الغالب على منهج ابن عساكر في كتابه هو صفة الجمع ، وقد اتبع طرق المحدثين بذكر الأسانيد كلها مع الروايات المتعددة ، كما أنه اهتم برجال الحديث وحمله العلم أكثر من سواهم ، وكتاب ابن عساكر هو تاريخ ألفبائي، وليس تاريخ حوليات أو احداث متوالية ، فهو قد وقف مجلدة كتابه الأولى للحديث عن دمشق ، بشكل عام ، فتحدث عن فضائل الشام ، كما تحدث عن الفتح الاسلامي لها ، مورداً جل الروايات التاريخية حول هذا الموضوع ٠

وتحدث ابن عساكر في قسم من المجلدة الثانية عن خطط دمشق وذكر مساجدها وأبوابها وكنائسها ، ودورها وأنهارها وأقنيتها ، وبعد هذا تحول الكتاب إلى كتاب للتراجم مرتب حسب حروف المعجم ، وجاء هذا متوافقاً مع عنوان الكتاب وهو « تاريخ مدينة دمشق ، وذكر فضلها ، وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها » ٠

لقد ترجم ابن عساكر لكل من عرف من الأعلام الذين ولدوا في دمشق مع جنوب الشام أو نشأوا هناك أو أقاموا أو اجتازوا المنطقة ، وذلك منذ ما قبل الاسلام وحتى عصره ، وأعلام ابن عساكر هم : الأنبياء والخلفاء والأمراء والولاة والحكام ، والفقهاء والقضاة ، والعلماء والرواة ، والشعراء والنحاة ٠٠٠ ، وقد توسع ابن عساكر في بعض التراجم أكثر من غيرها ، وانصب اهتمامه على رجال الحديث ، فأولاهم القسم الأعظم من العناية ٠

إن الجمع هو الصفة الغالبة على كتاب ابن عساكر ، وابن عساكر حين صنف كتابه ، لم يبدع طريقته ، فهو ـ كما هو مرجح ـ قد قلد الخطيب

البغدادي صاحب تاريخ بغداد ، إنما عمله جاء على درجة كبيرة من الكمال ، وبذلك فاق الخطيب البغدادي ، وكان كتابه أفضل وأوسع .

لقد نال كتاب ابن عساكر شهرة كبيرة ، لهذا ذيل عليه عدد من الكتاب ، كما اختصره عدد آخر أو انتخبوا منه ، إنما المنتخبات والمختصرات لا تغني عن الكتاب نفسه .

إن كتاب ابن عساكر ليس تاريخاً لمدينة دمشق وحدها أو بلاد الشام فقط ، إنه تاريخ لرجالات العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ، فيه تتجلى وحدة هذه الأمة وتفاعل أحداثها ، فالذين ذكرهم ابن عساكر من غير أهل الشام هم أكثر بكثير من الشاميين ، وعلى هذا تكمن أهمية كتاب ابن عساكر، وخلوده ليس لكونه أرخ لأعرق مدينة في التاريخ فقط ، ولكنه لأنه أرخ لرجالات خير أمة أخرجت للناس .

ابن العديم

(ت : ٦٦٠هـ / ١٢٦٢)

لقد كان للفتح الاسلامي لبلاد الشام عظيم الآثار على هذه المناطق ، من ذلك تبديل البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية لهذه البلاد ، فعلى صعيد المدن نجد قبل الفتح أن القدس ، أهم مدن جنوبي الشام تتلوها دمشق وأن أنطاكية أهم مدن شمالي بلاد الشام تتلوها قنسرين ، لكن بعد الفتح تقهقرت القدس وتقدمتها دمشق وتخلفت بصرى كثيراً ، وتأخرت أنطاكية ووصلت قنسرين إلى حالة من النـزع ، وتقدمت حلب وتبعتها معرة النعمان .

وكان هذا هو الحال في العصر الأموي ، لكن بعد قيام الخلافة العباسية توطد هذا الأمر وتعمق كثيراً ، فالحدود مع بيزنطة كانت قد توضعت في هذه الفترة ، وصارت حلب مركز شمالي بلاد الشام سياسياً واقتصادياً وعقائدياً وثقافياً ، وعندما دب الضعف في قلب الخلافة العباسية ، كانت الأجزاء الشمالية من بلاد الشام بزعامة حلب من أقدم البلدان التي أعلنت انفصالها ، وقامت فيها دولة مستقلة تبعت في بداياتها اسمياً دولة مصر الاسلامية المستقلة ، لكنها ما لبثت أن انفصلت عنها عندما جاء إليها سيف الدولة الحمداني ، وأقام فيها دولة بني حمدان الشامية .

وفي حلب أقام سيف الدولة بلاطاً حاكى فيه بلاط بغداد ، وحوى هذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن مع الشعراء والأدباء ، وفي خلال القرون التي تلت القرن الثالث للهجرة وحتى الفتح المغولي وتدميره لها ، عرفت بلاد الشام الشمالية نشاطاً ثقافياً كبيراً جداً ، وعاش فيها عدد لا يحصى من رجال العلم والثقافة .

إن على رأس الموضوعات الثقافية التي نمت وقدمت عطاءات كبيرة ، موضوع التاريخ ، التاريخ بجميع فروعه وتصانيفه ، ولقد وجد في كل من المعرة ومدينة حلب عدد كبير من المؤرخين المبدعين ، وصلنا بعض مصنفاتهم والبعض الآخر ما زال محجوباً عنا ، نسمع عنه وتتعرف إلى محتوياته من خلال النقول المتوفرة .

وإننا حين نستعرض جميع المؤرخين الذين أنجبتهم الأجزاء الشمالية من الشام ، لا بل الشام كله نجد ابن العديم ، الصاحب كمال الدين يتصدرهم جميعاً ، ويتفوق عليهم بشكل مطلق .

وابن العديم هو عمر بن أحمد ، كان سليل أسرة عربية مرموقة جداً في حلب، عرفت باسم آل أبي جرادة ، وأبو جرادة كان من قبيلة عقيل العربية، من أصحاب الامام علي بن أبي طالب ، وكان من سكان البصرة ، وقد قدم أحد أفراد أسرة أبي جرادة ، وهو موسى بن عيسى من البصرة في مطلع القرن الثالث إلى حلب واستقر بها ، وفيها أعقب أسرة كبيرة ، وصفها ياقوت الحموي بقوله : « وبيت أبي جرادة بيت مشهور من أهل حلب : أدباء ، شعراء ، فقهاء ، عُبّاد ، زهاد ، قضاة يتوارثون الفضل كابراً عن كابر ، وتالياً عن غابر » .

لا ندري أسباب ولا تاريخ تغيير اسم الأسرة إلى « العديم » ولعل ذلك كان في القرن السادس ، القرن الذي ولد فيه مؤرخنا عمر بن أحمد ، فقد ولد في مدينة حلب في ذي الحجة لسنة ٥٨٨ هـ [كانون أول ١١٩٢ م] ، وتحدث ابن العديم في سيرته لنفسه وأسرته ـ كما رواها ياقوت ـ بأنه عندما كان في السابعة من عمره أرسل إلى المدرسة ، وأنه عندما بلغ التاسعة كان قادراً على قراءة القرآن الكريم .

وعلى العموم كانت حلب القرن السادس غاصة بالعلماء والمدارس والمكتبات ، ولذلك تلقى ابن العديم ثقافة جيدة ، ونال حظاً وافياً من علوم عصره ، كما أن والده حرص على أن ينال ابنه تدريباً جيداً في الخط ، وهكذا

غدا خط ابن العديم واحداً من أجمل الخطوط وأكثرها دقة واتقاناً وصواباً ، ومن الاطلاع على آلاف الأوراق التي وصلتنا بخطه يمكن أن نحكم بأن ابن العديم كان واحداً من أعظم النساخ ، وأكثرهم ضبطاً في تاريخ الخط العربي .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، زار ابن العديم مدينة القدس كما زار دمشق ، ثم زارها ثانية عندما أصبح في التاسعة عشرة ، وعند بلوغه التاسعة والعشرين عين مدرساً في احدى أكبر وأشهر مدارس حلب ، ومنذ ذلك الحين ترقت به المناصب حتى غدا الشخصية الأولى بين أهالي حلب ، ونال درجة الوزارة في مملكة حلب ، وكشخصية مرموقة وبحكم منصبه زار ابن العديم في أكثر من مناسبة العراق ومصر وبلدان آسية الصغرى وغالبية مدن الشام والجزيرة ، وذلك ، على الغالب ، مبعوثاً لملكة حلب .

كان تحت تصرف ابن العديم تراث أسرته العلمي ، ومكتبات حلب الغنية ، ووثائق ومدونات المملكة ، يضاف إلى ذلك أن رحلاته الكثيرة ومكانته الرفيعة قد مكناه من مقابلة علماء عصره في مصر وبلاد الشام والعراق والجزيرة ، وهؤلاء الذين زاروا حلب أو مروا بها ، كما مكناه من الاطلاع على مكتبات هذه الأقاليم وجمع المعلومات منها .

ولقد أفرغ ابن العديم المعلومات التي جمعها أو شاهد أحداثها مع تجاربه كلها في عدد من الكتب المتنوعة ، إنما رغم تنوعها غلب عليها طابع التاريخ، ولما كان من المتعذر الحديث عن جميع كتب ابن العديم فانني سأتناول ثلاثة منها ، أشير إلى اثنين اشارة عابرة وأقف عند الثالث بعض الوقت ، وهذه الكتب : الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري . زبدة الحلب من تاريخ حلب . بغية الطلب في تاريخ حلب .

وقف ابن العديم كتابه الأول على حياة فيلسوف المعرة وشاعر العربية وأديبها المعري ، فالمعري اتهم بعدة تهم تعلقت بعقيدة ، وقد تجرد ابن العديم للدفاع عنه بشكل وثائقي ، فجاءنا بمواد ثمينة جداً عن المعري ، ولقد عثر

على قطعة من هـذا الكتاب فتم نشرها أولاً في حلب وثانيـة في القاهرة ، ويوجد من الكتاب نسخة كاملة جاءتنا بشكل غير مباشر ، فقد كتب حفيـد لابن العديم كان يقيم بالقاهرة كتاباً دعاه باسم « سوق الفاضل في سيرة القاضي الفاضل» والقاضي الفاضل كما هو معروف كان المشرف على ادارة صلاح الدين الأيوبي، وشهر برسائله الوثائقية، وأثناء حديث مصنف «سوق الفاضل» عن احدى رسائل القاضي الفاضل بين أن القاضي استشهد ببيت شعر للمعري، فأراد أن يعرف بالمعري ، فقال : قال جدي : وأورد النص الكامل لكتاب الانصاف والتحري ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة خطية فريدة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة .

أما كتاب «زبدة الحلب» فقد أرخ فيه ابن العديم لمدينته، وأثبت فيه من المعلومات ما جعله عماداً لكل باحث في تاريخ الشام خاصة ، وتاريخ العرب عامة ، وقد نشر هذا الكتاب محققاً في أجزاء ثلاثة في دمشق .

وأهم من جميع ما كتبه ابن العديم وأعظم كتابه « بغية الطلب في تاريخ حلب » ، فقد أراد ابن العديم أن يحاكي ابن عساكر مؤرخ الشام ، فكتب كتابه بغية الطلب كما قيل في أربعين مجلدة كبار ، كل واحدة منها فيها ما يزيد على ثلاثمائة ورقة ، ومن سوء الحظ أن هذا الكتاب لم يصلنا كاملاً ، بل وصلنا منه عشر مجلدات ، تحوي بلا شك أكثر من ربع الكتاب ، وهـذه المجلدات كلها بخط ابن العديم الرائع ، وهي جميعاً مضطربة الأوراق غير منتظمة ــ مدشوته ــ وموجودة جميعاً في مكتبات استانبول ، وفيها المجلدة الأولى والأخيرة من الكتاب مما يمكننا من التعرف إلى طريقة ابن العديم ومذهبه بالتصنيف ، هذا ويوجد من الكتاب ثلاث مجلدات أخرى ، موزعة بين لندن وباريس والموصل بغير خط ابن العديم ، ليس لها كبير قيمة ، لأن ما يقابلها بخط المؤلف موجود .

كتب ابن العديم أولاً حول الجزء الشمالي من بلاد الشام من الناحية الجغرافية ، ومن ناحية الفضائل ، وخصص فصلاً وقفه للحديث عن القبائل

العربية التي توطنت شمالي بلاد الشام ، وخص بالذكر قبيلة كلاب ، وبعد هذا بدأ بسرد تاريخ هذه المنطقة على طريقة الحوليات ، ختمها بالحديث عن فتوح الشام ، وعند فراغه من هذا قام بوضع معجم ألف بائي ترجم فيه لكل من نشأ بجزء من الشام الأعلى ، أو اجتاز به ، أو أقام ، وذلك من الشخصيات السياسية والعلمية والثقافية والدينية والحربية ، سواء أكان ذلك قبل الاسلام أو بعده •

إن الاطلاع على هذ الكتاب وعلى بقية كتب ابن العديم يعرفنا إلى شخصية مؤرخنا عن قرب ، فهو قد كان صاحب عقلية متفتحة ، لا تعرف مكاناً للتعصب الأعمى ، وهذا مما ساعد على رفعه إلى مقام المؤرخ الأول لبلاد الشام قاطبة •

لقد صرح عدد من المؤرخين المتأخرين بأن ابن العديم لم ينه تأليف كتابه بغية الطلب ، وإنما كتب مسودته فقط ، وفي هذا بعض الوهم ، وذلك ناتج عن قصور بالفهم لطريقة ابن العديم ، وبتصوري طريقة أي انسان متقدم جمع كتاباً ضخماً مثل كتاب بغية الطلب ، إن وصول المجلد الأول والأخير من الكتاب يبرهن على أن ابن العديم قد أنهاه قبل موته ، لا بل إن بعض السماعات التي دونت في حواشي الكتاب ـ وهي سماعات أولاد ابن العديم على أبيهم ـ تشير إلى أن الكتاب ربما أنجز تأليفه قبل وفاة ابن العديم على الأقل بعشر سنوات •

ولعل من الأسباب التي قادت بعض المؤرخين المتأخرين إلى قولهم هي : أن ما من أحد منهم حالفه الحظ فكان قادراً على رؤية الكتاب جميعه وبالتالي قراءته ، ثم وجود بعض أوراق بيضاء لم يكتب عليها في ثنايا بعض المجلدات ، ويبدو أن كتاب ابن العديم قد عانى من بعض ما عاناه صاحبه وبلاد الشام من الغزو المغولي المدمر ، فتبعثرت مجلداته ، ولم يتهيأ للمصنف اعادة تأليفه كما تهيأ لابن عساكر قبله ، كما لم تتوفر له الفرص للنسخ والنشر الواسع بين الناس ، ثم إن الأوراق البيض قد تكون قد تركت عن قصد لاضافة معلومات

جديدة ، وهنا من المفيد أن نذكر أن ولد ابن العديم قد قام بتدوين بعض ما لم يتمكن والده من اضافته في بعض هذه الفراغات .

ومهما يكن الحال فإن كتاب بغية الطلب هو عبارة عن منجم غني جداً بالمعلومات التاريخية وغيرها مما يتعلق مباشرة بالشام الأعلى كجزء ، وبالشام جميعه ككل ، ثم بالعالم الاسلامي كوحدة دينية وثقافية وحضارية ، وفي هذا الكتاب معلومات حول حياة الثغور الاسلامية البيزنطية ليس لها نظير بالتفصيل والجدة ، حيث يمكن أن يقام عليها وحدها دراسة رائعة ، وفي الحقيقة إنه لمن المستحيل أن استطيع أن أقدم هنا وصفاً كاملاً أو دراسة وافية لهذا الكتاب العملاق ، فذلك يحتاج إلى أطروحة كاملة تأتي في مجلد كبير .

لم ينشر من المجلدات الباقية من بغية الطلب سوى نتف يسيرة ، ولأهمية الكتاب وحاجة المكتبة العربية والباحثين إليه أقوم بالعمل على اخراجه محققاً ، وبالفعل تمت طباعة بعضه وأملي كبير بأن أنهي العمل فيه في عامين مقبلين إن شاء الله .

لقد سلفت الاشارة إلى أن كتاب بغية الطلب عانى مثلما عانى مؤلفه من الغزو المغولي ، فقد تعرضت حلب لجيوش هولاكو مما دفع ابن العديم إلى مغادرتها مع أسرته قبل سقوطها ، وعندما توجهت جيوش المغول إلى دمشق ، ذهب ابن العديم إلى القاهرة وفيها استقر ، حيث لقي حفاوة بالغة ، وعومل كما كان يعامل في الشام من قبل ، وظل ابن العديم في القاهرة حتى ما بعد معركة عين جالوت ، فعندما عرف بأن المغول قد جلوا عن الشام عاد إلى حلب ، فرآها خراباً لا يمكن سكناها فبكاها في قصيدة ميمية مطلعها :

هو الدهر ما تبنيه كفاك يهدم   وإن رمت انصافاً لديه فتظلم

وعاد أدراجه حزيناً كسير القلب إلى القاهرة ، فلم يمض عام على عودته حتى توفي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م ، ودفن في القاهرة .

أبو الفداء

(ت : ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

بعدما فتح المسلمون بلاد الشام قاموا بتقسيمها إلى أربع مناطق عسكرية ، دعي كل منها باسم جُند ، وهي : جند حمص ، جند دمشق ، جند فلسطين ، جند الأردن ، وشمل جند حمص وسط بلاد الشام وشماليها ، وفي أيام يزيد بن معاوية تم تقسيم جند حمص إلى قسمين ، بحيث أفرد شمال الشام في جند خاص دعي باسم جند قنسرين ، لكن هذا التقسيم لم يدم بعد يزيد إلا قليلاً •

فقد كانت بلاد الشام ، قبل الفتح العربي ، تعج بالقبائل العربية ، التي انحدر غالبيتها من أصل يماني ، وكانت قبائل طيء وتنوخ أبرز قبائل شمال الشام ، ومنطقة الجزيرة ، ويستخلص من المصادر المتنوعة أنه عندما قامت الفتوحات كانت هذه القبائل قد فقدت طباعها البدوية ، ومالت نحو حياة الاستقرار في الأرياف أو في مناطق خاصة ألحقت بمدن الشام ، وعرف كل منها باسم « حاضر » •

وإثر الفتوحات العربية الكبرى ، قامت قبائل كثيرة بالهجرة من شبه الجزيرة نحو البلاد المفتوحة ، وسلكت القبائل التي هاجرت من شمال شبه جزيرة العرب طريق وادي الفرات ، وصعد بعضها شمالاً نحو اقليم الجزيرة ، ثم تحول غرباً نحو شمال بلاد الشام ، واستطاعت القبائل المهاجرة أن تستقر في مناطق هجرتها الجديدة ، وأن تنال لنفسها السيطرة والسيادة ، كما كان لهذه الهجرة أكبر الآثار على التركيب البشري ، والمستقبل السياسي والاجتماعي والحضاري لشمال الشام ، وظهرت أولى هذه النتائج في تميز هذا الشمال بجعله جنداً خاصاً ، ومع الأيام ازداد تميز هذا الشمال ، وبنفس

الوقت برز بين القبائل التي هاجرت إليه قبيلة كلاب ، وبعد وفاة يزيد بن معاوية ، وأثناء الصراع على الخلافة ، هزمت كلاب في معركة مرج راهط ، وانتصرت قبيلة كلب التي تزعمت القبائل اليمانية والمستقرة في جنوب الشام .

ولعل أهم نتائج معركة مرج راهط أنها أزالت عملياً تقسيمات الأجناد وقسمت الشام إلى دارين يفصل بينهما خط وهمي يمـر قرب الرستن على العاصي ، ويمضي شرقاً داخل بادية الشام حتى الفرات ، وصارت الـدار الشمالية لكلاب ، والجنوبية لكلب .

واستمر الصراع بين كلب وكلاب ، ونجم عنه توضح الانقسام السياسي الذي حل ببلاد الشام ، وكان لذلك نتائج خطيرة على مستقبل عدد من المدن الشامية البارزة ، فقـد تأثرت حمص بشكل كبير ، وبدأت تفقـد أهميتها تدرجياً ، وكذلك تأثرت قنسرين ، فأخذت تتقهقر ، وازدادت أهمية حلب ، وتقدمت لتحتل مكان الصدارة بين مدن الشام ، وذلك على حساب كل من قنسرين وأنطاكية ، وصارت عاصمة الشمال ، ومركز الصراع مع الجنوب ، وفي المقابل عظمت أهمية دمشق ، على حساب القدس والرملة ، ومع الأيام صار الصراع بين شمال الشام وجنوبه صراعاً بين حلب ودمشق ، وتوضحت هذه الصورة بعد سقوط الدولة الأموية بفترة من الزمن .

ذلك أن الدولـة العباسية ، التـي اتخذت العراق مركزاً لهـا ، غرقت بمشاكل الأراضي الشرقية للخلافة ، وأولت الأراضي الغربيـة القليـل من العناية ، لذلك تطور في منطقة الحدود مع بيزنطة نظام دفاعي ،وكان هذا التطور واحداً من العوامل التي حرضت على تقـدم حلب ، وأهلتها لتكون مركزاً سياسياً شبه مستقل .

ومع نهاية القرن التاسع للميلاد بعدما أخذت أصول الدولة العباسية تتفكك ، وظهر إلى الوجود دولة مصر الإسلامية المستقلة ، مارست هـذه الدولة سياسة خارجية محددة تجاه بلاد الشام ، نبعت من طبيعة تركيب مصر الجغرافي ، واستندت إلى تجارب تاريخ العلاقات بين مصر القديمة وبـلاد

الشام ، فمصر التي هي عبارة عن سهل ليس له حدود ذات موانـع طبيعية تحميه ، غزيت دائماً عن طريق بـلاد الشام ،لذلك قامت سياسة هـذا البلد القديمة على احتلال الشام ، للتصدي لكل هجوم طارىء ، خارج أراضي مصر ، وغالباً ما ترافق هذا الاحتلال مع مطامح الحكام ورغباتهم ، كما أنه دفع نحو التوسع الامبراطوري •

وحدث أنه بعدما قامت دولة مصر الإسلامية المستقلة ، أن هذه الدولة نجحت في احتلال الشام ، إنما أخفقت في الاحتفاظ بالقسم الشمالي منه ، لأسباب منهـا :

البعد في المسافات ، ووجود قبيلة كلاب التي حرصت على المحافظة على استقلالها ، وسياسة الامبراطورية البيزنطية التي ابتغت أن لا تكون حدودها المباشرة مع دولة إسلامية قوية ، بل أرادت أن يكون بينهما دولة صغيرة حاجزة ، وهكذا حافظت حلب على استقلالها ، وجرت محاولات لإقامة دولة مستقلة بها ، وأخفق الكلابيون في هـذا المقصد في البداية بسبب تركيبهم القبلي ، ونجح سيف الدولة الحمداني في إقامة الدولة الحمدانية في حلب ، وبجهد بالغ احتفظت مصر بجنوب الشام ، واستمر على هذا الأساس الصراع بين حلب ودمشق ، وبلغ درجات عظمى من العنف في القرنين العاشر والحادي عشر م •

وأثناء هذا الصراع ازداد اضمحلال مدينة حمص ، وساعد علـى ذلك تدميرها من قبل البيزنطيين في القرن العاشر ، وصارت منطقـة حماة أرض الصراع بين حلب ودمشق ، وساعد هذا الصراع على دفع حماة وتقدمها ، وحيث أن الصراع بين حلب ودمشق لم يتوصل إلـى نتائج حاسمة دائمـة لصالح أحد الطرفين ، فقد استفادت حماة من ذلك ، وبدأت تتحول منذ أواخر القرن الحادي عشر من حقل للصراع إلـى منطقة عازلة بـين القوتين المتصارعتين ، وتطورت حمـاة من بلدة صغيرة كانت تابعة لجنـد حمص ، وأخذت تتحول إلى مدينة من أبرز مدن الشام •

كما ساعد على تقدم حماة ، وزاد من أهميتها ، موقعها الهام على نهر العاصي ، وإحاطتها بعدد من المراكز الحصينة مثل شيزر وكفر طاب ، ووفرة مواردها الاقتصادية التي تمكنها من تحمل نفقات دويلة مستقلة ذات بلاط وجند خاص بها •

وفي القرن الثاني عشر ، بعدما دخـل الصليبيون الشام ، أخفقوا في احتلال شيزر وحماة، لكنهم تمركزوا غير بعيد عنهما، فصارا من أهم مراكز المقاومة للاحتلال الصليبي ، وفي الوقت الذي رفع الخطر الصليبي من شأن حماة ، وجد خطر آخر زاد من شأنها أيضاً ، وجاء ذلك من تمركـز قوى الدعوة الاسماعيلية ـ الحشيشية ـ في عـدد من القلاع والحصون الواقعة إلى الغرب من حماة ، ووجه الاسماعيليون نشاطهم ضـد السلطات الاسلامية السنية ، لذلك صارت حماة أبرز مراكز رصد النشاط المعادي للسنة ، وقاعدة للتصدي له •

ومعروف أن بـلاد الشام اجتاحها في القرن الحادي عشر جموع مـن التركمان ، وأن هؤلاء التركمان دفعوا أمامهم قبائل شمال الشام والجزيرة نحو الداخل والبادية ، وهكذا غدت حماة أهم سوق لقبائل البادية ، كما أن الأمر استدعى وجود سلطات قوية في حماة لتحد من نشاط القبائل ولترصد تحركاتها ، وهكذا توفر مع الأيام لهذه المدينة جهاز اداري خاص ، وتهيأت جميع الظروف لقيام دولة مستقلة فيها •

وفي أيام صلاح الدين الأيوبي ، أواخر القرن الثاني عشر ، حدث ذلك فقام في حماة دولة أيوبية مستقلة ، وبعد وفاة صلاح الدين ، وانفراط عقـد امبراطوريته ، تورط ملوك حماة في منازعات أفراد البيت الأيوبي أحياناً ، ووقفـوا موقف الحياد أحيـاناً أخرى وشغلوا دور الوسيط المهـادن بين المتنازعين ، وقد منح هذا الدور ملوك حماة احتراماً خاصاً ويبدو أن هؤلاء الملوك نجحوا أيضاً في إقامة علاقات تهادن مع الحشيشية من جهة وأمراء قبائل البدو من جهة أخرى ، لهذا نعمت دولتهم بالاستقرار ، ولجأ إليها عدد كبير من العلماء فشهدت نشاطاً ثقافياً كبيراً •

وبعـد سقوط الممالك الأيوبية في القاهرة وسواها ، وقيـام السلطنة المملوكية استمرت مملكة حماة حية ، ولعل مرد ذلك إلى أن قبائل البادية فضلت التعامل مع ملك مستقل في حماة على التعامل مباشرة مع السلطنة ، وأن السلطنة بدورها رغبت للسبب نفسه في استمرار وجود مملكة في حماة تستطيع بطاقاتها الذاتية التعامل مع البداة ، وهذا منهج معروف منذ القديم في الشام ، ويمكن أن نضيف إلى هذا غزوات المغول الإيلخانيين على الشام ، ونشاط المماليك ضد أرمينية ، فقد كانت حماة قاعدة هامة لرصد حركـات المغول والتصدي لهم ، كما أنها كانت محطة هامة للقوات التي كانت تتوجه لغـزو أرمينية .

لقد تربع على عرش حماة عدد من الملوك الأيوبيين ، جلهم وصف بالعلم والثقافة وأعمال التصنيف ، وحين يذكر هؤلاء يذكر في مقدمتهم أبو الفداء اسماعيل بن علي ، وقد ولد أبو الفداء عام ١٢٧٣ م وكان ثاني ثلاثة ذكور ولدوا لأبيه الملك الأفضل ، لكن بعد ما شب صار أولهم مكانة وشهرة .

ويبدو أن أبا الفداء تلقى منذ نعومة أظفاره ما كان يتلقاه أبناء طبقته في عصره من ثقافة عربية اسلامية ، وتدريبات عسكرية وسياسية وعندما غدا شاباً التحق بجيش حماة ، وشارك في عددٍ من المهام والحملات داخل الشام وخارجـه ، كما زار بلاط السلطنة المملوكية في القاهرة مراراً ، مما جعـله يحظى بمكانة عاليه فيه ، وفي مطلع القرن الرابع عشر م مر الحكم في حماة بعدة ازمات انتهت عام ١٣٠١ م بصدور مرسوم سلطاني بتعيين أبي الفداء ملكاً على حماة .

ليس في حياة أبي الفداء السياسية والعسكرية قبل الملك وبعده حوادث متميزة سببت له شهرته الكبيرة ، وكتبت له ما حظي به من خلود ، فلقد نال ذلك عن طريق الثقافة ، وبسبب اسهاماته في مجالاتها وكانت ثقافة أبي الفداء ثقافة موسوعية شاملة راقية ، شملت فنونا عدة مثل الطب ، وعلم الهيئة ، والفقه ، والأدب والجغرافية والتاريخ ، وقد كتب أبو الفداء وصنف في معظم

الفنون نثراً وشعراً ، وارتفاع المستوى الثقافي لأبي الفداء دليل على رقي الحضارة العربية في عصره ــ الذي يعتبر جهلاً عصر انحطاط ــ .

ولعل أهم ما أنتجه أبو الفداء ، كان في ميدان الجغرافية والتاريخ واسم كتابه في الجغرافية تقويم البلدان ، وقد لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة منذ عصر المؤلف وما زال يلقى نفس الأهمية ، فقد نقل عنه عدد كبير من الكتاب المسلمين من عرب وفرس وأتراك ، كما اعتبر ثالث كتاب عربي اشتهر في الغرب بعد القرآن الكريم وألف ليلة وليلة ، وظهرت له عدة ترجمات إلى الفرنسية منذ القرن الثامن عشر ، وعندما يطالع الباحث هذا الكتاب يرى بوضوح بروز الاتجاه الجغرافي فيه ،وطغيان المعلومات الجغرافية ، وعرضها بشكل متوازن مركز ليس فيه بعثرة ، كما الحال عند ياقوت مثلاً ، وبذلك يعتبر أبو الفداء واحداً من الرواد الذين أسهموا في وضع علم الجغرافيا الحديثة ، هذا ويهتم أبو الفداء بتحديد المواضع ، كما نلاحظ عنده تمييزاً بين الجغرافية العامة والجغرافية الاقليمية ، ومعلوم أن أبا الفداء لم يكن رحالة ، وإنما جمع معلوماته مما تجمع لديه من كتب الجغرافية والرحلات ومن بعض الروايات الشفوية ، وبذلك كان هو بحاثة في الجغرافية نرى لديه حساً نقدياً يميز بين الخطأ والصواب بمحاكمة سليمة بناءة ، ويعرض أبو الفداء معلوماته عرضاً سهلاً متوازناً فيه المصطلحات الجغرافية العربية ، وعندما صدر كتابه ملأ فراغاً كبيراً ، لأنه حوى خلاصة المعلومات الجغرافية التي تجمعت لدى المسلمين، إنما من الملاحظ أن أبا الفداء لم يضمن كتابه أية خرائط ومصورات كما فعل غيره من الجغرافيين الكبار ، لكن هذا لم يؤثر على مكانة الكتاب ، سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار عمل صاحبه في الملك والسياسة ، ومن هذه الزاوية إذا ما قارنا بينه وبين البكري وهو رجل دولة مثله ، نجد أن أبا الفداء كان أكثر تماسكاً وأقل تناقضاً وخطأ ، ولهذا استحق الخلود وارتبط اسمه باسم مدينة حماة التي باتت تعرف باسم مدينة أبي الفداء .

وفي مجال التاريخ ، كتب أبو الفداء كتاباً في تاريخ مدينة حماة لم يصلنا ، وكتاباً آخر دعاه باسم « المختصر في أخبار البشر » وقد طبع هذا

الكتاب أكثر من مرة إنما بشكل غير علمي ، وفي مقدمة هذا الكتاب أوضح المؤلف دوافعه إلى تأليفه وغاياته منه ، كما أثبت أسماء مصادره ، وكان على رأس هذه المصادر كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ، وفي الحقيقة لخص أبو الفداء ما جاء في كتاب الكامل ، ثم زاد على ذلك أخبار ما بعد ابن الأثير .

وتدل عملية اختصار كتاب الكامل على ذوق رفيع وعمق في المعرفـة واهتمام زائد بأخبار بلاد الشام ، وخاصة مملكة حماة ، صحيح أننا نلاحظ من ثنايا الكتاب بأن أبا الفداء غلبت عليه روح التصنيف بلا فلسفة خاصة ، أو نظرة متميزة للتاريخ ، رغم أنه كان رجل سياسة وحكم عاش في عصر فلسفة عربية للتاريخ ونظرة مقومة ، لكن هذا كله لا ينفي حقيقة هامة هي أن كتابه مصدر أساسي للتاريخ الاسلامي خاصة فيما يتعلق ببـلاد الشام ، والعصرين الأيوبي والمملوكي ..

ابن خلدون

(ت : ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

الحديث عن حضارة العرب في الأندلس ، مهما كان عميقاً وعلمياً هو حديث مبتور ، ذلك أنه لم يكتب بعد ، ولن يكتب ، لإنسان القدرة على التوصل إلى معرفة ما أبدعه العرب في هذا الفردوس الضائع ، فلقد وصلت الحضارة العربية في الأندلس إلى ذروة العطاء وكانت شمولية ، ومن العمق والسمو بمكان لا يزاحم ، ولم يحدث أن شهدت شبه الجزيرة الايبيرية من تقدم حضاري خلال التاريخ نظير ما شهدته في ظل حكم العرب ، ولقد كان سقوط الأندلس انتصاراً مأساوياً لقوى الشر والدمار على قوى الخير والعطاء .

والرقي الحضاري الذي قام في الأندلس يمكن رده إلى عدة أسباب وعوامل ، بينها عامل التحدي والاستجابة يضاف إلى ذلك أن مجتمع الأندلس تكون إسلامياً من خلال اجتماع عدة أجناس بشرية من شعوب أوربة وآسيا وأفريقيا البيضاء والسوداء ، تمازجت كلها ضمن بوتقة الشريعة الاسلامية وتحت ظل العروبة ، وهذا لم يحدث في بلد آخر .

صحيح أن سقوط الأندلس أتى على جل معالم الحضارة هناك ، لكن ما نجا من الدمار ووصلنا ، قدم لنا وما زال يقدم معلومات لا تنضب ، نرى فيها جميع أسس النهضة في العالم ، كما نرى فيها ما لم تتوصل اليه حضارة الغرب حالياً .

إن الحديث عن حضارة الأندلس ذو شجون ، ومثير للغاية، ولعل البحث في بعض جوانبه يكفي ـ ولو مؤقتاً ـ للتدليل ، وليكن موضوعنا الآن جوانب التفكير السياسي والاجتماعي ، فنحن حين نعرض للمعروف من محتويات المكتبة الأندلسية نلاحظ أن هذه المكتبة تحوي تراثاً خصباً في هذه

الميادين ، كما نلاحظ أن القرنين الثامن والتاسع للهجرة ، هما القرنان اللذان وصل فيهما تتاج هذا الفن الذروة ويمكن أن نرى ذلك في عدد من الكتب المنفردة أو في مقدمات بعض الكتب التاريخية مثل كتب ابن مرزوق ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن الأزرق ، وابن خلدون .

وبين هؤلاء جميعاً يأتي ابن خلدون مجلياً ، وهو عبد الرحمن بن محمد ابن محمد ، يرقى نسبه إلى أسرة عربية يمانية شارك جدها خالد في فتوحات الأندلس ، وفي الأندلس تحولت صياغة اسم «خالد»إلى خلدون، وفي البداية سكنت هذه الأسرة في مدينة « قرمونة » وبعد عدة أجيال تحولت إلى مدينة اشبيلية ، ومع أواخر القرن الثالث للهجرة ، بدأ أفراد منها يشاركون في بعض النشاطات العامة لكن كما يبدو الثانوية منها .

واستمر آل خلدون هكذا حتى سقطت الخلافة الأموية ، وحل محلها حكم ملوك الطوائف، وكانت دولة بني عباد، التي اتخذت اشبيلية مقراً لها ، أعظم دول الطوائف ، وفي عهد بني عباد تسلم بعض آل خلدون وظائف سامية في اشبيلية ، لكن دول الطوائف لم تعمر طويلاً ، حيث صفيت من قبل يوسف ابن تاشفين ، أمير المسلمين في دولة المرابطين ، ومعلوم أن دولة المرابطين لم تعش بعد يوسف بن تاشفين الا فترة قصيرة ، حيث قضى عليها الموحدون ، وحدث أن كانت اشبيلية أول مدن الأندلس التي بادرت للاعتراف بالموحدين، لهذا أولاها الموحدون عناية خاصة ، وخلال عصر الموحدين تعاون بنو خلدون مع ولاة اشبيلية .

وعندما ألم الضعف بدولة الموحدين ، وقعت كارثة معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ التي كانت بداية النهاية الفعليـة لسقوط الأندلس ، فبعدها أخذت أمهات مدن الأندلس تسقط واحدة تلو الأخرى ، وسبب هذا هجرة كميات كبيرة من سكان الأندلس إلى بلدان الشمال الأفريقي ، وكان بنو خلدون ضمن من هاجر ، وجاؤوا أولاً إلى سبته ، ثم التحقوا بالدولة الحفصية التي كان مقرها تونس ، وقد امتد سلطانها أحياناً إلى أراض من المغرب والجزائر والأندلس .

وسقطت دولة الموحدين في المغرب ، وورثها هناك بنو مرين ، وفي الجزائر بنو عبد الواد ، ويتميز تاريخ بني مرين وتاريخ بني عبد الواد بالصراع الدائم والانقسامات المتوالية والثورات المتتالية ، مما أعطى عصرهم طابعاً خاصاً هو عدم الاستقرار في كل جانب ، حيث نشاهد مثلاً أن رجال الادارة والحكم من وزراء وقادة وسواهم كانوا يجدون أنفسهم إثر كل حادثة أو معركة إما قد عادوا إلى خدمة سيدهم الأول ، أو انتقلوا إلى خدمة سيد جديد ، وهكذا وبسبب ذلك انعدم ما يمكن دعوته باسم الاخلاص السياسي المستمر والولاء الدائم .

شغل محمد بن خلدون والد مؤرخنا نفسه بالدرس والتحصيل ، وزهد بالمناصب والسياسة ، لهذا غدا علماً من أعلام الفقه واللغة والشعر في تونس وقد توفي سنة ٧٤هـ / ١٣٤٩م ، إثر طاعون جارف وخلف وراءه عدداً من الأبناء شهر بينهم عبد الرحمن الذي نحن بصدد الحديث عنه ، وأخاه يحيى الذي عمل بالسياسة كما كتب بالتاريخ ، وأشهر ما كتبه « نجعة الرواد » وهو كتاب أرخ به لبني عبد الواد .

كان أول شيوخ ابن خلدون أباه ، وعلى أبية وعلى يد غيره من علماء عصره نال ابن خلدون قسطاً وافياً من معارف عصره الاسلامية ، من : فقه ، وحديث ، ولغة وعلم كلام ، وتصوف ومنطق ، وحساب وعلم هيئة وطب ، وغير ذلك .

وإثر وفاة والده ، أراد عبد الرحمن بن خلدون النزوح من تونس إلى المغرب الأقصى ، لكن بعض أهله وسواهم أثنوه عن عزمه ، وكان أن تقلد منصب « كتابة العلامة » عن السلطان الحفصي ، وهي وظيفة ديوانية ذات شأن .

وهكذا بدأ ابن خلدون حياته السياسية ، ليجد نفسه أسيراً في متاهات الصراعات بين قوى بنو مرين ، وآل عبد الواد ، وبني الأحمر أصحاب غرناطة ، وملوك تونس الحفصيين ولينتقل من وظيفة إلى أخرى ، بحيث كان

نجمه يصعد حيناً في بجاية ، ثم ما يلبث أن يخبو ليصعد ثانية في فاس ، أو غرناطة ، أو ، أو ....

تقلد ابن خلدون في دول الغرب الاسلامي عدة وظائف : وزارة وقضاء وغير ذلك ، وشارك في كثير من المؤامرات السياسية ، وأصبح واحداً من رجال عصره شهرة وخطورة ، ولم ينتقل من بلاط إلى آخر فقط ، بل عانى من طرحه في السجن ومن النفي أحياناً ، وأكسبه هذا خبرة وحنكة ، كما منحه في كثير من الأحيان الفرصة للقراءة وزيادة المعرفة ، وحباه فوق هذا كله بحس فلسفي تاريخي حاول به تدبر ما حوله من مشاكل وفهم أسرارها وأسباب .

ومع إطلالة الربع الأخير للقرن الثامن للهجرة مل حكام الغرب الاسلامي من التعامل مع ابن خلدون ، كما زهد هو في بضاعتهم ، وقرر الإنزواء والاعتكاف ، فاستقر مؤقتاً في قلعة ابن سلامة ، وهناك شرع في كتابة كتاب في التاريخ ، قدم له بمقدمة طويلة أودعها ما وصل اليه في علوم السياسة ، وأبدع خلال عمله علماً جديداً عن العمران البشري ــ أو ما ندعوه الآن باسم علم الاجتماع ــ ، وفي سنة ٧٨٠ ترك القلعة إلى مدينة تونس لمراجعة بعض الكتب لتساعده في تصنيف كتابه في التاريخ .

وفي سنة ٧٨٣ قرر مغادرة تونس قاصداً الحج ، فتوقف أولاً في الاسكندرية ، ثم ذهب إلى القاهرة ، وقرر الاستقرار هناك ، حيث عين قاضياً للمالكية وأسندت اليه بعض وظائف التدريس ، وأقام علاقات مع بعض الأسر المصرية ، وأرسل وراء اسرته لتلتحق به في مصر ، فجاءت الأسرة في أحد المراكب ، وغرق هذا المركب ، مما كان له كبير الأثر على حياة ابن خلدون ، حيث ترك أعماله الرسمية وتوجه سنة ٧٨٩ لأداء فريضة الحج ، ثم عاد إلى القاهرة ، حيث عمل بالقضاء ثانية ، وفي سنة ٨٠٣ توجه برفقة الناصر برقوق سلطان المماليك إلى دمشق ليشارك بأعمال التصدي لتيمورلنك ، وعندما حاصر تيمورلنك دمشق خرج ابن خلدون في عداد وفد من علماء دمشق لمقابلة تيمورلنك ، وقد وصف ابن خلدون لقاءه مع تيمور لنك ، وذكر أن الأخير

كلفه باعداد دراسة مختصرة عن مصر وشمال افريقية وتقديمها له ، وبعد هذا عاد ابن خلدون إلى القاهرة حيث ولي القضاء مجدداً وفي سنة ٨٠٨ هـ توفي وهو في ولايته فدفن خارج القاهرة •

وتعود شهرة ابن خلدون لا لأدواره السياسية والإدارية ، وإنما لما خلفه لنا من مصنفات ، فهو قد كتب سيرته لنفسه وألف بالتصوف ، لكن أهم ما كتبه كان كتابه في التاريخ الذي عرف باسم « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » •

وقد رتب ابن خلدون هذا الكتاب ترتيباً متداخلاً بأن جعله فصولا تحدث في كل واحد منها عن دولة من دول الاسلام ، ومعلوماته عن المشرق الاسلامي ليست ذات قيمة كبيرة فمصدره الأساسي كتاب الكامل لابن الأثير، بحيث نقل منه نقلا حرفياً ، إنما معلوماته عن دول الغرب الاسلامي ، خاصة عن قبائل البربر والدول التي أقاموها ذات قيمة كبيرة ، ومهمة للغاية حيث أنه جمعها من مصادر جلها بحكم المفقود، كما اعتمد فيها على مشاهداته ، ودعمها بخبرته الشخصية، ومهما يكن الأمر لم ينل ابن خلدون شهرته العظيمة لكتابته مؤلفاً كبيراً في تاريخ الإسلام وما قبله شرقاً وغرباً ، وإنما نال ذلك بسبب ما أودعه في مقدمة هذا الكتاب التاريخي •

لقد أراد ابن خلدون بالأساس من مقدمته أن تكون شرحاً تمهيدياً يفهم على أساسها كتابه ، ويفهم على ضوئها حوادث التاريخ وتعلل ، وجاءت هذه المقدمة نسيج وحدها من العمل المبدع ، حيث أسس ابن خلدون فيها فعلياً علماً جديداً يساعد على تعليل الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية ، والمسائل السياسية وفهمها فهماً نقدياً ، وذكر ابن خلدون بأن ما أتى به : علم له موضوع خاص هو « العمران البشري » وادعى بأن هذا العلم « مستحدث الصنعة غريب النزعة ، غزير الفائدة » وأكد أنه لم يسبق في هذا المضمار من قبل أحد ، بل هو انتهى إليه بالبحث الذاتي الخاص •

إن هذه دعوى عريضة ، لا يمكن قبولها كما هي على علاتها ، فعلى الرغم من أن العلماء قد أدركوا جوانب الإبداع في عمل ابن خلدون ، إلا أنهم وجدوا أن عمله جاء محصلة أعمال سبقه بها عدد كبير الكتاب المسلمين من مشارقة ومغاربة ، كما بين البحث الدقيق أن ابن خلدون قام بكتابة مقدمته أكثر من عشر مرات ، بحيث عدّل وغيّر تبعاً لتجارب جديدة مر بها ، أو استناداً لمصادر وقف عليها .

وهذا لا ينقص من قيمة ابن خلدون ، بل يقرر هذه القيمة في أطر التسلسل الحضاري ، وامكانية العطاء البشري ، الذي يتكامل بأعمال سواه ، والذي يكمله غيره ، ذلك أن الإنجاز البشري مهما كان عظيماً لا يمكن أن يصل إلى درجة الكمال ، لأنه لا كمال لمخلوق ، وكمال الحياة نهايتها ، وإذا انعدم الكمال لدى الإنسان انعدمت لديه العصمة ، فالعلماء يصدقون فيما يروون لكن يناظرون فيما يرون .

على هذا الأساس يمكن التعامل مع ما أورده ابن خلدون من آراء ، خاصة ما يتعلق منها بالعرب وبفكرة العصبية ، فهو قد تحامل في مقدمته على العرب ونسبهم إلى الوحشية ، وذهب إلى أن فتوحاتهم قامت على النهب والتدمير ، وأن قدرتهم القتالية محصورة في الأراضي المنبسطة فقط ، معدومة في الأراضي الجبلية الوعرة ، وأن نفوسهم مفطورة على عدم الاستقرار ، والخروج على النظام إلى غير ذلك ...

وسواء قصد ابن خلدون بعبارة العرب « الأمة العربية ككل ، أو الأعراب منها خاصة » ، فإن آراءه غير مقبولة ، لأنها لا تستند إلى وقائع وهي تنبي عن جهل مرده إما إلى حقد أعمى أو انفعال واهم قام على تجارب خاصة .

فالعرب هم الذين فتحوا بلدان العالم في القارات الثلاث للعالم القديم ، بتضاريسها المتباينة ، وهم الذين قد نقلوا الاسلام إلى بقاع الأرض ، وعلى صعيد الغرب الاسلامي، فإن العرب هم الذين نقلوا بلدانه من الحالة الرعوية إلى

الحالة المدنية ، ومن الوثنية والفوضى العقائدية إلى التوحيد ، ومن البربرية إلى الحضارة ، وإذا كان ابن خلدون قد قصد الأعراب متأثراً بالهجرة الهلالية، فقبائل هلال وسليم لم تحدث دماراً في المغرب ، بل ثبتت طابع العروبة في هذه البلاد ، وكل ما نسب إلى هلال وسليم لا يعدل مذبحة من مذابح التمييز عند الموحدين مثلاً ...

لقد قسم ابن خلدون محتويات مقدمته إلى ستة فصول هي :

١ ــ في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

٢ ــ في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية .

٣ ــ في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .

٤ ــ في العمران الحضري والبلدان والأمصار .

٥ ــ في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .

٦ ــ في العلوم واكتسابها وتعلمها .

واستهل ابن خلدون مقدمته بالحديث عن التاريخ وقيمته ، وبيّن ما يرتكبه المؤرخون من أخطاء حين إيراد الأخبار وذكر الوقائع ، وأشار إلى أن سبب ذلك يعود إما إلى جهل أو سهو ، أو أنه يتم بغرض التحيز والتحوير ، أو لانعدام الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل ، أو لقصور فهم قوانين العمران البشري ، وقد استشهد ابن خلدون بعدة أمثلة ، منها ما هو مسلم له بصحته ومنها ما هو عكس ذلك .

ولعل الفصل الثالث من المقدمة هو أهم الفصول ، وفيه وصل ابن خلدون الذروة في الإبداع والعطاء بحيث قدم نظريات اعتبرت فتحاً علمياً ، ذلك أنه رأى أن كل دولة تحدث بالقبيل والعصبية ، ولكل دولة خواص معينة، ومزايا خاصة تختلف باختلاف القائمين عليها ، وللدول طبائع وخواص، منها الانفراد بالمجد ، والدعة والترف ، والسكون ، وهي أمور إذا ما استحكمت تسبب الشيخوخة للدولة وتقودها إلى الهرم ثم إلى الفناء ،

ورأى ابن خلدون أن الدول كالأفراد لها أعمار لا تتجاوزها إلا نادراً ، وقدر العمر الوسطي للدول بمائة وعشرين سنة .

وتناول ابن خلدون بعد هذا في الفصل الرابع الحديث عن نشأة البلدان وخواصها واختلاف ظروفها وأحوال حياتها من خصب ورفاهية وفقر وجدب وشقاء ، كما أشار إلى موقف أهل البادية من المدينة وصراعهم معها .

وبحث في الفصل الخامس أمـور المعاش ووجوه الـرزق ، ووسائل الكسب ، واقتناء الثروات ، لهذا تحدث عن التجارة وكل ما تعلق بها من عرض وطلب واحتكار للأسعار ، وغير ذلك ، ثم ذكر الصناعات وبين أنواعها وأحوالها وهنا أفرد لكل صناعة أساسية مثل الزراعة والبناء ، والحياكة ، والطب بحثاً خاصاً .

وفي الفصل السادس ذكر العلوم ، وبين أنها من طبائع العمران وهي تكثر وتزدهر حيث ينمو ويتعاظم العمران ، ثـم صنف العلوم وتحدث عن أنواعها من دينية وغير دينية ، وهنا نراه يتعرض للفلسفة والفلاسفة ، ولهذا أسبابه فهو كان مالكي المذهب ، صوفي المنزع ، لا شك أنه قـد تأثر بفكر الأشاعرة ورجال علم الكلام .

وخلاصة القول إن الحديث عن ابن خلدون ومقدمته مهما كان عميقاً لا يمكن أن يبين جميع جوانب الإبداع عند هذا العبقري ، ففـي التاريخ الحديث لم يحظ مؤلف عربي بما حظي به ابن خلدون ، ولقد استطاع كل باحث أن يكشف جديداً عنده ، فمقدمته كالنبع الذي لا ينضب ، بل يتدفق باستمرار ، لأن هذه المقدمة إحدى ثمرات الحضارة العربية الخالدة .

المقريزي

(ت : ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

لمصر مكانة الصدارة بين بلدان الوطن العربي ، فيها قامت أوائل الدول الاسلامية التي استقلت عن جسم الخلافة العباسية وأعظمها دوراً في جميع المجالات السياسية والحضارة والاقتصادية والعسكرية ، مما دفع إلى رصد أخبارها وتدوينها ، ولهذا شهدت أرض الكنانة نشاط عدد كبير من المؤرخين ظهر أعظمهم في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وخاصة في القرنين اللذين سبقا الفتح العثماني لمصر والشام وبقية أجزاء الوطن العربي ، فقد شهدت تلك المرحلة وجود عدد من المؤرخين المبدعين ، أوصلوا علم التاريخ لدى المسلمين إلى الذروة من العمق والعطاء ، وإذا كانت مقاييس نهضة الأمم تعتمد على الوعي التاريخي ، فإنه لمن الممكن القول بأن عرب القرنين التاسع والعاشر ، عصر ابن خلدون وكبار المؤرخين ، كانوا يملكون الاستعداد لدخول عصر نهضة مبدعة ، نجحت أوربة في دخوله ، وحال بينهم العثمانيون وقوى أخرى ، وبين دخوله .

هذه قضية خطيرة ، أكتفي الآن بإثارتها ، علني أملك في المستقبل الوقت للبحث فيها بشكل أوسع وأعمق ، ذلك أن قصدي هنا الحديث عن المقريزي مؤرخ مصر الاسلامية الأكبر . والمقريزي هو :

أحمد بن علي ، ولد سنة ٧٦٦ هـ / ١٣٦٥ م بحارة برجوان [بقسم الجمالية في القاهرة الحالية] في أسرة معروفة بالنشاط العلمي ، تنتمي بالأصل إلى بلدة بعلبك، قيل أنها كانت تقطن في حي من أحياء بعلبك عرف باسم « حي المقارزة » زالت الآن معالمه ، ولم يعد أحد يعرفه .

نشأ المقريزي في وسط ثقافي ، في كنف جده لأمه ، وعرف باسم « ابن

الصائغ » وكان من كبار المحدثين الأحناف ، ذلك أن والده كان كما يبدو فقيراً ، لذلك تأثر الحفيد بالجد ، فكان حنفياً حتى غدا شاباً ، فتحول إلى المذهب الشافعي .

وأقبل المقريزي في مطلع حياته على دراسة العلوم التقليدية لأبناء طبقته ، من علوم الدين والحديث والقرآن واللغة والنحو والفقه والتفسير ، والمنطق وعلم الكلام ، والتاريخ وتقويم البلدان ، وقد ظهر أثر هذا فيما بعد في نتاجه الفكري ، وكان عصر المقريزي قد شهد عـدداً من الأزمات ، ارتبط بعضها بنوازل اقتصادية واجتماعية قاسيـة ، وهنا كما أوحت مشاكـل الأندلس والشمال الأفريقي إلى ابن خلدون وأثرت بفلسفته التاريخية ، كذلك كان الحال بالنسبة لتلميذه وقريبه المقريزي .

لقد حصل المقريزي على ثقافة عالية، والتحق بعدد من الوظائف السامية، كما قام بزيارة عدد من بلدان الوطن العربي ، خاصة مكة ودمشق ، حيث أقام في كل منهما فترة طويلة، وقد انتهت حياته في القاهرة سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .

كان المقريزي غزير الانتاج ، وخاصة في ميادين التاريخ ، وهو قد عاصر ابن خلدون أثناء إقامته في القاهرة ، وتأثر به كثيراً ، حتى أنه قلده في خطه ، وقامت بينهما وشائج من القربى ، ويمكن تصنيف نتاج المقريزي إلى قسمين : المؤلفات الكبيرة ، والرسائل الصغيرة ، وقد وقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع التاريخ العـام والخاص ، أو لتاريخ مصر الاسلامية السياسي والعمراني ، عبر عدة مراحل أولها منذ الفتح الاسلامي حتى الخلافة الفاطمية ، أي الفترة التـي كانت فيها الفسطاط عاصمة مصر ؛ وثانيهـا من تأسيس صلاح الدين للدولة الأيوبية واسقاطه للخلافة الفاطمية ، وثالثها منذ بداية العصر الأيوبي وحتى أيامه .

أما الرسائل الصغيرة ، فقد عالج فيها المقريزي عدداً من المواضيع الهامة للغاية ، وهي مرآة لمشاكل عصره الاقتصادية والاجتماعية ، وفي هذه الرسائل تظهر أصالة المقريزي وعبقريته العظيمة ، ومن المدهش أن صورة المقريزي

في رسائله تكاد تكون معاكسة لصورته في مؤلفاته الكبيرة، حيث أنه في غالبية هذه المؤلفات الكبيرة هو كحاطب ليل يغير على مصنفات الذين سبقوه فينقل عنها ما شاء له الحظ أن يفعل ، دون وعي كامل ، ودون اشارة إلى المصادر ، وهنا إذا حدث وورد ذكر مصدر من المصادر في نص من كتب المقريزي فهو في الغالب مصدر اعتمده صاحب الكتاب الذي أغار عليه المقريزي دون أن يسميه .

ورغم هذا فان كتب المقريزي على اختلاف أحجامها في غاية الأهمية لأن المصادر التي اعتمدها هي محجوبة عنا الآن وتعتبر في حكم المفقود .

لقد تجمع لدى المقريزي مادة تاريخية كبيرة للغاية أراد في أواخر أيامه تصنيفها في كتاب تاريخ كبير يؤرخ به لمصر والوافدين عليها يجعله في ثمانين مجلدة كبيرة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر ، وقد لحق المقريزي بربه قبل أن يتاح له اكمال مشروعه الكبير هذا ، الذي بوبه حسب حروف المعجم ، وقد قيل بأنه كتب منه ست عشرة مجلدة قبل أن يتوفى .

لا ندري مدى صحة هذه الرواية ، وبنفس الوقت لا ندري حجم المجلدة لدى المقريزي ، والذي أعرفه الآن هو أنني وقفت على خمس مجلدات من هذا الكتاب أربع منها بخط المقريزي ، وهذه المجلدات واحد منها أعتقد أنه الأول محفوظ الآن في مكتبة برتو باشا في استانبول ، وهو كما صرح ناسخه قد نسخه عن نسخة بخط المقريزي وهو مجلد كبير للغاية ، أما المجلدات الأربع فثلاثة منها في ليدن وواحد في باريس وقد قمت باستعراض مواد هذه المجلدات واستخرجت منها ما يختص بالخلافة الفاطمية ، كما استخرجت منها كتاباً كاملا يؤرخ للدولة العباسية ، أنا في المراحل الأخيرة من تحقيقه ، وأطمع أن أدفعه للطباعة قريباً بعونه تعالى ، ومواد هذا الكتاب لا تقل أهمية عن كتابي ابن عساكر عن دمشق ، وابن العديم عن حلب ، لا بل تكملهما وتسد بعض ما فيهما من ثغرات ، خاصة كتاب ابن العديم ، ذلك أن المقريزي امتلك عدة مجلدات من هذا الكتاب وأتى على ما فيها من مواد .

الحسن البصري

(ت : ١١٠ هـ / ٧٢٨ م)

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

الاحزاب : ٢٣

حين ظهر الإسلام ، وقامت دولته الأولى في المدينة ، دمج بين المفاهيم دمجاً كاملاً ، فالنبي ﷺ هو رسول الله ، وهو رجل الدولة ، وهو القاضي ، وهو القائد ، وهو ، وهو ...

وعلى هذه القاعدة تربى المسلمون فصار كل منهم يعمل على الأرض وقلبه مشدود إلى السماء ، عامر بالإيمان والتقوى ، راغب بالعافية والعيش الحلال ، وبعدما توفي الرسول لم يتبدل حال المسلمين ، ذلك أن أبا بكر حين استلم حكم المسلمين ، اعتبر السلطة نيابة عن النبي ، والنائب مؤتمن ينفذ أوامر المنيب وتعاليمه ، وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على ذات الطريق النبوي ، وحافظ على مفهوم أن السلطة أداة خدمة لا أداة تسلط وغصب ، وهكذا انقضى الشطر الأكبر من عصر الخلفاء الراشدين ، والتوازن والانسجام قائم بين المسلمين والخلافة .

إنما انهار هذا التوازن مع اغتصاب معاوية بن أبي سفيان للسلطة ، وانتزاعه للخلافة بقوة السلاح والمال والبراعة السياسية ، وهكذا تحولت السلطة إلى أداة تسلط وتنكيل وجبروت واستغلال ، وقام حال جديد عجيب قاد إلى نفور الشعب من السلطة وبعده عنها .

ولقد فرضت تطورات الأحوال السياسية والعسكرية على السلطة الأموية سياسة مالية ضرائبية بعيدة عن روح الشريعة الإسلامية حتى كادت أن تقول

بأن الله تعالى أرسل محمداً « جابياً لا هادياً » وكان من الممكن لهذه السياسة أن تدمر مستقبل انتشار الإسلام وتعطل أعمال الإقبال على اعتناقه من قبل سكان البلاد المفتوحة ، لكن طبيعة العقيدة الإسلامية وتماسكها ، جعل بالإمكان الإستنغاء عن السلطة والإنتشار بالقوى الذاتية لها ، وتمثلت هذه القوى فيما تمثلته بجماهير المسلمين ، التي قادها عدد من الأعلام الكبار فكانوا بناة تاريخ الإسلام وحضارته الفعليين .

قد يقود هذا العرض إلى القول بأن تاريخ الإسلام قام على ازدواجية العمل ، والعاملين ، وللوهلة الأولى يمكن أن يكون هذا صحيحاً ،ولكن إلى حدود ، فالازدواجية إما أن تقوم على التنسيق أو الفوضى وهذا حال لم يقم ، لهذا نقول إن ما حدث ليس ازدواجية لكن مواجهة ، أحياناً كليـة وأحياناً جزئية ، إنما بشكل معقد للغاية .

فقد قضى الاسلام على معتنقيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل على نشر الإسلام ، وفي الإسلام الشر شر صغر أم كبر ، والخير خير صغر أم كبر ، وفعل الشر عداء للإسلام ، وعمل الخير خدمة للإسلام ، وحين يتصدى المؤمن لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يكون قد أدى ما عليـه فالدين النصيحة .

وعندما قامت المواجهـة بين المسلمين والسلطة ، صار علـى رجالات المسلمين العمل على جبهتين ، داخلية وخارجية وقد برز في هذا المجال عدد من الأعلام ضرب كل منهم مثـلاً أعلى في الشجاعة والزهد والتقوى ، وحـين يعرض الباحث لحياة وأعمال هؤلاء الأعلام يجد أن الحسن البصري هو صفوة الصفوة ، وعلم الأعلام المسلمين في الزهد والشجاعة والعلم .

والحسن البصري هو الحسن بن يسار ، مولى زيد بن ثابت ، صاحب النبي ﷺ وكاتب الوحي ، وأمه خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين ، نشأ في بيتها ولقي جماعة كبيرة من الصحابة ، فتأثر بهم وأخذ عنهم ، فكان بذلك أول التابعين ثم سيدهم .

وذلك أن الله تعالى جمع فيه من الفضائل ، ومنحه من المواهب ما استطاع به أن يؤثر في قلوب الناس ، وقد قرن مواهبه بغزارة في العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير ومغازي وشمائل وفصاحة وبيان وحلاوة في المنطق ، وجمع مع هذا كله زهداً إسلامياً لا أعجمياً ، وشجاعة وإخلاصاً لا تشوبه شائبة ، مع عفة متناهية ورقة كبيرة ، وعاطفة جياشة صادقة ، وأهله هذا إلى قيادة جماهير المسلمين والتصدي لرجال السلطة وسواهم ، رافضاً التعاون مع السلطة ، ناقداً أعمالها وسياستها •

لقد استطاع الحسن البصري بمواهبه أن يقدم للمسلمين خدمات كبيرة للغاية ، وضرب بسلوكه مثلاً أعلى اقتدي به ، وعليه إذا كان بعض العلماء أسس مدارس فقهية ، فإن الحسن البصري هو مؤسس حركة الزهد الإسلامية ، وواضع أسسها •

وحين يقلب الباحث صفحات تاريخ الإسلام في القرن الأول وبداية القرن الثاني ، يكاد يجد في كل صفحة ذكر أو إشارة أو أثر للحسن البصري ، وهذا يجعلنا نقرر بأن الحسن البصري كان من أوائل بناة الإسلام حضارة وفكراً •

وللتدليل على مدى أثره في مجتمعه ومكانته به ، يكفينا أن نذكر انه عندما توفي عام ١١٠ هـ ، في البصرة ، تم دفنه بعد صلاة الجمعة ، فتبع أهل البصرة جميعهم جنازته ، ولم يتخلف أحد عنها ، وسبب ذلك تعطيل صلاة العصر في مسجد المدينة الجامع ، ولما شهد بعضهم ذلك قال : « لا أعلم أن صلاة العصر تركت في الإسلام ــ في جامع البصرة ــ إلا يومئذ » •••

الكنـــدي

(ت : ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م)

قامت الدراسات الحديثة حول تاريخ الاسلام وحضارته أول ما قامت في أوربة الغربية في وقت تحكم فيه التفكير القومي العنصري ، لذلك عندما أقدم بعض أوائل المستشرقين على البحث في الفلسفة العربية ، نفوا وجود شيء من هذا القبيل ، وقالوا بوجود فلسفة اسلامية ، أنتجها فلاسفة مسلمون من أصل غير عربي ، وفي هذا مغالطة عنصرية كبيرة ، لأنه لا يجوز الفصل بين العروبة والاسلام ، فاسلام بلا عروبة جسد بلا قلب ، وعروبة بلا اسلام قلب بدون جسد ، ثم إن نتاج الحضارة الفكري وسواه مما دون بالعربية هو عربي اسلامي وليس غير ذلك ، هو نتاج بلا شك مرتكز على ما أنتجته الأمم الأخرى ومستفيد منها ، إنما أخرج وفقاً لمقاييس عربية ، وعالج قضايا ارتبطت بالمجتمعات العربية الاسلامية •

وهذه قضية ترتبط بأصالة الفلسفة العربية الاسلامية ، وهي مسألة أجمع العلماء الآن حولها وفرغوا من مناقشتها ، إنما من الملاحظ أن بعض أوائل معارضي التفسير العنصري ، وقعوا ــ وقسم لم يتخلص بعد ــ في شراك هذا التفسير، فأرادوا البرهنة على بطلانه عن طريق الحديث عن الكندي الذي أطلقوا عليه اسم فيلسوف العرب •

وبصرف النظر عن هذا الجدل فان الكندي هو : أبو يوسف يعقوب ابن اسحق بن الصباح ، من أبناء الأشعث بن قيس أبرز زعماء كندة أيام الردة والفتوح وعصر صفين وما بعدها •

ومن المدهش أن الذين تحدثوا عنه وأوردوا نسبه رفعوه إلى ملوك غسان ، وهذا مجرد وهم ، فغسان غير كندة ، ولكل دولته وأمراؤه ، لكن

لا يبعد وجود وشائج قربىعن طريق احدىأمهات الكندي بغسان، مع الاقرار النسبي أن كندة وغسان حسب الرواة العرب حيان من اليمن •

وكندة قبيلة كبيرة توزعت إلى أقسام تميز كل منها عن الآخر بالبقعة الجغرافية التي قطنها ، وحتى بالمكانة السياسية والاجتماعية ، وأشهر فروع كندة ، الفرع الذي أسس دولة كندة في قلب شبه الجزيرة لما قبل الاسلام ، وكان حجر بن الحارث بن عمرو المعروف باسم آكل المرار أول مشاهير أمراء كنده كما كان امرؤ القيس بن حجر « حامل لواء الشعر في جهنم » آخر ذوي الشهرة من أمراء كندة [انظر كتابي : تاريخ العرب والاسلام : ٢٨-٣١] •

إن ما نملكه من معلومات عن حياة الكندي قليل غير كاف ، فمن المرجح أنه ولد في البصرة حوالي عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وفيها توفي ربما سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م ، ويفيد هذا أنه قد أمضى معظم حياته في البصرة ، لكن من المرجح أنه زار بغداد •

عاش الكندي في العصر الذهبي للخلافة العباسية ، فالبصرة كانت مدينة الفكر الاسلامي المتنوع ، فهي حاضرة عقائد الخوارج والاعتزال ، وعصر الكندي عصر الاعتزال المدعوم من قبل الخلفاء يتقدمهم المأمون ، وهو عصر القول بخلق القرآن ، في هذا الوقت كانت المعارك الفكرية وسط المجتمعات العباسية على أشدها ، وكانت أعمال التدوين والترجمة قد وصلت إلى درجات الكمال •

في هذا العصر الزاخر عاش الكندي ، وبدأت شهرته تطير منذ أيام المأمون ، انما سطع نجمه أيام المعتصم ، حيث أوكل إليه تأديب ولده أحمد ، وهذا قاد الكندي إلى التورط في بعض المنازعات مع عدد من العلماء ، مما جعله يقلع عن العمل في دار الخلافة ويعتزل الحياة العامة ، حيث انقطع إلى البحث والتأليف •

وقد ألف الكندي عدداً كبيراً من الكتب والرسائل قيل بأن عددها كان /٢٨١/ ومع أن الفلسفة والمنطق كانت على رأس موضوعات كتب الكندي ،

إلا أنه مثل سواه من علماء عصره ، كان موسوعي المعرفة ، لذلك كتب في الرياضيات وعلم الهيئة والموسيقى وعلوم الطبيعة وغير ذلك من العلوم .

ويروى أنه عندما أعلن الخليفة المتوكل حربه على المعتزلة وسواهم ، وشي بالكندي إلى المتوكل ، فأمر باعتقاله ومصادرة كتبه ، ولعله لم يمكث في السجن طويلاً ، وأعيدت إليه كتبه ، ومع هذا فتعتبر معظم كتب الكندي بحكم المفقود ، ولم يصلنا منها إلا القليل .

ومما وصلنا من كتبه الفلسفية رسالتان وجه أولاهما إلى الخليفة المعتصم وثانيهما إلى ولده أحمد ، منهما نرى الكندي متأثراً بالفلاسفة الكلاسيكيين ومعتزلة عصره فهو يرى أن « غرض الفيلسوف في علمه اصابة الحق ، وفي عمله العمل الحق » والفلسفة « علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان » .

ومما يلفت الانتباه عندما يقرأ الانسان للكندي مقدرته اللغوية وبراعته في ايجاد المصطلحات عن طريق احياء بعض الكلمات العربية ، أو عن طريق الاستعارة من الدارجة ذات الأصول السريانية ــ الآرامية، فهو مثلاً يستعمل عبارة « ايس » للدلالة على الموجود ، ويجمعها « أيسات » ويشتق منها كلمة « الايسية » بمعنى حالة الوجود ، ويتحدث عن « التأييس » و « المؤيِّس » و « المؤيَّس » ، وأيس معناها في السريانية « يوجد » ومثل هذه العبارة استخدم الكندي « لَيس » « بسكون السين المهملة » بمعنى العدم ، « وهويه » بمعنى الوجود الجزئي ، « وقنية » « ومائية » « وانية » وغير ذلك من العبارات السريانية .

والفلسفة عند الكندي هي الجهد الذي يبذله الانسان كيما تماثل أفعاله ــ قدر استطاعته ــ أفعال الله ، والفلسفة أيضاً « صناعة الصناعات وحكمة الحكم » .

ومع الفلسفة اهتم الكندي بما وراء الطبيعة وبالعلوم الطبيعية والرياضيات ، وكان مثل معاصره الجاحظ له تجاربه في علوم الطبيعيات وله

تفاسيره ، فهو يرى أنه لا ثمرة من محاولات صناعة الذهب والفضة من المعادن الخسيسة •

وأسهم الكندي في ميدان الموسيقى ، حتى قيل ان أول كتاب في الموسيقى كتب بالعربية صنعه الكندي ، وقد استعمل الكندي الموسيقى للشفاء ، فهو قد ملك معارف في حقل الطب ، وجمع مع الطب الفلك والتنجيم والهندسة والأشعة والتعدين وصناعة الأسلحة وخاصة السيوف منها وسقايتها، واتسم بالاعتدال وتقدير العلماء وانصافهم •

ولقد حاول التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولذلك كان متمسكاً بالاسلام، وقد بحث في « وحدانية الله وتناهي جرم العالم » كما بحث في طبيعة الله ووجوده وصفاته •

ولاقت بعض آراء الكندي بالبصريات والطب والدواء تقديراً كبيراً ، فهو قد يكون أول من قال بأن وزن الدواء ينبغي أن يتناسب تناسباً طردياً مع تأثيره على الجسم •

وحظي الكندي بمكانة كبيرة في العالم الاسلامي ، كما عرفته أوربة في العصور الوسطى ، لذلك تم ترجمة عدد من رسائله إلى اللاتينية وسواها ، حتى أن بعض الرسائل المفقودة بالعربية هناك ترجمات لها •

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن الكندي فيلسوف العربية وحضارة الاسلام بعضاً من أقواله :

« الفلسفة هي التشبه بأفعال الله تعالى ، بقدر طاقة الانسان » وهي « صناعة الصناعات ، وحكمة الحكم » وفيها « السؤال عن الباري عز وجل ، في هذا العالم ، وعن العالم العقلي » •

ـ « ارادة المخلوق : هي قوة نفسانية تميل نحو الاستعمال ، عن سانحة أمالت إلى ذلك » •

ـ « المحبة : مطلوب النفس ، ومتممة القوة ، التي هي اجتماع الأشياء ، ويقال : هي حال النفس ، فيما بينها وبين شيء يجذبها إليه » •

الإمام الأشعـــري

(ت : ٣٢٤هـ / ٩٣٦م)

في تاريخ مدارس الفقـه الاسلامي ، استطاع الامام الشافعي أن يصل الجسور بين مدرستي أهل العراق والحجاز ، وأن يضع قواعد علم الأصول في الفقه ، إن هذه التجربة سار على منوالها أحد خريجي مدرسة الشافعي وهو أبو الحسن الأشعري ، بحيث استطاع أن يصل الجسور بين مدارس أهل السنة ومدارس أهل الفكر والفلسفة ، وبذلك كان المؤسس الحقيقي لأصول علم الكلام .

وأبو حسن الأشعري هو علي بن اسماعيل بن اسحق ، ويرقى بنسبه إلى أبي موسى الأشعري الصحابي الشهير، وقد ولد في البصرة سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٤ م وبها نشأ ، وكانت البصرة معقل الاعتزال ، وآلت قيادة هذه الحركة في أواخر القرن الثالث إلى أبي علي الجبّائي ثم ابنه أبي هاشم ، وعن آل الجبّائي أخذ الأشعري قواعد علم الاعتزال وأفكاره ، ويبدو أنه في نفس الوقت نال قسطاً وافياً من علوم أهل السنة وخاصة مذهب الشافعي الذي اعتمد على الحديث اعتماداً كبيراً .

ولما تبحر في كـلام الاعتزال ، وبلغ غايته ، كـان يورد الأسئلة على استاذيه في الدروس ولا يجد عندهما جواباً شافياً ، فتحير في ذلك ، فحكي عنه أنه قال : « وقع في صدري في بعض الليالي شيء مما كنت فيه من العقائد فقمت وصليت ركعتين ، وسألت الله تعالى أن يهديني إلى الطريق المستقيم ، فنمت فرأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فشكوت اليه بعض ما بي من الأمر ، فقال رسول الله ﷺ : عليك بسنتي ، فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والاخبار فأثبته ونبذت ما سواه وراء ظهري » .

ومعلوم أن حركة الاعتزال هي الحركة التي تطورت عن حركات القدرية التي تصدت للجبرية الأموية ، وقد وصلت إلى ذروتها وقوتها ومجدها في عصر الخليفـة المأمون العباسي ، حيث تبناها ونادى بعقيدتها مذهباً رسمياً للخلافة العباسية ، وكان أهم ما اهتمت به المعتزلة أيام المأمون مسألة خلق القرآن ، وقد قوبلت بمقاومة شديدة ، وانتهى بها الأمر إلى الإخفاق السياسي أيام المتوكل العباسي ، لكن ما حل بها سياسياً كان لا يوازي الضربة التي وجهها إليها الأشعري حـين انقلب عليها ، إذ كانت ضربـة مدمرة وقاتلة ، فالاشعري لزم الاعتزال أربعين سنة ، وصار واحداً من كبار أئمة الاعتزال ، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً ، خرج بعدها إلى الجامع فصعد المنبر ، وقـال : « معاشر الناس ، إني انما تغيبت عنكم في هـذه المدة ، لأني نظرت ، فتكافأت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي حق على باطل ، ولا باطل على حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى ، فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا ــ وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ــ ودفع الكتب إلى الناس » .

وأظهر الأشعري في كتبه التي دفعها إلى الناس عوار المعتزلة ، وهتك أسرارهم ، وبيّن مخالفتهم لأهل السنة والجماعة ، وبعمله هذا أعلن الحرب بينه وبين حزب المعتزلة . وقد خاض الأشعري معارك كلامية شديدة ، تناولت كل جوانب العقيدة الاسلامية ، ونتيجة لهذه المعارك وخلالها صنف الأشعري عدداً من الكتب في كافة الميادين ، منها كتاب سماه « المختزن » فسر فيـه القرآن ، قيل جعله في خمسمائة مجلدة ، وكتاب آخر اسمه « اللمع » وكتاب « مقالات الاسلاميين » وكتاب « كشف الأسرار وهتك الأستار » مع عدد آخر كبير ، ذكره ابن عساكر في كتابه « تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الامام أبي الحسن الاشعري » كما ذكره غير ابن عساكر ممن ترجم للأشعري .

وعندما أعلن الأشعري أفكاره على المسلمين من غير المعتزلة ، تلقاها قسم منهم بشيء من الحماسة ، وتلقاها قسم أعظم بشيء من الفتور والشك ، وكان لسان حالهم يقول : « كيف يبرأ من البدعة من كان رأساً فيها ، وهل

يثبت لله الصفات الذي كان كل دهره ينفيها ، وهل رأيتم بدعياً رجع عن اعتقاده البدعة ، أو حكم لمن أظهر الرجوع منها بصحة الرجعة ، وقد قيل أن توبة البدعي غير مقبولة ، وفيئته إلى الحق بعد الضلال ليست بمأمولة ، وهب أنا قلنا بقبول توبته إذا أظهرها ، أفما ينقص ذلك من رتبته عند من خبرها ...؟

وتتيجة لذلك احتاجت أفكار الأشعري ومدرسته ما يزيد على قرن من الزمن حتى تهيأ لها النجاح والقبول من قبل جميع المسلمين ، خاصة أهل السنة على اختلاف مدارسهم الفقهية التي التزموا بها ، ولم يحدث قط في تاريخ الاسلام أن أجمع المسلمون على منهج واحد للتفكير ومناقشة القضايا ، كإجماعهم على الالتزام بمدرسة الأشعري ، فالأشعري على هذا يعتبر من عمالقة الفكر الاسلامي ، والباني الفعلي لعلم الكلام عند المسلمين .

عاش الأشعري حتى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، واعتبره كثير من المسلمين مجدد القرن الثالث على أساس ما روي عن النبي ﷺ قوله : « إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها » حيث أن عمر بن عبد العزيز كان مجدد المائة الأولى ، والشافعي كان مجدد المائة الثانية .

لقد اتسم الأشعري بحدة الذكاء وعمق التفكير ، والشجاعة مع سرعة الخاطر ، وكان قد نال أوفى الحظوظ في المعارف الاسلامية لعصره بشكل شمولي واسع .

هذا وقد تهيأ لمدرسة الأشعري عدد وافر من كبار العلماء لتنمية أفكارها ونشرها ، وصحيح أن هذه الحركة قد أسهمت في اليقظة السنية مع الحرب على الاسماعيلية ، إلا أنه عندما انتصرت السنة مع قيام السلطنة السلجوقية ، أعلنت الحرب على الاشاعرة ، وأمر السلطان طغرلبك بمشورة من وزيره الكندري بلعن الأشعري على المنابر ، ولكن عهد طغرلبك لم يطل ، ووصل إلى السلطنة ألب رسلان ، الذي استوزر نظام الملك الحسن الطوسي ، فقام نظام الملك بقتل الكندري ، ثم بنى المدرسة النظامية في بغداد .

وكان نظام الملك محباً للصوفية ، متعصباً للشافعية والاشاعرة ، لذلك اعتبر تأسيس النظامية في بغداد بداية التاريخ الفعلي لانتصار مذهب الأشعري وانتشاره ، وكان الغزالي من أبرز أساتذة النظامية ، وهـو المروج الفعلي لمذهب الاشاعرة في المشرق ، صحيح أنه قد تتلمذ على يديه عدد كبير مـن الرجالات ، خاصة من الغرب الاسلامي ، مثل أبي بكر العربي ، وصحيح أن أبا بكر كان أول من نقل أفكـار الغزالي وكتبه إلى الغرب ، لكن المروج الحقيقي لمذهب الاشاعرة في الغرب الاسلامي هو المهدي بن تومرت ، فالدعوة الموحدية هي إحدى نتائج انتصار مذهب الاشاعرة وانتشاره .

ومنذ القرن السادس للهجرة عم انتشار مذهب الاشاعرة وتحكم بمناحي الفكر الاسلامي ، وظل هكذا حتى العصر الحديث ، وبهذا نرى أنه لم يكتب لمذهب اسلامي فكري آخر نفس الدور والتأثير ، وفي ذلك ريادة وخلود .

الفارابي

(ت : ٣٣٩هـ / ٩٥٠م)

عندما قام الاسلام كانت الامبراطورية الساسانية تحكم الهضبة الايرانية معجزء مما عرف لدىالعرببباسم خراسان،ولقد امتد هذا الجزء حتى منطقة مدينة مرو ، وليس إلى نهر جيحون الذي يجعله الجغرافيون العرب حداً لخراسان ، وكان الجزء غير الساساني من خراسان تحت حكم عدد من الدويلات التركية منالهياطلة والصغد ، وحين سقطت الامبراطورية الساسانية للفاتحين العرب ، استغل الهياطلة الفراغ السياسي والعسكري الذي قام في مناطق خراسان الساسانية لصالحهم ، لكن ذلك لم يدم طويلاً ، فقد احتل العرب هذا الجزء من خراسان ، ثم الأجزاء الأخرى ، ووصلوا إلى النهر واجتازوه فاتحين متوغلين •

ولقد أفاد الفتح العربي ايران وخراسان فوائد كبيرة ، إلى جانب الفائدة العقائدية الدينية ، فنظام الامبراطورية الساسانية كان نظاماً اقطاعياً ، إلى حد أنه من الصعب وصف الامبراطورية الساسانية بغير عبارة امبراطورية ، امبراطورية ضمت برباط ضعيف مجموعة من الممالك والأمم المتمايزة اجتماعياً ولغوياً وحضارياً •

لقد وحد الفتح الاسلامي ايران وخراسان من جميع الجوانب وحاول العرب تعريب هذه المناطق ، إنما حين قامت الثورة العباسية سقطت عمليات تعريب خراسان وايران، وبدأت تظهر إلى الوجود لغة فارسية مطعمة بالعربية ، كما أن التوسع الاسلامي في مناطق ما وراء النهر وأطراف الهند نقل إلى هذه المناطق المؤثرات الايرانية الاسلامية الجديدة من حضارة وعادات ولغة وثقافة،

ووضح كل هذا عند قيام الدولة السامانية [٢٠٤ـ٣٩٥ هـ / ٨١٩ـ١٠٠٥م] التي اتخذت من بخارى مقراً لها •

وقامت بخارى في منطقة ما وراء النهر ، وسكنت هذه المنطقة من الشعوب التركو ــ مغولية ، وأخذت الدولة السامانية على عاتقها أمر حماية الأراضي الاسلامية من غزوات بداة السهوب الترك ، وتأمين استمرار التجارة وتدفق البضائع ، ونجحت في ذلك بالقيام بحملات على مناطق الأتراك داخل السهوب ، وبذلك أضعفت تجمعات الأتراك ، ومدت نفوذها وهيبتها وتقاليدها وعقيدة الاسلام إلى داخل السهوب ، وعبر أراضي الدولة السامانية تدفق سيل من العبيد على أراضي الخلافة العباسية ليلحقه بعد أمد سيل من القبائل المهاجرة •

لقد اهتم البلاط الساماني بالعلم والعلماء ، وعاش في ظل هذا البلاط الذي تجمعت فيه مكتبة كبيرة عدد من طلبة العلم والعلماء ، كما أن النشاط العلمي في الديار السامانية لم يكتف بالتأثير الظاهري على الأتراك بل كان أعمق من هذا فقد أوجد عدداً من العلماء ذوي الأصل التركي ، وحين يذكر هؤلاء يتقدمهم الفارابي •

والفارابي هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ، ولد كما هو مرجح من أب تركي سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٣ م في منطقة « فاراب » أو « باراب » وهي منطقة واسعة في بلاد ما وراء النهر على جانب نهر سيحون ، ولعله ولد في مدينة « وسيج » على الشاطيء الغربي لسيحون •

لا نكاد نملك معلومات يقينية عن صحة نسب الفارابي التركي ، فبعض المصادر تذهب إلى القول إلى أن والده كان فارسياً ، ثم إن معلوماتنا عن طفولة الفارابي الأولى استنتاجية غير مباشرة ، حيث يبدو أنه تردد على دور العلم في بلدته ، واهتم بأنواع مواد المعارف والعلوم والرياضيات والأدب والفلسفة واللغات ، فهو عرف بالاضافة إلى التركية : الفارسية ، والاغريقية والعربية •

وبعد ما تجاوز الأربعين من عمره خرج من بلده ميمماً شطر العراق ، وفي بغداد

متن الفارابي معارفه باللغة العربية ، وكانت بغداد مضطربة الأحوال ، لهذا ولأسباب أخرى ، ترك بغداد وتوجه نحـو حرّان ، فدرس فيها الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقي المسيحي يوحنا بن حيلان ، وكان قد درس المنطق في بغداد على مسيحي نسطوري آخر هو أبو بشر متى بن يونس ، كان في وقته أشهر الباحثين في المنطق والمترجمين من اليونانية إلى العربية ، كما أخذ العربية على أبي بكر محمد بن سهيل النحوي المعروف بابن السراج [ت : ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م] ، وأتيح له أيضاً دراسة الموسيقى وتعميق معارفه اللغوية والطبية والعلوم والرياضيات ، ومدهش أن نرى الفارابي يفعل هذا ويقبل هذا الاقبال على التعلم في هذه السن المتقدمة .

وكان الفارابي مولعاً بالأسفار ، وكانت العلاقات بين امارة سيف الدولة في حلب وحرّان جيدة ، لذلك سافر إلى الشام ، واتصل بحلب بسيف الدولة، كما سافر إلى مصر ربما سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م ، كما رافق سيف الدولة إلى دمشق حيث توفي فيها سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م .

آثر الفارابي حياة الزهد والتقشف ، فهو لم يتزوج ، ولم يقتن مالاً ، ولم يرتض أن يأخذ من سيف الدولة أكثر من أربعة دراهم يومياً ، وذلك قناعة منه ، وكان يؤثر العزلة والتأمـل والتفكير ، يقضي معظم أوقاتـه في البساتين وعلى شواطىء الأنهار « فلا يكون إلاّ عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، حيث يؤلف بحوثه ، ويقصد إليه تلاميذه وزملاؤه ومساعدوه » ، وكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئاً بقنديل الحارس ، لأنه لم يكن يملك قنديلاً خاصاً به .

دفن الفارابي في دمشق في مقبرة باب الصغير ، وحضر جنازته سيف الدولة وقد حزن عليه ، وجزع لموته ، وصلى عليه في عدد من أصحابه .

كان الفارابي خصب الانتاج ، كتب بعربية قاسية ، لأنه عمق معارفه بالعربية في وقت متأخر من حياته ، وقد وصلنا من مؤلفاته أربعون رسالة : بالعربية (٣٢) والعبرية (٦) واللاتينية (٢) ، وما جاء بغير العربية ترجم منها

وضاع الأصل العربي ، وقد طبع العديد من مؤلفاته ، ولعل أهم ما وصلنا من كتبه « كتاب الواحد والوحدة » « كتاب الجوهر » « كتاب الزمان » « كتاب المكان » « كتاب الخلاء » « مقالة في معاني العقل » « فصوص الحكم » « كتاب تحصيل السعادة » « كتاب في الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو طاليس » « كتاب صناعة علم الموسيقى » « احصاء العلوم » « كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة » •

من المحال الحديث هنا عن جميع مصنفات الفارابي ، لذلك سأكتفي بالاشارة إلى ما ورد في كتابه عن الموسيقى مع كتابية « الجمع بين رأي الحكيمين » « وأراء أهل المدينة الفاضلة » ، فمن الملاحظ على الرغم من معارف الفارابي الموسوعية ، أن الفلسفة كانت أوضح ناحية من نواحي نبوغ الفارابي ، وأبرز مظهر من مظاهر ألمعيته وتخصصه ، فقد صرف جل جهوده نحو تجويد بحوثها ، واستأثرت فلسفة أرسطو ومؤلفاته بقسط كبير من وقته ، ولاجادته في فهمها ودراستها أطلق عليه لقب « المعلم الثاني » واعتبر المؤسس الحقيقي للفلسفة الاسلامية المحضة ، فهو قد أشاد بنيانها ووضع الأساس لجمع فروعها ، وكل الذين جاءوا من بعده من فلاسفة الاسلام عيال عليه ، أصول أفكاره لديهم ، ومناهجه واضحة التأثير عليهم •

لقد قال الفارابي بأن الفلسفة كل واحد وهي حق ، والشريعة أيضاً حق ، وبالتالي لا خلاف بين الشريعة والفلسفة ، لأنه لا خلاف بين حق وحق ، وبذل الفارابي جهداً كبيراً لاثبات ذلك ، وتفرغ لاثبات وحدة الفلسفة ، فحاول التوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون عن طريق الاقناع حيناً ، وبالتأويل حيناً آخراً ، وعن طريق الجبر واقحام الأفكار عند الاضطرار ، وهذا ما حاول اثباته في عدد من الرسائل ، وصلنا منها كتاب « الجمع بين رأي الحكيمين » •

وأشهر من هذا الكتاب كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » وهو كتاب لا نعرف يقيناً أين ومتى ألفه ولا المراحل التي مرّ بها تعديله وتنقيحه ، لكن مما لا شك فيه أن الفارابي تأثر بجمهورية أفلاطون حينما صنفه ، وقصد من

كتابه هذا تكوين مجتمع فاضل من نوع مجتمعات خيال الفلاسفة ، يقوم على فلسفته وآرائه في السعادة والأخلاق والكون وخالقه وما وراء الطبيعة ، وقد قسم كتابه هذا إلى قسمين رئيسيين ، قسم أول بدأ فيه بتلخيص المبادىء الفلسفية التي دان بها ، والتي قال بأنه سيراعيها في انشاء مدينته ، وقد احتل هذا القسم ثلاثة أخماس الكتاب ، وقسم ثان احتل خمسي الكتاب مع أنه هو المقصود بالذات من كتابه وهو بيت القصيد ، وقد شرح في هذا القسم شؤون مدينته ، وبين ما ينبغي أن تكون عليه في مختلف فروع حياتها .

ومدينة الفارابي تجمع مبني على التعاون من أجل السعادة ، مثل البدن التام الصحيح ، ويرأس المدينة نبي أو حكيم فيلسوف لديه استعداد فطري وملكات ومواهب ، ويساعده رئيس ثانٍ أو ثلاثة أو ستة ، صحيح أنه تأثر بكتابه هذا بجمهورية أفلاطون ، إلا أن أفكار الفارابي وعقائده وطروحاته مستقاة من المجتمع الاسلامي والعقيدة المحمدية ، ومرتبطة بهما وثيق الارتباط .

لقد طور الفارابي علم المنطق ، فبفضله صار علماً عربياً مستقلاً ، ومتكاملاً مثل الفلسفة ، وكان للفارابي معرفة واسعة بالطب ، حتى قيل بأنه زاول مهنة الطب مزاولة عملية ، وكان نابغة عصره في الموسيقى وله فيها مؤلف مشهور ومخترعات كثيرة ، حتى ليقال بأن آلة القانون كان هو أول من ركبها ، كما لحن أغاني وأناشيد تولى هو نظمها كانت فرق الصوفية تنشدها في حلقات الذكر ، ولهذا قيل بأنه أول من وضع مقدمة موسيقية تعتمد على الآلات الموسيقية للألحان الغنائية .

ويروي لنا ابن خلكان حول عبقرية الفارابي الموسيقية حكاية هي أقرب إلى الأساطير أو الخيال منها إلى التاريخ ، تنبي عن شهرة الفارابي بين أهل عصره في الموسيقى ، فذكر أنه دخل يوماً على أحد مجالس سيف الدولة ، فلم يعجبه عزف العازفين الذين عزفوا أمامه ، وأظهر أخطاء فنية كثيرة لكل عازف منهم ، فعجب سيف الدولة وسأله إن كان يحسن العزف ، فأجاب بالايجاب «وأخرج من

وسطه « خريطة » ففتحها ، وأخرج منها عيداناً وركبها وعزف بها فضحك كل من كان بالمجلس ، ثم فكها وركبها ثانية ، وضرب بها فبكى كل من كان بالمجلس ، ثم فكها وركبها ثالثة تركيباً جديداً وضرب بها ، فنام كل من كان في المجلس حتى البواب ، فتركهم نياماً وخرج » •

وختاماً يدل ما وصل إلينا من مؤلفات الفارابي وبخاصة كتابه في « احصاء العلوم » أنه لم يغادر فرعاً من فروع معارف عصره إلاّ وألم به ، ووقف على أهم ما ألف فيه وما وصل الباحثون في مسائله ، وهو بهذا نرى فيه مرآة عاكسة لصورة الحضارة العربية المشرقة ، وفي هذا لا شك ريادة وخلود لارتباطه بحضارة العرب والاسلام في عصرها الذهبي •

ابن سينا

(ت : ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م)

اعتمد العباسيون منذ أيام المنصور سياسة دينية خاصة ، وبذلك تفوقوا علي بني أمية ، وضغط المنصور على كبار العلماء لمسايرة رغباته السياسية ، ونجد شواهد بارزة على هذا في تراجم الأئمة : عمرو بن عبيد ، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن اسحق بن يسار .

فقد كانت العلاقة بين المنصور وعمرو بن عبيد متينة للغاية ، ثم حينما رفض أبو حنيفة تسلم منصب القضاء ، اعتقل وامتحن ، حتى عدّ ذلك سبباً لموته ، وسجن الامام مالك وامتحن ، ثم صنف بعد ذلك كتاب الموطأ بناء على رغبة المنصور وخططه ، وبناء على رغبة من المنصور أيضاً أعاد ابن اسحق كتابة مصنفه في السير والمغازي بشكل عباسي .

وبعد المنصور رضي تلاميذ أبي حنيفة بتسلم المناصب السامية في بغداد وسواها ، كما لم يجد خريجو مدرسة الامام مالك حرجاً كبيراً في المشاركة في السياسة والقضاء وغير ذلك في القيروان وقرطبة ، ولعل في سيرة الأئمة : محمد بن الحسن الشيباني ، وأبي يوسف القاضي ، وأسد بن الفرات ، وسحنون ما يكفي للدلالة والبيان .

ونحن عندما نستعرض أخبار البلاط العباسي في بغداد ، ومجالس الخلفاء نجد العلماء من فقهاء وفلاسفة وأدباء وسواهم حضوراً في كل مناسبة ووقت ، وكان ذلك تشجيعاً لهم وإكراماً واحتفالاً بهم ، وصار ذلك احدى أدوات السلطة ، وغدت كتبهم أحياناً تصنف لتهدى إلى واحد من رجال السلطة إن لم يكن تم صنيعها بناء على رغبة من رجل له مكانته في السلطة ، أو في الجيش أو في مجالات المال والزراعة .

وعندما حل التمزق بساح الدولة العباسية ، وقامت الدول المستقلة يلاحظ أن كل دولة مهما كان حجمها وامكاناتها المادية ، صار لها بلاطها الشبيه ببلاط بغداد ، فيه علماء وشعراء وأدباء ، صحيح أن هـذا أدى العديد من المنافع ـ فعلى الرغم من التمزق السياسي والقلاقل لم تتأثر حركات العطاء الفكري ، لا بل ازدادت نمواً بشكل ملحوظ للغاية ـ إنما من جهة ثانية كان المردود في الجانب الاجتماعي ثم العقائدي مريعاً ، ففي الماضي عندما مالت السلطة منذ أيام الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان بعض الميل تصدى لها حملة التراث والعلم ، وفي زمن بني أمية رفض العلماء التعامل بأي شكل من الأشكال مع السلطة ، بل قاد العلماء نوعاً من المعارضة الفكرية الشـديدة الفعالية ، أما الآن فقد ارتبط العلماء ، خاصة الذين مثلوا التيارات السنية بالسلطة ، وتورطوا في مشاكل الصراعات السياسية ، حتى أن بعضهم وجد نفسه في موضـع المسوغ لما لا يمكن تسويغـه ، خاصـة أيـام استبداد الجند بأمور السلطة ، والحنابلة بزمام شارع بغداد .

وفي وقت انحصرت فيه الثروات في أيد قليلة ، ولهث رجال السلطة وراء الذهب والمتاع ، حل الفقر والتعاسة والشقاء في ديار جماهير الأمة ، وفتشت الجماهير عن مخرج فلم تجده لدى الذين ادعوا وراثة أبي ذر وأصحابه ، ولم يعد بامكان الاستمرار بالمناقشات الدينية وتقديم قصائد فحول الشعـراء بديلاً للأمن والخبز والعدالة .

لقد انعدمت الثقة بين العلمـاء والجماهير ، وقامت ثغـرة كبيرة بينهما حاولت قوى عديدة شغلها ، فحققت بعض النجاح الوقتي ، ربما عن طريق حركات ذات صبغة اجتماعية مثل حركـة العيارين والشطار ، أو عـن طريق ثورات متنوعة مثل حركات الزط والزنج ، وإلى حد ما حركه الصفارين ، وفقط ملأت فئة محكمة التنظيم واضحة الأهداف هذه الثغرة لمدة زادت على القرنين من الزمان ، فتحكمت بالفكر والفلسفة والعقيدة ومبادىء الاصلاح ، وقد شهرت هذه الحركة باسم الحركة الاسماعيلية .

هذا ولقد جاء الحديث عن هذه الحركة وبعض مشاهير رجالاتها في مكان آخر من كتابنا هذا، وعلينا أن نشير هنا إلى أن الدعوة الاسماعيلية اعتبرت العالم مقسوماً إلى عدد من الجزر ، وكل جزيرة إلى عدد من المناطق ، ووجد في كل منطقة من يتولى أمور الدعوة ، وفي كل جزيرة داع ، ، وسيّر الدعاة جميعاً من قبل داع للدعاة ارتبط بالامام الاسماعيلي ووجه من قبله •

وأولت الدعوة الاسماعيلية شؤون الدعاة عناية كبيرة مستمرة ، ودائماً وجد مركز لتدريب الدعاة وتخريجهم ، وكانت الدعوة تختار بعض النجباء من المستجيبين والمريدين ، فتبعث بهم من بلدانهم إلى مركز تدريب الدعاة ، وهناك كانوا يمكثون فترة من الزمن ، يرسلون بعدها ، أي بعد تخرجهم إلى مناطقهم ، أو يبعثون إلى مناطق أخرى لتنفيذ مهام محددة •

وبعد الفتح الفاطمي لمصر ، وبناء مدينة القاهرة ، بني في القاهرة مركز جديد لتدريب الدعاة هو الجامع الأزهر ، الذي ظل يعمل لهذه الغاية حتى تاريخ الغاء الخلافة الفاطمية من قبل صلاح الدين الأيوبي •

وتخرج من دار الدعوة في القاهرة عدد من الدعاة الكبار ، لعل من أشهرهم الرحالة الايراني ، والفلسوف الشاعر ناصر خسرو ، ومن بعده حسن الصباح ، مؤسس الدعوة الاسماعيلية الجديدة ـ الحشيشية ـ وهنا تجدر الملاحظة أن بعض رجالات الاسماعيلية رحلوا باتجاه القاهرة ، ، لكنهم لم يصلوها ، وربما كان ابن سينا أشهر من عرف بين هؤلاء •

وابن سينا هو : أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا ، تحدث عن نفسه فقال : « إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور [٣٦٥ ـ ٣٨٧ هـ / ٩٧٦ ـ ٩٩٧] واشتغل بالتصرف [أعمال الولاية] وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهي من أمهات القرى ، وبقربها قرية يقال لها آفشنه ، وتزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت أخي •

ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم القرآن ، ومعلم الأدب ،وأكملت العشر من العمـر ، وقد أتيت على القرآن وعلـى كثير من الأدب ، حتى كاد يقضى مني العجب ، وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ، ويعـد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخي ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسي ، وابتدأوا يدعونني أيضاً إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند » .

وتم توجيه ابن سينا نحو دراسة أصول الفلسفة ، وأقبل هو بشغف على كتب الفلسفة وما لبث أن أظهر تفوقاً في فهمها على أساتذته ، واهتم في نفس الوقت بالهندسة ، وبعدها ربما في علم الطب ، وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلى الطب والفلسفة ركز ابن سينا اهتماماته ، وبهما شهر واختص ، ومع وصوله السادسة عشر من عمره كان ابن سينا يمارس مهنة الطب بتوفيق ونجاح ، وطارت شهرته في الطب مما سبب دعوته إلـى القصر الساماني ، لمعالجة الأمير نوح بن منصور ، وقد وفق حيث أخفق سواه ، وكان في القصر الساماني مكتبة كبيرة غنية بأنواع الكتب ، وطلب ابن سينا السماح له بالتردد على المكتبة والمطالعة بها ، ويقول ابن سينا « فأذن لي فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كـل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت منها كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد .

فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد ، فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري ، فرغت من هذه العلوم كلها » .

وفي تلك السن المبكرة شرع ابن سينا بالانتقال من مرحلة القراءة والتعلم إلى مرحلة التصنيف ، وازدادت شهرته انتشاراً ، وحدث أن توفي والده ، وبعد ذلك احترقت مكتبة القصر الساماني ، وتوجهت أصابع الاتهام

إلى ابن سينا ، وأمام تبدل الأحوال واستجابة لما يمكن تسميته أوامر دعوية ، قرر ابن سينا مغادرة بخارى والتوجه نحو العراق أولاً ، ثم مصر الحكم الفاطمي ، وكانت مناطق من ايران مع العراق واقعة تحت تحكم الدويلات البويهية •

ووصل ابن سينا أولاً مدينة همذان ، وكان ملكها اسمه شمس الدولة، وكان مصاباً بمرض القولنج ، ويذكر أن ابن سينا اختص بمعالجة هذا المرض ، واتصل خبر ابن سينا بشمس الدولة ، فعالجه « حتى شفاه الله » وأدى هذا إلى قيام علاقات جيدة بين ابن سينا وشمس الدولة ، إلى حد تكليف ابن سينا بالوزارة ، ومكث ابن سينا في منصبه فترة من الوقت انتهت بثورة الجند عليه ، فتوارى أربعين يوماً ، ثم أعيد إلى منصبه ثانية ، وفي سنة ١٠٢١ م توفي شمس الدولة ، فسافر ابن سينا سراً إلى أصفهان ، حيث استقبل باحترام ، وهنا مجدداً مرّ بما مرّ به في همذان من أدوار طبية وسياسية •

لقد نال ابن سينا خلال تقلبات الأحوال به خبرة واسعة خاصة في ميدان الطب ، واشتهر ابن سينا باقباله على الحياة والتمتع بما فيها من شراب وطعام وغير ذلك ، ولقد شغل ابن سينا نفسه في علاج الآخرين وأهمل نفسه ، فأصيب بالقولنج ، كما تعرض لنوبات من الصرع والصداع الشديد ، وحاول علاج نفسه بنفسه ، حتى أنه قرر أخيراً التوبة ، فتاب ورد المظالم وأعتق مماليكه ، وتصدق بأمواله ، واغتسل ، واعتكف للتعبد فكان يختم القرآن كل ثلاثة أيام ، وظل على هذا الحال إلى أن وافته المنية في همذان في العام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م ، عن سن دون الستين •

شهر ابن سينا بذكائه الخارق وعبقريته العظيمة ، ومهارته السياسية ، ولياقته الاجتماعية ، وكان شديد الثقة بنفسه ، مفرط النشاط والحيوية ، وكان غزير الانتاج ، رغم مشاغله السياسية والاجتماعية ورغم انغماسه في ملاذ الحياة •

لقد أحصي لابن سينا ما يزيد على المائتي مصنف [٢٤٣ ـــ ٢٧٦] بين ما وقع في مجلدات أو جاء على شكل رسائل ، والصفة الطاغية على مؤلفات ابن سينا الطب والفلسفة ، رغم أنه كان موسوعي المعرفة ناجحاً في جميع الميادين .

وعلى صعيد الفلسفة عدّ ابن سينا تلميذاً للفارابي مع أنه لم يلقه ، وتحدث ابن سينا عن نشوء علاقته بفكر الفارابي بقوله : « وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه ، والتبس عليّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين يوماً ، وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادي عليه ، فعرضه علي ، فرددته متبرماً ، معتقداً أن لا فائدة من هذا العلم ، فقال لي ، اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، واشتريته ، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت إلى بيتي ، وأسرعت قراءته ، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظاً علــى ظهر القلب ، وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى » .

وفي استعراض تعرفي لبعض مشاهير مصنفات ابن سينا نجد أن أشهر ما وصلنا منها :

١ ــ كتاب الشفاء : وهــو أشبه بموسوعة فلسفية ، جاء في أربعــة أقسام رئيسية : المنطق ــ الرياضيات ــ الالهيات ــ الطبيعيات .

٢ ــ كتاب النجاة : وهو مختصر لكتاب الشفاء ، وفي بعض الأماكن نقل حرفياً منه .

٣ ــ الاشارات والتنبيهات : وهو آخر ما صنفه ابن سينا في الحكمة ، ولعله أجوده، وجاءت مادة هذ االكتاب في ثلاثة أقسام : المنطق. والطبيعيات. والالهيات .

٤ ـ كتاب القانون في الطب : وهو مصنف ضخم جاء في خمسة أقسام رئيسية مع أقسام فرعية .

كان تأثير ابن سينا على عصره والعصور التالية حتى يومنا هذا كبيراً ، وخاصة في أوربة في العصور الوسطى ، فقد ترجمت كتبه الفلسفية والطبية واعتمدت قروناً طويلة وعليه فقد عدّ المعلم الثالث بعد الفارابي وأرسطو ، وفاقت قدرته قدرة الفارابي ، وكانت اللغة أداة مطواعة له ، ليس فيها خشونة وجفاف عبارة الفارابي ، وقد دون ابن سينا المنطق تدويناً واضحاً ، وتوسع في دراسة النفس وتعمق بشكل لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة المسلمين ، كما برع في الرياضيات وعلوم الهيئة ، وجميع أنواع الطب ، فلقد قرأت له منذ فترة وجيزة رسالة في فرع الطب النسائي جاء فيها باطروحات لم تعرفها أوربا إلاّ منذ قرابة القرن من الزمان .

وعرف ابن سينا في وقته باسم الشيخ الرئيس ، لأنه نظم الفلسفة وغيرها من العلوم ، واستطاع على الرغم من عدم استقرار عصره وحياته أن يقدم مالم يقدمه سواه ، وجاء انتاجه شهادة ودليلاً على درجة السمو التي وصلت إليها الحضارة العربية في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، وفي حياته وانتاجه نجد أن اضطراب السياسة لا يعطل مسيرة العطاء الحضاري ، بل على العكس من ذلك ، جرياً على قاعدة التحدي والاستجابة .

المعرّي

(ت : ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م)

بعد ما تمت أعمال الفتوحات العربية الكبرى في العصر الراشدي بنجاح تبدلت صورة العالم القديم بشكل جذري ، وذلك لأول مرة في تاريخ الانسانية ، حيث صارت الأراضي الواقعة شرقي نهر الفرات وغربيه تدار من قبل سلطة واحدة .

وانتهى العصر الراشدي ـ كما هو معلوم ـ بقيام الخلافة الأموية، وقد قامت هذه الخلافة باكمال حركة الفتوحات في آسية وأفريقية وأوربة ، ونقلت هذه الخلافة إلى البلدان المفتوحة المؤثرات العربية الاسلامية ، إنما تبعاً لمنطلقات ومواريث الحضارة الخاصة ببلاد الشام .

ومن المؤكد أن بلاد الشام قد كانت أول بلدان الوطن العربي في التاريخ تميزاً بالطابع العربي [يطلق عليه تجاوزا ـ السامي] ، وهكذا نلاحظ أنه منذ أيام عبد الملك بن مروان تم صنع انجازات كبيرة وواسعة التأثير ، فقد رسمت الدولة الأموية سياسة لتعريب الأمم والبلدان المفتوحة ، وأمر عبد الملك بن مروان بتعريب النقود والادارة والاقتصاد ، وتحدثنا المصادر المبكرة أنه في أيام عبد الملك أخذت أعداد كبيرة من سكان خراسان تتحول إلى الاسلام وتعمل على الاندماج مع العرب الفاتحين ، هؤلاء الذين بدورهم شرعوا في سكنى المدن وترك المعسكرات حول مرو وسواها .

وسارت عمليات الاندماج في كل مكان بنجاح ملحوظ ، وقد أخاف هذا التطور في خراسان « الدهاقين وورثة الاقطاع والكهنوت الساساني » وقاوموه مقاومة فعالة ، وبعدة وسائل ، عن طريق التثبيط ، والتسرب إلى الحركات الثورية المعارضة للنظام الأموي الشامي ، وعن طريق احداث

تنظيمات تهدف إلى الاطاحة بالخلافة الأموية ، ومع خلافة عمرو بن عبد العزيز قويت حركات الاندماج ، وأخـذت أشكال تيـارات جماهيرية ، وبالمقابل اشتدت حركات الدهاقين المعارضة ، وأحدث هؤلاء ما عرف باسم « الدعوة العباسية » وفي المصادر المبكرة رسائل قيل وجهت من ابراهيم الامام العباسي إلى أبي مسلم الخراساني ، تطلب منه أن لا يبقي على عربي في خراسان ، حتى وان كان رضيعاً •

ونجحت حركة الدهاقين في خراسـان ، وتمكنت من اسقاط الخلافـة الأموية ، وبذلك وجهت ضربة قاصمة لبـلاد الشام ، ولحركات التعريب ، وإقامة الأمة الجديدة التي خطط لها الاسلام ، وتسلط الأعاجم على الخلافة الجديدة ، ورافق ذلك قيام حركات الزندقة ورفض الاسلام مع الشعوبية •

وحاولت بلاد الشام سريعاً النهوض والتعافي من الضربة التي حلت بها ، ويمكننا أن نرى ذلك أولاً ، في ثورةعبد الله بن علي ضد أبي جعفر المنصور، ثم في أعمال أخرى ، فالرشيد عندما ضاق ذرعاً بتسلط الأعاجم استقر طويلاً في الرافقة ، والمأمون بعدما تخلص من مرو ثم من بغـداد استقر في شمالي بـلاد الشام ، وفي الثغور قضى نحبـه ، وعندما أراد المتوكل التخلص من المتحكمين الأتراك جاء إلى دمشق •

وأخفقت جميع هذه المحاولات ، لكن عندما تفككت أوصال الخلافة العباسية ، وظهرت الدول المستقلة ، سعت بلاد الشام نحو استعادة وحدتها وشخصيتها للقيام مجدداً بدورها المرسوم ، إنمـا حدث أن استقلت مصر الاسلامية فيمن استقر مبكراً ، وحاولت مصر ــ تنفيذاً لقواعد سياستها الخارجية الموروثة ــ أن تحتل بلاد الشام ، فنجحت بشكل عام في احتلال الجنوب والاحتفاظ به ، وأخفقت في الاحتفاظ بشمالي بلاد الشام مما أدى إلى زوال وحدة البلاد ، ودفع الشمال إلى الاستقلال •

وهكذا أخـذت المناطق الشمالية تسـعى للتعبير عن شخصيتها ، ومن الملاحظ أن هذا السعي ظهرت ملامحه الأولى بشكل اجتماعي واقتصادي

وثقافي وحضاري عام ، ثم فيما بعد بشكل سياسي ، تجلى في تأسيس الدولة الحمدانية في حلب ، ثم الدولة المرداسية فيها •

وحين نستعرض أهم المراكز الثقافية لشمالي الشام منذ القرن العاشر ، وحتى قدوم الحملة الصليبية الأولى، نرى اسم معرة النعمان يتصدرها جميعاً ، فقد شهدت هذه المدينة نشاطات ثقافية واقتصادية كبيرة وشاملة ، في ميادين الأدب والتاريخ ، والشعر ، والفلسفة وغير ذلك من ميادين ، فالمستعرض لكتب التراجم المبكرة والمتأخرة لبلدان شمالي بلاد الشام ، وخاصة كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » للصاحب كمال الدين ابن العديم تعتريه الدهشة لكثرة الشخصيات الثقافية التي تواجدت في المعرة ومنطقتها •

إنما حين تذكر المعرة ، وحيث يتم البحث في عطائها الثقافي والحضاري يبرز أمامنا عملاق الثقافة العربية ، شاعر المعرة وفيلسوفها « المعري » •

والمعري هو : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، ولد في معرة النعمان كما هو مرجح يوم الجمعة في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ [٢٦ كانون أول ٩٧٣ م] ، وكانت أسرته تعرف بآل المهذب وتنتسب إلى قبائل تنوخ العربية التي كانت تقطن المعرة ومنطقتها منذ ما قبل الفتح الاسلامي •

وأسرة آل المهذب كانت أسرة علم ووجاهة في المعرة ، فوالد المعري كان شاعراً وقد ولي القضاء وكانت أحواله المادية جيدة •

نشأ المعري في كنف والده ، وفي الثالثة من عمره أصابه مرض الجدري فأفقده بصره ، وترك على وجهه آثاراً دائمة ، ويروى أن المعري كان حين أصيب بالجدري يرتدي ثوباً أحمراً ، لذلك لم يذكر من الألوان غير هذا اللون •

أخذ المعري العلم أولاً على والده ثم على عدد من شيوخ المعرة ، ولعله زار مدينة حلب طلباً للعلم والعلماء أكثر من مرة ، وليس من المؤكد أنه زار

مناطق أخرى من الشام ، لكن موقع المعرة ونباهته ونوعية اهتماماته مكنه من لقاء عدد من العلماء والمثقفين الذين مثلوا الديانة المسيحية مع بعض الفرق الاسلامية ، آخذين بعين الاعتبار أن بلاد الشام كانت في عصر المعري تتبع فعلياً واسمياً الخلافة الفاطمية .

ومن المؤكد أن المعري قد قصد بغداد سنة ٣٩٧ هـ / ١٠٠٨ م ، حيث التقى بعلمائها وشيوخها ، فأخذ عنهم ، كما أنه أدهشهم بسعة معارفه ، وبحدة ذكائه ونباهته الفائقة ، وفي بغداد تيسرت للمعري خلال اقامة امتدت أكثر من عامين سماع متون عدد كبير من كتب الأدب والفلسفة وعلم الكلام والشعر وغير ذلك .

وفي طريق عودته إلى المعرة بلغه خبر وفاة والدته ، فأثر به ذلك كثيراً ، وبكاها بقصيدتين ، ومع عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، كان في المعرة ، حيث اعتكف في منزله ، ولم يغادره إلاّ مرة واحدة حين قابل صالح بن مرداس ، أثناء حصاره للمعرة ، وقد تشفع المعري ببلدته وأهلها ومعتقليها لدى صالح ، فقبل شفاعته ، وأطلق سراح المعتقلين .

وفيما عدا ذلك فقد ظل المعري رهين المحبسين ــ الدار والعمى ــ كما وصف نفسه ، ومن المعرة طارت شهرته ، وقصده الطلاب من كل جهة ، وحظي باحترام كبير ، فقد وقره أمراء آل مرداس وصانوا حرمته ، كما تمتع بكامل الحرية للتعبير عن أفكاره ، وللاملاء وتدوين ما شاء أن يدونه .

وكانت منزلة المعري في بلدته رفيعه جداً ، حتى أن الرحالة ناصر خسرو يجعله أشبه بسيد المعرة وحاكمها ، إنما على الرغم من وصف ناصر خسرو هذا فالمعري لم يجعل نفسه رهين المحبسين فقط ، وإنما فرّ من الدنيا وزهد بما فيها ، فأقلع عن الملذات ، ورفض أن يتزوج ، وكان لا يأكل إلاّ أبسط الأطعمة النباتية ، حيث حظر على نفسه اللحوم ، لهذا كانت نفقاته زهيدة جداً .

حصل المعري كمية هائلة من المعارف الموسوعية ، وملك قدرة كبيرة

على التعبير مع البلاغة ، ومع مقدرته النثرية نجده شاعراً يتقدم فحول الشعراء ، والذي اجتمع للمعري من مقدرة النثر والشعر لم يجتمع لغيره .

ولم يكن المعري مثل شعراء عصره وغيرهم من شعراء العربية ، فالشعر لديه كالنثر كان أداة للتعبير عن أفكاره وعلومه ، أو بعبارة أخرى صنف المعري عدداً كبيراً من الكتب بعضها أملاه نثراً والبعض الآخر أملاه شعراً ، وعلى هذا فالمعري كان أديب العربية ومثقفها الأكبر وفيلسوف الشعراء وشاعر الفلسفة العربية ، وسلوكية المعري وزهده مع نظرته التشاؤمية للحياة مارسها قولاً وفعلاً ، فهي جلية في كل مكان من كتاباته وشعره .

هذا وليس من السهل هنا تقديم قائمة بآثار أبي العلاء الشعرية والنثرية، مع وصف كل منها ، فقد كفانا مؤونة ذلك عدد من الأوائل أوفاهم مادة ابن العديم ، ففي المجلدات العشر المتبقية من كتابه « بغية الطلب » ترجمة طويلة للمعري مع اشارات متناثرة ، ثم إن ابن العديم وقف كتاباً دعاه « بالانصاف والتحري » للحديث عن المعري وأفكاره وآثاره وللدفاع عنه ، وتم العثور على قطعة من هذا الكتاب نشرت أولاً في حلب ثم في القاهرة ، ويوجد نسخة كاملة من الكتاب وصلتنا بشكل غير مباشر ضمن مصنف لحفيد لابن العديم تحت اسم « سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل » توجد نسخة منه في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت في المدينة المنورة ، ومنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات في القاهرة .

كان المعري رائداً في طرق عدد من الموضوعات ، مثلما فعل في كتابه رسالة الغفران ، فهو قد سبق دانتي بقرون ، كما تأكد أنه كان مصدره الموحي له لكتابه « الجحيم » . ولسوء الحظ لم يصلنا نتاج المعري الكامل ، ولعله يكفي هنا الاشارة إلى بعض مؤلفاته مثل :

١ ــ كتاب الأيك والغصون ، وهو دائرة معارف أدبية فلسفية قيل كان يقع في مائة مجلد .

٢ ــ معجز أحمد ، وهو شرح لديوان المتنبي .

٣ ــ ذكرى حبيب ، وهو شرح لديوان أبي تمام .

٤ ــ عبث الوليد ، وهو شرح لديوان البحتري •

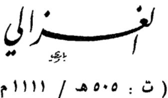
٥ ــ ديوان سقط الزند ، ولعله نظمه في شبابه •

٦ ــ ديوان لزوم مالا يلزم ، وفيه آراء المعري الفلسفية ، ونظرته إلى الحياة ، والكتاب معجزة شعرية ، وعمل فني رائع ، فقد نظمه المعري ملتزما بالحرفين بالقافية وأحياناً بالثلاثة أحرف ، مدللاً على براعة لغوية فائقة •

٧ ــ الفصول والغايات ، ويبدو أنه كان رائع العرض والأفكار ، إلى حد أن بعض الناس قال بأن المعري قد وضعه ليعارض به القرآن الكريم •

وإذا كان من المتعذر متابعة الحديث عن بقية كتب المعري، فجدير بالذكر أن أفكار المعري وفلسفته أثارت حوله أراء متباينة ، خاصة بعد وفاته ، حتى أن البعض ذهب إلى الطعن في عقيدته واتهامه بالزندقة حينا وبالكفر حيناً آخر ، ومن المدهش أن معاصري المعري لم يوجهوا له مثل هذه التهم ، ولعل مرد هذا إلى أن عصر المعري لم يعرف التعصب والطغيان ، بل عاش الناس فيه بحرية مطلقة ، لكن ــ كما أوضحت بالتفصيل في كتابي مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ــ تعرضت بلاد الشام في أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م لموجتين بربريتين هما : التركمان أولاً ، ثم الفرنجة الصليبيون ثانياً ، فلقد حمل التركمان معهم إلى الشام تخلفهم الحضاري مع روح خراسان المعادية للشام مع سيف التعصب الديني الأعمى ، فدمروا أصول الحضارة العربية ، مما جعل الناس بعد ذلك يرمون المعري بمختلف التهم ؛ وبعد التركمان جاء الصليبيون فدمروا المعرة دماراً كلياً ، مما أخر ثانية عودة ظهور شخصية الشام العربية •

وختاماً إننا نرى في حياة المعري مثلاً يشهد على ما وصلت إليه الحضارة العربية في الشام في القرن الخامس ، ونرى في سيرته مدى الحرية التي تمتع بها المفكرون العرب عندما أدار شؤونهم حكام عرب أحرار ، فنجم حضارة العرب في الشام يشرق عالياً عندما تسود روح العروبة وينعدم التعصب والطغيان •



(ت : ٥٠٥ هـ / ١١١١م)

مرت الخلافة الفاطمية منذ أواخر القرن الرابع للهجرة بعدد من الأزمات العاصفة عقائدياً واقتصادياً وسياسياً ، وهكذا فإن حالة التحكم بمسارات الفكر الاسلامي التي تمتعت بها العقيدة الاسماعيلية لقرابة قرنين سابقين بدأت تتغير، وشهدت المناطق الشرقية من ديار الخلافة العباسية مع بعض أجزاء العراق نهضة ، أو انبعاثاً اسلامياً جديداً ، معادياً للاسماعيلية بشدة مستفيداً عظيم الفوائد من تجارب هذه العقيدة بالدعوة والتبشير .

وساعد على هذا الانبعاث قيام السلطنة السلجوقية ، فقد رست مقاليد أمور هذه السلطنة الفعلية بيد وزراء من أصل ايراني ، تمتعوا بقسط وافر من الحنكة والعبقرية التنظيمية ، وتصدر هؤلاء جميعاً نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ، حيث أسس المدرسة النظامية ، وجعل لها فروعاً في كثير من المدن والمناطق ، وأوكل لهذه المدرسة مهاماً تشبه إلى حد كبير المهام التي أوكلتها الدعوة الاسماعيلية إلى « الأزهر » بعد الاستقرار في القاهرة .

ومرّ العمل الدعوي والتدريس في النظامية المركزية ببغداد بعدة مراحل، أهمها المرحلة التي سيطر فيها الفكر الأشعري ، وقام بالتدريس في هذه المدرسة عدد من كبار العلماء كان الغزالي أوسعهم تأثيراً وأعظمهم شهرة .

والغزالي هو : أبو حامد محمد بن أحمد الغزالي ، ولد كما هو مرجح سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م في مدينة طوس [مشهد الحالية في ايران] وكان أبوه فقيراً فقيهاً من سكان طوس ، عمل في غزل الصوف ، فقيل له « الغزّال » وقيل لابنه تبعاً لذلك « الغزّالي » .

ودفع بعض الباحثين هـذه المقولة ، وقـال : « الغزالي » « بتخفيف الزاي » نسبة إلى قريـة غزالة احدى قرى منطقـة طوس ، ومرجح لدي التشديد ، فهكذا رأيته في عدد من المخطوطات ، خاصة في كتاب بغية الطلب بخط ابن العديم .

ومهما يكن الحال ، كان والد الغزالي دائم التردد على مجالس الفقهاء وعلماء الكلام وقد تولع بذلك ، ولشدة ولعه تمنى على الله أن يرزقه ولداً يجعله فقيهاً متكلماً واعظاً .

واستجاب الله دعوة الرجل الصالح فرزقه ولده محمداً ، ولكن لم يمتعه برؤيته كما تمنى فقد توفي وولده محمد مع أخيه أحمد لم يشتد عودهما ، وقبل وفاته عهد بهما إلى واحد من أصدقائه المتصوفة ، وأوصاه برعايتهما والسهر على تعليمهما ، وقام الرجل بما عهد إليه ، ولكن نظراً لضيق ما في يديه اضطر لدفعهما إلى المدارس العامة ، ولم يتمكن من اختيار الاساتذة ووقفهم على تعليمهما .

واستفاد الغزالي من مجموعة المدارس النظامية في طوس وجرجان ونيسابور ، فدرس علوم اللغة العربية وأتقن في نفس الوقت الفارسية ، وتعمق بالفقه وعلوم الاسلام ، وفي نيسابور التحق بالجويني أمام الحرمين ولازمه ، وكان الامام الجويني شافعياً مثله مثل نظام الملك ، متعصباً لهذا المذهب ، كما كان أعظم علماء عصره قاطبة ، وتأثر الغزالي بالجويني كثيراً ، وغدا مثله شافعياً ، وظل يلازمه من العام ٤٧٣ وحتى ٤٧٨ هـ سنة وفاته ، ولما كان الجويني أكبر علماء النظامية ، وثيق الصلات بنظام الملك ، والتقدم الغزالي على سائر تلاميذه ، فقد رشح الغزالي لخلافته ، وهذا ما كان .

بعد وفاة الجويني يمم الغزالي شطر بغداد ، فالتحق بالمدرسة النظامية حيث عهد إليه بمهام التدريس ، كما شرع بالتصنيف والرد على العقيدة الاسماعيلية وسواها ، ونجح بذلك نجاحاً كبيراً ، مما أكسبه مكانة سامية بين علماء عصره وشهرة كبيرة .

وكان الغزالي صاحب ذاكرة قوية ، حفظ عن ظهر قلب عدداً من متون الكتب ويروى أن سبب لجوئه إلى طريقة الحفظ ــ لكن مع الاستيعاب ــ أنه كان مسافراً من جرجان إلى طوس « فقطع عليه الطريق ، وأخذ تعليقه ، فقال لمقدم قطاع الطريق : ردوا عليّ تعليقي، فقال: وما التعليقة؟ قال: مخلاة فيها كتب علمي ، وقصصت عليه قصتي ، فقال لي : كيف تعلمت ، وأنت تأخذ هذه المخلاة تتجرد من علمك ، وبقيت بلا علم ؟ وردّها عليّ ، فقلت هـذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني لأمري ، قال : فدخلت طوس ، وأقبلت على أمري ثلاث سنين ، حتى تحفظت جميع ما علقت ، فصرت بحيث لو قطع الطريق لا أحرم من علمي » .

كان الغزالي شديد الحساسية ، سريع الانفعال عاطفياً ، وكان قد تزوج وأنجب ولداً ذكراً سماه « حامداً » وثلاث بنات ، وقد توفي حامد وهو في الثالثة من عمره ، فأثر به فقدانه تأثيراً عظيماً .

ولم يكن الوضع في بغداد عامـة وداخل ادارة السلطنة السلجوقيـة وبالتالي المدرسة النظامية خلواً من المشاكل ، بل عج بالدسائس والصراعات المختلفة ، وآذى هذا كله الغزالي نفسياً ، ونما لديه حب العزلة والتقشف ، وتطور هذا إلى أزمة نفسية حادة ، لذلك هجـر الغزالي بغداد سنة ٤٨٦ هـ على نية الحج ، إنما يمـم شطر دمشق ، ومكث الغزالي معتكفاً في دمشق عامين ، ويروى أنه اعتكف في المأذنة الشمالية للجامع الأموي ، وبعد ذلك غادر دمشق سائحاً في الأرض ، فزار القدس ، وربما ذهب إلى مصر فزار الاسكندرية والقاهرة ، وزار الأراضي المقدسة فقضى فرضـه وعاد بعدها إلى بغداد .

وقـد شرح الغزالي ما مرّ بـه خـلال خمس سنوات من الاعتكاف والسياحة مع أوضاعه النفسية الداخلية في كتابـه « المنقذ من الضلال » ، فقد تحول نحو التصوف ، ولحسن الحظ أننا نملك وصفاً وثائقياً لأحوال الغزالي إثر عودته إلى بغداد ، مع أثر تحوله إلى التصوف على معاصريه ،

وقدم لنا هذا الوصف أبو بكر بن العربي في كتابه « ترتيب الرحلة » وكتاب « العواصم من القواصم »وكتبه الأخرى، يقول أبو بكر : ولقد فاوضت ... أبا حامد الغزالي ، حين لقائي له بمدينة السلام في جمادى الأولى سنة تسعين وأربعمائة ، وقد كان راض نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام ، وتجرد لها ، واصطحب مع العزلة ، ونبذ كل فرقة » وبعد مفاوضة رضي الغزالي بالاجتماع بأبي بكر ، الذي قرأ « عليه جملة من كتبه ، وسمعت كتابه الذي سماه « الاحياء لعلوم الدين » فسألته سؤال المسترشد عن عقيدته ، المستكشف عن طريقته ، لأقف من منتهى تلك الرموز ، التي أومأ إليها في كتبه ، على موقف تام المعرفة ، وطفق يجاوبني مجاوبة الناهج لطريق التسديد للمريد ، لعظيم مرتبتــه ، وسمو منزلته ، وما ثبت له في النفوس من تكرمته ، فقال لي من لفظه ، وكتب لي بخطه : إن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس ، وتجــرد للمعقول انكشفت له الحقائق ، وهذه أمور لا تدرك إلاّ بالتجربة لها عند أربابهــا بالكون معهم والصحبة لهم ، ويرشد إليه طريق من النظر ، وهو أن القلب جوهر صقيل مستعد لتجلى المعلومات فيه ، عند مقابلتها عريا عن الحجب ، كالمرآة في ترائي المحسوسات عند زوال الحجب ، من صدأ لائط ، أو ستر من ثوب أو حائط ، لكنه بتراكم الآفات عليه يصدأ حتى لا يتجلى فيه شيء ، أو يتجلى معلوم دون معلوم ، بحسب مواراة الحجاب له ، من ازورار ، أو كثافة ، أو شقف ، فيتخيل فيها مخيلة ، غير متجلية ، كأنه ينظر من وراء شغف .... قال لي : وقــد تقوى النفوس ويصفو القلب حتى تؤثــر في العوالم ، فــإن للنفس قوة تأثيرية موجدة ... وقد تزيــد قوتها بصفائها واستعدادها ، فتعتقد انزال الغيث ، وانبات النبات ، ونحو ذلك من معجزات خارقات للعادات » .

ولم يرق هذا الكلام لابن العربي ، كما أنه لم يقنع به تماماً ، وأسف لتحول الامام الغزالي ، فها هو يقول : « وقد كان أبو حامد تاجاً في هامــة الليالي ، وعقــداً في لبة المعالي ، حتى أوغــل في التصوف ، وأكثر معهم

التصرف ، فخرج عن الحقيقة ، وحـاد في أكثر أحواله عن الطريقة ، وجـاء بألفاظ لا تطاق ، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق ، فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الاسلام فيه عين،فإذا ذكروه جعلوه فيحيز العدم، وقرعوا عليه السن من ندم ، وقاموا في التأسف عليه على قدم ، فإذا لقيته رأيت رجلاً قد علا في نفسه ، ابن وقته ، لا يبالي بغده ولا أمسه ، فواحسرتي عليه أي شخص أفسد من ذاته ، وأي علم خلط » .

ويبدو أن الغزالي لم يمكث في بغداد طويلاً ، ولعله عـاود السياحة والحج ، وظل هكذا حتى سنة ٤٩٩ هـ حيث عاد إلى نيسابور للتدريس فيها ثانية ، وبعد مكوثه فيها عدة سنوات عاد سنة ٥٠٣ إلى مدينته طوس ، ولم يبرحها ، فقد اتخذ بجوار داره مدرسة ومأوى للفقراء ، وظل يدرس ويعظ حتى وافته منيته سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م .

كان الغزالي بحياته المتميزة الزاخرة فيلسوفاً وفقيهاً وصوفياً ، ومصلحاً اجتماعياً ودينياً ، ومخططاً سياسياً ، كان له أثره الكبير قبل تصوفه وبعـد تصوفه ، كما أنه كان غزير الانتاج جيده ومتنوعه بالعربية والفارسية ، وقد قيل بأنه صنف ما يربو على أربعمائة مصنف كبير ورسالة ، ويمكن تقسيم مصنفاته إلى قسمين من حيث زمن التأليف لا من حيث الموضوع والأهمية ، قسم كتبه قبل التصوف والآخر بعد التصوف .

والذي كتبه قبل التصوف ، قام به في مرحلة النظامية تماشياً مع خططها وسياسة الدولة الدينيةالعامة،فبعد قيام الحركة الاسماعيلية الجديدةفي ايران، كلفه السلطان السلجوقي بتصنيف كتاب في الرد على الاسماعيليـة ، فصنف له كتاباً سماه « حجة الحق في الرد على الباطنية » بالعجمية ، وكلفه الخليفة أن يضع له في ذلك شيئاً ، فأرسل إليه كتاباً سماه « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » في كشف أعوارهم وهتك أستارهم ، وتبيين عوارهم ، ورأى أن الطلبة يحتاجون في نفس الموضوع الى كتاب مختصر ، فصنف لهم رسالة « قواصم الباطنية » .

وصنف في الرد على الفلاسفة وسواهم (« تهافت الفلاسفة » ظهرت فيه متنه ووضحت في درج المعارف مرتبته) وكتاب « القسطاس » .

ومن أهم ما صنف في المرحلة الثانية : « معيار العلم » وقد كتبه في بداية هذه المرحلة ، رد فيه على الفلاسفة عن « طريق المنطق ، فزينه بالأمثلة الفقهية والكلامية » . وكتاب « احياء علوم الدين » وهو أشهر كتب الغزالي وأبعدها أثراً ، جاء في أربع مجلدات ، تناول فيها : العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات ، وقد اختصر الغزالي هذا الكتاب مراراً ، كما اختصره سواه . وكتاب « مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار » ، وموضوع هذا الكتاب مرتبط بتفسير الآية الكريمة « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » [النور : ٣٥] . وكتاب « المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال » ، وهذا الكتاب هو قصة الحياة الفكرية للغزالي مع صورة النزاع النفسي الداخلي المستمر والبحث الدائب عن الحقيقة والتماس المعرفة لديه ، وقد نال هذا الكتاب عناية من قبل الدارسين حيث وجدوا فيه « نظرية غزالية فلسفية كاملة » .

وفي الجانب السياسي كان كتاب الغزالي « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » الذي كتبه بالفارسية من أهم الكتب في بابه ، فتأثيره واضح على كتاب « سياسة نامة » المنسوب لنظام الملك وعلى السلوكية السياسية لدول المشرق الاسلامي منذ العصر السلجوقي وحتى نهاية العصر العثماني . كما كتب في مجال التربية رسالة صغيرة بعنوان : « أيها الولد » ترجمت حديثاً إلى الانكليزية والفرنسية ، وقد نصح بها الناشئة أن يطلبوا العلم لاحياء الشريعة وتهذيب الأخلاق ، لا لنيل أغراض الدنيا .

يعتمد الغزالي في كتابه اسلوب الخطابات ، ويكثر الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، وهنا نراه يتحلل من قيود المحدثين فيأتي بالضعيف والموضوع وغير ذلك ، وهو في اسلوبه سهل العبارة واضحها ، بعيد عن التعقيد صادق

اللهجة جياش العاطفة ، صاحب خيال رائع مبدع ، فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة تخلب العقول وتمتع النفوس •

لقد دافــع الغزالي عن الاسلام ، فاعتبر حجته ، وهو يعــد من أعظم الفلاسفة العرب ، وكبير رجال علماء الكلام المسلمين ، وفي عمله الفلسفي يرى أن البحث عن الحقيقة يبدأ من الشك الذي يقود نحو اليقين وليس نحو الرفض •

أبو مدين الغوث

(ت : ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م)

صيغت شخصية المغرب العربي الكبير ، في إطار الاسلام العام ، وحدث ذلك عبر عدة مراحل ، وبوساطة عدة قوى ومؤسسات ، فبعدما فتح العرب الشمال الافريقي ، دخل سكانه في الإسلام ، وبالتالي في التاريخ ، ثم أخذوا يعبرون عن شخصيتهم ورغباتهم بوسائل إسلامية كان منها عقائد الخوارج ، والمالكية، والتشيع المعتدل والمتطرف، والاعتزال، وجاء ذلك بصورة ثورات كثيرة ، ومحاولات لتأسيس الملك ، ونشاط دعوي ، أو تجاري ، وغير ذلك كثير ...

وفي البداية كانت المساجد أهم مراكز الدعوة ، إنما حين تذكر المساجد كمراكز للدعوة يذكر إلى جانبها أولاً الرباطات ثم الزوايا ، فالمغرب بسواحله الطويلة للغاية القائمة على المتوسط والأطلسي ، كان دائماً عرضة للخطر عبر البحر ، وكما حدث في المشرق، حيث أقام المسلمون أماكن للمرابطة على السواحل لصد أي عدوان ، فقد انتقلت التجربة إلى المغرب ، ومن الملاحظ أن غالبية الذين رابطوا كانوا من المتطوعة ، حيث كانوا يبتغون الجهاد في سبيل الله ، وكثير منهم فر إلى المرابطة من جور السلطان ، أو اغراءات التوظيف ، لذلك عاش بين المرابطين عدد من كبار العلماء وعرفت مجتمعات المرابطين حركة علمية كانت وثيقة الصلات بالزهد والتقشف ، والمثالية ، والخشونة والبراءة ، ونمت تجربة الرباطات في المغرب نمواً كبيراً خاصة في السواحل المتوسطية ، وشغلت دوراً كبيراً للغاية حتى قيام الخلافة الفاطمية ، حيث دفعت إلى السواحل الأطلسية ، كما نقلت التجربة من الثغور الساحلية إلى الثغور الداخلية ، وصار الرباط عبارة عن مؤسسة عسكرية ـ

مدنية أفرادها يشغلون وقتهم في رصـد السواحل والحراسة ، مع التعبد والخلوة والتعلم ، ونسخ الكتب ، ولهذا فإن الدور الثقافي للرباطات كبير للغـاية .

ومعلوم أن العالم الاسلامي تعرض في القرنين الثاني والثالث لأزمات كبيرة ، استغلها السبعية مع حركات الفرق الأخرى ، وفي أواخر القرن الثالث تم إقامة الخلافة الفاطمية ، لكن منذ القرن الخامس ، أو قبل ذلك ، حدثت استفاقة سنية نشطة وتراجعت قوى الخلافـة الفاطمية وأصيبت بانتكاسات خطيرة ، ووضح هذا كله في تاريخ الدولة الغزنوية ، وتجلى في قيام السلطنة السلجوقية ، وتأسيس المدرسة النظامية في بغداد .

ومرت هذه الاستفاقة بعدة مراحل ، كانت أولاها بسيطة ، فيها شيء من التزمت ، لهذا عادت الحركات الفكرية حتى حركة الأشاعرة منها ، لكن هذه المرحلة لم تدم طويلاً ، وانتصرت حركة الأشاعرة ممزوجـة بالتصوف ، وسيطرت على الفكر الإسلامي بكافة اتجاهاته ..

وعلى صعيد الغرب الإسلامي كان من نتائج المرحلة الأولى قيام دولة المرابطين، ومن نتائج المرحلة التالية قيام الدولة الموحدية ، وجاء ذلك انتصاراً لكتاب أحياء علوم الدين للغزالي ، وفاتحة عهد إسلامي جديد فقـد زالت الرباطات ، وأخذت زوايا الصوفية تحل محلها ، وقامت هـذه الزوايا بدور كبير على صعيد الشمال الأفريقي بشكل خاص، وعلى صعيد الدعوة الاسلامية في أفريقية بشكل عام .

والبحث في هذا الموضوع هام ومثير، ويكفينا هنا طرق بابه ، والتعريف بأحد رواد حركة التصوف وهو الغوث أبو مدين ، وهو شعيب بن الحسين ــ وقيل الحسن ــ الأندلسي ، ولد في الأندلس ، ربما في العقد الثاني من القرن السادس ، وتعلق في بداية حياته ببعض المتصوفة ، ثم سافر إلى المغرب

الأقصى ، والتحق بسبته ثم بمراكش التـي غادرها إلى فاس مركز العلم والعلماء .

وفي فاس أخذ أبو مدين على شيوخها علم الطريقة وعلم الحقيقة ، ويبدو أن إقامته في فاس طالت ، وهناك تكوّن صوفياً وتدرب أفضـل تدريب ، ويذكر أنه توجه حاجاً إلى مكة« فتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجيلاني، فقرأ عليه في الحرم الشريف ، كثيراً من الحديث ، وألبسه خرقة الصوفية ، وأودعه كثيراً من أسراره ، وحلاه بملابس أنواره » .

وعقب عودة أبو مدين إلى المغرب ذاعت شهرته ، وقصـده المريدون وترقى إلى مرتبة الولاية ، وكان في مجالسه يقرأ الحديث ، ويعظ ويرشد ، وقد وصفه أحد معاصريه بقوله : « كان زاهداً فاضلاً ، عارفاً بالله تعالى ، قد خاض من الأحوال بحاراً ، ونال من المعـارف أسراراً ، وخصوصاً مقام التوكل ، لا يشق فيه غباره ، ولا تجهل آثاره وكان مبسوطاً بالعلم ، مقبوضاً بالمراقبة ، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى » ، ومما حفظ من أحاديثه قوله : « بسر حياته ظهرت حياتي ، وبنور صفاته استنارت صفاتي، وبديمومته دامت مملكتي ، وفي توحيده أفنيت همتي ، فسر التوحيد في قوله : لا إله إلا أنا ، والوجود بأسره حرف جاء لمعنى وبالمعنى ظهرت الحروف ، وبصفاته اتصف كل موصوف ، وباسمه ائتلف كل مألوف فمصنوعاته له محكمة، ومخلوقاته له مسلمة لأنه خالقها ومظهرها ، ومنه مبدأها وإليه مرجعها » .

ويبدو أن نشاط أبي مدين أغضب الادارة الموحدية وأخافها ، حتى همت بإيقاع الشر به ، فاضطر إلى مغادرة المغرب الأقصى إلى المغرب الأوسط فاستقر في بجاية، فازدادت شهرته، وكثر قصاده، وهنا رفع أمره إلى يعقوب المنصور الموحدي ، وقيل انه « يخاف منه على دولتكم ، فإن له شبهاً بالإمام المهدي ـ ابن تومرت ـ وأتباعه كثيرون في كل بلد ، فوقع في قلبه ، وأهمه شأنه ، فبعث إليه في القدوم عليه » .

لكن أبا مدين لم يتوجه إلى مراكش ، بل ذهب إلى تلمسان ، وفيها توفي سنة ٥٩٤ هـ ، فحمل إلى منطقة العباد ، خارج المدينة ، وقد عرفت هذه المنطقة بهذه التسمية لكثرة من دفن بها من « الأولياء » .

وكان لدفن أبي مدين في تلمسان أثر كبير للغاية على تاريخ هذه المدينة ، وعلى تكوين شخصية الجزائر التاريخية عبر العصور الماضية والحاضرة أيضاً.

ابن رشد

(ت : ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م)

عرفت بلاد الأندلس في ظل الخلافة الأموية حضارة زاهرة متطورة ، فعندما سقطت هذه الخلافة وحل محلها دول الطوائف استمرت سوق العلم والعلماء رائجة ، ولم تتعطل هذه السوق بعد قيام الدولة المرابطية ثم الخلافة الموحدية ، كل ما في الأمر أن مركز النشاط السياسي صار مدينة مراكش وغدت الأندلس ولاية من ولايات دولة المغرب الأقصى .

ومعلوم أن دولة المرابطين جاءت وليدة حركة دينية نشطت بين صفوف قبائل لمتونة في الصحراء الكبرى ، كما أن دولة الموحدين قامت نتيجة للحركة الدينية التي أسسها وقادها المهدي بن تومرت ، والمتتبع لأخبار حركة ابن تومرت يلاحظ أنها حاولت أن تثبت وجود علاقات عضوية أساسية بين ابن تومرت والامام الغزالي ، وعليه كان للامام الغزالي مكانة سامية لدى الموحدين .

ودولة الموحدين كانت دولة عقائدية ، شغل فيها رجال الدين الذين تخرجوا على تعاليم ابن تومرت دوراً حاسماً وفعالاً ، وكان الخلفاء كثيراً ما يجدون أنفسهم مجبرين على مسايرة هؤلاء الرجال وارضائهم .

ولقد اختلف مجتمع الأندلس عن مجتمع المغرب ، فالأندلس بلد مصقول حضارياً ، وفي المقابل كان مجتمع المغرب قبلياً جافاً ، وخاصة في مراكش حاضرة الموحدين ، وسيطرت على هذا المجتمع قبل الموحدين روح التعصب المالكية ، وبقيام حركة ابن تومرت ارتفعت درجات التعصب ارتفاعاً كبيراً ، وتميزت بروح البطش بلا هوادة وسفك الدماء أمام أدنى تهمة ، فتاريخ الموحدين على جلالته يظل موصوماً بحمامات دم « التميز » المشهورة .

كان لا مندوحة أمامنا من تقديم هذه المقدمة قبل الحديث عن ابن رشد الفيلسوف والفقيه الواسع الشهرة ، ذلك أن حياته ترتبط بتاريخ وأحداث وسياسة بلاط الموحدين في مراكش .

فقد ولد أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، وقرطبة كانت حتى قيام حكم دول الطوائف حاضرة الأندلس سياسياً وحضارياً وثقافياً واجتماعياً ، وقد فقدت فيما بعد مكانتها السياسية وإن ظلت محافظة على وضعها الثقافي وسموها الحضاري .

وابن رشد سليل أسرة عالية المكانة في الأندلس ، شهر عدد من رجالاتها بالفقه والعلم، فجد ابن رشد كان قاضياً صنف بالفقه وله فتاوى بنوازل عصره ذات مكانة عالية ، وتسلم والد ابن رشد أيضاً القضاء ، لكن لما شهر به جده ، ولما حظي به من مكانة وكيما يميز عنه يضاف إليه في العادة عبارة « الحفيد » ويضاف إلى جده في نفس الوقت عبارة « الجد » .

في قرطبة نشأ ابن رشد ، وهناك نال علومه ، وبحكم تخصص أسرته فقد درس الفقه المالكي وألمّ بالمعارف الاسلامية ، وهذا ما هيأه لتسلم القضاء فيما بعد ، واهتم ابن رشد أيضاً بعلم الكلام حسب قواعد الأشاعرة وشغف بالفلسفة ، كما تعلم الطب ، ويروى بأنه تتلمذ على كبار علماء عصره من كبار الفلاسفة ، يتقدمهم ابن الطفيل وابن باجة .

وفي الأندلس ذاعت شهرة ابن رشد الحفيد وانتقلت إلى عدوة المغرب ، ذلك أنه قام بالتصنيف والتعليم ، وآمن بمبدأ التعاون ، فقد اتفق مع أبي مروان بن زهر على تصنيف كتاب بالطب ، يضع ابن رشد الجانب النظري منه ، وابن زهر الجانب التطبيقي ، وتبعاً لهذا وتنفيذاً له أخرجا كتاب « الكليات » .

وبحكم مكانته وعمله تردد ابن رشد على البلاط الموحدي أثناء وجوده في الأندلس ، كما زار مراكش أكثر من مرة .

ويروى أن ابن الطفيل قدّم ابن رشـد للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، أثناء وجوده في الأندلس سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م ، وأعجب الخليفة بابن رشد وكلفه عن طريق ابن الطفيل بتلخيص كتب أرسطو وتقريب أغراضها ومعانيها ، فقام ابن رشد بذلك خير قيام ، وعلت مكانة ابن رشد لدى الخليفة فعينه قاضياً على اشبيلية سنة ٤٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، وبعد عامين جعله قاضياً لقرطبة ، وكل هذا يفيد أن ابن رشد لـم يلتحق بالبلاط الموحدي في المغرب ، بل ظل في الأندلس •

وفي العام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م توفي أبو يعقوب فخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور ، أعظم خلفاء الموحدين وأعلاهم مكانة وأوسعهم شهرة ، ففي أيام هذ االخليفة صار ابن رشد واحداً من رجالات البلاط وأصبح « سلطان العقول والأفكار ، لا رأي إلاّ رأيه ولا قول إلاّ قوله » وظل حاله هكذا حتى سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م حيث انقلب الحال به رأساً على عقب، فنكب، واعتقل ونفي إلى بلدة « إليسانه » قرب قرطبة ، وكان جل أهلها يهود ، ذلك أن ابن رشد اتهم في دينه ونسبه ، وطعن في عقيدته وصودرت كتبه وأحرقت •

واختلف في أسباب ذلك ، فقد جمع الخليفة الفقهاء ، فامتحنوا ابن رشد فقرروا أن تعاليمه كفر محض ، ولعنوا من يقرأهـا ، وقضوا على صاحبها بالنفي ، فنفي، وقيل: إن سبب نقمة الخليفة على ابن رشد، أن ابن رشد اعتاد مخاطبته بغير كلفة، فلم يرق ذلك للمنصور وحاشيته فتألب عليه، وقيل : لا بل سبب الغضب هو أن ابن رشد ذكر المنصور الموحدي في كتابه « الحيوان » فلقبه بملك البربر ، وقيل لا بل حكى ابن رشد في أحد كتبه عن بعض قدماء الفلاسفة « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآله » •

قد يكون هذا ما أعلن ، لكن ليس حقيقة الحال ، ففي بلاط كان يعج بالفقهاء والفلاسفة ، أثيرت قضايا كثيرة منها أراء الغزالي ، ومعلوم أن ابن رشد كان يعارض آراء الامام الغزالي ، ونقضها في كتابه تهافت التهافت ، كما يستدل من بعض الاشارات التاريخية الأخرى أن قضية عصمة المهدي بن

تومرت أثيرت أكثر من مرة ، وكان موقف ابن رشد كما هو بديهي عـدم الايمان بالعصمة ، وأن المنصور الموحـدي وافق على ذلك حتى « هم أن يصدع » بذلك « فلم يساعده لذلك أمله » ، فقد كانت المعارضة قوية ، ولذلك تراجع المنصور ، وانتصر الفقهاء ، فقرروا الايقاع بابن رشد وسواه من الفلاسفة ، لقد تقرر اعدام ابن رشد ، ولكن المنصور تحمل مسؤوليته ، فقرر الاكتفاء بالنفي ، ولكن إلى حين •

فما أن هدأت العاصفة حتى قام في العام ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م برد الاعتبار لابن رشد ، لكن ابن رشد لم يعد إلى البلاط ، وانقطع عن النشاطات العامة ، وآثر الانزواء حتى أنه توفي في نفس العام عن عمر ناهز الثانية والسبعين ، وحصلت وفاته في مدينة مراكش ، فدفن أولاً في مراكش ، ثم نقل بعد ثلاثة أشهر إلى قرطبة حيث مدفن أسرته •

شهر ابن رشد باستقامته وصدقه ، وبعده عن الرياء والتملق ، وبحكم عمله بالقضاء وعقيدته وعقله رأى المساواة بين الناس في المعاملة والمجاملة، لذلك لا غرابة إذا نادى الخليفة بعبارة « يا أخي » فهو « لم ينشأ بالأندلس مثله كمالاً وعلماً وفضلاً، وكان على شرفه أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً » •

ولم يذكر عن ابن رشد انغماسه في حياة اللهو والطرب ، كما أنه كان يتحرج في اصدار أحكام الموت أثناء عمله في القضاء ، وعني ابن رشد بالعلم عناية فائقة ، فقد كان من أعلى رجالات التاريخ الاسلامي ثقافـة وأعمقهم معرفة ، وأخصبهم انتاجاً ، ففي فهرس مخطوط في الاسكوريال عد لابن رشد ثمانية وسبعين كتاباً ورسالة ، وصلنا قليل منها ، بعضها طبع وجلهـا ما زال مخطوطاً ، هذا ويمكن تقسيم نتاج ابن رشد إلى قسمين :

١ ــ شروح وملخصات وجوامع •

٢ ــ أعمال مبتكرة •

وأهم كتب المجموعة الأولى مصنفات لخص بها عدة كتب لأرسطو كما

لخص جمهورية أفلاطون ، وكتاب المجسطي لبطليموس وبعض كتب ابن سينا والغزالي ، أما أهم أعماله المبتكرة : فكانت « تهافت التهافت » الذي نقض فيه كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالي ، وكتاب « فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » مع رسائل في علم النفس وردود على ابن سينا ، وكتاب الكليات في الطب ، الذي سلفت الاشارة إليه ،وكتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » في الفقه المالكي .

تأثر ابن رشد في فلسفته بأرسطو ، فهو رغم عدم معرفته بالاغريقية ، كان أعظم شارحي أرسطو ، وتأثره بأرسطو لا يعني أنه تابعه على جميع آرائه ووافقه عليها ، بل خالفه في كثير من المواقف ، وعارضه في أماكن أخرى ، ومع أرسطو تأثر ابن رشد بالفارابي ، وأخذ بمذهبه في التوفيق بين الفلسفة والشريعة ، على أساس مسلمة [ليست بمسلمة] أن الشريعة حق والفلسفة حق ، ولا خلاف بين حق وحق .

يقول ابن رشد حول هذا الموضوع : « وإذا كانت هذه الشريعة حقاً ، وداعية إلى النظر المؤدي معرفة الحق ، فإنّا معشر المسلمين نعلم على القطع ، أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد بـه الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » .

ورأى ابن رشد أن العمل في الفلسفة أمر يوافق الشريعة وهـو مباح مندوب إليه ، لنسمعه يقول : « إن كان فعل الفلسفة ليس شيئاً أكثر من النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، أعني من جهة ما هي مصنوعات ، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعتها ، وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم ، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات ، وحث على ذلك ، فبيِّن أن ما يدل عليه هذا الاسم إما : واجب بالشرع ، وإما مندوب إليه .

وأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل ، وتطلب معرفتها

بــه ، فذلك بيّن في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولــي الأبصار » وهذا نص علــى وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معا ، ومثل قوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » وهذا نص بالحث على النظر على جميع الموجودات » •

إن الحديث عن جوانب فلسفة ابن رشد في هذا المقام محال ، لهــذا نكتفي بالاشارة إلى أن ابن رشد كان عظيم التأثير على عالم العصور الوسطى في أوربة الغربية ، فقد ترجمت كتبــه ودرست من العلمانيين ورجال الدين سواء ، وأثر ابن رشد على اللاهوت المسيحي شديد الوضوح ، وفي العصر الحديث استمر الاهتمام والبحث بابن رشد وفلسفته ، فقد اهتم به رينان ، كما أفرد سنــة ١٩٠٩ م « ليون غوتيه » اطروحتــه في الدكتوراه لدراسة « نظرية ابن رشد حول علاقات الدين بالفلسفة » وترجم كتابه فصل المقال إلــى الفرنسية ، وفي الرباط عقــد منذ أمــد قريب مؤتمر خاص حــول ابن رشد، وهكذا ما برح ابن رشد موضع احترام وآرائه في النفس والفلسفة والوجود والشريعة موضع اهتمام ومناقشة وبحث مستمر ، وفي هذا خلود ما بعده خلود •

جابر بن حيان

(ت : ٢٠٠ هـ / ٨١٥ ؟)

اهتمام العرب بالطب والعلوم عامة ، والكيمياء خاصة قديم يرقى إلى ما قبل الاسلام ، حيث تحوي أخبار الجاهلية أحاديث فضفاضة تتعلق بهذا الموضوع ، ومع قيام الاسلام نجد القرآن الكريم يحوي قبسات رفيعة المستوى تتعلق بالخلق والحياة والصحة ، كما أننا حين نستعرض حياة النبي ﷺ يمكننا من خلال ما عرف باسم « الطب النبوي » الحديث عن تأسيس مباحث الطب والعلوم والكيمياء عند العرب المسلمين .

وبعد قيام الخلافة الأموية ، زاد اهتمام المسلمين بالعلوم والطب والكيمياء ، وهنا نجد مصادرنا تتحدث ملياً عن خالد بن يزيد بن معاوية ، وانصرافه نحو العلوم بعدما أخفق بالوصول إلى الخلافة ، ولكن مهما عظم دور خالد بن يزيد خاصة في مجالات علم الكيمياء فانه من المقرر أن هذا العلم تأسس فعلياً على يدي جابر بن حيان .

وجابر بن حيان هو أبو عبد الله الكوفي [أو أبو موسى] المعروف بالصوفي ، اختلفت المصادر مع البحاثة في أمره ، كما اختلف المؤرخون حول حقيقة وجوده ، فنحن لا نملك ما يحدد تاريخ ولادته ، لكن من الممكن تقدير ذلك على وجه التقريب من خلال ارتباطه بالامام جعفر الصادق وبالبرامكة ، فالامام الصادق توفي سنة [١٤٨ هـ / ٧٦٥ م] كما تمتع البرامكة بثقة الخليفة العباسي الرشيد لفترة امتدت من ١٧٠ إلى ١٨٨ هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٣ م فهو قد كان شاباً قبل وفاة الامام الصادق وكان كهلاً أيام البرامكة .

ومن المرجح أنه ولد في مدينة طوس [مشهد الحالية] علماً بأن بعض الرواة يقول بأنه ولد في مدينة حران في أعالي منطقة الجزيرة [مقابل الحسكة

السورية داخل الحدود التركية]، أما وفاته فقد كانت في طوس ، على أنه عاش في مدينة الكوفة ومن هنا نال تسميته « بالكوفي » .

وكانت الكوفة عاصمة التشيع فكراً ونشاطاً ، وكان جابر بن حيان شيعياً امامياً ، يربط الشيعة بينه وبين الامام الصادق ، على أن جماعات من الفلاسفة ادعت أن جابر كان منها ، ومع التشيع والفلسفة وصف جابر بأنه كان صوفياً ، لكن رغم هذا كله فشهره ابن حيان قائمة على عمله بالكيمياء واسهاماته بها .

وقيل بأن ابن حيان تتلمذ على استاذين هما : خالد بن يزيد بن معاوية والامام جعفر الصادق ، وفي الحقيقة إن اتصاله بخالد ليس أمراً مؤكداً أما اتصاله بالصادق فشبه مؤكد ، فالنديم يروي بأن الشيعة قالوا : « إنه من كبارهم، وأحد الأبواب » وهذا يعني أنه كان وثيق الصلة بالامام الصادق،وفي كتاب اسمه «الحاصل» من كتب ابن حيان يقول: « وقد سميته كتاب الحاصل، وذلك أن سيدي جعفر بن محمد صلوات الله عليه .... أمرني » بذلك .

ويذكر النديم أن ابن حيان لمكانته في الدعوة الشيعية اضطر إلى التخفي والتنقل بين المدن مع أن أكثر اقامته كانت في الكوفة ، ولعل هذا التنقل والتخفي هو ما دفع بعض الوراقين وبعض العلماء إلى القول : إن هذا الرجل ــ يعني جابراً ــ لا أصل له ولا حقيقة ، وبعضهم قال : إنه ما صنف » وإنه كان شخصية اخترعها الشيعة ونسبوا إليها بعض المؤلفات .

وفي عودة نحو ما وصلنا من مؤلفات ابن حيان ، لا نكاد نجد فيها شيئاً خطيراً يحتاج إلى التخفي ، ثم إنه وإن عمل بالفلسفة، فانه صرف جل وقته نحو الأبحاث الكيميائية ، وخاصة مشكلة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، ومن هنا حق للنديم أن يقول : « إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب ويصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره باخراجه ويتعب يداه وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً أو معدوماً ، ضرب من الجهل ، وإن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأي فائدة في هذا وأي عائدة ، والرجل له حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ،

وتصنيفه أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة .... وكتب في معان شتى من العلوم »

ويؤيد الرازي ما قاله النديم ، وقد أشار إلى ابن حيان في واحد من كتبه ووصفه بعبارة « استاذنا » .

كان ابن حيان غزير الانتاج إلى حد لا يصدق ، فقد قيل بأنه صنف عدداً هائلاً من الكتب والرسائل ، فهذا النديم قام بعدما عدد أسماء بعض مشاهير كتبه بالنقل عنه قوله : « ألفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة ، وألف وثلاثمائة كتاب في الحيل ، على مثال كتاب تقاطر ، وألف وثلاثمائة رسالة في صنائع مجموعة وآلات الحرب ، ثم ألفت بالطب كتاباً عظيماً ، وألفت كتباً صغاراً وكباراً ، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب ، مثل كتاب المجسة والتشريح ، ثم ألفت كتب المنطق على رأي أرسطاليس ،ثم ألفت كتاب الزيج اللطيف نحو ثلاثمائة ورقة ، وكتاب شرح اقليدس ، وكتاب شرح المجسطي ، وكتاب المرايا ، وكتاب الجاروف ... ثم ألفت كتباً في الزهد والمواعظ ، وألفت كتاباً في العزائم كثيرة حسنة ، وألفت كتباً في النيرنجات ، وألفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة ،ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة ، ثم ألفت كتاباً في الصنعة يعرف بكتاب الملك ، وكتاباً يعرف بالرياض » .

إن هذا ضرب من الأساطير ، مستحيل انجازه على يد جيل من الناس ، اللهم إلا إذا أحللنا عبارة «ورقه» محل عبارة «كتاب» هذا ومن دراسة ما صح نسبته لجابر بن حيان نجد أنه قد درس ما كتبه الأوائل فلم يعجبه إلا بعض ما نسب لأرسطو حول تكون الفلزات في باطن الأرض ، وقد خالف جابر نظرية أرسطو هذه وقدم نظرية جديدة خاصة به ، ويكفي جابر فخر الريادة في أنه وصف طرقاً مطورة للتقطير والتصعيد والترشيح والتذويب والتبخر ، وبشر بالمنهج التجريبي ، فالتجربة قد تصدرت منهجه العلمي لنسمعه يتحدث عن صنعه لمركب من المركبات : « والله قد عملته بيدي وبعقلي من قبل وبحثت عنه حتى صح ، وامتحنته فما كذب » وعلى هذا وصف طرق تحضير كثير من المركبات الكيمائية كالسنابار

[كبريتات الزئبق] وأكسيد الزرنيخ ، واستخراج الزاج الأزرق النقي [كبريتات النحاس] والشب القلوي [الهيدروكسيد] وملح النشادر [هيدرو كلوريد الأمونيوم] وملح البارود ، وترات البوتاس ، وخلات الرصاص ، وحضر الكبريت الخام ، وحوامض النتريك ، وصناعة الماء الملكي ، وهو خليط من هذه الحوامض •

وأكد جابر بن حيان في أكثر من مناسبة على ضرورة الأخذ بالتجربة وبين فوائدها فها هو يقول : « فمن عرف ميزانها عرف كل ما فيها ، وكيف ركبت ، والدربة تخرج ذلك ، فمن كان درباً ، كان عالماً حقاً ، ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً ، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع ، أن الصانع الدرب يحذق ، وغير الدرب يعطل ، فحسبك فيما الناس فيه أكفى ، فكيف هذه الصناعة » •

وللميزان أهمية خاصة لدى جابر فهو « خير أداة لمعرفة الطبيعة دقياً ، وقياس صواهرها كمياً » وعلم الأوزان عند جابر يقابل ما يسميه علماء هذا العصر بقانون « الأوزان المتكافئة » والعلم عند جابر يسبق العمل ، فليس لأحد أن يعمل ويجرب دون أن يعلم أصول الصنعة ومجالات العلم بصورة كاملة ، وذلك لقوله : « إن كل صناعة لا بد لها من سبوق العلم في طلبها لأنه إنما هو ابراز مافي العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لا غير » • لذلك اعتبر ابن حيان الفرق بين العالم والجاهل ، أن يكون العالم المحيط بتفاصيل علمه « حاكماً على الأمر قبل كونه ، وكيف ومتى يكون » وأن « الجاهل جبان عن الحكم على الأمر بما يكون منه، وما يتأتى إليه في عقباه »، والكيمائي عند جابر يشفي أمراض المعادن فيزيل أنواع الشوائب كما يشفي الطبيب المريض وينفي عن جسمه الخبائث •

هذا وقد كتب جابر بن حيان عن الجانب الاستقرائي وبذلك سبق أوربا بعدة قرون ، والاستقراء هو غير الاستنباط ينصب على أشياء الوجود الخارجي ومداره هناك باتخاذ الحاضر شاهداً على الغائب فها هو يقول :

« إن كل ما لم نشاهده وله مثيل وشبيه فهو موجود ، وإن كل ما نشاهده وليس له مثيل وشبيه فليس بموجود » .

ويلاحظ أن جابر بن حيان وان كان سباقاً لعصره ، فقد ظل من بعض الجوانب ابن عصره ، ذلك أنه عمل بالطلسمات ، وقال بأن بعضها قد يشفي من بعض الأمراض ، أو يساعد على حمل بعض النساء ، لكن هذا لا يؤثر على جليل مكانته وعظيم دوره العلمي ، فهو توصل إلى أنه عند تعريض مختلف مركبات النحاس إلى اللهب ، تكسبه اللون الأزرق ، كما أثبتت ذلك علوم الذرة الحديثة حيث أن الالكترونات التي تعود إلى عنصر ما تملك مستويات معينة من الطاقة يتميز بها العنصر ، وعندما يأخذ العنصر أو أحد مركباته طاقة فإن الالكترونات الخارجية ترتفع إلى مستويات من الطاقة أعلى ، وأن هذه المستويات غير مستقرة ، ولا يلبث الالكترون فيها إلا وقتاً قصيراً يعود بعدها إلى المستوى الذي يمثله في الظروف الاعتيادية ، وإن الفرق في الطاقة بين المستويين يعطيها الالكترون على شكل موجة ضوئية ذات لون معين ، فعندما نضع مركبات عنصر ما في لهب ، يأخذ هذا العنصر طاقة على شكل حرارة ، ونتيجة للأمواج التي تنبعث عند سقوط الالكترونات من المستويات التي ارتفعت لها إلى المستويات الطبيعية ، فإن اللهب يتلون بلون معين خاص بالعنصر الموجود في اللهب ، إن أملاح النحاس مثلاً تأخذ لوناً أزرقاً في اللهب .

إن البحوث التي قام بها جابر أكثر من أن تحصى هنا أو أوفي أبحاث مستفيضة ، ولعله يكفي أن نختتم هذا البحث بالاشارة إلى أن جابر عرف بأن الشب يساعد على تثبيت الأصباغ في الأقمشة ، كما استطاع تحضير بعض المواد التي تمنع البلل من الثياب ، كما توصل إلى استخدام « كبريتيد الأتتيمون » الذي له لون الذهب ، ليكون بديلاً عن المعدن الثمين ، وقيل بأنه اخترع ورقاً غير قابل للاحتراق ، وقيل أيضاً وقيل الكثير ، فجابر انتسب لحضارة مبدعة بأصالة لا بالتقليد والتكرار ، بالعمل حسب قواعد العقل ومنهج التجربة لا بالسحر والألغاز والأساطير .

الخوارزمي

(ت : ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م)

سلف بي القول بأن الفتح الاسلامي لديار الامبراطورية الساسانية كان عملاً محولاً في تاريخ الشرق ، فقد تحررت شعوب الهضبــة الايرانية ثم خراسان وبعدها مناطق ما وراء النهر ، اجتماعياً وسياسياً وعقائدياً واقتصادياً ، وظهر إلى الوجود نتائج هذا التحرر ، وخاصة على مستوى العطاء الثقافي ، فمن بخارى ما وراء النهر جاء الامام البخاري ، ومن سمرقند جاء العديد من العلماء ، ومن واحة خوارزم جاء الخوارزمي أعظم علماء الرياضيات في العصور الوسطى قاطبة .

والخوارزمي هو أبو عبد الله محمد بن موسى ، من المرجح أنه ولد سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م في واحــة خوارزم (خيوه) جنوب بحيرتها (أرال) لا ندري عن حياته المبكرة شيئاً ، ولا نوع التربية التي نالها ، ولا هوية البيئة التي نشأ فيها ، وكل ما نملكه أنه قدم إلى بغداد ، إنما متى ؟ لا نعرف ، والتحق بخدمة الخليفة المأمون وانقطع إلى العمــل في « خزانــة الحكمة » ، فصار قيماً على محتوياتها .

وقد عهد إليه المأمون بعدة مهام علمية ، منها جمــع الكتب اليونانية وترجمتها ، فبرع في عمله ، ونال شهرة كبيرة ، فاستحق لقب استاذ ، وهذا يعني أنه أتقن اللغة الاغريقية ، كما كلفه المأمون بمهمة علمية ذهب بها إلى سجستان (أفغانستان وحدود الهند) للبحث والتنقيب وأنه جاء بمحصلات كبيرة .

واهتم الخوارزمي بالعمــل في ميدان علوم الهيئــة (الفلك) فحقق منجزات كبيرة ويتحدث عن هذا النديم في فهرسه بقوله : « وهو من أصحاب

علوم الهيئة،وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ، ويعرف بالسند هند ، وله من الكتب كتاب الزيج نسختين أولى وثانية ، كتاب الرخامة ، كتاب العمل بالاسطرلاب ، كتاب عمل الاسطرلاب،كتاب التاريخ» .

على أنه مهما علا شأن الخوارزمي في ميدان علوم الهيئة ، فإن دوره في ميدان الرياضيات أكبر وأهم ، ذلك أنه يعدّ مؤسس علم الجبر ، بجعله مستقلاً عن علوم الحساب ، ووضع مبادئه ومعادلاته حتى الدرجة الثانية ، كما أنه هو الذي أوجد مصطلح « الجبر » وأطلقه على العلم الذي أسسه ، وعنه أخذت معظم الحضارات العالمية ولغاتها هذا التعريف .

وتمكن الخوارزمي من حل معادلات الجبر بطرق هندسية ، واتخذ الأحرف للدلالة على المعلوم والمجهول بدلاً عن الأرقام ، كما استخرج الحل المستحيل لاستخراج المجهول ، وأطلق على هذا النوع من المسائل ، « المسائل المستحيلة » .

ولاهتمام الخوارزمي بعلوم الهيئة ونشاطه في ميادينها ، ينسب إليه ايجاد أول جدول « لوغارتم » لاستخراج ظل الدائرة وسواها ، كما أدخل نظام ترتيب الأعداد ، وتصنيفها إلى آحاد ، عشرات ، مئات ... » وعنه أخذ العالم هذا النظام ، ومن المرجح أن الخوارزمي قد اقتبس الأرقام عن الهنود أو الفرس ، وعم هذا الاقتباس بعد تطويره في العالم أجمع ، وما زال قيد الاستخدام حتى الآن .

وللخوارزمي كتاب عن الحساب ، قيل بأنه هو أول كتاب عربي ترجم إلى اللغة اللاتينية ودخل إلى أوربة ، ولكتابه الخالد « الجبر والمقابلة » شأن ليس فوقه شأن ، وصدى واسع وتأثير علمي عريض وعميق ، فجميع الذين جاؤوا من بعده وعملوا في ميادين الرياضيات كانوا عيالاً على الخوارزمي وعلى كتابه هذا ، مما أكسب الخوارزمي شهرة ذات ديمومة واتساع لا مثيل له ، فهذا الشاعر شهاب الدين التلعفري يقول في احدى قصائده مادحاً الشاعر شهاب الدين العزازي :

يا خليلي قف على الدار معي	وتأمل كم بها من مصرع
العزازي الشهاب الثاقب	شكره فرض علينا وواجب
شاعر أبدع في أشعاره	ومتى انكرت قولي باره
لو جرى مهيار في مضماره	والخوارزمي في آثاره
قلت عودا وارجعا من انتما	ذا امرؤ القيس إليه ينتمي

وقد ترجم كتاب « الجبر والمقابلة » إلى اللاتينية في منتصف القرن الثاني عشر ميلادي ، ودرست ترجمته في جامعات ومعاهد أوربة للعصور الوسطى، وحديثاً لقي نفس العناية بأن ترجم إلى الانكليزية ودرس بها .

طبق الخوارزمي علم الجبر في عدد من المجالات ، منها فرضيات ترتبط بقضايا المواريث ، هذا وصنف الخوارزمي في الرياضيات كتاباً آخراً هو « الجمع والتفريق لحساب الهند » وشرح في هذا الكتاب النظام العشري ، معتمداً على الأرقام الهندوسية ، وتمّ التعرف إلى هذا عن طريق بقاء ترجمة للكتاب باللاتينية .

وكما سلفت الاشارة ، فالخوارزمي عالم مبرز في مجالات الفلك ، قام بترجمة كتاب « المجسطي » لبطليموس كما عمل في كتاب « السندهند » ومعناه « الدهر الداهر » وهو كتاب في الفلك الهندي ، ترجم في عصر المأمون وحظي بمكانة جليلة في المكتبة العربية ، ومع هذا الاسهام صنع الجداول الفلكية وصنف كتاب الرخامة في الفلك ،وكتاب حول العمل في الاسطرلاب .

وفي عصر المأمون شارك الخوارزمي في قياس محيط الأرض ، كما أجرى تعديلات وتحسينات كبيرة على جغرافية بطليموس ، وشارك تسعة وثلاثين عالماً آخراً من معاصريه في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون كما وضع كتاب « صورة الأرض من المدن والجبال » وكتاب « وصف إفريقية » ولعله قطعة من كتاب « رسم المعمور من البلاد » له .

وذكر النديم للخوازمي كتاباً في التاريخ ، نقل عنه حمزه الأصفهاني في كتابه « تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام » ، وللمكانة التي حظي بها الخوارزمي ولدوره المؤثر والفعال أطلق سارتون مؤرخ العلم على النصف الأول من القرن التاسع اسم عصر الخوارزمي ، ولا عجب في هذا فالعلماء هم الذين يطبعون الدهر بطابعهم ، وهم ورثةالأنبياء جعلهم الله جل وعلا في المرتبة الثالثة في المعرفة والشهادة حين قال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » . [آل عمران : ١٨] .

حنين بن اسحق

(ت : ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م)

قام للعرب في عراق ما قبل الاسلام دولة الحيرة ، وقد اهتمت الدراسات المعاصرة بدور امـارة الحيرة السياسي في مجـال علاقاتها بالامبراطورية الساسانية وغساسنة بلاد الشام ، وعرب الأطراف وشبه الجزيرة في الشمال والجنوب ، وتبع هذا اهتمام بشيء من الحياة الأدبية فيها من خلال دراسة عدد من الشعراء الذين قدموا الحيرة فعاشوا فيها بعض الوقت ، وكان لهم نوع من العلاقات مع سلطاتها •

ولدى التعمق في تاريخ الحيرة ودورها نلاحظ أن مؤثراتها وما قامت به في المجالات الدينية والثقافية واللغوية والحضارية العامة كبير لم يتم بعد تحديده وتبيان أطره ، فأبجدية أهل مكة التي تبناها القرآن أخذها المكيون عن أهل الحيرة ، وكثير من المؤثرات والعادات والتقاليد استعيرت من الحيرة ، وكبار علماء الجاهلية تعلموا في الحيرة ، فالحارث بن كلـدة طبيب العرب تخرج من الحيرة ، وابنه النضر بن الحارث حصل على ثقافته ، التي أراد أن يباري بها النبي ﷺ من الحيرة •

إن هذا الموضوع من الأهمية بمكان ، تكفي إثارته هنا ليأتي كمقدمة عن حنين بن اسحق أحد كبار أطباء العرب وعلمائهم •

وحنين هو أبو زيد حنين بن اسحق ، كان من عباد الحيرة ، والعباد فئـة من أهل الحيرة ، دانوا بالنصرانية ، وتميزوا عن أهـل الحيرة اجتماعياً واقتصادياً ، حتى — قيل — وعرقياً أيضاً •

كان والـده صيدلانياً في الحيرة ، وهو على هذا ولد في بيت ثقافي ،

محدد الاختصاص ، وكانت ولادته سنة ١٩٤ هـ / ٨١٠ م ، وفي الحيرة نشأ ونال علومه الأولى ، ولقد أتقن من اللغات : السريانية واليونانية والعربية ، وفي شبابه ذهب إلـى بغداد لدراسة الطب ، فالتحق بيوحنا بن ماسويه ، واستفاد منـه ، لكن ما لبث أن تركه ، ذلك أن الاستاذ ضاق ذرعـاً بكثرة أسئلة تلميذه واستفساراته ، ودبت الغيرة في قلبه من تقدمه وبراعته ، لذلك جافاه وأساء معاملته حتى قال له : « ما لأهل الحيرة ولتعلم صناعة الطب ، اذهب واعمل بالصيرفه كأبناء بلدك » .

وهجـر حنين استاذه ، وقرر الرحـلة في طلب العلم وزيادة المعرفة ، « فدار البلاد في جمع الكتب القديمة ، ودخل بلد الروم » [بيزنطة] حيث زاد معارفه بالطب ، وتجول في الشام ، وزار مصر ، ودرس فيها الفلسفة ، وسافر عائداً إلى العراق ، حيث توجه إلى بلاد فارس فتعلم الفارسية ، ودرس بها الطب الفارسي ، وعاد ثانية إلى العراق ، فتوجه نحو البصرة ، فتتلمذ فيها على الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وعن الخليل زاد معارفه واتقانه للعربية حتى نظم بها الشعر ، ومن البصرة توجه إلى بغـداد حيث التحق بالخليفة المأمون ، فأسند إليه العمل في دار الحكمة ، وشغله بالترجمة ، حتى صار رئيس النقلة ، وفي دار الحكمة وجد إلى جانبه عدد من النقلةكانوا يساعدونه ويعرضون عليه أعمالهم ،فيقوم بمراجعتها وضبطها ، وقيل بأن المأمون كان يجيزه على كل كتاب يترجمه بوزنه ذهباً ، ولهذا قيل : كان حنين يكتب أو يأمر كتّابه أن يكتبوا على ورق غليظ ، وبخط كبير ، وكان يترك حواشي وفراغات كثيرة ، حتى يخرج الكتاب كبيراً ، عالي الوزن ، عظيم الجائزة .

ويروى بأن ابن اسحق عاصر تسعـة من الخلفاء حظي منهـم بالعناية والرعاية ، ونال مكانة رفيعة عند الخليفة المتوكل ، لبراعته بالطب ولكثرة حفظه ، حتى صار طبيب المتوكل الخاص ، وسبب ما حظي به حنين من مكانة ورعاية حسد زملائه وغيرهم له حتى كانوا يقولون : « ما لحنين والطب ، إنما هو ناقل لهذه الكتب ليأخذ عليها الأجرة ، كما يأخذ الصناع الأجرة على

صناعتهم ، ولا فرق بينه وبينهم ، وإنه كالقين يصنع السيف ، ولا يستطيع أن يضرب به ، فماله ولصناعة الطب ، وهو لم يحكم النظر في عللها وأمراضها ، وإن قصد التشبه بنا ليقال : حنين المتطبب ، لا حنين الناقل » .

لقد نقل حنين إلى العربية الكثير من المواد لبني موسى آل شاكر الذين برعوا في علم الحيل [الميكانيك]، وشكل مدرسة للترجمة وذلك منه ، ومن ابنه اسحق بن حنين ، وابن أخته حبيش الأعسم .

وعاصر حنين أثناء اقامته في بيزنطة وبعد عودته منهـا فترة حاسمة في الصراع الديني داخل الكنيسة الأرثوذكسية ، وهـو ما عرف باسم حرب الايقونات ، واتخـذ حنين موقفاً خاصاً في هذا الصراع أملاه عليه مواريثه وثقافته الفلسفية والطبية ، فقد رفض تقديس الصور وعبادتها ، ويروى أنه كان يجاهر برأيه وعقيدته حتى قيل بأنه تفل مرة على ايقونة تمثل السيـد المسيح وأمه مريم العذراء ، مما سبب معاقبته واهانته من قبل (الجاثليق) كبير نصارى العراق وممثلهم الرسمي ، وقد أسقط في يد حنين وتولته الكآبة وارتدى رداء الغم واحتار في أمره ، فأقدم على الانتحار باجتراع السم يوم الثلاثاء لستة خلون من صفر سنة ستين ومائتين [٣٠ تشرين ثاني ٨٧٣ م]

كان حنين غزير الانتاج ، معظم ما كتبه جاء عـن طريق الترجمة مـن اليونانية وله من الكتب ما يزيد على المائة ، وثقافته اليونانية كانت جيدة ، حتى قيل بأنه كان يحفظ الياذة هوميروس .

ولقد قدم لنا النديم في فهرسه ثبتاً بأهم كتبه ، وعندما نستعرض أسماء الكتب الطبية من هذا الثبت نرى اهتمام حنـين بطب العيون حتى ليمكننا القول بأن ذلك كان اختصاصه الأول ، فمن كتبه في أمراض العين : « كتاب علاج العـين عشر مقالات لطيف ، كتاب تقاسيم علل العين ، مقالة ، كتاب اختيار أدوية علل العين ، مقالة ، كتاب علاج أمراض العين بالحديد ، كتاب العين عن طريق المسألة والجواب ، ثلاث مقالات » ومن كتبه الطبية الأخرى : كتاب المسائل في الطب للمتعلمين ، كتاب اللبن ، كتاب الأغذية ، كتاب آلات

الغذاء ، كتاب الأسنان واللثة ، كتاب الباه ، كتاب تدبير الناقة ، كتاب معرفة أوجاع المعدة وعلاجها ، كتاب في البول عن طريق المسألة والجواب ، كتاب المولدين لثمانية أشهر ، كتاب الترياق ، كتاب القروح .

وفي غير ميدان الطب كان له : كتاب الجمهورية (السياسة) لأفلاطون ، كتاب السماء والعالم ، وكتاب في المنطق ، وكتاب ما يقرأ قبل كتب أفلاطون، كتاب نوادر الفلاسفة والحكماء ، شرح كتاب الفراسة لأرسطوطاليس ، كتاب في إدراك حقيقة الأديان ، كتاب النواميس ، وكتب بالسريانية « كتاب الضوء وحقيقته » وله كتاب الأصول لأقليدس ، في الهندسة ، ونقل كتب قطوع المخروط لكل من منلادس وأبولونيدس وتيودوسيوس ، وله في الأدب كتاب« سلامان وأبسال » ويحوي قصة مترجمة عن الاغريقية ، وله في التاريخ « تاريخ العالم والمبدأ والأنبياء والملوك والأمم » إلى زمنه ، وله أيضاً كتاب « المدخل في علم الروحانيات » .

إن ابن اسحق من خلال هذا العرض كان أحد الأوائل الذين أرسوا أسس المعارف العلمية باللغة العربية عن طريق الترجمة والتطوير ، وكان هذا هو الطريق السليم ، ويكفيه هذا فخراً ، كما يزيده مكانة وفخراً أنه حين ترجم حفظ إلى العلم وتراث الانسانية كتباً جليلة اغريقية وفارسية ضاعت أصولها بلغاتها الأصلية .

ثابت بن قره

(ت : ٢٨٨ هـ / ٩٠١م)

عندما نقرأ تاريخ الخلافة الأموية نلاحظ أن أواخر خلفاء هذه الدولة شرعوا يتخلون عن الاقامة في دمشق وجنوبي بلاد الشام ، وأخذوا ينجذبون نحو الشمال والشمال الشرقي إلى منطقة الجزيرة ، حتى أن آخرهم ، وهو مروان بن محمد ، اتخذ مدينة حران مقراً له ، وحاضرة لدولته ، وحران مدينة عريقة في التاريخ كانت أحد المراكز الآرامية المزدهرة ، وقد حافظت على تألقها خلال العصور ، وظلت اسهاماتها الثقافية والحضارية فعالة حتى عصر الاحتلال الصليبي .

وشهرت حران بعلمائها وفلاسفتها ، فهي قد كانت أهم مراكز فلسفة العرفان [الغنطوسية] ذات المؤثرات الواسعة في الفلسفة الاسلامية وفي جماعات الصوفية ، وحين تذكر حران في التاريخ الاسلامي يتردد معها عدة أسماء لامعة ، يتقدمها أفراد أسرة آل قرة .

وأول آل قرة ذكراً ومكانة هو : أبو الحسن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن ابراهيم الحراني ، ولد في مدينة حران كما هو مرجح سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٦ ، وكان « صابئاً » وهو اسم أطلق على وثنيي حران في أوائل العصر العباسي ، هذا ولا ندري الكثير عن حياته الأولى سوى أنه كان صيرفياً في حران ، ولكن يستدل من اسهاماته الثقافية فيما بعد ، ومن وضع حران العام أنه حصل على معارف في الفلسفة والطب والرياضيات ، طورها فيما بعد ، وعمقها إثر رحيله إلى بغداد واستقراره فيها فترة من الزمن .

وبعدما طور تحصيله في بغداد ، عاد إلى حران ، وهو يحمل آراء فلسفية

جديدة ، تمثل تياراً معارضاً لقومه الصابئة من أهل حران ، وقاده هذا إلــى صدامه مع سادة القوم ، وإلى تحريــم دخوله إلــى الهيكل المكرس لعبادة الكواكب حسب عقائد الحرانيين ، فاضطر إلى هجر حران والذهاب إلى بلدة قريبة اسمها كفرتوثا ، ولعل ذلك كان سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م ، وهناك اجتمع بمحمد بن موسى بن شاكر المنجم ، الذي كان في رحلة بحث يطلب العلوم والكتب القديمة ، وكان ثابت يحسن السريانية وربما غيرها ، ويقال بــأن معرفته بابن شاكر كانت قديمة ، فقد تتلمذ ثابت عليه أثناء اقامته في بغداد .

واصطحب ابن شاكر ثابتاً معه في رحلته ، وزار معه الشام ، وتوجــه معه في طريق العودة إلى بغداد ، حيث قدمه إلى الخليفة المعتضد بالله ، وكلفه الخليفة بالعمل في جملة المنجمين ، وراجت بضاعته لدى الخليفة ، فعلا نجمه ، وصار مقدم الصابئة وممثلهم لدى الخلافة ، يدعم قضاياهم ، ويسهل أمورهم ويرعاها ، ذلك أنه ــ أي ثابت بن قره ــ بلغ « مع المعتضد أجل المراتب ، وأعلى المنازل ، حتى كان يجلس بحضرته في كــل وقت ، ويحدثه طويلاً ، ويضاحكه ، ويقبل عليه دون وزرائه » . وظل حاله هكذا حتى وفاته وكانت وفاته قبل الخليفة المعتضد بعام واحد ، أي سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م في بغداد .

وتأتي المصادر على أخبار مراعاة المعتضد له ، وتروي روايات تدلل فيها على ذلك منها : « أن المعتضد طاف معه ــ ثابت ــ في بستان له ويده على يد ثابت ، فانتزع ــ المعتضد ــ بغتة يده من يد ثابت ففزع ــ ثابت ــ من ذلك ، فقال له المعتضد : يا ثابت ، أخطأت حين وضعت يــدي على يدك ، وسهوت فإن العلم يعلو ولا يعلى عليه » .

كان ثابت بن قرة عالماً موسوعياً ، كتب بالعربية والسريانية ، وألف في مختلف الفنون وترجم العديد من الكتب الهامة ، وقدم لنا القفطي في كتاب تاريخ الحكماء ثبتاً ــ بما صنفه ثابت ــ وثائقياً ، ذلك أن مصدره ثابت بن سنان المؤرخ الكبير حفيد ثابت بن قرة ، ولقد جاء هذا الثبت في أربع صفحات ، ومن هذه الكتب ، (في الطب) :

كتاب في سكون بين حركتي الشريان • كتاب إلى ابنه سنان في الحث على تعلم الطب والحكمة • كتاب في وجع المفاصل والنقرس • كتاب في صفة كون الجنين • كتاب في المولدين لسبعة أشهر • كتاب في البياض الذي يظهر في البدن • عدة كتب في الأدوية • كتاب الذخيرة •

وفي علوم الهيئة والرياضيات والهندسة : كتاب في استخراج المسائل الهندسة • كتاب في المربع وقطره • كتاب فيما يظهر في القمر من آثار الكسوف وعلاماته • كتاب في علة كسوف الشمس والقمر ـ مات قبل أن يكمله ـ • كتاب في مساحة الأشكال المسطحة وسائر البسط والأشكال المجسمة • كتاب في طبائع الكواكب وتأثيراتها •

وله أيضاً العديد من الكتب في الموسيقى والفلسفة والمذاهب والأديان والمنطق ، والنفس والأخلاق ، فقد أحصى له بعض من كتب عنه أكثر من مائة وخمسين كتاباً •

فهو قد استخرج حركة الشمس ، وحسب طول السنة الشمسية فكانت عنده « ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان » أي أدنى مما توصل إليه العلم الحديث بنصف ثانية •

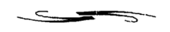
لقد تمكن ثابت من حل بعض المعادلات التكعيبية ذات الدرجة الثالثة بصورة هندسية وهو أمر توصلت إليه أوربا في القرن السادس عشر ، إنما ليس ابداعاً ولكن استناداً إلى تجربة ثابت ، ولقد لمع نجم ثابت في ادخال علم الجبر على علم الهندسة ، ولهذا لقب « بأبي الهندسة » وله أيضاً جهوده فيما يعرف باسم الأعداد المتحابة ، ويكون العددان متحابان إذا كان مجموع المضروبات [العوامل] في أحدهما يساوي العدد الآخر ، وكان مجموع مضروبات العدد الآخر مساوياً للعدد الأول •

وشهد لثابت معاصروه ببراعته بالطب ، ويشهد على هذا ما حكاه حفيده عنه « قال : يحكي أحد أجدادي عن جدنا ثابت بن قرة أنه اجتاز يوماً ماضياً إلى دار الخليفة ، فسمع صياحاً وعويلاً ، فقال : مات القصاب الذي كان في هذا الدكان ؟ فقالوا له : أي والله يا سيدنا البارحة فجأة ، فقال : ما مات ،

خذوا بنا إليه ، فعدل الناس معه ، وحملوه إلى دار القصاب ، فتقدم إلى النساء بالامساك عن اللطم والصياح ...... وأومأ إلى بعض غلمانه بأن يضرب القصاب على كعبه بالعصا ، وجعل يده في مجسه ، وما زال ذلك يضرب كعبه إلى أن قال : حسبك ، واستدعى قدحاً ، وأخرج دواء فدافه في القدح بقليل ماء ، وفتح فم القصاب وسقاه إياه ، فأساغه ، ووقعت الصيحة والزعقة في الدار والشارع بأن الطبيب قد أحيا الميت ، فتقدم ثابت بغلق الباب ، وفتح القصاب عينه ، وأطعمه مزوزة [طعام فيه حموضة ؟] وأجلسه وقعد عنده ساعة ، فإذا بأصحاب الخليفة قد جاءوه يدعونه فخرج معهم والدنيا قد انقلبت ، والعامة حوله يتعادون إلى أن دخل دار الخلافة .

ولما مثل بين يدي الخليفة قال له : يا ثابت ما هذه المسيحية التي بلغتنا عنك ؟ قال : يا مولاي كنت أجتاز على هذا القصاب وألحظه يشرح الكبد ، ويطرح عليها الملح ويأكلها ، فكنت أستقذر فعله أولاً ، ثم قدرت أن سكتة ستلحقه فصرت أراعيه ، وإذ علمت عاقبته انصرفت ، وركبت للسكته دواء أستصحبه معي في كل يوم ، فلما اجتزت اليوم وسمعت الصياح ، قلت : مات القصاب ؟ فقالوا : نعم ، مات فجأة البارحة ، فعلمت أن السكتة قد لحقته ، فدخلت إليه ، ولم أجد له نبضاً ، فضربت كعبه إلى أن عادت حركة نبضه ، وسقيته الدواء ففتح عينيه وأطعمته مزوزة ، الليلة يأكل رغيفاً بدُرّاج ، وفي غد يخرج من بيته » .

إن في هذه الرواية شهادة على المستوى الرفيع الذي كان عليه ثابت، ولكم هو عظيم لو استطاع العرب جمع مخطوطات ثابت الموزعة لاستخراج كنوز علمه من هذه المخطوطات ، فآنذاك نعرفه أكثر ، ونعرف به جانباً من جوانب ابداع وخلود الحضارة العربية للقرن الثالث للهجرة ، فالعرب عاشوا آنذاك في ظل المعرفة الوارف ، وتمتعوا بنور الحرية ، في حين كانت بلدان العالم غارقة في ظلام الجهل والاستبداد .



الرازي

(ت : ٣٢٠هـ / ٩٣٢؟)

« وبقيت في عمل الجامع الكبير خمس عشرة سنة أعمل الليل والنهار » هذا ما قالـه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، أعظم الأطبـاء في التاريخ الاسلامي في وصف عمله في واحد من كتبه « الذي لم ـ يسبقه ـ إليه أحد من أهل المملكة ولا احتذى فيه أحد بعد » احتذائه وحذوه .

والرازي [نحو ٨٥٠ ـ ٩٣٢ م] كما قـال النديم في حديثه الطويل المتميز عنه هو : « أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، من أهل الري [على أميال من طهران] أوحد دهره ، وفريد عصره ، قد جمع المعرفة بعلوم القدماء، وسيما الطب ، وكان ينتقل في البلدان » .

لا نعرف تاريخ مولد الرازي ، حيث لم يتفق عليه مؤرخان ، فالرازي عرفه الناس كهلاً ، ولذلك خمنوا تاريخ ميلاده تخميناً ، ولعله كان في حوالي سنة ٢٣٥ هـ ، وكما تم اللجوء إلى التخمين فيما يتعلق بتاريخ ميلاده ، حدث الشيء ذاته حول حياته المبكرة وأنواع الثقافة التي نالها .

فهو ولد بالري ، التي تمتعت بمكانة عالية في العصر العباسي ، وكانت من المدن التي سكنها العرب ، ونشطت فيها الحركات الثقافية ، ومن الري تخرج عدد كبير من العلماء المبرزين في مختلف الميادين .

إن مصنفات الرازي وميادين نشاطه توحي أنه نال من المعارف: الموسيقى والآداب ، والفلسفة ، والفلك ، والكيمياء ، والطب .

لقد عاش الرازي ما ينوف على الثمانين عاماً ، وبرز بشكل خاص في ميدان الطب ، ومؤلفاته في الطب أكثر عـدداً من مؤلفاته في جميـع فروع

المعرفة ، وبعد الطب تأتي مؤلفاته في الكيمياء من حيث الأهمية وأشهر كتبه الكيمائية كتاب « الأسرار » الذي ظل مرجعاً في بابه مدة طويلة .

تتلمذ الرازي في الطب أولاً على « أبي الحسن علي بن ربن » وكان من تلامذة حنين بن اسحق ، ويرجح أنه لقيه بالري حوالي سنة ٩٠٢ م ، وكان الرازي قد جاوز الثلاثين من عمره ، وأقبل الرازي على الطب دراسة وممارسة حتى تأهل لرئاسة بيمارستان (مشفى) الري .

وانتقل الرازي بعد هذا إلى بغداد ، وترافق هذا مع بناء المشفى العضدي (أو اعادة بنائه) حيث طلب الخليفة المقتدر [٢٩٥ – ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ – ٩٣٢ م] مائة طبيب ليشكل منهم لجنة للمشفى ، وكان الرازي من هؤلاء المئة ، ثم اختار من المائة خمسين ، وكان الرازي بين الخمسين ، ثم اختار عشرة ، فكان الرازي بينهم ، ثم اختار ثلاثة ، فكان الرازي منهم أيضاً ، وميز هؤلاء الثلاثة فاختار الرازي ليكون رئيس أطباء المشفى العضدي في بغداد .

لقد علا نجم الرازي من خلال عمله في المشفى العضدي ، ويمكن القول بأنه قسم وقته إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، أو لنقل بأنه شغل نفسه بثلاثة أعمال رئيسية هي : المداواة والتطبيب ، البحث والتدريس ، المطالعة والتصنيف ، ففي المشفى كان المريض يعرض أولاً على عدد من زملائه وتلاميذه ، أو يعرض على طبيب الخفر (المناوب) فإن رأى فيه ما غمض عرضه على مساعدي الرازي ، فإذا التبس عليهم ، تم عرضه على الرازي ، وينقل النديم في فهرسه وصفاً لهذا الحال بقوله :

« كان – الرازي – يجلس في مجلسه ، ودونه التلاميذ ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أخر ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه ، فإذا كان عندهم علم ، وإلا تعداهم إلى غيرهم ، فان أصابوا ، وإلا تكلم الرازي في ذلك » ويتابع بعد هذا وصفه لخلق الرازي فيقول : « وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم » .

ويتحدث أحد معاصري الرازي عنه خارج أوقات المعالجة والتطبيب فيقول : « ولم يكن يفارق المدارج والنسخ ، ما دخلت عليه قط إلا رأيته ينسخ ، إما يسود أو يبيض » •

لقد صنف الرازي عدداً كبيراً من الكتب عدها النديم في فهرسه وأتى على ذكرها غالبية الذين ترجموا للرازي ، وقيل بأنه صنف /٥٦/ مصنفاً في الطب ، / ٣٣ / مصنفاً في العلوم الطبيعية ، / ٨ / مصنفات في المنطق ، / ١٠ / في الرياضيات / ١٧ / في الفلسفة / ٦ / في علوم ما وراء الطبيعة / ١٣ / في الكيمياء / ١٠ / في مواضيع مختلفة •

لا يمكن الحديث عن جميع هذه المصنفات، ولما كان أهم ما كتبه الرازي هو كتاب الحاوي ، فأستقتصر بالحديث عنه موجزاً •

كتاب الحاوي كتاب كبير جداً يقع في أكثر من عشرين مجلدة ، ويرجح أنه هو نفس كتابه « الجامع الكبير » ، ونسخ هذا الكتاب الخطية قليلة موزعة الأجزاء على عدة مكتبات في العالم ، وقد طبع الكتاب أخيراً في حيدر أباد الدكن (دائرة المعارف العثمانية) بشكل جيد •

وفي الحقيقة لم يكن الرازي مسرفاً حين أعلن أن أحداً لم يسبقه إلى مثل كتابه «الحاوي»فهو في هذا الكتاب خالف في تأليفه كل ما سبقه من مؤلفات طبية ، بل خالف ما كتبه (الرازي) في مؤلفاته الطبية الكبيرة مثل المنصوري والفصول ، فهو أراد هنا شيئاً آخر ، وأراد الحاوي أن يؤدي غرضاً محدداً لقوم محددين ، فهذا الكتاب عبارة عن محاضرات (مجالس) ألقاها على طلبته المتقدمين في دراسة الطب ، أودع فيها جميع خبرته التطبيبية [الاكلينيكية] فهو كتاب ليس منسقاً مثل بقية الكتب ولا يحوي المقدمات مع مبادىء دراسة الطب •

واسلوب الرازي في الحديث عن الأمراض ، أنه يبدأ بذكر العرض الذي يشكو منه المريض ، ويعلق عليه ، ويأتي على ذكر ما جاء عن القدماء

في كتبهم مما هو متوافق أو متناقض ، وقد يناقش هذه الآراء أو يعرضها دونما تعليق ، وفي كثير من الأحيان يورد أقوالاً غير منسوبة إلى مصدر ، وكتاب الحاوي هذا نال في الماضي شهرة واسعة ، وتداولته بالعناية كثير من المدارس الطبية إذ ترجم إلى اللاتينية سنة ١٢٧٩ م ، وطبع للمرة الأولى باللاتينية سنة ١٤٨٦ م .

لقد اعتنى الرازي في عمله بالمريض ، وتفهم مرضه ، ليحسن تقدير العلاج ، وكان يحرص على متابعة مراقبة العلاج ، وتغييره عندما يجدّ جديد في سير المرض ، فالتشخيص قضية فلسفية فيها وقائع تؤدي إلى تشخيص بعينه ، ووقائع أخرى تعارض هذا التشخيص ، والقضية هي معرفة ما يحدث فعلاً في الجسم مستدلين على ذلك بالعلامات ، فالعلامات ترجح رأياً على آخر ، والرازي كان شديد الحرص على تقدير العلامات من حيث شكلها وقوتها في أول المرض أو في آخره مع التغيرات في كل المراحل ، وعلى هذا كان الرازي أمهر أطباء العصور الوسطى في التشخيص .

ولم يكتف الرازي أثناء التشخيص بفحص علامات المرض ومتابعة تغييراتها ، بل اهتم بفهم عقلية مرضاه إلى حد شبه اسطوري ، فكتب الأدب حدثتنا عن مرض أو مريض أعجز الأطباء معرفة علته ، فجاء الرازي وأخذ يجس نبضه ويعرض أمامه أسماء عدد من المدن والنساء ، حتى عرف اسم حبيبته ومكانها ، حين تبدل نبض المريض . وفقد الرازي بصره في آخر أيام حياته ، ورفض معالجة مرضه ، ذلك أنه رأى ما ودّ أن يراه ، وأنار السبل في علم الطب لأجيال متلاحقة دون انقطاع .

لقد خلد تاريخ الطب ذكرى الرازي ، ذلك أنه قدم للانسانية خدمات كثيرة ، لهذا أطلق في أيامنا اسمه على عدد من المشافي والمؤسسات الطبية ، وأقيمت له النصب ، وعقدت حوله المؤتمرات ، وشكلت اللجان المتخصصة لدراسة آثاره واحيائها وترجمتها إلى غير العربية .

ابن الهيثم

(ت : ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م)

وصلت الحضارة العربية ذروتها في العطاءات العلمية خلال القرنين الرابع والخامس هـ ، ففي النصف الأول من القرن الخامس وجد أقطاب المعارف العلمية لدى العرب يتقدمهم ثلاثة رست على عواتقهم هذه المعارف ومثلوها خير تمثيل وهم : ابن سينا ، البيروني ، وابن الهيثم ، ومع أن الثلاثة كانوا ذوي ثقافة موسوعية ، إلاّ أن كل واحد منهم غلب عليه اختصاص أو اختصاصان ، فابن سينا كان طبيباً وفيلسوفاً قبل كل شيء ، والبيروني كان فلكياً في المقام الأول ، وابن الهيثم كان عالم الضوء ومهندس العرب الأول .

وابن الهيثم هو : أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم ، ولد في مدينة البصرة سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م ، وفي البصرة نشأ ونال ثقافته حتى أتم تحصيله وظهرت أولى علامات عبقريته ، ومن البصرة طارت شهرة ابن الهثيم ، حيث انكب على أعمال التصنيف ، ويبدو أنه تسلم بعض الأعمال الديوانية في البصرة لبعض الوقت ، وعلى قاعدة علماء عصره ارتحل ابن الهيثم فزار بغداد والأهواز ومناطق أخرى والتقى بالعلماء ، وركز جهوده على علوم الهندسة ، وأعلن عدة آراء هامة منها « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال وهو في طرف الاقليم المصري » .

وبلغت شهرة ابن الهيثم مسامع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله،فتاقت نفسه لرؤيته ، واشتدت هذه الرغبة عندما بلغه ما قاله حول النيل وبناء سد عظيم عليه ، فأرسل إليه سراً يستدعيه إلى القاهرة ويشوقه لزيارته ، وبعث

إليه بالأموال ، وأتحفه بالهدايا ، فاستجاب ابن الهيثم ولبى الدعوة وتوجه إلى مصر .

وفي مصر اطلع ابن الهيثم عن قرب على الوضع السياسي والعقائدي فيها ، ورأى بأم عينيه شخصية الحاكم المتقلبة ، وشاهد سفكه لدماء أقرب المقربين إليه لمجرد تغير مزاجه أو لأمر آخر .

وكان عندما وصل ابن الهيثم إلى مشارف القاهرة قد خرج الحاكم بأمر الله ، لاستقباله والاحتفاء به ، وبعدما حل ابن الهيثم في القاهرة وتخلص من وعثاء السفر استدعاه الحاكم إلى حضرته وطالبه بتنفيذ مشروعه في بناء سد على النيل ، وهنا تقرر ارسال بعثة نحو منطقة أسوان فيها عدد من الصناع والمهندسين برئاسة ابن الهيثم .

سافر ابن الهيثم نحو جنوب أسوان ، بعد جولة عريضة في مصر ، شاهد فيها أوابد الحضارة المصرية ، فتولته الدهشة ، وعجب كيف أن قوماً بنوا الاهرامات وسواها ، ووصلوا إلى الدرجة الرفيعة من الهندسة لم يفكروا بما فكر به ، أم أنهم فكروا ، ووجدوا ذلك غير ممكن ؟!

ووصل ابن الهيثم إلى منطقة الجنادل جنوب أسوان ، حيث الماء ينحدر من النيل ، فأجرى هناك قياساته واختباراته ، ووصل إلى نتيجة أن مشروعه لا يمكن تطبيقه .

وعاد ابن الهيثم إلى القاهرة ، فأخبر الحاكم بمحصلاته ، فتظاهر بقبول عذره ، وعينه في أحد الدواوين ، وخاف ابن الهيثم الحاكم ، فهذا الخوف هو الذي جعله يعتذر عن القيام بمشروعه ، لكن ورطته الآن أشد ، فقد يبطش الحاكم بحياته ، وفتش ابن الهيثم عن المخرج ، فوجده بالتظاهر بالبلاهة والاصابة بالجنون ، وبالفعل انطلت الحيلة على الحاكم وعلى سواه ، وتم الحجز على أمواله وأملاكه ، وترك له بعض المال يكفي للقيام بأوده .

واستمر الحاكم يرعى جانبه ، ويعطف عليه ويعامله باللين والرفق ، وظل الحال هكذا حتى اختفى الحاكم ، وذهب في غيبة عظمى احتار الباحثون في

تعليلها ومعرفة أسبابها ووقائعها ، وكان الحاكم قد رعى حركة دينية خاصة أثناء حياته ، انتهت بغيبته ، وحـل محلها فترة من الظهور على يـد الخليفة الظاهر ، الذي كان عليه أن يرعى عقيدة الظاهر لا الباطن .

ومع عهد الظهور الجديد ، أظهر ابن الهيثم حالته العادية ، وخلع رداء البلاهة والجنون ، وعاد كالعهد به ابن الهيثم العبقرية الكبرى ، وقد أفرجت السلطات له عن أمواله ، وقدرت له موقفه ، واستوطن ابن الهيثم الآن في قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام فيها زاهداً متنسكاً وعمل بالتصنيف والنسخ والتعليم ، وكان يقتات من موارد عمله هذا .

ويبدو أن ابن الهيثم شعر بالحنين إلى العراق ، وكان بالأصل يحب السفر ، لهذا توجه نحو بغداد ، لا ندري متى ، إنما محقق أنه كان فيها سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، ولم تدم إقامته في العراق بل عاد ثانية إلى مصر فتوفي فيها في حوالي سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م .

عاش ابن الهيثم زاهداً بعيداً عن متارف الدنيا وجاهها، مؤثراً لحياة العزلة مع كفاف العيش والتفرغ للعلم بحثاً وتصنيفاً ، فقد قال : «إني ازدريت عوام الناس ، واستخففت بهم ، ولم ألتفت إليهم ، واستنهيت ايثار الحق وطلب العلم ، واستقر عندي أنه ليس ينال الناس من الدنيا أجود وأشد قربة إلى الله من هذين الأمرين » .

كان ابن الهيثم موسوعي الثقافة عمل في الطب ، واهتم بطب العيون ، فلانشغاله بمسائل الضوء نراه يصف العين ، ويبين أقسامها بمسميات منحها إياها ما تزال مستخدمة حتى الآن ، فهو قد كان أحد رواد طب العيون ، له تجاربه مع محصلات نالها من دراسته لكتب الأوائل .

ومع الطب تنـاول الحساب ، والأرقـام والجبر والمقابلـة والهندسة والمثلثات ، وحساب المعامـلات ، وعلوم الهيئـة والطبيعيات والجغرافية والأدوية ، والفلسفة والمنطق وعلم الكلام وما وراء الطبيعة وصنف حول ذلك كلـه .

إنما مهما بلغت مكانته في هذه الميادين وعظم دوره ، فالذي وقف نفسه عليه ، ونال بعمله به الشهرة والخلود هو علم البصريات ، فهو لـم يكتف بتشريح العين وتسمية أجزائها ، بل فسر آلية الرؤية وكان أول من بين أن ذلك يتم من انعكاس شعاع صادر عن الجسم المرئي إلى العين ، وبذلك خالف متقدميه وعارض النظريات التي كانت قائمة .

وضع ابن الهيثم كتاباً في البصريات سماه « المناظر » بحث فيه في الضوء اعتماداً على المشاهدة والمناقشة المنطقية بمنهجية سليمة ، وذلك بصرف النظر عن أن بعض ما قاله قد لا يتوافق مع حقائق هذا العلم ومكتشفاته أيامنا هذه ، فابن الهيثم رائد منهجي في فيزيـاء الضوء بيّن كيف تنظر إلى الأشياء في العينين ، فقال بأن الخيال المرئي يسقط على الشبكية في محلين متماثلين ، وأن الشبكية تنقل التأثير إلى المخ .

واهتم ابن الهيثم بالعدسات وخواصها ، ويمكن اعتباره بأنه كان ممهداً لاختراع العدسات المساعدة على تدارك أمراض الرؤيا وعيوبهـا ، وأوضح أن هناك فوارق بين الكواكب ، وأنها ليست جميعاً مثـل القمر ، وبين أن الفجر يبدأ حينما تكون الشمس على تسـع عشرة درجة تحت الأفق قبـل شروقها ، وقال بأن الشفق يتلاشى حينما تصبح الشمس على تسع عشرة درجـة تحت الأفق بعـد غيابها ، كما حاول أن يقيس طبقـة الهواء المحيطة بالأرض ، فقدرها بقرابة « عشرة أميال » وعلل بشكل علمي صحيح اتساع حجم الشمس والقمر في الرؤيـا وهما عنـد الأفق ، كما فسّر ظاهرة قوس قزح والهالات مع الخسوف والكسوف ، واختبر الأشعة الضوئية ، وفحص انكسارها داخل الأوساط الشفافة من ماء وهواء ، وأوضح أن سرعة الضوء كبيرة جداً إلى حد غير متناهي ، وأن سرعة الضوء في الأوساط المختلفة تتناسب عكسياً مع الكثافة البصرية .

ودرس فيما درس خواص المرايـا بأنواعها ، من مسطحـة ومجسمة ومقعرة ، واهتم بموضوع المرايا المحرقة ، فتوصل إلى استنباط شعاع فاق في

طاقته ما عرفه الاغريق من قبل ، وصنع مرايا من المعدن ، وراقب شكل الضوء والأشعة أثناء ولوجها إلى الأماكن المظلمة من ثقوب ضيقة ، وشاهد الصورة المقلوبة للظل ، فكان بهذ االرائد الأول لاختراع « الكاميرا » .

وابن الهيثم كاتب غزيـر الانتاج ، شرح كتب غـيره وصنف الجديد المبدع ، وزادت كتبه ورسائله ومقالاته على المئتين ، ومن بين كتبه : « الجامع في أصول الحساب » « تلخيص علم المناظر من كتابي اقليدس وبطليموس » « تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة » « تحديد سمت القبـلة في جميـع المسكونة » « التحليل والتركيب الهندسيين » « المناظر » مع عدة رسائل حول المرايا بأنواعها وكتب أدبية وصوفية .

وكتابه « المناظر » هو أخطر ما كتبه ، ترجم قديماً ودرس ، وبما قدمه به احتل مرتبته إلى جانب ابن سينا والبيروني ، وكان أعظم علماء الضوء في التاريخ العربي وتاريخ العالم في العصور الوسطى .

البيروني

(ت : بعد ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م)

لقــد أسهم العرب في تقدم العلوم بقسط كبير جــداً ، وكان لعلمائهم نظريات مبتكرة لم يسبقهم إليهــا انسان ، وعدد علماء العرب أكبر من أن يحصى ، ما زالت كتبهم موزعة على رفوف مكتبات العالم تنتظر من يكشف محتوياتها ، وحينما نقوم باستعراض أسماء بعض مشاهير العلماء نجد البيروني يتصدر هذه الأسماء لما قام به من اسهامات جليلة في مختلف ميادين العلوم وخاصة الفلك .

والبيروني هو : أبو الريحان محمد بن أحمد ، ينسب إلى بيرون التي كانت واقعة في أحواز مدينة كاث عاصمة واحة خوارزم في منطقة ما وراء النهر ، ولد كما هو مرجح سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م من أسرة ايرانية ، وكانت واحة خوارزم وخراسان من ممتلكات الامبراطورية السامانية ، وكانت العلوم والمعارف في ظل السامانيين نشطة ، وحوى قصرهم مكتبة كبيرة استفاد منها ابن سينا ، ومرجح أن البيروني استفاد منها أيضاً ، فهو قد ظهر نبوغه مبكراً بعدما درس على عدد من كبار شيوخ عصره ، وقصد بخارى وكان فيها في أواخر القرن العاشر .

ومن بخارى سافر البيروني إلى خراسان ، فأقام بجرجان بعض الوقت ، وكذلك في الري ، ثم عاد إلى خوارزم حيث عاش في بلاطها حتى سقطت دولة خوارزم لمحمود الغزنوي ، وكانت الدولة السامانية قد سقطت منذ أمد ، وهكذا أصبح البيروني من رجالات بلاط غزنه اعتباراً من سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦ .

ورافق البيروني السلطان محمود الغزنوي في حملاته على الهند ، فتعلم

اللغة السنسكريتية مع بعض لهجات الهند الأخرى ، كما حصل على معلومات كبيرة عن أحوال الهند ، ظهرت في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » •

وبعد وفاة السلطان محمود وصيرورة السلطنة إلى ابنه مسعود ظل البيروني في بلاط غزنة ، ولم يغادره كما هو مرجح حيث توفي في غزنة ، وتاريخ وفاته موضع مناقشة، وأرجح الآراء أنه كان بعد سنة ٤٤١هـ/١٠٥٠م•

كان البيروني جغرافياً ، وفلكياً ، ولغوياً ، وفيلسوفاً ،صنف بالعربية عدداً من الكتب الهامة ، أصدر البعض منها أيام السامانيين ، والبعض الآخر « مثل الآثار الباقية عن القرون الخالية » أثناء وجوده في جرجان ، ثم الأهم والأشهر ، وهو في بلاط غزنة ، مثل كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » وكتاب « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » « والقانون المسعودي » • وكتاب « الجماهر في معرفة الجواهر » وكتاباً في الصيدلة •

وعلى أهمية جميع كتب البيروني وجلالة المعلومات المودعة فيها ، فإن كتاب « القانون المسعودي » هو الأشهر والأعظم مكانة ، وقد صنفه سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م وأهداه إلى السلطان مسعود بن محمود ، فأعطاه حمل فيل من الفضة مكافأة له ، لكن البيروني رفض أخذها ، ويعد هذا الكتاب موسوعة فلكية نادرة ، تناول فيها بالتفصيل كل ما يتعلق بعلم الفلك سواء من حيث المبادىء الأساسية ، أو من حيث المعارف العالية ، مع مقارنات ونظريات معارضة أو مطورة لأبحاث السابقين والمعاصرين له •

ويشتمل كتاب « القانون المسعودي » على إحدى عشرة مقالة ، كل منها مقسم إلى عدد من الأبواب ، تبلغ في مجموعها مائة واثنان وأربعون باباً ، تغطي جميع الأرصاد والنظريات الفلكية في ذلك الوقت ، بالاضافة إلى ما كان قد توصل إليه علماء الحضارات السابقة مع المعاصرين للبيروني •

وقدم البيروني مواده بشكل علمي يتضمن تجربته مع النقد الموضوعي لمعلومات سواه ، وتفنيده لآراء من سبقه دون تحيز أو محاباة أو تجريح ، فهو قد وضع نصب عينيه ألا يقبل النظريات والأرصاد إلا بعد مناقشة

البراهين والأدلة وفحصها ثم الاضافة إليها من محصلاته ، ولقد أعاد البيروني الأرصاد والتجارب أكثر من مرة حتى يستوثق من صحة النتائج ، ونلاحظه في كتابه الموسوعي لم يتخل أبداً عن سمة العالم المتواضع .

وإلى جانب الناحية الفلكية التي وقف عليها كتابه ، نراه قد خصص بعض أجزاء الكتاب لتناول موضوعات غير فلكية مباشرة ، ففي المقالة الثانية تعرض بصورة موجزة لتواريخ الأنبياء والملوك من عهد آدم حتى ملوك عصره، وقدم هذه المواد لصلتها الوثيقة بالتقاويم المختلفة والتواريخ المشهورة، ولم يقتصر البيروني على سرد أسماء ومواقيت الأعياد بل أشار إلى أصلها والأسباب التي جعلت منها عيداً دينياً أو مناسبة مشهورة .

ومن المواضيع الأخرى التي تعرض لها ، وهي متصلة بعلم الفلك : الرياضيات وجداول حساب المثلثات ، وذلك في المقالة الثالثة ، وهنا مرة أخرى ظهر نبوغ البيروني وعمق تفكيره ودقة أبحاثه ، حيث توصل إلى قوانين الاستكمال التي نسبت حديثاً إلى نيوتن .

وفي المقالة الرابعة ناقش البيروني عدة مسائل منها ايجاد ميل محور الأرض على مسارها حول الشمس وتحويل الاحداثيات السماوية بعضها إلى بعض ، وتعيين الوقت ، وتعيين خطوط الطول والعرض للبلدان .

ومع الفلك أسهم البيروني في علوم التعدين والجواهر، فتناول الخواص الطبيعية لبعض المواد ، وقوة الجاذبية الأرضية مع الثقل النوعي للماء ، وتأثير الحرارة على المعادن وغير هذا .

إن تناول جميع اسهامات البيروني محال في بحث واحد ، فهو قد كان من أعظم العقليات في التاريخ ، ويحدثنا ياقوت عنه ، ويذكر أنه شاهد قائمة بأعمال البيروني في أكثر من ستين صفحة ، كما يذكر أن قاضياً من أصحاب البيروني قال : « دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه، وضاق به صدره ، فقال لي في تلك الحال : كيف قلت لي يوماً حساب الجدات

الفاسدة ، فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ فقال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟! فأعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمني ما وعى ، وخرجت من عنده ، وأنا في الطريق ، فسمعت الصراخ » •

لقد كان البيروني منهلاً كبيراً نهل منه العلماء في بلاد الاسلام والغرب ، وكتبه مصدراً أساسياً للأبحاث العلمية ، وقد ترجم العديد من كتبه إلى اللاتينية والانكليزية والفرنسية والألمانية ، فالبيروني كان أحد الأقطاب الثلاثة الذين وصلت الحضارة العربية بوساطتهم الذروة واستقرت على تتاجهم ، والقطبان الثانيان بالاضافة للبيروني هما كما رأينا : ابن سينا ، وابن الهيثم •

الجـــزري

(ت : ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م)

دعـا العرب المنطقة الواقعة في أعالي ما بين النهرين Mesopotamia باسم الجزيرة ، وبعد إكمال فتح كل من العراق والشام جعل عمر بن الخطاب الجزيرة ولاية قائمة بذاتها ، ومنطقة الجزيرة هي ذات مدن كثيرة ، شغلت دوراً حضارياً بعيداً في التاريخ ، وبعد قيام الاسلام استمر عطاء أهل الجزيرة الحضاري، فمن بلدان الجزيرة جاء أوائل المترجمين ورجال الحكمة والفلسفة والطب ومختلف أنواع العلوم ، كما جاء عدد من الاداريين .

وكانت أرض الجزيرة منذ ما قبل الاسلام مجالاً خصباً لعدد من القبائل العربية ، كما شهدت في العصور الاسلامية عدداً من جليل الأحداث ، من ذلك الصراعات القبلية ، وثورات الخوارج ونشاطات القرامطة ، وحوادث الصراع العربي البيزنطي ، مع حوادث الصراع فيما وراء أرمينية ، أو ما عرف بجبهة الخـزر .

ولجليل مكانة الجزيرة ، أقدم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميـة على نقل عاصمته إلى مدينة حران ، إحدى أشهر مدن الجزيرة .

وقسم العرب اقليم الجزيرة إلى ثلاث ديار هي : ديار مضر ، وديار ربيعة ، وديار بكر ، وعندما تفككت أوصال الخلافة العباسية قامت في الجزيرة الدولة الحمدانية ، التي اتخذت من مدينة الموصل عاصمة لها ، وعندما سقطت الدولة الحمدانية بالموصل ورثها دولتان هما : الدولة العقيلية في الموصل والدولة المروانية في ميافارقين وديار بكر ،وقد استمر وجود هاتين الدولتين حتـى أواخر القـرن الخامس هـ / الحادي عشر م حيث سقطتا للتركمان بزعامة السلاجقة وضباطهم .

وفي نهاية القرن الحادي عشر وصل الغزو الصليبي إلى بلاد الشام وأعالي الجزيرة ، فلقد أسس الصليبيون في الرها (أورفا الحالية في تركيا) أول دولـة لهم الشرق ، وفي مقابل هـذه الدولة قام للمسلمين في الجزيرة مجموعة من الدويلات المتفاوتة الأحجام والأدوار، وكان الصراع ضد الصليبيين على أرض الجزيرة حاداً وحاسماً ، وأهم الدول ما قام في الموصل خاصة الدولة الأتابكية وما قام في ديار بكر وماردين وخاصة الأمارات الأرتقية .

واستمر دور الجزيرة في العطاء الحضاري ، حيث وجد العلماء والشعراء وسواهم ، ففي الجزيرة عاش آل الأثير ، وفي حران الجزيرة تعـلم الفارابي الفلسفة .

ليس الغرض هنا استعراض العطاء الحضاري للجزيرة ، بل الوقوف على جانب هام من هذا العطاء وهو جانب علم الحيل (الميكانيك) ، وعلم الحيل اهتم العرب به كثيراً ، ففي الفترة المبكرة المشرقة من التاريخ كان هناك آل شاكر الذين وصلنا بعض نتاجهم الرفيع .

لكن رغم المكانة السامية لآل شاكر في علم الحيل ولغيرهم ممن عمل في العصر الصليبي في مجالات تطوير الأسلحة نجد أن « بديع الزمان أبو العز ابن اسماعيل بن الرزار الجزري » كان أعلاهم علماً وأعظمهم عطاء ، خاصة في كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في علم الحيل » .

لا نعرف في المصادر المتوفرة ترجمة لحياة الجزري ، وكل ما سنقدمه عنه نستخلصه من مقدمة كتابه « الجامع » ، فمن هذه المقدمة نعلم أنه عاش في البلاط الأرتقي في مدينة آمـد (ديار بكر الحالية) منذ سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م. وتعامل مع ثلاثة من الأمراء الأراتقة كان آخرهم ناصر الدين محمود ابن محمد [٥٩٧ ــ ٦١٩ هـ / ١٢٠٠ ــ ١٢٢٢ م] ، ففي أيام هذا الأمير وضع الجزري كتابه ، وذلك بناء على رغبته وتشجيعه ، يقول الجزري متحدثاً عن ذلك : « وبينا أنا ذات يوم لديه ، وقد عرضت شيئاً مما صنعته عليه ، وهو ينظر إليّ ، ثم ينظر ويفكر فيما كنت هممت به ولا أشعر فرمى حيث

كنت رميت ، وكشف باصابته عما أخفيت ، فقال : لقد صنعت أشكالاً عديمة المثل ، وأخرجتها من القوة إلى الفعل ، فلا تضع ما تعبت فيه، وشيدت مبانيه ، وأحب أن تصنف كتاباً ينظم وصف ما استبديت بتمثيله ، وانفردت برصف تصويره وتشكيله ، فبذلت من قوتي حسب الاستطاعة ، إذ لم أجد محيداً عن الطاعة ، وألفت هذا الكتاب » .

وإذا كنا قلنا بأن الجزري شرع في تأليف كتابه أيام ناصر الدين محمود دون تحديد للتاريخ ، نستنتج من النسخة الخطية من كتابه والمحفوظة في اكسفورد أنه أكمل تصنيفه في الرابع من جمادى الآخرة سنة ٦٠٢ هـ [١٦ كانون الثاني ١٢٠٦ م] ونستنتج أيضاً من النسخة الخطية المحفوظة في طوب قبـي سراي في استانبول أن الجزري توفي عقب حوالي الثلاثـة أشهر من تصنيفه لكتابه .

لا نعرف سن الجزري حين وفاته ، ولا المدينة التي ولد فيها ، وأرجح هنا أن تكون جزيرة ابن عمر ، ويساعدنا على هذا ما أورده السمعاني في كتاب الأنساب وما جاء حول آل الأثير الجزريين ،فالذين ولدوا في اقليـم الجزيرة نسب كل منهم إلى مدينته خاصة وليس إلى الاقليم ، فالنسبة عادة إلى المدينة ، وهذا ما أكده ياقوت في معجم البلدان .

لا ندري شيئاً عن نشأة الجزري ولا نوع الثقافة التي حصلها ، لكن يبدو أنه تدرب منذ صغره على الاهتمام بعلم الحيل ، واطلع على العديد من المؤلفات في هذ االمجال ، فهـا هو يقول : « وبعـد فإني تصفحت من كتب المتقدمين وأعمال المتأخرين ، أسباب الحيل في الحركات المشبّهة بالروحانية وآلات الماء المتخذة للساعات المستوية والزمانية ، ونقـل الأجسام بالأجسام عن المقامات الطبيعيـة ، وتأملت في الخلاء والملاء لوازم مقالات برهانيـة ، وباشرت علاج هذه الصناعة برهة من الزمان ، وترقيت في عملها عن رتبـة الخبراء إلى العيان ، فأخذت فيها أخذ بعض من سلف وخلف واحتذيت حذو من عمل ما عرف » .

وبعدما ظهرت براعته في علم الحيل ، وبانت عبقريته في صنعه الآلات المائية والساعات ، ألحق بخدمة البلاط الأرتقي في آمد ، وهي مدينة تمتعت بموقع جيد ، وبامكانات زراعية كبيرة ، وكانت أحوالها أيام الحكم الأرتقي من الناحية الاقتصادية بصورة عامة جيدة ، لذلك كثرت فيها أعمال الانشاء والبناء ، والصناعات .

وفي البلاط الأرتقي وصل الجزري إلى رتبة رئيس الأعمال (كبير المهندسين) ولاقى عناية كبيرة وتشجيعاً مثمراً ، لنسمعه يتحدث عن هذا بقوله : « ولما لهجت بمزاولة هذا المعنى الدقيق ، ولججت بمحاولة مجازه والتحقيق ، رمقتني أعين الظن بالتبريز في هذا الفن العزيز ، وامتدت إليّ أبواع ذوي الهمم الرفيعة لاستطلاع أنواع الحكم البديعة ، فعناني من عناية ملوك زماني ، وفلاسفة أواني ما أثمر به غرس اعتدادي ، وأقمر له ليل اجتهادي ، فاستنهضت ما قعد من همتي ، وأيقظت ما رقد من قريحتي ، واستغرقت الجهد والجد ، واستنفذت الوسع والوجد » .

والعناية التي لقيها الجزري أمر ليس بالمستغرب ، فقد لاقى المهندسون عبر جميع فترات التاريخ الاسلامي ، وفي كل مكان عناية ورعاية ومتابعة ليس لها نظير ، والمهندس في الحضارة العربية غالباً ما جمع بين الفكر النظري والتطبيق ، لذلك كان دائماً يتمتع بصفة المطور والمخترع ، وهذا ما نراه جلياً في كتاب الجزري « الجامع بين العلم والعمل » وهو يقول : « وكنت وجدت فريقاً ممن خلا من العلماء ، وتقدم من الحكماء ، وضعوا أشكالاً ، وذكروا أعمالاً لم يباشروا لجملتها تحقيقاً ، ولا سلكوا إلى تصحيح جمعها طريقاً ، وكل علم صناعي لا يتحقق بالعمل فهو متردد بين الصحة والخلل ، فجمعت فصولاً مما فرقوه وفرعت أصولاً مما حققوه ، واستنبطت فنوناً لطيفة المدارج ، خفيفة المداخل والمخارج » .

وهكذا أقدم الجزري على تصنيف كتابه فوصف فيه أنواعاً من الآلات الدقيقة المعقدة ، وركز اهتمامه على الساعات والآلات المسيرة بالماء

[الهدروليك] وزين كتابه بصور رائعة لهذه االآلات ، فهو على هذا جمع إلى سمه الاختراع القدرة على الرسم الصناعي ، وهذه قضية تستحق الدراسة بشكل مركز •

ولقد أدرك الجزري أن ما صنعه شيء عظيم ، وما حققه لأمر كبير جداً ، لم يسبقه أحد إليه ، ومع هذا قدم كتابه للقراء بتواضع العلماء بقوله : « فبذلت من قوتي حسب الاستطاعة •••• واثقاً بكرم من يقف عليه من أهل العلم ، وقد علم أولو العدل في الحكم ، أن كلاً ميسر لما له خلق ، ومنفق مما منه رزق ، ولا تألو نسمة نفعها ، ولا تكلف نفس إلا وسعها » •

لقد لاقى كتاب الجزري في عصرنا الحديث عناية كبيرة فقد وصفه سارتون مؤرخ العلم بقوله : « هذا الكتاب أكثر الأعمال تفصيلاً من نوعه ، ويمكن اعتباره الذروة في هذا المجال بين الانجازات الاسلامية » وترجمت قطع منه إلى الألمانية كما ترجم نصه كله مع دراسة إلى الانكليزية من قبل دونالد هيل سنة ١٩٧٤ ، ثم نشر محققاً بالعربية بشكل علمي رفيع في حلب سنة ١٩٧٩ ، فهو الآن متيسر بين يدي القراء العرب ، يحصلون منه ليس فقط على المعرفة التراثية بل المصطلح مع الشهادة التي لا تدحض أن اللغة العربية كانت قادرة في الماضي على التعبير عن أدق المصطلحات العلمية والتقنية ، وهي بالتالي قادرة الآن وبالمستقبل •

ابن البيطار

(ت : ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)

حقق العرب نجاحات كبيرة في مجالات الطب وصناعة الدواء ، مع بقية فروع العلوم ، فقد اهتموا بدراسة مختلف أنواع النبات ، وتوصلوا إلى معرفة الخواص الاستطبابية لكل نبات ليس بشكل عام وإنما بأشكال خاصة حسب طبائع الأجساد عند بني الانسان ، وحين تتطرق إلى هذا الجانب الهام لدى العرب ، نجد أن ابن البيطار يتصدر قائمة أسماء العلماء العرب الذين اهتموا بالأعشاب واستخراج الدواء منها .

وابن البيطار هو : أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ضياء الدين الأندلسي المالقي العشاب المعروف بابن البيطار ، إمام النباتيين وعلماء الأعشاب ،ولد كما هو مرجح في الربع الأخير من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من أسرة ابن البيطار من مدينة مالقة ، لا ندري الكثير عن حياته المبكرة سوى أنه كان من شيوخه في علم النبات أبو العباس أحمد بن محمد ابن مفرج النباتي المشهور بابن الرومية ، وكان ابن الرومية يجمع الأعشاب من منطقة اشبيلية ، وعمل ابن البيطار مع استاذه على جمع الحشائش من منطقة اشبيلية .

وكانت بلاد الأندلس في هذه الآونة تتبع مراكش حاضرة المغرب الأقصى ، وعندما بلغ ابن البيطار العشرين من عمره غادر الأندلس إلى المغرب حيث تجول في أراضيها مع أراضي بقية مناطق شمالي أفريقية ، حتى وصل إلى مصر ، وكان يحكمها الملك الكامل الأيوبي ، فالتحق بخدمته فعينه رئيساً على العشابين ، وحينما توفي الملك الكامل خلفه ابنه الملك الصالح نجم الدين ، فاستبقاه بخدمته ، وكان الملك الصالح يقيم بدمشق فسبب ذلك

قدوم ابن البيطار إلى الشام ، ومن دمشق بدأ ابن البيطار بدراسة النباتات في الشام ، كما سافر إلى آسية الصغرى واتصل بالاختصاصيين بالأعشاب ، ودرس بعض الكتب الاغريقية حول النبات ، حيث يبدو أنه قد أتقن اللغة اليونانية ، وربما اللاتينية أيضاً ، بدليل ما أورده تلميذه ابن أبي أصيبعة بأنه كان يشرح له فقرات من كتب اغريقية واخرى لاتينية ، ويبدو أيضاً أنه أتقن الفارسية ، وكان ملماً بالبربرية والاسبانية الدارجة ، فهـو يورد في كتاباته المترادفات لأسماء النباتات بهذه اللغات •

في دمشق تعرف ابن البيطار بابن أبي أصيبعة ، وكان أول لقاء بينهما فيها « سنة ثلاث وثلاثين وستمائة » وأعجب ابن أبي أصيبعة بابن البيطار وتتلمذ عليه ورافقه في جمع الأعشاب واستفاد من علمه ، ذلك أن ابن البيطار كان متمكناً من اختصاصه ، ورغم الصلات التي قامت بين ابن البيطار وتلميذه ابن أبي أصيبعة ، فالمعلومات التي يقدمها الأخير في كتابه عيون الأبناء عن استاذه قليلة ولا تفي بالغرض •

عاش ابن البيطار نحواً من سبعين عاماً وتوفي سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م وقد كتب ابن البيطار عدة كتب أهمها كتابين هما : كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، وكتاب المغني في الأدوية المفردة في العقاقير ، والكتاب الأول عبارة عن مجموعة من العلاجات البسيطة المستخرجة من النبات والحيوان والمعادن ، جمعها ابن البيطار مما وقف عليه من مؤلفات ومما كسبه من تجاربه الشخصية ، والكتاب تناول فيـه ابن البيطار علاج الأعضاء عضواً عضواً بطريقة مختصرة كيما ينتفع به الأطباء •

ولأهمية كتب ابن البيطار ترجمت إلى عدد من اللغات ، ولمكانة كتابه الأول « الجامع » سنقف عنده لنتعرف إلى محتوياته ومنهج صاحبه مع قيمته العلميـة •

يتحدث ابن البيطار في مقدمة كتابه هذا بأنه قام بوضعه بناء على رغبة من الملك الصالح نجم الدين أيوب في أربعة أجزاء ليذكر فيه « الأدوية المفردة

ويبين ماهياتها ، وقوامها ومنافعها ، ومضارها ، واصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل من جرمها أو عصارتها أو طبيخها ، والبدل عنها عند عدمها ، وأنه توخى في ذلك ستة أهداف :

ـ الأول : استيعاب القول في الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام ، والاستمرار عند الاحتياج إليها في ليل كان أو نهار .

ـ الثاني : صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين ، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدي ، ادخرته كنزاً ، وأما ما كان غير ذلك نبذته ظهرياً .

ـ الثالث : ترك التكرار إلا عند الحاجة .

ـ الرابع : تقريب مأخذه بترتيبه على حروف المعجم .

ـ الخامس : التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر ، لاعتمادي على التجربة والمشاهدة .

ـ السادس : ذكر اسماء الأدوية بسائر اللغات » .

إن هذا الدستور عمل رائع ، يدل على سمو مكانة ابن البيطار وتمكنه من اختصاصه ، فهو كان يذكر مصادره بكل أمانة ووضوح ، ويبرهن على صحة تجاربه ومشاهداته ، ومع هذا كله كان ابن البيطار مرتبطاً بعصره والمجتمع الذي عاش فيه ، لذلك ردد ما هو غير مقبول اليوم مثل : إن زبل التمساح يزيل بياض العين ، وإذا علق قلب الحبارى في خرقة على من يكثر نومه منع عنه النوم ، وإذا علق الحرذون على صاحب حمى الربع في خرقة سوداء أبرأها وأزالها إلى غير ذلك ، لكن مثل هذه المواد لا تقلل البتة من قيمة كتاب ابن البيطار ، فهو قد جمع مادته ورتبها بصفته الطبيب العالم المجرب، ولا شك أن محتويات هذا الكتاب ذات قيمة عالية، وجديرة بالدراسة لاكتراث فحسب بل للاستفادة والتطوير ، سيما وأن عصرنا بدأ ينبذ استخدام المضادات الحيوية وما لف لفها وأخذ يعود نحو التداوي بالأعشاب لأنها خالية من السموم .

ابن النفيس

(ت : ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م)

تضاءل دور بلاد الشام الحضاري والسياسي بعد زوال الخلافة الأموية، وساد التمزق في هذه البلاد ، وعندما ضعفت أحوال الخلافة العباسية وظهرت الدول المستقلة ، استقلت الشام ، وأخذت تسعى لاعـادة تكوين شخصيتها ثانية لممارسة دورها ، لكن هذا لم يتم بشكل كامل ، لأن طابع التمزق ظل هو المتحكم ، واستمر الحال هكذا حتى ما بعد قيام الحروب الصليبية ، وفي مواجهة للتحدي الصليبي جرت محاولات كبرى فعالة لتوحيد البلاد ، ونجح نور الدين في توحيد شمال الشام مع جنوبه ، ومدّ هذه الوحدة إلى وادي النيل ، لتمد إلى مناطق أخرى من بعد .

وفي دمشق اهتم نور الدين بدور بلاد الشام الثقافي والحضاري بقدر ما أهتم بنشاطها السياسي والعسكري ، فقد بنى المارستان (المشفى) النوري وجعله معهداً للتعليم والمداواة ، وأقام لابن عساكر داراً للحديث كانت أول جامعة من نوعها في التاريخ الاسلامي إلى غير ذلك .

وفي مشفى دمشق العظيم درس وعمل وتخرج عدد كبير من كبار أطباء التاريخ الاسلامي، ففي هذا المشفى عمل ابن أبي أصيبعة مؤرخ الطب العربي، وابن النفيس ، وابن البيطار وغير ذلك كثير .

ويذكر أنه بعدما وحدت بلاد الشام مع مصر ، وأزيلت الخلافة الفاطمية من مصر عثر صلاح الدين في قصر الخلافة على مكتبة كبيرة كان فيها مصنفات طبية كثيرة ، كما تم العثور على بعض الأدوات الطبية ، ووجد في القصر قاعة كبيرة ، كان قد بناها الخليفة العزيز بالله بن المعز [٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ ــ

٩٩٦ م] قيل له إن بها طلسماً يمنع دخول النمل إليها ، فاختار صلاح الدين المكان لبناء مشفى ، عرف بالمارستان الناصري ، وفيما بعد « بالعتيق » وذلك حينما بنى السلطان قلاوون مارستاناً جديداً عرف باسم « المنصوري » .

وكانت الصلات بين مشفى دمشق « النوري » ، ومشفى القاهرة « الناصري » متينة ، وقد اعتاد سلاطين بني أيوب على ارسال الأطباء من دمشق للعمل في القاهرة ، وأحياناً العكس صحيح ، ولعل بين أشهر من أرسل من دمشق إلى القاهرة الطبيب ابن النفيس .

وابن النفيس هو : علاء الدين ، أبو الحسن، علي بن أبي الحزم القرشي، ولد في مدينة دمشق سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، من أسرة جاءت من قرية «قرش» من منطقة ما وراء النهر ، وفي دمشق نشأ ونال ثقافته الأولى ، واهتم بالطب،فأخذه على عدد من مشاهير أطباء القرن الثالث عشر مثل: رضي الدين،أبو الحجاج ، يوسف بن حيدرة الرحبي ، ومهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم ابن علي الدخدار ــ رئيس أطباء مشفى دمشق ــ وعمران الاسرائيلي ،وفي مقتبل شبابه عمل ابن النفيس في المشفى النوري ، وتسلم رئاسة أحد الأجنحة وزامله في عمله في المشفى ابن أبي أصيبعة ، ثم دعيا معاً للعمل في القاهرة ، أيام السلطان الكامل محمد الأيوبي، وكان ابن النفيس في السادسة والعشرين من عمره .

وفي القاهرة تسلم ابن النفيس رئاسة المشفى الناصري ، وعمل معه ابن أبي أصيبعة وترأس جناح الكحالين « العينية » لفترة من الزمن ، ثم غادر القاهرة للعمل في « صرخد » حيث قضى شطراً كبيراً من حياته ، ويتساءل المرء : هل غادر ابن أبي أصيبعة القاهرة لتنافسه مع ابن النفيس ، وكان هذا وراء اغفال ابن أبي أصيبعة ذكره في كتابه عن حياة وأعمال كبار الأطباء ؟

ونستخلص من كتب التراجم المختلفة أن ابن النفيس كان نحيفاً ، طويل القامة ، رقيق الجانب ، دمث الخلق ، ممتازاً في آداب المعاملة ، لم يتزوج ، وكان واسع الاطلاع ، محيطاً بثقافة عصره ، أكثر معاصريه معرفة ليس في

الطب فحسب بل في العلوم كافة ، ونعلم هذا مما صنفه في الشريعة ، واللغة والسيرة النبوية والفلسفة وعلوم الحديث ، وفي الجدل وعلم الكلام ، حيث كتب « فاضل بن ناطق » لمعارضة « حي بن يقظان » .

ومع ثقافته الموسوعية ، فإن عمله في الطب هو الذي أكسبه مجده وشهرته ، فقد روي بأنه حفظ عدداً من كتب الأصول الطبية عن ظهر قلب ، مثل كتب جالنوس وقانون ابن سينا ، وقد اعتبره معاصروه مساوياً لابن سينا من حيث المكانة ، ومدى المعرفة الطبية ، وكان يعتمد في علاجه على الحمية أكثر من اعتماده على العقاقير ، كما تعامل مع الأدوية المفردة مفضلاً إياها على الأدوية المركبة .

وكان ابن النفيس ذكياً ، حاضر البديهة ، اعتمد علـى تجاربه ، ولم يتقيد بآراء من سبقه إلاّ بقدر ، ونقد بعضها بشكل دقيق وعلمي ، ذلك أنه لجأ في دراسته للأعضاء إلى التشريح، ولم يعتمد فقط على الرسوم التوضيحية الموروثة ، وكان سريع البديهة ، عميق التفكير ، يروى أنـه كان يوماً في الحمام ، فتركه فجأة إلى قاعة الملابس ، وأمر بأحضار أدوات الكتابة ، وأسرع بكتابة رسالة في النبض ، جاءت طويلة ، حتى قيل بأنه كان بعض الناس يقف بين يديـه لتحضير الأقلام ، ومناولته الواحد تلو الآخر ، فقـد كان يؤلف بسرعة، دون الرجوع إلى الأصول، بل اعتماداً على حفظه ومحصلات تجاربه.

وقد كتب كثيراً ، وجل ما كتبه جاء على شكل شروح وتعليقات على بعض كتب من سبقه ، ومن مؤلفاته في الطب : « الكتاب الشامل في الطب » وهو موسوعة طبية أرادها في ثلاثمائة جزء ، وتوفي دون أن يتمها ، وكتاب « المهذب في الكحل » وهـو يبحث في أمراض العين وعلاجها ، وكتـاب « المختار في الأغذية » و « موجز القانون » وهو الكتاب الذي منحه شهرة واسعة ، فقد اختصر ــ لا بل أعاد تصنيف ــ كتاب قانون ابن سينا ، وسهل تناوله على أطباء عصره ومن بعدهم، الذين أقبلوا على دراسته وشرحه والتعليق عليـه .

إن البحث في أعمال ابن النفيس يبرهن على أن اسمه مؤهل للخلود بين كبار عباقرة العلم والطب في التاريخ الانساني ، فهو بما اكتشفه كان فخراً للعرب والاسلام والانسانية جمعاء ، ذلك أنه تحرر من قيود التقليد ، وتطاول على ما قدمه ابن سينا وجالنوس ، وأنكر كل ما لم تره عينه وتيقن منه عقله بالتجربة والمنطق ، وهذا جلي في كتابه العظيم « شرح تشريح القانون » ، وعلى رأس ما بحثه في هذا المصنف ارتبط بالقلب والأوعية الدموية والدورة الدموية، فالذين سبقوه تحدثوا عن حركة للدم في الجسد تشبه المد والجزر ، ورفض ابن النفيس هذا فاكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وأوضح وظائف الرئتين ، والأوعية التي بين الرئتين والقلب ، والأوعية الشعرية والحويصلات الرئوية ، والشرايين الاكليلية التي تغذي عضلة القلب ، وبذلك كان الأول في التاريخ •

أصاب ابن النفيس أثناء حياته ثروة جيدة، فابتنى داراً فخمة في القاهرة، أودع فيها مكتبة غنية، ويبدو أنه أشرف على اقامة المشفى المنصوري الذي بناه السلطان قلاوون سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٨٤ م ، ولعله رأس أطباء هذا المشفى بعد تأسيسه تاركاً بذلك العمل بالعتيق « الناصري » •

وتوفى ابن النفيس في القاهرة سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م اثر مرض اعتراه لمدة ستة أيام ، ويروى أن أحد زملائه وصف له أثناء مرضه أن يتعاطى النبيذ ، فرفض قائلاً أنه لا يريد المثول أمام ربه جل جلاله وفي جوفه خمر ، وقبل موته وقف منزله ومكتبته على المشفى المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون •

الخليل بن أحمد الفراهيدي

(ت : ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م)

بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة شرع العرب بالعمليات الحربية على جبهة العراق ، وبعد حروب الردة ازداد النشاط العسكري في العراق ، وحققوا مكاسب ضخمة ، وفي أيام الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب حدثت معركة القادسية ، وتم اسقاط الامبراطورية الساسانية ، وتنظيم الأراضي المفتوحة، فأقام العرب أولاً بلدة البصرة، ثم ألحقوها بأخرى فشيدوا الكوفة، ومع سنة أربع عشرة مصّر العرب مدينة البصرة، وأخذ العرب يفدون إلى المدينة الجديدة جاعلين منها دار هجرة وقرار ، وفيها التقى عرب الحجاز مع عرب نجد والجنوب وكونوا مجتمعاً جديداً صيغ عربياً اسلامياً ، وصار لهؤلاء العرب أسواقاً تجارية أدبية كما كان الحال عندهم في الجزيرة قبل الاسلام ، وكان المربد على بعد ثلاثة أميال من البصرة أهم الأسواق وأشهرها ، فكانت تعقد فيه الندوات وحلقات الخطباء والشعراء .

وعاشت البصرة حياة نشطة أدبياً وفكرياً ولغوياً ، وصارت مقر العلماء والشعراء ورجال الفكر ، ورغم ما حل بها إثر معركة الجمل لم تفقد البصرة مكانتها العلمية والأدبية ، وان فقدت شيئاً من أهميتها السياسية ، فكان لا ينبغ شاعر ، أو يظهر أديب أو مفكر إلاّ ويقصد البصرة ، حيث فيها من يستمع له ويعي عنه ، وينقده ويقوّم ما لديه ويزيده ويغني معارفه .

وإلى جانب البصرة في العراق ، وجدت الكوفة ، لكن أهل الكوفة صرفوا وقتهم للعمل السياسي والعقائدي المعارض أكثر من أي شيء آخر ، وحين قامت الخلافة العباسية ، آثرت هذه الخلافة الكوفة ، مما أزكى روحاً

من المنافسة بين المصرين إلى حد أنه صار لكل مدرستها الخاصة وطابعها المميز واهتماماتها المحددة والعامة .

في بصرة بداية القرن الثاني ،وفي ظل حضارة عربية اسلامية ناشئة نشطة متأثرة بعدةحضارات موروثة ومستعارة ولد حوالي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وجاء ميلاده أيام الخليفة الراشدي الخامس عمر ابن عبد العزيز ، وفي البصرة نشأ ، وعندما تجاوز الثلاثين من عمره عاش سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية ، واتخاذ العراق مقراً للحكم الجديد ، حيث انتعشت الحياة بشكل كبير وفعال .

إلى أزد عمان ينتهي نسب الخليل بن أحمد ، ومن هنا وجد من قال بأنه ولد بعمان ، وإذا صح هذا ، فإن إقامته بعمان كانت قصيرة فقد غلب عليه لقب البصري دون سواه .

في البصرة ظهرت على الخليل منذ صغره علامات النجابة وشدة الذكاء ، حيث التحق بحلقات عدد من كبار علماء عصره وشيوخهم ، كان أبرزهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان علماً في القراءة والعربية ، وتأثر الخليل أولاً بآراء الأباضية من الخوارج ، وكان نشاطهم كبيراً في البصرة ، لكنه ما لبث أن أقلع عن متابعة آرائهم ، وذلك منذ أن جالس عدة أئمة للحديث على رأسهم : أيوب السختياني البصري ، وعاصم الأحول ، وعثمان بن حاضر الأزدي ، والعوام بن حوشب وغيرهم .

ويجمع الذين يترجمون للخليل على أنه حصل من العلم ما لم يحصله غيره ، حتى بات قبلة طلاب العربية وسواها ، وأنه كان زاهداً منقطعاً إلى الله غير راغب في متاع الدنيا ، أقام بالبصرة في خص « كوخ » لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال ويأكلون أرزاق الدنيا .

وقد أرسل إليه سليمان بن علي والي البصرة لتأديب أولاده نظير راتب يجريه عليه ، فأخرج للرسول خبزاً يابساً وقال له : ما دام هذا عندي فلا حاجة لي فيه — أي سليمان بن علي — وكتب إليه شعراً يقول فيه :

أبلـغ سليمان أني عنـه في سعـة وفي غنى غير أنـي لست ذا مـال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وكان سفيان الثوري يقول : من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد ، يعني في طيب معدنه ونقاء نفسه ، فقد كان الخليل من الراغبين عن الدنيا ، راغباً إلى الله ، يحج سنة بعد سنة ، وكان يقول : إن تكن هذه الطائفة ـ يعني العلماء ـ أولياء الله تعالى ، فليس لله ولي .

والخليل كان فطناً ذكياً ، حتى قيل إنه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ، ولا أجمع لعلم العرب ، ويحكى أنه اجتمع ليلة مع ابن المقفع بطولها ، فباتا يتذاكران ثم افترقا ، فسئل الخليل عن ابن المقفع ، فقال : رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع كيف رأيت الخليل ؟ فقال : رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه .

وعلم الخليل بن أحمد لم يقتصر على الحفظ بل اعتمد على العقل المبدع الخلاق ، فعنه يروى بأنه قال : العلوم أربعة : فعلم له أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع ، وعلم له فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع ، فأما الذي له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف ، وأما الذي له أصل ولا فرع فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم ، وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب وأهله منه على التجارب إلى يوم القيامة ، والعلم الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل .

وتكثر المصادر من ايراد القصص حول ذكاء الخليل النادر ، وعبقريته في جميع المجالات ، ومع هذا يجمع المؤرخون على أنه كان قبل كل شيء إماماً باللغة العربية ، فهو قد كان الغاية في النحو وتصحيح القياس ، وهو أول من استنبط علم العروض .

ولا شك أن وراء استنباط علم العروض معرفة بالايقاع وتذوق للنظم مع ذكاء خارق ، وروت المصادر عدة روايات عن هدايته إلى علم العروض ،

منها أنه كان يمر بالصفارين ، وصدف احدى المرات أنه كان يردد بيتاً من الشعر ، فسمع مطرقة الصفار على وعـاء ، فإذا هو يوائم ما يردد ، وإذا بالفكرة تواتيه في أن يقطع الشعر تقطيعاً ، وهكذا فعل وطور حتى انتهى به الأمر إلى وضع البحور •

على الخليل تخرج عدد كبير من أئمة اللغة ، يتقدمهم سيبويه ، الذي أخذ كل ما يحكيه عن الخليل ، والخلاف بين المصادر حول سنة وفاته وسبب ذلك متوفر ، وأرجح الروايات أن ذلك كان سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وقيل في سبب ذلك أنه قال : أريد أن أوجد نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البياع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد وهو يعمل فكره بذلك ، فاصطدم بسارية من سواريه ، وهو مشغول عنها بفكره ، فانقلب على ظهره فكان ذلك سبب موته :

لقد ذكر الذين ترجموا للخليل تصنيفه لعدة كتب منها :

كتاب الايقاع • كتاب تصريف الفعل • كتاب التفاحة في النحو • كتاب جملة آلات العرب • كتاب شرح صرف الخليل • كتاب الشواهد • كتاب العروض • كتاب فائت العين • كتاب في العوامل • كتاب في معنى الحروف • كتاب النعم • كتاب النقط والشكل ، وقد وصلتنا بعض نسخ من بعض هذه المخطوطات ، إنما على الرغم من أهمية هذه المصنفات ، فإن أهم كتاب للخليل كان كتاب العين ، ذلك أنه كان أول معجم عربي صنف في التاريخ •

وفي تصنيفه لهذا الكتاب كان الخليل سباقاً إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها حسب مخارج الحروف ، فهو قد وجد بين يديه الحروف العربية في ترتيبين : الترتيب السامي ــ العالمي : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ ، والترتيب العربي العام : أ ، ب ، ت ، ث ، ج ، ح ••• و • لا • ي ، ولقد كان بامكان الخليل اختيار واحد من هذين النسقين لاعتماده في معجمه ، لكنه لم يفعل ذلك ، ورتبه حسب نسق أبدعه وجعله خاضعاً لمخارج الحروف من الحلق على النظام التالي :

ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ض ، ص ، س ، ز ، ط ، ت ، د ، ظ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، أ ، ي .

فقد دعا الخليل معجمه باسم أول حرف اعتمده وهو العين ، وقام الخليل بعد ترتيبه لمعجمه باستقصاء كلمات اللغة معتمداً على ما ذكره الصرفيون من قبله من حصر لأبنية الكلمة وجعلها إما : ثنائية ، أو ثلاثية ، أو رباعية ، أو خماسية ، ووجد الخليل أن عدد أبنية كلام العرب حسب المراتب الأربع (١٢,٣٠٥,٤١٢) .

لقد التزم الخليل بعرض مواد كتابه بطريقة مجهدة ، وثراء مادته تجعل المرء يميل إلى الاعتقاد أنها كانت أوسع من أن تستوعبها ذاكرة ، مما يدعو إلى الافتراض بأن الخليل ملك بعض المظان واعتمد عليها ، ولقد اعتنى في كتابه بالشعر وأكثر من الاستشهاد به كما اهتم بلهجات العرب ، فذكر عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وأشار إلى لغة هذيل وأهل اليمن ، وعني بالقياس وتعليل المسميات .

روى كتاب العين عن الخليل الليث بن المظفر بن نصر بن سيار ، وقد شغل هذا الكتاب الرائع العلماء ، دراسة وتقليداً وتعقيباً واختصاراً ، واهتدي في العصر الحديث إلى مخطوطات منه ساعدت على دراسته والعمل في تحقيقه حسب معطيات هذا العصر .

الجاحظ

(ت : ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م)

الحديث عن الحضارة العربية في عصرها الذهبي من جميع وجوهها ، في بضع صفحات يكاد أن يكون أمراً محالاً ، وهذا هو الحال عندما يحاول المرء أن يكتب بحثاً صغيراً عن الجاحظ ، ذلك أنه كان أمة وحده ، ومثّل الحضارة العربية تمثيلاً شاملاً كاملاً ، فالجاحظ أفضل ممثلي اللغة والآداب العربية ، وهو خير من بحث في العلوم وطب الحيوان ، وهو أحسن من كتب في طباع الانسان والأحوال الاجتماعية ، كما أنــه كان فيلسوفاً من الطراز الأول ، وهو ، وهو ...... إلى مالا نهاية .

وقبل الاستطراد في هذا لنتوقف قليلاً كيما نتعرف على بعض الجوانب من حياة هذا العبقري ونشأته . هو : أبو عثمان عمرو بن بحر ، ولد كما هو مرجح في البصرة سنة ١٥٩ هـ / ٧٧٥ م ، في بيئة عربية فقيرة ، وكان والده قد توفي وهو ما يزال حديث السن ، وينتهي نسب هذا الأب عند غالبية المؤرخين إلى كنانة صراحة ، وليس كما ادعى البعض ولاء ، وكان أبو عثمان دميماً في عينيه جحوظ واضح ، لذلك لقب بالجاحظ ، وقد وجد نفسه مضطراً منذ صغره للعمل حتى يكسب لقمة عيشه مع والدته ، وأتيحت له بعض الفرص خارج أوقات العمل للتردد على بعض المعلمين الذين اهتموا بتعليم أولاد القصابين وسواهم من أبناء الطبقات الشعبية ، وبعــد بعض الوقت شرع يتردد علــى مساجد البصرة .

فالجاحظ وجد في بيئة دينية ، كل فرد عليه فيها أن يتردد على المسجد ، لأداء بعض الفروض ولتحصيل خدمات أخرى ، والمسجد كــان مقر العــلم والعلماء ، فلذلك بدأ الجاحظ بملازمة بعض حلقات الشيوخ ، عندما كان يجد

الوقت ، ثم إن اضطرازه للعمل فرض عليه التواجد في أسواق البصرة، وكانت أسواق هذه المدينة ، وخاصة المربد منها ، مسرحاً لجميع أنواع النشاطات : بيع وشراء ، وخطابة ، والقاء شعر ، ومناقشات سياسية ودينية ، ولقاء بالأعراب وسواهم لأخذ المواد الأدبية الخام عنهم ، وفي أسواق البصرة وجد أيضاً العديد من حوانيت الوراقين أو لنقل حسب معايير عصرنا « دور النشر وبيع الكتب والقرطاسية » وعند الوراقين وجدت الكتب ، وإليهم جاء الكتاب والعلماء ، وتردد الجاحظ على هذه الدور ، لكن لا ليشتري الكتب ، لأنه لم يملك المال ، إنما ليسمع ويرى ، وفي كثير من الأحيان ليبيت في أحد الحوانيت حتى يقرأ طوال الليل ، ذلك أنه كان عليه أن يعمل في سبيل لقمة العيش خلال النهار .

ومع الأيام انجذب الجاحظ بشدة نحو حلقات الشيوخ وحوانيت الوراقين، مما أبعده عن العمل وتحصيل ثمن لقمة العيش، حتى أنه عاد في أحد الأيام إلى منزله وسأل أمه أن تقدم له شيئاً من الطعام ، فذهبت وبعد قليل عادت إليه وبيديها طبق عليه أوراق وكتب ، وقدمته له ، مما أثر به ، لكن هذا دفعه نحو المزيد من الثقافة ، وكانت صلاته قد توثقت بشيوخ حلقات الاعتزال ، وكان مقرهم البصرة ، وتعمق بأفكارهم حتى غدا واحداً من كبار أئمتهم .

وانتقل الجاحظ من مرحلة التحصيل إلى مرحلة العطاء عن طريق التأليف ، ولجأ في بداية الأمر إلى نسبة مصنفاته إلى غيره من المشاهير لتلقى القبول ، وممن نسب إليه : ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وتحدث عن هذا فقال: « كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الأسماع — تصغي إليه — ولا الارادات تتيمم نحوه ، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأنحله عبد الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما

يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي عني بتشييدها » •

ودخـل الجاحظ معترك الصراعات الدينيـة والعقائدية ، والسياسية ، وصنف حول الامامة وحول مسائل صراعات الأحزاب ، وقد أكسبه هـذا شهرة ازدادت باقبال الطلاب عليه للأخذ عنه ، وقد تكون حوله جماعة خاصة من المعتزلة •

وكان العصر عصر الاعتزال ، فالخليفة المأمون اعتمد عقيـدة المعتزلة وجعلها المذهب الرسمي المعلن للدولة، ووصلت شهرة الجاحظ وأخباره مسامع الخليفة المأمون ، فسأله تصنيف رسالة في دعوى « العباسية » والاحتجاج لها والدفاع عنها ، ففعل ووفق بعمله، مما جعل المأمون يعجب به ، لذلك أسند له العمل في ديوان الرسائل ، ولكن الجاحظ وجد أن العمل في هذا الديوان الخطير يتعارض مع تركيبه الخلقي والخلقي ، ويتنافى مع مطامحه الفكرية ، ويعوق من حرية تحركه ، لذلك استعفى بعد ثلاثة أيام فقط •

واتصل الجاحظ بالوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، الذي وزر لكل من المعتصم والواثق ، وكان أديباً صاحب ثقافة عالية ، فقربه إليه ورعاه وعني بأموره ، مما حدا بالجاحظ أن يهديه « كتاب الحيوان » وقد نال منه مكافأة على عمله قدرها خمسة آلاف دينار •

وانتهى عصر الاعتزال مع استلام المتوكل للخلافة، ذلك أنه أمر بالتنكيل بالمعتزلة وغيرهم من « ذوي الأهواء » واضطر الجاحظ إلى التخفي ، ثم ألقي القبض عليه ، فسيق إلى القضاء أمام القاضي ابن أبي دؤاد ، فعفا عنه وأطلق سراحه ، ورداً على هذا الصنيع أهداه كتابه « البيان والتبيين » وقد كافأه القاضي على هذا التقديم بمبلغ خمسة آلاف دينار ، ومنحه الحماية والرعاية ، فلازمه الجاحظ وانقطع إليه وإلى ابنه الوليد •

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان ، وزير الخليفة المتوكل ، وأهداه بعض

مصنفاته ونال جوائزه وبواساطته جوائز الخليفة ، ذلك أن المتوكل لم يقربه لدمامة خلقه .

لم يتزوج الجاحظ ، لكنه تسرى ، وقد أصيب بالفالج في أواخر عمره ، فاضطر إلى ترك العاصمة والعودة إلى البصرة حيث لازم بيته ، فهناك كان يستقبل العلماء والأدباء والتلاميذ ومختلف أنواع الزوار ، وظل على هذا الحال حتى وافته منيته سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م ، وقيل أن سبب وفاته سقوط كمية من الكتب عليه ، وهو يقرأ ؟ .

لقي الجاحظ كبار علماء عصره وأخذ عنهم ، ومنهم : أبو عبيدة معمر بن المثنى [ت : ٨٢٤ م] والأصمعي [ت : ٨٣٠ م] ، والنظام [ت : ٨٣٥ م] وأبو زيد الأنصاري [ت : ٨٣٠ م] كما أخذ عن كبار المترجمين في أيامه مثل : ابن البطريق ، وحنين بن اسحق ....

وارتحل الجاحظ في طلب العلم ، فزار مدن الشام ومصر ، وربما بعض مدن ايران مما زاد معارفه وعمقها ، وقد فطر على البحث والتمحيص ، وكان يرى أن الشك هو الطريق الموصل إلى تحسين المعرفة ، وهو أساس البحث العلمي ، وكانت أسس أعماله الفكرية واتجاهاته علمية فلسفية تجريبية مغلفة برداء أدبي ، عالي البلاغة ، ساحر الألفاظ ، عميق المعاني ، مشرقاً كل الاشراق .

كان الجاحظ اختصاصياً إنما موسوعياً في نفس الوقت ، اختصاصياً بكل ما تعنيه الكلمة في كل موضوع تناوله ، لكن لتعدد المواضيع التي تناولها ولتشعبها عدّ موسوعياً . كتب في الجغرافية ، والتجارة عامة وخاصة ، وبطبائع المجتمعات البشرية وأجناس الناس ، وتناول مالا يحصى من الموضوعات السياسية الدينية أحسن تناول ، وكان صاحب شخصية ممتعة صادقة ، متفائلة ، فيها كرم طباع العربي وحرارته ، عاش بكليته معارك الصراع ضد الشعوبية والزندقة .

وبالنسبة للأدب اعتبر الجاحظ القمة ، فهو قد وضع مقاييس النقــد للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي ، وبذلك نقــل هذا الأدب من مرحلة الجمع ، وكان مع أدبه الرفيع عالماً طبيعياً وكيمائياً ، استخرج روح النشادر ، وملح النشادر بالتقطير الجاف •

كان الجاحظ خصب الانتاج ، عاش حيــاة علمية أدبية حافلة ، أنتــج فيها ما يزيد على ثلاثمائة وخمسين كتاباً ، وصلنا قسم منها ، وما زال المتبقي بحكم المفقود ، وعلى رأس كتبه التي وصلتنا :

١ ــ كتاب البيان والتبيين ، وهو موسوعة أدبية ألفه الجاحظ في أواخر حياته، يتضمن مختارات من القطع الأدبية والشعرية مع آياتقرآنية وأحاديث نبوية ، ومجموعة من الأخبار ، مع تركيز خاص في الرد على حركة الشعوبية ، مع مجموعة من الخطب المشهورة ، ومختارات من الحكم من الثقافة العربية ، واليونانية والفارسية ، والهندية •

٢ ــ كتاب البخلاء ، ويعد من أطرف ما كتبه الجاحظ ، فقد جمع فيه مجموعة من أخبار وطرق ونوادر البخلاء ، إن لم نقل اخترعها وصاغها صياغة فنية رائعة ، وبصرف النظر عن الجوانب الفنية الابداعية والقيمة الاجتماعية لمواد هذا الكتاب ، فاننا يمكن أن نرى فيه نوعاً من أنواع الرد والتصدي لحركة الشعوبية •

٣ ــ كتاب الحيوان ، وهو أقدم موسوعة عربيــة من نوعها صنعت بالعربية ، اهتم الجاحظ فيها بدراسة طبائع الحيوانات ، وحكمة الله فيها ، وقد اعتمد على مواد عربية وأخرى منقولة عن الفارسية والاغريقية ، وعلى تجاربه الخاصة ومنهجه في العمل العلمي القائم على مبــدأ الشك الذي يقود نحو اليقــين •

٤ ــ مجموعة من الرسائل ، نشر بعضها مفرداً لعظم حجمها مثل كتاب « العثمانية » ومنها ما نشر على شكل مجموعات صغيرة ، في المجلدة بضع رسائل، مثل : رسالة التربيع والتدوير ، رسالة حول الترك ، رسالة في التجارة

وأخرى في البلدان ، وأفضل مجموعة نشرت حديثاً من رسائله تلك التي نشرها في القاهرة الاستاذ عبد السلام هارون في أربعة أجزاء جاءت في مجلدين كبار .

لقد كان للجاحظ أعظم الآثار على عصره ، فهو قد بلغ بالفكر العربي والأدب والشعر والنقد الذروة ، ونال مكانة ازدادت مع الأيام رسوخاً وتقديراً ، وليس من باب المبالغة إذا دعونا الفترة الممتدة من ١٥٩ إلى ٢٥٥ هـ [٧٥٥ — ٨٦٨ م] التي عاشها الجاحظ ، وهي قرابة قرن من الزمان ، عصر الجاحظ .

ابن عبد ربه

(ت : ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م)

وصلت الأندلس ذروة المجد والقوة والحضارة أيام عبد الرحمن الناصر، وتجلى مجدها في كل ميدان ، وبان في حاضرتها قرطبة ، ففي هذه المدينة الجليلة نبغ العلماء والأدباء والقادة والشعراء ولاقوا العناية والرعاية ، وعلى الرغم من انفصال الأندلس السياسي واستقلالها الكامل ، فإنها ظلت مرتبطة بالمشرق وبقية ديار العروبة والاسلام بجميع الوشائج الاقتصادية والحضارية العامة ، وكانت مشاعر الناس في الأندلس مشاعر أهل المشرق ، اهتماماتهم الدينية والعلمية والثقافية واحدة ، ولدينا على هذا الكثير من الشواهد ، أوضحها كتاب « العقد » لابن عبد ربه رابع كتاب بالعربية من نوعه ، وقد يكون أولها من حيث القيمة ، والكتب الثلاثة التي هو رابعها : عيون الأخبار لابن قتيبة . البيان والتبيين للجاحظ ، وأمالي القالي .

ومفيد في البداية أن نتعرف إلى شخصية المؤلف ثم الكتاب ، رغم أن التعرف إلى الكتاب أولا يلقي بعض الضوء على صاحبه ، لكن هي طريقة التزمناها ، ولا بد من المضي فيها حتى آخر بحث من كتابنا هذا .

والمؤلف ، هو : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدير ابن سالم القرطبي والأندلسي ، كان جده سالم مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ، وهذا يوحي بوجود علاقات بين أسرته والأسرة الأموية الحاكمة ، وتعريفة : بالقرطبي الأندلسي ، هو تعريف جامع مانع ، فولاؤه وموطنه يفيدان بأن ابن عبد ربه ارتبط بالقصر وبعاصمة الدولة ، ثم بأراضي الدولة الأساسية ، فهو قد نشأ في قرطبة التي ولد فيها سنة [٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م] ، نشأ في كنف أسرة ميسورة الحال ، لهذا قيل أنه كان في شبابه لاهياً ولوعاً بالغناء ، لكن هذا لم يمنعه من التحصيل والدرس على كبار علماء الأندلس

ممن أم الشرق ، ذلك أنه لم يذكر له رحلة خارج الأندلس ، ومن شيوخه الذين تزودوا بمعارف الشرق : بقي بن مخلد [٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م] ومحمد بن عبد السلام الخشني [٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م] محمد بن وضاح [٢٨٦هـ/٨٩٩م] عثمان بن المثنى [٢٧٣ هـ / ٨٨٦ هـ] وهؤلاء جميعاً ذوي رواية وتصانيف •

كان ابن عبد ربه على دراسته غيوراً ، ولوعاً بالمنافسة ، معتداً بذاته ، حصل ثقافة أدبية عاليــة ، كما كان شاعراً له ديوان شعر ــ نشر مؤخراً في دمشق ــ وحين نبحث عن وصف لابن عبد ربه يعبر عن شخصيته وثقافته وأخلاقه ودوره نجــد أن أفضل الأوصاف هو « نديم البلاط » ، فهو كان نديماً بأخلاقه ومزاجه وأصله وبيئته، ولهذا قيل كان ميالاً للممازحة والفكاهة جريئاً بذيئاً في نقوده وتعقيباته على رواياته ونقوله ، وبقي محافظاً على صفاته هذه حتى طعن في الشيخوخة ، فهذا واضح من كتابه « العقد » الذي صنفه وقد جاوز السبعين من عمره •

كان لابن عبد ربه أخلاق أهــل العواصم ــ جمع عاصمة ــ واســع الاطلاع على تراث العرب والأندلس جامعاً للأخبار والملح والنوادر ، ملمــاً بالغناء والموسيقى شاعراً كاتباً ناقداً ، ملماً بالفقه ، لهذا كان حظه من ذوق النديم عظيم ، يسره له شكله وتكوينه ،فقد وصف بأنه كان دميماً ، قريب الخطو ، يباعد ما بين رجليه ، فيه ما يغري بالممازحة ، يمكنه العمل بالبلاط دون خطر منه ، مولعاً بالعبث والمزاح والظرف والنكتة والاستهتار إلى حد التهتك والتندر والمعابثة •

لا شك أن هذا الحال جعله ميالاً إلى الثقافة الأدبية أكثر من الثقافة الدينية ، وحيث أن النديم الذي يعمل في البلاط يكون في العادة صورة باهتة لأسياده ، ممالئاً يغلب عليه الرياء ، يتقبل الاستبداد والمهانة ، نفسه خالية من الغيرة والحماسة ، لا يعرف حلاوة الاباء والكرامة ، يتذوق فتات السادة وفضلات البلاط المغدق بالنعم والمليء بالغواني وحياة اللهو والعبث • ولهذا اختلفت آراء النقاد حول ابن عبد ربه ، فمن واصف له بالزهد ، وآخر

بالتشيع ، وثالث باغراقه بمعاداة آل البيت إلى غير ذلك ، علماً بأن البحث في هذا الأمر ضرب من العبث ، فشخصية ابن عبد ربه كانت أشبه بالمرآة العاكسة لكل شيء ، أو بالصدى يردد بقايا الأصوات مع شيء من التشويه .

لم يذكر المؤرخون لابن عبد ربه غير كتاب « العقد » وديوان شعره ، ويعرف « العقد » في أيامنا « بالعقد الفريد » علماً بأن صاحبه لم يضف إلى تسميته « الفريد » ولا شك أن هذا وصفاً أثبته النساخ أو المعجبون بالكتاب ذلك للمكانة التي حظي بها ، ولشهرته الفائقة .

عاصر ابن عبد ربه عدداً من أمراء الأندلس ، وتوفي أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ولعل ذلك كان سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م .

وكتاب العقد عبارة عن موسوعة اخبارية أدبية واسعة، فهو جامع لآداب عرب المشرق ومعارفهم العامة في التاريخ والسياسة والاجتماع والشعر والآداب ، ومادة العقد ذات قيمة عالية ، تدل على ذوق رفيع في الاختيار ، وثقافة عالية تمتع بها ابن عبد ربه ، وهو جدير بوصف « الفريد » الذي منحه إياه النقاد ، وهو مصدر لطالب التاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري والحربي عند العرب حتى وقته ، وفيه من النصوص مالا نراه في مصدر آخر ، لذلك احتل الكتاب مكانة في المكتبة العربية الماضية والحاضرة لم يحتلها سواه ، وقام كثير من العلماء بالاقتباس منه ، أو تقليده ومحاكاته ، أو التذييل عليه إلى غير ذلك .

وضع ابن عبد ربه كتابه وفق « هندسة عقدية » يضم عدداً من نفائس الجواهر ، تصور ابن عبد ربه ــ نديم البلاط ــ خمساً وعشرين من أثمن أنواع الجوهر من « ياقوت، وجمان ومرجان، وزبرجد، ودر ، وعسجد » وظم عقده هذا منها نظم فنان بارع ، فجاء عمله قطعة فنية لا نظير لها ، لنسمعه يحدثنا عما قام به : « وقد ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجواهر ولباب اللباب .... وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار ، ولا

جامعة لجمل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقه في مذاهبها، وقرنت بها غرائب من شعري » .

وشعر ابن عبد ربه الذي أودعه في عقده هام ، وأهم ما فيه قصيدة نظم فيها أخبار عبد الرحمن الناصر ووقائعه ، وبقصيدته هذه كان رائداً في فن التأريخ بالشعر باللغة العربية ، وتجربته هذه تستحق الدراسة .

والمادة التاريخية العامة والأندلسية الخاصة في العقد ذات أهمية كبيرة ، ولا يقل عنها مكانة المواد السياسية التي تدور حول ضرورة السلطان وحقوقه ، ولزوم نصحه وطاعته ، وحقوق رعيته في العدل بينها وفي تفقد أحوالها ، واعتماد ما يصلح أحوالها ، وفي أعوان السلطان ووزرائه وولاته وحجابه ، وغيرهذا مما يفيد في دراسة النظم السياسة والادارية خاصة في الأندلس .

ومواد ابن عبد ربه حول الحروب وادارتها ووقائعها مع تدريب الجيوش وسوقها ، وسياسة الجند ، والعلاقات بين القادة والخلفاء ، عالية المكانة ، يجلها الباحث في أيامنا ، لمكانة فرع التاريخ العسكري بين فنون المعرفة التاريخية .

حاول ابن عبد ربه أن يحقق الكمال في عمله بعقده ، وقد نجح في ذلك ، وكان باعثه عليه « طلب الكمال » لا ادعاء القدرة عليه ، فقد « انفرد الله بالكمال ، ولم يبرأ أحد من النقصان » .



(ت : ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)

حققت الدعوة الاسماعيلية عظيم انتصاراتها في أواخر القـرن الثالث للهجرة ، حيث تأسست الخلافة الفاطمية في إفريقية (تونس) وكانت هذه الخلافة تهدف إلى الإستيلاء على العالم الإسلامي ، وإزالة الخلافة العباسية من الوجود ، وآنذاك كانت الأحوال العامة في العالم الاسلامي مشجعة ، فقد كان التشيع مسيطراً على أجزاءاً كبيرة من شبه الجزيرة وخراسان والشام والعراق ، فالخلافة العباسية نفسها نتيجة لهذا سيطر عليها الشيعة في مطلع القرن الرابع، حيث تحكم بها الديلم، وتذكر مصادر التاريخ الفاطمي أن المهدي تلقى بعدما أعلن الخلافة الفاطمية عدداً من الرسائل بالولاء والطاعة من عدد كبير من حكام العالم الإسلامي، وطلب منه أصحاب الرسائل التعليمات لإعلان الثورة ، فأمرهم بالتريث •

لقد كان على الفاطميين حتى يصلوا إلى الشرق الإسلامي احتلال مصر أولاً مع تحويل شيعة العالم الإسلامي إلى المذهب الاسماعيلي،ولتحقيق هذه الأهداف أرسل المهدي أكثر من حملة ضد مصر ، كما حرك الدعاة في المشرق وأمر بعضهم بالقدوم إلى مصر ، ففعل ، حتى يعتقد بأن أرض مصر حوت تجمعاً للدعاة الفاطميين، كما أن الأوامر صدرت لهؤلاء الدعاة بالعمل على تأمين قاعدة تستخدم لاحتلال مصر •

بعد هذا كله ما شأن المتنبي وهذه الأحداث ؟

في الحقيقة لقـد كثر الحديث عن المتنبي قديمـاً وحديثاً ، وخاصة من الجوانب الأدبية والفكرية ، وبات كل حديث حوله فيـه تكرار لأحاديث

سابقة ، إن لم يطرق جوانب غير معروفة ، يعتمد على مواد إخبارية جديدة مع رؤى أعمق وأشمل لحوادث القرن الرابع للهجرة .

ولد المتنبي حسب أرجح الروايات سنة ٣٠٣ هـ في الكوفة ، في محلة كندة ، وهو حي يماني الأصل ، والكوفة شهرت منذ خلافة علي بن أبي طالب بميول أهلها إلى التشيع ، وتميزت الأحياء اليمانية فيها بشدة التشيع ، وفي الكوفة تفجرت غالبية ثورات الشيعة في العصر الأموي ، وفيهـا أيضاً عاش الكثير من قادة الشيعة ودعاتهم ، وفي الكوفة تطور الفكر الشيعي تطوراً كبيراً للغاية .

ولد المتنبي في العصر الذي حقق فيه الشيعة أعظم انتصاراتهم بقيـام الخلافة الفاطمية ، ويذكر أن المتنبي دفع في طفولته للقراءة ربما في مدارس العلويين ، وحسب بعض الروايات ، قيل أرضعته وهو طفل إمرأة علوية من آل عبيد الله (ربما المقصود بآل عبيد الله آل المهدي الخليفة الفاطمي الأول لأنه شهر في المشرق باسم عبيد الله) .

وهذا الأمر يثير مشكلة نسب المتنبي !

إنه كما هو مشهور أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي ، وقيل فيه غير هـذا ، وقيل بأن أباه الحسين كان يعرف بعيدان السِقاء (والسقاء بكسر السين) وقيل في بعض الروايات السقّاء (بفتح السين وفتح القاف المشددة) وهذا الأمر أثـار خلافاً ، فالبعض ذهب إلى أن والد المتنبي نبذ بلقب (عيدان السِقاء) لأنه كان نحيلاً أو لعيب كان بجسده ، والبعض الآخر قال بأنه كان يعمل في السقاية بنقل الماء وبيعه .

يبدو أن الذين حسدوا المتنبي بعدما نال شهرته الكبيرة أرادوا الحط من مكانته الاجتماعية ، مع أن ثقافته وأخلاقه وإعداده العام يوحي بأنه كان يملك مكانة اجتماعية جيدة ، ولهذا ذهب البعض إلى حد القول بأنه كان علوي النسب ، لا بل تجاوز ذلك بعض الكتاب في أيامنا فقالوا بأن أباه كان

الإمام محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر لدى الشيعة الإمامية ، وأنه تبعاً لذلك فالمتنبي كان من الممكن أن يعتبر الإمام الثالث عشر .

وفي هذا خيال وأي خيال ، تجاوز به صاحبه حقائق كثيرة من التاريخ تبدأ في تقديس الرقم (١٢) في بلاد العراق ذات التراث البابلي الذي قام على النظام الستيني في الحساب ، لأننا بدون ذلك لا نستطيع أن نفهم لماذا الأئمة اثني عشر وليسوا أقل أو أكثر ، علماً بأن الإمام الثاني عشر لم يلد ولم يوجد في التاريخ بل في الوهم فقط .

ان العصر الذي ولد فيه المتنبي عصر سيطر فيه الاسماعيليةعلى مسارات الفكر الاسلامي ، خاصة الفلسفي منه ، وإن من يقرأ شعر المتنبي يمكنه أن يدرك مدى تغلغل الأفكار الاسماعيلية فيه ، ثم إن أخبار حياة المتنبي تؤيد هـذا .

فهو بعدما نال درجة لا بأس بها من الثقافة التحق بالبادية التي كانت تمور بموجة مهاجرة جديدة من شبه جزيرة العرب ، حملت قبائل من عامر بن صعصعة فيها قبائل كلاب ونمير وقشير وعقيل وغير ذلك من القبائل ، ولقد أرادت الدعوة الاسماعيلية استغلال‌هذه القبائل لمقاصدها ، وهذا ليس بجديد بالنسبة لها ، بل معروف فالكل سمع بحركات القرامطة وما يربطها بالحركة الاسماعيلية .

لقد قال المتنبي الشعر منذ فترة مبكرة من حياته ، وتذكر أخباره الأولى ، بأنه نشط بين قبائل بادية الشام ، وزار أجزاء كثيرة من بلاد الشام ، وهذا يبين أنه كان يمارس وظيفة الداعي ، وتتحدث مصادر اسماعيلية موثوق بها بأن المتنبي ذهب إلى مصر ، وكان فيها سنة ٣٣٥ هـ ربما للمرة الثانية في حياته ، وعقب عودته من مصر نسمع بأنه قاد فئة من الأعراب في بادية حمص في ثورة مسلحة، أو أنه اتهم بالنشاط الاسماعيلي أو القرمطي المسلح ، فاعتقل وأودع سجن حمص فترة من الزمن ، ثم اطلق سراحه ، وبعد إطلاق سراحه التحق بسيف الدولة الحمداني وكان ذلك سنة ٣٣٧ هـ .

وفي سنة ٣٣٣ هـ دخل سيف الدولة مدينة حلب ، وأسس الحكم الحمداني فيها ، وحاول مد سيطرته على الشام كله ، فاصطدم بالأخشيديين وبسواهم ، وكانت شخصية سيف الدولة الشعبية ، وثقافته ، تجعل منه صيداً ممكناً للاسماعيلية ، وكان الفاطميون يدركون أن مدينة حلب هي بوابة العراق ، وأنه ليس من السهولة بمكان احتلال الشام ، فالشام غير مصر .

وفي بلاط سيف الدولة وفي مدحه ، نظم المتنبي أروع القصائد ونال شهرته العظيمة ، وقصائد المتنبي تلك لم تكتب له الخلود شخصياً فقط ، لكنها سببت الخلود لسيف الدولة وحولته إلى بطل ....

وظل المتنبي مع سيف الدولة حتى سنة ٣٤٦ هـ ، حيث فارقه ، وقيل عن سبب ذلك أن خلافاً قام بين المتنبي وبعض رجالات بلاط سيف الدولة ، وأن ابن خالويه وجه الإهانة العلنية للمتنبي ، ولم يقم سيف الدولة بالانتصار لشاعره ، وهذا ما دفع المتنبي لمغادرة بلاط سيف الدولة إلى مصر ، ولكن لماذا إلى مصر وليس إلى العراق ؟

في الفترة التي سبقت مغادرة المتنبي لبلاط سيف الدولة ، كان الأمير الحمداني قد اعتنق عقائد الدعوةالنصيرية ، التي هيدعوة اثنا عشرية متطرفة، كانت تكن العداء الشديد للخلافة الفاطمية ، لقد ربحه خصوم المتنبي العقائديين ، لهذا كان من غير المعقول بقاء المتنبي في بلاط خصومه ، ثم ما كان لسيف الدولة أن يتخلى عن شاعر كالمتنبي لولا أن القضية بات فيها « كفر وإيمان » بموازين ذلك العصر ، وهو لم يذهب إلى العراق بل ذهب إلى مصر لتلبية حاجات الدعوة الاسماعيلية ، فقام بالاتصال بكافور الإخشيدي ، ورغب اليه منحه ولاية ، ولتكن قريبة من الصحراء الغربية، وكانكافور يدرك مرامي المتنبي ، لهذا ماطله وخيب أهدافه ، فتحول عنه المتنبي إلى واحد من كبار ضباط جيشه ـ وهو فاتك ـ ولكن فاتك ما لبث أن توفي في ظروف غامضة ، وهنا أدرك المتنبي بأن أسراره قد أصبحت مكشوفة ، وأن الإخفاق نصيبه ، فهرب من مصر وذهب إلى العراق ، فاتصل بعضد الدولة البويهي ، كما نشط بين رجالات الحكم البويهي .

وحين يقرأ المرء تاريخ الأسرة البويهية يلاحظ أن عضد الدولة كان أعظم شخصياتها ، وأكثرهم حنكة ، ومقدرة سياسية ، فهو قد استقبل المتنبي وأراد جعله أداة اعلامية له ، لكن عندما أدرك مدى خطورة حركته ربما تخلص منه ، فالملك عقوق وعقيم لا يعرف الوفاء والنسب ، وفي الملك يُمدح الحاكم من قبل الشعراء ولكن بدون ملك لا يتم هذا .

إن ما قيل عن أسباب مقتل المتنبي ، لا يمكن أن يقبله المنطق ، حتى ما نسب إلى المتنبي من شعر هجائي رخيص دفع إلى اغتياله ، ليس من المعقول لشاعر عملاق كالمتنبي أن ينظمه ، المسألة أكبر من ذلك ، إنها صراع الساسة والايديولوجيات ، ولكن بستار إعلامي واه ، ترضاه الأوهام وترفضه عقول البحث العلمي في التاريخ .

الطرطوشي

(ت : ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م)

من مزايا التراث العربي صفة الشمولية فيه ، فالعرب لم يتركوا ميداناً من ميادين الفكر إلاّ وطرقوه وأبدعوا فيه ، وكان بين الميادين التي أجادوا العمل فيها ، الفكر السياسي ، فقد كتب عـــدد من كبار العلماء من مشارقة ومغاربة في هذا الميدان ، من أوائلهم الإمام الغزالي ، ونظام الملك وابن طباطبا صاحب «الفخري في الآداب السلطانية» ، والعروضي في كتابه « جهار مقاله » ـــ المقالات الأربع ـــ إنما مع ريادة المشارقـــة في هـــذا الميـــدان نلاحظ أن الأندلسيين والمغاربة تفوقوا في هذا الميدان مذ دخلوه ، وأسهموا فيه اسهامات كبيرة تتوجت بأعمال ابن خلدون ، أعظم فلاسفة الفكر السياسي عند العرب ، ولعل أول المغاربة الأندلسيين اسهاماً في الفكر السياسي كان الطرطوشي .

والطرطوشي هو أبو بكر محمد بن الوليد ، ولد كما هو مرجح سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م في مدينة طرطوشة ، وإليها ينسب ، وطرطوشة احدى مدن الأندلس الكبار كانت تقوم على سفح جبل إلى الشرق من بلنسية ، وهي مدينة حصينة ، كان بها دار لصناعة السفن ، حيث كان ينبت علـــى جبالها شجر الصنوبر المتناهي بالطول والغلظ والجودة لصنع صواري السفن .

في هذا الثغر نشأ الطرطوشي ، حيث المدينـــة الناعمة بجمال الطبيعة ومشاهد البحر الأبيض المتوسط ، وفي مسجدها الكبير تلقى علومه الأولى ، ولما بلغ سن الشباب أخذ طريق الرحلة يطلب المزيد من المعرفة ، فزار مدن الأندلس ولقي كبار علماء عصره ، واتصل بهم ، وكان بين هؤلاء أبو الوليد الباجي أعظم علماء عصره وأكثرهم معرفة بمسائل الخلاف والفقه المالكي .

ويبدو أن سن الطرطوشي حينما التحق بالباجي كان العشرين ، وقـــد

لازمه قرابة أربعة أعوام ، فبعد وفاة الباجي [٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م] قـرر الطرطوشي الرحلة إلـى المشرق ، محتذياً سـيرة شيخه الباجي ، وقصـد الطرطوشي الحجاز ، فحج وجاور في مكة فترة من الزمن وزار بعدها مدن الشرق الكبرى : دمشق ، الموصل ، بغداد ، وفي بغـداد التحق الطرطوشي بالمدرسة النظامية ، وعن كبار العلماء فيها أخذ وتعلم ، كما تجول في مدن العراق، ثم دخل الشام ثانية ، وكان في شماله سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م أي قبل وصول الحملة الصليبية بفترة قصيرة ، وجال الطرطوشي في الشام ، واستقر بعض الوقت في القدس ، ثم ارتحل إلى مصر فاستقر في الاسكندرية .

كان الحكم في مصر بيـد الأفضل بن بدر الجمالي ، حيث سيطر على الخليفة الفاطمي واستبد بأمور مصر ، وكان الطرطوشي قد حصل كثيراً من المعارف ، كما أنه تأثر بتيارات الزهد في عصره ، فكان زاهـداً منقبضاً عن الناس متقشفاً عابداً ، وتملك قدرة كبيرة على الوعظ ، وكان شديد التأثير بالجماهير ، لذلك ما أن مكث بالاسكندرية حتـى عرف واشتهر ، وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه ، وقد تزوج في الاسكندرية إلى احدى النساء الموسرات ، فأطلقت يده في أموالها ، ومنحته داراً اتخذ الدور الأعلى منها مسكناً له والأسفل مدرسة يلقي فيها دروسه .

وبعدما شاعت شهرة الطرطوشي إثر استقراره بالاسكندرية يمم شطر القاهرة ، وهناك قـام بزيارة أمير الجيوش وحاكم مصر الأفضل بن بـدر الجمالي ، لا لنيل جائزته ، ولكن ليوجه إليه النصح ليغير من منهجه في الحكم وليخفف من مظالمه، وليرفق بالرعية ويشيع العدل بينها،بكل جرأة واخلاص، وقد أثبت الطرطوشي نص نصيحته هذه في كتابه « سراج الملوك » .

وتقبل الأفضل كلام الطرطوشي ، وحقد عليه عمله ، واضغنها له ليوقع به ، فقد عاد الطرطوشي إلى الاسكندرية حيث استأنف نشاطه المعتاد ، وتكاثر عليه الطلاب فأخذ بتدريسهم بطريقة تكاد تكون مطابقة للطرائق الحديثة ، وصار يخرج مع طلابه في جولات استطلاعية ورحلات بحث واستجمام ، وكان

إذا خرج خرج معــه مالا يقــل عن أربعمائة من الطلاب ، وخافت سلطات الاسكندرية والقاهرة نشاط الطرطوشي، فالدولة رسمياً عقيدتها الاسماعيلية، والطرطوشي كان مالكياً ، ثم لم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل تجاوزه فقد أصدر الطرطوشي العديد من الفتاوى التي كانت لها مؤثرات اقتصادية واجتماعية، وخشي الأفضل من حدوث ثورة بالاسكندرية ، فقرر حسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل إلى والي الاسكندرية كيما يبعث بالطرطوشي إليــه ، وفي القاهرة وضع الطرطوشي تحت الاقامة الجبرية ، وضيق عليه ، وظل في سجنه بضعة أشهر ، وانتهت هذه المحنة سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م بمقتل الأفضل ، وانكشفت الغمة عن الطرطوشي ، فقد ولي الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، وكان يعلم كراهة الطرطوشي للأفضل ، لذلك أفرج عن الشيخ وأكرمه اكراماً زائداً وقربه إليــه .

وعاد الطرطوشي إلى الاسكندرية ، وعاود نشاطه بحدة أكبر ، وفعالية أعظم وقرر تصنيف كتاب بالسياسة وفن الحكم وما يجب أن يكون عليه الراعي والرعية ، وأكمل هذا الكتاب في سنة كاملة وسماه « سراج الملوك » وفي عام ٥١٦هـ/١١٢٢م حمل الكتاب إلى القاهرة حيث قدمه إلى الوزير الجديد المأمون البطائحي ، ولم يمكث الطرطوشي طويلاً في القاهرة ، وعاد إلى الاسكندرية حيث عاش حتى بلغ التاسعة والستين من عمره فتوفي بالاسكندرية سنــة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م ، ودفن فيهــا ، وظــل قبره لقرون محجاً لزوار الاسكندرية من المؤرخين والرحالة .

عاش الطرطوشي في مصر قرابة الثلاثين عاماً ، صنف خلالها عدداً من الكتب ، وقد أحصي له اثنين وعشرين كتاباً ورسالة منها :

مختصر لتفســير الثعالبي . الكتاب الكبير في مسائل الخلاف . شرح لرسالة القيرواني في الفقه المالكي . كتاب الأسرار . كتاب نقــد إحياء علوم الدين للغزالي . رسالة في تحريم جبن الروم . بدع الأمور ومحدثاتها . كتاب الفتن . كتاب بر الوالدين . كتاب سراج الملوك .

وشهرة الطرطوشي قائمة على تصنيفه الكتاب الأخير الذي أهداه إلى المأمون البطائحي ، وقد استفاد الذين جاءوا بعد الطرطوشي من كتابه ، وتأثير الكتاب على ابن خلدون واضح اعترف به ابن خلدون .

وقسم الطرطوشي كتابه إلى أربعة وستين فصلاً ، كان ما بحثه في بعضها : مواعظ الملوك ، ومقامات العلماء عند الملوك والأمراء والسلاطين ، ومنافع السلطان ومضاره ، وقواعد السلطان ، والوزارة والوزراء ، وعلاقات الجند بالسلطان وغير هذا مما يتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعية .

واتبع الطرطوشي في كتابه منهجاً مزج فيه بين الأخلاق والسياسة ، فالطرطوشي مفكر لا يفرق بين السياسة والأخلاق ، بل يراهما شيئاً واحداً ، وتأثر الطرطوشي بما قدمه في كتابه بالغزالي وبخاصة كتابه « التبر المسبوك » نراه يفعل كما فعل نظام الملك والغزالي بدعم آرائهما عن طريق المثال والقصة ، فالطرطوشي لم يؤلف كتابه بقصد علمي بحت كما فعل ابن خلدون في مقدمته، بل كان هدفه فنياً ، ذلك أنه أراد أن يؤثر في النفوس لا بالفكرة فقط بل بوساطة القصة الواعظة والمثل المؤثر بالنفس ، والخبر الذي يوحي ، ولا شك أن الطرطوشي نجح في الوصول إلى هدفه ، ففي كتابه أخبار مختارة ممتعة ونظرات ثاقبة ، وتجارب مفيدة وآراء قيمة ، تدل على عمق تفكير الطرطوشي واطلاعه الواسع ، ومعرفة شاملة بمسائل الفقه والشريعة والأدب والتاريخ .

وصحيح أن الطرطوشي تأثر بالغزالي ، إلا أن كتاب « سراج الملوك » أكبر حجماً من « التبر المسبوك » وأغزر مادة ، وأحسن ترتيباً واخراجاً ، قصصه ذات صبغة واقعية وليست خيالية محضة، المنطلقات هنا عربية اسلامية، بينما عند الغزالي « إيرانية » متذكرين أن الغزالي كتب كتابه بالفارسية ، وتمت ترجمته إلى العربية في أيامه ، كما أن الطرطوشي تناول في كتابه مسائل لم يتناولها الغزالي ، ولم يعرض لها ومفيد هنا أن نختم هذا البحث بفقرات مما أثبته الطرطوشي في كتابه مما خاطب به الأفضل بن بدر الجمالي :

أيها الملك إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلاً عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك في حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك ، وإن الله تعالى ألزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله منك ...... واعلم أن هذا الملك الذي أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك مثلما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ...... فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفاً للملهوف ، وأماناً للخائف » .

ابن منظور

(ت : ٧١١هـ / ١٣١١م)

عانت مصر في ظل الخلافة الفاطمية منذ أيام الخليفة المستنصر من العديد من الأزمات الاقتصادية والسياسية ، ونظراً لطبيعة الخلافة الفاطمية العقائدية فإنها لم تتمكن من أداء دور ثقافي شامل ، واحداث نهضة عامة في مصر ، بل حدث العكس ، لكن ما أن سقطت الخلافة الفاطمية حتى تحررت مصر ، وشرعت في أداء دور سياسي وحضاري واقتصادي قيادي ، ولم يعد أزهر القاهرة داراً عقائدية طائفية ، بل صار مصدر اشعاع للمعرفة الشاملة لكل العرب والمسلمين ، وتجلت صور النهضة في مصر أثناء العصرين الأيوبي والمملوكي بعدة ميادين ، فقد امتلأت القاهرة بالعلماء ، خاصة بعد سقوط بغداد ، وصارت القاهرة محج العلماء ودار هجرتهم من كل مكان ، وصنعت الآن انجازات كبيرة على صعيد الفقه ، والطب ، والتاريخ والعلوم والآداب واللغة ، ويكفي فخراً أن قاهرة العرب الجديدة كانت دار ابن منظور أشهر المعجميين العرب صاحب لسان العرب .

وابن منظور هو : محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور ، نسب إلى جده السابع وانتهى بنسبه إلى الصحابي الأنصاري رويفع بن ثابت ، ورويفع هذا ولاه معاوية بن أبي سفيان طرابلس سنة ست وأربعين ، وشارك في فتوح إفريقية ، ومات في برقة وكان يليها لمسلمة بن مخلد .

ولد ابن منظور سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م كما هو مرجح في القاهرة ، ويروى أن ولادته كانت في طرابلس الغرب ، وقد يكون هذا ، فطرابلس ألحقها صلاح الدين بمصر ، وليس هذا بالمهم ، بل الأهم هو أن ابن منظور نشأ في القاهرة وفيها نال علومه ، وفيها عمل ونال شهرته .

وأسرة ابن منظور كمـا يستدل من ألقاب أبيه وجده مـع ما أورده ابن منظور في ثنايا ومقدمات بعض كتبه ، كانت أسرة تتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة وتشارك في الأعمال الثقافية ، فقد جاء في مقدمة كتابه «سرور النفس» الذي اختصر فيه كتاب « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » لشرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي : « وكنت في أيام الوالد ــ رحمه الله ــ أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه ، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمـد بن يوسف التيفاشي القيسي في جملتهم ، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ، ولا أشاركهم فيما يلقونه ، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتاباً صنفه أفنى فيـه عمره ، واستغرق دهره ، وأنـه سماه « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب » وأنه لم يجمع ما جمعه كتاب ... وكنت شديـد الشوق إلـى الوقوف عليـه ، وتوفي الوالد رحمه الله في سنة خمس وأربعين وستمائة ، وشغلت عن الكتاب، وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة » ، فلقد كانت وفاة التيفاشي سنة ٦٥١هـ .

من هذا النص نستخلص أن ابن منظور فقد والـده وله خمس عشر سنة من العمر ، وأن طفولته كانت مشغولة بالعلم والتحصيل ، ويبدو أنه بعد وفاة والده تابع ابن منظور اهتماماته ، فجلس إلى الشيوخ جلوساً منتظماً ، ولم يشر ابن منظور لشيوخه في مصنفاته ، فهو كان شديد الاعتداد بنفسه مهتماً بها دون غيرها ، حتى أنه كان ينال بشكل مباشر أو غير مباشر من بعض معاصريه أو شيوخه وسواهم،ممن تناول كتبهم واختصرها ، ذلك أن ابن منظور اهتم باختصار العديد من الكتب وتهذيبها، فها هو يتحدث عن السبب الذي حداه إلى اختصار كتاب التيفاشي يقول : « ورأيته قد جمع فيه أشياء لم يقصد بها سوى تكبير حجم الكتاب ، ولم يراع فيه التكرار ، ولا ماتمجه أسماع ذوي الألباب ..... فأخذت زبده ، ورميت زبده ، وأوردت مكرره ــ أي صافيه ــ وتركت مكرره » من التكرار .

ثم حين قدم لكتابه لسان العرب ذكر بالفضل أصحاب الكتب الخمسة التي اعتمدها ، لكنه ما كاد يعطي أصحابها حتى سلبهم ، وكان فيما أعطاه

أدنى بكثير مما سلبه ، لنستمع إليه يقول : « ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن اسماعيل الأندلسي ـ رحمهما الله ـ وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات للطريق ، غير أن كلا منهما مطلب عسير المهلك ، ونهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً ، وحلأهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مريعاً ، ومنعهم منه ، قد أخر وقدم ، وقصد أن يعرب ..... ورأيت أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره .... غير أنه في جو اللغة كالذرة ، وفي بحرها كالقطرة .... قد صحف وحرف ، وجزف بما صرّف » ....

بمثل هذا المنهج تتبع ابن منظور أعمال كبار أئمة اللغة ، لذلك لا غرابة أنه أهمل الحديث عن شيوخه ، فهو لا بد أنه كان شديد الاعتداد بنفسه لا يرى إلاّ إياها ، ومع أنه أهمل الحديث عن شيوخه ، فإن تلاميذه تحدثوا عنه وأسهبوا في ذكره ، ومن هؤلاء السبكي والذهبي .

أجاد ابن منظور علوم اللغة واستوعبها ، فكان أديباً ، عالماً ، وشاعراً له نظم حسن ، كما أنه كان غزير الانتاج ، إنما دونما ابداع ، فهو قد اختصر كتب غيره ، وشغل نفسه بنسخ بعضها ، وطابع الاختصار هـو الذي غلب عليه ، وقد كان ابن منظور « فاضلاً وعنده تشيع بلا رفض ، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة ، وأتى بعمله بما يخجل النجوم الزاهرة ، وله شعر غاص على معانيه ، وأبهج به نفس من يعانيه ، وكان قادراً على الكتابة ، لا يمل من مواصلتها ، ولا يولي عن مناضلتها ، لا يعرف في الأدب وغيره كتاباً بطوله إلاّ وقد اختصره ، وروق عنقوده ، واعتصره ، تفرد بهذه الخاصة البديعة ، وكانت همته بذلك في بدر الزمان وشيعه » .

ولقد أكثر ابن منظور من اختصار الكتب ، حتى يروى عن ولده قطب الدين بأن والده ترك بخطه خمسمائة مجلد ، ومن الكتب التي اختصرها :

ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وسماه « مختار الأغاني في الأخبار

والتهاني » ورتبه حسب حروف الهجاء ، في حين أن الأصفهاني رتبه حسب الأصوات ، وجاء هذا المختصر في عدة أجزاء •

- زهر الآداب للحصري القيرواني •
- يتيمة الدهر للثعالبي •
- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (جامع التواريخ) للتنوخي •
- تاريخ دمشق لابن عساكر ، وقد عثر على نسخة شبه كاملة منه ، هناك محاولات لطبعها في دمشق وبيروت •
- ذيل تاريخ بغداد للسمعاني •
- صفوة الصفوة لابن الجوزي •
- مفردات ابن البيطار •
- فصل الخطاب للتيفاشي •
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام •
- الحيوان للجاحظ •

وكتب أخرى ، ولا شك أن هذا استغرق منه وقتاً وجهوداً كبيرة ، ومما لا شك فيه أن جهوده هذه كلها ، بذل أضعافها حين عمل على اخراج كتاب لسان العرب أعظم معاجم اللغة العربية وأغناها وأشهرها في نفس الوقت ، ومن مبدأ الاختصار قام ابن منظور بصنع كتابه هذا ، لكن مع فارق بالطريقة وطبيعة العمل، ولنسمعه يحدثنا عن طبيعة عمله بعدما ذكر مصادره: « فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرق ••••• وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى، فأقول : شافهت ، أو سمعت ، أو فعلت ، أو صنعت ، أو شددت ، أو رحلت ، أو نقلت عن العرب العرباء •••••• وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب•••••

وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص ، فليقيد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة » .

والأصول الخمسة التي صنع منهـا ابن منظور لسان العرب هـي : تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهري، والحاشية على الصحاح لابن بري ، والنهاية لابن الأثير .

لا يتسع المقام هنا للتعريف بهذه الأصول الخمسة وأصحابها ومناهجها ، كل ما يفيد قوله هو أن ابن منظور اعتمد طريقة الصحاح في اخراج كتابه ، حيث التزم في التبويب الحرف الأخير من الكلمة ، ومن هنا نرى الفارق بين هـذا التبويب ، وطريقة الخليل بن أحمد في العين ، فالخليل رتب الحروف حسب مخارجها في الحلق ، مبتدئاً بالأبعد ومنتهياً بما يخرج من الشفتين .

ولعل ما اتبعه ابن منظور أسهل تناولاً من منهج الخليل وغيره من أصحاب المعاجم من بعده ، ثم إن حوافز ابن منظور على تصنيف كتابه كانت علمية اسلامية ، وعربية في نفس الوقت ، وهذا ما بسطه في المقدمة بقوله : « فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة ، وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز ، والسنة النبوية ، ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان، ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيتهقد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً ، وصار النطق بالعربية من المعائب معدوداً ، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية ، وتفاصحوا في غير اللغة العربية ، فجمعت هذا الكتاب ، في زمن أهله بغير لغته ، يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفلك ، وقومه منه يسخرون » .

وعقد ابن منظور في أول الكتاب ، وقبل سوقه لمواده باباً في ألقاب الحروف وطبائعها وخواصها نقلاً عن الشيخ أبي الحسن علي الحراني [٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م] وقد رأى ذلك يتمم تصديره للكتاب ، لكنه حين شعر أنه يخالف شرطه في كتابه تدارك الأمر بقوله : « هذا الباب أيضاً ليس من

شرطنا ، لكني اخترت ذكر اليسير منه ، وإني لأضرب صفحاً عنه ليظفر طالبه منه بما يريد ، وينال الافادة منه من يستفيد ، وليعلم كل طالب أن وراء مطلبه مطالب آخر ... ولم أوسع القول فيه خوفاً من انتقاد من لا يدريه » .

وبعد هـذا ساق ابن منظور مواده مبتدئاً بحرف الهمزة ، معتمداً طريقة الجوهري في الصحاح ، والفارق بينهمـا ضخامة مواد ابن منظـور وشمولها ، ولقـد أنهى ابن منظور عمله في كتابـه سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ، وهناك خلاف حول تحديد المدة التي استغرقها عمله الجبار هذا .

وعمر ابن منظور حتى جاوز الثمانين، ولقد عاش عمره كله يقرأ ويكتب، لكنه قبل مبارحته لهذه الدنيا بسنوات فقد بصره ، فتابع حياته يسمع ويلقن ، ولا شك أن عدد الذين استفادوا منه كبير، رغم أن البعض تمنى مقاطعته أو أظهر تحرجاً في صحبته لما أصابه من غلو في تشيعه كاد يخرجه إلى الرفض .

مـن مصادر الكتاب

١ ــ ابن الأبار (محمد بن عبد الله) .
ــ الحلة السيراء ــ القاهرة ١٩٦٣ .
ــ التكملة لكتاب الصلة ، مدريد ١٨٨٦ الجزائر ١٩١٩ .
٢ ــ ابراهيم (نجيب ميخائيل) ــ مصر والشرق الأدنى القديم ، القاهرة .
٣ ــ ابن ابراهيم (عباس المراكشي) الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، الرباط ١٩٥٩ ....
٤ ــ ابكاريوس (يوحنا) ــ قطف الزهور من بدائع الدهور ، بيروت .
٥ ــ ابن الأثير الحلبي (اسماعيل) عبرة أولي الأبصار ، نسخة مصورة في خزانتي .
٦ ــ ابن الأثير (علي) ١ ــ الكامل في التاريخ ، القاهرة ١٣٤٨ هـ .
٢ ــ التاريخ الباهر ، القاهرة ١٩٧٣ .
٧ ــ الأحمدي (علي بن حسينعلي) مكاتيب الرسول ، بيروت .
٨ ــ ابن الأحمر (اسماعيل بن يوسف) .
روضة النسرين في دولة بني مرين ، باريز ١٩١٧ ، مع نسخة خطية في خزانتي .
ــ أعلام المغرب والأندلس ، دمشق ١٩٧٦ .
ــ مستودع العلامة ، الرباط .
٩ ــ الادريسي (أبو عبد الله ــ الشريف) قطع من نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٦٦ ، الجزائر ١٩٥٧ .
١٠ــ الأربلي (عبد الرحمن بن سنبط) خلاصة الذهب المسبوك ، بغداد .
١١ــ أرسلان (الأمير شكيب) ــ الحلل السندسية ، القاهرة ١٣٥٨ .
ــ تاريخ غزوات العرب ، القاهرة .
١٢ــ أرنولد (توماس) ــ الخلافة ، دمشق .
ــ الدعوة الى الاسلام ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٣ــ أرنولد (توماس) ورفاقه ــ تراث الاسلام ، بيروت •
١٤ــ الأزدي (أبو زكريا) تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ •
١٥ــ الأزدي (محمد بن عبد الله) فتوح الشام ، القاهرة ١٩٧٠ •
١٦ــ الأزرقي (أبو الوليد محمد) أخبار مكة ، بيروت مكتبة خياط •
١٧ــ ابن اسحق (محمد) السير والمغازي ، بيروت ١٩٧٨ •
١٨ــ اسعد (الخوري عيسى) تاريخ حمص ، حمص •
١٩ــ الأشعري (علي) مقالات الاسلاميين ، القاهرة ١٩٥٠ •
٢٠ــ الاصطخري (ابو اسحق ابراهيم) المسالك والممالك ، ليدن ١٩٢٧ •
٢١ــ الأصفهاني (حمزة) تاريخ سني ملوك الأرض ، بيروت ١٩٦١ •
٢٢ــ الأصفهاني (أبو الفرج) ــ الأغاني ، القاهرة ، دار الكتب •
ــ مقاتل الطالبيين ، القاهرة ١٩٤٩ •
٢٣ــ الأصفهاني (محمد بن محمد ــ العماد) •
ــ خريدة القصر وجريدة العصر ، دمشق ١٩٥٥ •
ــ تاريخ دولة آل سلجوق •
ــ الفتح القسي ، القاهرة ١٩٠٠ •
ــ البرق الشامي ، مخطوطة الرباط •
٢٤ــ الأصفهاني (محمد بن محمد) البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، مكتبة أحمد الثالث (٢٩٥٩) •
٢٥ــ الأصفهاني (أبو نعيم أحمد) دلائل النبوة ، حيدر آباد ١٩٥٠ •
٢٦ــ ابن الأعثم (أحمد) كتاب الفتوح ، نسختان مصورتان في خزانتي •
٢٧ــ الأفغاني (سعيد) ــ أسواق العرب ، دمشق ١٩٣٧ •
ــ عائشة والسياسة ، بيروت ١٩٧١ •
٢٨ــ اماري (ميكيليه الصقلي) المكتبة الصقلية ، ليبسيك ١٨٥٥ــ١٨٥٦ •
٢٩ــ امير (علي) مختصر تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٣٨ •
٣٠ــ أمين (حسين) تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ١٩٦٥ •
٣١ــ أمين (أحمد) ظهر الاسلام ــ فجر الاسلام ــ ضحى الاسلام ، بيروت •

٣٢ـ أمين (أحمد وزكي نجيب محمود) قصة الفلسفة اليونانية ، القاهرة .
٣٣ـ ابن أنس (مالك) الموطأ ، بيروت ١٩٧١ .
٣٤ـ أندلسي (مجهول من القرن الثامن) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، الدار البيضاء ، ١٩٧٩ .
٣٥ـ الأنطاكي (يحيى بن سعيد) تاريخه بيروت ١٩٠٩ .
٣٦ـ اومان (الامبراطورية البيزنطية) القاهرة ١٩٥٣ .
٣٧ـ ابن أيبك الدواداري (عبد الله) الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية القاهرة ١٩٦١ .
٣٨ـ الباروني (سليمان الطرابلسي)مختصر تاريخ الأباضية، تونس ١٩٣٨ .
٣٩ـ الباز العريني (السيد) الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ .
٤٠ـ الباشا (حسن) الألقاب الاسلامية ، القاهرة .
٤١ـ باشميل (محمد) العرب في الشام قبل الاسلام ، بيروت ١٩٧٣ .
٤٢ـ البخاري (محمد بن اسماعيل) صحيح البخاري ، بيروت ، دار الفكر .
٤٣ـ بتلر ، فتح العرب لمصر ، القاهرة : ١٩٣٣ .
٤٤ـ بدوي (عبد الرحمن) مذاهب الاسلاميين ، بيروت .
خريف الفكر اليوناني ، القاهرة .
ربيع الفكر اليوناني ، القاهرة .
أفلوطين عند العرب ، بيروت .
دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، الكويت .
٤٥ـ برستد (جيمس هنري) انتصار الحضارة ، القاهرة .
٤٦ـ بروكلمان (كارل) تاريخ الأدب العربي ، القاهرة .
تاريخ الشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٤٨ .
٤٧ـ ابن بسام (أبو الحسن علي) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، بيروت ١٩٧٨ .
٤٨ـ البستاني (فؤاد افرام) الجاحظ ، الروائع ، بيروت ١٩٥٥ .
٤٩ـ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ، القاهرة ١٩٥٥ .

٥٠ــ ابن بطوطة (محمد بن عبد الله) الرحـلة ، تحفـة الأنظار في غرائب الأسفار القاهرة ١٩٥٨ .
٥١ــ البغدادي (الخطيب أحمد) تاريخ بغداد ، بيروت ، دار الكتاب العربي
٥٢ــ البغدادي (اسماعيل) هدية العارفين ، بيروت .
٥٣ــ البغدادي (أبو منصور عبد القاهر) الفرق بين الفرق ، القاهرة ١٩٤٨ .
٥٤ــ ابن بكار (الزبير) ــ جمهرة نسب قريش ، القاهرة ، دار العروبة .
ــ الأخبار الموفقيات ، بغداد ١٩٧٢ .
٥٥ــ البكري (أبو عبيد) جغرافية الأندلس وأوربة ، بيروت ١٩٦٨ .
معجم ما استعجم ، القاهرة ١٩٦٥ .
كتاب المغرب ، الجزائر ١٩١١ .
٥٦ــ البلاذري (أحمد بن يحيى) ــ فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ .
ــ انساب الأشراف (نسخ خطية في مكتبتي)
القدس ١٩٣٨ ــ ١٩٧٠ .
القاهرة ١٩٥٩ ، بيروت ١٩٧٣ .
٥٧ــ البلخي (أبو زيد أحمد) البدء والتاريخ ، باريس ١٩١٦ .
٥٨ــ ابن بلقين (الأمير عبد الله) كتاب التبيان ، نشر باسم مذكرات الأمير عبد الله ، القاهرة ١٩٥٥ .
٥٩ــ البلوي (أبو محمد عبد الله) سيرة أحمد بن طولون، دمشق ١٣٥٨هـ .
٦٠ــ البنداري (الفتح) سنا البرق الشامي ، بيروت ١٩٧١ .
٦١ــ بوجندار (محمد بن مصطفى) شاله وآثارها ، الرباط ١٩٢٢ .
٦٢ــ بوكاي (موريس) دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة. القاهرة .
٦٣ــ البياسي (محمد) الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام [نسخة مصورة في خزانتي] .
٦٤ــ البيذق (أبو بكر الصنهاجي) أخبار المهدي بن تومرت وكتاب الأنساب الرباط ، المطبعة الملكية .

٦٥ـ البيروني (أبو الريحان) ـ الآثار الباقيةمن القرون الخالية ليبزج ١٩٢٣
ـ الجماهر في معرفة الجواهر، طبعةمصورة دمشق .
ـ تحقيق ما للهند ، طبعة مصورة بغداد .
٦٦ـ البيهقي (ظهير الدين) تاريخ حكماء الاسلام ، دمشق .
٦٧ـ البيهقي (أبو الفضل) تاريخ البيهقي القاهرة .
٦٨ـ التازي (عبد الهادي) جامع القرويين ، المحمدية .
٦٩ـ التجاني (عبد الله) رحلة التجاني ، تونس ١٩٥٨ .
٧٠ـ ابن تغري بردي (أبو المحاسن) النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٤٢ .
٧١ـ التوحيدي (أبو حيان) رواية السقيفة في المقابسات ، القاهرة ١٩٢٩ .
٧٢ـ تيمور (أحمد) ـ الرتب والألقاب المصرية .
ـ أبو العلاء ، القاهرة .
٧٣ـ الثعالبي (عبد الملك) ـ لطائف المعارف ، القاهرة .
ـ كتاب الوزراء ، بغداد ١٩٧٢ .
ـ يتيمة الدهر ، بغداد .
٧٤ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو) ـ البيان والتبيين ، القاهرة ١٣١١ هـ .
ـ التاج في أخلاق الملوك، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
ـ الحيوان ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
ـ العثمانية ، القاهرة .
ـ مجموعة من رسائل الجاحظ القاهرة ١٣٦٥ هـ .
٧٥ـ الجارم (محمد) أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٢٣ .
٧٦ـ جب (هاملتون) دراسات في حضارة الاسلام ، بيروت ١٩٦٤ .
٧٧ـ ابن جبير (محمد بن أحمد) الرحلة ، بيروت ١٩٥٩ .
٧٨ـ الجراح (شفيق) تاريخ القانون ، دمشق .
٧٩ـ الجرهمي (عبيد بن شرية) أخبار عبيد ، حيدر أباد ١٣٤٧ .

٨٠ــ الجزري الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل ، حلب .
٨١ــ الجزنائي (علي) زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط المطبعة الملكية.
٨٢ــ جندي (انعام) الفلسفة عند العرب ، بيروت .
٨٣ــ ابن جنغل (محمد بن علي) تاريخ ابن جنغل المتحف البريطاني .
٨٤ــ الجهشياري (ابن عبدوس) ــ الوزراء والكتاب ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
ــ نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب ، بيروت .
٨٥ــ الجواليقي (أبو منصور موهوب) المعرب ، القاهرة ١٣٦١ .
٨٦ــ ابن الجوزي ــ عمر بن الخطاب ، القاهرة
ــ مناقب عمر بن عبد العزيز ، ليبزج ١٨٨٩ .
ــ المنتظم ، حيدر أباد ١٣٥٩ هـ .
٨٧ــ جوزي (بندلي) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، بيروت .
٨٨ــ جيبون (ادوارد) اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، القاهرة.
٨٩ــ الجليلاتي (عبد الرحمن بن محمد) تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ .
٩٠ــ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، بيروت .
٩١ــ حاطوم (نور الدين) ورفاقه تاريخ الحضارة ، دمشق .
٩٢ــ ابن حبيب (محمد) كتاب المحبر ، حيدر أباد : ١٩٤٢ .
٩٣ــ حتى (فيليب) تاريخ العرب ، بيروت .
خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، بيروت.
تاريخ سوريا ولبنان ، بيروت .
٩٤ــ حركات (ابراهيم)المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ١٩٦٥ــ١٩٧٨.
٩٥ــ ابن حزم الأندلسي (محمد بن علي) .
ــ جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ .
المحلى . القاهرة ؟ .
ــ الفصل في الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

ـ نقط العروس ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ١٩٥١ •
٩٦ـ حسن (ابراهيم حسن) ـ تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٥٩ •
ـ النظم الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ •
ـ المعز لدين الله ، القاهرة ١٩٦٤ •
٩٧ـ حسن (أحمد محمود) قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ •
٩٨ـ حسن (علي ابراهيم) ، تاريخ جوهر الصقلبي ، القاهرة •
٩٩ـ حسين (طه) بإشرافه ، تعريف القدماء بابي العلاء ، القاهرة •
١٠٠ـ الحسين (أبو الحسن علي) زبدة التواريخ ، لاهور ١٩٣٣ •
١٠١ـ الحفني (محمد أحمد) زرياب ، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة •
١٠٢ـ الحلي (الحسن بن يوسف) الألفين في إمامة أمير المؤمنين ، النجف ١٩٥٣ •
١٠٣ـ الحمادي (محمد بن مالك) كشف أسرار الباطنية ، القاهرة ١٩٣٩ •
١٠٤ـ الحميدي (محمد) جذوه المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، القاهرة ١٩٥٣ •
١٠٥ـ الحميري (عبد المنعم السبتي) الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٢ •
١٠٦ـ الحموي (محمد) التاريخ المنصوري ، موسكو ١٩٦٠ •
١٠٧ـ الحموي (ياقوت الرومي) ـ معجم البلدان ، بيروت ١٩٦٨ •
ـ معجم الأدباء ، القاهرة ١٩٢٧ •
١٠٨ـ حميد الله (محمد) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي ، بيروت•
١٠٩ـ الحوات (سليمان بن محمد) البدور الضاوية ، طبعة حجرية في فاس•
١١٠ـ ابن حوقل (أبو القاسم محمد) صورة الأرض ، بيروت دار الحياة •
١١١ـ ابن حيان (أبو مروان) المقتبس في أخبار الأندلس ، باريس ، القاهرة ١٩٧١ ، بيروت ١٩٦٥ ، مدريد ١٩٧٨ •
١١٢ـ ابن حيوس (محمد بن سلطان) ديوان ابن حيوس ، دمشق ١٩٥١ •
١١٣ـ ابن خاقان (أبو نصر الفتح) قلائد العقيان ، القاهرة ١٣١٠ هـ •

١١٤ـ الخربوطلي (علي حسني) تاريخ العراق في ظـل الحكم الأموي ، القاهرة ٠
١١٥ـ الخزرجي (علي بن الحسن) العسجد المسبوك (مخطوطة الجامـع الكبير بصنعاء نسخة مصورة لدي) ٠
١١٦ـ ابن خزيمة (محمد) الصحيح ، بيروت ٠
١١٧ـ خسرو (ناصر) سفرنامة ، بيروت ٠
١١٨ـ الخشاب (يحيى) كتاب تنسر ، القاهرة ١٩٥٤ ٠
١١٩ـ الخضري (محمد) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، القاهرة ١٩١٦ ٠
١٢٠ـ خطاب (محمود شيث) قادة الفتح الاسلامي ، بيروت ١٩٦٦ ٠
١٢١ـ الخطيب (عبد الكريم) الخلافة والامامة ، القاهرة ١٩٦٣ ٠
١٢٢ـ ابن الخطيب (لسان الدين) ـ أعمال الأعلام ، الرباط ١٩٣٤ ٠
ـ الاحاطة بأخبار غرناطة ، القاهرة ٠
ـ معيار الاختيار ، الرباط ١٩٧٨ ٠
ـ اللمحة البدرية ، القاهرة ١٩٢٨ ٠
١٢٣ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) ـ التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً ، القاهرة ١٩٥١ ٠
ـ العبـر وديوان المبتـدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٨ ٠
١٤٢ـ ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس) وفيات الأعيان، القاهرة١٩٥٠٠
١٢٥ـ الخليفة (عبد الله بن خالد) البحرين عبر التاريخ ، بيروت ١٩٦٩ ٠
١٢٦ـ خليل (خليل) مضمون الاسطورة في الفكر العربي ، بيروت ١٩٧٣ ٠
١٢٧ـ خليل (عماد الدين) معالم الانقلاب الاسلامي ، بيروت ٠
١٢٨ـ الخوارزمي (أبو عبد الله محمد) مفاتيح العلوم ، القاهرة ٠
١٢٩ـ ابن خياط (خليفة) ـ تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ١٩٦٨ ٠
ـ طبقات خليفة بن خياط ، دمشق ١٩٦٧ ٠

١٣٠ـ أبو داود (سليمان) السنن ، بيروت •
١٣١ـ الدباغ (عبد الرحمن بن محمد وابن ناجي) معالم الايمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ١٣٢٥ هـ •
١٣٢ـ دحلان (أحمد بن زيني) الفتوحات الاسلامية ، القاهرة ١٣٥٤ •
١٣٣ـ ابن أبي الدم(ابراهيم) تاريخ ابن أبي الدم نسخة مصورة في خزانتي •
١٣٤ـ الدواليبي (معروف) ـ تاريخ القانون دمشق •
ـ الحقوق الرومانية ، دمشق •
١٣٥ـ الدوري (عبد العزيز) ـ العصر العباسي الأول ، بغداد •
ـ دراسات في العصور العباسية المتأخرة ، بغداد •
ـ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت •
ـ الجذور التاريخية للشعوبية ، بيروت •
١٣٦ـ دوزي ـ تاريخ مسلمي اسبانيا ، القاهرة ١٩٦٣ •
١٣٧ـ دولي (دونالد) حضارة روما ، القاهرة •
١٣٨ـ ديسو العرب في سورية قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٥٩ •
١٣٩ـ دي غويه القرامطة ، بيروت ١٩٧٨ •
١٤٠ـ الدينوري (أبو حنيفة) الأخبار الطوال ، القاهرة ١٩٦٠ •
١٤١ـ ديورانت (ول) قصة الحضارة ، القاهرة •
١٤٢ـ الذهبي (محمد بن أحمد) ـ تاريخ الاسلام ، القاهرة (نسخة مصورة في مكتبتي) •
١٤٣ـ الرازي (أحمد) تاريخ مدينة صنعاء ، دمشق ١٩٧٤ •
١٤٤ـ الرازي (أحمد بن حمدان) كتاب الزينة ، القاهرة ١٩٥٧ •
١٤٥ـ راسل (برتراند) تاريخ الفلسفة العربية ، القاهرة •
١٤٦ـ الراوندي (محمد بن علي) راحة الصدور وآية السرور ، القاهرة ١٩٦٠ •
١٤٧ـ ابن رسته (أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية ، ليدن ١٨٩١ •
١٤٨ـ الرشاطي (أبو محمد عبد الله) اقتباس الأنوار مخطوطة القروين رقم (ل ٩٢) •

١٤٩ـ ابن رشد ـ تهافت التهافت ، القاهرة •
ـ تلخيص كتاب النفس لارسطو طاليس ، القاهرة •
١٥٠ـ الرفاعي (أنور) قصة الحضارة ، دمشق •
١٥١ـ الرقيق القيرواني (ابراهيم) تاريخ افريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ •
١٥٢ـ رودلف (فلهلم) صلة القرآن باليهودية والمسيحية ، بيروت ١٩٧٤ •
١٥٣ـ الريس (ضياء الدين) الخراج في الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ •
١٥٤ـ زايد (سعيد) الفارابي ، نوابغ الفكر العربي ، القاهرة •
١٥٥ـ ابن الزبير (أبو جعفر أحمد) كتاب صلة الصلة ، الرباط ١٩٣٨ •
١٥٦ـ ابن الزبير (القاضي الرشيد) الذخائر والتحف ، الكويت ١٩٥٩ •
١٥٧ـ ابن أبي زرع (أو ابن عبد الحليم) الأنيس المطرب بروض القرطاس المطبعة الملكية ، الرباط ، نسخ خطية في خزانتي •
ـ الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية الرباط ١٩٧٢ •
١٥٨الزركشي (محمد بن ابراهيم) ـ تاريخ الدولتين ، تونس ١٩٦٦ •
١٥٩ـ الزركلي (خير الدين) الأعلام •
١٦٠ـ زكار (سهيل) ـ تاريخ العرب والاسلام ، بيروت ١٩٧٤ •
ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دمشق ١٩٧٢ •
ـ تاريخ أخبار القرامطة ، بيروت ١٩٧١ •
ـ التاريخ عند العرب ، دمشق ١٩٧٤ •
١٦١ـ زمامة(عبد القادر)أبو عمران الغفجومي، مجلة البينة الرباط ١٩٦٢ •
١٦٢ـ أبو زهرة (محمد)ـ المذاهب الاسلامية ، القاهرة •
ـ محاضرات في النصرانية ، القاهرة •
١٦٢ـ الزيات (أحمد حسن) أداب العرب ، القاهرة •
١٦٤ـ الزياني (أبو القاسم) ـ الترجمان المعرب ، باريس •
ـ الترجمانة الكبرى ، الرباط •
١٦٥ـ ابن زيدان (عبد الرحمن) اتحاف أعلام الناس ، الرباط ١٩٣٣ •
١٦٦ـ زيمرن (ألفرد) الحياة العامة اليونانية ، القاهرة •

١٦٧ـ سارتون (جورج) تاريخ العلم ، القاهرة •
١٦٨ـ سالم (السيد عبد العزيز) ـ طرابلس الشـام في التاريخ الاسلامي الاسكندرية ١٩٦٧ •
ـ تاريخ الدولة العربية ١٩٧١ •
١٦٩ـ السامر (فيصل) الدولة الحمدانية في الموصل ، بغداد ١٩٧٠ •
١٧٠ـ السامرائي (حسام) المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، دمشق ١٩٧١ •
١٧١ـ سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزا أوغلي) مرآة الأعيان ، مجلدان حيدر أباد ، نسخ مصورة في خزانتي •
١٧٢ـ ستة من علماء الأندلس ، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ، القاهرة ١٩٧٠ •
١٧٣ـ السخاوي (شمس الدين محمد) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع القاهرة ١٩٣٤ •
١٧٤ـ سرور (محمد جمال) النفوذ الفاطمي في بلاد الشام ، القاهرة ١٩٦٤ •
١٧٥ـ سزكين (فؤاد) تاريخ التراث العربي ، القاهرة •
١٧٦ـ ابن سعد (محمد بن منيع) كتاب الطبقات ، بيروت ١٩٥٨ •
١٧٧ـ ابن سلام (أبو عبيد) كتاب الأموال ، القاهرة •
١٧٨ـ السلاوي (أبو العباس أحمد) الاستقصا لأخبـار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٦ •
١٧٩ـ السمعاني (عبد الكريم بن محمد) الأنساب ، لندن ١٩١٢ •
١٨٠ـ السمهودي (أبو الحسن) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ١٣٢٦ •
١٨١ـ ابن سوده (عبد السلام) دليل مؤرخ المغرب ، تطوان ١٩٥٠ •
١٨٢ـ السوسي (محمد المختار) ـ خلال جزولة ، تطوان •
ـ سوس العالمة ، المحمدية ١٩٦٠ •
ـ المعسول ، الرباط ١٩٦٣ •

١٨٣ـ السيوطي (جلال الدين) .
ـ تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٤ .
ـ حسن المحاضرة ، القاهرة ١٨٨١ ، نسخة خطية في خزانتي
١٨٤ـ الشابستي كتاب الديارات ، بغداد ١٩٥٠ .
١٨٥ـ شاخث (ويوزدرث) تراث الاسلام ، عالم الفكر ، الكويت .
١٨٦ـ شاكر (محمد بن شاكر) فوات الوفيات .
١٨٧ـ ابن أبي شبه (عمر) تاريخ المدينة ، نسخة مصورة في خزانتي .
١٨٨ـ الشريف (أحمد) مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٨٩ـ الشطي (د. شوكت) تاريخ الطب ، دمشق .
١٩٠ـ شكري (محمد أنور) العمارة في مصر القديمة ، القاهرة .
١٩١ـ الشكعة (مصطفى) معالم الحضارة الاسلامية ، بيروت .
١٩٢ـ شلبي (أحمد) مقارنة الاديان ، القاهرة .
١٩٣ـ شمس الدين (محمد مهدي) ـ أنصار الحسين ، بيروت ١٩٧٥ .
١٩٤ـ الشهرستاني (أبو الفتح محمد) الملل والنحل ، القاهرة ١٩٤٨ .
١٩٥ـ الشوكاني (محمد بن علي) البدر الطالع ، القاهرة ١٣٤٨ .
١٩٦ـ الصابيء (هلال بن المحسن) تحفة الأمراء ، القاهرة ١٩٥٨ .
١٩٧ـ صالح (أحمد عباس) اليمين واليسار في الاسلام ، بيروت ١٩٧٠ .
١٩٨ـ الصالح (صبحي) النظم الاسلامية ، بيروت .
١٩٩ـ صالح (عبد العزيز) الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق ، القاهرة .
٢٠٠ـ الصولي (أبو بكر محمد) الأوراق ، القاهرة ١٩٣٥ .
٢٠١ـ الصيرفي (علي بن منجب) الاشارة إلى من نال الوزارة، القاهرة ١٩٢٣ .
٢٠٢ـ الضبي (أبو جعفر) بغية الملتمس ، مدريد ١٨٨٤ م .
٢٠٣ـ ابن طباطبا (يعرف بابن الطقطقي) الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ١٩٦٦ .

٢٠٤ـ الطبري (محمد بن جرير) ـ تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف القاهرة .

ـ تفسير الطبري .ط. مصورة بيروت دار الفكر .

٢٠٥ـ طرابلسي (أمجد) ـ حركة التأليف عند العرب ، دمشق .

٢٠٦ـ طلس (محمد أسعد) ـ الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب،دمشق ١٩٥٦ .

٢٠٧ـ ابن طولون (محمد) ـ الأئمة الاثنا عشر ، بيروت ١٩٥٨ .

٢٠٨ ابن طيفور (أحمد بن طاهر) ـ تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٤٩ .

٢٠٩ـ عاقل (نبيه) ـ تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، دمشق ١٩٧٢ .

ـ تاريخ خلفاء بني أمية ، دمشق ١٩٧٣ .

٢١٠ـ العبادي (أحمد مختار) ـ تاريخ البحرية الاسلاميةفي المغرب والأندلس بيروت ١٩٦٩ .

٢١١ـ عباس (إحسان) ـ العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .

ـ عهد أردشير ، بيروت .

٢١٢ـ العباسي العلوي(علي بن محمد) ـ سيرة الهادي في الحق،بيروت ١٩٧٢ .

٢١٣ـ ابن عبد الحق (صفي الدين عبد المؤمن) مراصد الاطلاع ، القاهرة ١٩٥٥ .

٢١٤ـ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن) ـ فتوح مصر وأخبارها ليدن ١٩٢٠ .

٢١٥ـ عبد الحميد (سعد زغلول) ـ تاريخ المغرب العربي، القاهرة ١٩٥٦ .

٢١٦ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ، القاهرة .

٢١٧ـ العبدري (أبو عبد الله) ـ رحلة العبدري، الرباط ، الرباط ١٩٦٨ .

٢١٨ـ ابن عبد الله (عبد العزيز) ـ مظاهر الحضارة المغربية،الدار البيضاء ١٩٥٧ .

٢١٩ـ عبد الملك (بطرس) ورفاقه ـ قاموس الكتاب المقدس ، بيروت .

٢٢٠ـ عبد الوهاب (حسن حسني) ـ خلاصة تاريخ تونس، تونس ١٣٧٣هـ •
٢٢١ـ ابن العبري (غريغوريوس) ـ تاريخ مختصر الدول ، بيروت •
٢٢٢ـ ابن العديم (كمال الدين عمر) ـ بغية الطلب، نسخة مصورة في خزانتي
ـ زبدة الحليب ، دمشق ١٩٥٨ •
٢٢٣ـ ابن عذاري (أبو العباس أحمد) ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، بيروت والرباط ، مع نسخة خطية في خزانتي •
٢٢٤ـ العذري (أحمد بن عمر) ـ نصوص من ترصيع الأخبار، مدريد ١٩٦٥ •
٢٢٥ـ ابن العربي (أبو بكر) ـ العواصم من القواصم، القاهرة ١٣٧١ هـ،
٢٢٦ـ ابن العربي (العواصم من القواصم) ، القاهرة ١٣٧١ هـ ، الجزائر ١٩٧٢ (نسخة مصورة في خزانتي)•
٢٢٧ـ العروضي (النظامي) ـ جهار مقاله ، القاهرة ١٩٤٩ •
٢٢٨ـ العزيز (حسين قاسم) ـ البابكية ، بيروت •
٢٢٩ـ العزيزي (أبو علي منصور) ـ سيرة الأستاذ جؤذر ، القاهرة ١٩٥٤•
٢٣٠ـ ابن عساكر (علي بن الحسن) ـ تبيين كذب المفتري ، دمشق •
ـ تاريخ دمشق ، دمشق ١٩٥١ ••••
(نسخة مصورة في خزانتي) •
٢٣١ـ ابن عسكر (محمد بن علي) ـ دوحة الناشر ، الدار البيضاء ١٩٧٦•
٢٣٢ـ العسكري (أبو هلال) ـ الأوائل ، دمشق •
٢٣٣ـ العظيمي (محمد بن علي) ـ تاريخ العظيمي، نسخة مصورة في مكتبتي •
٢٣٤ـ العقاد (عباس محمود) ـ ابن رشد ، نوابغ الفكر العربي، القاهرة •
ـ ابراهيم أبو الأنبياء ، القاهرة •
٢٣٥ـ العلوي (يحيى بن حمزة) ـ الافحام لأفئدة الباطنية الطغام، الاسكندرية •
٢٣٦ـ علي (جواد) ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بغداد ١٩٥٠ •

٢٣٧ـ العلي (صالح) ـ محاضرات في تاريخ العرب قبـل الاسلام ، بغداد ١٩٥٩ .

ـ التنظيمات الاجتماعية في البصرة ، بيروت .

ـ تنظيمات الرسول الادارية ، بغداد ١٩٦٩ .

٢٣٨ـ عليان (محمد عبد الفتاح) قرامطة العراق ، ١٩٧٠ .

٢٣٩ـ ابن العماد (عبد الحي) شذرات الذهب ، القاهرة ١٩٣٢ .

٢٤٠ـ عمر (فاروق) ـ طبيعة الدعوة العباسية ، بيروت .

ـ العباسيون الأوائل ، بيروت ، دمشق .

٢٤١ـ العمري (أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار ، أيا صوفيا ٣٣١٧ .

٢٤٢ـ ابن العميد (جرجس) تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥ .

٢٤٣ـ عنان (عبد الله) الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٤٤ـ ابن عياض (أبو عبد الله محمد) ترجمة القاضي عياض ، الرباط .

٢٤٥ـ عياض (أبو الفضل بن موسى) المدارك ، بيروت ، الرباط .

٢٤٦ـ العيني (البدر محمد) عقد الجمان ، مخطوطة بيازيد رقم ٢٣١٧ .

٢٤٧ـ ابن غازي(محمد بن أحمد) الروض الهتون في أخبار مكناسة الرباط ١٩٥٢ ، مع نسخة خطية في خزانتي .

٢٤٨ـ غالب (مصطفى) ـ تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، دمشق .

ـ الفارابي ، بيروت .

٢٤٩ـ الغبريني (أحمد بن أحمد) عنوان الدراية ، الجزائر ١٣٢٨ .

٢٥٠ـ غرايبه (عبد الكريم) العرب والأتراك ، دمشق ١٩٦١ .

٢٥١ـ غربال (محمد شفيق) ورفاقه الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة .

٢٥٢ــ الغزالي (أبو حامد) ــ فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة، القاهرة ١٩٦١ •
ــ فضائح الباطنية ، القاهرة ١٩٦٤ •
ــ قواصم الباطنية ، استانبول ١٩٥٤ •
ــ التبر المسبوك ، القاهرة ١٩٦٨ •
ــ احياء علوم الدين ، طبعة مصورة ، بيروت•
ــ مشكاة الأنوار ، القاهرة •
ــ تهافت الفلاسفة ، القاهرة •
٢٥٣ــ غلوب (جون باجوت) ــ الفتوحات العربية الكبرى ، بغداد •
٢٥٤ــ الفاخوري (حنا) الجاحظ ، نوابغ الفكر العربي ، القاهرة •
تاريخ الفلسفة العربية ، بيروت •
٢٥٥ــ الفارقي (ابن الأزرق) تاريخ الفارقي ، القاهرة ١٩٥٩ •
٢٥٦ــ فازلييف ، العرب والروم ، القاهرة •
٢٥٧ــ الفاسي (محمد) ــ الأعلام الجغرافية الأندلسية •
ــ الأعلام الجغرافية المغربية •
مجلة البينة ، الرباط ١٩٦٢ •
٢٥٨ــ أبو الفداء (اسماعيل بن محمد) ــ تقويم البلدان ، باريس ١٧٤٠ •
ــ المختصر في أخبار البشر، استانبول ١٨٦٩ •
٢٥٩ــ ابن فرحون (ابراهيم) ــ الديباج المذهب ، القاهرة ١٣٢٩ •
٢٦٠ــ الفردوسي (أبو القاسم) الشاهنامة ، القاهرة ١٩٣٢ •
٢٦١ــ فروخ (عمر) تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت •
تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، بيروت •
٢٦٢ــ الفشتالي (عبد العزيز) مناهل الصفا ، تطوان ١٩٦٤ •
٢٦٣ــ ابن فضلان (أحمد) رسالة ابن فضلان ، دمشق ١٩٦٠ •

٢٦٤ــ فلهوزن (يوليوس) ــ الدولة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ •
ــ الخوارج والشيعة ، القاهرة •

٢٦٥ــ فلوتن(فان) السيادة العربية والشيعة ، القاهرة ١٩٦٥ ، بيروت١٩٧٩•

٢٦٦ــ القادري (محمد بن الطيب) نشر المثاني ، الرباط ، ١٩٧٨ •

٢٦٧ــ القاسمي (ظافر) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ، بيروت ١٩٧٤ •

٢٦٨ــ ابن القاضي (أحمد) ــ جذوة الاقتباس ، الرباط ، المطبعة الملكية •
ــ درة الحجال ، الرباط ١٩٣٤ •

٢٦٩ــ ابن قاضي شهبه (بــدر الدين) الكواكب الدرية في السيرة النورية بيروت ١٩٧١ •

٢٧٠ــ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله) ــ كتاب المعارف ، القاهرة ١٣٠٠ •
ــ عيون الأخبار ، القاهرة ١٩٦٣ •
ــ الامامة والسياسة (ينسب له) •

القاهرة ١٩٦٣ •

ــ غريب الحديث ، تونس ١٩٧٨ •

٢٧١ــ قدوره (زاهية) ــ عائشة ، بيروت •
ــ الشعوبية ، بيروت •

٢٧٢ــ القرشي (الداعي ادريس) ــ عيون الأخبار وفنون الآثار ، بيروت ١٩٧٣ ••••

٢٧٣ــ القرشي (يحيى بن آدم) كتاب الخراج ، القاهرة •

٢٧٤ــ القزويني (زكريا بن محمد) آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠•

٢٧٥ــ ابن القطان (أبو الحسن علي) نظم الجمان في أخبار الزمان ، الرباط ١٩٤٠ •

٢٧٦ــ ابن القلانسي (حمزة) ذيل تاريخ دمشق ، بيروت •

٢٧٧ــ القلقشندي (أحمد بن علي) ــ صبح الأعشى ، القاهرة ١٣٣٨ •
ــ مآثر الانافة ، الكويت ١٩٦٤ •

٢٧٨ـ القمي (سعد) كتاب المقالات والفرق ، طهران ١٩٦٣ .
٢٧٩ـ ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت .
٢٨٠ـ القيرواني (أبو العرب محمد) طبقات علماء افريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ .
٢٨١ـ الكاشغري (محمود) ديوان لغات الترك ، استانبول ١٣٣٣ .
٢٨٢ـ آل كاشف الغطاء (محمد الحسين) أصل الشيعة وأصولها ، بيروت .
٢٨٣ـ كانار (موريس) نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني ، الجزائر ١٩٣٠ .
٢٨٤ـ كاهن (كلود) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، بيروت ١٩٧٢ .
٢٨٥ـ الكتاني (محمد بن جعفر) سلوة الأنفاس ، فاس ١٩١٦ .
٢٨٦ـ الكتبي (محمد بن شاكر) فوات الوفيات ، بيروت .
٢٨٧ـ ابن كثير (اسماعيل) ـ البداية والنهاية ، القاهرة ١٩٣٢ .
ـ تفسير ابن كثير ، طبعة مصورة ، بيروت .
٢٨٨ـ كحالة (عمر رضا) معجم المؤلفين ، بيروت .
٢٨٩ـ كرم (حنا) قصة الفلسفة اليونانية ، بيروت .
٢٩٠ـ الكرماني (أحمد حميد الدين) . المصابيح في اثبات الامامة ، بيروت ١٩٦٩ .
٢٩١ـ الكشي (محمد بن عمرو) رجال الكشي ، كربلاء .
٢٩٢ـ ابن الكلبي (محمد وابنه هشام) ـ النسب الكبير .
ـ جمهرة أنساب العرب . نسخة مصورة في خزانتي .
ـ الأصنام ، القاهرة ١٩٦٥ .
٢٩٣ـ كمال (أحمد عادل) فتوح الشرق بعد القادسية ، بيروت .
٢٩٤ـ الكندي (أبو عمر محمد) كتاب الولاة وكتاب القضاة ، بيروت ١٩٠٨ .
٢٩٥ـ كوتريل (ليونارد) زوجات الفراعنة ، بيروت .

٢٩٦ــ لويس (برنارد) ــ أصول الاسماعيلية ، بغداد ١٩٤٧ .
ــ الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، بيروت ١٩٧٢ .

٢٩٧ــ ماجد (عبد المنعم) ــ التاريخ السياسي للدولة العربية،القاهرة١٩٦٠.
ــ الحاكم بأمر الله ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٩٨ــ ابن ماكولا (أبو نصر علي) ــ الاكمال ، حيدر أباد ١٩٦٢ .

٢٩٩ــ المالكي (أبو بكر عبد الله) ــ رياض النفوس ، القاهرة ١٩٥١ .

٣٠٠ــ الماوردي (أبو الحسن علي) ــ الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٠ .

٣٠١ــ المبرد (أبو العباس) ــ الكامل في الأدب ، القاهرة .

٣٠٢ــ متز (آدم) ــ الحضارة العربية في القرن الرابع ، القاهرة ١٩٤٧ .

٣٠٣ــ المتنبي (أبو الطيب أحمد) ــ الديوان ، القاهرة ١٩٤٤ .

٣٠٤ــ المجلس الأعلى للعلوم ــ العالم أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، دمشق . الطبيب العربي عبد الملك بن زهر ، دمشق .

٣٠٥ــ (مجهول) ــ حوادث السنين ، مكتبة أحمد الثالث ٢٩٨١ .

٣٠٦ــ (مجهول) ــ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣٠٧ــ مجهول (مؤلف مراكشي من القرن السادس) ــ الاستبصار في عجائب الأمصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

٣٠٨ــ مجهول(مؤلف في القرن الثامن) ــ نبذة في أخبار البربر، الرباط ١٩٣٤.

٣٠٩ــ مجهول ــ أخبار مجموعة في فتح الأندلسي ، مدريد ١٨٦٧ .

٣١٠ــ مجهول ــ العيون والحدائق ، ليدن ١٨٦٩ ، دمشق ١٩٧٤ .

٣١١ــ مجهول ــ أخبار الدولة العباسية ، بيروت ١٩٧١ .

٣١٢ــ مجهول (من القرن الحادي عشر) ــ تاريخ الخلفاء ، موسكو ١٩٦٦ .

٣١٣ـ ابن محمد (القاضي النعمان) ـ اختلاف أصول المذاهب، بيروت ١٩٧٣
ـ الأرجوزة المختارة، مونتريال ١٩٧٠ .
ـ دعائم الاسلام مع التأويل، القاهرة .
ـ رسالة افتتاح الدعوة، بيروت ١٩٧٠ .
ـ الرسالة المذهبة، نسخ خطية في خزانتي .
ـ المجالس والمسايرات، تونس ١٩٧٨ .
ـ الاقتصاد ، دمشق .
٣١٤ـ المدني (أحمد توفيق) ـ المسلمون في جزيرة صقلية ، الجزائر ١٣٦٥ .
٣١٥ـ المراكشي (عبد الواحد) ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة ١٩٦١ .
٣١٦ـ ابن المرتضى (أحمد بن يحيى) ـ كتاب المنية والأمل في شرح الملل والنحل بيروت ١٩٧٩ .
٣١٧ـ مرحبا (د. محمد عبد الرحمن) ـ من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة العربية ، بيروت .
ـ المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، دمشق .
ـ الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، بيروت .
٣١٨ـ ابن مرزوق (أبو عبد الله محمد) ـ مقدمة المسند الصحيح الحسن دمشق ١٩٨٠ .
ـ منتخبات من المسند الصحيح الحسن الرباط ١٩٢٥ .
٣١٩ـ ابن مريم ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر ١٩٠٨ .
٣٢٠ـ ابن المعمار (أبو عبد الله محمد) ـ كتاب الفتوة ، بغداد ١٩٦٠ .
٣٢١ـ المسعودي (أبو الحسن علي) ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر
ـ التنبيه والاشراف، بيروت ١٩٦٥ .
٣٢٢ـ مسكويه (أحمد بن محمد) ـ تجارب الأمم وذيله ، القاهرة ١٩١٤ .
٣٢٣ـ المسبحي (محمد بن عبيد الله) أخبار مصر، نسخة مصورة في خزانتي .

٣٢٤ـ مصطفى (شاكر) دولة بني العباس ، الكويت .
٣٢٥ـ المعاضيدي (خاشع) ـ دولة بني عقيل في الموصل ، بغداد ١٩٦٨ .
٣٢٦ـ المعري (أبو العلاء) ـ رسالة الغفران ، القاهرة .
٣٢٧ـ التراث العلمي العربي ـ الندوة العالمية لتاريخ العلوم ضد العرب، حلب
٣٢٨ـ المقدسي (محمد بن أحمد) ـ أحسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ .
٣٢٩ـ المقري (شهاب الدين أحمد)ـ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض
طبعة مصورة الرباط .
ـ نفح الطيب ، القاهرة ١٣٦٣ .
ـ روضة الآس، الرباط المطبعة الملكية.
٣٣٠ـ المقريزي (أحمد بن علي) ـ اتعاظ الحنفاء، نسخة مصورة في مكتبتي.
ـ المقفى ، نسخة مصورة في مكبتي .
ـ الخطط ، القاهرة ١٩٠٨ .
٣٣١ـ ابن المقفع (ساويرس) ـ تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، القاهرة ١٩٥٩ .
٣٣٢ـ الملا (أحمد علي) ـ أثر العلماء المسلمين بالحضارة الاوربية، دمشق.
٣٣٣ـ الملطي (محمد بن أحمد) ـ التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
بغداد ١٩٦٨ .
٣٣٤ـ ابن منبه (كتاب) ـ التيجان في ملوك حمير ، حيدر أباد ١٣٤٧ هـ .
٣٣٥ـ المنجد (صلاح الدين) ـ المنتقى من دراسات المستشرقين ، بيروت .
ـ معجم بني أمية ، بيروت ١٩٧٠ .
٣٣٦ـ ابن منصور (جعفر) كتاب الكشف ، اكسفورد ١٩٥٢ .
٣٣٧ـ مؤنس (حسين)ـ فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٨ .
ـ فجر الاندلس ، القاهرة .
٣٣٨ـ المؤيد في الدين (هبة الله بن موسى) ـ سيرة المؤيدين في الدين ، القاهرة ١٩٤٩ .
ـ المجالس المؤيدية ، القاهرة
١٩٧٦ .

٣٣٩ـ الميداني (أحمد بن محمد) ـ مجمع الأمثال ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣٤٠ـ مير سليم (اسماعيل بن محمد أمين) ـ ذيل كشف الظنون ، بيروت .
٣٤١ـ ابن ميسر (محمد بن علي) ـ أخبار مصر القاهرة ١٩١٩ .
٣٤٢ـ ناجي (عبد الجبار) ـ الامارة المزيدية ، البصرة ١٩٧٠ .
٣٤٣ـ الناشىء الأكبر ـ مسائل الامامة ، بيروت ١٩٧١ .
٣٤٤ـ النديم (ابن النديم ـ أبو الفرج محمد ـ الفهرست) طهران .
٣٤٥ـ النوبختي (الحسن بن موسى) كتاب فرق الشيعة، استانبول ١٩٣١ .
٣٤٦ـ النرشخي (أبو بكر محمد) ـ تاريخ بخارى ، القاهرة ١٩٦٥ .
٣٤٧ـ النويري (شهاب الدين أحمد) ـ نهاية الارب في فنون الأدب، القاهرة ١٩٢٣ .... مصورة من مخطوطة الكتاب في خزانتي .
٣٤٨ـ نيلسن (ديتلف ورفاقه) ـ التاريخ العربي القديم ، القاهرة ١٩٥٨ .
٣٤٩ـ هارت (مايكل) ـ المائة الأوائل ، دمشق .
٣٥٠ـ ابن هانىء (محمد) ـ الديوان ، بيروت ١٩٥٢ .
٣٥١ـ ابن هشام (عبد الملك) ـ السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٥٥ .
٣٥٢ـ الهمذاني(القاضي عبد الجبار) ـ تثبيت دلائل النبوة، بيروت١٩٦٦ .
٣٥٣ـ هونكه (زيغريد) ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، بيروت .
٣٥٤ـ ابن أبي الهيجاء ـ تاريخ ابن أبي الهيجاء ، المكتبة الأحمدية بتونس ٩٥١٤ .
٣٥٥ـ ابن الوردي(عمر) ـ تتمة المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٩٦٨ .
٣٥٦ـ ابن واصل الحموي (محمد بن سالم) ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب القاهرة ١٩٥٣ ....
٣٥٧ـ الواقدي (محمد بن محمد) ـ كتاب المغازي ، اكسفورد .
٣٥٨ـ ابن الوليد (علي) كتاب الذخيرة في الحقيقة ، بيروت ١٩٧١ .

٣٥٩ـ اليافعي (محمد بن عبد الله) ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، حيدر أباد ١٩١٩ •

٣٦٠ـ اليامي (محمد بن حاتم) ـ كتاب السمط الغالي الثمن، بيروت ١٩٧٤ •

٣٦١ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) ـ تاريخ اليعقوبي، بيروت ١٩٦٠ •

٣٦٢ـ اليفرني (محمد الصغير) ـ نزهة الحادي، طبعة مصورة الدار البيضاء •

٣٦٣ـ أبو يوسف القاضي (يعقوب) ـ كتاب الخراج ، القاهرة •

٣٦٤ـ اليوسي (أبو علي الحسن) ـ المحاضرات ، فاس ١٨٩٩ •

٣٦٥ـ يونس (هيام) ـ الغزالي ، دمشق •

٣٦٦ـ ملاحظة : هناك مصادر كثيرة للغاية بغير العربية لم آت على ذكرها •



المحتـــوى

هـذا الكتاب

ـ يرى أن النبي محمد ﷺ هو الأول المطلق في كل ميدان ومجال ، لهذا افتتح بذكر سيرته العطرة .

ـ يبحث في قضايا تاريخ أمتنا وماضيها مـن خلال أفراد لكنه لا يمجد دور الفرد البطل ولا يلغي هذا الدور .

ـ قائم على اعتبار أن علم الأوائل علم عربي أصيل .

ـ إنه الأول من نوعه يعالج التاريخ العربي بروح قرآنية محمدية تراثية شمولية علمية حديثة .